سليم حسن

موسوعة مصر القديمة

الجزء الخامس

موسوعة مصر القديمة (الجزء الخامس)

السيادة العالمية والتوحيد

تأليف
سليم حسن



موسوعة مصر القديمة (الجزء الخامس)

سليم حسن

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي.

الترقيم الدولي: ٨ ١٥٤٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

تمهيد

كانت آخر مرحلة وصلنا إليها في مطافنا في تاريخ أرض الكنانة وحضارتها في الجزء السالف هي عصر «أمنحتب الثاني»، الذي يُعدُّ في نظر المؤرِّخين بحقٍّ آخِرَ أبطال فراعنة مصر الذين امتَشَقوا الحسام، ودوَّخوا الأمم المجاورة التي خرجتْ على الحكم المصري في النصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة. من أجْل ذلك كانتْ مدة حُكمِه خاتمة عهد الحروب الطاحنة، التي بدأها «أحمس الأول» في آسيا وفاتحة عصر جديد في تاريخ مصر والشرق معًا. ولا نزاع في أن عهد خَلَفِه «تحتمس الرابع» كان باكورة مرحلة جديدة في حياة الشعب المصري وحضارته التي امتازت بطابع جديد لم يُعهَد من قبلُ في تاريخ الأمة المصرية منذ فَجْر تاريخِها. فقد أغمد فراعنتُها السيوفَ في قِرابِها، وسُرِّحت الجيوش إلى أوطانها، وبدءوا يَجنُون ثِمارَ تلك الانتصارات الساحقة والفتوح الشاسعة التي أحرزها آباؤهم الفاتحون، وعلى رأسهم «تحتمس الثالث» المؤسِّس الأعظم للإمبراطورية المصرية، أوَّل إمبراطورية في العالم.

فقد جعل هيبة مصر والفزع منها يَدِبُّ في قلوب ممالك الشرق القديم قاصيها ودانيها. وما لبثتْ بعد ذلك أن أخذتْ تلك الممالك المجاورة تَدِين للكنانة بالطاعة وتَحمِل إليها الهدايا تارة، والجِزْية تارة أخرى، كما أخذ جنود الحاميات المصرية الذين رابطوا في أمهات المدن والمعاقل في بلاد سوريا وفلسطين شمالًا، وبلاد النوبة و«كوش» جنوبًا يجلبون إلى بلادهم من خيرات تلك البلاد ما وصلتْ إليه أيديهم، وما قدَّره لهم سلطانهم وبطْشُهم. والواقع أنهم عرفوا بحبوحة الثراء الذي كان يفيض عليهم من هذه الأصقاع، ودبَّ في نفوسهم وأرواحهم الرخاوة التي تُسبِّبها الثروة الوفيرة، والأرزاق الكثيرة، والبطالة المضلِّلة، والفراغ المغري، حتى فسدت أخلاقُهم وذهبت عنهم ريحُ البطولة الحربية وحب الفتح والمغامرة. وقد ضرب لهم المثل الأعلى في ذلك ملوكُهم الذين يعيشون على مجْد

أسلافهم العظام. غير أن هؤلاء الفراعنة مع ذلك لم تُعوِزْهم الحِيَل ولا السياسة في حفظ كيان إمبراطوريتهم العظيمة والرفع من شأنها وبقاء سلطانها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا من غير أن يمتشقوا الحسام.

وقد كانت الأحوال مهيأة لهم وقتئذٍ، إذ كانت كل الممالك المجاورة لا تزال لَدْنة العُود لم تبلغ من القوة والبطش ما كانت عليه مصر وقتئذٍ. وقد انتهز ملوك مصر الذين كانوا لا يريدون الحرب ولا يميلون إليها هذه الفرصة، فأخذوا يعقدون مع هذه الأمم المحالفات، ويخطبون صداقتها بمختلف الطرق وشتى الأساليب المغرية؛ مما هيَّأ لمصر البقاء فترة طويلة حاملة لواء السيادة في العالم القديم قاطبة. ومن أهمِّ الأساليب المبتكرة التي انفرد بها فراعنة مصر وقتئذٍ لإحكام أواصر المصادقة والمهادنة رباط المصاهرة، ثم الذَّهَب البرَّاق الذي كانت تزخر به أرض مصر وممتلكاتها النوبية. وكان أول مَن اتَّبع هذه السياسة الفرعون «تحتمس الرابع»، الذي تزوج من أميرة متنية، وكان بذلك أول مَن ضرب بالتقاليد الفرعونية عرض الحائط، إذ كان على الفرعون منذ أقدم العهود أن يحتفظ بالدم الإلهي يجري في عروق أسرته وحدها، وأن يكون زواجه منحصرًا في دائرة البذرة الفرعونية الخالصة التي كانت على حسب الأساطير منحدرة من ظهر الإله «رع»، أول مَن حكم مصر بالعدل والإحسان، حتى إنه كان يُبيح لنفسه زواجه من أخته، بل ومن بنته أيضًا.

ومِن ثَمَّ نرى أن اختلاط مصر بالأمم المجاورة جعلها تتحرر من سياج التقاليد الموروثة التي ظلت حبيسة فيها عشرات القرون. ولقد كانت المغريات وطبائع الأحوال وسُنَن الرُّقِيِّ والتقدُّم تحتِّم على مصر وملوكها الخروج من هذا الحصار الذهبي الذي ضربتْه على نفسها في مصر إلى العالم الخارجي، الذي بسط أمامها صفحة جديدة لم يتمتع أهلها بمثلها منذ ظهروا على أفق التاريخ. وقد كانت هذه النهضة الجديدة لخير مصر في بادئ الأمر؛ إذ ازدهرت البلاد وعمَّها الخير من كل النواحي، وفي كل ميدان من ميادين التقدم العمراني الذي ينجم عادة من اختلاط أمم متحضرة بعضها ببعض؛ ومن أجل ذلك نرى أن كل ما كان في البلدان المجاورة من صناعات وفنون وعلوم وثقافات قد انتفعت بها مصر، مما أضفى على الحضارة المصرية القديمة ثوبًا جديدًا لم تلبسه من قبل. كما أن الأمم المجاورة من جهة أخرى أخذت عن مصر الشيء الكثير من ثقافتها وحضارتها؛ مما أنعش نفوس أقوامها ومهد لهم السبيل إلى السير في مدارج الرقي مما أيقظهم من رقدتهم وجعلهم يعملون على التحرر من الحكم المصري الذي لم يكن في مجموعه جائرًا إذا قيس بما نراه اليوم من عسف الأمم القوية وبطشها بالدويلات الصغيرة.

وقد ظل الحكم المصري على نهجه الجديد متخذًا سياسة المصاهرة والتحالف مع الأمم المجاورة خلال حكم «أمنحتب الثالث»، الذي ضرب المَثَل الأعلى في مصاهرته لملوك الدول العظيمة وبخاصة «بابل» و«خيتا» و«متني»، فسارتِ الأحوال في ظاهرها على ما يُرام، ولكن فاته أن هذه الأمم كانت تشبُّ وتنمو ويعظُم سلطانُها على مرِّ الأيام مسايرة لسُنَن الرقي، فتزداد أطماعها ويعظم جشعها، كما فاته أن الإمارات التي كانت خاضعة لمصر أخذ يَدِبُّ في نفوس أقوامها روح الاستقلال؛ لانصراف مصر وحكامها عنها من جهة، ومن جهة أخرى أخذت الإمارات القوية منها تُغِير على الضعيفة، وبخاصة عندما رأى أمراؤها أن مصر قد أصبحت متهاونة في أمر المحافظة عليها، وأن جيوش الفرعون أصبحت لا يُحفَل بقوتها ولا يُعتدُّ ببطْشها. وكان الفرعون من جانبه لا يهتم إلا بجمع الضرائب وإقامة العمائر في الديار المصرية، والمحافظة على صداقة الأمم المجاورة له ما استطاع لذلك سبيلًا دون أن يستلَّ سيفَه في وجه أي إمارة ثائرة.

والواقع أن في عهد «أمنحتب الثالث» كانت الإمبراطورية المصرية في ظاهرها صاحبة السيادة العالمية، تعيش على ماضيها المجيد بما تركه «تحتمس الثالث» من هيبة وخوف في نفوس الأمم المجاورة لبلاده، وفي الأقاليم التي فتحها بحدِّ السيف وحسن السياسة؛ غير أن عوامل الانحلال كانت تسري في دمها بسرعة مدهشة. وإذا كانت الأشياء تُقاس بأشباهها في عصرنا الحالي فإنه في استطاعتنا أن نشبِّه إمبراطورية «أمنحتب الثالث» بالإمبراطورية الإنجليزية الحالية من بعض الوجوه. فقد قامت دولة الإنجليز بما كان لها من سيادة بحرية، وبما أحرزه بحارتها العظام في أول أمرها على منافستها إسبانيا من فتوح ومدِّ سلطان عدَّة قرون، ولم يكن لينافسها في هذا المضمار أمة أخرى بعد ذلك، حتى أصبحت سيدة البحار، فعظمت مستعمراتها وهابتْها الدول الأخرى التي كانت أقلَّ منها نفوذًا وسلطانًا، ولكنها عندما شعرتْ بنمُوِّ الأمم التي تُنافِسها أخذت في العمل على استبقاء عظمتها بالمحالفات الودِّية والسياسة الحكيمة في حكم مستعمراتها. ولكن الزمن كان ولا يزال يسير بخطواته السريعة في رقي الدول ومبادئها الإنسانية القويمة وجعل الأمم الضعيفة تأخذ من أسباب القوة والأمم الناشئة تهيِّئ لنفسها مكانة تتفق مع شبابها، وما لها من آمال في المستقبل ومناهضة مَن يقف حجر عثرة في سبيل تقدُّمها، واتخاذ مكانة لائقة بها. ومِن ثَمَّ أخذت الدولة الإنجليزية تنحلُّ وتضعف أمام تيار المبادئ القوية التي تغمر العالَم، وهي بلا شك سائرة في طريقها المنحدرة إلى أن تتساوى بغيرها من الدول التي كانت صاحبة السيادة عليها كما حدث لمصر بعد عهد «إخناتون»؛ إذ قد

أصبحت دولة ثانوية بالنسبة لجيرانها. على أنه لا يمكننا أن نجزم بالوقت الذي تنزل فيه هذه الدولة نهائيًّا من عليائها إلى المستوى الطبعي التي هي سائرة نحوه، مستوى الشيخوخة والهَرم. ولو أُتيح لمصر فراعنة على غرار «تحتمس الرابع» و«أمنحتب الثالث» في تلك الفترة لامتدَّ بقاء سلطانها الاسمي وهيبتها الظاهرة مدةً أخرى من الزمن، ولكن شاءتِ الأقدار أن يتربَّع على عرشها بعد «أمنحتب الثالث» فتًى في مقتبل العمر وشَرْخ الشباب، لم تكن تُهمُّه السياسة كما يهمُّه أمْرُ مذهبه الديني الجديد. وتدلُّ شواهد الأحوال على أنه كان قد نُشِّئ تنشئة دينية خاصة ورث مبادئها عن والده وجدِّه. وكان لبُّها كُرْهَ كَهَنَة «آمون» الذين طغى سلطانُهم على البلاد، وعظمت ثروتهم حتى أصبحوا بما لهم من نفوذ مملكةً داخل مملكةٍ ليس للفرعون عليها سيطرة أو سلطان حقيقي. وقد حاول كلٌّ من الفرعونين السالِفَيِ الذكر الخضد من شوكة هؤلاء الكهنة والقضاء على نفوذهم فلم يستطيعا لذلك سبيلًا. فلما تولَّى «أمنحتب الرابع» عرش الملك ورث كراهية هذه الطائفة عن والده وجدِّه، وقد كان من رأيهما إحياء عهد الإله «رع» الذي يُعدُّ أول مَلِك حكم مصر بالقسطاس المستقيم لمناهضة «آمون» وشيعته، وبذلك بدأ على ما يَظهَر كهنة هذا الإله ينتعشون، كما أخذوا يمدون يد المساعدة للفرعون للقضاء على شيعة «آمون» وأنصاره.

وكان الجو العالَمي والوعي القومي مهيئين لهذه الفكرة بعض الشيء، وبخاصة أن المصري كان يعرف أن معنى ديانة «رع» العدالة والصدق في كل شيء. والواقع أن «أمنحتب» لما تسلَّم زمام الأمور في البلاد وجد أن والده وجدَّه كانا قد سارا نحو إعادة توحيد الإله «رع» في صُوَره المختلفة؛ ومن ثَمَّ نعرف أن الإصلاح الذي أخذ «إخناتون» على عاتقه القيام بإعلانه لم يأتِ فجأة، بل جاء على مهل وبخطوات وئيدة متزنة متلاحقة انتهت بوصوله للغاية التي كان ينشد تحقيقها. فقد رأى بثاقب عقله، كما رأى أسلافه من قبل، أن الإله المسيطر على العالَم أجمَعَ ويُشرِف عليه في كل البقاع هو الإله «رع»، الذي يتمثَّل في قرص الشمس (آتون). وكان هذا الإله يتخذ أشكالًا متعددة وأسماء مختلفة؛ فكان يُسمَّى «رع»، ويُسمَّى «رع حور الأفق»، ويُسمَّى «رع خبر» (أيْ إله الوجود)، كما كان يُصوَّر في صورة صقر وفي صورة إنسان برأس صقر وهكذا. وقد رأى «أمنحتب» في بادئ أمْرِه أن يُميِّز إلهَهُ على الآلهة الأخرى، فرمز له بصورة قُرْص الشمس الذي تتدلَّى منه أشعة بأيدٍ بشرية مانحة الخيرات، وجعله قوةً خَفِيَّة تَظهَر عظمتُها ومقدار نفوذها في هذا القرص المادي المجسَّم. وقد كان في بادئ الأمر يُدعَى «حور أختي» (حور الأفق) و«رع» بجانب اسمه «آتون». ثم تدرَّج بعد ذلك خطوة أخرى فسمَّاه «آتون» فقط،

وأقام له المعابد في أنحاء البلاد، ولم يُعارِض في ذلك كهنة «آمون»؛ لأن إلهَهُم كان يُسمَّى «آمون رع» الذي يمثِّل إلهَ الشمس أيضًا، ولكنْ لم يلبثْ أنْ أخَذَ «أمنحتب» يُنكِر وجود الإله «آمون»؛ لأنه لا يتفق مع فكرة الوحدانية التي كان يمثِّلها إلهُه الخفي الذي كان يرمز له بقرص الشمس، هذا فضلًا عن أنه كان لا يُمثَّل في صورة صنم قط، فقام بحملة جبارة على آمون وأصنامه وعاداته وشعائره فمَحَاها من الوجود. وهشَّم تماثيلَه واسمَه أينما وُجد، ولذلك غيَّرَ اسمَه من أمنحتب إلى إخناتون (سرور آتون). وبعد ذلك حمل حملته الأخيرة الشاملة على جميع الآلهة الأخرى، فحرَّم عبادتَها وقضى على كل الشعائر التي كانت تُقام لها، ومَحَا لفظة «آلهة» أينما وُجدت في كل أنحاء إمبراطوريته. ولما كانتِ المقاومة على ما يَظهَر شديدة في «طيبة» هجرها وأقام لنفسه عاصمة جديدة وسماها «إختاتون»؛ أيْ أفق آتون (تل العمارنة الحالية)، وهناك أقام المعابد لإلهه الجديد الذي كان يرمز له بقرص الشمس، وجعل مبادئه «العدالة» و«الحق» و«الصدق»، كما حرَّم تصوير إلهه في أي صورة كانت. وأخذ في إقامة المعابد له في جميع أنحاء الدولة المصرية، ونشر فيها تعاليمه. وقد كان لهذه المبادئ أثرُها الظاهر في كل نواحي الحياة المصرية وبخاصة في الفن الذي أصبح يمثل الأشياء على حقيقتها، لا على حسب القواعد الجافة المتبعة منذ أقدم العهود. ويرجع السبب في ذلك إلى أن هذا الفرعون كان يريد أن يَسِير على منهاج الصدق والحقائق كما هي، لا يرى إلا إلهًا واحدًا خالقًا لكل شيء ولم يخلقه أحدٌ. ولسنا مبالِغِين إذا عددنا «إخناتون» أول شخصية في التاريخ أبرز فكرة التوحيد في معناه الحقيقي كما نفهمه، فقد كان يسير على أسس قوامها أن الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي برأ ما في السموات والأرض لا شريك له. وتدل كل الشواهد على أن هذه العقيدة قد انتقلت إلى آسيا وضربتْ بأعراقها فيها، وبخاصة أن «موسى» — عليه السلام — قد تعلَّم في مصر، فكان من الأنبياء المتعلِّمين الذين جاءوا بعد «إخناتون» وورثوا عنه فكرة التوحيد المُنزَّلة.

غير أن هذه التعاليم لم يَطُلْ أجلُها بعد موت «إخناتون»؛ إذ لم تكن قد تغلغلت في نفوس الشعب، وبخاصة أن معظم أتباعه لم يكونوا قد أُشرِبوا عقائدَه الحقَّة، بل كانوا قد اتَّبعوه لأنه الفرعون صاحب القول الفصْل وحسب، وأن رجال كهنة آمون كانوا لا يزالون متسلِّطين على عقول الشعب ومتعصِّبين لعقائدهم التي ساروا عليها منذ فجر التاريخ، ولذلك لما أظهر الملوك الذين خلفوا «إخناتون» ضعفَهم أمام كهنة آمون، وكثرت الخلافات حول مَن يتولَّى العرش بعد موت هذا العاهل، أَعطَى كلُّ ذلك الفرصة لكهنة

«آمون» وأتباعه للتغلب على أتباع «آتون»، ومحو عبادته ثانية، وإعادة عبادة «آمون» كما كانت من قبل. وقد سهَّل الأمرَ لكهنة «آمون» فضلًا عما ذكرنا أن الأسرة المالِكة كانت قد انقرضتْ بموت «توت عنخ آمون»، وتولى زمام الأمور في مصر جنديٌّ عظيمٌ ممَّن كانوا يَنتَمون لعبادة «آمون» من قبل الانقلاب الذي أحدثه «إخناتون». وهذا الجندي هو «حور محب» الذي رجعت في عهده عبادة «آمون» إلى مكانتها الأولى، وكذلك أخذ الآلهة الآخرون مكانتهم السالفة.

وقد كان من جرَّاء انهماك «إخناتون» في بثِّ مبادئه الدينية التي تُعَدُّ بحقٍّ في نظرنا المبادئ الحقَّة التي يتمثل فيها كل صفات الوحدانية القويمة التي لا يتسرب إليها أي شك — وإن كانت في نظر المصري القديم تُعدُّ مبادئ الزيغ والكفر — أن ترك «إخناتون» أمر سياسة إمبراطوريته ظِهْريًّا فانتشرت فيها الثورات وتخطفتْها الدول الفتية التي كانت آخذة في الظهور حول بلاده، فانتقصتْها من أطرافها شيئًا فشيئًا خفية وبخاصة بلاد «خيتا» ونهرين، وبابل، التي كانت في بادئ الأمر على وُدٍّ وصفاء مع مصر، ولكن ما لبثت أن قلب بعضها ظَهْرَ المجنِّ للفرعون عندما آنس فيه الضعف وأخذ يُغِير على ممتلكاته جهارًا، فكان لبلاد «خيتا» نصيب الأسد. وقد وَضعتْ أمامنا الكشوف الأثرية التي ظهرت في مصر وفي بلاد «خيتا» صفحةً من أروع الصفحات في تاريخ الشرق القديم، وبخاصة في الأصقاع التي تشمل ما يُسمَّى الآن الوحدة العربية. ففي مصر كشفت خطابات «تل العمارنة» التي كتبت بالخط المسماري وهي التي تُبُودلت بين مصر وحكام سوريا وفلسطين وبلاد «نهرين» و«بابل» و«خيتا»، وفي بلدة «بوغاز كوي» (خاتوشا) عاصمة بلاد «خيتا» الواقعة في قلب آسيا الصغرى عثر على سجلات وزارة خارجية مملكة «خيتا»، وما دار بينها وبين مصر وأمم الشرق من مكاتبات. ومن الغريب المدهش أن هذه الوثائق كلها تقدم لنا صورة عن بلاد «خيتا» تكاد تشبه في كثير من الوجوه مركز مصر الممتاز بالنسبة لهذه الدول مما سيراه القارئ مفصَّلًا في مكانه.

ولقد حاولنا في تفصيل الحقائق السالفة الذكر أن نورد المصادر الأصلية التي اعتمدنا عليها بقدر ما سمحت به الأحوال، من الوثائق المصرية «وخطابات تل العمارنة» وسجلات «بوغازي كوى»، كما أننا أسهبنا في كثير من الموضوعات رغبة في أن نضع أمام القارئ الباحث صورة واضحة عن هذا العصر الذي يُعدُّ أزهى عصور تاريخ مصر من حيث علاقاتها الخارجية مع بلاد الشرق التي تسعى لتؤلِّف وحدة متماسكة تقاوم بها عدوان الدول الغربية القوية، كما أنه يُعدُّ الفترة التي ظهرت فيها فكرة التوحيد بمعناها الحق.

هذا بالإضافة إلى أنه في هذا العصر أيضًا رأينا الفراعنة يقرِّبون أبناء الطبقة الدنيا من الشعب إليهم، ويتَّخِذون منهم أعوانًا وبطانة كما كانوا يتخذون منهم مربِّيات ووصيفات وخليلات، وقوَّادًا للجيش وضبَّاطًا بقصد مقاومة طبقة الموظَّفين الذين كانوا قد كوَّنوا لأنفسهم طائفة بيروقراطية قوية استحوذت على كل مرافق البلاد. وقد انتهى الأمر بأن زُحزحت هذه الطبقة شيئًا فشيئًا برجال الجيش الذين احتلُّوا كلَّ الوظائف الكبرى، وفي آخر المطاف تولَّى المُلْك واحدٌ منهم، وهو «آي» ثم خلَفَه «حور محب»، وهو جندي قوي ومُشرِّع كبير وضع للبلاد تشريعًا عظيمًا، أصبح فيما بعدُ مَضربَ الأمثال، وقبل وفاته أوْصَى بالُمْلك لقائد جيوشه «رعمسيس» الذي أسَّس الأسرة التاسعة عشرة، وهي التي أقالَتْ مصر من عثرتها على أيدي فراعنتها، واستردَّتِ الشيء الكثير من مجْدِها الغابر بفضل «سيتي» الأول و«رعمسيس الثاني» العظيم. وسيكون ذلك موضوع الجزء التالي، إن شاء الله.

شكر

وإني أتقدَّم هنا بعظيم شكري لصديقي الأستاذ محمد النجار ناظر مدرسة سمدون الأميرية؛ لما قام به من مراجعة أصول هذا الكتاب، وقراءة تجارِبِه بعناية بالغة، كما أتقدَّم بوافر الثناء على حضرة الأستاذ محمد نديم مدير مطبعة دار الكتب المصرية؛ لما بذله من جهد مشكور وعناية ملحوظة في إخراج هذا المؤلَّف، ولا يَسَعُني إلا أن أقدِّم شكري للأستاذ محمد إبراهيم نصر الذي أبدَى عناية في كتابة أصول هذا الكتاب وبذَلَ مجهودًا مشكورًا في قراءة تجاربه كلها وعمل الفهارس معي.

واللهَ أسأل أن يوفقني إلى ما فيه خير البلاد ومجدها.

نوفمبر سنة ١٩٤٨

مقدمة

قد يبدو غريبًا لأول وهلة ما ذهبنا إليه من اتخاذ عهد حكم «تحتمس الرابع» بداية عصر جديد في سياسة النصف الثاني من حكم الأسرة الثامنة عشرة؛ ولكن لدينا من الأسباب والمبررات ما يعضد ما ذهبنا إليه ويجلو غرابته. فقد نوَّهنا في الجزء الرابع من هذا المؤلف أن «أمنحتب الثاني» كان آخر فرعون — على ما نعلم — حارب فلول الهكسوس الذين استوطنوا بلاد آسيا بعد أن أجلاهم «أحمس الأول» عن أرض الكنانة جملة. ولا نزاع في أن «أمنحتب الثاني» كان قد قضى على البقية الباقية من أمراء الأقطار الآسيوية المنتسبين لقوم الهكسوس؛ ولذلك لما تولى «تحتمس الرابع» لم يَجِد أمامَه عقبات قائمة تُذكَر في إخضاع مَن ثار من أمراء سوريا، بل وجد أمامَه أحوالًا مهيأة للسَّيْر على سنن سياسة جديدة رشيدة في معاملة مَن حوله من الأمم الفتية القوية التي كانت تحيط بإمبراطوريته. وقد كان قوام هذه السياسة المصادقة والمهادنة والود الذي مكنتْ أواصره ووثقت عُرَاه بالمصاهرة بينه وبين أقوى هذه الدول.

والواقع أن «تحتمس الرابع» كان أول فرعون خرج على تقاليد آبائه منذ القِدَم؛ إذ نراه يُناشِد ملك «متني» الود ويطلب إليه الزواج من ابنته. وقد كانت نتيجة هذا الزواج أن توثقت عُرَى المحبة والصداقة بين البلدين، وسنرى بعدُ أن هذه السياسة الحكيمة قد قَفَا أثرَها أخلافُ «تحتمس الرابع» مما أدَّى إلى بسط سلطان مصر ونفوذها بالطرق السلمية على جميع العالم المتمدين حتى أصبحت سيادة مصر سيادة عالمية لا يُنازِعها فيها منازع فترة طويلة من الزمان.

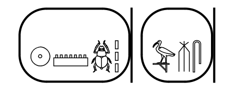
ومن جهة أخرى يدل ما لدينا من معلومات على أنه قد ظهر في عهد «تحتمس الرابع» علامات واتجاهات في الفكر لتيارات خفية تسير ببطء وعلى مهل، مبشرة بقيام انقلاب إصلاحي ديني سامٍ غرضه القضاء على الوثنية جملة، والاعتراف بإله واحد فرد صمد.

وقد أخذت بذور هذه العقيدة تضرب بأعراقها في عقول أصحاب الفكر في مصر منذ عهد «تحتمس الرابع» حتى نضجتْ وآتتْ أُكُلَها في عهد «أمنحتب الرابع»، الذي تَسمَّى بإخناتون، كما سنفصل فيه القول في حينه.

هذه هي الأسباب والمبررات التي حَدَتْ بنا لاتخاذ عهد «تحتمس الرابع» فاتحة عصر جديد في سياسة مصر العالمية والدينية.

تحتمس الرابع

١٤١٥–١٤٠٥



من بين اللوحات الكثيرة التي كشفتْ عنها أعمال الحفر التي قامت بأعبائها الجامعة المصرية حول معبد «بوالهول» ثلاث لوحات تلفت النظر، غير لوحة «أمنحتب الثاني» العظيمة التي تحدثنا عنها. فإن هذه اللوحات أجمل شكلًا، وأدقُّ صناعة من اللوحات الأخرى التي أهداها الموظفون لتمثال «بوالهول»، وقد مثل على كل منها شاب من عِلْية القوم، بل أمير يقدِّم قربانًا لتمثال «بوالهول» ولتمثال المَلِك. وفي لوحتين منها كان الملك المقدم إليه القربان هو «أمنحتب الثاني»، وفي ثلاث اللوحات قد مُحِي عَمْدًا اسم الأمير، وفي واحدة منها كان اسم الأمير موضوعًا في طُغْراء. وقد مُحي اسم الأمير بدقة وعناية بحيث لم تُمَسَّ كلمة من الكلمات التي مع الاسم بأي سوء، كما أنه قد اتُّخذت الحيطة فلم يضر رمز من الرموز المقدسة، ومن ذلك نفهم أن هذا المحو قد قام به شخص يحمل في صدره ضغينة شخصية لأصحاب هذه اللوحات، كما أنه لا يحمل أي حقد على الفرعون أو الإله الذي صور على اللوحة، ومِن ثَمَّ نعلم أن هذا العمل لم يكن من جانب رجال «إخناتون».

ومما يلفت النظر أن محو الاسم لم يكن قاصرًا على الاسم البارز الذي كان يتبع الصورة، بل قد تخطَّاه إلى الاسم الذي في صلب متن اللوحة نفسها، غير أنه لحسن الحظ

قد خان هذا الحاقدَ الذي قام بالمحو نظرُه، فتَرَك لنا الاسم سليمًا في مكانين، ومن ثَمَّ نعلم أنه كان يُسمَّى «أمنمأبت»، وأنه كان يحمل ألقابًا تُعدُّ من أعظم ألقاب الدولة وأرفعها.

والآن يتساءل المرء مَن هم هؤلاء الأمراء الذين مُثِّلوا على هذه اللوحات؟ هل هم شخص واحد، أم هم ثلاثة شبان يحتمل أنهم إخوة؟ ولما كان لكل منهم غديرة شَعْر (شوشة)، مما كان يرمز به عند المصريين القُدَامى لسنِّ الطفولة استطعنا أن نحكم بأنهم لم يبلُغوا الحُلُمَ بعدُ، ولكي يكون في استطاعتنا محاولة حلِّ هذا اللغز، نفحص كلَّ لوحة على حِدَتها، وسنرمز لها هنا تسهيلًا لفحصها بالأحرف «أ» «ب» «ج»؛ فمِن اللَّوحة (أ) نعلم أن صاحبها كان أميرًا صغيرًا بهيَّ الطلعة، يقدم قربانًا لكلٍّ من تمثالَيْ «بوالهول» والفرعون «أمنحتب الثاني»، وأن الشخص الحقود الذي مَحَا اسمَه لم يُلحِق أيَّ ضرر بأيٍّ اسم أو رمزٍ إلهي. ولا نزاع في أن هذا الفرد الذي محا الاسم لم يكن من عُمَّال «إخناتون»؛ لأن اسم «آمون» بقي على اللوحة لم يُصِبْه أذًى.



شكل ١: مومية تحتمس الرابع.

وفي اللوحة الثانية «ب» نجد أن الأمير الممثَّل عليها يُشبه الأول، وكذلك يُقدِّم لتمثالَيْ «بوالهول» والملك «أمنحتب الثاني» قربانًا. وقد كان كذلك لم يبلغ سنَّ الرُّشْد، كما يدلُّ على ذلك غديرةُ شعره المُدلَّاة على صُدْغه، وكان يَحمِل ألقابًا عالية، وكلها بطبيعة الحال ألقاب فخرية، وكذلك نرى النقوش التي نقشت فوق تمثاله تكاد تكون صورة مطابقة للنقوش التي على لوحة الأمير السابق، مما يوحي بأن اللوحتين قد تكونان لأمير واحد بعينه. وهذه اللوحة كذلك قد أصابتْها أضرار كثيرة على يَدِ فرد أراد أن يمحو شخصية صاحبها وحده، ولم يكن للتعصب الديني شأن في إتلافها؛ لأن كل الرموز الدينية بقيت سليمة. ومما هو جدير بالذكر أن اسم هذا الأمير كان منقوشًا في طُغْراء لا تَزَال خطوطُها الخارجية ظاهرة.

أما اللوحة الثالثة «ج» فنرى عليها أميرًا يَظهَر أنه مثل الأميرين اللذين مُثِّلا على اللوحتين السابقتين، ويُسمَّى «أمنمأبت». فقد تُرك لنا اسمه في مكانين على اللوحة أخطأهما عدوُّه. أما في اللوحة فقد محي اسمه تمامًا. وهذا الأمير ممثَّل كذلك بغديرة الشعر التي تدل على الطفولة أيضًا، ويُرى مقدِّمًا القربان للإله «بوالهول» وللملك «أمنحتب الثاني»، وفي منظر آخر يقدِّم قربانًا للإلهة «إزيس». من أجل ذلك يمكننا أن نستخلص مما سبق الحقائق التالية:

(١) أن اللوحات الثلاث متشابهة في الأسلوب والصنعة، وكلها من عصر واحد.

(٢) وأن اسم الأمير قد بَقِيَ لنا في لوحتين وهو «أمنمأبت».

(٣) وأن هذا الشاب كان ابن ملك.

(٤) وأن الاسم الممحوَّ كان في حالة واحدة موضوعًا في طُغْراء.

(٥) وأن هذا الأمير كان في لوحتين يقدِّم القربان لتمثال «بوالهول» والملك معًا.

(٦) وأن اسم أولئك الأمراء قد مُحِيَ على يَدِ شخصٍ مُعادٍ يحمِل في قلبه حِقْدًا شخصيًّا لصاحب اللوحة، وليس له علاقة بالمَلِك أو بالإله «بوالهول».

(٧) وأنه في اللوحة الثالثة «ج» نرى أميرًا يقدِّم القربان لتمثال الملك، وأن اسم الأخير قد فُقِدَ عَفْوًا نتيجة كسر وليس نتيجة مَحْوٍ.

وإذا فحصنا كل النتائج التي وصلنا إليها في هذا البحث، اتضح جليًّا أن أولئك الأمراء — على ما يَظهَر — أولاد الفرعون «أمنحتب الثاني»، ويحتمل أن اللوحات كذلك هي كلها كانت لأمير واحد؛ أيْ لأخٍ أصغر «لتحتمس الرابع». وسنرى عندما نفحص متن اللوحة

الجرانيتية المنسوبة لهذا الفرعون أن «بوالهول» يتحدث في رؤية صادقة للأمير «تحتمس» ويساومه في أنه إذا قام بتنظيف ما يحيط بتمثاله من رمال، وحافظ عليه مما يَطمس جسمَه ويُخفِيه عن الأعين، فإنه سيَمنَحه تاجَ مصر. ومن ذلك يتضح جليًّا أن الأمير «تحتمس» لم يكن هو الوارث الحقيقي لعرش مصر، وإلا فإن وَعْد «بوالهول» له يكون عديم الفائدة؛ لأنه كان بطبيعة الحال سيخلف والدَه بعدَ موته دون منازع، ولم يكن في حاجة لتحمُّل مشاقِّ تنظيف «بوالهول» ليُكافَأ عليه بعرش المُلْك الذي كان سيئول إليه طبعيًّا دون مناهض. ومن ذلك يمكننا أن نزعم بحق أن إخوة الأمير «تحتمس» أو أخاه كانوا عَقَبَةً في سبيل تولِّي عرش المُلْك، وأن «تحتمس» قضى عليهم بطريقة ما، إما بالموت أو النفي، ثم مَحَا بعدَ ذلك أسماءهم، وكل ما يُشعِر بوجودِهم لأجْل أنْ تُنسَى ذكرياتُهم. ولا نزاع في أن قصة الحُلْم هي محضُ اختِرَاع لأجْل أن يُبرِّر موقفَه أمامَ الرأي العام، وهذا يُفسِّر لنا العزيمة الصادقة التي نفذ بها الشطر الذي كان عليه أن يقوم به في المساومة.

ولعمري لقد كان هذا التحايُل للاستيلاء على عرش الملك بغير حق شرعي من البِدَع التي نشأتْ في مصر منذ عهد الأسرة الخامسة، فمنذ ذلك العهد نجد الملوك الذين لم يكن لهم حق شرعي مطلق في تولِّي العرش يختلقون أقصوصة يجعلون القوة الإلهية تتدخل فيها لتُحلِّل لهم الاستيلاء على عرش الملك، وأول مَن استعمل هذه الحيلة مَلِك في الأسرة الخامسة، ثم استعملها — على ما يَظهَر — «سنوسرت الأول»، وفي الأسرة الثامنة عشرة شاعتْ وتنوعتِ الأساليب التي كانتْ تُتَّبع وسيلة لذلك، كما شاهدنا في حالات «حتشبسوت» و«تحتمس الثالث»، ثم «تحتمس الرابع» الذي نحن بصدَدِه الآن.

ومما يعضد الرأي الذي أوردناه هنا أن «أمنحتب الثاني» كان له أولاد ذكور عديدون، وقد ذكر لنا الأستاذ «فلندرزبتري» في تاريخه عن مصر استنادًا على ما دوَّنه «لبسيوس» في كتابه عن آثار مصر (L. D. III, Pl. 69a). أن من المحتمل أن يكون «لتحتمس الرابع» إخوة يتراوح عددُهم بين الخمسة والسبعة من أبيه «أمنحتب الثاني»؛ لأنه وُجد في قبر «حكرنحح» مربِّي «تحتمس الرابع» منظر مثل فيه «تحتمس» الصبي جالسًا على حجر مربيه، وقد مثل معه إخوة آخرون عديدون، ومما يؤسف له أنه وُجد كل أسمائهم قد مُحيتْ، وعدم ذكرِهم في أي مكان آخر يُشعِر بأن أخاهم «تحتمس» كان قاسيًا مُجْحِفًا لآثارهم وذكرياتهم، كما أساء إليهم أنفسِهم (راجع: Petrie, “History”, II, p. 165). والواقع الذي يُؤسف له أن هذه النظرية التي استعرضناها هنا على ضوء هذه الكشوف

الحديثة لا تجعل من «تحتمس الرابع» رجلًا مثاليًّا؛ لأنه وإن لم يكن قد لعب دور السفاح في هذه الرواية المحزنة — والظاهر أنه قد قام بهذا الدور المَشِين لأسباب كثيرة — فإنه كان رجلًا جامد القلب، يحب الأَثَرَة إلى أقصى حدٍّ، ولا يبعد أنه كان السبب في الحُزْن الذي توجَّعتْ منه أمُّه، وأظهرتْه في الكلمات الباقية التي وجدناها على تمثالها، وسنرى حالةً مماثلةً لهذا المحو في صورة أحد أولاد «سيتي الأول»، ويحتمل أنه أخوه «رعمسيس الثاني»؛ لأن صورته قد أُزيلت من منظر موقعة «سيتي الأول»، التي على جدران معبد الكرنك، غير أن في ذلك بعض الشك.

والآن نعود إلى هذا الأمير التَّعِس «أمنمأبت» الذي وُجدت لوحاتُه في منطقة «بوالهول»؛ إذ لا بد أنه كان جريًا على تقاليد الأسرة في هذا العهد قد خرج لزيارة «بوالهول» للصيد والقنص في تلك المنطقة التي اشتُهرت بحيوانها البري. ومن المحتمل أنه هو وإخوته كانوا قد تعوَّدوا الطِّراد في هذه المنطقة، وكان من بينهم ذلك الشاب الماكر الغامض الذي أصبح فيما بعدُ «تحتمس الرابع»، وكان قد اعتاد الصيد في «وادي الغزال» (وهو اسم أُطلِق على صحراء «منف» وما جاورها). واللوحة الجرانيتية[1] التي أقامها بين مخالب «بوالهول» قد حَفِظَتْ لنا قصةَ الحيلة التي برَّر بها تولِّيَه العرش بما قام به من عمل جليل لتمثال هذا الإله الذي كان يُخفِي في صورته إلهَ الشمس؛ أعظم الآلهة المصرية قوة وسلطانًا وعدالة،

[1] لقد كان الرأي السائد عند علماء الآثار واللغة المصرية القديمة أن هذه اللوحة حديثُ خرافةٍ، وأنها أُلِّفتْ في العهود المتأخرة (راجع: Erman, “Ein neues Denkmal von der grossen Sphinx”, Sitzung Berlin Akademie (1904) 428ff. an p. 1063–1064). غير أن الأستاذ «شبيلبرج» برهن على أن هذا الرأي فاسد، وأنها كُتِبت فِعْلًا في عهد هذا الفرعون (راجع: Spiegelberg, “Orient. Lit. Zeitung” (1904) 1268ff. and 343).

ومع كل ذلك لم يَقنَع الأستاذ «إدوارد مير» بحُجَج الأخير وقال عنها إنها خرافة، ولها مثيل في اللغة المصرية القديمة، وهو لوحة «بنترش» وفي البابلية خرافة سرجون.

(راجع Ed. Meyer, “Geschichte des Altertum”, II, I p. 149, note 1).

ولكن بعد كشف لوحة «أمنحتب الثاني» القائمة بجوار لوحة «تحتمس الرابع» وغيرها من اللوحات المماثلة لا يَسَعُ الإنسانَ إلا الاعتراف بأنها من صنع عصر «تحتمس الرابع» مع إصلاح ما تهشَّم منها فيما بعدُ على يد ملك تَقِيٍّ.

وعلى ذلك كان إقصاء كلِّ مُدَّعٍ آخرَ للمُلْك أمرًا لا مفرَّ منه، وأن كل ما أتاه من سفك دمٍ وبطشٍ بإخوته أو بالوارث الأصلي كان تنفيذًا لنبوءة هذا الإله العظيم.

وهاك متنَ هذه اللوحة:

التاريخ وألقاب الفرعون

السنة الأولى، الشهر الثالث من الفصل الأول، اليوم التاسع عشر من حكم جلالة حور، الثور القوي، منشئ الضوء، محبوب الإلهتين، الباقي في الملكية مثل «آتوم»، حور الذهبي، القوي السيف، وصادُّ الأقواس التسعة، مَلِك الوجْه القِبْلي والوجْه البحري «منخبرو رع» ابن الشمس، «تحتمس الرابع»، المضيء في التيجان، محبوب «آمون» معطي الحياة والثبات والرضا مثل رع مخلدًا.

نعوت «تحتمس الثالث»

يعيش الإله الطيب ابن «آتوم»، حامي «حور أختي» والصورة الحية لإله الكل، والعاهل، ومَن أنجبه «رع»، ووارث «خبري» الممتاز، وصاحب الوجه الجميل مثل والده، ومَن خُلق مجهَّزًا بصورة «حور» عليه، وهو ملك … الآلهة؛ خطوة مع تاسوع الآلهة، والذي يُطهِّر عين شمس، ومَن يُرضي «رع»، والذي يُجمِّل «طيبة»، ومَن يُقدِّم الصدق للإله «آتوم»، ومَن يمنحه قاطن جنوبي جداره[٢] (بتاح)، ومَن يُقيم أَثَرًا بالقرب اليومية للإله الذي خلق كل الأشياء، ومَن يبحث عن كل نافع لآلهة الجنوب والشمال، ومَن يُقيم بيوتهم بالحَجَر الجِيري، ومَن يَمنَح كل قرباتهم، ابن «آتوم» من جسده، «تحتمس الرابع» الذي يُضيء في التِّيجان مثل «رع»، وارث حور على عرشه «منخبرو» «رع» معطي الحياة.

[٢] كانت تُسمَّى مدينة «منف» الجدار الأبيض، وكان معبد الإله «بتاح» يقع في الجِهة الجنوبية من هذه المدينة؛ ولذلك أُطلِق عليه «قاطن جنوب جداره»؛ أي إن الجدار الأبيض هي بلدته التي يسكن فيها.

«تحتمس الرابع» في طفولته

وعندما كان جلالته طفلًا مثل «حور» الشاب في «حميس»[٣] كان جسمه مثل حامي والده «حور»، وقد كان مثل الإله نفسِه، وقد كان الجيش مبتهجًا بحبهم له، وقد كان يُعيد أعمال بطولته مثل ابن «نوت» (أيِ الإله «أوزير») وأولاد المَلِك وكل العُظَماء، وكانت شجاعته تَفِيض منه …

«تحتمس الرابع» الرياضي والصياد

تأمل! إنه قد قام بعمل كان محبَّبًا إليه على هضاب مقاطعة «منف» على جانبَيْها الجنوبي والشمالي، فكان يَرْمِي هدفًا من نحاس، ويصطاد أسودًا وحيوان الصحراء الصغير، راكبًا في عربته، وجيادُه كانت أسرع من الريح، ومعه اثنان من أتباعه، ولم يكن يعلم ذلك أحد.

مكان «تحتمس» المختار للراحة بعد الصيد

ولما حانتْ ساعة الراحة لأتباعه، كان ذلك دائمًا «معبد سبت» (أي المعبد المختار وهو الاسم الذي كان يُطلَق على معبد «بوالهول») الخاص بالإله «حور إم أخت» (وهو اسم «بوالهول» في عهد الدولة الحديثة). ومعناه الإله «حور» في الأفق، والأفق معناه هنا الجَبَّانة التي دفن فيها ملوك الأسرة الرابعة، وقد كان أول مَن سمَّاها بهذا الاسم هو «خوفو» بجانب الإله «سكر» في «روستاو» والإلهة «رتنوتت» في «إيات تامون» … في الصحراء (أي الجبانة) «وموت» صاحبة … الشمالية … سيدة الجدار الجنوبي، والإلهة «سخمت» القاطنة في الجبل في المكان الفاخر الأزلي قبالة سيد «خرعحا» (مصر العتيقة) والطريق المقدَّسة للإلهة المؤدِّية للجبَّانة الغربية.

---

[٣] «حميس» هي البلدة التي وُلد فيها «حور» ابن «إزيس»، وهو الذي تولَّى المُلْك بعد والده «أوزير»، وموقعها كوم الخبيزة الحالي في شمالي الدلتا.

ويُقيم تمثال «خبري» العظيم جدًّا في هذا المكان، وهو العظيم في شجاعته، والذي يُظلُّه فيء «رع»، وهو الذي تُهرَع إليه ربوع «منف» وكل المدن التي بجواره رافعين أكفَّ الضراعة إلى وجهه، وحاملين القُرَب العظيمة لروحه.

تحتمس الرابع» يرى بوالهول في رؤيا صادقة

واتفق ذات يوم أن ابن المَلِك المُسمَّى «تحتمس» أتى راكبًا عربتَه وقت الظهيرة، وجلس يتفيَّأ ظلَّ الإله العظيم، فغشاه النعاسُ عندما كانت الشمس في منتصف السماء، فرأى جلالته إلهَه المبجَّل، يتكلم بفمه كما يتكلم والد مع ابنه قائلًا: تأمل أنت فيَّ يا بنيَّ «تحتمس»، إني والدك «حور إم أخت-خبري-رع-آتوم» إني سأمنحك ملكي على الأرض رئيسًا على الأحياء، وستلبس التاجَ الأبيض والتاج الأحمر على عرش الإله «جب»[٤] (إله الأرض) الأمير الوراثي، وستكون الأرض مِلْكك في طولها وعرضها؛ وهي كل ما يُضيء عليه الربُّ المهيمن. وطعام الأرضين سيكون ملكك، وجزية كل الأقطار مدة عهود طويلة سنيها. وإني مولٍّ وجهي شطرك وقلبي معك، وستكون أنت المحافظ على كل أشيائي؛ لأني أشعر بألم في كل أعضائي. ورمال المحراب الذي أنا فيه قد غمرتْني، فالتفتْ إلي لتفعل ما أرغب فيه؛ لأني أعلم أنك ابني وحاميَّ. تأمل! إني معك، وإني قائدك.

ولما فرغ من كلامه هذا استيقظ ابن الملك سامعًا ذلك … فَهِم كلمات الإله ووضعها في قلبه، ثم قال (لأتباعه): تعالَوْا دعونا نسرع إلى بيتنا في المدينة، وإنهم سيحافظون على ما نحضر من قربان لهذا الإله: ثيران … وكل الخضر صغيرة، وسنقدِّم الثناء للإله «وتنفر» (أي زير في عالم الآخرة) … «وخفرع»، والتمثال الذي عمل «لآتوم حور إم أخت» …

[٤] كان «جب» إله الأرض، وكان أحد أعضاء تاسوع الآلهة في «هليوبوليس»، وكان والد «أوزير» و«إزيس» و«نفتيس» و«ست» و«حور» الأكبر، وكان قد حكم مصر يومًا في بداية حكم الأسرة الإلهية، ثم خَلَفَه على العرش ابنه «أوزير».

مغزى اللوحة

والظاهر أن «تحتمس» بعد أن ضرب ضربته السياسية التي قضت على كل مناهض له في التربُّع على العرش، أسرع في إنجاز ما عليه من دَيْن لهذا الإله؛ إذ نعلم أنه قد أزال الرمال عنه فعلًا، ولم يكتفِ بذلك، بل أقام سورًا حول مربض التمثال بناه من اللَّبِن. وقد بقي الاعتقاد السائد عند علماء الآثار أن هذا السور من عمل ملوك البطالمة ومَن بعدَهم إلى أن كشفتْ أعمالُ الحفر التي قامت بها الجامعة المصرية عن السور كله وظهر أنه من عمل «تحتمس الرابع» نفسِه؛ إذ وجدنا بعض لَبِنَات في بناء السور نفسه عليها طغراء الفرعون «تحتمس الرابع».

وقد ترك لنا هذا الفرعون كذلك سلسلة جميلة من اللوحات التذكارية من إهدائه لهذا الإله. والظاهر أنها كانت في الأصل مثبتة في أحد الجدران الحافظة لتمثاله من إغارة الرمال عليه، وهذه الجدران كانت تحيط به من كل الجهات.

وقد كشفنا في أثناء الحفر عن إحدى عشرة لوحة من هذه اللوحات، وكلها من الحجر الجيري الأبيض مستديرة القمة، ويبلغ حجم الواحدة منها على وجه التقريب ٦٥ × ٤٥ سنتيمترًا. وفي كل منها منظر مُثِّل فيه «تحتمس الرابع» إما وحده أو مع زوجه «نفرتاري» يقدمان قربانًا للآلهة المختلفين؛ وهؤلاء هم: (١) رع؛ حور صاحب «سنخو».[٥] (٢) «تحوت» سيد «الأشمونين». (٣) «وازيت»[٦] سيدة «ب» و«دب». (بوتو) (أي «إبطو» الحالية بمركز دسوق). (٤) والإله «سكر»[٧] الإله الأعظم سيد «شتيت». (٥) والإله «آمون رع» سيد «…» والإلهة «سشات» ربة الكتابة. (٦) والإلهة «حتحور» سيدة شجرة الجميز. (٧) والإلهة «حتحور» سيدة «إنرتي» أي بلدة جبلين. (٨) والإله «آتوم» رب «هليوبوليس». (٩) والإله «بتاح» رب الصدق. والإلهة «رننوتت» صاحبة «إيات-تاموت» (وهي ربة الحصاد، ومن المحتمل أنها كانت تُعبَد هنا لتجعل الأرض

---

[٥] بلدة بالقرب من «هليوبوليس».

[٦] وهي الإلهة العظمى للوجه البحري.

[٧] إله الموتى القديم في «منف»، وقد وُحِّد فيما بعد مع الإله «أوزير». مكان بالقرب من «مدينة هابو». ويُعدُّ مكان الخشب المقدس في المقاطعة الرابعة من الوجه القبلي.

القاحلة خصبة مثمرة). وهذه اللوحات وغيرها مما كشف عنه لها أهمية خاصة؛ إذ إنها تمدُّنا بقائمة بأسماء الآلهة الذين كانوا يُعبدون في هذه المنطقة.

وعلى الرغم مما يحوم في أذهاننا من شك، وما يعتورنا من سوء ظن، فلا نزاع في أنه قد قام بعمل جليل أكثر مما قام به أي فرعون، لإزالة الرمال عن «بوالهول»، وإصلاح ما حوله، وإن كان قد عمل هذا ليبقى على عرش الملك آمنًا مطمئنًّا.

ولا نزاع في أن كهنة «عين شمس» كان لهم أثر عظيم في تحويل الأنظار عن عبادة «آمون» وإحياء عبادة الإله «رع» ثانية، وبخاصة أن الفراعنة كانوا قد بدءوا يشعرون بقوة سلطان كَهَنة الإله «آمون». وقد كان أول مَن حاربهم، وأراد القضاء عليهم هو «تحتمس الرابع»، الذي بدأتْ في عهده بلا نزاع حركة إعادة عبادة «رع»، وهي تلك الحركة التي انتهت بالإصلاح الشامل الذي تمَّ على يد «إخناتون»، ولدينا من الأدلة ما يُعزِّز هذا الرأي، وبخاصة اللوحة التي عُثر عليها في المعبد الصغير الذي أقامه والده «أمنحتب الثاني» من اللَّبِن، وأقام فيه لوحته المشهورة التي سبق الكلام عنها. وهذه اللوحة قطعة من الحجر مستطيلة الشكل، محاطة بإطار مرتفع ومستطيل داخلي، وطرف اللوحة مستدير من أعلى، غير أنه قد تآكل بعض الشيء.

وهذا الجزء العلوي المستدير يشغله قرص شمس مجنَّح وهو الشكل العادي للإله «حور بحدت»، وقد بَدَتْ فيه ظاهرة غريبة عن الفن والتقاليد المتبعة؛ وذلك أن قرص الشمس بأجنحته المنتشرة والمكتنف بصلين قد زُوِّد بذراعين ويدين آدميتين ممسكتين بطغراء عظيمة كأنهما تحميانه، واسم الملك الذي في الطغراء قد مُحي ولم يبقَ منه إلا كلمة «تحوت»، ونجد على كلا جانبي الطغراء سطرين من النقوش موجودين في كتابتهما جاء فيهما: «ليته يمنح الحياة والسعادة حور بحدت الإله العظيم، سيد السماء المُشرِق من الأفق.» ففي هذه العبارة إشارة صريحة إلى «حور بحدت» ولكن بصورة غير مألوفة. والواقع أن قرص الشمس المجنح يتألف في العادة من قرص الشمس يكتنفه صِلَّان، ومُزوَّد بجناحين، ولكنا لم نعرف قط على حسب ما وصلتْ إليه معلوماتنا أنه كان يُزوَّد بذراعين بشريتين، فهل معنى ذلك أن هذه أول محاولة لنشر مذهب عبادة «آتون» أو أن هذا الرسم كان من نسج خيال المفتنِّ الذي رسم اللوحة؟ ويخيل إليَّ أن النظرية الأولى هي التي تقرب من الحقيقة؛ وذلك لأن اللوحة كانت قد نقشت في عهد ليس ببعيد من عهد انتشار مذهب «آتون»، وأعني بذلك عهد «تحتمس الرابع»، وإذا كان هذا الفرض صحيحًا برهن لنا ذلك على أن «آتون» لم يكن إلهًا أُتِي به من بلاد «سوريا» كما يظن البعض،

ولكنه كان إلهًا مصريًّا خالصًا، وأنه في الواقع صورة أخرى من صور إله الشمس الذي نشأ في «هليوبوليس». ولا غرابة في ذلك؛ فإنه قد عثر على جِعْران من عهد هذا الفرعون يُذكَر فيه إله الشمس باسمه «آتون» (راجع: J. E. A, Vol. XVII, p. 23). وقد جاء عليه النقش التالي: «لقد شاهد أمراء النهرين؛ وهم يحملون للفرعون «منخبرو رع» عندما كان خارجًا من قصره وهم يسمعون صوته مثل صوت ابن نوت «أوزير» وقوسه في يده مثل ابن وارث «شو» (أي إله الأرض جب) (وبذلك يتحدث النقش عن الملك بوصفه ابن «جب» و«نوت» على حسب الآراء التقليدية). وإذا أيقظ نفسه للقتال «وآتون» أمامه، فإنه يُخرِّب الجبال ويطأ الأراضي الأجنبية زاحفًا إلى «نهرين» وإلى «كاراي» (آخر الحدود الجنوبية) ليُخضِع سكان الأقاليم الأجنبية مثل رعاياه لحكم «آتون» أبد الآبدين.»

ولا نزاع في أن ما جاء على هذا الجِعْران بالإضافة للرسم الذي ظهر على لوحة الجيزة له أهمية عظمى من الوجهة التاريخية. حقًّا أن الباحثين قد زعموا من قبلُ أن الثورة الدينية والفنية التي قام بها «إخناتون» تضرب بأعراقها إلى عهد «تحتمس الرابع» غير أن البراهين التي ذُكرت لإثبات هذه الحقيقة لم تقم على أدلة أصيلة كالبرهانين اللذين قدمناهما الآن. وهذه البراهين الثانوية على الرغم من أنها ليست قاطعة، فإنها تقوِّي النظرية التي قدَّمناها وهاكها:

(١) يشير «إخناتون» على إحدى لوحات الحدود بأنه كان يحارب كهنة «آمون» (راجع: Davies, “El Amarna”, V, p. 31).

(٢) يُشاهَد على قطعة حجر من «تل العمارنة» «إخناتون» يقدم قربانًا للإله «آتون»، وقد وصف هذا الإله بأنه يقطن بيت الفرعون «منخبرو رع» في بيت «آتون» في «إخناتون» (راجع Schafer, “Altes und Neues zu Kunst und Religion von Tell el Amarna”, A. Z., LV p. 33).

(٣) تشبه صور تماثيل المجاوبين التي وُجدت للملك «تحتمس الرابع» تماثيل المجاوبين التي عُملت «لإخناتون» في كونها لم يُنقش عليها إلا اسم الفرعون وحده، وقد خلت من كل نقش سحري، وهذا ما لا يوجد على تماثيل مجاوبين لأي ملك آخر.

(٤) يدلُّ فنُّ عهدِ «تحتمس الرابع» على أنه عصر فنٍّ جديد ينزع في صوره إلى محاكاة الطبيعة والواقع … إلخ (راجع Davies, “M. M. A. XVIII, (Dec. 1923) II, p. 40ff.; and Frankfort, “The Mural Paintings of El Amarna”, Pl. 29).

(٥) عُثر على قِطَع آثار عليها اسم «تحتمس الرابع» في «تل العمارنة» (راجع Frankfort, ibid).

وعلى أية حال، فلدينا فيما تقدِّمه هذه اللوحة وهذا الجِعْران برهان قاطع على أن «آتون» قد مثَّله لنا «تحتمس الرابع» في صورته التي ظهر بها فيما بعدُ بالأيدي المتدلِّية منه معطية أشعة الشمس كما جاء على اللوحة، بل كذلك قد ميَّزه باسمه عن إله الشمس كما جاء على الجِعْران، وكذلك عَبَدَه بوصفه إلهَ حربٍ نَصَرَه على أعدائه، وضمن له السيادة على سائر العالم جاعلًا كل الإنسانية رعايا لقرص الشمس. ولا نزاع في أن هذا الجِعْران قد نُقش تذكارًا لانتصار الفرعون على الأعداء في حرب في «آسيا» لم يُعيَّن على وجه التأكيد تاريخُها. وهذا النوع من الجعارين كان منتشرًا في هذا العصر، كما سلف الكلام عنه في عهد «تحتمس الثالث».

أما عن ديانة «إخناتون» وكيفية نشوئها وانتشارها فقد فصَّلنا القول في ذلك في فصل خاص كما سيجيء بعدُ.

ومن كل ما سبق نستطيع أن نستخلص أن «تحتمس الرابع» قد أقام لوحته الأولى والثانية لغرضين؛ الأول: ليُبرِّر اعتلاءَه عرش المُلْك بِرًّا منه بوعده للإله «بوالهول» الذي كان يمثل إله الشمس، والذي منَّاه بتولِّي عرش الفراعنة الذين يَعُدُّ كلٌّ منهم نفسَه وارثَ «رع» في أرض الكنانة. والثاني: لينفذ فكرة إعادة عبادة الإله «رع» في صورته الجديدة التي بدأتْ تأخذ شكلًا خاصًّا في أذهان الفراعنة. وتنمو تدريجًا حتى أخذت صورتَها النهائية في عهد «إخناتون» كما سنرى بعد.

ومما هو جدير بالملاحظة هنا اسم «خفرع» الذي يُنسب إليه نحت تمثال «بوالهول» قد ذُكر في نقطة مهشَّمة من لوحة «تحتمس الرابع» الكبرى، ولذلك لا يمكننا أن نفضي بأي رأي عن سبب ذكره هنا. وكل ما يمكن إثباته في هذا الصدد هو أن «تحتمس الرابع» لم يَرْعَ حُرْمة معبد «خفرع»؛ إذ إن قطعة الحجر التي نُقشت عليها اللوحة كانت مغتصَبة من أحد جدران معبده الذي أقامه لهذا الإله بعينِه، ومن المحتمل جدًّا، أن «تحتمس الرابع» نفسه لم يعرف كثيرًا عن هذا المعبد الذي كان مطمورًا في الرمال عندما أقام لوحته أمام تمثال «بوالهول».

(١) حروب تحتمس الرابع

يدل ما لدينا من الوثائق حتى الآن على أن «أمنحتب الثاني» لم يَقُمْ بحروب بعدَ حملته الثانية المؤرخة بالسَّنَة التاسعة من حُكْمه، والظاهر أنه قضى البقية الباقية من حياته في هدوء وسكينة ملتفتًا إلى تنظيم أحوال البلاد الداخلية. وفي هذا الوقت حدث تقدم جديد في الفتح من جانب مملكة «متني» في شمالي «سوريا»، والظاهر أن المصريين لم يقوموا بمحاولة لصدِّه، وفضلًا عن ذلك عقدت معاهدة مودة وصداقة بها نظمت الحدود بين البلدين.

ولما تولى «تحتمس الرابع» الحكم قام بحملة على شمالي بلاد سوريا (نهرين)، غير أن الوثائق المباشرة التي تحدثنا عن هذه الغزوة لم يُكشَف عنها بعد. ولا بدَّ أنها قد دُوِّنت على لوحة أو لوحات كما كان يفعل والده وجده العظيم «تحتمس الثالث»، غير أنه قد ترك لنا قائمة بالقرابين التي قدَّمها للإله في معبد «الكرنك» بعد عودته من انتصاراته في هذه الأصقاع، وقد أشار فيها إشارة عابرة تدل على قيامه بالحملة الأولى في تلك الجهة، فقد ذكر أن بين القرابين أشياء قد استولى عليها جلالته من بلاد «نهرين» … الخاسئ في حملته الأولى المظفَّرة (راجع Mariette, "Karnak", p. 32; Breasted, A. R. II, § 816).

وقد أشار إلى أخبار هذه الحملة أحد رجال حرس الفرعون المسمَّى «أمنحتب» في نقوش لوحة قبره (راجع Breasted, A. R. II, § 818; Sharpe, "Inscriptions", I, p. 93).

حيث يقول: «تابع الفرعون في حملته في الأقاليم الجنوبية والشمالية، ذاهبًا من «نهرين» إلى «كاراي» في ركاب جلالته عندما كان في ساحة القتال، ورفيق قدمي سيد الأرضين، ورئيس إصطبل جلالته، وكاهن الإله «أنوريس» الأكبر «أمنحتب المرحوم».»

ومعلوماتنا عن نتائج هذه الحملة أنه قد أَخمَد كل الثورات التي قام بها الأمراء التابعون له، ثم عاد عن طريق «لبنان»؛ حيث أجبر الأمراء هناك على تقديم مقدار عظيم من خشب الأرز لبناء سفينة «آمون» المقدسة. ولما وصل إلى «طيبة» أسَّس مستعمرة للأسرى الذين أحضَرَهم على ما يظهر من «جيزر» «بفلسطين» في ساحة معبده الجنازي الذي أقامه بجوار معابد أجداده على ضفة «طيبة» الغربية.

ويؤكد ما ذكرناه ما جاء في مناظر قبر «خع أم حات»،[٨] الذي كان يُعدُّ من كبار أشراف هذا العصر، كما كان رئيس الخزانة في عهد «تحتمس الرابع» و«أمنحتب الثالث». ومن بين مناظر قبره منظر من عهد «تحتمس الرابع» يُرى فيه هذا الفرعون جالسًا في محراب من جهة الشمال، وخلفه أوانٍ من الصناعة الآسيوية الفاخرة من الذهب والفضة، وكميات عظيمة من هذين المعدنين في هيئة حلقات، وخلف هذه يُشاهَد أمراء آسيويون منحنين حتى الأرض، وقد نُقش فوقَهم المتن التالي: «إحضار جزية «نهرين» بأمراء هذه البلاد لأجْل أن يُلِحُّوا في طَلَب مَنْحِهم نفس الحياة. الخضوع لرب الأرضين العظيم، عندما يأتون حاملين جزيتهم لرب الأرضين قائلين: امنَحْنا النفس الذي تعطيه يا أيها الملك العظيم.»

وكذلك نجد منظرًا مماثلًا في مقبرة الضابط «ثانني» يرجع إلى عهد هذا الفرعون، وقد جاء فيه: (راجع Scheil, “Tombeaux Thebains”, Mission Arch. Franç. V. p. 601). «إحضار جزية بلاد «رتنو» وتقديم الأقاليم الشمالية، الفضة والذهب والفيروزج وكل حجر ثَمِين من أرض الإله من أمراء كل الأقطار. لقد حضروا ليُقدموا هدايا للإله الطيب وليلتمسوا نفسًا لأنوفهم بوساطة كاتب الفرعون الحقيقي ومحبوبه قائد الجنود وكاتب المجندين «ثاننى».»

وقد أقام هذا الفرعون لوحة صغيرة في معبده الجنازي في طيبة الغربية تحدثنا عن استيطان السوريين ساحة المعبد المسوَّرة: «استيطان قلعة «منخبرو رع» بأهل «خارو» الذين أسرهم جلالته في بلدة «غزا» جيزر.» (راجع Petrie, “Six Temples”, I, p. 7). وخشب الأرز الذي أحضره جلالته ذكر على المَسلَّة القائمة الآن في «روما»؛ حيث يُشير الفرعون إلى خشب الأرز الذي قطعه في بلاد «رتنو» (راجع Breasted, A. R. II § 838)، وكذلك جاء ذكره على لوحة «سمن» Smn المحفوظة بمتحف «اللوفر» (راجع De Rouge, “Notice de Monuments”, p. 153. And Text, Brugsch, “Thesaurus”, VI, 1461, No. 113. Louvre C–202).

---

[٨] قبر هذا الأمير منحوت في صخور «جبانة شيخ عبد القرنة» في «طيبة الغربية» (رقم ١٢٠). (راجع Loret, “La Tombe de Kha-m-ha”, Mission Arch. Franç. I, I. pp. 113–132). وهذا القبر قد خرَّبه الأهالي، وأُخذت نقوشه وبِيعت لتجَّار الآثار من الأوروبيين، ويوجد جزء كبير من هذه النقوش في «برلين».

وفي هذه اللوحة قد ذُكر هذا الفرعون مرتين أنه فاتح «سوريا» مما يدل على أنه قام في هذه الجهات بحروب مظفَّرة.

والظاهر أن الفرعون لم يَكَد يستقر به المقام في عاصمة مُلْكه حتى اضطرته للقيام ثانية الثورات في بلاد «واوات»، وقد كان في تلك الآونة مشغولًا بالاحتفالات بعيد معبد «طيبة» في اليوم الثاني من شهر «برمودة» عندما وصل إليه خبر العصيان الذي اندلع في «واوات». ففي اليوم الثاني ذهب الفرعون في الصباح المبكر في موكب حافل ليستخير الإله ويتلقَّى منه الوحي بما عساه أن يفعل وقد بُشِّر فعلًا بالنصر. وقد قامت الحملة نحو الجنوب في سفن أُعدَّت لها، وكان الفرعون يضرب مرساه في طريقه عند كل معبد عظيم؛ حيث كان الآلهة يخرجون لاستقبال جلالته ويشدُّون أزره لملاقاة العدوِّ في ساحة الوغى، وبخاصة الإله «ددون» إله تلك البقاع الخاص، وقد الْتقى الفرعون بالعدو في مكان ما في بلاد «واوات» وانتصر عليه وعاد بأسلاب كثيرة، وقد وَضَع الفرعون الأسرى الذين استولى عليهم وعاد بهم من تلك الجهات في معبده الجنازي في «طيبة» الغربية، وقد عُلِّم المكان الذي وضع فيه هؤلاء الأسرى بلوحة نُقش عليها: «مستعمرة أهل بلاد «كوش الخاسئة»، وهم الذين ساقهم جلالته من انتصاراته.» وهاك نص لوحة «كونوسو» التي تُحدِّثنا عن هذه الحملة (راجع L. D. III, Pl. 69e):

> يعيش «حور». (ثم يأتي بعد ذلك ألقاب الفرعون) مَلِك الوجه القبلي والوجه البحري «منخبرو رع» معطي الحياة مخلدًا. السنة الثامنة، الشهر الثالث من الفصل الثاني، اليوم الثاني.

إعلان العصيان

> تأمل! لقد كان جلالته في المدينة الجنوبية في بلدة «الكرنك»، وقد كانت يداه مطهرتين بطهور ملك، وقد أدَّى الاحتفالات التي تَسُرُّ والدَه «آمون» لأنه وهبه الأبدية والخلود بوصفه ملكًا موطَّدًا على عرش «حور». وقد حضر إنسان ليقول لجلالته: إن الأَسْوَد قد انقضَّ من أعالي «واوات»، وقد دبر العصيان على مصر. وقد جمع لنفسه كل المتوحِّشين وعصاة الأقاليم الأخرى.

وحي آمون

فذهب المَلِك في سلام إلى المعبد وقت الصباح ليجعل القربان العظيم يقدم لوالده المصور لجماله. تأمل! لقد أتى الفرعون نفسه أمام حاكم الآلهة «آمون» لينصحه في أمر ذهابه … وليخبره عما سيحدث له، مرشدًا إياه إلى الطريق السوي ليفعل ما يرغب فيه، كما يتكلم والد لابنه … وقد خرج من عنده فَرِح القلب … لأنه شيَّعه بالقوة والنصر.

سير الحملة جنوبًا

وبعد ذلك سار جلالته ليَهزِم السُّود في بلاد «النوبة» وهو قوي البأس في سفينته … مثل «رع» عندما يشرق في سفينته السماوية … وجيشه الذي ينتصر به كان معه على كلا الشاطئين في حين كان المجندون الجدد على شاطئ واحد، وكانت السفينة (أي السفينة الملكية) مجهزة بالجرس عندما كان الفرعون يسير نحو الجنوب مثل «نجم الجوزاء»، وقد أضاء الجنوب بجماله. وكان الرجال يهتفون لما رأَوْا من شفقته، والنساء يرقصْنَ للرسول (؟) وقد كان الإله «منتو» في «أرمنت» يحفظ كل عضو من أعضائه والإلهة «أر رتي» كانت قائدته (أمامه)، وكل إله في الجنوب كان يحمل … أمامه. والإلهة «نخبت» البيضاء صاحبة «الكاب» كانت تزين رأس جلالته بعصابتي، ويداها كانت خلفي (لحمايته) وقد غلت لي الأقواس التسعة جميعًا … ورسوتُ عند مدينة «إدفو»، وقد خرج إلى الإله الجميل لمقابلة الفرعون مثل الإله «منتو» في كل صوره ممتشقًا أسلحته وعدته وهائجًا مثل الإله «ست» صاحب «كوم أمبو» …

الواقعة

وقد جاء إليه جيشُه العظيم العدد … بسيفه الجبار، وقد استولى الرعب منه على كل نفس، وقد وضع الإله «رع» الرعب منه بين كل الأراضي مثل «سخمت» في سنة الندوة (الوباء)، وقد سار بعربته في داخل الهضبة الشرقية، وشقَّ الطرق كأنه الفهد … وقد وجد كل أعدائه مبعثرين في الوديان الوعرة المسالك …

وهذا الوصف للموقعة ربما نَجِده مصوَّرًا على عربة حربه التي بقي لنا جزء منها؛ إذ نشاهده على عربة حربه هذه ومعه قوسه (وبلطة) حربه مثل الشبل يُودي بأعدائه (راجع صورة هذه العربة في Carter and Newberry, "The Tomb of Thoutmosis IV", p. 24, & Pls. IXff).

(٢) آثار تحتمس الرابع

بقي «تحتمس الرابع» في استغلال مناجم شبه جزيرة «سينا» على غرار سلفه، فقد وُجد اسمه على بعض المباني والصور هناك (راجع Petrie, "Researches in Sinai", p. 107, 156, 157, ibid. fig. 148, 8; Gardiner and Peet, "Sinai", I, Pls. VIII, 208. XII, 207).

وفي منف وجد له عقد (بوابة) عليه اسمه (راجع Quibell, "Excavations at Sakkara," (1910) p. 3).

ومحراب على لوحة (راجع Petrie, "Memphis", VI, Pl. IV, p. 12) وقطع أساس (راجع A. S. III, p. 25).

وفي كوم الحصن وُجد له جِعْران جميل الصنع في الحفائر التي عُملت في هذه الجهة حديثًا (تقرير مصلحة الآثار)، وفي العرابة المدفونة عثر له على جذع تمثال من الحجر الجيري الأبيض السليسي وقد كتب الاسم على الحزام (Mariette, "Abydos", p. 350).

وفي «دندرة» لا تزال توجد في المعبد قطعة من آثاره كتب عليها اسمه (راجع Brugsch and Dumichen, "Recueil de Monuments Egyptiens" (Leipzig 1865–1885)).

أما في الكرنك فلا تُعرف مبانٍ أصلية لهذا الفرعون، ولكنه نقش مناظر أُضيفت للبوابة الرابعة، وقد اختفت العارضة الجنوبية (والعتب) أما العارضة الشمالية فتوجد نقوشها على جانبيها الغربي والشمالي؛ ويقول «مريت»: على أية حال إن هذا الجزء قد أعاد نقشَه الملك «شباكا» (راجع Mariette, "Karnak", p. 28; L. D. III, Pl. 69d).

وكذلك نَقَش هذا الفرعون قائمة بالعطايا التي قدَّمها «لآمون» بعد عودته من حملته الأولى في بلاد «آسيا» على الواجهة الشرقية للحائط الذي أقامه «تحتمس الثالث» حول مسلة «حتشبسوت» ليُخفِي نقوشَها، وكذلك ذكر تماثيل لجدِّه وله، كما أقام تمثالًا ضخمًا لنفسه أمام (بوابة) «تحتمس الأول» (Wiedemann, "Geschichte", p. 378).

وكذلك عُثر له على تماثيل في «الكرنك» (راجع Legrain, “Statues”, 42080-1).
وفي «الأقصر» عُثر له على لوحة (راجع Lacau, “Cat. Stele”, No. 34021).
وفي «القرنة» أقام لوحة لوالده «أمنحتب الثاني» (راجع A. S. IV, p. 128–32).
ولوحة يتعبد فيها للإلهة «أرايتيس» Arathis (راجع Petrie, “Six Temples”, Pl. VIII).

وكذلك أقام في «القرنة» معبده الجنازي، ولكنه خُرب ولم يَبقَ منه الآن إلا بعض بقايا من القطع التي عليها نقوش. وكذلك عُثر على جزء من رأس ضخم له.

وفي الأقصر نجد صورة الملكة «موت مويا» زوج هذا الفرعون ممثَّلة مع ابنها العظيم في طفولته، ولكنا لا نجدها مع الملك؛ وذلك لأن الفرعون «أمنحتب الثالث» تُنسَب أُبُوَّتُه مباشرة للإله «آمون» (راجع “Mission Arch. Franç.” XV, Figs. 203-4).

وقد بدأ هذا الفرعون إقامة معبد مدينة «الكاب» وأتمَّه وحدَه، وهو الذي يقول فيه: «تأمل! لقد عُمل هذا لجلالة الملك «ماعت نب رع» المُجمِّل آثارَ والده الإله الطيب «منخبرو رع»، المسمى الخالد الأبدي (L. D. III. Pl. 80b)».

وفي «أسوان» وُجدت لوحات عليها اسمه (راجع De Morgan, “Cat Mon.” PP. 66, 73, 45, 90, 84).

وفي «إلفنتين» نُقش اسمه على بعض قطع من المعابد (راجع De Morgan, Ibid, p. 115).

وفي «أمدا» ذُكر اسمه في نقوش المعبد (راجع Weigall, “Lower Nubia” Pl. IV, 2).

وفي «حلفا» وجدت لوحات عليها اسمه (راجع P. S. B. A., (1894) 17, 18).
وكذلك ذُكر اسمه في معبد «بوهن» (راجع Maciver and Woolley, “Buhen”, p. 96).

وكذلك وُجد اسمه في «أريكا» (راجع Maciver and Woolley, “Areika”, p. 5).
وفي «كونوسو» أربعة آثار من حكم هذا الفرعون نشاهده فيها يضرب السود أمام آلهة «النوبة» «ددون» و«حي»، وخلفه تقف ملكة تُلقَّب بالبنت الملكية والأخت الملكية والزوجة الملكية (راجع L. D. III, Pl. 69b). واسمها كُتب بصورة الصل على علامة «نب» ويُقرأ «عرات»، ولمَّا كانت هذه هي المرة الوحيدة التي ذُكر فيها اسمها فمن المحتمل أن

يكون هذا رمزًا للملكة المؤلَّهة، ويمكن أن يشير إلى الملكة «موت مويا». وخلافًا لذلك يوجد نقش طويل نُشر منه عشرون سطرًا … إلخ، كما ذكرنا آنفًا.

وفي أمدا Amada يوجد لهذا الفرعون أعمال كثيرة، فقد ذُكر اسمه على عقود (بوابات) المعبد (Champollion "Notices", 96–100. (L. D. III, Pl. 69f).

وكذلك نُشر له مناظر (L. D. III, Pl. 69, g, h, i). وكذلك توجد صورة الفرعون (راجع Champollion, "Monuments", 45, 6).

وله آثار عِدَّة في جبل «بركل» Reisner, "The Barkal Temples in 1916", J. E. A. (1918) p. 100. فقد أقام معبدًا لا تزال بقاياه هناك.

أما آثاره الصغيرة فله أشياء كثيرة؛ منها لوحة من أثاث قصره من المرمر (راجع University College)، وفي أبواب الملوك وُجد له إناء من المرمر. (راجع Nash, "Notes on Some Egyptian Antiquities", P. S. B. A., XXIX, p. 175).

أما جَعَارِينُه: فيوجد منها عدد عظيم أهمُّها واحد رُسم عليه صورة ابنه الأمير «تحتمس» (راجع Tyzkiewicz Coll.; Wiedemann, "Geschichte", p. 378). كما يوجد له جعارين نُقش عليها جُمَل مديح مثل «تحتمس الرابع» الغني المظاهر، أو «فخار كل الأراضي» أو «مؤسس الآثار». وقد عُثر له كذلك على خاتم من الفخَّار المطلي، وهو أقدم ما عُثر عليه من هذا النوع (راجع Petrie, "History", II, p. 171, figs. 107, 108, 109). وله جِعْران (راجع Chassinat, "Note sur Deux Scarabees", Rec. Trav. XXXIX, p. 110). وتعتبر الأعمال الخاصة التي عُملت في هذا العهد أدقَّ صنعًا من الآثار العامة الباقية.

(٣) أسرة الفرعون «تحتمس الرابع»

يحيط بأسرة هذا الفرعون شيء من الغموض والإبهام لقلة المصادر التي توضح لنا معرفتها بصورة جلية، وكل ما نعرفه من النقوش التي وصلت إلينا أنه تزوج من ثلاث نساء، أهمُّهن الملكة «موت مويا»، ومعنى الاسم الإلهة «موت» في السفينة المقدسة.

آثار «موت مويا»: ومن الآثار التي تُنسب إليها سفينة مقدسة نُحتت من الجرانيت الجميل، طولها سبعة أقدام، وقد نقش عليها اسمها وألقابها (راجع B. Mus. Arundale and Bonomi, "Gallery", p. 34). ومن المحتمل جدًّا أن هذه السفينة كانت في الأصل

موضوعة في معبد ابنها «أمنحتب الثالث» بالأقصر (راجع "Mission Arch. Franç", XVI. p. 63–67).

وكذلك عُثر لها على تمثال ضخم في «دندرة» (راجع Weigall, "Guide" p. 34). كما يوجد لها رأس من الجرانيت (راجع Budge, "Sculpture", p. III). أما زوجه الثانية فهي «نفرتاتي»، وقد عُثر لها على جِعْران موجود الآن في مجموعة «بتري» وفي «ينفرستي كولدج» (راجع Petrie "Scarabs and Cylinders", XXX). وزوجه الثالثة تُدعَى «عرات» وتُلقَّب الابنة الملكية والأخت الملكية والزوجة العظيمة (L. D. III, Pl. 69e).

وقد سُمِّيت بهذا الاسم تبرُّكًا باسم الإلهة السورية «أراثيس» Arathis (راجع Justen XXXVI). أما أولاد تحتمس الذكور فلا نَعرِف منهم إلا ثلاثة غير «أمنحتب الثالث» الذي خلفه على العرش. أولهم: «تحتمس» الذي عُثر له على تمثال صغير (راجع Benson and Gourlay, "Temple of Mut in Asher", p. 328)، أما الثاني: فيُدعَى «أمنمأبت» وقد عُثر له على بطاقة باسمه (راجع P. S. B. A., XXV, 360)، وكذلك جاء ذكره في قبر «حور محب» (راجع Mission Arch. Franç. V, p. 434, Pl. II)، وابنه الثالث: يُدعَى «أمنمحات»، ويوجد له في المتحف البريطاني أواني أحشاء (راجع Cairo Mus. 46037–9)، وجاء ذكره في قبر والده «تحتمس الرابع» (راجع Carter and Newberry, "Tomb of Thothmosis IV", p. 6).

(٣-١) بناته

تَرَك هذا الفرعون عِدَّة بنات عُرف منهن تسع، جاءت أسماؤهن على بطاقات من الخشب، وقد كُنَّ يُنسَبْنَ خطأً للمَلِك «تحتمس الثالث»، ومن المحقق الآن أن والدهن هو «تحتمس الرابع» (راجع Birch, "Two Rhind Papyri" Pl. XII; A. Z. XXI, p. 142). وله ابنة غير هؤلاء الإناث تُدعَى «توت آمون» Theutamon وُجِد لها أواني أحشاء (راجع Cairo Museum)، كما ذكر اسمها في قبر والدها «تحتمس الرابع» (راجع Carter and New-berry, Ibid). وله ابنة أخرى تُدعَى «تاعا»، وُجد لها أواني أحشاء (راجع P. S. B. A., XXV, 359)، كما ذُكر اسمها في قبر «حامل خاتم» (ibid 359).

(٤) وفاة «تحتمس الرابع»



شكل ٢: تحتمس الرابع وزوجه «تي عا».

والظاهر أن آخر عمل صالح قام به «تحتمس الرابع» هو إقامة مسلة جده «تحتمس الثالث» التي نقشها وبقيت مُلقاةً في مكانها خمسة وثلاثين عامًا، كما ذكر لنا «تحتمس الرابع» نفسه (راجع الجزء الرابع)، ثم صعد بعدها إلى السماء وهو لا يزال أخضر العود غضَّ الإهاب، وكانت مدة حكمه لا تزيد على ثمانية أشهر وتسعة أعوام، كما ذكر لنا «مانيتون»، وقد دُفن في مقبرته التي أعدَّها لنفسه في وادي الملوك، ثم نُقل منها في عهد الفوضى التي حدثت في نهب قبور الملوك والعظماء في أثناء البحث عن الكنوز في عهد «رعمسيس التاسع»، وقد أُودع هو وابنه العظيم وغيرهما من الفراعنة العظام في قبر «أمنحتب الثاني»، وبقي في هذا المكان إلى أن كَشَف العالِم «لوريه» عن قبر الأخير في

عام ١٨٩٨م. أما قبره هو فكان أول سلسلة من القبور الملكية التي كَشَف عنها «ثيدور ديفيز» وفُتح في عام ١٩٠٨. وكان بطبيعة الحال قد نُهب في الأزمان القديمة، ولكن مع ذلك وُجد فيه عِدَّة قِطَع أثاث لها أهميتها، وبخاصة عربة حربه التي كُسِي جزؤها الخشبي بالكتان ووضع عليه طبقة من الجص نُقش عليها مناظر حرب بالنقش الغائر. وتُعدُّ من أحسن القطع الفنية التي ورثناها من عهد الإمبراطورية المصرية، وبخاصة رسم أول موقعة حربية عرفناها من عهد الإمبراطورية. وعلى الرغم من أن مدة حكم هذا الفرعون كانت قصيرة المدى فإن مصر بدأت في عهده سياسة جديدة عادت على البلاد في المستقبل بنتائج مباشرة وغير مباشرة على أعظم جانب من الأهمية في مد سلطانها وتكوين إمبراطوريتها العظيمة. وتلك كانت سياسة التحالف التي عُقدت بين «مصر» وبلاد «متني»، وهي التي قد وطدت أركانها بزواج الفرعون من أميرة «متنية» الأصل. وهذه أول مرة نعرف فيها أن ملكًا مصريًّا تزوج من أميرة أجنبية.

وقبل أن ننتقل إلى حكم العاهل العظيم «أمنحتب الثالث» يجدر بنا أن نُلقِي نظرة عامة عن علاقة «مصر» بالدول المجاورة التي كانت قد أخذت تَظهَر في الأفق بصورة بارزة.

(٥) علاقات مصر بالدول المجاورة

لقد كان من جرَّاء توطيد سلطان مصر في أنحاء الإمبراطورية التي أسَّسها «تحتمس الثالث» بحدِّ السيف، ثم حافظ على كيانها من بعده ابنه «أمنحتب الثاني» بما أوتي من قوة وعزيمة أنْ ساد السلام بعد حكمهما جيلين من الناس. وتدل شواهد الأحوال على أنه لم يَدُرْ بخَلَدِ أيِّ عاهل جاء بعدهما توسيعُ رقعة إمبراطوريته بعد «نهر الفرات» في داخل آسيا. وقد خلقَ هذا الجوُّ العالَمي الذي كان يَسودُه روحُ السلام علاقاتِ الوُدِّ والمُهادنة بين الفراعنة وملوك الأمم العظيمة المجاورة للعاهلية المصرية؛ ولذلك كانت المراسلات التي تَدُور بين مصر والأمم التي حَوْلَها مُفعَمة بالمَحبَّة الخالصة والوُدِّ الصادق، حتى إن فرعون مصر كان يُخاطب أندادَه كما يخاطب الأخُ أخاه والصديقُ الحميمُ صديقَه، حتى ارتفعت بينه وبينهم كل التكاليف الرسمية. ولذلك نقرأ في المكاتبات التي كانت تدور بينه وبينهم أن الفرعون كان يرجو لهم كل خير، كما كانوا يحبونه راجين له كل فلاح. ولكل أهل بيته وعظماء دولته وحتى خيله وعرباته وبلاده كل خير وسعادة. ولقد كانت هذه المجاملات بين الفرعون وأصدقائه من ملوك الأمم الأخرى مَرْعيَّة لدرجة عظيمة جدًّا،

حتى إن ملك بابل المسمى «بورنابورياش» Burnaburias عتب على «أمنحتب الرابع» وعلى زوجه «نفرتيتي» في رسالة مُظهِرًا أَلَمَه الشديد لإهمالهما السؤال عنه وهو طريح الفراش. وقد جاء ردُّ فرعون مصر على هذا العتب رقيقًا مهدِّئًا لخاطر صاحبه؛ إذ اعتذر إليه في أدب جمٍّ قائلًا: «إنه لم يعلم بمرضه، وإن بُعْد الشُّقَّة بينهما كان السبب الوحيد في عدم معرفته المرض الذي أصابه.» (راجع "Mercer, "The Tell Amarna Tablets, Vol. I. p. 21. No. 7).

وقد كانت العادة المتبعة في المراسلات بين هؤلاء الملوك أن تبدأ الرسالة بذكر اسم المُرسَل إليه ثم يُذكر اسم المُرسِل بعدُ، غير أنه عُثر على خطاب جاء فيه لَفْتُ نظر لمراعاة آداب الكتابة في هذه النقطة. ولكن مما يُؤسف له جدَّ الأسف أن الرسالة وصلتْ إلينا مهمشَّة، فلم نَقِف على حقيقة محتوياتها ومراميها (راجع Am. 42, 15). فقد جاء فيها لماذا وضعتَ اسمَك فوق اسمي؟ غير أننا لا نعلم علاقة ذلك بما جاء في باقي الرسالة.

(٥-١) المصاهرة

وكان من أهم روابط الوُدِّ والمُصافاة بين ملوك هذا العصر المصاهرة، غير أنها لم تَقُمْ على قَدَم المساواة بين مصر وجيرانها وحليفاتها على وجه عام. وذلك أن ملوك مصر كانوا يستحلُّون لأنفسهم الزواج من بنات الملوك حلفائهم. وفي الوقت نفسه كانوا يُحرِّمون بناتِهم على الأمراء الأجانب مهما كانت منزلتُهم ومهما عظُم سلطانُهم. ولقد كانت العادة المتبعة في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وبخاصة في عهد النصف الثاني من حُكْم فراعنتها أن يتزوَّج الفرعون عند اعتلائه العرش من بنت أو أخت أحد الملوك العظام المُصادقين له. وقد ضَرَب «أمنحتب الثالث» الرقم القياسي في هذا المضمار، إذ كان من بين نساء قَصْرِه عِدَّة غانيات من الأميرات الأجنبيات اللائي بَنَى بهن. فنعلم أنه تزوج من أخت مَلِك بابل المسمى «كاداشما نخرب» ثم بَنَى بأخته أيضًا، وكذلك تزوج من أخت ملك متني «دوشرتا» ثم من أخته هذا، إلى أنه تزوج من بنت ملك «أرزاوا» المسمى «تارخونداراب» وهو أحد أمراء سوريا. وعلى الرغم من إسرافه في التزوج بأجنبيات لم يرضَ أن تكون واحدة منهن مَلِكة شرعية على عرش البلاد. بل تزوج من إحدى بنات الشعب وفضَّلها على كل الأجنبيات متخذًا إياها ملكة شرعية على أريكة مصر.

ولما سولت نفسُ مَلِك بابل المسمى «كاداشمان إنليل» له أن يطلب الزواج بأميرة مصرية، كان جواب الفرعون «أمنحتب الثالث» له أن قال: «إنه منذ القِدَم لم تُعطَ بنتُ

فرعون إنسانًا.» فأجابه مَلِك بابل على هذا قائلًا: «لماذا؟ إنك مَلِكٌ، ولك أن تفعل كما يحب قلبك، فإذا أعطيتَنِيها (أيِ الأميرة المصرية) فمَن ذا الذي يجسر أن يَنْبِسَ بأية كلمة؟ وإذا لم تُرسِل أحدًا فإن ذلك يعني أنك لا ترعى أية حرمة للإخاء والصداقة … ولأي سبب لا يرسل لي أخي زوجة؟ وإذا لم ترسل أحدًا فإني سأفعل مثلك وأمتنع عن إرسال زوجة لك.»[٩]

والواقع أن الفرعون المصري على الرغم مما بينه وبين ملك «بابل» من علاقة طيبة كان يأبَى أن تتضاءل نفسه وتتنزل من عليائها ويجعل الدم الإلهي المصري يختلط بدم أجنبي آخر خارج بلاده. ومع أن هذا الامتناع من جانب الفرعون كان يغضب أحيانًا أصدقاءه من الأمراء جيرانه، إلا أنه كان من جهة أخرى في يده سلاحًا آخَرَ قهارًا يجعلهم يأتون إليه صاغرين مُتزلِّفين. بل كان يجعلهم طَوْعَ بنانه، ذلك السلاح هو الذهب الذي كانت تزخر به «مصر» وتجمعه من ممتلكاتها بالقناطير المقنطرة، وقد كان نادرًا في البلاد الأخرى، مما جعل الأمراء يتهافتون للحصول عليه، فقد كتب «دوشرتا» ملك «متني» للفرعون يقول: «إن الذهب في مصر مثل التراب في غزارته.» من أجْل ذلك كان يُلِحُّ في طلبه ليرسل إليه الفرعونُ ذهبًا لا يُحصى (راجع Mercer, Ibid: 19, 61; 20, 52, 71; 26, 41, 20, 136)، وكذلك كان مَلِك «بابل» يلتمس من الفرعون دائمًا، بل يُلحِف في طلب الذهب لإنجاز ما كان يقوم به من الأعمال. ومن الغريب أن أحد هؤلاء الملوك كان يَحرِص على أن يكون ما يُرسَل إليه من الذهب في شكل سبائك ليَعرِف مقدار صفائه وعدم غشِّه. والواقع أن كثيرًا من أولئك الملوك قد شَكَوْا من الذهب الذي أرسله الفرعون إليهم، محتجِّين بأنه لم يكن ذهبًا نُضَارًا، بل كان يحتوي عناصر أخرى تُقلِّل من قيمته (راجع Am. 7, 70; 10, 18). وكان ملك «آشور» يطلب الذهب ليستعمله في زخرف مباني قصره وتزيينه (راجع Am. 16, 14ff: 19ff).

أما ملك «ألاشيا» (قبرس)، فكان متواضعًا في طلباته؛ لأنه كان يَعُدُّ نفسَه من أتباع الفرعون؛ ولذلك كان يطلب إليه فضة، ثم يُلِحُّ في طلب زيت لشدة حاجته إليه في بلاده. وفضلًا عن ذلك كان تيار تبادل الهدايا بين ملوك «آسيا» «ومصر» لا تنقطع أسبابه، ولا أدلَّ على ذلك من القوائم المملوءة بأنواع السلع المتبادَلة بين ملوك مصر وملوك آسيا

[٩] راجع: Mercer, Ibid. No. 4.

العظام. وقد جاءت هذه القوائم مفصَّلة مبيَّنًا فيها مقادير الهدايا كما ذُكرت لنا أسماء القُوَّاد الذين كان يُكلَّفون حملَها. وكذلك ذُكرت فيها أسماء الغواني اللائي كُنَّ يُرسَلن هدايا للفرعون. ومن هذه القوائم نعلم أن «بابل» كانت مختصة بإرسال «اللَّازَوَرْد الأزرق» الذي كان المصري يَعُدُّ الحصولَ عليه مغنمًا عظيمًا لندرته في بلاده. أما «قبرص» فكانت بالإضافة إلى ما تُصدِّره من سِنِّ الفيل تَشحِن إليها الأخشاب والحبوب وكميات عظيمة من النحاس الذي كان يوجد فيها بمقادير وفيرة، وتقصُّ علينا الآثار أن مقدار النحاس الذي كان يُرسَل إلى مصر من قبرص قد قلَّ وتضاءل، وأن السبب في ذلك يرجع إلى أن يد «ترجال» «إلهة الطاعون» قد أوْدَتْ بحياة رجال ملك «قبرص»، بل اختطفتْ حياةَ ابنِه؛ ممَّا أدَّى إلى شلِّ حركة استخراج النحاس؛ ولهذا السبب نفسه بقي رسول الفرعون الذي أرسله لهذا الغرض في قبرص مدة ثلاثة أعوام (راجع Am. 35, 8).

أما مملكة «كاردونياش» أيْ (بابل) فقد كانت العلاقات بينها وبين مصر تسير على أحسن ما يُرام منذ عهد مَلِكِها «كارايندا‌ش» الأول Karaindas وهو الملك السادس عشر بالنسبة لترتيب أسرة الكاسيين (راجع Am. 10; 8) (١٤٥٠–١٤١٥ق.م) وهو أحَد أخلاف ملوك «سنجار» (بابل) التي سجل «تحتمس الثالث» على آثاره الهدايا المقدمة إليه من أميرها. وكذلك في عهد «أمنحتب الثاني». ويُعدُّ اعتلاؤه عرش بابل خاتمة فترة طويلة مجهولة من تاريخ هذه البلاد يبلغ مداها حوالي مائتي سنة، وقد بدأ منذ عهده يكشف أمامنا عن تاريخ هذه البلاد بعض حقائق ضئيلة. فقد عُثر على آجرَّة كُتبت بالخط المسماري في معبد «إنا» للإله «نانايا» صاحب «أوروك» Uruk نُعت فيها بالمَلِك القوي «ملكُ بابل» وملك «سومر» «وآكاد» وملك «كاششو» Kassu وملك «كاردونياش» Kardunias. ويلاحظ في ألقاب هذا الملك أنه قد حَرَص فيها على ذكر السلالات الهامة التي يسيطر عليها، وهو في ذلك يختلف عن ملوك الأُسَر القديمة، على أن معظم أخلافه من ملوك الأسرة الكاسية، كانوا لا يَحمِلون لَقَب مَلِك على الرغم من أنهم كانوا دائمًا الطبقة التي يتألَّف منها المحاربون وأصحاب السيطرة على البلاد. ومهما يكن من أمر فإن الدولة كانت في ظاهرها آخذةً دائمًا في التقمُّص بالثوب البابلي، أما في الداخل فإنها لم تتخذ لونًا جديدًا في قوتها؛ إذ كانت حركة التجارة تسير في مجراها القديم. وكذلك كانت ثقافتها ومعتقداتها الدينية تتأثران طريقيهما القديمتين، ولم يحدث في البلاد جديد في خلال مائة

السنة الأخيرة من العصر الذي نحن بصدده، وذلك على عكس البلاد المصرية التي كانت تسير بخطوات واسعة في كل فروع المدنية والثقافة، وليس لدينا وثائق من هذا العصر نستطيع أن نترسَّم الخُطَا التي كانت تنزلق فيها بلاد «بابل» نحو الهاوية السحيقة التي أودت بها إلى الحضيض.

والواقع أن الدور الذي لعبتْه «بابل» على مسرح التاريخ العالمي، قد أُسدل عليه الستار في أواخر الأسرة الأولى من تاريخها، وكل ما أبقتْ عليه لنا يد الدهر بعد ذلك لا يتجاوز التقاليد الجامدة، التي ظلت تترنح ثم تنكمش وتذبل حتى يبست وأمست هشيمًا الْتَهَمَتْه نار الزمن. من أجْل ذلك لم يكن في الحسبان قط أن تستيقظ من سباتها العميق، وتطفر طفرة فتية خارج عقر دارها، بل ظلت قابعة منكمشة في مهدها راضية بنصيبها؛ ولذلك لما رغب «الكنعانيون» في القيام بثورة على الحكم المصري وولَّوْا وجوهَهم شطر «كاريجالوزا الثاني» (١٣٩٠–١٣٧٥ق.م) وهو ثاني أخلاف الملك «كارايينداش» ليأخذ بناصرهم في عصيانهم هذا، أبَى إجابةَ مطلَبِهم، فكان ذلك مما رفع منزلته في عين الفرعون، بل زاد في توثيق عُرَا الصداقة بين البلدين (راجع Am. 9, 19).

أما عن مملكة «إلام» وعلاقتها بالأمم المجاورة، فليس لدينا أية معلومات عنها في هذا العصر.

وفي تلك الفترة كان «باتيسي» (كاهن بلاد آشور) يسيطر على مَن في حوض نهر «دجلة» حتى «ديالا» Diala وهو الإقليم الذي كانت تسيطر عليه مملكة «متني» في الأزمان السالفة. وعلى ذلك لم يكن لحكام «بابل» أي مطمع في مدِّ سلطانهم على هذا الإقليم؛ ولذلك اكتَفَى «كاريينداش الأول» بعقد معاهدة بينه وبين «آشور بلنيششو» Assurbelnisesu ملك آشور عام ١٤٣٠ق.م، كان أهم شرط فيها أن تبقى الحدود بين البلدين ثابتة.

وفي خلال تلك المدة ظهرت في عالَم الوجود مملكة «متني» أو «خانيجالبات» Chenigalbat قوية السلطان يجلس على عرشها الملك «ساوششتار» Saussatar الذي كان يعاصر الفرعون تحتمس الثالث. وقد حافظت على مكانتها وقوتها في عهد أخلافه، بل زادت في فتوحها وعظمتها، وقد استمرت في طريقها هذه حتى قام الملك «مورسيل الثاني» عاهل مملكة «الخيتا» يناوئ مَلِكَيْ «متني» و«حلب» ويَقلِب لهما ظَهْرَ المِجَنِّ؛ لأنهما كانا قد أعلنا فيما مضى الحرب على ملك «الخيتا» «دودخاليا الثاني» وبخاصة على الملك «خاتوسيل» Chattusil حوالي عام ١٤٣٠ق.م، وقد كان موقف بلاد «الخيتا»

في خلال هذه الفترة حَرِجًا؛ لأنها لم تفقد سيطرتها على سوريا وحسب، بل انتُزعت منها الأراضي الجبلية الواقعة في أعالي نهر «الفرات» وفي شرقي «آسيا» الصغرى.[١٠]

وكان إقليم «أشوا» Isuwa الواقع شرقي منحنى نهر الفرات حتى منابع نهر «دجلة» منضمًّا إلى مملكة «متني»، هذا إلى أن سكان المقاطعات الواقعة شرقي إقليم جبل «طوروس» قد هجرها سكانها واستوطنوا الأراضي الواقعة في الجهة الأخرى من نهر الفرات، يضاف إلى ذلك أن ملك «كيزواتنا» Kizzuwatna الواقعة في شمال خليج إسوس،[١١] قد نقض ميثاقه مع مملكة «خيتا» وانضم إلى مملكة «متني».

ومما زاد الطين بلَّةً، وجلب الخيبة والارتباك في بلاد «خيتا» أن ملك «أرازاوا» Arzawa الذي كان يمتد سلطانه على سهول «كلكيا» العليا (سلسيا) قد أبرم معاهدة مع مصر، وكانت سهول «كلكيا» هذه تُعدُّ أخصب بقعة في آسيا الصغرى، وكان لا بد لملك «خيتا» أن يسيطر عليها إذا أراد الزحف على «سوريا»، كما أن هذه البلاد بعينها كانت ضرورية لمصر إذا كانت تريد المحافظة على سلطانها في شمال «سوريا»، ومن أجْل ذلك أرسل «أمنحتب الثالث» الهدايا الثمينة إلى ملك هذه البلاد «تارخونداراربا» Tarchundarba فطلب إليه أن يزوِّجه ابنتَه. ومما يَلفِت النظر في الرسائل التي دارت بين الفرعون وبين ملك هذه البلاد أنها لم تكن مدونة بالصيغة الرسمية المعتادة عند مخاطبة النِّدِّ للند، فلم يُخاطِبه الفرعون بلفظة «أخي»، هذا فضلًا عن أنه وضع اسمه في أول الخطاب بدلًا من اسم المُرسَل إليه كما جَرَتِ العادة وعلى حسب التقاليد الرسمية، ويحتمل أن الفرعون «أمنحتب الثالث» قد انتهج مع «تارخونداراربا» هذا الموقف الشاذ؛ لأن الأمير الذي كان يسيطر على هذا الإقليم كان يُلقَّب «ابن الملك» أيْ نائب ملك «مصر» في هذه الجهات، كما كانت الحال في بلاد «كوش»؛ وكانت التقاليد تحتم على مَن يحمل لقب «ابن الملك» أن يخاطب الفرعون بالعبارة التالية: «سيدي ملك مصر ووالدي». وقد أرسل أمير هذه البلاد رسوله الخاص مع سفير الفرعون العائد من بلاد «خيتا» مزودًا بالهدايا المؤلفة من ستة عشر رجلًا لوالده (أي لملك مصر) (Am. 44). كما كان يخاطبه. وقد طلب إليه بطبيعة الحال أن يرسل إليه ذهبًا مما تزخر به أرض «مصر».

---

[١٠] راجع: Albrecht Goetze, “Kizzuwatna & the Problem of Hittite Geography”, (Map).

[١١] راجع: Albrecht Goetze “Kizzuwatana & the Problem of Hittite Geography”, (Map).

والواقع أن هذا الأمير لم يكن من رعايا فرعون «مصر»، فلم يكتب إليه بالصيغة التي كان يتحتم على التابع المصري أن يخاطب بها مليكه، إذ كان لزامًا عليه فيها أنه يُقبِّل الأرض بين يَدَيْ سيِّده سبع مرات، بل كان أميرًا مستقلًّا في بلاده، وتقع بلاده على وجه التقريب في إقليم «أمانوس» (جنوبي جبال «طوروس» وغربي أعالي نهر الفرات).[١٢]

أما مملكة «متني» فقد استمر السلام سائدًا بينها وبين مصر منذ عهد «تحتمس الثالث»، ولم يحدث ما يكدر صفو العلاقات بين البلدين بل على العكس ازداد توثق علاقات الود والمهادنة بينهما في عهد ابن «سوششاتار» المسمى «أرتاتاما». وقد تزوج الفرعون «أمنحتب الثالث» أو «تحتمس الرابع» من ابنته بعد أن طلب يدها منه للمرة السابعة، والظاهر أن ملوك «متني» كانوا لا يُجيبون بالرضا عن زواج بناتهم إلا بعد لَأْيٍ وتردُّد شديدَيْن، فقد طلب الفرعون «أمنحتب الثالث» إلى ملك «متني» «سوششاتار» البناء بأخته «جلوخيبا» ست مرات، وأخيرًا تزوج منها في السنة العاشرة من حكمه عام ١٣٩٥ق.م، وقد وصلتْ إلى مصر وفي ركابها سبع عشرة وثلاثمائة غادة من غواني بلاد «متني»، وقد كان حادث هذا الزواج موضع فخاره حتى إنه سجَّله بطريقة مبتكرة؛ إذ قد نقش تاريخ هذا الحادث المدهش على جُعَلٍ كبير الحجم، ونَسَخ منه صُوَرًا عِدَّة، كما يحدث ذلك الآن عندما يُراد تخليد ذكرى أيِّ حادث عظيم فيُعمل طابع بريد خاص. ولقد كان غرضه أن يبقى تذكار هذا الحادث خالدًا عند الأجيال المقبلة، على أن «جلوخيبا» لم تصبح ملكة «مصر» الشرعية لأنها أجنبية. وقد ذكر «أمنحتب الثالث» على هذا الجِعْران خوف اللبس اسم زوجته الشرعية الملكة «تي» المصرية المنبت، كما ذكر اسم والديها على هذا الجُعَل التذكاري منوِّهًا بأنهما من عامة الشعب، وأنه كان فخورًا بهذا الزواج الخارج عن تقاليد بيت الملك.

والواقع أنه على الرغم من المنزلة التي كانت تحتلها مملكة «متني» وما كان بينها وبين مصر من علاقات ودية، وما كانت تمدها به مصر من الذهب الذي كانت دائمًا في حاجة إليه، فإن كل ظواهر أمورها تدل على أنها كانت أقل مرتبة من مصر من كل الوجوه. فإنها لم تكن قد خَطَتْ خطوة واحدة نحو التقدُّم في داخليتها؛ إذ كان ينقصها الأسس المتينة في تكوينها الأصلي، فقد كان معظم سكانها ليسوا من أصل «خاري»

[١٢] راجع: Albrecht Goetze, “Kizzuwatana & the problem of Hittite Geography”, (Map).

(متني)، كما أن الوظائف الرئيسة فيها كانت في يد الطبقة العليا من «الماریاني» وهم قوم من سلالة «آريَّة»، هذا بالإضافة إلى أن العناصر التي كانت تتألف منها البلاد لم تكن متحدة في عقائدها الدينية؛ إذ كان «الخاريون» من جهة يتعبدون للإلهين «تشوب» Tesub و«شميكي» Simike كما كانوا يعبدون الإله «شاوشكا» Sau-ska، ومن جهة أخرى كانت تُعبَد في البلاد الآلهة الهندية، ومن بينهم المعبودان «عشتارت» و«شاماش». ومن أجْل ذلك لما حدثت الاضطرابات التي أعقبت موت «دوشرتا» انقلب الخلاف الذي كان قائمًا بين «الخاريين» أو (الحورانيين) وبين «الماریاني» إلى حروب طاحنة سالت فيها الدماء.

ولا نزاع في أن رجال الفئتين قد قاموا في الماضي بأدوار تكاتفوا فيها سويًّا، وكان في مقدورهم أن يتعاونوا معًا عندما وقع «أرتاشوارا» Artasuwara ابن «شوتارنا» ضحية مؤامرة كانت نتيجتها أن تولَّى قاتلُه «توخي» الوصاية على عرش البلاد بدلًا من «دوشرتا» الذي كان لا يزال قاصرًا. غير أن «دوشرتا» توصل في نهاية الأمر إلى تخليص نفسه وعاقب قاتل والده، كما قضى على حزبه حوالي عام ١٣٩٠ق.م.[١٣]

ثم أعقب ذلك انتصار باهر أحرزه على «خيتا» عندما هاجمت بلاده، كل ذلك هيأ له الفرص لتوطيد العلاقات الودية بينه وبين مصر لتكون سندًا يرتكز عليه عند الشدائد لمنازلة أعدائه (راجع Ed. Meyer, “Gesch”. II, I. p. 151ff).

(٦) الموظفون والحياة الاجتماعية في عهد «تحتمس الرابع»

(٦-١) أيبي

كان «أيبي» يحمل لقب المشرف على سفن «تحتمس الرابع» في معبد «آمون» (L. D. III, Pl. 264)، وقبره في جبانة «شيخ عبد القرنة»، ويحتوي على منظر الوليمة الأسرية المعتاد وصور أقاربه (Champollion, “Notices” p. 519)، ونجد من بين أولاده واحدًا يُدعَى «دنرجي» يحمل الألقاب التالية: الحاكم والمشرف على الكهنة، والكاهن الأكبر، ومدير بيت الإله «منتو» رب «أرمنت»، وله ابن آخر يُدعَى «پاي» وكان يحمل لقب الكاهن الأول «لتحتمس الرابع» (L. D. III, Text. p. 264).

[١٣] راجع: Ed Meyer, “Gesch”. 11, 1, p. 151–61. & Albrecht Goetze, ibid p. 75–81.

(٦-٢) أمنحتب ساسي

أمنحتب (الرجل المهذب) كان يحمل الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والوالد الإلهي، ومحبوب الإله، وعينا ملك الوجه القبلي، وأُذُنَا ملك الوجه البحري، والكاهن الثاني للإله «آمون»، وعينا ملك الوجه القبلي في «أرمنت»، وحامل خاتم ملك الوجه البحري (Davies, "TheTombs of Two Officials of Thothmes IV", Pls. IV, IX) وقبر هذا الموظف في جبانة «شيخ عبد القرنة»، (رقم ٧٥) (راجع Porter and Moss, "Bibliography", I. p. 102–3). ويُرى على جدرانه من التشويه والتخريب ما يدل على أن صاحبه كان مغضوبًا عليه؛ لأننا نجد أن صورته قد مُحيت محوًا تامًّا عن قصد في كل مكان وُجدت فيه، وكذلك صورة زوجِه، اللهم إلا عندما كانت تقوم بدور مغنية الإله «آمون». على أن المحو لم يقف عند هذا الحدِّ بل تعدَّاه إلى طائفة من خَدَمِه. وكذلك نرى أن اسم «آمون» قد مَحَتْه شيعة «آتون»، وكذلك صور الكاهن «سم»، ولكن الأذى الذي لحق بجماعة النسوة المشيعين للجنازة، ومحو المتون الخاصة بالشعائر الجنازية وإن كانت قد تُعزى إلى شيعة «آتون»، إلا أنه من المحتمل كذلك أن تكون محاولة من جانب أعداء «أمنحتب ساسي» لإيقاع الضرر بمدفنه الحسن.

والقبر يحتوي على بعض مناظر أُتقِن رسمُها، وفي استطاعتنا أن نعرف بينها عمل مفتنِّين؛ أولهما: الرئيس الذي رسم المناظر الهامة والأشكال، والآخر: أقلُّ منه حذقًا وإتقانًا، وكان عمله منحصرًا في رسم أشكال تقليدية، ويحتمل كذلك أنه رسم الأثاث، (Davies, Ibid, p. 3). فنشاهد منظر وليمة يشتمل على بعض أوضاع غريبة؛ إذ المعتاد في رسم هذا المنظر أن نجد صاحب المقبرة وزوجه يجلسان أمام الضيفان، ولكن هنا نشاهد منظرًا خارج المنزل الذي أُقيمت فيه الوليمة، و«أمنحتب» نفسه يدخل بعربته من باب البيت يتقدمه سائسان ويتبعه أربعة خَدَم حاملين أمتعته الشخصية.

ولدينا منظر هام نُشاهِد فيه «أمنحتب» يتسلم وظيفة الكاهن الثاني للإله «آمون» (راجع Davies, ibid, Pls. XIII, XIV. p. 8ff). والمتن المفسِّر لهذا المنظر قد هُشِّم، ولكنا نفهم مما تبقَّى منه ما يُساعدنا على تفسير المنظر: «وقد وجد (المَلِك) أني رجل مفيد لسيده، وجعلني أغرس لنفسي في السماء (أي المعبد).[١٤]

[١٤] أيْ أغراس شيئًا لأتعلَّم به.

> وقد عَرَفتُ السِّرَّ الذي فيه، وتعلمتُ القواعد لاستعطاف الإله، وتقديم العدالة لسيدها، وقد صدر الأمر لأصدقاء الفرعون بالنطق بالمدائح تعبُّدًا للملك وقد كان الترحيب في فم الكهنة والموظفين، وقد ظهروا، وكانت أفواههم ملأى بـ … وقد عُيِّنتُ كاهنًا ثانيًا … الوجود السري لرب الآلهة، وقد كنتُ أعرف كل شيء خفي، وكل الأبواب قد فُتحت لي … الطريق … وحُرَّاس الأبواب يكشفون عن الإله في يوم … وكنت … إلى المعبد، وكان فَمِي سليمًا وأصابعي ماهرة إلى أن أستريح في مكاني في الجبانة.

وفي أسفل هذا المنظر نشاهد صورتين عظيمتين هما بلا شك «لأمنحتب» وموظف آخر، قد وُكل إليه وضعُه في منصبه الجديد، غير أن كليهما قد مُحي. وبعد ذلك نرى مغنيات «آمون» ومن بينهن زوج «أمنحتب» وبناته آتيات لمقابلة الموكب عند دخوله المكان المغروس بالأشجار الواقع أمام (بوابة) معبد «آمون» في الكرنك، وهنا يشاهد واجهة المعبد (ببواباته) المُزيَّنة بالشرفات، وبعَمَد أعلامها، وبباب ضخم يكتنفه تماثيل ضخمة للفرعون.

وبعد أن نُصِّب «أمنحتب» هذا كاهنًا ثانيًا في معبد «آمون» كان لزامًا عليه بعد ذلك أن يفحص مصانع ضياع «آمون» إلهه، فنشاهده يُشرِف أولًا على وزن المعادن الثمينة التي كانت تُسلَّم للصُّنَّاع الذين يُشاهَدون منهمكين في صياغة أشياء مختلفة. وفي جهة أخرى نجده يفحص أعمال صُنَّاع العربات والسُّرُج (Dàvies, ibid, Pls. VII–VIII).

وبعد الفراغ من فحص المصانع يتجه «أمنحتب» إلى حصاد المحصول؛ حيث يفحص تسجيل كل شيء. فالقمح الذي كان لا يزال واقفًا في الحقل كانت تُمسَح حقوله بحبال ملفوفة على بكرة لها رأس تَيْس، وقد كانت هذه العملية بمثابة ضابط لمنع السرقة التي كانت تحدث غالبًا بين الحقل والمخزن. وقد كانت هذه العملية تُجرَى بأخذ نسبة محصول قطعة صغيرة من الأرض ثم يُقاس عليها، وبذلك كان يُعرَف مقدارُ المحصول الذي لا بد أن يُورَّد إلى مخزن الإله. وأخيرًا، كان يُكال الحب الذي حُصد ويُسجِّله كُتَّاب. ويُلحظ هنا أن فلاحًا قد ارتكب غلطة كان يُعاقَب عليها بالضرب أمام رجل عظيم (راجع Davies, ibid Pl. IX). وفي منظر آخر نرى «أمنحتب» يستعرض أمام الفرعون «تحتمس الرابع» ثمرة نشاطه وهي الهدايا التي يقدمها له (راجع Davies, ibid, XII)، ولذلك يقول المتن:

> فحص الهدايا الملكية واستعراضها أمام … على حسب أمر ورغبة جلالته لجعل قلب جلالة رب الآلهة راضيًا … وباحثًا عما يمكن أن يخدم به والده «آمون»

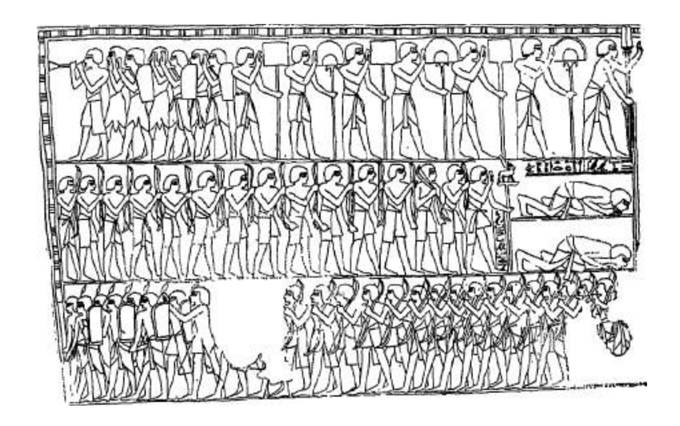
ومزيِّنًا بيته بالذهب، ولقد كان لذلك يخطئه التسجيل كتابة — من كل أنواع الآنية التي لا حصر لها، وقلائد منات وصاجات وقلائد؟ ... وتماثيل ... ملك الآلهة. وقد كان الكاهن الثاني معتادًا أن يخرج ممدوحًا ومحبوبًا من حضرة جلالته.

وهذه الهدايا كانت تنتظم تماثيلَ ومجوهراتٍ وأوانيَ معدنية ... إلخ، وأخيرًا نقش على جدران قبره المناظر الجنازية، ولا يزال يُرى منها بعض المحافل العادية، وكذلك منظر رحلة المومية لزيارة «العرابة المدفونة» (راجع Davies, ibid, Pls. XV, XVII & Urk. IV, p. 1216).

(٦-٣) نب آمون

يُعدُّ «نب آمون» من الموظفين العظام في عهد الأسرة الثامنة عشرة الذين وصل إلينا شيء يُذكر عن تاريخ حياتهم الحكومية. وتدل ظواهر الأحوال على أنه كان أول ظهوره في ميدان العمل الحكومي في خدمة الفرعون الخاصة؛ إذ كان يشغل وظيفة «ياوره» في كل حملاته في الجنوب والشمال، كما كان يُلقَّب «قائد جنود عديدين»، وقد كانت أول وظيفة هامة رقي إليها هي حامل عَلَم السفينة الملكية «مري آمون». (راجع Davies, ibid, Pl. XXVI)، وهذه الوظيفة تُعادل الآن «قائدًا بحريًّا». ولا نزاع في أن وظيفته كانت حربية، ولا أدل على ذلك من أنه رَقِيَ فيما بعدُ إلى رتبة رئيس الرماة (قائد المشاة) ثم رئيس الشرطة في «طيبة الغربية» (Ibid Pl. XXXIII). وقد خدم هذا الموظف في عهد الفرعونين: «تحتمس الرابع» و«أمنحتب الثالث»؛ إذ نجده في حكم الأول يقدِّم له تقاريره الرسمية، وفي عهد «أمنحتب الثالث» نجد في أحد مناظر المقبرة طُغْراء هذا الفرعون على (بوابة) المعبد (راجع Ibid, Pl. XXXIII).

على أن ترقية «نب آمون» إلى وظيفة رئيس الشرطة قد هيأت له على ما يظهر فرصة تمكنه من القيام بخدمة سيده دون كبير عناء في تجشُّم الأسفار معه، وبخاصة بعد تقدُّم سِنِّه، والمتن الذي يحدثنا عن هذه الترقية يرجع إلى السنة السادسة من عهد «تحتمس الرابع» (راجع Ibid, p. 35. Pl. XXVI). وهو: «أمْرٌ صادر من جلالة صاحب القصر (له الحياة والسعادة والصحة) في هذا اليوم إلى الأمير، قائد سفن الوجه القبلي والوجه البحري، والأمر هو كما يأتي: إن جلالتي (له الحياة والسعادة والصحة) قد أمر أن تَستَقبِل عُمْرًا



شكل ٣: «نب آمون» يتسلَّم وظيفة رئيس الشرطة أمام جنوده واستعراضهم.

طويلًا طيبًا بحُظْوة الفرعون؛ لأنك تهتمُّ بأمْرِ «نب آمون»، حامل العَلَم في السفينة الملكية «مري آمون»، فقد بلغ سِنَّ الشيخوخة في خدمة الفرعون (له الحياة والسعادة والصحة) بثبات. وفي الحق إنه كان يتحسَّن كل يوم في إنجاز ما أُمر به، ولم يُقدَّم عنه تقرير (سيئ)، هذا فضلًا عن أنني لم أجِدْه قد تعدَّى حدودَه، وإن كان قد وُشِي به فعلًا، والآن قد أَمَرَ جلالتي أن يُمنَح وظيفة رئيس الشرطة في «طيبة» الغربية في مكان … وفي مكان «عظيم القوة» حتى يرتفع إلى سِنٍّ وقور، وأن يصبح له الحق قانونًا في بيته وماشيته وحقوله وعبيده وكل أملاكه في البحر والبر دون أن يُسمَح لأي مراقب ملكي أن يتدخل في أمرها، حامل علم السفينة الملكية «مري آمون» وقائد الجنود «نب آمون».» وهذا المتن نُقش في قبر «نب آمون» الواقع في جبانة «شيخ عبد القرنة» (رقم ٩٠)، ونستطيع أن نشاهده ممثلًا فيه وهو يتسلم رمز وظيفته والوثيقة بتعيينه، فنراه واقفًا وبيده عصاه ذات الطابع الخاص من التي نشاهدها في أيدي قبائل البدو.

وقد كانت بلا شك معروفة للجنود الذين تحت إمرته (Ibid. p. 35)، وقد تقبَّل «نب آمون» باحترام «علم الغزال» وهو رمز شرطة طيبة الغربية، ثم براءة تعيينه التي كانت موضوعة في أسطوانة صغيرة على هيئة عمود مُثِّل في صورة نخلة، وهذه قد قدَّمها له كاتب ملكي يُسمَّى «إيوني» الذي جاء لهذه المأمورية. ثم يأتي خَلْف «نب آمون» رجال

الشرطة الذين سيكونون تحت قيادته. ويلاحظ أن هؤلاء الشرطة قد اتجهوا اتجاهين، ويمكن تفسير ذلك بأنهم كانوا يستعرضون أمام «نب آمون» أو الفرعون. وهو يشاهد فرقة من الجنود العاملين يشتركون في الحفل، وكذلك يقف جنود يحملون الأعلام من كتائب مختلفة يُحيُّون الرئيس. ثم يصحبهم جنود من فرقتين مختلفتين ومعهم بوق يُعطِي إشارة التقدُّم أو التأخُّر في السَّيْر. وهؤلاء الجنود قد تركوا أسلحتهم جانبًا ولم يحملوا إلا دروعهم. ويُشاهَد اثنان من كبار الضباط قد انبطحا على الأرض؛ واحد منهم لم يُذكر اسمه، ويحتمل أنه هو الذي حلَّ محلَّ «نب آمون»، والثاني: هو قائد الشرطة في «طيبة» ويُدعَى «تري»، وجدنا اسمه في هذه المقبرة في مكان آخر، وقد يجوز أنه أخو «نب آمون» أو أحد أقاربه. أما الجنود فكان يقودهم ضابط شرطة يُسمَّى «مانا» ويحمل عَلَمًا، غير أن ملابسه لا تختلف عن ملابس معظم رجال الشرطة، ويُلاحَظ أن بعض الجنود كانوا مسلَّحين بعِصِيٍّ رماية، وبعضهم الآخر بحِرَاب، ولا يمكن تمييز ضبَّاطهم (انظر شكل رقم ٣).

ولدينا منظر آخر يظهر فيه «نب آمون» واقفًا أمام الملك، ويخيل أنه يحمل بإحدى يديه عَلَم السفينة الملكية «مري آمون»، ويقدِّم بيده الأخرى طاقة أزهار للفرعون، وأمامه خادمان يحملان رموز وظيفته، وهي (بلطة) وحزام وحُزمة أعشاب ومروحة، وكذلك نشاهده ممسكًا بحبل رُبط فيه جماعات من الأسرى السوريين، ويحتمل أن ذلك رمز لخضوع أملاك مصر لإدارة «نب آمون»، وكذلك كان يقدِّم الأسرى والجِزْية للملك، وأهم ما يسترعي النظر فيها جوادان غاية في الجمال والنشاط (Ibid. Pl. XXIX).

اقتراع المجندين السنوي

ولدينا منظر يدعو إلى الحيرة والدهشة معًا، يَظهَر فيه «نب آمون» كأنه عائد من حملة سورية كان قد رافق فيها الفرعون. فيُشاهَد وهو داخل إلى ميناء «طيبة» في سفينة مزخرفة بأجمل الزينة وبخاصة شُرُعها، وفي المؤخرة كان يجلس الفرعون في جوسق صغير يُحلِّق فوق رأسه إلهة العقاب، وبجانبه العربة الملكية، وفي أسفل المنظر جلس عدد من الرجال على كراسيٍّ، كما يُرى جمٌّ غفير من الناس رُسم بطريقة تدل على مهارة المفتنِّ المصري في الإخراج. وعلى اليمين يمكن رؤية منزل بيت «نب آمون»، ويُلاحَظ أن أربعة رجال وامرأة ينحنون بخشوع للقاعدين على الكراسي. وفي الجهة المقابلة من المنظر يُشاهَد مجنَّدون يجلسون على الأرض حاملين حقائبهم وأقواسهم على ظهورهم.

ويظن الأثري «ديفيز» أن هذا المنظر الأخير يمثِّل اقتراع المجندين السنوي، فالرجال الجالسون هم المجلس العسكري، فكان فريق من أعضائه يَنتَخِب المجندين الجُدُد، في حين كان الفريق الآخر يفصل في الشكاوى المقدَّمة من أقارب المجندين الذين يرجون الإعفاء، ثم يصدر بعد ذلك القرار النهائي، وأخيرًا كانت تُفرَّق الأسلحة والجِرايات على الرجال الذين وقع عليهم الاختيار.

ويحتوي قبر «نب آمون» غير ذلك على مناظر خاصة أو أُسرية؛ فمنها نعلم أنه كان قد تزوج باثنتين، ورُزق منهما ما لا يَقِلُّ عن ستٍّ أو سبعٍ بنات وسبعة ذكور.

وليس لدينا ما يثبت أن «نب آمون» قد تزوج بهما في وقت واحد أو بواحدة بعد انفصاله عن الأخرى. وقد ظَهَرت معه زوجه «تي» كثيرًا وحَبَاها بنقوش تدلُّ على حُبِّه لها أكثر من الأخرى التي كانت تُدعَى «موت نفرت».

وقد شَغَل منظرُ الوليمة في هذا القبر حيِّزًا كبيرًا، رُسِمتْ فيه كل صور أقاربه، وأهم ما يَلفِت النظر فيه منظر طائفة من المغنيات، رُسمت إحداهن بوجه كامل، وهذه ظاهرة نادرة في الفن المصري، والظاهر أن هذا الوضع كان مقصورًا على مَن ليس لهم مكانة في المجتمع المصري.

عمل رجال الشرطة

وقد رَسم المفتنُّ في هذا المنظر حادثًا صغيرًا في ذاته غير أنه من الأهمية بمكان لنُدْرته في مثل هذه المناظر. وذلك أنه صوَّر موظفًا جالسًا تحت شجرة وبيده غصن يَرمُز به للعِيد أو الفرح، وقد أتى إليه أخوه «تري» «أي أخو نب آمون» رئيس الشرطة في الحي الواقع غربي «طيبة» ومعه رجلان فبلغ الضابط «تري» عن الحالة قائلًا: «إن الحي الجنوبي والحي الشمالي يسود فيهما النظام.» ثم يضيف إلى ذلك رجاله، ويحتمل أنهم رجال (الدورية) للحيَّيْن: «إن المكان في أمانٍ، والنظام فيه جيد جدًّا.» ولا شك في أن هذا هو التقرير الذي كان يُقدَّم كل مساء بانتظام من رجال شرطة «طيبة». ولا ريب في أن مثل هذه اللمحات الخاطفة التي تطلع علينا من وقت لآخر من ثنايا النقوش تضع أمامنا صورة حية عن النظام المركَّب الذي كانت تعيش في ظله هذه العاصمة العظيمة في الأزمان السحيقة.

ونشاهد «نب آمون» في منظر آخر يُقدِّم شكره للإله «آمون» اعترافًا منه بالجميل لإكثار ماشيته وكرومه. وهنا نشاهد رسم معبد «آمون» وقد نُقش على بابه الكبير اسم الفرعون «أمنحتب الثالث». وكذلك يُرى بيت «نب آمون»، وهو مسكن جميل جدًّا (Ibid. Pls. XXX, XXXIII, XXXIV). ملون باللون الأحمر القاتم، مما يُوحي بأن جدرانه قد غُطِّيت بطبقة من الجَصِّ، ويوجد في أصل سقفه المنبسط (ملقفان) لتوصيل هواء الشمال والجنوب إلى داخل المنزل. أما بابه الضخم فمِن الخشب الأسود، له مصراع واحد من خشب أصفر. وفوق الباب نافذة مزخرفة، كما يوجد في الجدار على مسافة أعلى من هذه النافذة نافذتان أخريان. على أن ذلك لا يعني حتمًا أن البيت كان يتألف من طابقين؛ وذلك لأن المصريين لم يكونوا متعوِّدين أن يضعوا نوافذهم في مواضع عالية في الجدران. وهذه النوافذ كانت تُغلَق بوساطة مصاريع مزخرفة. وتُرى نخلتان تُطِلَّان على السقف خلف البيت مما يُوحي بوجود حديقة خلف البيت. وهذا المنظر الذي صُورت فيه الأشياء على طبيعتها لا كما عددت يُعَدُّ خروجًا على التقاليد القديمة الجامدة. وبجانب البيت وبِرْكته الجميلة نشاهد كَرْمًا كانت تُجنَى ثماره لتُعصَر نبيذًا، كما يُشاهَد رجل يُعِدُّ القربان للإلهة «رنوتت» وهو يقول: «لحضرتك يا رنوتت! امنحي الطعام والخير.» وكذلك يُرى طائفة من بحارة «نب آمون» قد حضروا لتهنئة قائدهم (ومن المحتمل ليذوقوا طعم خمرته اللذيذة)، وقد جاءوا إليه وهم يُنشِدون أغنية حربية: «إنه يُدرِّب جنودًا وجنودًا، ويفعل ذلك الحاكم لأجْل آمون وقلبه فرح.» وفي منظر ثانوي يُرى «نب آمون» يفحص بعض ماشيته فيقول للكاتب «تحوت نفر» الذي يجلس عند قدميه: «لا تُولِّ ظهرَك لماشية آمون سيدنا!» وقد يعني بذلك أن ينتحل عذرًا للكاتب الذي جلس وظهره في وجه «نب آمون» أو غير ذلك. وبعد ذلك نشاهد في نفس المنظر رجالًا يَسِمون الماشية بنار حامية.

(٦-٤) ثانني

لقد جاء ذكر هذا الرجل العظيم فيما سبق، أما ألقابه فهي: كاتب الجيش أمام جلالته، وكاتب الملك الحقيقي ومحبوبه، وكاتب الجيش (Urk. IV. p. 1006) والمشرف على الجنود وكاتب المجندين، والمشرف على كَتَبة الجيش العظيم للفرعون، والسمير العظيم الحب، وعينا ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، والمشرف على جيش الفرعون، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد.

وقبر «ثانني» يقع في جبانة «شيخ عبد القرنة» رقم ٧٤ ويحتوي على مناظر تحدثنا عن حياته الخاصة وأعماله ووظيفته، (راجع Porter & Moss, “Bibliography” II. PP. 100–101). وقد خُصص منظر كبير لعرض عسكري حيث تجند الجنود؛ فعلى الجدار الداخلي من الجهة الشمالية نشاهده يقوم بعملية اقتراع الجنود الجدد، فنرى في الصف الأعلى في الخلف صفين من الجنود كل منهما يتألف من عشرة رجال، فيُرى رئيس الفرقة الذي على الجهة اليسرى وفي يده علم لا يمكن الإنسان أن يرى شيئًا من شريطه، ويُلاحَظ أن الجنود قد وُضع كل منهم يده اليمنى على كتفه الأيسر، أما يده اليسرى فكانت مُدلَّاة على جانبه. وأمام الفرقة الثانية يقف ضابط وفي يده عصًا تمييزًا لمركزه. ويلاحظ أن الجنود ليسوا مسلَّحين، ويلبسون قميصًا قصيرًا مصنوعًا من الجلد المجدول لُفَّ حول وسط الجندي وطرفه ظاهر، ويوجد في وسط هذه الجدائل مربع من الجلد.

أما الضابط فكان يرتدي الشنديت وفوقه لباس من الكتان له شكل خاص لفَّ حول وسطه ويغطي ما فوق الركبة. وتُشاهَد فرقة ثالثة تمشي في اتجاه مضاد للفرقتين السابقتين ويسير أمامها ضابط.

أما في الصف الأسفل فيوجد فرقتان يتجه كل أربعة رجال من أولاها إلى جهة مضادة لزملائهم، ويُشاهَد أمام واحدة منهما جندي يحمل على ظهره طبلًا كالذي نشاهده الآن في بعض جهات القُطْر، ويلحظ أن حامله قد رفع يده، أما الفرقة الثانية فيسير أمامها حامل علم موضوع على كتفه الأيسر. وهؤلاء الجنود كانوا يرتدون الشنديت، وعلى اليمين يسير سبعة من السود يحمل الأول والثاني منهم بوقًا، أما الخمسة الباقون فقد سُلِّحوا بعِصِيٍّ ويُزيِّن رأسَ كلٍّ منهم ريشة نعام.

وفوق الصورة الثالثة نشاهد جيشًا يقوده ضابط يقف أمام الفرعون بخشوع، يقود جنوده بتمرينات عسكرية في صفين، ففي الصف الأسفل من جهة اليسار نجد خمسة جنود غلاظ الجسم من النوبيين (وهم ليسوا من الزنوج؛ لأن شعرَهم ليس مجعَّدًا)، ويلحظ أن بُطون سيقانهم رَبِلة أكثر من المعتاد، وأنهم مسلَّحون بعِصِيٍّ، ويرتدون شبكة فوق قميصهم المُسدَل حتى الفخذ، وقد عُلِّق خلف هذا القميص ذيل حيوان، كما علق نظيره على الساق مما تحت الركبة. وعلم هذه الفرقة قد مُيِّز بصورة مُصارِعين، أما الجنود الذين على اليسار فوق هؤلاء فكانوا يرتدون القميص الذي كان يرتديه جنود الدولة الوسطى. والفرقة التي على يَمِينهم ومن أسفل منهم يرتدي كلٌّ مِن أفرادها قميصًا مستديرًا له طرف بارز (شنديت)، وهو الذي كان يرتديه الضباط بمثابة قميص داخلي،

وكذلك كانوا يتمنطقون بحزام. أما الفرقتان الأخريان فكان كلٌّ منهم يلبس قميصًا مخطَّطًا وآخر أبيض عريضًا فوقه.

ولدينا منظر آخر في هذا القبر نشاهد فيه عرض الخيل والثيران أمام «ثاننى».

وتدل كل الظواهر على أن هذا الضابط قد بدأ خدمته في عهد «تحتمس الثالث» وظل في مناصب الحكومة حتى عهد حفيده «تحتمس الرابع» (Urk. IV. p. 1005).

(٦-٥) ثنونا

كان «ثنونا» من بين الموظفين الذين كانوا دائمًا يسيرون في ركاب الفرعون، كما يدل على ذلك ألقابه، وهي: الأمير الوراثي، والسمير الوحيد، وحارس خطوات الفرعون في كل مكان، ومدير البيت في بيت جلالته، وحامل المروحة على يمين الملك، وعينا ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، ومدير البيت العظيم، ووالد الإله (أي الفرعون)، ومحبوب الإله، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، ورئيس أسرار إلهتي القُطْر، والمشرف على ثيران الإله «آمون». (راجع Bouriant, “Rèc. Trav.” Vol. XI. p. 157. & p. 158). ويقع قبر «ثنونا» في جبانة «شيخ عبد القرنة» رقم ٦٧، غير أننا نعرف عنه أشياء أخرى من الآثار، فقد عُثر على لوحة في العرابة المدفونة نشاهد فيها «تحتمس الرابع» يقدِّم قربانًا «لأوزير» بوساطة «ثنونا» الذي يقف في اللوحة وراء الفرعون وتتبعه زوجه (Petrie “History”, II, p. 172; Lacau, “Steles du Nouvel Empire”,No. 34023 pl .XIV)، (وتوجد له كذلك لوحة أخرى في متحف «استوكلهم» راجع. Lieblein, “Dict. Noms”, p. 590).

(٦-٦) زسر-كا-رع-سنب

عُثر على قبر «زسر-كا-رع-سنب» في جبانة «شيخ عبد القرنة» رقم ٣٨، ويحتوي على بعض مناظر هامة خاصة بالحصاد الذي كان تحت مراقبة «زسر-كا-رع-سنب» نفسه؛ لأنه كان يحمل لقب الكاتب الذي يُحصِي الحَبَّ في مخزن غلال القربان المقدسة «للإله آمون»، أما باقي ألقابه فهي كما يأتي: الكاتب، ومدير بيت الكاهن الثاني «للإله آمون» والمشرف على مربي …؟ (Kuentz, B. I. F. A. O., Vol. XXI, PP. 120–125) وقد صُوِّر في مقبرة هذا الكاتب منظر يمثل أمامنا الخطوات التي تُتبع في إنتاج القمح، كما نشاهدها في

الطبيعة بمراقبته اليقظة؛ إذ نراه واقفًا عند حقل الغلال متكئًا على عصاه (Wreszinski, "Atlas", Pl. 143). وأمامه رجل يحرث الأرض وخلفه صبي يبذر البذور. وبعد ذلك نجد رجلين يقومان بعزق الأرض بفأسيهما ومتجهين نحو شجرة معلق عليها سلَّتان تحتويان طعامًا وجرَّة ماء ليَبرد ماؤها بظلِّها الظليل. ثم يُرى في الصف الأعلى القمح وقد نضج وهو يفوق الرجال الذين يحصدونه طولًا، وبعد الحصاد نشاهد بعض فقراء القوم يلتقطون ما تُرك وراء الحصَّادين من سنبل، كما هي العادة حتى يومنا هذا في زمن الحصاد. ونرى بعد ذلك رجلين يحملان السنبل في سلات ضخمة لأجل الدَّرْس؛ حيث تدور عليها الماشية حتى تفصل الحَبَّ عن القشور، ثم يأتي دور التذرية بآلات خاصة تشبه المراوح أو المذراة في أيامنا هذه.

ومما يلفت النظر وجود ما نطلق عليه الآن اسم العروسة وتتألف من سنابل القمح، J. E. A. Vol. VIII. P, 235ff. & Ibid Vol. XIX, p. 31. وقد وجدت أمثال هذه الصور في مقابر أخرى، وكانت تُعَدُّ بمثابة تركة لمحصول القمح (راجع Davies, "The Tomb of Nakht" Pl. XX)، وأخيرًا نشاهد «زسر-كا-رع-سنب» يقدم قربانًا محروقة للإلهة «رنوتت» التي تُمثَّل في صورة ثعبان، كما يوجد أمامها مقدار عظيم من القربان على مائدة عظيمة. ويدل لقبُها الذي دُوِّن أمامَها على أنها كانت سيدة مخازن الغلال (Wreszinski, Pl. 143). ومما يلفت النظر في الوليمة التي رُسمت على جدران قبره أن الفتيات اللائي كُنَّ يَقُمْنَ بخدمة السيدات المضيفات عاريات الأجسام، اللهم إلا من حزام ضيق يستر عوراتهن، وإلا مجوهراتهن العادية التي كُنَّ يتزيَّنَّ بها. والظاهر أن هذا المنظر من أحدث المناظر التي مُثِّلت على هذه الصورة في عهد الأسرة الثامنة عشرة. وتدل شواهد الأحوال على أن صور طائفة السيدات الرشيقات والفتيات المغنيات والراقصات اللائي كن يَقُمْن بخدمة المضيفات قد نقلها المفتنُّ القديم نقلًا أمينًا عن مقبرة «أمنحتب ساسي».

(٦-٧) مري رع

لم يُعثر على قبر «مري رع» حتى الآن، وكل ما نعرفه عنه من نقوش مَحْبَرة صُنعت من الخشب وهي الآن بالمتحف البريطاني، وقد وُجد فيها أربع عشرة عينًا للألوان، وقد كانت مستعملة فعلًا؛ إذ وُجد فيها أثر الألوان، وقد كُتب عليها ألقاب ووظائف «مري رع» ودعاء للإله «تحوت»، وألقابه هي: الأمير الوراثي، والأمير الذي على رأس المقربين لدى الفرعون، ومدير البيت العظيم للملك. أما الدعاء الذي نُقش على هذه المحبرة فيمتاز عن الأدعية

الأخرى؛ إذ إنه موجَّه للإله «تحوت» رب الكتابة الهيروغليفية ليمنح «مري رع» عِلْم الكتابة الذي هو منبعه وأصله، وكذلك فهم اللغة المصرية. والواقع أنه من النادر جدًّا أن نصادف في الأدعية والصلوات المصرية ما يُقصد منه غير الأشياء المادية كالشراب والطعام أو طول العُمْر؛ ولذلك جاءت هذه الأدعية بطلب العِلْم والمعرفة من الأشياء الطريفة في بابها. وهذه المحبرة قد صنعها سكرتير «مري رع» المسمى «تنن»، ويُلقَّب كاتب مدير البيت العظيم (J. E. A. Vol. XVIII. p. 57. Pl. VII, 3).

(٦–٨) نبي

يوجد في «سراية الخادم» نقش في الصخر يَظهَر فيه «نبي» واقفًا خلف «تحتمس الرابع»، الذي يقدِّم قربانًا للإلهة «حتحور» (راجع Gardiner and Peet, “Sinai”, Pl. XIX, No. 59).

أما ألقابه على اللوحة فهي: رسول الفرعون لكل أرض، ومدير بيت … زوج الفرعون، وعمدة ثارو، وطفل الرضاعة (أي الذي تربَّى مع الفرعون).

(٦–٩) بتاح مس

كان «بتاح مس» من كبار رجال الدولة، غير أننا لم نعثر على شيء من آثاره الضخمة وبخاصة قبره، وكل ما نعرفه عنه ينحصر في نقوش تمثال، لا نعرف المكان الذي جاء منه، وقد كُتب عليه الألقاب التالية: الأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري في مقدمة … ومدير الصناع في البيتين (المعبدين)، والكاهن «سم»، والمدير الأعلى للصناع (لقب الكاهن الأكبر للإله «بتاح» في منف) (راجع Borchardt, “Statuen und Statuétten”, No. 584).

(٦–١٠) بنحت

يقع قبر هذا الموظف الكبير في جبانة «ذراع أبو النجا» رقم ٢٣٩، وأهم ألقابه هي: المشرف على كل الأقاليم الشمالية (أي بلاد سوريا)؛ ولذلك نجده قد رسم لنا منظرًا يمثل قومًا من السوريين يحملون الجزية إلى مصر، ولكن مما يؤسف له أن هذا المنظر مهشَّم تهشيمًا مريعًا ولم يبقَ منه إلا القليل جدًّا (راجع Wreszinski, “Atlas”, Pl. 373).

(٦-١١) حقر نحح

كان مربِّيًا لابن الملك «أمنحتب»، وقد ورث هذه الوظيفة على ما يَظهَر من والده «حقر شاو» الذي كان يشغل هذه الوظيفة في عهد الملك تحتمس الرابع. وقبره يقع في جبانة «شيخ عبد القرنة» رقم ٦٤ (راجع Porter & Moss, “Bibliography”, I. 94). ونشاهد فيه منظرًا يظهر فيه «حقر نحح» يقدِّم طاقة أزهار لمربٍّ آخر، يحتمل جدًّا أنه والده، وقد جلس على كرسي وفي حجره «تحتمس الرابع» في طفولته، وعلى الرغم من تصويره في هيئة طفل فقد كان يلبس صدرية عليها طغراء باسم «تحتمس الرابع» بوصفه ملك الوجه القبلي والوجه البحري. وكذلك صورة ثانية ومعه بعض الأمراء الملكيين وقد مُحيت أسماؤهم. وكان «حقر نحح» يحمل كذلك لقب طفل الرضاعة، وقد عُثر له على مخروط جنازي في جبانة «شيخ عبد القرنة» عليه لقبه طفل الرضاعة ورئيس جياد جلالته (A. S, VI. p. 91, No. 39).

(٦-١٢) أمنحتب

وكان يحمل لقب الكاهن الأول للإله «أنحور (أونوريس)» رب العرابة المدفونة، وقد عُثر له على لوحة في العرابة نفسِها مقدَّمة لهذا الإله من «أمنحتب» هذا (Lieblein, “Dict. Noms,” No. 602).

(٦-١٣) باعا عقو

كان من بحَّارة الفرعون «تحتمس الرابع»، ولُقِّب بحامل العَلَم على السفينة «مري آمون» وقد أهدى لوحة في العرابة للإله «أوزير»، وهي الآن بمتحف «اللوفر» (Ibid. No. 716)، ومن المحتمل أنه هو الرجل الذي خلف «نب آمون» قائدًا للسفينة «مري آمون» عندما رُقِّي الأخير إلى قائد الشرطة في «طيبة الغربية».

(٦-١٤) حوي

ويُلقَّب نحات آمون، وقبره في جبانة «شيخ عبد القرنة» رقم ٥٤، وقد اغتصبه كاهن يُدعَى «كانرا» في باكورة الأسرة التاسعة عشرة، وكان يُلقَّب رئيس مخازن الإله «خنسو»

(Porter and Moss, ibid, I. p. 86)، ومما يَستَرعِي النَّظَر أن نقوش هذا الغاصِب تَظهَر خَشِنةً رديئة الصنع إذا ما قُرنت بالنقوش الجميلة التي صنعها لنفسه «حوي» في عهد الأسرة الثامنة عشرة الزاهر بجمال فنه (Davies, M. M. A. (1922), p. 53, fig. 5).

(٦-١٥) نفرحات

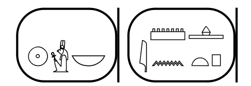
وُجِد له لوحة في العرابة المدفونة، والظاهر أنه كان من رجال العمارة في هذه الجهة؛ لأنه كان يحمل لقب رئيس الأعمال في معبد من معابد «العرابة المدفونة»، كما كان من الرجال المقرَّبين من الفرعون؛ إذ نُعت بلقب تابع الفرعون في كل أمْكِنته. وقد ظهر الفرعون «تحتمس الرابع» على الجزء الأعلى من هذه اللوحة يتعبد «للإلهة نوت»، وفي الجزء الأسفل نشاهد «نفرحات» يقدِّم قربانًا للإلهة «نوت» أيضًا (راجع Lacau, "Steles du Nouvel Empire", p. 42. Pl. XIII, No. 34022).

(٦-١٦) حاعنخف

وُجد اسم هذا الكاهن الملقَّب الوالد الإلهي على نقش في صخور «كونو سوا»، وقد ظهر عليه كلٌّ من الإله «مين» والإله «خنوم» متواجِهَيْن وبينهما طغراء الفرعون «تحتمس الرابع» فوق نقش ممحوٍّ. وقد وُجد كذلك اسم أحد أقارب الفرعون المدعو «نب عنخ» تحت اسم «حاعنخف» (راجع De Morgan, "Cat. Mon." p. 73. No. 45).

الفرعون أمنحتب الثالث

١٤٠٥–١٣٧٠ق.م



(١) مقدمة

يدل ما لدينا من وثائق على أن «تحتمس الرابع» كان آخر فرعون عظيم من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، سار على رأس جيش عرمرم لتأديب الأمراء الثائرين في بلاد آسيا وإخضاعهم وإعادة النظام إلى كل ممتلكاته في تلك الجهات النائية، فلما مات ترك ملكه الذي كان يمتد من «الفرات» شمالًا إلى «كاراي» جنوبًا يُخيِّم على ربوعه السلام والسكينة، وبموت هذا العاهل انطفأت شعلة الروح الحربي الذي كان يضيء نفوس فراعنة هذه الأسرة الأماجد، كما خَبَتْ في نفوس الشعب. وتلاشت تلك الصفات التي كانت تقود رجال «تحتمس الثالث» إلى ساحة القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام.

عاجَلَتِ المَنِيَّة «تحتمس الرابع» وهو في نَضْرة الشباب ومقتَبَل العمر الذي تُرجَى فيه الأعمال العظيمة. وقد تضاربتِ الآراء والبحوث الطِّبِّيَّة في نسبة «أمنحتب الثالث» إلى سَلَفِه «تحتمس الرابع»، فإن تحتمس مات في عنفوان شبابه غير متجاوز السادسة والعشرين ربيعًا من عمره، كما يقول الأطباء الذين فحصوا عظامه، ومن أجْل ذلك يعتقد بعض

المؤرخين أن «أمنحتب الثالث» ليس ابن «تحتمس الرابع» ارتكانًا على نتائج ذلك الفحص الطبي، ويَرَوْن أنه أخوه (راجع G. Ellot. Smith; Daressy, A. S. IV, p. 110).



شكل ١: أمنحتب الثالث في شبابه.

وإذا كان تقدير سِنِّه صحيحًا استحال أن يكون «أمنحتب الثالث» ابنه؛ لأن أمنحتب حين خلفه على العرش تزوج في السنة الثانية من حكمه بالملكة «تي»، ولا يعقل أن يكون لتحتمس وهو حَدَث السِّنِّ ابنٌ أهلٌ للزواج في هذا الوقت، اللهم إلا إذا كان هذا الزواج صوريًّا لا فعليًّا، ولذلك رجَّح بعض علماء الآثار تخلُّصًا من هذا المأزق أنه كان أخاه، على الرغم مما ورد في الآثار مثبِتًا أنه ابنه مما سنفصِّل القولَ فيه. فالفريق الذي يدَّعِي أنه أخوه يقول إن ما جاء على الآثار من أنه ابنه إنما هو تجوُّز في التعبير. فقد جاء فعلًا في نقوش مدينة «الكاب» (راجع L. D. III, Pl. 80b). أنه والده. وكذلك في نقوش «حور محب» (راجع L. D. III, Pl. 78a.) ذكر أنه والده، ولكن قد يكون دَعِيَّه وحسب. وقد جاء في خطاب من خطابات «تل العمارنة» كذلك (Am. 5, 04) أن «منخبريا» أيْ

«تحتمس الثالث» هو جَدُّ «أمنحتب الثالث». غير أن أمَّه «موت مويا» لا يمكن أن تكون زوج «تحتمس الرابع» اعتمادًا على أن اسمها لم يُذكر على الآثار بهذا اللقب، وكذلك لا يحتمل توحيدها مع الأميرة المتنية أخت «أرتاتاما» كما يُقال غالبًا، وهي التي تزوجها «تحتمس الرابع»، (Am. 29, 16.). ومن المهم جدًّا أن نذكر أن «تحتمس الرابع» قد احتفل بعيد «سد» (أي العيد الثلاثيني) مرتين (راجع Breasted, “Temples of Lower Nubia” A. J. S. L. XXIII. (1906) p. 51). وهذا يُعدُّ برهانًا آخر على أن هذا العيد لا يُقام على أساس تاريخي ثابت (راجع Ed. Meyer. “Gesch.” II, I. p. 149). أما الذين يقولون إن «أمنحتب الثالث» هو ابن «تحتمس الرابع» والملكة «موت مويا» فيستندون على النقوش والمناظر التي تركها «أمنحتب الثالث» نفسه على جدران معبد الأقصر، وهي التي تمثل ولادة هذا الفرعون الإلهي.

(٢) ولادة أمنحتب الثالث كما صُوِّرت على جدران معبد الأقصر

وقد كان ملوك مصر منذ نهاية الأسرة الرابعة عندما يعوز الفرعون منهم المؤهلات التي تُبرِّر له ارتقاء عرش البلاد، يحتال في إيجاد حُجَج ترفعه إلى عرش الملك أمام أعين الشعب الذين كانوا ينظرون إلى الفرعون نظرة الإله، وأنه من دم إلهي خالص، أو بعبارة أخرى كان يُعدُّ ابنَ الشمس. والظاهر أن الملكة «موت مويا» والدة «أمنحتب الثالث» لم تكن من دم ملكي خالص مما دعاه إلى تمثيل ولادته على جدران معبد «الأقصر» ليُظهِر للملأ أنه ابن الإله «رع»؛ ولذلك نراها في المنظر الذي على جدران معبده بالأقصر تجتمع بالإله «آمون» وتحمل منه الملك «أمنحتب الثالث»، وذلك جريًا على عادة الثالوث في المعابد المصرية؛ أي إن الإله يجتمع بالإلهة زوجه التي معه في المعبد وبذلك يُعقِبان ذكرًا يكون هو الابن وثالث ثلاثة. وبهذه الطريقة المُلَفَّقة يصبح الفرعون الجديد ملكًا على البلاد، حتى ولو كان أجنبيَّ الأب والأم عن الدم المصري، كما حدث في تتويج «الإسكندر الأكبر» الذي مثَّل هذه الرواية عند اعتلائه عرش مصر (راجع Maspero, “Ecole des Hautes Etudes Anniversaires”. (1897)). على أن ما فعله «أمنحتب الثالث» هو نفس ما عملتْه الملكة «حتشبسوت» من قبله كما ذكرنا. وتدل كل الشواهد على أن «أمنحتب الثالث» هو ابن الملك «تحتمس الرابع»، كما تحدثنا النقوش، وأن مسألة تقدير سِنِّه مشكوك فيها (Wolf, A. Z., LXV, p. 98).

تولَّى «أمنحتب الثالث» وهو صغير السِّنِّ، وقد استمر في حكم البلاد منفردًا نحو ستٍّ وثلاثين سنة، كان في خلالها أعظم عاهل في العالَم المتمدين، كما كانت «مصر» أكبر إمبراطورية في الشرق القديم وصاحبة السيادة السياسية والأدبية فيه.

(٣) حروبه في السودان

وتدل الوثائق التي وصلت إلينا حتى الآن على أنه لم يَقُمْ بحرب غير حملة واحدة في بلاد «كوش» في السنة الخامسة من حكمه، وهذا دليل على أنه لما تولى الملك كان السلام على وجه عام مخيِّمًا على ربوع دولته المترامية الأطراف في آسيا.

والظاهر أنه قامت ثورة في بلدة «أبهت» الواقعة بعد الشلال الثاني، فكلَّف الفرعون نائبه في أقطار الجنوب وابن الملك المسمى «مرمس» بجَمْع جيش من النوبيين من بلاد النوبة السفلى والزحف به لقمع الثورة بمساعدة الجيش المصري الذي كان بقيادة الفرعون نفسه، وكان قد أقلع في فصل الفيضان، وهو الوقت الذي كان يحتفل فيه بعيد تتويج الفرعون. وعلى الرغم مما جاء في وصف هذه الحملة من تهويل ومبالغات فإن القتال كان يدور مع فئة صغيرة من السودانيين، وقد بلغ عدد مَن قُتل وأُخذ أسيرًا نيِّفًا وألفًا. وبعد أن أحرز الفرعون النصر على هؤلاء العصاة أوغل في بعض الوديان الواقعة على ضفتي النهر، وكانت مأوًى لقبائل الصحراء الذين تعوَّدوا الانقضاض على الأماكن المعمورة من وقت لآخر لسلْبِها ونهْبِها، غير أننا عندما نقرأ أن «أمنحتب الثالث» قد بسط حدوده إلى حيث شاءت إرادته، حتى وصلت إلى عَمَد السماء الأربعة، لا يعني ذلك إلا أنه لم يَتَعَدَّ بلدة «نباتا» الواقعة بالقرب من الشلال الرابع. وما لدينا من الوثائق لا يدل على أن السيادة المصرية تخطَّتْ هذه النقطة. فكانت الحدود الجنوبية لبلدته لا تَعْدُو إقليم «كاراي». ونراه في أثناء هذه الحملة على بلاد «كوش» قد أخضع بعض قبائل ذكر اسمها، غير أن هذه الأسماء لم تُذكر على الآثار المصرية قبل حكمه ولا بعده. ولا يعني ذلك أن كل القبائل التي نَجِدها على الآثار مصوَّرة بوَصْفها أَسْرَى قد أخضَعَها هو في حروبه التي شنَّها في بلاد النوبة وما بعدها، فإننا نجد في عهده مرسومًا على جدران معبد «صولب» صور أقوام من السوريين وبلاد «نهرين» و«قادش» وجهات أخرى من التي كانت في حالة سِلْم معه. وحقيقة الأمر إذن أن صور هذه البلاد وأهلها المُكبَّلين في الأغلال لا تدل إلا على أنها كانت خاضعة للحكم المصري. (راجع Petrie, “History”, II, p. 18). ولدينا وثائق تحدثنا عن هذه الحملة؛ أهمُّها لوحة نُقشت في الصخر عند الشلال الأول، رُسم في الجزء الأعلى منها

الملك يَطَأ بقدميه الآسيويين ويضرب السُّود، وأمامه الإله «آمون»، ثم الإله «خنوم» إله الشلال، وخلفه الإله «بتاح» رب «منف».

ومما يؤسف له أن هذه النقوش مهمشَّة، هشَّمها رُسُل «أمنحتب الرابع» (إخناتون)، وهاك ما تبقَّى منها:

> السنة الخامسة الشهر الثالث من الفصل الأول اليوم الثاني وهو يوم التتويج، في عهد جلالة «حور» الثور القوي، المضيء في الصدق، محبوب الإلهتين، مؤسس القانون، ومهدئ الأرضين «حور» الذهبي، العظيم في القوة، وضارب الآسيويين، الإله الطيب، حاكم طيبة، رب القوة، شديد البأس، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب ماعت رع» ابن الشمس «أمنحتب الثالث» حاكم طيبة، محبوب آمون، وملك الآلهة، و«خنوم» سيد الشلال الذي يُعطي الحياة.
>
> لقد أتى إنسان ليُخبِر جلالته أن العدو صاحب «كوش» الخاسئ قد دبَّر عصيانًا في قلبه. فسار جلالته للظَّفَر به، والتغلُّب عليه، فأتمَّه في حملته الأولى المظفَّرة. وقد خرج جلالته مثل ... ومثل ... «حور» ومثل «منتو» ... ولم يعرف هذا الأسد الذي كان أمامه، وكان «نب ماعت رع» (أمنحتب الثالث) أسدًا ذا عين مفترسة فاستولى ... «كوش». وقد هزم كل الرؤساء في وديانهم حتى سقطوا مُخضَّبين بدمائهم، الواحد فوق الآخر ...» (راجع Breasted, A. R. II. § 843ff; L. D. III, 81h). وكذلك دُوِّن على صخور جزيرة «كونوسو» في النهاية الشمالية من «الفيلة» لوحةٌ تذكارًا لهذه الحملة كاللوحة السابقة، وقد جاء فيها: «... السنة الخامسة عاد جلالته بعد أن انتصر في حملته الأولى المظفَّرة في أرض «كوش» الخاسئة، بعد أن جعل حدوده تمتدُّ كما يرغب فيه، فقد امتدت حتى العَمَد الأربعة التي تحمل السماء، وأقام لوحة نصر عند بِرْكة «حور»، ولا يوجد ملك مصري عمل مثل هذا غير جلالته؛ وهو القوي المبتهج بالنصر «نب ماعت رع» (أمنحتب الثالث) ...

ولا نعرف حتى الآن موقع بركة «حور» التي ذُكرت في هذا النقش. (راجع Breasted, A. R. II. § 845; L. D. III, 82a).

(٣-١) لوحة سمنة

وفي «المتحف البريطاني» لوحة تُشير إلى حروب «أمنحتب الثالث» في بلاد النوبة، وما أخضعه نائب الملك المسمى «مرمس» (راجع Birch, “Archeologia”, XXXIV, p. 388; “Archaeological Journal”, VIII. p. 399; Breasted, A. R. II, 851).

والجزء الأول من النقش قد ضاع، ويحتمل أنه قد جاء فيه إعلان العصيان:

> … حدث حصد محصول العدو صاحب «أبهت» ibht وقد قَدَّم كل إنسان نفسه وأعد جيش الفرعون للموقعة، وكان بإمرة «ابن الملك»، وقد جمع الجنود يقودها قُوَّادهم، وكان كل إنسان مع أهل قريته من حصن «بكي» BKY (بالقرب من كوبان) حتى حصن «تاري» (بالقرب من إبريم) وقد قطع اثنين وخمسين «إترو» (أي حوالي ٧٥ ميلًا).

(٣-٢) الموقعة

> وقد أخذتْهم قوة «نب ماعت رع» في يوم، بل في ساعة في مذبحة وماشيتهم، ولم يُفلِت واحد منهم، وأُحضر كلٌّ منهم … الخوف، وقد استولت عليهم قوة «أمنحتب»، والمتوحشون منهم ذكورًا وإناثًا لم يُفصل بينهم، وذلك بتدبير «حور» رب الأرضين، الملك «نب ماعت رع» الثور القوي الشديد في البأساء. وقد كانت بلاد «أبهت» متغطرسة، وكان في قلوبهم أشياء عظيمة، ولكن الأسد ذا العين المفترسة — هذا الحاكم — قد ذبحهم بأمر «آمون-آتوم» والده الفاخر، وهو الذي قاده بقوة ونصر.

(٣-٣) قائمة الأسرى والقتلى

«قائمة الأسرى الذين استولى عليهم جلالته في أرض «أبهت» الخاسئة:

> خمسون ومائة عبد حي، وعشرة ومائة رامٍ، خمسون ومائتا أَمَة، خمسة وخمسون خادمًا من العبيد، وخمسة وسبعون ومائة من أولادهم، فمجموع هؤلاء إذن أربعون وسبعمائة نسمة، يُضاف إليهم اثنتا عشرة وثلاثمائة يد

منهم، وعلى هذا فالمجموع الكلي لهؤلاء الأسرى هو اثنان وخمسون بعد الألف من النسمات.

ما قاله نائب الفرعون

ابن الملك الساهر لأجل سيده، محبوب الإله الطيب، حاكم كل بلاد «كوش»، وكاتب الملك «مرمس» يقول: الحمد لك يا أيها الإله الطيب، إن بأسك عظيم على مَن يُجابِهك، وإنك تجعل مَن يثور عليك يقول: إن النار التي أشعلناها تضطرم فينا، وإنك ذبحتَ كل أعدائك وطرحتَهم تحت قدميك.

(٣-٤) أعمال الفرعون في آسيا

أما الأراضي الآسيوية فإن قَدَم «أمنحتب الثالث» لم تطأها قط، هذا على الرغم مما ذكره في نقوشه كما سيأتي من أنه أخضع بلاد «رتنو» وبلاد «نهرين» بحدِّ السيف، يُضاف إلى ذلك أنه لم يسيطر سيطرة فعلية على بلاد «سنجار» و«آشور» و«أرباخا» و«كريت» قط. والواقع أنه ربما كان يعني من ذكره هذه البلاد أنها كانت تَدِين له بالهدايا التي كانت تأتي إليه منها. إذن الواقع أن «أمنحتب» لم يذهب أبدًا إلى هذه البلاد ولم يشنَّ عليها أية حرب كما يدل على ذلك الخطاب الذي أرسله أمير جبيل «ببلوص» (راجع Am. 69, 85). يلح فيه على الفرعون «أمنحتب الثالث» أن يحضر بنفسه ليضع حدًّا للهجوم الذي قام به «عبد أشرتا» الأمير الأموري، فيقول فيه: منذ أنْ غادر والدك «صيدا» (منذ هذه الأيام)، والبلاد قد انضمَّتْ إلى البدو (جاز)، ومن ذلك نعلم أن آخر فرعون قام بحروب في سوريا هو الفرعون تحتمس الرابع (راجع Meyer, “Gesch.” II, 1, p. 150).

أما المصادر المصرية التي تشير إلى حروبه في آسيا فهي:

(١) لوحة من الحجر الجِيري الأبيض أُقيمت في معبده الجنازي في «طيبة»، تحدثنا عن انتصاراته في الشمال والجنوب، فنشاهد عليها منظرًا يَظهَر فيه «أمنحتب» مرتين إحداهما على اليمين يسير فيه فوق أهالي الكوش المجدلين، ورؤساؤهم مكبلون وراء خيله، وقد كُتب فوقهم النقش التالي: «الإله الطيب … رب السيف الشديد في سوقهم (عند عربته) مهلكًا وارث الكوش الخاسئين ومُحضِرًا أمراءهم أسرى أحياء.» ثم يُشاهَد بنفس الطريقة ماشيًا فوق الآسيويين في الجهة اليسرى من اللوحة. وقد كُتب فوق الأمراء الذين رُبطوا في

الخيل الكلمات التالية: «الإله الطيب «حور» الذهبي، المضيء في عربته مثل طلوع الشمس، العظيم في البأس، والقوي في السلطة، عظيم القلب مثل ساكن «طيبة» (منتو) ضارب نهرين بسيفه البتار.» وفي أسفل اللوحة كُتب السطر التالي: «... كل مملكة، وكل المدنيين، وكل السكان، ونهرين، وكوش الخاسئة، و«رتنو العليا» و«رتنو السفلى» تحت قدمَيْ هذا الإله الطيب مثل رع مخلدًا.» (راجع "Breasted", A. R. II, § 856ff. Petrie. "Six Temples", X). يُضاف إلي ذلك جِعْران كُتب عليه: «المستولي على «سنجار».» (راجع Fraser, P. S. B. A. XXI, Pl. III).

وفي معبد «صولب» نقش على عَمَده صور أسرى تمثِّل بلاد «سنجار»، و«نهرين»، و«الخيتا»، و«قادش» و«تونب»، و«أوجاريت»، و«كفتيو»، و«قرقميش»، و«آشور»، و«أراباخيتس» (راجع L. D. III, Pl. 88).

ومما سبق نرى إذا صدَّقنا ما جاء على الآثار أن هذا الفرعون فتح البلاد المشار إليها هنا، بَيْدَ أن الحقيقة الواقعة أنها كانت كلها ممالك مصادِقة له تُرسِل إليه الهدايا كما أسلفنا.

(٤) إمبراطورية «أمنحتب الثالث» وملاهيه

والواقع أن «أمنحتب الثالث» كان آخِر فرعون حكم الإمبراطورية المصرية من أقصاها إلى أقصاها، وهي ذلك المُلْك الشاسع الذي فتحه أسلافه المحاربون، وإذا قيس هذا الملك الضخم بأعمار الدول العظام الأخرى فإنها تُعدُّ قصيرة العمر؛ إذ قد وصلت إلى قمة مجْدها في الفتوح في عهد «تحتمس الثالث» العظيم في حملته الثامنة حينما عَبَرَ بجيوشه «نهر الفرات» وأقام لوحة الحدود على ضفته اليمنى، وعندما انتصر على الآسيويين في موقعة «قرقميش» عام ١٤٦٧ق.م، ولم يكد ينقضي قرن من الزمان على هذا الفتح حتى وجدنا هذا المُلْك الشاسع أخذ يذوب ويتلاشى في آسيا، فلم يحلَّ عام ١٣٦٠ق.م حتى أصبح مُلْكها في سوريا أَثَرًا بعد عَيْن إلى أنْ أعاد «سيتي» وابنه «رعمسيس الثاني» بعض مجْد البلاد ثانية في هذه البقاع.

والظاهر أن الروح الحربي الذي كان يتأجَّج في نفوس رجال الشعب المصري قد انطفأ مصباحه عندما أخذتْ عِيشة التَّرَف والبَذَخ والدَّعَة تدِبُّ في الشجعان الذين كانوا يقودون جيوش مصر إلى ساحة النصر والفخار.

ولا غرابة فقد كان «أمنحتب الثالث» أكبر مترجم للشعور القومي من هذه الناحية. حقًّا كان نَشِطًا مقدامًا إلى حدٍّ ما، عندما كان يقوم بأعمال ترتاح إليها نفسه، وينعم بها لشخصه وإشباع شهوة في طويته؛ إذ يدل ما ترك لنا من آثار وبخاصة جعارينه التذكارية على أنه كان صيادًا ماهرًا مثل والده وأجداده، وقد سجل لنا على أحدها عدد الأسود التي سقطتْ مضرَّجة بدمائها بسهامه، غير أنه على ما يَظهَر لم يَرِثْ منهم حبَّ الغزو الذي بقي يضطرب في نفس «تحتمس الثالث» حتى أقعدتْه عنه الشيخوخة وأعباء السنين، والواقع أنه بعد حملته إلى بلاد النوبة كانت كل الإمبراطورية في هدوء تام مدة طويلة من الزمن، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله يقوم بدور آخر مثَّله تمثيلًا يتفق مع عظمة مصر وضخامة ملكها. فقد أراد أن يمثل في شخصها كل البهاء والفخار وأبهة المُلْك التي أحرزها أجداده لمصر قبل أن يخبو مصباحها وتتكمش في عقر دارها. وقد كُتب له أن يفوز بما أراد بما هيَّأَتْه له الأحوال، فكان مَثَلُه مَثَلَ «هارون الرشيد» الذي يرمز إلى عظمة الدولة العباسية، مع الفارق أن الثاني كان يغزو سنة ويحجُّ أخرى. أما الأول فكانت حياته صيدًا وقنصًا، أو إنشاء أو تشييدًا، وقد كان يَعدُّ نفسَه إلهًا على الأرض، ولا غرابة في ذلك؛ فإن كل ملك مصري كان يُلقَّب بالملك الطيِّب، كما كان يلقب «آمون» أو «رع» أو «بتاح» بالإله الأعظم الذي يسكن السماء، غير أن طبيعة «أمنحتب» الإلهية لم تكن رسمية فقط، بل كان مثله كمثل الملكة «حتشبسوت» من قبله، ابن الإله مباشرة. وذلك أن الإله «آمون» ملك الإمبراطورية وربَّه الأعظم قد تمثَّل للمَلِكة «موت مويا» بشرًا سويًّا في صورة «تحتمس الرابع» على حسب ما جاء في نص معبد الأقصر، ونفخ فيها من رُوحه واجتمع بها، ووضعتْ له غلامًا زكيًّا اسمه «أمنحتب الثالث»، وبذلك يكون «آمون» هو والدُه الروحي. ولا غرابة في أن نرى هذا الفرعون يَعدُّ نفسَه منذ نعومة أظفاره ابن الإله. وسنرى أنه كان مؤلَّهًا في المعبد الذي أقامه لنفسه ولإلهه «آمون» لهذا الغرض وحده.

يُضاف إلى ذلك أن كل الثراء والغنى والجزية التي كانت قد كُدِّست في طيبة مما كانت تنتجه أرض الكنانة ومما كان يتدفَّق عليها من البلاد الآسيوية وبلاد النوبة، وبخاصة ما كان يُجبَى من هذه الممتلكات من الذهب الذي كان لا ينقطع معينه من بلاد «واوات» وبلاد «بنت». كل هذا الثراء كان مغريًا خلَّابًا، وحافزًا جذَّابًا، ودافعًا قويًّا ليجعله ينظر إلى ملكه، كما كان ينظر الخليفة العباسي «الأمين» أو «لويس العاشر» عندما اعتلى عرش البابوية فنراه يقول: «بما أن الله قد وهبنا إياها فلنتمتع بها.» وعلى أية حال فإن حب التمتُّع بمناعم

الحياة الدنيا وزينتها كان رائدَه الأعلى طَوَالَ مدة حكمه، كما كانت الفتوح العظيمة هدفَ جدِّه «تحتمس الثالث». والظاهر أن الثورات في بلاد «سوريا» كانت معدومة عند توليته العرش، فليس لدينا من الوثائق ما يُشير إلى اضطراره إلى الزحف على رأس جيش نحو آسيا قط، اللهم إلا إشارة عابرة في أحد خطابات «تل العمارنة» عن زيارة قام بها إلى «صيدا»، وربما كان من الخير لو اضطرَّتْه الأحوال إلى خَوْض غمار حرب في آسيا لحِفْظ كيان الإمبراطورية. وتدل كل الأمور على أن كل بقاع العاهلية ظلت في هدوء وسكينة سنين عدةً على حسب ما كان يصل إلى سمعه من الأخبار التي كانت في معظم الأحوال تُصاغ بصورة تُرضي الفرعون وتُهدِّئ خاطرَه.

حقًّا وصلت إلينا بعض رسائل من خطابات «تل العمارنة» تنبِئ عن اضطرابات ومشاحنات قامت بين الأمراء في شمال سوريا، وكذلك عن غارات قامت بها بعض القبائل النازحة، مما كان يُحفِّز «تحتمس الثالث» إلى سلِّ الحسام وقيادة جيشه في الحال لإخمادها ووضع الأمور في نصابها قبل أن يستفحل الشرُّ ويصبح لهيبًا متَّقِدًا. ولكنْ خلافًا لذلك كان السلام شاملًا والأمور تجري في مجراها الطبيعي، من أجْل هذا كان الجوُّ مهيَّأً أمام «أمنحتب الثالث» للقيام بالأعمال السلمية التي كانت تتجلَّى مظاهرُها في تقدُّم الفن والعمارة والأدب، وتلك ظاهرة نشاهدها غالبًا في تاريخ الأمم عندما تَصِل في عظمتها إلى الذروة في نواحي العمران، وعندما تظلُّ بعيدة عن مساوئ المدنية الكاذبة، ولم يَدِبَّ في عظامها الوهن والانحطاط اللذان يسببهما سوء استعمال الثروة بالتغالي في التَّرَف. ولقد ساعده على السير في طريق رقي البلاد الداخلي والخارجي أنْ تزوج في باكورة توليته عرشَ المُلْك من فتاة من أعظم نساء التاريخ المصري ذكاء وقوةَ عزيمة، فقد كان نفوذُها في الداخل والخارج من أكبر العوامل في تكييف مصير الإمبراطورية في هذه الفترة. ومن المحقق أن «أمنحتب» تزوج من «تي» قبل السنة الثانية من سِنِي حكمِه، ويقول الأستاذ برستد إنها كانتْ من أصل وَضِيعٍ، غير أن الوثائق التاريخية التي كُشفتْ حديثًا لا تُساعد على الأخذ بهذا الزعم. حقًّا إنها لم تكن من دم ملكي، ولكن من المحقق أن والدَيْها كانا يَشغَلان وظائفَ راقية في الدولة، فكان والدها كاهن الإله «مين»، وأمُّها كانت المُشرِفة على الملابس في البلاط الملكي ووصيفة في القصر. وتدل كل الأحوال على أن هذا الزواج قد جاء عن طريق الحب والمعاشرة؛ إذ لا بد أن «تويا» أم «تي» التي كانت تحمل لقب الوصيفة الملكية ومغنية الإله «آمون» كانت على اتصال «بأمنحتب الثالث» في طفولته. وهنا نشأتْ أوَاصِر الحب بينهما وانتهتْ بزواجه منها. (Quibell, "The Tomb of Yuaa

andThuiu", p. 18)، ولما كان هذا الزواج خارجًا على التقاليد الفرعونية المَرْعِية، وهي التي كانت تُحتِّم أن تكون الملكة الشرعية من دمٍ مَلَكي خالص، رأى هذا المَلِك الفتى أنْ يُعلِن نَقْضَه لهذا التقليد غير مبالٍ ولا هيَّاب على الملأ بصورة تَستَرْعِي الأنظارَ، وبطريقة فذَّة في بابِها، وقد خَلَّد ذكرى هذا الحادث بعمل تذكار أقام له احتفالًا خاصًّا، مما يدلُّ على أنه كان عند توليته العرش له إرادته الخاصة ورأيُه النافذ الذي لا يَخضَع لعُرْف أو تقليد. وهذا التذكار نقشه على جِعْران من صُوَر عدَّة (راجع Fraser, "Notes on Scarabs", P. S. B. A., XXI, Pl. opp. p. 155, 156).

وهاك ترجمة ما جاء عليه:

> يعيش (ألقاب الفرعون كاملة) المَلِك «أمنحتب الثالث» معطي الحياة، والزوجة الملكية العظيمة «تي» العائشة. واسم والدها «يويا»، واسم والدتها «تويا»، وهي زوجة مَلِك عظيم تمتد حدودُه الجنوبية حتى «كاراي» وحدوده الشمالية حتى «نهرين».

ولقد استطاعتْ بنتُ الشعب هذه بما أوتيتْ من ذكاء وسِحْر أن تستأثر بلُبِّ زوجها وتستهويَ قلبَه طَوالَ مدة حياته، حتى وهي في شيخوختها ظلت صاحبة المكانة الممتازة بين الأميرات الأجنبيات اللاتي كُنَّ أزواج «أمنحتب».

ولقد أتى عليها حين من الدهر كانت هي المُدِيرة لسكان الدولة. فقد كتب إليها «دوشرتا»[1] ملك «متني» رسالة في عهد «أمنحتب الثالث» زوجها، كما كَاتَبَها في عهد ابنها «إخناتون» منوِّهًا بأنها هي التي تعرف تسيير الأمور أكثر من أي إنسان آخر، ورجاها أن تعمل على توثيق علاقات الود والمصافاة وأن تجعلها أحسن حالًا مما هي عليه عشر مرات، وبخاصة أن تُتْحِفَه بإرسال هدايا من الذهب النُّضَار، وكان اسم «تي» مقرونًا باسم الملك حتى في الوثائق التي كان لا دَاعِيَ لذكْرِها فيها قط. ولا أدلَّ على ذلك من تدوين اسمها على الجِعْران العظيم الذي نُقش خِصِّيصَى لتخليد ذكرى زواج «أمنحتب الثالث» من الأميرة «جلوخيبا» بنت ملك «متني» «دوشرتا»، وكأن الفرعون كان يقصد من ذلك تفضيل «تي» على هذه الزوجة الأجنبية الجديدة كما ذكرنا آنفًا.

[1] راجع: Mercer, "The Tell El Amarna Tablets", No. 26.



شكل ٢: الملكة «تي».

(٤-١) «أمنحتب» والصيد والقنص

أظْهَر هذا الفرعون الغضُّ الإهابِ منذ باكورة حكمه قوة ونشاطًا وميلًا للمغامرة في الطِّراد، ومتابعته بصورة فريدة في بابها، كأنه كان يريد أن يَبُذَّ والدَه وأجدادَه، فقد ذَكَرَ لنا على جِعْران من الجعارين التي تركها لنا مؤرَّخًا بالسنة الثانية من حكمه الطِّرادَ العظيمَ الذي نُظِّم له لصيد الحيوان البري، والظاهر أنه كان في بلاد الدلتا. فقد أردى بسهامه في يومين، ستة وتسعين من قطيع كان يتألف من سبعين ومائة رأس. وكان هذا أول طِرادٍ عُرف له، وهاك النصَّ حرفيًّا:

> السنة الثانية من حكم جلالة «أمنحتب الثالث» معطي الحياة، والزوجة الملكية العظيمة «تي» العائشة أبديًّا. الأعجوبة التي حدثتْ لجلالته. أتى إنسان ليقول لجلالته توجد ثيران برية على النِّجاد في إقليم المستنقعات، فانحدَرَ جلالتُه في النهر في سفينته المسماة «خع إم ماعت» (التي تظهر في الصدق) عند الأصيل، وقد بدأ طريقه المستقيمة، ووصل سالمًا إلى إقليم «شتا» عند وقت الإصباح، وقد ظهر جلالته على جواده (أي عربته) وكان كل جيشه خلفه، وكان على القواد ورجال الجيش عامة، وكذلك الأطفال (كپ) أن ينتبهوا لحراسة الماشية البرية؛

> تأمل! لقد أمر جلالته أن تُحاط هذه الماشية بجدار مسوَّر، وقد أمر جلالته بإحصاء كل هذه الماشية البرية، فقرر أنها سبعون ومائة ماشية برية، وقرَّر أن ما استولى عليه جلالته في الطِّراد في هذا اليوم هو ستة وخمسون ثورًا بريًّا. وقد مكث جلالته أربعة أيام بدون عمل ليعطي جياده نارًا (ينشطها) ثم ظهر جلالته على جواده كرة أخرى.

بيان بتلك الحيوانات التي استولى عليها في الطِّراد: وهي «أربعون ثورًا بريًّا فيكون المجموع ستة وتسعين ثورًا بريًّا» (راجع A. S., XLV, 87ff). ومن هنا نعلم أن هذا الفرعون قد اصطاد في يومين أكثر من ستة وتسعين حيوانًا. ومما هو جدير بالذكر هنا أن الفرعون كان شفيقًا على جياده، فقد أراحَها مدة أربعة أيام لتستعيد نشاطَها وقوَّتها للطِّراد ثانية.

على أن هذا الطِّراد ليس الوحيد في بابه؛ إذ نجد الفرعون يطبع لنا جِعْرانًا آخر من عِدَّة نُسَخ أظهرتِ الكشوفُ منها حتى الآن أكثرَ من خمسة وثلاثين جِعْرانًا، وأرَّخه بالسَّنَة العاشرة من حكمه، وهذا الجِعْران خاص بالأسود التي اصطادها في السنين العشرة الأولى من حكمه، فيقول: «يعيش الملك «أمنحتب الثالث»، حاكم «طيبة»، معطي الحياة، والزوجة الملكية العظيمة «تي» العائشة. بيان بالأسود التي أرْدَاها جلالته بقوسه من السنة الأولى إلى السنة العاشرة من حكمه «اثنان ومائة من الأسود المفترسة» (راجع Breasted, A. R., II, § 865).»

والواقع أن «أمنحتب الثالث» كان في السنين الأولى من فاتحة حكمه صيادًا عظيمًا، غير أن الرقم القياسي الذي ضربه في صيد الأسود يتضاءل أمام ما أصابه مَلِك «آشور» «تجلات بيليزر»[2] في هذا المضمار، وقد جاء بعده بنحو ثلاثة قرون، فقد ذكر لنا ملك «آشور» — ولا بد أنه كان خصب الخيال — قصة رائعة عن طِرَاده الأسودَ، قال فيها: «إنني قتلتُ عشرين ومائة أسدٍ بحماستي الغضَّة في عنفوان شبابي، وأنا على قدمي، واصطدتُ ثمانمائة أسد، وأنا ممتطٍ عربتي.» ولا شك في أن المطلع على ما جاء في تقرير كل من هذين العاهلين لا يسعه إلا أن يكيل الثناء «لأمنحتب الثالث»؛ لأنه حاول في بيانه أن يعطي نسبة يُدرِكها العقل، إذا قُرنت بتلك النسبة الخيالية التي ذكرها مَلِك «آشور».

---

[2] راجع: "Cambridge Ancient History", Vol. II. p. 250; Maspero "The Struggle of the Nations", p. 625.

(٥) مباني أمنحتب الثالث

هذه صفحة من أنواع اللهو الذي كان يصرف فيه «أمنحتب» شطرًا من حياته وبرفقته زوجه «تي»، وهذه الهوية المحبَّبة لم تكن لتَثْنِيه عن الالتفات إلى جسام الأمور في داخلية البلاد عندما كان يرى أن ذلك مما يُمجِّده أو يرفع من شأنه في أعين الشعب ويُكسِبه رضى آلهته الذين حبَوْه بالنصر على الأعداء. ولذلك كان أول ما وضع فيه كل همته هو تجميل مدينة «طيبة» مَهْد أعظمِ آلهة الدولة وأعلاها كعبًا. ولا غرابة فإن ذلك كان يتفق مع ميوله السلمية، وقد كانت هذه المدينة آخذة في الاتساع، يزداد بهاؤها وعظمتها باطِّراد منذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة، مما جعلها تأخذ بنصيب الأسد من الثروة التي كانت تتدفَّق على مصر من «سوريا» وبلاد «النوبة». والواقع أن «طيبة» نالتْ في عهده ما لم تَنَلْه في عهد أيِّ فرعون قبله أو بعده، بما أُقيم فيها من معابد فاخرة وقصور شامخة كانتْ مضرب الأمثال وبهجة الناظرين في عصره. على أن ما أقامه في هذه المدينة من آثار كان يترسَّم فيه خُطَا أسلافه ثم يفوقهم في الفَخَامة والعَظَمة، هذا فضلًا عما ابتكره مما لم يُسبَق إليه.

فنراه قد جرى على نهج أجداده في إقامة المعابد للآلهة المحلية في «طيبة» نفسِها مقرِّ الإله العظيم «آمون رع»، كما أقام لهم المعابد في أنحاء بلاد النوبة، ولم يُجارِه في هذا المضمار إلا «تحتمس الثالث»، فقد بنى الأخير معبدًا للإله «بتاح» في معبد الكرنك العظيم، وأقام الفرعون «أمنحتب الثالث» على غراره معبدًا للإله «منتو»[٣] إله الحرب، وآخَر للإلهة «موت»[٤] زوج الإله «آمون رع» في معبد الكرنك أيضًا (راجع Porter and Moss, “Bibliography” II, p. 89–91). وأعظم وأفخم بناء أقامه «أمنحتب الثالث» في «طيبة» معبده الجنازي الذي أقامه على الضفة اليُمنى للنيل في السهل المنبسط وراء شاطئ النهر وفي سفح التلال التي تكتنف النيل في هذه الجهة، وقد كان غرضه الأول من إقامته أن يكون معبدًا جنازيًّا له يُعبد هو فيه بوصفه إلهًا، وكذلك ليكرم فيه والده «آمون». غير أن عوادي الدهر ويد التخريب لم تُبقِ عليه ولم تَذَرْ حجرًا من أحجاره، ولم

---

[٣] راجع: Bouriant “Rec. Trav.” XIII, p. 172; Brugsch, Rec. LXII. (3); Porter and Moss, “Bibliography”, II, p. 3–5.

[٤] راجع: Benson and Gourlay, “Temple of Mut”.

يصل لنا من أطلاله ما يدل على فخامته وعظمته إلا التمثالان المعروفان بتمثالي «ممنون» المنحوت كل منهما في قطعة واحدة من الحجر الرملي المستخرج من محاجر الجبل الأحمر الواقع بجوار «عين شمس»، وقد نقل هذا الفرعون هذين التمثالين إلى هذا المعبد في طيبة الغربية، ولذلك عبَّر «أمنحتب الثالث» بكبرياء وفخار عن نقلهما إلى هذا المكان بالعبارة التالية:

> لقد نقلتُهما من «عين شمس» الشمالية إلى «عين شمس الجنوبية» (أيْ من محاجر الجبل الأحمر الواقعة بجوار عين شمس إلى طيبة الغربية التي كان يُطلِق عليها المصريون اسمَ «عين شمس الجنوبية»).

وقد لَقَّب هذا الفرعونُ نفسَه على تمثاليه الضخمين المُقامين أمام هذا المعبد: «صاحب الآثار العظيمة التي نقَلها بقوَّته من «عين شمس الشمالية» إلى «عين شمس الجنوبية».

ومن حُسن الصدف أن «أمنحتب الثالث» بعد أنْ أتمَّ إقامة هذا المعبد العظيم أقام في ردهته الكبرى لوحةً عظيمة من الجرانيت الأسود نَقش عليها نقوشًا جاء فيها كل ما كان يحتويه المعبد من أثاث فخم، وزخرف بهيج، وقد اغتصب الفرعون «مرنبتاح» هذه اللوحة بعينها، وهي المعروفة بلوحة «بني إسرائيل»، ونقش على وجهها الغفل من النقش وَصْفَ حروبه ومآثره في خلال حكمه، كما اغتصب معظم أحجار هذا المعبد هو ووالدُه وبنى به معبدَه الجنازي (راجع Breasted, A. R. II, § 878; Rec. XX, 37–54).

وهذه اللوحة لها أهميتها القيمة من الوجهة التاريخية والدينية؛ إذ تَصِف لنا معبد «أمنحتب» الجنازي الذي أُقيم فيه تمثالا «ممنون» ومعبد «الأقصر» وما يتصل به من مبانٍ، والقارب المقدس، والبوابة الثالثة العظيمة التي أقامها هذا الفرعون في معبد «الكرنك»، ومعبد «صولب» الذي أقامه في بلاد «النوبة»، ثم أنشودة للإله «آمون».

وسنورد ترجمة هذه اللوحة مع التعليق عليها لِيَرَى القارئ عظمة ما قام به هذا الفرعون من المباني الدينية، فاستمتع لما جاء فيها عن معبده الجنازي:

> تأمل! إن قلب جلالته كان راضيًا عن إقامة آثار عظيمة مما لم يُعمل مثلُها منذ الأزل.
>
> ولقد جعله بمثابة أثر لوالده «آمون» رب «الكرنك» وسيد «طيبة»؛ إذ أقام له معبدًا فخمًا في غربي «طيبة»؛ ليكون حصنًا خالدًا أبدًا من الحجر الجيري الأبيض المغشَّى كله بالذهب، كما صُفِّحت رقعته بالفضة، وكل أبوابه

كانت مُصفَّحة بالسام. وقد كانت رقعته عظيمة الاتساع والحجم جدًّا، وأُسِّس للأبدية، وقد زُيِّن بهذا الأثر العظيم جدًّا (اللوحة). والتماثيل الملكية فيه عديدة، وقد صُنعت من جرانيت «إلفنتين»، ومن الحجر الصلب، ومن كل حجر فاخر ثمين، ليكون عملًا خالدًا. وتضيء في رقعتها أكثر من السموات، وأشعتها تسطع في وجوه الناس مثل الشمس عندما تُشرق في الصباح المُبكِّر. وقد جُهِّز «بموقف للإله»، وغُشِّي بالذهب،[5] وأحجار ثمينة عِدَّة، ونُصبتْ أمامه عَمَد أعلام مُغَشَّاة بالسام، وهو يشبه الأفق في السماء عندما يُشرق فيه «رع» (الشمس) وتُمدُّ بُحَيْرته العظيمة من النيل العظيم، رب السمك، والطير طاهر في …

ثروة المعبد: «وحظيرته مملوءة بالعبيد ذكورًا وإناثًا، وكذلك أولاد أمراء كل الأقاليم، التي استولى عليها جلالته. ومخازنه فيها من كل ما لذَّ وطاب مما لا يُعرَف له عدد، وتُحيط به مستعمرات من أراضي «خاروا» يقطنها أولاد الأمراء، وحيوانُها يُعَدُّ بالملايين مثل رمال الشاطئ.»

بوابة المعبد الغربية: وهو حبل مقدمة سفينة الصعيد وحبل مؤخرة سفينة الدلتا (نعتان للفرعون)، وقد ظهر جلالته نفسه مثل «بتاح»، وكان ذكيَّ الفؤاد مثل «الذي جنوبي جداره» (أي الإله بتاح أيضًا)، باحثًا عن أشياء ممتازة لوالده «آمون رع» مَلِك الآلهة، فأقام له بوابة عظيمة جدًّا قبالة آمون (وهي البوابة التي كانت تكتنف تمثالَيْ «ممنون»)، وكان اسمُها الجميل الذي منحه إياها جلالته: «آمون تسلم سفينته المقدسة» وهي مكان يَرْتاح فيه رب الآلهة «في عيد الوادي» الخاص به عند سياحة آمون إلى الغرب ليُشاهِد آلهة الغرب ليمنح جلالته حياة راضية.»

أهمية هذا المتن: ولا نزاع في أن هذا الوصف الرائع لهذا المعبد لم يضع أمامنا تفاصيل دقيقة، غير أنه شَرْحٌ خلَّاب يعطينا صورة عن عظم ثروة الإمبراطورية في هذا العهد وما كانت تَنعَم فيه البلاد من مجْد وأبهة، وما كان يُقدِّمه الفرعون للإله، وما كان يتخذه لنفسه من أثاث وعتاد لعبادته. ومما يلفت النظر بوجه خاص ذِكْر مستعمرة «السوريين» التي أُسِّست لهم في مباني هذا المعبد، مما يدل على مدى اختلاط الأجناس الأجنبية بالمجتمع المصري، مما أدَّى إلى امتزاج دم جديد بالدم المصري، فأثَّر في تغيُّر سِحَن

[5] المكان الذي يقف فيه الملك ليُتوَّج في قدس الأقداس.

المصريين، وبخاصة عِلْيَة القوم، وسنرى أثر هذا الاختلاط فيما بعد. على أن هذه المستعمرة لم تكن الوحيدة في بابها بل لها مثيلاتها، فقد عُثر بجوار «بوالهول» على مستعمرة كان جُلُّ أهلِها من «العبرو» (العبرانيين) الذين نجد ذكرهم في لوحة منف الجديدة لأول مرة، ولا يَزال اسم هذه المستعمرة باقيًا في اسم بلدة «الحرونية» نسبة لإلههم «حورنا» أو «حول» وهو «بوالهول» الذي وُجد مع معبودهم الذي كانوا يعبدونه في بلادهم، كما شرحنا ذلك من قبل، على أنه لدينا لوحة أخرى لا تزال ملقاة بجوار تمثالَيْ «ممنون» وفيها إهداء هذا المعبد للإله «آمون رع». (راجع Breasted, A. R. II, § 904). وقد كان موضعها الأصلي في المعبد في «موقف الملك»؛ أي إنها كانت ترتكز على الجدار الذي خلف حجرة قدس الأقداس. والجزء الأعلى من هذه اللوحة يحتوي على منظرين تقليديين؛ يُرَى فيهما الفرعون «أمنحتب الثالث» وزوجه الملكة «تي» أمام الإله «سكر أوزير» في الجهة اليسرى والإله «آمون رع» في الجهة اليمنى (راجع L. D. III. Pl. 72).

وهاك نصَّ اللوحة:

خطاب الفرعون

يعيش (ألقاب الفرعون) الملك «أمنحتب الثالث» يقول: تعالَ أنت يا «آمون رع» يا رب طيبة، يا مَن تسيطر على «الكرنك»، لقد رأيتُ بيتك، الذي لك في غربي «طيبة»، وجماله يمتزج بجبال «مانو» (جبال خرافية في الغرب) عندما تسبح في السماء لتغرب وراءها، وعندما تشرق في أفق السماء فإنه يضيء بذهب وجهك؛ لأن واجهته شطر الشرق ... وإنك تضيء في الصباح كل يوم، وجمالك في وسطه دائمًا، ولقد صنعتُه صناعة ممتازة، فهو من الحجر الرملي الأبيض الجميل.

تمثالا ممنون

ولقد ملأه جلالتي بالآثار بتماثيلي من جبال الحجر الصلب، وعندما تُرى في مكانها فإنها تبعث البهجة بسبب حجمها «العظيم»، ولقد صنعتُ كذلك صورة في الحجر من المرمر والجرانيت الوردي والأسود. وقد أقام جلالتي «بوابتين» مريدًا عمل أشياء ممتازة لوالدي، وتماثيل خارجة ... وقد صورت ... جميعها، ولقد كان ما صنعتُه من ذهب وحجر، وكل حجر غالٍ فاخر لا حصر له. ولقد ألقَيتُ عليهم التعليمات ليعملوا ما يسرُّ حضرتَك راضيًا بمأوًى ممتاز مثل ...

القربان

ولقد خصصت لها (التماثيل) قربانًا ... وقد عمل جلالتي هذه الأشياء لملايين السنين، وإني أعلم أنها تمكث على الأرض لوالدي ... كل ما يلزم عمله له. وصنعتُ لك ظلًّا (مزولة؛ أي ساعة شمسية) لسياحتك في عرض السماء مثل «آتوم» عندما يخرج مع كل الآلهة حينما يكون تاسوع الآلهة الذين خلفك والقردة المقدسة تمجِّد شروقك وظهورك في ... الأفق. والتاسوع الإلهي يبتهج ويقدمون الثناء للإله «خبري»، والقردة المقدسة تمدحك عندما تغرب في «الحياة» في الغرب.

المسلات

وأقمتُ مسلات هناك (...)، ولقد أظهرت عطفًا لكل ما فعله جلالتي في صورة مقصورة لجلالتك ... وأقمتُ لك ثانية آثارًا في غربي المأوى العظيم.[٦] ولقد عظمت كل الأعمال ... لأجل أن أقدم ضرائبي على يد جيشي. ولقد اغتبطت عندما فعلتُ كل ذلك لوالدي. وخصصتُ لك قربانًا يوميًّا عند بداية الفصول، وضحايا في مواقيتها، بمثابة ضريبة لمعبدك. وخُدَّام الإله والكَهَنة من أعظم وخير مَن في البلاد ... فتقبَّلْ ما فعلتُه يا أيها الوالد المبجل «يا آمون» الأزلية.

كلام آمون

الكلام الذي نطق به «آمون» ... تعالَ يا بُنَي «أمنحتب»، إني أسمع ما تقول، ولقد رأيتُ آثارَك، وإني والدك خالق جمالك ... وإني أتقبَّل أثَرَك الذي أقمتَه لي.

[٦] اسم هذا المعبد هو بيت آمون في غربي طيبة (راجع Spiegelberg, “Die Bauinschrift Amenophis III auf der Flinders Petrie-Stele”, Rec. Trav. XX, p. 49).

كلام التاسوع الإلهي

> ... تعالَ ... في معبدك الأبدي، وإنه «نب ماعت رع» (أمنحتب الثالث) ابنك الذي عمل لك هذا ... وإنك في السماء، وإنك تضيء الأرض، والمَلِك على الأرض يُدير دولتك ...

تمثالا ممنون: ومما هو جدير بالملاحظة في هذه النقوش ذِكْر التماثيل التي أقامها الفرعون في هذا المعبد، وقد نحتها من كل الأحجار النادرة، وكذلك الأواني والأشياء التي صنعها من الذهب. كما أشار إلى تمثالَيْ «ممنون» القائمَيْن أمام «بوابة المعبد»، وكذلك ذكر لنا وجود مسلتين، ثم ذكر لنا وضْع مزولة ليَعرِف بها الكهنةُ سَيْرَ الشمس في السماء. ومن كل هذا لم يَبْقَ لنا إلا تمثالا «ممنون» (أمنحتب الثالث)، ومع ذلك فقد أَخْنَى عليهما الدهر وشوَّهَهما تشويهًا كبيرًا بفعل العوامل الطبعية ويد الإنسان معًا. وكان يبلغ طول الواحد منهما قبلَ تهشِيمِه نحو تسع وستين قدمًا، وطول ساقه تسع عشرة قدمًا ونصف القدم، وطول قدمه عشر أقدام ونصف قدم، وعرض صدره عشرون قدمًا وطول أصبعه الوسطى أربع أقدام ونصف القدم، وذراعه خمس عشرة قدمًا ونصف قدم.

وربما يُعزَى بقاء هذين الأثرين لتأليه القوم لهذا الفرعون، وعلى أية حال يَظهَر أنه لم تَقُمْ أية محاولة لإتلافهما واغتصابهما، كما كانت سُنَّة الفراعنة؛ ولذلك فقد بَقِيَا جالسَيْن على حافَةِ الصحراء يَرَيان «طيبة» تنمو تارة وتسقط أخرى. فقد رأيَا «الأثيوبيين» يدخلون البلاد، ومِن بعدِهم «الآشوريين» ثم «الفُرْس» ثم أعقبهم «الإغريق» «فالرومان»، ثم «العرب» أخيرًا.

وفي عام ٢٧ق.م حدث زلزال قضَى على بعض ما كان ماثلًا من خرائب «طيبة» وهشَّم التمثال الشمالي من تمثالَيْ «ممنون» فكسر نصفين، وسقط نصفُه الأعلى، وكان هذا الزلزال الذي أعقبه الكسر فاتحةَ عهدٍ جديد في شُهْرة هذا الأثر؛ إذ بعد حدوث هذا التصدُّع بزمن قصير كان المارَّة يسمعون في الصباح المبكر عند طلوع الشمس صوتًا موسيقيًّا ينبعث من التمثال المكسور، كأنه صوت عود، وقد انتشر خبر تلك الأعجوبة؛ ومن ثَمَّ حَبَكَ الخيالُ الإغريقي الخصب الخرافات عن سبب هذا الحادث. وعلى الرغم من أن المصريين الذين كانوا يعيشون بجوار هذين الصنمين يعرفون أنهما للفرعون «أمنحتب الثالث»، فإنهم أفتَوْا بأن الصوت المنبعث من التمثال هو صوت «ممنون» ابن «تيتوس» أخي الملك «برايام» صاحب «طروادة» و«إيوس» الإلهة الإغريقية إلهة شفق الفجر.

وتقول الأسطورة إن ممنون كان يُهاجِم أهالي «طروادة» هو وجيش من الأثيوبيين ضد الإغريقيين، وقد قتله «أخيل» البطل الإغريقي، غير أن أمه «إيوس» التقطتْ جثته من ساحة القتال، ودَعَتِ الإله «زيوس» أن يمنحه الأبدية.

وقد صارتِ الدموع التي انهمرتْ من عينَيْها عليه تمثِّل نقط الندى التي تَظهَر كل صباح عند مطلع الشمس. وفي رواية أخرى أن «ممنون» كان رجلًا أثيوبي الأصل، وأنه قبل ذهابه إلى «طروادة» أتى إلى مصر، ومن ثَمَّ ذهب إلى «سوس» «ببابل»، وعلى حسب الخرافة الجديدة التي نشأتْ حول التمثالين نعرف أن الأصوات الموسيقية العَذْبة التي كانت تُسمع كل صباح عند مطلع الشمس هي نبرات صوت هذا البطل يُرحِّب بوالدته عندما تشرق الشمس في السماء الوردية اللون، ولقد نال هذا التمثال شهرة عالية دوَّتْ في كل مكان، حتى إن أباطرة الرومان، قد دفعهم حبُّ استطلاع هذا الشيء الغريب إلى أنْ يَفِدوا لزيارته. ففي القرن الثاني بعد الميلاد قام الإمبراطور «هدريان» بسياحة إلى «طيبة» ليستمع إلى هذا الصوت، وبعد مرور سنين على زيارته هذه جاء الإمبراطور «سبتمس سفرس» لزيارة هذا التمثال وسُرَّ به كثيرًا لدرجة أخذتْه، فأمر بإصلاح ما تهدَّم منه. فركَّب الجزء العلوي في مكانه، وبذلك ظهر بصورته الحقيقية، غير أنه مما يؤسف له أن هذا الإصلاح كان إيذانًا باختفاء هذا الصوت، ومن ثَمَّ بقِيَ صامتًا فلم يُسمع ثانية، ومنذ ذلك العهد انفضَّ الزُّوَّار الكثيرون من حوله، وأمسى التمثال في عالَم النسيان من هذه الوجهة، ولكنه دون هذه الناحية بقي حتى الآن صورة ناطقة بعظمة مقيمِه، ولا يزال كعبة الزوَّار من كل بقاع العالَم؛ لشهرته وضخامته، ولا أدلَّ على مقدار شهرة هذا الصنم مما نجده من الكتابات التي تركها لنا الزوار على أجزائه المختلفة منذ القِدَم حتى الآن.[٧]

(٥-١) قصر «أمنحتب الثالث» في الجهة الغربية من «طيبة»

وفي هذه الجهة من مدينة «طيبة» أقام «أمنحتب الثالث» قصرًا مُنِيفًا بجوار المكان المعروف الآن بمدينة «هابو»، وبذلك ضَرب بالتقاليد الموروثة مرة أخرى عرض الحائط، وذلك لأن

---

[٧] وقد رُسم على كلٍّ من جانبَيِ التمثال الثاني العظيم (الجنوبي الغربي) صورة كلٍّ من الملكة «تي» والملكة «موت مويا» Porter and Moss. “Bibliography”, II, p. 160.

السُّنَّة التي كانت متَّبَعة حتى عهده هي أن تكون الجهة الغربية من طيبة، مخصصة للمباني الجنازية وحسب، أما المباني الدنيوية فكانت مشاعة، ولعله أراد بذلك أن يكون بعيدًا عن جلبة المدينة وغوغائها، على الضفة اليسرى، وكذلك ليكون حُرًّا طليقًا في بحيرة نزهته التي بناها بجوار قصره. على أن كَرَّ الأيام وغِيَر الزمن، لم تُبْقِ من آثار هذا القصر الفاخر إلا قِطَعًا صغيرة من الحجر المنقوش، تمثل اثنتان منها انتصارات الفرعون على الآسيويين والسودانيين. وهذا المنظر بعينه قد عثرنا على مثيله، في جزء من بقايا عربة «تحتمس الرابع» السالفة الذكر[٨] مرسومًا على ظاهرها.

والواقع أنه لما كُشف عن بقايا هذا القصر حديثًا كشفًا علميًّا، لم نجد منه إلا بقايا ضئيلة جدًّا، مما يؤكد قول «ديدور» إن المصري كان يَعُدُّ مسكنَه مجرَّد مأوًى مؤقت. فلم تكن قصور الفراعنة تحوي من الآثار الضخمة ما كانت تحويه قصور «آشور»، بل كان بناءً من اللَّبِن مثل البيوت الأخرى، يحوطه إطار من الخشب، مرفوع على عَمَد، وله واجهات وأروقة، ويحتمل أنه كان قليل الارتفاع عظيم المساحة. وإذا أراد الإنسان أن يتخيل قصرًا مصريًّا في تلك الفترة فما عليه إلا أن يُرخِيَ لخياله العنان، من حيث العظمة والضخامة؛ إذ على ما يظهر كانت كل العناية موجَّهة إلى حسن الذوق في تنسيقه وزخرفته، وما بقي لنا من نتف صغيرة من زخرفة هذا القصر، يدل على أن «أمنحتب الثالث» كان مثله كمثل ابنه «أمنحتب الرابع» (إخناتون) يرغب في أن يجعل مناظر الطبيعة ممثَّلة داخل قصره لتكون متعة للعين، فلا بد أن مناظر طيور الماء وهي تسيح في أدغال نبات البشنين، والحمام وهو يرفرف في السماء الصافية الأديم، وغير ذلك مما صوَّره في مناظره، كانت تُدخِل على قلب هذا الفرعون السرور والغِبْطة، ولا بد أن حجرات هذا القصر كانت مؤثَّثة بأحسن ما يُنتِجه الفن المصري، من أنواع التصوير، والأداة الزخرفية الرشيقة، ولسنا مبالغين في هذا الخيال، ولا ذاهبين فيه شططًا، فإن فيما عُثر عليه من الأثاث الجنازي الفاخر في قبر «يويا» وزوجه «تويا»، وهما والدا الملكة «تي» زوج «أمنحتب الثالث» برهانًا ساطعًا على صِدْق ما تخيلناه. فقد وُجدتْ في هذا القبر قِطَع فنية من أحسن وأدقِّ ما أخرجه المفتنُّ المصري، وأحكم صناعته الصائغ الحاذق. ولسنا بذاهبين بعيدًا للبحث عن وصف قصر هذا الفرعون، ففيما خلفه لنا «توت عنخ آمون» من أثاث فاخر، وما كُشف

[٨] راجع: Porter and Moss, “Bibliography”, I. p. 200.

عنه حديثًا من بقايا قصر «أمنحتب الرابع» في «إخناتون»، وقد كان يسكنه والده في آخر أيام حياته ما يُغني عن كل وصْف وتهويل. أما قصور عظماء القوم فسنتحدث عنها في حينها.

حقًّا كان قصر «أمنحتب الثالث» مقامًا من اللبِن ومثله في ذلك كمثل كل قصور الفراعنة، غير أنه على ضوء ما عُثر عليه فيه من بقايا، وعلى ضوء محاكاته لقصور ابنه «أمنحتب الرابع» التي سنصفها بعد، كان لا بد مزينًا بأجمل الزينة، ويجب أن نتصوره بوصفه بيتًا صيفيًّا ذا ألوان جميلة بهيجة، له ممرات وردهات وسُقُف خفيفة الوزن، محمولة على عَمَد مزخرفة، متكئة على قواعد من حجر، وله مظلات مصنوعة من ألوان زاهية تحجب أشعة الشمس المحرقة، مقامة بجانب بحيرته الصناعية، التي أقامها بخاصة، في مكان أُطلق عليه اسم «زعر وخا» (مقصد النعيم) وقد كان يتنزه على مياهها «أمنحتب الثالث» وبجواره زوجه الملكة «تي» في قاربه المسمى «تحن آتون» (قرص الشمس يطلع). ولا يبعد أن «أمنحتب» قد أقام هذا القصر في الجهة الغربية من النيل ليتسنَّى له حَفْر بحيرة «تاروجا» التي تُعَدُّ من أحسن مباهج عصره. ويُعَدُّ الاحتفال العظيم الذي أُقيم تخليدًا لإنجاز هذه البحيرة بما فيه من عظمة وأبهة ظلًّا من ظلال الحوادث العظيمة التي امتاز بها حكم هذا الفرعون، وقد سجل «أمنحتب الثالث» تاريخ حفر هذه البحيرة على جِعْران ليكون ذكرى باقيةً، كما فعل بتسجيل أعماله الأخرى الخالدة، فاستمع لما نُقش عليه: «السَّنَة الحادية عشرة الشهر الثالث من الفصل الأول اليوم الأول في عهد جلالة (ألقاب الملك) الفرعون «أمنحتب الثالث» معطي الحياة، والزوجة الملكية العظيمة «تي» العائشة. لقد أمر جلالته أن تُصنع بحيرة[٩] للزوجة الملكية العظيمة «تي» في مدينتها «زعر–وخا». ذَرْعها سبعمائة وثلاثة آلاف ذراع واتساعها سبعمائة ذراع. وقد احتفل جلالته بعِيد فتح هذه البحيرة في الشهر الثالث من الفصل الأول اليوم السادس عشر، عندما ساح جلالته فيها بالقارب الملكي المسمى «آتون يسطع».» (راجع Breasted, A. R. § 869). ولا نزاع في أن إتمام هذه البحيرة في هذه المدة القصيرة لأكبر دليل على النظام المدهش والمهارة الفائقة في تنسيق نواحي العمل في البلاد، فهذه البحيرة التي يبلغ طولها أكثر من ميل ويبلغ عرضها نحو نصف ميل قد أُنجزت في خمسة عشر يومًا.

---

[٩] راجع: Bulletin de l'Institut de l'Egypte XX (1938) p. 51ff، حيث تجد رأيًا آخر عن سبب بناء هذه البحيرة.

أهمية اسم القارب «تحن آتون»: على أن الأهمية الحقيقية للمؤرِّخ هنا، لم تكن في الواقع تُحصَر في بناء هذا القصر أو في حفر تلك البحيرة، بل ربما كانت الأهمية العظمى تنحصر فيما ينطوي عليه اسم هذا القارب الذي كان يمخر عباب البحيرة بالملك من معنًى عميق؛ وذلك لأن الاسم «تحن آتون» (قرص الشمس يسطع) كان أول مظهر رسمي لاسم إله جديد مُزج باسم هذا القارب «آتون» وسيكون له بعد خمسة وعشرين عامًا أكبر مكانة عند الفرعون، كما سيكون أكبر شؤم وأبغض شيء عند السواد الأعظم من المصريين. على أنه لا يمكن الجزم في هذه الآوِنَة بما إذا كان «آتون» الذي يحتفل «أمنحتب» بضوئه في اسم قاربه هو نفس «آتون» الذي كان يقصده والدُه «تحتمس الرابع» ثم ابنه «إخناتون» فيما بعد أم غيره، وإنْ كانت كل الدلائل والظواهر تدل على أنه هو بعينه كما سبق ذكره. وعلى أية حال فإن مجرد ظهور هذا الاسم في هذه الفترة، وبعد ذكره في عهد «تحتمس الرابع» يُعدُّ البذرة الأولى، لقيام هذا المذهب الجديد فيما بعد جملة.

وعلى أية حال، فإنا نجد «أمنحتب الثالث» قد بقي — ولو ظاهرًا — مؤمنًا بآلهة آبائه الأولين؛ مما جعله يستمر في إقامة المباني الضخمة لهم في «طيبة» وفي جميع أنحاء جهات القُطْر.

(٥-٢) قبر «أمنحتب» في أبواب الملوك

وبعد أن أتم «أمنحتب» بناء قصره السالف الذكر، وهو المُقام من اللبِن، أخذ يَنحَت لنفسه بيتًا للأبدية في أبواب الملوك، ولكنه كان أول مَن عرف كيف يُخفي قبره عن الأعين دون أسلافه، فبدلًا من إقامته في الجبانة الشاسعة المطلة على السهل المتصل بالنيل، فإنه أقامه في مضيق جبلي قاحل من الصحراء بعيدًا عن النيل على مسيرة ساعة من شاطئه. وهناك تحت عدَّة أروِقة عظيمة لضريحه حُفرت في جوف الجبل لعدة مئات من الأقدام، وهذا الطراز من الدفن قد اتخذه فيما بعدُ كثيرٌ من الفراعنة الذين خلَفوه. وهو يحتوي على ممرٍّ طويل يؤدِّي إلى حجرة بها عمودان ثم رواقان يوصِّلان إلى حُجْرة الدفن، ويحتويان على ستة أعمدة، ويتفرع من هذين الرواقين سبع حجرات،[١٠] وقد أُحكم إخفاء مدخل

[١٠] راجع: Lefebure, “Les Hypogés Royaux de Thebes” in Mission Arch. Franç. III, p. 172–3; (Plan) “Description de l’Egypte Ancienne”, II, Pl. 79. (5); Porter and Moss, “Bibliography”, I, p. 28. And Plan, p. 22.

المقبرة بمهارة فائقة، فقد جُعل خلف صخرة بارزة من الجبل، ولم يُفشِ سرَّ وجودها في هذه البقعة إلا شظيات الحجر الصغيرة التي تخلَّفتْ من نحت المقبرة ووضْعها عند الباب، ويدل ما تبقَّى على جدران المقبرة على أنها كانت مغطَّاة بمِلاط من الجَصِّ الملوَّن الذي سقط معظمه. ونعلم مما تبقَّى منه أن صناعته كانت أجمل بكثير من صناعة مقابر الملوك الذين جاءوا بعده. وقد زُيِّنتْ جُدْرانه برسوم تمثِّل رحلةَ الشمس في أقطار العالَم السفلي في مدة اثنتي عشرة الساعة خلال الليل.

وقد عُثر له على تابوت من الجرانيت الأحمر، وعلى بعض تماثيل «مجاوبين» بحجمٍ أكبر من المعتاد جدًّا، وصناعتها من الطراز الأول (راجع Maspero, “Struggle of the Nations”, p. 310). وكذلك بعض الأواني الجنازية.

وكذلك وُجد غطاء تابوته المصنوع من الجرانيت الأحمر.

(٦) آثار «أمنحتب» في طيبة الشرقية

(٦-١) طريق الكِبَاش

أما في طيبة الشرقية فقد أقام فيها عدَّة مبانٍ، نخص بالذكر منها: طريقًا لتماثيل «بوالهول» الذي يمثِّل الإله «آمون» برأس كبش، ويتألف من اثنين وعشرين ومائة تمثال نُحتت من الحجر الرملي. وتقع هذه الطريق أمام معبد الإله «خنسو» الحالي، وقد نُقش عليها اسم «أمنحتب الثالث»، والظاهر أن هذا الفرعون، قد أقام معبدًا في هذه النقطة في المكان الذي يحتلُّه معبد «رعمسيس الثالث» الحالي.

(٦-٢) البوابة الثالثة

وقد أقام «أمنحتب» كذلك بوابة بمثابة واجهة جديدة لمعبد الإله «آمون» العظيم، وتدل الكُشُوف الحديثة على أن معظم الأحجار التي ملأ بها هذا الفرعون جوف هذه البوابة كانت من معابد مَن سبقه، وبخاصة من معبدين صغيرين يرجع أحدهما للملك «سنوسرت الأول»، والثاني للملكة «حتشبسوت»، وكذلك وُجدت فيها أحجار من معبد للفرعون «أمنحتب الثاني» وغيره كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وقد تَرك لنا هذا الفرعون وصف هذه البوابة على لوحته التي أقامها في معبده الجنازي على الضفة الغربية من النيل في طيبة (راجع Breasted. A. R. II, § 889). كما تَرك لنا بقايا نقش هام على البرج الجنوبي لهذه البوابة عند بنائها (راجع ibid. § 899). وهاك ما جاء على اللوحة الجنازية وصف بوابته بالكرنك:

ملك الوجه القبلي، والوجه البحري، «نب ماعت رع»، ابن الشمس «أمنحتب الثالث»، حاكم طيبة، الساهر على البحث عما هو مفيد، والملك الذي أقام أثرًا آخَر للإله «آمون»، وبنى له بوابة ضخمة جدًّا، قبالة «آمون رع» رب طيبة، مغشَّاة كلها بالذهب. وظلُّه الرُّوحاني في صورة كبش مرصَّع باللَّازَوَرْد، ومغشًّى بالذهب، وبالحجارة الكريمة العدة، وليس له نظير، ورقعتها مزيَّنة بالفضة، وبُرجاها عليها. وقد وُضعت لوحات من اللازورد في كل جانب من جوانبها، وبواباتها تصل إلى عنان السماء، مثل عَمَد السماء الأربعة، وعمد أعلامها تضيء أكثر من السموات ومغشاة بالسام، وقد أحضر جلالته لها ذهبًا من أرض «كاراي» من حملته الأولى المظفَّرة التي ذبح فيها «الكوش» الخاسئين.» أما النقوش التي وُجدت على برج البوابة نفسها فممزقة جدًّا، ولا يمكن أن نؤلف منها كلامًا متصلًا، غير أنه يمكن أن نفهم من مضمونها أن هذه البوابة كانت من أجمل البوابات وأثمنها. ويتألف المتن على وجه التقريب، من المدائح الملكية المعتادة، ثم ذكر القربان التي قدمت للإله «آمون» ثم الهدايا التي قدمها الفرعون للإله، من أزهار وفضة وذهب، ولازورد حقيقي، وفيروزج، وكل الأحجار الكريمة، والأواني الفاخرة من السام، مما لا تقع تحت حَصْر. وكذلك ذكرت لنا في هذه النقوش، الآثار المتصلة بهذه البوابة، وما قدمه لها الفرعون من عطايا وهدايا، وقد جاء فيها ذِكر مسلات لهذا الفرعون، ويحتمل أنها كانت مقاومة أمام هذه البوابة، ولا بد أنها قد أُزيلت لإقامة قاعة العمد الكبرى، والمسلات المعروفة «لأمنحتب الثالث» في الكرنك موجودة في المعبد في الجهة الشمالية، غير أنه لم يبقَ منه إلا قطع (راجع L. D. Text. III, p. 2)، وقد ذكرنا من قبل أن هذا الفرعون قد أقام مسلتين أمام معبده الجنازي، ولم يبقَ منهما أي أثر.

(٦-٣) سفينة الإله «آمون» في الكرنك

وكان «أمنحتب» مهتمًّا بسفينة الإله «آمون» المقدسة، التي كان يركبها في وقت الاحتفال بالأعياد العظيمة ليذهب لزيارة آلهة المعابد المجاورة، وبخاصة في «عيد الوادي» الذي كان ينتقل فيه من معبده بالكرنك إلى «طيبة» الغربية إلى معبد «الدير البحري» (راجع مصر القديمة ج٣)، وقد كان ذلك يُحتِّم استعمال سفينة كبيرة يوضع عليها القارب المقدس المسمى «وسرحات»، وأحسن صورة لهذا المنظر نجدها في الكرنك مصوَّرة على البوابة الثالثة التي أقامها الفرعون «أمنحتب الثالث» وهي على الجدار الشرقي لبرج البوابة الشمالي.

وقد ترك لنا هذا الفرعون وصفًا لهذا القارب الذي أمر بصنعه للإله «آمون» في لوحته التي كانت في معبده الجنازي (راجع Breasted, A. R. II. § 888). وهاك النص:

> لقد صنعتُ أثرًا ثانيًا لَمَن أنجبني، وهو الإله «آمون رع» رب طيبة، الذي مكَّننِي على عرشه، فصنعتُ له سفينة عظيمة لأجْل «عِيد بداية النهر»، واسمها «آمون رع في السفينة المقدسة» (وسرحات) من خشب الأرز الجديد الذي قطعه جلالته من أقاليم أرض الإله. وقد جرَّه (الخشب) على جبال «رتنو» أمراء كل الأقاليم. وقد كانت واسعة وكبيرة ولم يُصنع لها مثيل (من قبل)، وقد بُنيت جميعُها بالفضة وغُشِّيت بالذهب، ومحرابها العظيم من السام، وبذلك تملأ الأرض بضوئها، ومقدماتها كذلك لامعة، وتحمل التيجان العظيمة التي تلف أصلالها على كِلا جانبيها لحمايتها، وقد نُصبَتْ عَمَد الأعلام أمام (المحراب) موشَّاة بالذهب، وبينها مسلتان عظيمتان، وهي جميلة في كل نواحيها، وآلهة (أرواح) «بوتو» يقدمون لها عيدًا، وآلهة «نخن» (الكاب) يمدحونها، وإلها النيل الجنوبي والشمالي يضمان جمالها، ومقدماتها تجعل «نون» (النيل) يضيء كما تضيء الشمس عندما تطلع في السماء لتجعل سياحته البهية في عيد «أوبت» (الأقصر) في سياحته الغربية لملايين ملايين السنين.

هذا الوصف الممتع يَنقُصه بعضُ التفاصيل عن هذه السفينة. غير أنا قد وجدناها لحسن الحظ في الوصف الذي تركه لنا «رعمسيس الرابع» لسفينته الجديدة التي وصفها

«رعمسيس الثالث» مع السفينة القديمة. فنجد فيها تفاصيل هامة عن حجم سفينة «آمون» فيقول مخاطبًا الإله «آمون»:

> لقد صنعتُ لك سفينتك الفاخرة «وسرحات»، طولها ثلاثون ومائة ذراع على النهر، من خشب الأرز، وألواحها المدهشة مغشَّاة بالذهب الخالص حتى خط الماء، كما صُنع لسفينة «رع» عندما يُشرق مِن «بقت» (جبال خرافية تقع في الشرق)، فيجعل كل الناس تَحْيَا بمشاهدته فقط. ومحرابها العظيم من الذهب الخالص، المرصَّع بالأحجار الثمينة، مثل محراب معبد «عين شمس»، العظيم، وقد وضع في مقدمتها وفي مؤخرتها رءوس كِباش من الذهب، محلاة بأصلال، وعلى رءوسها التاج «آتف» (راجع Foucart, "Etudes Thebaines. La Belle Fete de la Vallee", B. I. F. A. O, XXIV, p. 186).

موازنة بين سفينة آمون وسفينة أمير البحر نلسن: ومن ذلك نرى جليًّا أن السفينة المقدسة كان يبلغ طولها نحو أربع وعشرين ومائتي قدم، وتلك حقيقة تنطق بمهارة المصري في صنع السفن مما يدعو إلى الإعجاب والتقدير، وبخاصة إذا وازنَّا سفينة «آمون» المقدسة بسفينة أمير البحر الإنجليزي العظيم «نلسن»، التي انتصر بها على أسطول «نابليون» في موقعة «الطرف الأغر» عام ١٨٠٥، وهي التي كان يُطلَق عليها «فكتوري» (النصر)، فقد كان طولُها لا يزيد على ست وثمانين ومائة قدم. أيْ إن سفينة الإله «آمون» التي بُنيتْ عام ١٢٠٠ق.م، تُربِي عليها بنحو ثمانٍ وثلاثين قدمًا. وكانت سفينة «نلسن» هذه تُعَدُّ فخْرَ الأسطول الإنجليزي في عام ١٨٠٥ بعد الميلاد.

وقد أقام هذا الفرعون في معبد الكرنك عدَّة مبانٍ أخرى، كما أضاف نقوشًا على مباني الملوك الذين سبقوه.

(٤-٦) معبد آخر للإله «منتو»

ففي النهاية الشمالية من معبد الكرنك معبد للإله «منتو»، أقامه له وبنى أمامه بوابة ومسلتين من الجرانيت الأحمر (راجع Champollion, "Notices", II, p. 271). وكانت عَمَد هذا المعبد ذات أضلاع كثيرة، وكان المعبد يحتوي قطعًا عدَّة من الجرانيت الأسود من تماثيل الملك والإلهة «سخمت» إلهة الحرب وزوج «منتو». وكذلك وُجد «لأمنحتب الثالث» تمثال حُفر في صورة «بوالهول»، وقد أَصلَح هذا التمثالَ الفرعون «مربنتاح» ونقشه

باسمه، ثم «رعمسيس الخامس» و«البطالمة الثاني والثالث والرابع والسادس» (راجع Baedeker, "Egypt", p. 161; Champollion, "Notices", II, p. 272).

(٦-٥) معبد الإلهة موت

وفي النهاية الجنوبية من الكرنك أقام هذا الفرعون معبدًا كبيرًا له أهمية كبرى للإلهة «موت» زوج «آمون». وقد عُثر فيه على عدد عظيم جدًّا من تماثيل هذه الإلهة التي مُثِّلت برأس لبؤة تُعَدُّ بالمئات، وقد وُزعت على متاحف أوروبا بدلًا من بقائها في مكانها الأصلي، والبحيرة التي حُفرت حول جوانب هذا المعبد وخلفه لا تزال باقية. وقد أَصلَح هذا المعبد فيما بعدُ الفرعون «شيشنك» (راجع Mariette, "Karnak", p. 15; Budge "Sculpture", III–4; A. S. V, p. 119–20; P. S. B. A., XXV, p. 217; Daressy, و"Statues de Divinities", p. 265–8).

وكذلك يُنسب إليه المبنى القديم لمعبد «خنسو» (راجع Rec. Trav. XXIII, p. 61).

وكذلك تَرك لنا فيه ملوكٌ كثيرون آثارًا عدَّة (راجع Porter and Moss, "Bibliography" II, p. 89–97).

(٦-٦) معبد الأقصر[11]

أما في الأقصر نفسها فقد أقام «أمنحتب الثالث» معبدًا خاصًّا بالإله «آمون»، كما أقام له جدُّه العظيم «تحتمس الثالث» معبدًا خاصًّا في الكرنك، ويُعَدُّ المعبد الذي أقامَه «أمنحتب» في هذه الجهة أجمل معبد أُقيم في عهد الأسرة الثامنة عشرة من حيث الدقة الفنية والتنسيق في البناء. وتدل النقوش التي على جدرانه على أن «أمنحتب» قد أقامه على أنقاض معبد قديم كان قد أُقيم في عهد الدولة الوسطى (راجع Leiblein, "Aegyptische Genealogien" A. Z. VII. (1896) p. 122ff).

وقد وصل إلينا وصفُ هذا المعبد في نصين أحدهما على لوحة المعبد الجنازي الذي أقامه هذا الفرعون لنفسه على الضفة الغربية للنيل (راجع Breasted, A. R. II, §. 886).

[11] (راجع ما كتب عن هذا المعبد ibid, p. 102ff).

والثاني على عقد بوابة في المعبد نفسه (راجع L. D. III, Pl. 73, and Text. III, p. 80, 81)، والمعبد الحالي من عمل فراعنة عديدين، ولا يُنسب «لأمنحتب الثالث» منه إلا الجزء الجنوبي، ويعتقد الأستاذ «بتري» (راجع Petrie, "History", II, p. 191). خلافًا لغيره من المؤرخين أن هذا المعبد لم يكن متصلًا بطريق الكباش بمعبد الكرنك في عهد «أمنحتب الثالث»، وذلك لأن محور هذا المعبد، وطريق الكباش، لا يوجد بينهما حبل اتصال، أو علاقة تصل أحدهما بالآخر. أما ارتباط معبد الأقصر، بمعبد الكرنك، فيرجع أصله إلى التغييرات التي عملها «رعمسيس الثاني».



شكل ٣: معبد الأقصر.

وهذا المعبد الفخم، يشمل خمسة أجزاء لها ثلاثة محاور مختلفة بعض الشيء، فالمحراب وهو المكان الذي ينتهي إليه الاحتفال بتمثال الإله ويوضع فيه مفتوح من الأمام والخلف وله قاعة أمامه، ورواق ذو عَمَد في الخلف، وحجرات جانبية، وأمام رواق العمد هذه ساحة مفتوحة. ثم قاعة عمد فيها أربعة صفوف، كل منها يحتوي على ثمانية أعمدة، محورها ينحرف بعض الشيء إلى الشمال، بدلًا من الشمال الشرقي مثل المحراب، وبعد ذلك ساحة يُحيط بها عمد بُنيت في اتجاه المحراب، وأخيرًا نجد أمام هذه الساحة والبوابة الضخمة، التي تُؤلِّف واجهة المعبد، طريقًا على جانبه أربعة عشر عمودًا، بمثابة مدخل، وأمامها بوابة أصغر من السالفة.

وصْف المعبد كما جاء في الوثيقة الأولى:

> ملك الوجه القبلي، والوجه البحري، رب الأرضين «نب ماعت رع» (أمنحتب الثالث)، وارث رع، وابن الشمس، رب التيجان، «أمنحتب الثالث»، حاكم طيبة الذي رضي ببناء أقامه لوالده «آمون» رب «طيبة» في «إبت» الجنوبية (الأقصر) من الحجر الرملي الأبيض الجميل، وقد أقامه واسعًا كبيرًا، وقد زيد في جماله، وجدرانه من السام، ورقعته من الفضة، وكل أبوابه قد غشِّيت با … وبرجاه يصلان إلى عنان السماء، ويمتزجان بالنجوم، وعندما يراه القوم ينطلقون بالحمد لجلالته.
>
> وإنه الفرعون «نب ماعت رع» الذي أرضى قلب والده «آمون» رب «طيبة» الذي وهبه كل مُلْكه، ابن الشمس، «أمنحتب» حاكم «طيبة» ضياء «رع».

الوثيقة التي على عتب المعبد:

> لقد أقامه (المعبد) أثرًا لوالده «آمون رع» ملك الآلهة، فأقام له قصرًا جديدًا من الحجر الرملي الأبيض الجميل، وأعلى بناءه جدًّا وزاد في وسعه، وزيَّنه بالسام جميعًا، وبكل الأحجار الفاخرة الغالية؛ ليكون مأوًى للإله «آمون» ومكان استراحة لرب الآلهة، وقد عمل على غرار أفقه (مسكنه) في السماء، لأجل أن يُعطِي الحياة.

على أن ما جاء في النقش من بيان مثل: «الذي بنى المعبد … ونحت تماثيلهم وما كان مقامًا باللبِن أُقيم ثانية بالحجر.» يدل دلالة صريحة على أن هذا المبعد كان قد أُقيم على أنقاض معبد آخر من عهد الدولة الوسطى.

ولا نزاع في أن الجزء الذي أقامه «أمنحتب الثالث» في هذا المعبد الضخم، وهو الجزء الجنوبي، يمتاز بجمال الفن ودقة التنسيق، تلحظهما لأول وهلة عين المفتنِّ عندما نَقْرِنه بالمباني الأخرى التي أُقيمت في العهود التي تَلَتْ عصرَه، وهي التي تنقصها تلك المسحة الفنية الراقية والتناسُب الجميل الذي يمتاز به معبد «أمنحتب».

(٦-٧) معبد آخر بالقرب من الأقصر

وتشير لوحة معبده الجنازي إلى معبد آخر أقامه هذا الفرعون بالقرب من معبد الأقصر، غير أننا لا نعرف عن آثاره شيئًا، ويقول «برستد» عنه: إنه ربما يكون في المكان الذي لم يُكشف عنه بعدُ بين الأقصر والكرنك (راجع Breasted, A. R. II, § 887). وهاك النص الخاص بهذا المعبد:

> وقد أقام جلالته معبدًا آخر لوالده «آمون»، وقد أقام له حظيرة بمثابة قربان إلهي قبالة «أبت الجنوبية» (الأقصر)، وهو مكان ملائم لوالدي في عيده الجميل، وقد أقمتُ معبدًا عظيمًا في وسطه مثل «رع» عندما يُشرق في الأفق. وقد غرستُ فيه كل الأزهار، وما أجمل «نون» (النيل) يجري في بحيرته في كل فصل! وخمره أغزر من المياه، كأنه النيل في تمام فيضانه، وقد خلقه رب الأبدية، وسِلَع هذا المبنى عديدة، فجِزْية كل الأقاليم تَرِد إليه، ويؤتَى لوالدي بإتاوات كثيرة من كل البلاد بمثابة قرابين. وقد وهبني كل أمراء الأقاليم الجنوبية، ومثلهم الشماليون، كل واحد منهم مثل جاره، وفضتهم، وذهبهم، وماشيتهم، وكل حجر فاخر ثمين في بلادهم بالملايين ومئات الآلاف وعشرات الآلاف. ولقد أقمتُه للذي أنجبني بقلب سليم على حسب ما نصبني لأكون شمسَ قبائل الأقواس التسعة.

من هذا النص نفهَم: أن معظم خيرات البلاد الأجنبية، كانت تتدفق على هذه المعابد، ولا بد أن كهنة هذا المعبد، كانوا ينعمون بحياة رضيَّة، كلها رخاء، خمرها أنهار، وفاكهتها مما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، وقصورها مغشَّاة بالذهب، فُرشت بالأثاث الفاخر، مما يتخيَّله الإنسان في جنات النعيم. جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلًا.

(٦-٨) معبد «صولب»

ومن المعابد ذات الروعة والجلال التي أقامها «أمنحتب» في هذا العهد وخصَّها بعنايته معبده الذي أقامه في صولب. ويُعزَى اهتمام الفرعون بهذا المعبد إلى أنه أقامه لعبادته

هو والإله «آمون» معًا. وهو في ذلك يُشبه معبده الجنازي الذي أقامه في «طيبة» الغربية، ويحتوي على عدَّة وثائق، ذُكر في إحداها اسم المعبد الذي لم تذكره النقوش التي دوَّنها هذا الفرعون على لوحة معبده الجنازي. وسنذكر هنا أولًا ما جاء على هذه اللوحة، ثم ما جاء على آثار المعبد نفسه. وهاك النصَّ الذي جاء على اللوحة خاصًّا بمعبد «صولب» (ibid § 890ff):

> «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب ماعت رع»، محبوب «آمون رع» ابن الشمس، «أمنحتب الثالث»، حاكم طيبة. لقد أقمتُ آثارًا أخرى لآمون منقطعة النظير، لقد أقمتُ لك بيتك (الباقي) ملايين السنين في … «آمون رع» رب طيبة، المسمَّى «المضيء في الصدق» (خع-م-ماعت) رافلًا في السام، مأوًى لوالدي في كل أعياده، وقد بُني بالحجر الرملي الجميل، وغشِّي بالذهب كله، ورقعته زُيِّنت بالفضة، وكل أبوابه بالذهب. ونُصبت مسلتان على كلا جانبيه، وعندما يشرق والدي بينهما تراني من بين أتباعه. وقربتُ له آلافًا من الثيران وقِطَعًا من أحسن الأجزاء الخلفية (من الثور).» ثم يلي ذلك أنشودة لآمون وهي:

أنشودة «لآمون»: كلام آمون ملك الآلهة

يا بُنَيَّ من جسدي، يا محبوبي، «نب ماعت رع»
يا صورتي الحية، يا مَن صورته أعضائي
ويا مَن حملتْه لي «موت» سيدة «أشرو» في «طيبة»
وهي سيدة الأقواس التسعة التي نشأتك سيدًا وحيدًا للقوم
إن قلبي يفرح كثيرًا عندما أرى جمالك
وإني أقوم بعمل أعجوبة لجلالتك، وبذلك تجدد شبابك
وذلك لأني قد أقمتُك مثل شمس الأرضين
فعندما أُوَلِّي وجهي شطر الجنوب أقوم بعمل أعجوبة لك
إذ أجعل أمراء «كوش» الخاسئين يتجهون نحوك
حاملين كل جزيتهم على ظهورهم
وعندما أولِّي وجهي شطر الشَّمال أقوم بأعجوبة أخرى لك
إذ أجعل ممالك أطراف «آسيا» يَسعَوْن إليك

حاملين كل جزيتهم على ظهورهم
ويُقدِّمون أنفسهم إليك مع أطفالهم
حتى تمنَحَهم نفس الحياة
وعندما أولِّي وجهي شطر الغرب أقوم أيضًا بعمل معجزة لك
إذ أجعلك تستولِي على التحنو (اللوبيين) فلا تُبقِي منهم باقية
وإنهم يبنون في هذا الحصن (بمثابة عبيد) باسم جلالتي
وهو محوَّط بجدار عظيم يصل إلى السماء (في ارتفاعه)
ومأهول بأبناء رؤساء النوبة
وعندما أولِّي وجهي شطر الشرق أقوم بعمل معجزة لك
إذ أجعل أقاليم «بنت» تأتي إليك
حاملين كل الأخشاب اللطيفة الحلوة في بلادهم
راجين منه (الملك) الأمانَ والنفس الذي هو هبته
يا ملك الوجه القلبي، والوجه البحري، وحاكم الأقواس التسعة، ورب الأرضين «نب ماعت رع» ابن الشمس ومحبوبه «أمنحتب الثالث»، حاكم طيبة، ومَن أرضتْ آثارُه قلبَ الآلهة لأجْل أن يعطي الحياة، والثبات، والرضا، والصحة، ولأجل أن يكون قلبه مبتهجًا مثل «رع» مخلدًا.

ومن هذا النص تعلم أن «أمنحتب الثالث» قد أقام مسلتين أُخرَيَيْن أمام هذا المعبد، وقد ذُكرا على نقش دوِّن على أحد الكباش التي أُقيمت أمام هذا المعبد. وبذلك يكون هذا الفرعون قد أقام أكثر من ثماني مسلات في «طيبة» و«صولب»، إلا أنه لم يبقَ منها واحدة في مكانها. أما القصيدة التي جاءت في آخر هذا النقش، فتُعدِّد لنا الممالك والأقاليم التي كان يسيطر عليها هذا الفرعون، والتي كان أهلها يأتون إليه صاغرين، مُحمَّلين بالجزية والهدايا، فكان يأتي إليه من الجنوب أهل السودان، ومن الشمال يَفِدُ عليه أهل آسيا حتى أقاصيها، ومن الغرب كان يُجلِب إليه أهل «لوبيا» الذين استولى عليهم وسخَّرهم في بناء هذا المعبد المحوَّط بسور عظيم، يصل ارتفاعه إلى عنان السماء، ومن الشرق كان يسعى إليه أهل بلاد «بنت» يحملون العطور والأشجار ذات الشذَى الذكي، ثم هم في الوقت نفسه يطلبون إليه أن يمنحهم نفس الحياة الذي هو مِلْك يدِه.

أما النقوش التي وُجدت على ما تبقَّى من جدران المعبد في تلك الجهة فلم نجد من بينها ما يدل على وصف المعبد في المكان المخصص بها عادة وهو العتب، ولكنا وجدنا

ما يشير إلى ذلك في بعض النقوش، وبخاصة على تماثيل الكباش التي كانت مصفوفة على جانبي الطريق المؤدِّي إلى المعبد، وكذلك على الأُسُود المشهورة التي كانت مُقامة هناك، والمحفوظ بعضها الآن بالمتحف البريطاني.

أما النقش الذي وُجد على الكباش[١٢] فهو:

> يعيش الإله الطبيب «نب ماعت رع» ابن الشمس «أمنحتب الثالث»، لقد عمله بمثابة أثَرٍ لصورة «نب ماعت رع» رب النوبة، الإله العظيم، رب السماء، مقيمًا لنفسه حصنًا ممتازًا يحيط به جدار عظيم، تضيء شرفاته أكثر من السماء، مثل المسلات العظيمة التي أقامها الملك «أمنحتب الثالث» حاكم طيبة، لمدة مليون مليون من السنين، أبد الآبدين. يعيش الإله الطيب … لقد أقامه بمثابة تذكار لوالده «آمون» رب طيبة، فبنى له معبدًا فاخرًا، وقد أُقيم عظيمًا في سعته، وضخامته، وزيد في جماله. (بواباته) تصل إلى عنان السماء، وعمد أعلامه هي نجوم السماء، ويُرى من كلا جانبي النهر مضيئًا الأرضين.

وفي نقش ثانٍ على صورة كبش آخر قد ذُكر المعبد بأنه أُقيم في حصن «خع-م-ماعت» وأنه أُهدِي للإله «آمون»، كما جاء في نقش اللوحة الجنازية.

ومما يلفت النظر في رسوم هذا المعبد بعض مناظر الحفل بعيد إهداء المعبد، فنشاهد الفرعون ومعه رجال حاشيته يمرُّون في (البوابات) العظيمة التي أُقيمت فيه، وكان لكل بوابة اسم خاص بها، وتدل النقوش على أنها أُقيمتْ جميعًا من الحجر الرملي الأبيض الجميل، وقد أقام له طريقًا على غرار طريق معبد الكرنك يؤدي إلى داخل المعبد تحفُّه تماثيل «بوالهول» على كلا الجانبين، برءوس كباش، وهي رمز للإله «آمون»، وكذلك زُيِّن المعبد نفسه بتماثيل سباع ضخمة (انظر شكل رقم ٤) وصقور، وصُوَر حيوانات أخرى مقدسة كانت تُعبد في هذه المنطقة. وقد نُقل بعض هذه التماثيل إلى «نباتا» (جبال بركل) عاصمة بلاد «السودان». ويوجد كثير منها في متاحف أوروبا الآن، ففي «برلين» يوجد

---

[١٢] واحد منها الآن بمتحف برلين Ausfuhrliches Verzeichniss des Berliner ("Museum", p. 23, 24)، وقد وَجَد «لبسيوس» هذه التماثيل في جبل «بركل»؛ حيث نقلها «الأثيوبيون» من صولب (راجع L. D. III, Pls. 80, 90).

تمثالان كلٌّ منهما في صورة كبش، وكذلك توجد قاعدة تمثال صقر.[١٣] أما في «لندن» فيوجد أسدان له، ولكن انتحلهما لنفسه الفرعون «توت عنخ آمون» (Lepsius, "Auswahl",, 13. A. B; "Rec. Trav." XI. p. 212).



شكل ٤: أسد جبل بركل.

والنقوش التي على بعض هذه التماثيل لها أهمية تاريخية؛ إذ قد حَرَص «أمنحتب الثالث» على أن يذكر عليها تأسيس المعبد كما ذكرنا، وكذلك يمكننا أن نستخلص حقائق تاريخية أخرى من التغيُّر الذي حدث في نقوشها الأصلية؛ إذ نجد أن نقوش الإهداء التي دوَّنها «أمنحتب الثالث» على هذه التماثيل قد مُحيتْ في عهد الثورة الدينية التي قام بها «إخناتون»، مما يدل على أن اضطهاد «إخناتون» للإله «آمون» كان قد وصل إلى «صولب» جنوبًا، وأنه تجنَّى على اسم والده فمَحَاه؛ لأنه يشمل كلمة «آمون».

(٧) أعياد «سد» (العيد الثلاثيني)[١٤] التي احتفل بها «أمنحتب الثالث»

تدل النقوش التي ظهرتْ حتى الآن عن عهد الفرعون «أمنحتب الثالث» على أنه احتفل بعيد «سد» مدة حكمه ثلاث مرات؛ الاحتفال الأول منها في السنة الثلاثين، والثاني في

[١٣] راجع: L. D. III, Pl. 80, 90.

[١٤] راجع: J. E. A. Vol. V. p. 61ff. حيث نجد الآراء المختلفة عن أصل هذا العيد.

السنة الرابعة والثلاثين، والثالث في السنة السادسة والثلاثين. وقد كَشف أخيرًا الدكتور «أحمد فخري» عن مقبرة أحد عظماء رجال عهد «أمنحتب الثالث» يُدعَى «خيروف» كشفًا تامًّا بعد أن ظلت لا يُعرف عنها إلا شيء يسير (راجع Gardiner and Weigall, "A Topographical Catalogue of the Private Tombs at Thébes", 32; Porter and Moss "Bibliography", I. p. 152; Brugsch, "Thesaurus", PP. 1120–1121, 1190–94.& A. S. XLII. p. 29ff.) وتمدُّنا الرسوم والنقوش التي كُشف عنها حديثًا في هذه المقبرة بمعلومات جديدة عن هذا العيد الغامض، فلم يكن قد اتَّفق بعدُ علماءُ الآثار على معنى كلمة «سد»، غير أن الجمَّ الغفير منهم يُترجِمها «بالعيد الثلاثيني» على الرغم من أن هذه الترجمة لا تتفق مع الواقع. ويَظهَر أن عيد «سد» كان يُحتفل به لتتويج الفرعون من جديد غير تتويجه الأول عند تولِّيه مهامَّ المُلْك؛ إذ يُقال إنه في الأزمان العريقة في القِدَم كانت تُقام شعيرة خاصة قد وُجد ما يُماثلها في الأزمان الحديثة في بلاد غير مصر. فقد كان يُقتل فيها المَلِك اعتقادًا من القوم أنه لم يَعُدْ بَعْدُ يتَّصِف بالصفات اللازمة التي تؤهِّله للقيام بوظيفة المَلِك. وجريًا على هذه الفكرة كانت تُذبح الحيوانات المقدسة من وقت لآخَر، أو بعبارة أخرى بعد مُضِيِّ زمن محدد على عبادتها. على أن هذه العادة قد مُحِيت على كَرِّ الأيام، وتقدُّم أسباب العمران بالنسبة للملوك، ولكن التقاليد كانت تفرض تضحية الفرعون؛ ولذلك كان يُقام احتفال خاص يُتوهَّم أنه قد مات، ثم يُتوَّج هو نفسُه من جديد، وبهذه المناسبة كان يُقام سُرادِق لتتويجه، وكان يَبتدئ الاحتفال حسب الشعيرة المَرْعِيَّة، وكان لزامًا على الملك عندئذٍ أن يُغيِّر اسمَه ويتخذ لنفسه قصرًا جديدًا.

ومن التقاليد التي تتصل بعيد «سد» كل المناظر التي يمثل فيها الفرعون ويجري أشواطًا في سباقات، وكذلك مناظر للرقصات الخاصة التي كان يرقصها أمام الإله، وكذلك مواكب أرواح الوجهين القبلي والبحري، وهم يحملون الفرعون على محفَّة كالتي نراها مثلًا في الأقصر على الجدار الجنوبي لحجرة الولادة.

وفي هذا العيد يظهر الفرعون كذلك لابسًا تاج الوجه القبلي وتاج الوجه البحري، ومُزَمَّلًا في عباءة، وجالسًا فوق منضدة مرتفعة. ولقد حاول علماء الآثار واللغة المصرية القديمة كلُّهم تفسيرَ كُنْه هذه الأحفال الخاصة بهذا العيد فلم يجدوا لذلك سبيلًا. ولكن يَظهَر أن النقوش والصور التي كُشف عنها حديثًا في مقبرة «خيروف» تُلقِي بعضَ الضوء على أصل هذا العيد، وبخاصة في كونه عيدًا لإحياء فرعون كَرَّة أخرى. ولا أدلَّ على ذلك من الدور الذي تلعبه «سفينتا الشمس» في هذا العيد، ووظيفة «سفينتي الشمس» كما

جاء في متون الأهرام هي أنها كانت تسير بالإله «رع» من الشرق عند ولادته في الصباح وتغرب به في الغرب في سفينة أخرى خاصة كان ينتقل فيها عند الأصيل. فتسير به في العالم السُّفْلِيِّ أو عالم الأموات مدة ساعات الليل، ثم يَظهَر في الشرق مرة أخرى، وينتقل إلى سفينة النهار عائدًا إلى الحياة كرَّة أخرى، وهكذا دَوَالَيْك. وقد كان للفرعون سفينتان مثل سفينتي الإله «رع» وُجِدتا منحوتتين في الصخر بجوار هرم «خوفو»، وكذلك بجوار هرم «خفرع» خلال الدولة القديمة ليعمل فيهما سياحته مثل «رع»، أو مع الإله «رع» (راجع كتاب The Solar Boats, “Excavations at Giza”, Vol. VI, Part I).

وتدل النقوش على أن هذا العيد كان ينتظم عدَّة احتفالات تُقام حسب تقاليد العصر ومعتقداته؛ ولذلك لا نجدها تجتمع كلها في منظر واحد على ما يظهر، أو في مكان واحد على الآثار التي بَقِيتْ لنا حتى الآن. والظاهر أنه كان يُنحت بعض هذه الاحتفالات وتُصور على جدران «المقبرة»، أو في المعبد حسب اعتقاد صاحب المقبرة التي ستُرسم فيها هذه الاحتفالات. ومن الجائز أن المساحة التي كانت تحت تصرُّف الرَّسَّام لها دخْل في رسوم مناظر هذا العيد. وقد تَرك لنا «خيروف» في مقبرته بطيبة الغربية منظرين خاصين بالاحتفالات التي كانت تُقام في هذا العيد، كلٌّ منهما يختلف عن الآخر، فالأول يُفسِّر لنا العقيدة الشمسية، والثاني يوضِّح لنا العقيدة الأوزيرية، وكلاهما يدل على الحياة ثم الموت ثم الحياة ثانية وهكذا.

فالمنظر الأول خاص بالعيد الأول الذي احتفل به في العام الثلاثين من حكم «أمنحتب الثالث»، والثاني خاص بالعيد الثالث الذي أُقيم في العام السادس والثلاثين من حكمه أيضًا.

وسنورد هنا وصفًا موجزًا لمناظر العيد الأول كما جاءت على جدران مقبرة «خيروف» السالف الذكر. (راجع A. S. XLII, p. 29ff).

فيُشاهَد على الجدار الشمالي من الجزء المكشوف حديثًا منظر في طرفه الأيمن يُرى فيه الملك مرتديًا لباس العيد «سد»، وبجانبه الملكة «تي» جالسَيْن، والإلهة «حتحور» واقفة خلفَهما، وهما يُشرِفان على توزيع الهدايا التي كانت تحتوي على أطواق من الذهب وطيور وسمك من الذهب أيضًا، هذا إلى أشرافٍ كان يمنَحُهم الفرعون عطفَه. والمشهد الثاني يَظهَر فيه الفرعون والملكة خارجَيْن من باب القصر المزدوج يتقدَّمهما عشرة كهنة، كلٌّ واحد منهم يحمل رمزًا قديمًا مقدسًا مرفوعًا على عَلَم، وأمامهم طائفة من الأميرات يحمِلْنَ سلات ويلْعَبْنَ بالصاجات. وفي الطرف الأيسر من المنظر نرى صورة

«سفينة الشمس» (مهشَّمة) يجرُّها عشرون من كبار موظفي القصر. وتدل النقوش الخاصة بهذه السفينة على أنها «سفينة الليل» (أي التي يغرب فيها الإله دلالة على الموت)، وهي من النوع العادي، وفي وسطها حجرة على هيئة محراب صغير. ويُشاهَد في مقدمتها ستارة منظومة من حبات خرز معلقة في نهاية السفينة، ويعلوها صورة الإله «حور» الطفل وثلاثة أوتاد. وفي وسط هذا المحراب يُشاهَد الفرعون واقفًا بملابس عيد «سد»، وفي يده السوط والقضيب المعقوف، ويُرى خلفَه صورة امرأة ربما تكون الملكة «تي». وأمام المحراب يُشاهَد خمسة أشخاص أولهما صاحب المقبرة «خيروف». والثاني والثالث يحمل كلٌّ منهما لقب «القاضي والوزير» (أي وزير الوجه القبلي ووزير الوجه البحري). أما الرابع فإن النقش الدالَّ على وظيفته وُجد مهشَّمًا، وخامسها يُشاهَد خلف المحراب محرِّكًا سكان السفينة.

وأسفل هذا المنظر صورة هامة مثِّل فيها عذارى يرقصْنَ رقصة دينية، والنقش الذي يَصِف كل هذا المنظر يقول:

> السنة الثلاثون الشهر الثاني من فصل الصيف السابع والعشرون من حكم جلالة «حور»، الثور القوي المشرق مثل العدالة، معطي الحياة ملك محبوبه «أمنحتب» حاكم طيبة معطي الحياة ملك الوجه القبلي والوجه البحري (نب ماعت رع) (رب العدالة رع)، ابن الشمس محبوبه «أمنحتب» حاكم طيبة معطي الحياة، لقد ظهر الملك عندما أُقيم الاحتفال بعيد «سد» عند باب قصره الكبير المزدوج وسمح للأمراء بالدخول في إيوانه، كذلك أقارب الملك الذين كانوا على رأس الشعب وهم أقارب الفرعون، وموظفو سفينة الشمس، ومديرو القصر، والأشراف الملكيون فكوفئوا بذهب الثناء في صور طيور وسمك مصوغة من الذهب، وخُلِع عليهم ملابس من نسيج «سسفو» ونسيج «وازو»، ثم صفوا في الموكب (كلٌّ على حسب درجته) ثم أكلوا بعد ذلك خبز الإفطار وقربان الفرعون، وبعد ذلك أُمروا بالذهاب إلى بحيرة جلالته ليجدفوا في السفينتين الملكيتين، وأمسكوا بأمراس مؤخرة سفينة الليل (مسكتت) وأمراس مقدمة سفينة النهار (معنزت) ثم جرُّوا الجالس على العرش العظيم ووقفوا على دَرَج سُلَّم عرش جلالته، وقد عُمل ذلك على حسب ما في السجلات القديمة، ومنذ القِدَم لم يحتفل القومُ بعيد «سد» احتفالًا يُضارِع هذا …

وهذا المتن الهام يَضَع أمامنا بوضوح الدور الذي كانت تلعبه كل من سفينتي الشمس في عيد «سد». والظاهر أن الفرعون كان بعدَ إقامة الولائم وبذْل العطايا للمُصْطَفَيْنَ الأخيار من بين أشرافه ورجال بلاطه يسير في موكب إلى البحيرة المقدسة، ولا بد أن تكون في هذا الوقت هي البحيرة التي حفرها «أمنحتب» للملكة «تي» في الجهة الغربية من «الأقصر»، أو تكون بحيرة المعبد بالكرنك وهو المرجح، وفيها ينزل الفرعون في سفينة الشمس الخاصة بالليل وهي التي تمثِّل الموت، ثم في سفينة النهار كلٌّ بدورها، ويجرُّها الموظفون، وهم فئة خاصة يسمَّوْن موظفي سفينتي الشمس. ولما كان عيد «سد» هو رمز موت الفرعون وإحيائه كما قدمنا، فالغرض إذن من هذا المنظر هو أن الفرعون كان ينزل أولًا في سفينة الشمس الليلية، وهذا الحادث يمثل موتَه وتوحيدَه مع «إله الشمس» المتوفَّى. وبعد أن يطوف حول البحيرة كان ينتقل إلى سفينة النهار وهذا رمز لولادته من جديد مثل إله الشمس عندما تشرق في الصباح، ثم يطوف حول البحيرة، وفي هذه الحالة كان العظماء الذين يجرُّون السفينة يُعتَبَرون رمزًا للنجوم الثابتة التي لا تغيب؛ (النجم القطبي) والكواكب السيارة، أما الأشخاص الذين كانوا في السفينة مع الفرعون فيمثلون الآلهة الذين يكونون مع إله الشمس في السفينة.

ومعنى كل هذا أن الملك هو ابن إله الشمس، وكان يلعب كل الأدوار التي تمثل حياة هذا الإله الذي يُولَد في الصباح في الجهة الشرقية من السماء ثم يغيب في الجهة الغربية؛ أي يموت ليعود للحياة ثانية مولودًا جديدًا في الجهة الشرقية من السماء، وهذا ما يُرمز إليه عند الاحتفال بعيد «سد».

بَيْدَ أنه وُجد في الرسم الذي صَوَّر مناظرَه «خيروف» على جدران مقبرته في عيد «سد» الثالث حلقة ثانية في إحياء الفرعون كرة أخرى، أو بعبارة أخرى عقيدة ثانية في موضوع إحياء الفرعون تختلف عن العقيدة السابقة. وذلك أن العقيدة السابقة تمثل حياة الفرعون بحياة إله الشمس «رع» في السماء أو العقيدة الروحية. أما العقيدة التالية فتمثِّل حياته وموته بوصفه «أوزير» إله الموتى، أو بعبارة أخرى تمثل حياة الطبيعة المحسة التي تحيا ثم تموت ثم تحيا، وهكذا دواليك، وذلك على حسب زيادة النيل؛ فتحيا الطبيعة بحياته ثم تموت وتتجدد ثانية …

ولقد كان «أوزير» بخاصة يُعَدُّ في قديم الزمان ملكًا حكم على الأرض مدة ثم مات ثم أُعيد للحياة كرة أخرى وبقي يحكم في عالم الأموات. وقد رُسم منظر هذا العيد على الرواق الشمالي لمقبرة «خيروف»، فيُشاهَد في نهاية الطرف الأيسر الفرعون «أمنحتب الثالث» ومعه الملكة «تي» وكلاهما جالس على عرشه تحت مظلة فخمة. ويُلاحَظ أن العرش الذي تجلس عليه الملكة «تي» مزيَّن برسم «بوالهول» وهو يطأ تحت قدميه أعداء من السودانيين والآسيويين كما هي العادة. ولكن لما كانتِ الجالسة على العرش امرأة فإن صورة «بوالهول» تمشِّيًا مع ذلك مُثِّلت برأس امرأة، وكذلك الأعداء اللائي تطؤهن تحت قدميها أو المُصَفَّدات في الأغلال جاءت مناظرهن في صور نساء. ويقف أمام الملك والملكة «خيروف» صاحب المقبرة ويحمل لقب «الكاتب الملكي» ولقب مدير بيت الملكة «تي» وهو يقدِّم آنية من الذهب وقلائد للفرعون، ويشاهد كذلك أن الجزء الأعلى من صورة «خيروف» قد مُحي محوًا تامًّا، وفوق صورته نقش يصف تقديم الحُلِي ويشمل قلائد من اللَّازَوَرْد وحُليًّا من الذهب.

ويلاحظ أن جزء الجدار الذي خلف «خيروف» مقسم ثلاثة صفوف بعضها فوق بعض، وكلٌّ منها يشمل صورة «خيروف» يسير خلفه شخصان آخران، وأمام كل مجموعة منهم مَتْن مؤلَّف من سطرين أفقيين، غير أن الصور والمتن كليهما قد مُحي ولم يبقَ منها جميعًا إلا المتن الذي في الصف الأعلى، وهذه المتون تتحدث عن الدور الذي كان يقوم به «خيروف» في هذا الاحتفال بعيد «سد».

ففي المتن الأول نقرأ:

> السنة السادسة والثلاثون. استعراض السمار الوحيدين، أمام عيد «سد» الثالث لجلالته بوساطة الأمير الوراثي والسمير الوحيد عظيم الحب والكاتب الملكي، مدير بيت الزوجة الملكية العظيمة «تي».

ومن ذلك نفهم أن «خيروف» كان يقوم بدور رئيس التشريفات في هذا الحفل.

وخلف هذا المنظر نجد على الجدار منظرًا آخر مقسمًا أربعة صفوف بعضها فوق بعض، أعلاها واسع والثلاثة الأخرى ضيقة، وكلها تمثل الشعائر المختلفة لهذا العيد.

في الصف الأعلى نشاهد «أمنحتب الثالث» واقفًا أمام تمثال «زد» الذي يمثل هنا الإله «أوزير» (ومعنى الكلمة: الثبات). وهذا التمثال يقف في محراب. وقد كُتب على الجانب

الأيسر من العرش: «إني أقدِّم الغذاء، إني أقدم لك الطعام.» وفي داخل المحراب الذي تقف فيه صورة الإله «زد» نُقشت ستة أسطر أمام صورته هي:

> إنه يعطي الحياة كلها والسرور كله والصحة كلها «أوزير» المسيطر على معبد «سكر» العظيم ملك الأحياء، والذي يثوي في ساحة جدران هذا الإله بعد إقامة «زد».

وخلف تمثال «زد» هذا ثلاثة أسطر هي:

> الحماية والحياة كلها تحيط بك مثل «رع».» وعلى حافة المحراب: «لك الحياة والثبات والعافية والحكم على عرش «جب» (الأرض)، أنت يا أيها الكائن الطيب «وننفر» يا ابن «نوت» الذي يُقِيم في حجرة من بيته.» (يعني «أوزير»).

ثم يأتي بعد ذلك مشهد إقامة تمثال «زد» الذي يُرمز به للإله «أوزير» (والمنظر مهشَّم) فيُرى أمام «أوزير» شخصان يقدمان فروض الطاعة والخضوع، وهما كاهنان يُلقَّب كلٌّ منهما بلقب «عمود أمه» ويلاحظ أن العمود «زد» منحنٍ نحو اليسار يسنده رجل، والحبل الذي يشد به العمود له طرفان أحدهما في يد الفرعون والثاني في أيدي ثلاثة من أقاربه. وأمامهم رجل راكع يحمل في يده قربانًا مؤلَّفًا من خبز وجِعَة، وأمامه مائدة عليها قربان من الخضر والفاكهة والأزهار، ونُقش على العمود متن مهشَّم، نستطيع أن نفهم منه أن الفرعون يرفع العمود «زد» من الأرض. وفوق الحبل النقش التالي:

> رفع العمود «زد» الفرعون نفسه لتضيء الأرض بعيد «سد» الثالث.

وكُتب فوق الكاهنين المنحنِيَيْن نقش مُحي أوله، ويَظهَر أن هذين الكاهنين كانا مكلَّفَيْن إعطاء الملابس، وليقفا على أقدامهما لعمل الحفل بإقامة تمثال «زد» أمام الفرعون. ونُقش أمام الملك ما يأتي: «رفع تمثال «زد» الملك نفسه ليعطيه الحياة مثل «رع» مخلدًا.»

ويقف خلف الملك زوجه «تي»، ونُقش أمامَها: «الزوجة الملكية العظيمة محبوبته «تي».» ويُشاهَد خلفَها موكب مؤلَّف من الأميرات اللائي كن مشتركات في إقامة تمثال «زد»، كما يدل على ذلك النقش الذي يفسر المنظر.

الأحفال: خصصت ثلاثة الصفوف التي أسفل منظر إقامة عمود «زد» لتوضح الأحفال المختلفة التي كانت تَقِيمها الكهنة والكاهنات في هذا المعبد.

فالمنظر الأول يبتدئ من اليسار ويُشاهَد فيه ثلاث غانيات يصفقن بأيديهن وأمامهن عشرة كُهَّان يرقصن بأوضاع مختلفة في جماعات، وقد كُتب بين جماعتين منهن «هذا الرقص يُعمل أمام تمثال «زد».» ويُرى أيضًا أربعة من هؤلاء الكهنة يغنون أغنية كُتبت أمامهم.

موكب القرابين: هذا المنظر يبتدئ بمغنِّيَيْن يصفقان على أيديهما ويغنيان أغنية كُتبت عليها أمامهما، وتتألف من أربعة سطور. وخلف المغنيين أربعة من حاملي القرابين وكلهم من أقارب الفرعون، ونُقش فوقهم إحضار الجِعَة والخضر وكل الأشياء اللذيذة الطاهرة إلى روح بتاح «سكر» عمود «أوزير».

أما المتن الذي أمام المغنِّينَ الأربعة فهو:

> فتح الباب على مصراعيه للإله «سكر رع» في السماء لتجديد ضوء «آتوم»؛ لأجل أن نرى الضوء في الأفق، ولأجْل أن تملأ الأرضين بجمالك مثل السماء، وأنك ترسل أشعتك مثل «تحنت» (حجر براق لامع) مثل وقت ولادتك ومثل «آتوم» في السماء.

وخلف حاملي القرابين نشاهد طائفة من الرجال يرقصون رقصة حركاتها مثل حركات الراقصين في المنظر الأول. وهم كذلك مقسمون جماعتين، وقد كُتب في وسط الجماعتين التفسير التالي: «إقامة هذا المحفل في يوم … إقامة «زد» «أوزير» الفاخر أما التمثال الفاخر لبيت الإله «سكر».»

الصف الثاني: يوجد في هذا الصف منظران؛ الأول: للغناء والرقص، والثاني: يمثل الحرب بالعِصِيِّ وسيقان البردي.

ويبتدئ المنظر الأول منهما بصورة غريبة في بابها تشتمل على ثماني مغنيات، الاثنتان الأوليان منهن تضربان على الدفِّ، والباقيات يصفِّقْنَ بأيديهن، ويصحبهن المتن التالي: «مغنيات ومغنون لإقامة الشعائر والاحتفالات لنصب تمثال «زد».» ويلاحظ أن أربع راقصات يلبسْنَ ملابس رأس تُشبه التقيات الحالية لاصقة برءوسهن ويقمن برقصة استعملن فيها حركات بالجسم والأقدام والأذرعة، وقد نقش بينهن متن جاء فيه: «نساء أُتِي بهنَّ من الواحات لإقامة تمثال «زد».» غير أنه من المستحيل علينا أن نفهم لماذا أُحضِرْنَ من الواحات. وقد يحتمل أن الواحات الواقعة في غربي مصر لها علاقة بالأحفال الخاصة بإحياء «أوزير»، غير أن هذا يدل دلالة واضحة على العلاقة التي كانت بين

الواحات وسكان مصر نفسها. وبعد هؤلاء الراقصات نشاهد كهنةً مرتِّلِين، يرقصون بأوضاع مختلفة، ثم كهنة يتحاربون، فبعضهم يتشاجر بقضبان بأيديهم في أوضاع مختلفة، وآخرون يتضاربون بسيقان البردي، وهم يمثلون أهل بلدة «ب» بالدلتا، وبلدة «دب» (بوتو) وغيرهم.

الصف الأسفل: وتستمر الاحتفالات في الصف الأسفل، وهو الصف الثالث والأخير، ويمكن تقسيمه ثلاثة أقسام؛ أولها: الجزء الذي في النهاية الشمالية من المنظر، ويمثل «خيروف» يتبعه بعض الموظفين الذين يحملون أشياء خاصة، والجزء الثاني: يمثِّل السفن المحمَّلة بالقرابين. أما الثالث: فيمثَّل فيه الثيران والحمير التي تطوف أربع مرات حول جدران «منف» وقد كُتب عليه: «طوافها حول جدران «منف» أربع مرات في هذا اليوم الذي يُنصب فيه عمود «زد» الفاخر للإله «بتاح سكر أوزير».» ومِن كل هذا يمكننا أن نفهم أن هذا الاحتفال بإقامة عمود «زد» هو رمز لإحياء الفرعون بعد موته، أو بعبارة أخرى تتويج الفرعون من جديد. كما تُوِّج أوزير من جديد على عالم الأموات.

(٨) آثاره خارج القُطْر

إن أقدم آثار مصرية مؤرَّخة وُجدت في أوروبا هي للملك «خيان»، ثم جعارين «أمنحتب الثالث» والملكة «تي»، وقد عُثر على عدد كبير منها بمناسبة الفخار الإيجي؛ فقد وُجدت جعارين في «مكينيا Mykenae» (راجع Sewell, “Tiles from Mycenae with the Cartouche of Amenhotep III”, P. S. B. A. XXVI, p. 258; Hall, “Discoveries in Crete and their Relation to the History of Egypt and Palestine”, P. S. B. A, XXXI. p. 141).

كما وجدت آنية هناك باسمه (Dusssaud, “Civilization Pre–Helleniques dans le bassin de la Mer Egée, (Paris 1910) p. 155).

وكذلك وُجدت جعارين باسم هذا الفرعون في جزيرة «رودوس» (راجع ibid. p. 203).

وفي «قبرص»: وجد للملكة «تي» جِعْران في إنكومي Enkomi (راجع Murray, Smith and Walters, “Excavations in Cyprus”, IV, p. 608).

في سوريا: وفي «سوريا» وُجد إناءان عليهما اسم هذا الفرعون في غزة (راجع Petrie, “History”, II, p. 188).

في سينا: وفي «سرابة الخادم» في شبه جزيرة «سينا» قام هذا الفرعون بأعمال عظيمة لاستحضار المعادن والأحجار، وبخاصة الفيروزج، وقد وُجد له هناك لوحتان إحداهما مؤرَّخة بالسنة السادسة والثلاثين، وفيها يُشير قائد الحملة إلى البحر باسم «الأخضر العظيم»؛ مما يدل على أنه قام برحلة إلى هذه الجهات عن طريق البحر، ويلاحظ أن الفرعون قد مُثِّل على هاتين اللوحتين يتعبَّد للإلهة «حتحور» ربة «الفيروزنج» (راجع L. D. III, Pl. 71c). وكذلك عُثر له على مبانٍ هناك، وفخَّار مطليٍّ باسمه (راجع Petrie, "Researches in Sinai", p. 74, 82, 108; Figs. 146, 5, 5; 148; 11, 12; 150. 12, 155. 7; Gardiner and Peet, "Sinai", Pls. LIX, LXV–VI, 211, 222).

وفي القاهرة: يوجد عمود مؤلف من قطع أعمدة من عهد «أمنحتب الثالث» في جامع التركمان بباب البحر، وقد اغتصبه «مرنبتاح» و«ستناخت»، ويحتمل أنه أتى به من «هليوبوليس» (راجع Daressy, "Notes sur des Pierres Antiques du Caire", Rec. Trav. XXXV. p. 46).

وفي الدلتا: أما في الدلتا فلم نعثر له إلا على آثار قليلة؛ أهمها أربعة تماثيل لموظفين من عهده، وُجدت في «تل بسطة» اثنان منها لحاكم يُدعَى «أمنحتب» وقاعدة واحدة لكاتب ملكي يُدعَى «خرفو»، ويلقَّب كذلك «مدير البيت»، وتمثال لم يُذكر عليه اسم صاحبه لكاهن وكاهنة، ولكن عليه مثل الآخرين اسم الفرعون (راجع Naville, "Bubastis", p. 31–33).

وفي بنها: عُثر على قطعة حجر كبيرة من الجرانيت الأسود عليها اسم الفرعون واسم الثعبان الحارس «حرخنتي خاتي» ("Monuments Divers", 63b).

وفي طرة: فتح هذا الفرعون محاجر جديدة في السنة الأولى من حكمه. وقد دَوَّن عمله هذا على جدران المحجر في «طرة» نفسها. وفي السنة الثانية من حكمه دَوَّن نقشًا آخر مثل النقش الأول، وقد جاء فيه: «السنة الثانية في عهد جلالة الفرعون (الألقاب) أمنحتب الثالث … أمر جلالته بفتْح حجرة جديدة لأجْل قطع أحجار «عيان» الجميلة لبناء معابده (لملايين) السنين، وذلك بعد أن وجد جلالته حجرات قطع الأحجار التي كانت في «عيان» بدأتْ تَظهَر مخرَّبة جدًّا منذ الأزمان السالفة. وقد كان جلالته هو الذي جدَّدها لأجْل أن يُعطَى الحياة والثبات والصحة مثل «رع» مخلدًا.» (راجع A. S. XI, 259 (L. D. III, Pl. 71. Cd.)).

وقد وجد في معبد «كوم الحيطان» في «طيبة» قطعة من هذا الحجر مؤرَّخة بتاريخ المحجر باليوم الأول من السنة الأولى (Petrie, "History", II; p. 189; Breasted, A. R., II. § 875).

وفي الجيزة: وفي منطقة الجيزة عُثر له على لوحة في الحفائر التي قامت بها البعثة الألمانية في هذه المنطقة. واللوحة توحي بأن هذا الفرعون قد قام بزيارة منطقة الأهرام مثل أسلافه. وهذه اللوحة تحمل طغراء الفرعون ومنظرًا مُثِّل فيه الملك وهو طفل صغير عريان، يقدِّم زهرة «البشنين» لـ «بوالهول» الذي مثِّل جالسًا على قاعدة عالية، ومتوجًا بقرص الشمس يكتنفه صلان، والظاهر أنه كان يوجد تمثال بين مخلبي «بوالهول» غير أنه مُحي. وتمثيل هذا الفرعون وهو طفل يُشير إلى أنه تولَّى المُلْك وهو لم يبلغ الحُلُم بعدُ (راجع Holscher, "Das Grabdenkmal des Konigs Chephren", p. 107).

وفي منف: وُجد في معبدها اسم هذا الفرعون، كما وُجدت له مناظر نقلت معظم قِطَعها إلى «متحف بوستن» بأمريكا «وكوبنهاجن» (راجع Porter and Moss, "Bibliography", III, p. 220).

وكذلك وُجد صندوق أواني الأحشاء لقطة؟ أهداها «تحتمس» بن «أمنحتب الثالث»، وكان يشغل وظيفة كاهن الإله «بتاح» الأكبر (راجع Rec. Trav. XIV. p. 174–5).

وتُعزَى أقدم مقابر للعجل «أبيس» لعهد هذا الفرعون، وقد كانت حجرة من الصخر يصل إليها الإنسان بممرٍّ منحدِر بُني فوقها مقصورة (راجع Mariette, "Le Serapeum de Memphis", publie d'apres le Manuscrit de l'Auteur Par. G. Maspero (Paris, 1882) p. 117)، وقد وُجدت المقصورة للعجل الأول منقوشة، ويُشاهَد على جدرانها الفرعون «أمنحتب الثالث» مع الأمير «تحتمس» واقفَيْن أمام العجل أبيس (راجع Ibid, Texts, PP. 124–5).

وكذلك وُجدت أربع أوانٍ من أواني الأحشاء عليها اسمه (راجع Ibid, Pl. I).

وكذلك وجد إناء من المرمر عليه اسم الأمير «تحتمس» ابنه في «اللوفر» الآن ("Gauthier", L. R. II, p. 336. (CIII))، كما عُثر على قطعة حجر من هذا العهد، وهي الآن في المتحف المصري (راجع Virey, "Catalogue", 230).

ميدوم: وفي «ميدوم» وُجد نقش على الصخرة ذُكر عليه اسم «أمنحتب الثالث» (راجع Petrie, “Meydum”, p. 4). أُرِّخ بالسنة الثلاثين من حكمه (راجع Porter and Moss, “Bibliography”, III. p. 90).

كوم مدينة غراب: ووُجد في غراب مائدة قربان أهدتْها الملكة «تي» إلى الفرعون «أمنحتب الثالث»، وقد جاء عليها: «عملت آثارها لأخيها المحبوب «نب ماعت رع».» وكذلك وُجد غطاء صندوق وأنبوبة كحل ذُكر عليهما اسم الملك وزوجته وابنته «حنت تانب» (راجع Petrie, “Illahun”, Pls. XVII, XXIV)».

وكذلك عُثر على وسادة عليها اسم الفرعون (راجع A. S. II. p. 142).

الكوم الأحمر: وفي الكوم الأحمر (بالقرب من المنيا) وُجدت له لوحة عليها لقبه (راجع A. S., XII, p. 93). أما اسمه فوُجد ممحوًّا، وكذلك وُجدت قطعة من الحَجَر عليها اسم «أمنحتب الثالث» في «هوارتة» (بالقرب من المنيا) (راجع Murray, “Guide”, p. 406). ويحتمل أنه وُجد في هذا المكان أيضًا ثلاثة تماثيل من الأبنوس للفرعون «أمنحتب الثالث» والملكة «تي» ولأمير آخَر (راجع Ippel and Roeder, “Denkmaler des Pelizaeus Museums zu Hildesheim (1921), PP. 70, 80, Abb. 23, 25).

وبالقرب من هذه البلدة عُثر على قبرٍ سليمٍ لفرد يُدعَى «ثوتي» من عصر هذا الفرعون وعصر ابنه «أمنحتب الرابع»، وقد تجلَّى فيه فن العصر (راجع Chassinat, B. I. F. A. O., I, p. 226–7). وفي زاوية الأموات عُثر له على لوحة في الجبانة الحديثة، وهي محفوظة بالمتحف المصري الآن (راجع A. S. XII, p. 93 (VII))، ولوحة منحوتة في الصخر بالدير البحري مؤرخة بالسنة الأولى من حكم «أمنحتب الثالث» (راجع Rec. Trav, XXVI, p. 151–2).

البرشة: وفي البرشة وُجدت لوحة مؤرَّخة بالسنة الأولى من عهد «أمنحتب» في محجر (راجع P. S. B. A., IX, p. 195, 206).

العمارنة: وفي تل العمارنة وُجدت بطاقة بردية عليها اسم هذا الفرعون (راجع A. Z. XXXIII, p. 72)، وكذلك وُجدت خواتم باسمه (راجع J. E. A., VII, p. 182–3) كما عُثر على خمسة ألواح من المرمر باسمه هناك أيضًا (راجع Berlin Mus. 10586–8, 17955–6. Cartouches, “Aeg. Insch. Mus. Berlin”, II, p. 242)، وكذلك لوحة «لأمنحتب الثالث» و«تي» أمامهما القربان (راجع J. E. A., XII, Pl. 1. cf. p. 1–2)،

ورأس «لأمنحتب الثالث» (راجع Berlin Mus. 21299)، وقِطَع من إناء أحمر من الجرانيت (راجع Frankfort, and Pendelbury, “The City of Akhenaton”, II, Pls. XLVII (3, 3) cf. p. 102. 108).

مسيخ: وفي «مسيخ» يوجد معبد لهذا الفرعون (راجع P. S. B. A., VII. p. 172).

ريانة: وفي «ريانة» يوجد حصن من اللبِن خُتمتْ بعضُ لَبِناته باسم «أمنحتب الثالث» (راجع Murray, “Guide”, p. 426).

الوجه القبلي: أما في الوجه القبلي فآثار هذا الفرعون منتشرة بدرجة عظيمة.

أرمنت: ففي «أرمنت» وُجدت قطعة من تمثال من الجرانيت الأسود باسمه (راجع Daressy, “Notes et Remarques”, Rec. Trav. XIX, p. 14).

دندرة: وفي «دندرة» وُجد نقش من عصر البطالمة لهذا الفرعون في صورة «حابي» (النيل) بطغراء «نب ماعت رع» على رأسه، وأيضًا تمثال لأمِّه «موت مويا». (راجع A. S. VIII, p. 146.)، أما في «الكرنك» وفي «الأقصر» و«طيبة» الغربية فقد تكلَّمنا عن آثاره هناك بإسهاب في مكانه.

الكاب: ويوجد له في الكاب معبد صغير مؤلَّف من حجرة مربعة ذات أربعة عَمَد وله ردهة، وقد بُني في الوادي الصحراوي خلف المدينة، وكان قد بدأ في إقامته والده وأتمَّه «أمنحتب» للإلهة «نخبت» (راجع L. D., III, Pl. 80). وكذلك يوجد اسم هذا الفرعون في المعبد الكبير الموجود بهذه البلدة (راجع Weigall, “Guide”, p. 328; Champollion, “Notices”, I, p. 266).

الردسية: وفي «وادي عباد» بالردسية الواقعة على بعد ٣٥ كيلومترًا من إدفو في الصحراء يوجد نقش على الصخر مذكور فيه اسم الفرعون «أمنحتب الثالث» (راجع A. S. IX, p. 76).

جبل السلسلة: وفي جبل السلسلة يوجد محراب عليه اسم هذا الفرعون في المحاجر هناك كان يعلوه صقر وقد سقط الآن بجواره (راجع P. S. B. A., XI, p. 233–4) وكذلك توجد مائدة قربان أُهديت إليه في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه (راجع L. D. III, Pl. 81–c)، وكذلك وجد محراب عليه اسمه Weigall, “Guide”, p. 373، كما ذُكر اسم وزيره «أمنحتب» هناك (راجع A. S. IV, p. 197).

إلفنتين: وكان يوجد في «إلفنتين» معبد مِن أتم المعابد وأجملها من عهد هذا الفرعون، وقد كان حتى هدْمِه في نوفمبر عام ١٨٢٢ يحتوي على جزء من ألوانه الأصلية، وقد هُدم لاستعمال أحجاره لإقامة معسكر ليسكن فيه الجنود السودانيون الذين كَوَّن منهم «محمد على باشا» جيشًا. ويقول «لينان باشا»: «إن محمد بك الذي كان مكلَّفًا بتأليف هذا الجيش قد هَدَمَ المعبد لا جهلًا منه، بل عن قصد؛ ليمنع زيارة الأجانب لأسوان.» (راجع J. E. A., Vol. XXXII (1946) p. 59)، ولكن لحسن الحظ كان هذا المعبد قد رُسم في عهد الحملة الفرنسية، وكذلك وُجد في مخطوطات المستر «بانكس» وغيرها «ibid, p. 57»، والمعبد في ذاته كالمعابد الأخرى له بابان من الأمام والخلف، ويسير الاحتفال الديني فيه حتى المحراب، ويشتمل على قاعة عَمَد مؤلَّفة من سبعة أعمدة في الجانب وأربعة أعمدة في الأمام حول خارجه. ومن المميزات الغريبة لهذا المعبد أنه كان مقامًا على طوار أجوف يصل إليه الإنسان بسُلَّمٍ ذي درجات. وقد رُسمت صورة المعبد كما رُسم في وثائق «بانكس» (راجع ibid, Pl. VII).

أسوان: وقد عُثر له في «أسوان» على لوحة منحوتة في الصخر عليها أفراد يتعبَّدون إلى خرطوش «أمنحتب الثالث» (راجع Porter and Moss, “Bibliography” V, “Upper Egyptian Sites”, p. 222). ولوحة أخرى من المرمر باسم «أمنحتب الثالث» والملكة «تي» يتعبدان «لأوزير»، أهداهما «سبك نخت» مدير معبد آمون، وهي الآن في ميونخ (راجع ibid. p. 242). كما لا يزال في محاجرها التمثال العملاق الذي كان قد عُمل لهذا الفرعون ملقًى، وعلى الرغم من أن جزءًا منه لا يزال مدفونًا في الأرض، غير أنه من نسبة حجمه يمكن أن يُقدَّر ارتفاعه بنحو ٢٥ قدمًا، وفي هذه المحاجر نَقْش في الصخر يُرَى فيه النحات يتعبد لاسم هذا الفرعون ويقول فيه: «إنه قد نحت تمثال جلالته العظيم أحد الأمراء.» (راجع De Morgan “Cat. Mon.”, I. p. 62–3).

كونوسو: وفي «كونوسو» نقشه المؤرَّخ بالسنة الخامسة من حكمه على الصخر.

وادي السبوع: وله محراب في وادي السبوع (راجع A. S. IX, p. 184).

أمدا: وفي «أمدا» وُجد له لوحات، وأتم كذلك نقش المعبد القائم هناك (راجع Lacau, “Steles du Nouvel Empire”, No. 340278).

عنيبة: ووُجد له في عنيبة قطعة حجر عليها اسمه.

مرجيس: وفي قلعة «مرجيس» له معبد (راجع Gunn, “The Religion of the Poor in Ancient Egypt”, J. E. A. III (1916). p. 81).

بوهن: (وادي حلفا) وجدت لوحات باسمه (راجع Maciver and Woolley, “Buhen” p. 180, 81).

سمنة: وفي «سمنة» عُثر على لوحة عليها اسمه (راجع Brit. Mus. Budge, “Sculpture”, p. 114, 115).

سدنجا: وفي «سدنجا» الواقعة في شمالي «صلب» أقام هذا الملك معبدًا جميلًا، لا تزال بعض بقاياه تكريمًا للملكة «تي»، وبه نقش يقول: «إن «أمنحتب الثالث» قد أقام هذه الآثار للوارثة العظيمة القوية سيدة كل الأراضي «تي».» (راجع L. D. III. Pl. 82e–i).

نباتا: (جبل بركل) وفيها عُثر على بقايا محراب مُهدَى للإله «آمون» إله الشمس في جبل «بركل»، والظاهر أن «أمنحتب الثالث» كان أول مَن لحظ ميزة موقع هذا المكان، وحاول أن يجعل من قرية «نباتا» الساذجة بلدة مصرية كبيرة متمدينة، كما يوجد في «نباتا» آثار نقلت من «صولب» كما ذُكر آنفًا.

(٩) تماثيل الملك أمنحتب الثالث

نَحَت هذا الفرعون لنفسه عدَّة تماثيل ضخمة منها اثنان في «طيبة»، نُحت الجزء الأعلى من أحدهما في العهد الروماني، وله تمثال آخر بنفس الحجم مدفون خلف السابقَيْن، ورابع يبعد عن الأخير بعض الشيء، وكذلك مجموعة من أربعة تماثيل في قطعة واحدة من الحجر فُقدت رءوسها. (راجع Murray, “Guide” p. 464).

وقد نُقلت تماثيل ضخمة لهذا الملك مصنوعة من الحجر الجيري الأبيض من معبده الجنازي وكُسرت، وعُثر على بقاياها في مباني معبد «مرنبتاح» ومدينة «هابو» (Petrie, “History”, II, p. 195).

أما تماثيله العادية فيوجد منها اثنان من الحجر الجيري الأبيض في المتحف المصري (راجع Maspero, “Guide Boulaq” p. 422)، وتمثال من الجرانيت الأسود في المتحف البريطاني (راجع Budge, ibid, p. 115).

وكذلك رءوس أربعة تماثيل (راجع ibid. p. 115, 116).

وفي موسكو: له تمثال (راجع “Ancient Egypt” (1920) p. 125).

وفي أفنيون بفرنسا: توجد قاعدة تمثال عليها اسمه (راجع Moret, "Monuments Egyptiens du Musee Calvet à Avignon", Rec. Trav. XXXV, p. 196).

وفي مجموعة سورما Saurma: توجد مجموعة مؤلفة من الملك وزوجه «تي»، ويوجد لهذا الفرعون ثلاث صور ممتازة تمثِّله في ثلاثة أدوار مختلفة (راجع Champollion, "Monuments" p. 232; L. D. III, Pl. 70). وقد شهد «شمبليون» تمثال «بوالهول» لهذا الفرعون في الكرنك (راجع Champollion, "Notices", II, p. 272)، ومن الجائز أن أحد التماثيل الموضوعة الآن أمام كنيسة «سنت بطرس برج» له (راجع Lieblein, "Die Agyptische Denkmaler in St. Petersburg, Helsingfors, Upsala und Copenhagen (Christiania, 1873) p. 61).

ويوجد له تمثال مجاوب في المتحف البريطاني (راجع Budge, "Guide", p. 153). هذا بالإضافة لتماثيله التي بالمتحف المصري.

(١٠) تماثيل الآلهة التي تُنسب لعهد «أمنحتب الثالث»

يُنسب إلى هذا العهد تماثيل عدة للآلهة والإلهات، وبخاصة تماثيل الإلهة «سخمت» المصنوعة من الجرانيت الأسود، وهي التي قد أُقيمت على وجه خاص في معبد الإلهة بالكرنك. كما يوجد تمثال واقف للإله «بتاح» من الديوريت في «تورين»، وآخَر جالس من الحجر الجيري الأبيض في تورين أيضًا، وفي مجموعة سابتيه Sabatier Coll. يوجد تمثال للإله «أنوب» من الحجر البازلت، وكذلك تمثال قِرْد يمثل الإله «تحوت» من حجر الكوارتسيت في المتحف البريطاني (راجع Budge "Guide", p. 120. Petrie "History", II, p. 176). وكلٌّ عليها اسمه (راجع Petrie "History", II, P. 176).

(١١) عبادة أمنحتب الثالث

رأينا فيما سلف أن «أمنحتب الثالث» قد أقام معبده الجنازي ليُعبَد فيه هو، وكذلك أقام معبد «صولب»، وقال عنه إنه بناه لنفسه وللإله «آمون» بوصف أن كلًّا منهما إله. والواقع أنه لم يُعبَد بعد وفاته كما كان المنتظر؛ إذ في معبد «صولب» نجد ابنه «إخناتون» يَظهَر بملابسه الملكية العادية لا في الملابس الخاصة لعبادة الملك. وقد رأينا في أيام حياته أن بعض الموظفين كان يتعبَّد لتمثاله كما شاهدنا النحات «من» في أسوان. وكذلك في منف

نجد هذا الفرعون يُعبد أيضًا (راجع Pap. Sallier. Verso, Pl. 2). ونشاهد منظرًا على لوحة لكاهن معبد «أمنحتب الثالث» يتعبد فيها للإله «أوزير» والإلهة «إزيس» و«أمنحتب الثالث» والملكة «تي» (راجع Champollion, "Notices", II, p. 703)، وفي الكرنك نقرأ على تمثال صيغة القربان المعلومة تُتلَى للإله «سكر» والإله «نفرتم» ثم الإلهة «سخمت»؛ أي ثالوث «منف»، ثم للفرعون «أمنحتب الثالث» (راجع P. S. B. A., XI. p. 42)، وكذلك نجد منقوشًا على صخور «بجة» صورة «أمنحتب» كاتب الفرعون يتعبد له (راجع Porter and Moss, "Bibliography", V, p. 256).

(١٢) الأسرة المالكة

نعلم مما ذكرنا أن الملكة «تي» كانت زوجه الشرعية، وأنها كانت مصرية المنبت، وليس فيها أيُّ دمٍ أجنبي كما يدَّعِي البعض. وقد ظَهَرَتْ على جوانب تمثالَيْ «ممنون» اللذين يُمثِّلان «أمنحتب الثالث» زوجها، وكذلك شاهدنا أنه كان يذكرها على كل الجعارين التي نشرها، كما كانت تَظهَر بجواره في كل المحافل الرسمية، كما نجد في معبد «صولب» وغيره مثل مقبرة «خيروف» (راجع Fakhry, A. S. XLII (1942) p. 449ff)، وكذلك ظهرت صورتها في مقبرة «حوي» في تل العمارنة (L. D. III, Pl. 100c.). وقد عُثر في مصنع مثال على قطعتين عملهما هذا بمثابة تجربة في تل العمارنة (Prisse, Art). وفيهما نشاهد وجهها، وقد عُثر على تماثيلها المجاوبة المصنوعة من المرمر في قبر زوجها (راجع Petrie, "Tell El Amarna" I, p. 6; "Description de l'Egypte" V, p. 60, 7).

وقد أَهدَتْ موائد قرابين لروح زوجها بعد موته، وقد بَقِيَ لنا منها واحدة في بلدة «غراب» (Petrie, "Illahun" Pl. XXIV)، وكذلك كُتب اسمها على صناديق زينة وُجدت في غراب أيضًا (ibid. Pl. XXIV). وكذلك في «تورين»[١٥] وقد وجدوا اسمها منفردًا أو مع اسم «أمنحتب الثالث» على جعارين كثيرة، وفي حالتين وُجدت صورتاهما معًا (راجع Brit. Mus., Brocklehurst Coll.; Petrie. "Scarabs", 1305–9)، ونجدها على جِعْران جالسة (راجع Brit. Mus. Petrie, "Scarabs", 1308)، وقد ظهر اسمها منفردًا في محاجر «تل العمارنة»[١٦] وظهرت مع الفرعون «أمنحتب» في مناظر معبده الواقع شمالي

[١٥] راجع: Rec. Trav. III. 127.

[١٦] راجع: Petrie, "Tell El Amarna", p. 4. Pl. XLII.

مقياس النيل «بأسوان» (Porter and Moss, "Bibliography", V. p. 228)، أما الملكة «جيلوخبيا» فلم نسمع باسمها إلا مرة واحدة على جِعْران زوجها كما سبق، وأما أولاد «أمنحتب الثالث» فقد ظل علماء الآثار لا يعرفون عنهم الشيء الكثير حتى أثبتت الكشوف العلمية والأبحاث الطبية أنه أنجب «إخناتون» «وسمنخكا رع» «وتوت عنخ آمون»، وبناته هن «نفرتيتي» و«سات آمون»[١٧] كما ذكر ذلك على الآثار. وكذلك ذُكر اسم بنتين له على معبد «صولب» وهما «آست» و«حنت مرحب» (راجع L. D. III. Pl. 86b). وقد جاء ذكر «سات آمون» على قطعة من صندوق من العاج (Brit. Mus. Archælogical Journal, VIII, p. 397.)، وكذلك نُقش اسمها على طبق في «تل العمارنة» (راجع Petrie, "Tell el Amarna", Pl. XIII, 6).

وكذلك رُسمت جالسة على حجْر مربيتها «نبت كاباني» على لوحة من «العرابة المدفونة» (راجع Mariette, "Abydos", II. p. 49). أما «حنت تانب» فلم نجد اسمها إلا على آنية كحل من الفخَّار المطلي، كُشف عنها في غراب (راجع Petrie, "Illahun", Pl. XVII, 20). ويقول بتري: إن الأميرة «باقت آتون» هي ابنة «أمنحتب الثالث» كما تدل كل الظواهر على ذلك، وهي التي يُقال عنها إنها سابعة بنات «إخناتون» وأصغرهن، ويلاحظ أنها كانت ترافق الملكة «تي» وتسمَّى البنت الملكية، في حين أن بنات «إخناتون» كُنَّ يُدعَيْنَ بنات «نفرتيتي». وقد رَسَم صورتَها مفتنُّ البلاط «أوتا» الخاص بالملكة «تي» (راجع L. D. III. Pl. 100a). أما عن خرافة نسب «تي» إلى أصل «متني»، وأنها ليست مصرية فقد قضَى عليها الكشفُ عن مقبرة والدَيْها، وكلاهما مصري صميم، وكذلك اسماهما مصريان، وقد نصب «أمنحتب الثالث» كلًّا من والد زوجه «تي» ووالدتها في مكانة رفيعة في البلاط، كما بَنى لهم قبرًا فاخرًا في «وادي الملوك»، ونصب أخا «تي» المسمَّى «عانن» في وظيفة الكاهن الأعظم لمدينة «أرمنت» التي كان يُعبد فيها الإله «أمنتو» إله الحرب، وهو من أعظم الآلهة المصرية (راجع Kees, A. Z. LIII, p. 81).

[١٧] راجع: وقد تضاربتِ الآراء في زواجه من ابنته «سات آمون» وأن «توت عنخ آمون» هو ابن «أمنحتب الثالث» منها. وسنتناول هذا الموضوع ثانية (راجع Varille, A. S. Vol. XL. p. 651–7; A. S. XLV, p. 121).

(١٣) نهاية حكمه

ولا يزال هناك غشاء رقيق حول «أمنحتب الثالث» نفسه وكيفية انتهاء حكمه لا يجعلنا ننفذ إلى أعماق الحقيقة البحتة عن آخر أيامه؛ إذ دلَّتِ الكشوف الحديثة التي أُميط اللثام عنها في «تل العمارنة» أنه كان لا يزال على قيد الحياة حتى السنة التاسعة أو الثانية عشرة من حكم ابنه «إخناتون»، وعلى أية حال فإنه دفن في قبره الذي أُعِدَّ له في وادي الملوك، وهو الذي كَشف عنه «جولوه» Jollois و«دفلييه» Devilliers عام تسعة وتسعين وسبعمائة وألف من الميلاد. وقد نُقش على جدران دهاليزه وحُجَره صُوَر ملونة تمثل الفرعون يتحدث مع الآلهة المختلفة. ولم تكن جثته في القبر الخاص به الذي كان قد نُهب نهبًا تامًّا في العصور التي تَلَتْ دفنه، بل وُجدت في مقبرة حفيده «أمنحتب الثاني» كما ذكرنا من قبل. وهي محفوظة الآن في المتحف المصري.

ومما سبق نعلم أن «أمنحتب الثالث» يُعَدُّ على ما يتضح أعظم ملك قام بأعمال البناء والتعمير في عهد الأسرة «الثامنة عشرة»، وكان النشاط والاهتمام اللذان بذلهما الملوك السابقون له في الحروب الطاحنة، قد استغلَّهما هو في تصميم المباني التي أراد أن يُزيِّن بها بلادَه، وفي زيادة ثراء معابد الآلهة في الوجهين القبلي والبحري، وبخاصة في «طيبة» وفي «السودان»، ومع أنه كان لدى هذا الفرعون عَبِيدٌ لا يُحصَى عددُهم رهن إشارته، فلم يكن في استطاعته أن يَبنِي «رومة» في يوم واحد، كما يقول المثل السائر. ولا نزاع في أن زهرة مباني الأسرة «الثامنة عشرة» التي أقامها كانتْ تحتاج إلى الجزء الأكبر من سِنِي حكمِه، غير أننا لا نعرف التواريخ التي تمَّتْ فيها مبانيه الضخمة. وعلى كلٍّ فإن الوثائق التي تركَهَا لنا منقوشة على هذه المباني تَنطِق بعِظَم ما قام به هذا الفرعون في هذه الناحية.

والظاهر أن «أمنحتب» قد مات حوالي الخمسين من عمره ولم يبقَ ما يدلُّنا على شخصيته وخلقه إلا أثران، وهما موميته في متحف القاهرة، وهي التي قامتْ حولها الشكوك أولًا (راجع “Asiatic Review” Oct. 1927). ثم ثبت أنها له، ثم لوحته الصغيرة الشهيرة المحفوظة الآن في المتحف البريطاني، (انظر شكل رقم ٥) وهي التي مثِّل عليها جالسًا مع ملكته «تي» وأمامهما مائدة محمَّلة بكل ما لذَّ وطاب. وفي هذه اللوحة نشاهد رجلًا طَغَتْ عليه الشيخوخة قبل أوانِها، فأصبح مترهِّلًا منحنِيَ العُود بعض الشيء، يجلس جِلْسة الزاهد في كل ملاذِّ الحياة ومُتَعِها، فأصبح وقد شبع منها لا تُغرِيه ولا تجد سبيلًا إلى نفسه، فقد ملَّها وانقطعت بينهما كل الأسباب. فتراه وقد وضع إحدى ذراعيه



شكل ٥: أمنحتب الثالث في أواخر أيامه.

إلى جانبه وذراعه الأخرى معتمدة على ركبته مسندًا بها ثقلَيْ رأسه وكتفيه المكدودتين. أما وجهُه فوجهُ إنسان متألِّم قد اعتاد الأوجاع والمرض، وهذه الأوجاع نعرفها من موميته، على الرغم مما أصابها من العَطَب الذي تسبَّب عن سرقة قبرِه ونقْلِ جثته من مكان إلى آخَر. ولحسن الحظ وُجد رأسُه سليمًا. وقد أسفر الفحص الطبي الذي قام به «إليوت سمث» على أن هذا العاهل العظيم كان يشكو آلامًا قاسية بسبب (خراريج) في أسنانه كما هي الحال في مصر حتى الآن.

والواقع أن البذخ والتَّرَف وعِيشة الاستهتار التي كانت تتميز بها حياة الفرعون وأفعاله، والتي تُنبِئ عنها بقايا قصره في مدينة «هابو» لأكبر دليل على ما أصابه في أواخر حياته من وَهن الصحة وترهُّل في الجسم على الرغم من صِغَر سِنِّه، وما كان ينتظر أن يتمَّ على يَدَيْه في مثل هذا الدور من حياته الذي يكون فيه الشخص قد نضج وتأهَّب لجليل الأعمال، ولا سيما أنه كان في أول حياته قد راضَ جسمَه وقوَّاه في الطِّراد الذي كان يَهوَاه،

ولكن كل ذلك لا يُجْدِي نفعًا من رجل أرخَى لنفسه العنان في الملاذِّ والشهوات، على أن مومية الفرعون «رعمسيس الثاني» تحدثنا عن نفس القصة، ولكنها لم تكن في إسراف «أمنحتب»؛ إذ قد عاش «رعمسيس» نصف قرن أكثر منه، ومع ذلك فإن الحالة التي وُجدت عليها موميته من الوَهن تُنسَب جُلُّها للشيخوخة. ولا نكون مبالِغين إذا قلنا إنه لم يبقَ لنا من الماضي صورة حية تدلُّ على صاحبها في صِدْق تعبير مثل صورة «أمنحتب الثالث» هذه.

(١٤) الموظفون في عهد «أمنحتب الثالث» والحياة الاجتماعية في عصره

(١٤-١) أمنحتب بن حبي (ويُسمَّى كذلك حوي)

كان «أمنحتب بن حبي» المدير العظيم لبيت الفرعون، ويُعد من أكبر الشخصيات الذين خدموا الفرعون «أمنحتب الثاني»، بل قد يُعد أكبر شخصية بارزة في عهد هذا الفرعون إذا استثنَيْنا سمِيَّه «أمنحتب بن حبو» الذي سنعلم تاريخ حياته فيما بعدُ. ولم يكن «أمنحتب» هذا ينتسب إلى أسرة عريقة في المجْد، وإن كان ابنَ عمٍّ الوزير «رع موسى» الذي سنتكلم عنه في دوره، وقد استطاع في مدَّة خدمته أن يَجمَع لنفْسِه وظائف عدَّة في الدولة ذات نفوذ عظيم، وها هي ذي ألقابه ووظائفه مُرتَّبةً على حسب أنواعها:

(١) ألقاب الشرف التقليدية: الأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، والسمير العظيم الحب، والسمير الأكبر لرب الأرضين، والمدير الملكي، والقاضي (أو المبجَّل).

(٢) ألقاب الكهانة: كاهن «ورت حقاو»، والمشرف على الكهنة في بيت سخمت، ومدير أعياد «بتاح» القاطن جنوبي جداره وكل آلهة «منف»، والكاهن «إمي ورت».

(٣) ألقابه الهندسية والإدارية: (راجع J. E. A. Vol. XXIV. p. 19, 20). المشرف على الأعمال في «خنمت بتاح»، ومدير الأعمال، والمشرف على مخزن الغلال المزدوج في كل البلاد قاطبة، والمشرف على بيتَيِ الذهب والفضة، والمشرف على كل صُنَّاع الملك.

(٤) ألقابه الكتابية: الكاتب، وكاتب الملك، وكاتب الملك الحقيقي، ومحبوبه (راجع Davies, “The Tomb of Ramose”, Pls. IX, XI, XII, XIX)، وكاتب الفرعون للمجندين.

(٥) ألقابه بوصفه مدير البيت: مدير البيت، والمدير العظيم لبيت الملك، ومدير البيت «لمنف»، والمدير العظيم لبيت الفرعون في «منف».

نعوته

وقد كان «أمنحتب» يُنعت بالنُّعوت التالية: موضع ثقة سيده، ومَن رقَّاه الملك، والمحبوب من رب الأرضين، ومَن في قلب حور في بيته، وعَيْنا ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، والحاكم الذي على رأس أشراف الفرعون، والرفيع المقام في مكانته، والمعظَّم في وظيفته، والفم الذي يمنح الرضا في مسكن الملك، والفم الذي يَبعث الرضا في كل الأرض قاطبة، ومَن يمدحه «بتاح» كل يوم، والواحد الممدوح الذي خرج من الفرج ممدوحًا، وصاحب الإله الطيب (Ibid Pls. IX, XI, XII, XIX). وقد عُثر لهذا الموظف العظيم من تمثال من الحجر الرملي وجده «بتري» في منف وعليه نَقْش طريف يحدثنا عن تاريخ حياته (Petrie, "Tarkhan I, & Memphis", V, Pls. LXXVIII–LXXX). فيقول:

> إن هذا التمثال قد مُنح بمثابة حظوة من الملك ووُضع في بيت «نب ماعت رع» المسمَّى المتَّحِد مع «بتاح»، وهو الذي أقامه جلالته حديثًا لوالِدِه «بتاح» القاطن جنوبي جداره في أراضيه المنزرعة غربي «حتكا بتاح» لأجْل الأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، ومحبوب رب الأرضين، العظيم في رتبته، والسامي في وظيفته، والحاكم الذي رأس أشراف جلالته، وعينا ملك الوجه القبلي، وأُذُنا ملك الوجه البحري …

والذي على علم بطريقة القصر، والفم الذي يمنح الرضا في مسكن الفرعون، وصاحب الكلام السامي؟ … وكاتب الفرعون الحقيقي، ومحبوبه «أمنحتب» يقول: إني أتكلم إلى فخامتكم، أنتم يا مَن ستأتون إلى الوجود، يا رجال المستقبل الذين سيعيشون على الأرض، لقد خدمتُ الإله الطيب والأمير «المرح» (؟) ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب ماعت رع» عندما كنت فتيًّا وليس لي قريب. وعندما تقدَّمتُ في السِّنِّ … دخلتُ القصر عندما كان في سكنه الخاص حتى أرى «حور» في بيته هذا، ومشى الأشراف خلفي (؟) وقد منحني امتيازات عطف؛ وذلك بسبب أخلاقي السامية، ورقَّاني المدير العظيم للبيت، وكانت عصاي على رءوس القوم، وقد أصبحتُ ثَرِيًّا بالعبيد والماشية والأملاك من كل شيء مما لا يُحصى عددُه، ولم يكن هناك ما أرغب فيه بفضل سيد الأرضين «حور خع-م-ماعت» … ولقد أقمتُ العدل من أجل «رع»؛ لأني عَرَفتُ أنه يعيش عليه، وأَنِفْتُ من قول الكذب، ولقد رقَّاني لأقوم بالمباني التي في بيته ملايين السنين، وهو الذي أقامه حديثًا في أراضيه المنزرعة غربي «حتكا-بتاح» (منف)، في حي «عنخ تاوي»، ولقد كان والده

«بتاح» الذي … وأنتظر؟ بمثابة أثر لوالده «بتاح» بعمل ممتاز أبديٍّ بالحجر الجيري الأبيض من «عيان». ولقد كان جماله مثل أفق السماء، وكل أبوابه كانت من خشب الأرز المجلوب من المرتفعات (أيْ لبنان) من خيرة «جاو»، وغُشِّي بالذهب النُّضَار المجلوب من الصحراء، وبكل أنواع الأحجار الثمينة.

وكانت قاعاته وأبوابه من … عظيم … عمل خالد بمثابة قطعة حصينة، أمَّا بُحيْرته فقد حُفرت وغُرست فيها الأشجار، وصارت ساطعة بكل نوع من الأخشاب الثمينة المنتخبة من البلاد المقدسة، وقواعد أوانيه كانت من الفضة والذهب … وكل أنواع الأحجار الصلبة. وبعد أنْ تمَّ هذا البناء بصورة جميلة وقف جلالته قرابين جديدة مقدسة تحتوي على هِبَات يومية لوالده «بتاح» القاطن جنوبي جداره ولآلهة هذا البيت، فقد كانوا يمدُّون بالطعام الطيب إلى الأبد، وعين كهنة مطهرون، وكهنة من أولاد حكام «إنبو» (منف) وخُصصت حقول وماشية وعمال ورعاة من غنائم جلالته التي رجع بها من كل أرض، وقد شغل جلالته تمامًا كل وظائف هذا المعبد، وكان جلالته هو الذي أنجزها على هذا الوجه، كما تستحق عن طيب خاطر؟ … وقد جعل جلالته هذا البيت يقدِّم لمعبد «بتاح» المُؤَن لكل تماثيله مثل بيوت ملك الوجه القبلي والوجه البحري التي بجانب جلالته في المدينة الجنوبية (طيبة)، وقد كانت تحت مراقبة كل مدير بيت للفرعون … خبزها أبدي. والآن تأمَّل، لقد خَصَّصتُ أملاكًا من حقولي وعبيدي وماشيتي لأجْل تمثال «نب ماعت رع» الذي يُسمَّى … وهو الذي أقامه جلالته لوالده بتاح في هذا المحراب.

قائمة بذلك: عشرة ومائتا فدان ونصف أرورا. وفي الأقاليم الشمالية وعشرون ومائتا فدان من الحقول مما أُعطيتُه حظوة من الملك، فيكون المجموع ثلاثين وأربعمائة فدان ونصف فدان، هذا فضلًا عن … عشرة … ألف أوزة من التي تَضَع بيضًا، وألف خنزير،[١٨] وألف خنزير صغير، وقد مدحني جلالته على ذلك، كما كنتُ ممتازًا في قلبه، ولقد رُفعتُ إلى سِنٍّ موقَّرة في حظوة الملك، وأسلمتُ هيكلي الجثماني إلى التابوت بعد حياة طويلة، وانضممتُ إلى قبري في الجبانة … وقد كان احترامي لدى رجال البلاط، وحبي عند كل الناس، وحظوتي كانت وطدت في القصر.

[١٨] دلَّتِ الكشوف الحديثة على أن الخنزير كان يُقدَّم فعلًا قربانًا؛ إذ عُثر على عظام خنزير في حجرة دفن الملك زد كارع أحد ملوك الأسرة الخامسة (راجع Prof. A. Batrawi A. S. XLII. p. 104).

وقد منحني جلالته قربانًا مقدسًا مما قدَّم أمام تمثاله الخاص بالحفلات في بيته المسمَّى المتَّحِد مع «بتاح» الذي أقامَه في أرضه المنزرعة غربي «حتكا بتاح». وفضلًا عن ذلك فإنه عندما يشبع الإله نفسه بمأكولاته، ويتسلَّم هذا التمثال كذلك وجباته، تقدم المُؤَن أمام خادمه المطيع هذا (أيْ نفسي) على يدِ الكاهن المرتِّل الذي في بيته، وعلى الكاهن المطهَّر اللبيب أن يقدم قربانًا … (٢٧) … على حسب الشعائر المُتَّبَعة خلال اليوم.

قائمة بذلك: «فطائر بيت (المقدار المستعمل في الطهو ثلاثون) عشرون فطيرة، فطائر بيت (المقدار المستعمل في الخبز أربعون وحدة) ثلاثون فطيرة، وفطائر «بيت» (المقدار في الخبز مائة) مائة فطيرة، وفطائر برسن (المقدار المستعمل في الخبز أربعون) عشرون، فطيرة وفطائر برش (المقدار المستعمل في الخبز أربعون) ثلاثون فطيرة، فيكون المجموع مائتي رغيف مختلفة، وجِعَة (المقدار الذي استُعمل في صنعها ثلاثون) عشرة أباريق، ومن الشحم إبريقان، وساقٌ واحدة من كل مقدمة ثور يَرِد إلى هذا البيت، و«مَنٌّ» واحد من النبيذ، ووِطاب من اللبن، وفطائر من الخبز الأبيض اثنان، وإوزة واحدة، وخضر وستٌّ حزم … وثلاث. وهكذا أقول: اصغوا أنتم يا أيها الكهنة المطهرون، والكهنة المرتِّلون، والكهنة التابعون للمعبد المسمَّى «المتَّحِد مع بتاح»، وكل مدير بيت للفرعون، سيعيش هنا فيما بعد في «إنبوا». لقد منحكم جلالته خبزًا وجِعَة ولحمًا وفطائر وكل ما لذَّ وطاب لأجْل أن تغذُّوا أنفسكم في بيته المسمَّى «المتحد مع آمون» في خلال كل يوم فلا تطمعوا في مؤنتي التي قرَّرها لي إلهي فضلًا منه عليَّ في قبري. على أني لم أذكر أكثر مما هو ملكي الخاص، ولم أطلب أيَّ شيء أكثر مما يجب، وذلك لأني لما تعاقدتُ على تخصيص هذا العَقَار بتمثال الفرعون الكائن في هذا البيت (المعبد) في مقابل منْحِي قربانًا مقدسًا من تلك القرابين التي تمرُّ بهذا التمثال المحفلي بعد أداء التضحية الخاصة بالشعيرة الدينية رغبة في تسجيل مؤنتي للأجيال، كنتُ رجلًا عادلًا على الأرض يَعرِف إلهه، وأنه سيزيد في جماله، كما عاملتُ خَدَم بيته معاملة طيبة، ولم أُقْصِ رجلًا عن مرتبه، ولم أغشَّ إنسانًا آخَر في ممتلكاته، ولم أغتصب أملاك آخرين بالخداع، وكنتُ أمقتُ الغشَّ، وإني أقول أيضًا: إن كل مدير بيت للفرعون من الذين سيكونون في منف، وكل كاتب وكل كاهن مرتل، وكل كاهن مطهر تابع لهذا المعبد، والكهنة غير المحترفين في كل المعبد، وكل مَن سيكون في هذا البيت إذا منعوا مؤنتي التي قرَّرها لي «بتاح القاطن جنوبي جداره» والإله الفاخر الذي يعيش على الصدق، والذي سوَّى صورتَه بنفسه، مما أعطانيه الملك

«نب ماعت رع» لأجل أن أعمل قربانًا لقبري، بسبب عِظَم حظوتي عنده (فإن مثل هذا الشخص) سيزوره غضبُه، وستُنزَع وظيفتُه أمام وجهه، ويُعطاها رجلٌ يكون عدوًّا له، وستغيب عنه قرينتُه (رُوحه)، وسيسقط بيته على الأرض. أما كل مدير بيت للفرعون في «إنبوا» وكل كاتب، وكل كاهن مرتل، وكل كاهن مطهر لهذا المعبد، والكهنة غير المحترفين في كل المعبد، وكل مَن يلوذ بهذا البيت ويمنح الكاهن المرتل الذي في بيتي مؤنتي كل يوم، فإن هذا الإله الفاخر سيمدحه، وسيقضي حياته في سلام وبدون شجار، وسيرتفع إلى عُمْرٍ موقَّر، وتُسلَّم وظيفتُه إلى أولاده بعدَ عُمْرٍ طويل، وستكون كل سِنِيه سعيدة بدون حزن، وسيكون حسن السمعة بين الناس، ولن يَحِيق به شرٌّ؛ لأني كنتُ عادلًا ومنصفًا على الأرض، فقد أَعطيتُ الجائع خبزًا والعطشان ماء، وعملتُ كلَّ ما يُرضي الناسَ ويمدحُه الإلهُ.

ومما سبق نعلم أن «أمنحتب» قد درج إلى أعلى الرُّتَب بفضل مجهوداته وما امتاز به من الصفات العالية والخلق العظيم. فلم يَرِثْ وظائفَه من والدٍ صاحب ألقاب عظيمة أو عن أمٍّ لها نفوذ في البلاط، على أن مثل هذا النبوغ الشخصي كان من الأمور العادية في مصر القديمة. ولا نزاع في أن «أمنحتب» قد بدأ مجال حياته الحكومية كاتبًا، وقد كان هذا أول لقب حمله، ولا بد أنه أظهر براعة في هذه الوظيفة مما جعله يرقَى إلى وظيفة «كاتب الملك»، وهو لقب ظلَّ يحمِلُه حتى آخِرِ حياته، ثم رقي بعد ذلك إلى رتبة كاتب الملك الحقيقي (أيْ إنه كان أحد السكرتاريين الخصوصيين للفرعون «أمنحتب الثالث»).

أما وظيفة «كاتب مجندي الفرعون» فقد كانت اختصاصاتُها إطعام الجنود والعُمَّال وكسوتهم وتفقد أحوالهم العامة. ونحن بدورنا نعلم أن وظيفة الكاتب لم تكن قاصرة على المهارة في الكتابة وحدَها، بل كان لا بدَّ للكاتب من أن يكون قديرًا في الحساب وحلِّ المسائل الرياضية والميكانيكا المعقَّدة، كذلك وضع التصميمات الخاصة بالمشاريع العظيمة البنائية (راجع Papyrus Anastasi I & M. M. A. 18, Oct. Part. II. p. 6). فليس من المستغرب إذن أن يكون «أمنحتب» في أول حياته الحكومية قد أضاف إلى وظائفه أعمال المدير العظيم لبيت الفرعون، ورئيس الخزانة ومهندس البناء، وقد وصل إلى قمة مجْده بتولِّيه وظيفةَ المدير العظيم لبيت الفرعون في «منف»، إذ قد وصل بها إلى درجة عظيمة من الثراء والغِنَى والجاه ممَّا لم يَصِلْه أحد في جميع البلاد قاطبة إذا استثنينا سمِيَّه «أمنحتب بن حبو» الذي سنوفيه حقَّه في حينه.

أما مَهامُّ وظيفة رئيس الخزانة فكانت ثانوية بالنسبة لمهام المدير العظيم لبيت الفرعون، وأما لقب حامل خاتم ملك الوجه البحري فكان لقب شرف وحسب، وكان

يحمله كل موظف من أصحاب الشهرة العظيمة في عهد الأسرة الثامنة عشرة، ومن الأفراد الذين كان يَكِلُ إلَيْهم الفرعون القيام ببعوث إلى البلاد الأجنبية. وما قام به «أمنحتب» بوصفه مهندسَ بناءٍ ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح كثير؛ إذ إنه بوصفه مدير الأعمال، والمشرف على المباني في «خنمت بتاح» قد أقام معبد «أمنحتب الثالث» في «منف»، ويجوز أنه كذلك قام بالإضافات التي عملها هذا الفرعون في «معبد العرابة». وعلى الرغم من أن هذا المعبد لم يكن من الفخامة والعظمة بحيث يُضارِع المعبد الذي أقامه «أمنحتب بن حبو» في «طيبة» إلا أن ذلك لا يمنع من أن يكون على جانب عظيم من الأهمية والفخامة.

ولقد اشترك «أمنحتب بن حبي» بوصفه مواطنًا منفيًّا في الحياة الدينية الخاصة بمسقط رأسه؛ لذلك نَجِده كان يشغل وظيفة المشرف على كهنة الإلهة «سخمت» وهي زوج الإلهة «بتاح» وأمُّ الإلهة «نفرتم»، وهؤلاء يكونون ثالوث «منف»، وقد كان كاهنًا لإلهة أخرى برأس لبؤة وهي الإلهة المحلية «ورت حقاو»، والظاهر أنه كذلك كان يُشرف على كل الأعياد الدينية في «منف»، وبخاصة أعياد الإله «بتاح» أعظم آلهة هذه الجهة، ومن الجائز أن تكون الألقاب الدينية التي حَمَلها ألقاب شرف في معظم الحالات، وقد أخبرنا «أمنحتب» هذا أنه كان يختلف على القصر، وأنه كان على أحسن ما يكون مع الفرعون من الودِّ والحظوة، وليس من الصعب تصديق هذا، فقد كانتِ الصداقة التي بين الفرعون والرجل الذي ينهض بأعباء شئونه الخاصة ظاهرة بما كان بينهما من المنفعة المشتركة التي أحكمتْ أواصرها كتابة فيما يتعلَّق بالقربان الذي كان يُقدَّم لتمثال كلٍّ منهما، على أن هذا العمل لم يكن اغتصاب متاع من جهة الفرعون، ومن جهة أخرى لم تكن هبةً للفرعون من قِبَل مدير البيت، بل كان مجرَّد تبادل منفعة كما يحدث بين نِدَّيْن، قامت على مبدأ قِيمة دفعت مقابل قِيمة تسلمت؛ إذ إن مجرَّد قدرة «أمنحتب» على تخصيص ثلاثين وأربعمائة أرورا من الأرض للصَّرْف منها للمحافظة على تمثال لدليل قاطع على مقدار ما كان عليه هذا الرأسمالي من الغنى الفاحش.

والواقع أن «أمنحتب» كان مِن أول أَمْره حتى نهاية المطاف موظفًا منفيًّا. وتدل ظواهر الأمور كلها على أنه تلقَّن تعليمَه الأول في «منف»، ونال أعلى وظائفه هناك، وأخيرًا دُفن في تربتها، وقد كان شعوره وعاطفته الدينية مع آلهة الوجه البحري، وبخاصة آلهة «منف» ولا أدلَّ على ذلك من أن الإله «آمون» والآلهة الطيبين لم يُذكروا على آثاره، (ومن المحتمل أنه سمِّي «أمنحتب»؛ تبرُّكًا باسم الفرعون «أمنحتب الثاني» الذي وُلد في عهده لا مِن أجْل الإله «آمون»، وقد كانت زوجة «مري» مغنية الإله «آمون» مما يدل على أنها

كانت طيبية الأصل غير أن في ذلك شكًّا كبيرًا). وعلى الرغم من أن نشاط «أمنحتب» كان معظمه منحصرًا في «منف» لا يصح أن نعدَّه مجرَّدَ موظَّف إقليمي لا مكانة له في المجتمع المصري الراقي؛ إذ إنه مع ارتفاع «طيبة» إلى منزلة عاصمة الإمبراطورية، فإن «منف» قد ظلت أكبر مدينة، ومن وجوه كثيرة أهم مدينة في مصر. يضاف إلى ذلك أن «منف» بما منحتْها الطبيعة من جوٍّ لطيف ومركز وسط بالنسبة للإمبراطورية المصرية، كان فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة يُفضِّلون الإقامة فيها معظم وقتهم أكثر من مُكْثِهم في «طيبة» عاصمة البلاد السياسية والدينية. ومع أن «أمنحتب» قد بدأ حياته رجلًا من عامة الشعب ثم دخل في خدمة الفرعون كما يقول هو من غير قرابة؛ أي دون أن يكون رجلًا من أسرة غنية وعريقة في الجاه لتُساعده، فإنه قد تسنَّم قمَّة المجد والقوة والنفوذ حتى إنه عند وفاته كان في مقدور ابنه «إبي» أن يحتلَّ مكانته التي أصبحتْ خالية بموته. وهذا دليل ناطق أمامنا على أنه كان من المستطاع لأسرة مصرية أن ترتفع في جيل واحد من الحضيض إلى مكانة علِيَّة تُهيِّئ لأفرادها أن يشغلوا أعظم مناصب الدولة. ولما كانت الأرستقراطية الوراثية غير معروفة في العادة في مصر في ذلك العصر، فلا بد أن «إبي» كان رجلًا من أصحاب الكفايات العظيمة والمهارة الفائقة.

ولدينا عدد عظيم جدًّا من آثار «أمنحتب» باقٍ حتى الآن مما يدعو للدهشة وهي:

(١) قبره الذي أقامه لنفسه في «منف»، والظاهر أنه كان بالقرب من المقبرة التي أقامها «حور محب» القائد العظيم والمَلِك فيما بعدُ؛ أي بالقرب من رأس الجسر «بسقارة»؛ وذلك لوجود قطع منقوشة من هذا القبر في هذه الجهة (راجع J. E. A. Vol. XXIV. p. 18). ومعظم الآثار التي سنذكرها هنا مستخرجة من هذا القبر.

(٢) محبرة كتابة نموذجية من المرمر موجودة الآن بمتحف «اللوفر» (Boreux “Guide Louvre” I. p. 66).

(٣) محبرة أخرى نموذجية من المرمر بمتحف «متروبوليتان» (Hayes, J. E. A. Ibid. p. 16).

(٤) محبرة أخرى نموذجية من المرمر بمتحف «فلورنس» (A. Z. Vol. XLIV. p. 89).

(٥) قضيب مكعب في متحف «فلورنس» (راجع J. E. A. Vol. II, p. 139).

(٦) لوحة من الحجر الجيري الأبيض بمتحف «فلورنس» (Rec. Trav. II. p. 124–5).

(٧) هرم صغير من الجرانيت الرمادي بمتحف «فلورنس» (Schiaparelli, “Cat. Florence” p. 89).

(٨) إناءان منقوشان من المرمر بمتحف «فلورنس» (A. Z. Vol. 44. p. 89).
(٩) هرم صغير من الجرانيت الأحمر في متحف «ليدن» (راجع Ibid).
(١٠) صندوق أواني أحشاء بمتحف «ليدن» (راجع ibid).
(١١) رِجْل كرسي من الخشب بمتحف «ليدن» (راجع Ibid).
(١٢) لوحة من الحجر الرملي (كوراتسيت) بمتحف القاهرة (Quibell, "The Monastery of Apa Jeremias", p. 6, 146. Pl. LXXV).
(١٣) تمثال من (الكوارتسيت) من «منف»، وهو الآن بمتحف «أشموليان» بأكسفورد (راجع Petrie, "Tarkhan I. & Memphis", V, p. 33–36. Pls. LXXVII–LXXX).
(١٤) تمثال من الجرانيت بالمتحف البريطاني الآن (Budge, "Guide to Sculpture", p. 127. No. 448. Pl. XVII).

(١٤-٢) أمنحتب سورر

كان «أمنحتب» هذا يحمل اسم «سورر» أيضًا، وهو من كبار موظفي الفرعون «أمنحتب الثالث»؛ إذ كان يحمل الألقاب التالية: «الأمير الوراثي وكاهن الفرعون»، «عقي» وحامل المروحة على يمين الفرعون، والكاتب الملكي والحاكم، والسمير الوحيد الذي يقترب من سيده (أي المقرَّب) وحارس خطوات رب الأرضين، والمدير الملكي، والأمير على خبز قاعة القربان ("Excavations at Giza", V. p. 94ff). والمدير العظيم لبيت الفرعون، وقد نحت أمنحتب قبره بالخوخة (رقم ٤٨)» ويحتوي على بعض مناظر (Porter & Moss "Bibliography", I, p. 79) طريفة يظهر في واحد منها صاحب المقبرة في وظيفته «حامل المروحة على يمين الفرعون»، في حين نجد الفرعون نفسه يؤدي شعائر عيد الحصاد الذي تكلمنا عنه فيما سلف، كذلك نشاهد الإلهة «رنوتت» تُرضِع إله الحب «نبري» ويتعبد لكليهما «أمنحتب الثالث» (Davies, M. M. A, (1929). p. 48, fig 8. & Wilkinson. MSS. V. p. 126).

غير أن قبر هذا العظيم قد فَتَك به شيعة «إخناتون» فتكًا ذريعًا؛ إذ هشَّموا جزءًا كبيرًا من نقوش الجدران، ومما يلفت النظر أن شيعة «إخناتون»، قد مَحَوْا نقشًا بأكمله إلا علامة الأفق — فإنها تُركت أينما وُجدت؛ وذلك لوجود رمز الشمس فيها. وقد تُرك لقب الفرعون «نب ماعت رع» دون أن يُمسَّ بسوء، أما اسمه الذي يحوي كلمة «آمون (أمنحتب)»، فقد مُحي.

(١٤-٣) خيروف

كان «خيروف» من أكابر موظفي الدولة في عهد «أمنحتب الثالث»، ويقع قبره في «العساسيف» رقم (١٩٢)، وقد كشف عنه الدكتور أحمد فخري حديثًا بعد أن ظل موقعه مجهولًا بعد كشفه الأول. وقد وجد فيه مناظر جديدة لم تكن معروفة من قبل كما ذكرنا آنفًا.

والظاهر أن «خيروف» كان من أنصار المذهب الديني القديم فلم يَقبَل أن ينضمَّ إلى ديانة «إخناتون» وعصبيته، ويحتمل أن هذا هو السبب الذي من أجله قد مُحيَتْ صورته، وكذلك كل المتون التي تُشير إلى نشاطه، ويحتمل أن يكون الداعي لذلك أسباب أخرى غابت عنا. وعلى أية حال فإن أهم منظر كَشَف عنه الدكتور أحمد فخري هو منظر عيد «سد» الذي يُعدُّ من أهم الكشوف التي أماطتْ لنا اللثام بعض الشيء عن ماهية هذا العيد، وقد تكلمنا عنه فيما سبق، وقد بقي علينا هنا أن نُعدِّد ألقابَه ووظائفَه، وهي «الأمير الوراثي»، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، والسمير العظيم الحب، ومدير بيت الزوجة الملكية العظيمة «تي»، والمشرف على الخزانة، وحاجب الفرعون الأول، ورئيس أسرار بيت الملك، والقاضي الذي في مقدمة رجال البلاط، والحاكم الذي في مقدمة المواطنين، وعظيم العظماء، وعظيم السُّمَّار، ومدير بيت الزوجة الملكية في بيت «آمون»، وكاتب الفرعون الحقيقي، والوحيد المتكلم عن المواطنين.

وقد عُثر على قاعدة تمثال لرجل يُدعَى «خيروف» نُقش عليها الألقاب: كاتب الملك، وكاتب الملك الحقيقي، ومحبوبه، ومدير البيت، ومدير القصر (راجع Naville, "Bubastis", p. 33. Pl. XXXV, H).

وكذلك يوجد نقش على صخور «أسوان» يَظهَر عليه كاتب الملك، ومدير البيت «خيروف» يتعبَّد للإله «رع حور أختي» وهو يشاطر هذا الأثر مدير الخزانة، والمشرف على كتاب الملك رب الأرضين المسمَّى بـ «مرمس»، وهذا الذي أصبح فيما بعد نائب الملك في بلاد النوبة، (De Morgan, "Cat. Mon." p. 39. No. 177). ومن المحتمل أن هذه النقوش كانت من آثار «خيروف»، نقشها قبل أن يقوم ببناء قبره (رقم ١٩٢) (راجع Ibid. p. 44, No. 4).

(١٤-٤) تحتمس الوزير

كان «تحتمس» هذا على ما يظهر وزيرًا لمصر في الوجه البحري أوائل حكم «أمنحتب الثالث» (Anthes, A. Z. (1936) p. 60–68). وألقابه هي: «الوزير، وعمدة المدينة، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، وسمير الملك، والذي يقترب من الإله نفسه، وفم «نخن» وكاهن «ماعت»، ومَن منح ذهب الاستحقاق ورئيس القضاة، والوزير، والذي في المكان المقدس في القصر الفرعوني (له الحياة والسعادة والصحة).»

والآثار التي عُرفت لهذا الوزير حتى الآن هي لوحة في «ليدن» (U. 14.) وأخرى في «فلورنس» (رقم ٢٥٦٥) ومحبرة نموذجية في متحف «برلين» (راجع Weil, “Viziere”, p. 81).

(١٤-٥) «بتاح مس» ابن الوزير «تحتمس»

كان «بتاح مس» ابن الوزير تحتمس من أعظم موظفي الدولة في «منف»؛ إذ كان يشغل منصب الكاهن الأكبر للإله «بتاح». وفي باكورة حكم «أمنحتب الثالث» كان يحمل الألقاب التالية: «الأمير الوراثي، ووالد الإله، ومحبوب الإله، ورئيس أسرار العرش العظيم، والكاهن «سم» والمدير العظيم للصناع (لقب الكاهن الأكبر للإله بتاح).» وفي السنة العشرين من حكم هذا الفرعون نجد أن «بتاح مس» يحمل لقب المشرف على كهنة الوجهين القبلي والبحري؛ (أي بمثابة وزير الأمور الدينية)، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد. وقد جاء ذكره على أثرين لوالده المسمى «تحتمس» الموجودين الآن في متحف «فلورنس» ومتحف «ليدن» (راجع Leemans, “Agyptische Monuments”, II. p. 248. No. 635).

(١٤-٦) مري بتاح

وهو ابن الوزير «تحتمس» وأخو الكاهن الأكبر للإله «بتاح» المسمى «بتاح مس» السالف الذكر، ونعرف «مري بتاح» هذا من آثار والده، ويحمل الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والسمير الوحيد الحب، ومدير بيت «أمنحتب الثالث»، وعينا ملك الوجه القبلي وأذنا ملك الوجه البحري (راجع Weil, Ibid. p. 81).

(١٤-٧) «بتاح مس» ابن الكاهن الأكبر «منخبر»

كان «بتاح مس» هذا الكاهن الأكبر في «منف» في السنة الثلاثين من حكم الفرعون «أمنحتب الثالث»، وكان ابن الكاهن الأكبر المسمى «منخبر»، وألقابه هي: «الأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، والكاهن «سم»، والمدير العظيم للصناع، ووالد الإله، ومحبوب الإله، ورئيس أسرار معبد «حتكا بتاح» (منف).» (راجع Schiaparelli, "Cat. Florence". No. 1505). وقد خلفَه ابنُه «با-حم-نتر» كاهنًا أعظم للإله «بتاح» رب «منف» في نهاية حكم «أمنحتب الثالث» (راجع Anthes, A. Z. (1936). p. 60–86).

(١٤-٨) «بتاح مس» الوزير والكاهن الأكبر

كان «بتاح مس» يحمل لقب وزير الوجه القبلي في أوائل حكم «أمنحتب الثالث»، أما ألقابه فقد عُرفت من لوحة له موجودة الآن بمتحف «ليون» (B. I. F. A. O. Tome. XXX, PP. 499ff). وهي: «الأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والكاهن الأول للإله «آمون» وعمدة المدينة الجنوبية «طيبة» والوزير في المدينة الجنوبية، ووزير كل أعمال الملك.»

وفي السنة العاشرة من حكم هذا الفرعون كان يحمل الألقاب والوظائف التالية: «الأمير الوراثي، ووالد الإله، ومحبوب الإله، وعمدة المدينة، والوزير، والمشرف على كهنة الوجهين القبلي والبحري (وزير الشئون الدينية)، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والكاهن الأول للإله «آمون».» (Mariette, "Catalogue d'Abydos No. 408).

(١٤-٩) «أمنحتب» الوزير

كان «أمنحتب» هذا وزيرًا للفرعون «أمنحتب الثالث» من السنة الواحدة والثلاثين إلى السنة الخامسة والثلاثين، ولا نعرف أخباره إلا من عدة آثار صغيرة وهي: قاعدة تمثال، ولوحة، ثم محراب (Weil, Ibid. p. 85).

ولوحة محفوظة الآن بالمتحف البريطاني (A. Z, XIII. p. 124)، وتمثالان من «تل بسطة» (Naville, "Bubastis", Pl. XXXV, 6. & Rec. Trav. XXVI. p. 83). ومنها نستخلص ألقابه التالية: «القاضي في بيت الفرعون، ورئيس الأرض قاطبة، والأمير الوراثي، والسمير الوحيد، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، وعينا الملك في الأرض كلها، والمقرب

من «حور» في بيته، ومدير الأعمال ... وحارس خطوات رب الأرضين، والعظيم في بيت الملك، والفم الوحيد الذي يُهدِّئ الشرَّ بكلامه (؟)، والمشرف على المدينة (عمدة) والوزير، وحاكم «نخن» ومُهدِّئ الخطوات في المكان المقدس (احترامًا له) والسمير الوحيد، محبوب سيده ومدير كل أعمال الفرعون في مقاطعات أرض المراعي في الشمال Weil. Ibid. PP. 85, 86; Naville, Ibid. p. 32.»

(١٤-١٠) رع موسى

يدل ما لدينا من النقوش على أن «رع موسى» قد خلف «أمنحتب» على كرسي الوزارة، ويحتمل أنه كان يشغل هذه الوظيفة في عهد اشتراك «إخناتون» في الحكم مع والده «أمنحتب الثالث»، وليس لدينا دليل مادي يؤكد هذا الزعم، وعلى أية حال فلم يكن «رع موسى» معارضًا لحركة الانقلاب الديني التي قام بها «إخناتون»؛ لأنه لو كان ضدها لَمَحَا اسمَه من قبره كغيره من أعداء الانقلاب.

وقد كان والد «رع موسى» المسمى «نبي» يشغل بعض الوظائف العالية في الدلتا، وأمه «إبويا» كانت تُلقَّب «محبوبة حتحور» وكذلك كان قريب «أمنحتب» المدير العظيم لبيت الفرعون في «منف» ويحتمل أنه ابن عمه، ومن الجائز جدًّا أنه كان بينه وبين «أمنحتب» بن «حبو» صلة قرابة (راجع Davies "The Tomb of Ramose", p. 2).

وألقاب «رع موسى» هي:

ألقاب الشرف: الأمير الوراثي، ووالد الإله، ومحبوب الإله، والسمير الوحيد، والسمير العظيم الحب، وحامل خاتم ملك الوجه البحري.

الألقاب الإدارية: حاكم المدينة (العمدة) والوزير، والمشرف على الوثائق، ومدير أعمال الآثار العظيمة، ومدير الوجه القبلي والوجه البحري، والفم الذي يُهدِّئ كل الأرض، ورئيس الأرض كلها (وكيل الملك).

الألقاب القضائية: رئيس القضاة، وفم «نخن»، وحارس «نخن»، وكاهن «ماعت»، والقاضي للفصل في المعاملات، وموزع العدالة، وموزع العدالة يوميًّا ومقدمها لقصر سيدها، ومَن يحكم بالعدل ويَمقُت الظلم.

ألقاب الكهانة: المشرف على كهنة الوجهين القبلي والبحري، والمشرف على كل معابد الوجه القبلي والوجه البحري، وأعظم الرائين، ورئيس أسرار الكلمات المقدسة

(أو المشرف على الكتابة المقدسة)، ومدير القربان المقدسة، ورئيس أسرار الإلهتين، والعارف بأسرار العالم السفلي، ومَن يدخل في أسرار السماء والأرض، والكاهن سم، ومدير الموظفين كلهم.

علاقة «رع موسى» بالفرعون

الذي يقترب من سيده، وعينا حور في بيته، والذي ينفذ مبانيه بجدارة، ومن له ثقة رب الأرضين التامة، ورئيس أسرار بيت الملك، والمتمكن في حظوته مع سيد الأرضين، ومَن يحبه رب الأرضين لفضائله، والممدوح من الإله الطيب، ومَن يدخل القصر ويخرج منه وهو في حظوة.

علاقته بالموظفين

الذي يقدم القواعد المرشدة لرجال البلاط، وعظيم العظماء وقائد السُّمَّار.

علاقته بالشعب

ومَن يرتاح الناس بما يخرج من فمه، ومن يتكلم المواطنون عنه، ومَن يُرضي قلب رجال الدين (؟) (سكان عين شمس)، والشريف أو الموظف الذي على رأس المواطنين، ومَن يبحث عن أحوال البلاد.

وقد نُحت قبر «رع موسى» في صخور جبانة «شيخ عبد القرنة» ويحمل رقم ٥٥، ويُعدُّ من المقابر العظيمة المهيبة المنظر، وبخاصة من الوجهة الهندسية. وعلى أية حال فإن معظم مناظره ليس فيها ما يدعو للإعجاب أو الروعة؛ وذلك لأن المناظر القليلة التي نُقشت على جدرانه، على الرغم من قيمتها الفنية العظيمة، وبقائها محفوظة حتى الآن فإن جُلَّها خاص بمكانة «رع موسى» الاجتماعية ونفوذه، ولذلك جاءت خِلْوًا من كل ما كان يُنتَظَر من وزير أن يمثِّله لنا على جدران قبره، فقد كان يُعدُّ حاميًا للعدالة، وساهرًا على مصالح القوم، كما نشاهد ذلك في قبر الوزير «رخ مي رع» أو قبر الوزير «وسر».

على أن أهم ما يُلحَظ في قبر «رع موسى» هو التغير المفاجئ في أسلوب الفن. والظاهر أن بناء هذا القبر قد بدأ في أواخر عهد «أمنحتب الثالث»، وتدل معظم الزينة التي فيه على أنها كانت من أحسن ما أخرجه الطراز التقليدي، غير أنه قد لوحظ قبل الانتهاء

منه أن «إخناتون» قد اعتلى عرش الملك؛ إذ نرى منظرًا يَظهَر فيه الملك الفتى «إخناتون» أو «أمنحتب الرابع» كما كان معروفًا في تلك الفترة جالسًا تحت مظلة ومعه إلهة العدل «ماعت»، ويُلحَظ أن طراز الرسم والنقش كان هو الطراز التقليدي، وليس فيه شيء من الشذوذ الذي نراه في طراز «تل العمارنة»، ولكن يَظهَر أن الأجزاء الداخلية جدًّا في المقبرة لم تكن قد تمت بعدُ عندما بدأ «أمنحتب الرابع» يفرض على المفتنِّين طرازه الجديد في الفن، والتخلي عن القواعد الفنية القديمة التقليدية، ولذلك نشاهد «رع موسى» يأمر برسم منظر كبير وفق طراز الفن الجديد، فيظهر فيه «إخناتون» وزوجه «نفرتيتي» يطلان من نافذة الظهور (الشُّرْفة) (Davies, Ibid. Pl. XXXIII)، وقد أحضرا أمامهما وفودًا من سفراء البلاد الأجنبية، وصُفَّ هؤلاء في صف واحد: وأربعة من العبيد، وثلاثة من الساميين، ولوبي. والمدهش أن هؤلاء الوفود قد أتَوْا فارغي الأيدي لا يحملون أية هدية خلافًا للمعتاد، أما المصريون فنشاهدهم منحنين بخشوع أمام الملك والملكة، في حين أن الأجانب كانوا معتدلين في وقفتهم، رافعين أيديهم فقط علامة على التعبد. وفي جزء آخر من هذا المنظر نشاهد «رع موسى» محملًا بالإنعامات من الذهب، ومستعرضًا ما ناله من حظ وفير لأصدقائه المعجبين (راجع Ibid. XXXIV, XXXV). على أن مثل هذا المنظر قد استُعمل مرارًا حتى أصبحتْ تسأمه العين، وتمله النفس في مقابر موظفي عهد «إخناتون» كما سنشاهد ذلك فيما بعد.

وعلى أية حال فإن معظم المناظر التي صورتْ على حسب الطراز الجديد كان قد وضع تصميمها بالمداد وحسب، وقبل أن يتم نحتُها كلها تُركت وهُجرت المقبرة كلية، وقد يُعزَى السبب في ذلك إلى أن «رع موسى» ترك «طيبة» وتبع سيده إلى «تل العمارنة»، وهذا على الرغم من أنه ليس لدينا أي أثر لأسرته أو له في العاصمة الجديدة.

وعلى الرغم من ذلك نجد أن قبر «رع موسى» قد اقتحمتْه شيعة «إخناتون» ومَحَوا اسم «آمون» غير أن صور «رع موسى» لم تُمسَّ بسوء. وعندما أُعيدتْ عبادة «آمون» ثانية نُشاهِد أن اسم هذا الإله قد أُعيد في كل مكان في القبر كما كان من قبلُ، كما أن اسم «إخناتون» وصُوَره، و«نفرتيتي» وأشكالها قد مُحيت؛ لأنهما قد فقدا مكانتهما وحقَّهما الشرعي في تولي عرش البلاد. وهنا نجد ثانية أن صور «رع موسى» لم يُصِبْها أيُّ أذًى، مما يدل على أنه قد أفلح في عدم إغضاب شيعة «إخناتون» وأتباع «آمون» على السواء، ولكن الأثري «ديفز» يظن أنه في الحالة الأخيرة ربما تُركت صُوَره بسبب علاقاته الأسرية، أو لأنه قد مات قبل أن يُطوِّح بنفسه بين أحضان الذين أساءوا إلى «طيبة»

وإلهها. وقد جاء ذكر «رع موسى» على آثار أخرى غير قبره؛ ففي معبد «صولب» نراه مع وزير آخر (مُحِي اسمه) يتقدمان الفرعون «أمنحتب الثالث» إلى مدخل المعبد (L. D. III, Pl. 83). كما نشاهده في نقش على صخر في «سهل» يتعبد للإلهة «عنقت» وإلى طغراء «أمنحتب الثالث» (De Morgan, “Cat. Mon.” p. 90. No. 79). وله غير ألقابه العادية التي ذكرناها لقب «عينا الملك في الأرض كلها».

(١٤-١١) خع أم حات

كانت أهم الوظائف التي يقوم بأعبائها «خع أم حات» هي الإشراف على خزائن الأرض أو بعبارة أخرى كان في يده أقوات البلاد، ومن أجل هذا كان يشغل الوظائف التالية: المشرف على مخازن الحبوب لسيد الأرضين، والمشرف على مخازن الحبوب في الوجه القبلي والوجه البحري، والأمير الوراثي، وعينا ملك الوجه القبلي في مدن الجنوب، وأذناه في أقاليم الوجه البحري جميعها، والممدوح من الإله الطيب «أنوبيس»، ومدير أعياد «أوزير»، والقائم على بيت التحنيط، ورئيس صندوق «أنوبيس» (Loret, “La Tomb de Kha. m. ha” p. 115–124; Wresziniski, “Atlas” Pl. 203 & 190).

وقد نَحت «خع أم حات» مقبرته في جبانة «شيخ عبد القرنة» (رقم ٥٧)، وتُعَدُّ من أعظم المقابر التي أُقيمت في هذه الجبانة من حيث الفخامة في النقش، والإبداع في التصوير، والواقع أن النقوش التي على جدرانه قد تفوق نقوش مقبرة الوزير «رع موسى» في دقة خطوطها وحسن إبرازها، إذ نلاحظ في المناظر التي على جدران المقبرة أن المفتنَّ لم يستعمل في إبرازها ذلك الطراز المبالغ فيه الذي كان متبعًا في عهد العمارنة، ومع ذلك فإننا نشاهد فيها تلك الليونة والرشاقة في تخطيطها الأخَّاذ، وفي منظر تلك الظهور المحنية التي تمثِّل رجال البلاط يقدِّمون خشوعهم وإجلالهم للفرعون في وضع طبعي لا تمجُّه العين إذا ما قيس بتلك الصور المبالغ في إبراز أجزائها، وكان ذلك أهم ما يصبو إليه مفتنُّ عهد العمارنة.

ولا نعجب إذا رأينا قبر «خع أم حات» قد زُيِّن جزء من جدرانه ببعض المناظر التي تمثِّل لنا مهامَّ وظيفته الكبرى، وهي الإشراف على مخازن غلال الدولة، فقد صوَّر لنا المفتنُّ على الجدران مراحل محصول القمح من أول حرث الأرض حتى إقامة شعائر الاحتفال بخزن الحبوب وتقديم القربان للإلهة «رنوتت» إلهة الحصاد، وقد مُثِّلتْ هنا في

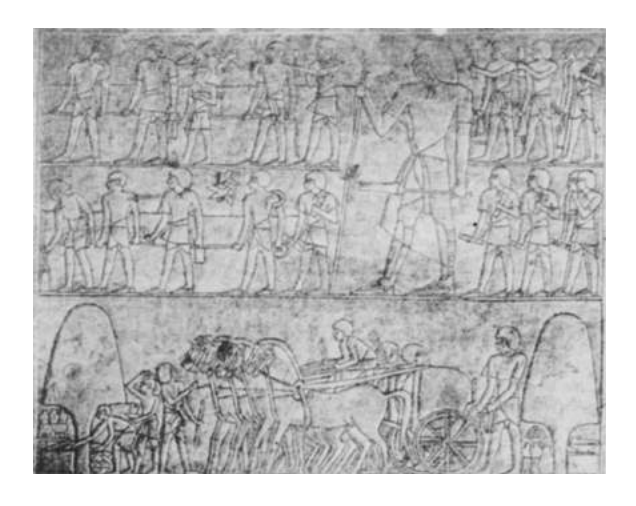
صورة امرأة برأس ثعبان، وهي تُرضع ابنَها إله الحصاد «نبري» (Wreszinski, Ibid. Pl. 198).

وأهم ما يسترعي الأبصار هنا حادثة خاصة بمسح الأرض القائمة فيها سيقان القمح؛ إذ نشاهد أمام الموظفين الذين يحملون حبل القياس، ومَن في صحبتهم من الكَتَبَة رجلًا قد قوَّسته السنون، وجعَّدتْ سحنتَه الشيخوخة ماشيًا وبيده عصًا (صولجان واس)، وكان يضرب بها ضربًا خفيفًا على لوحة صغيرة نُصبت في الأرض عند حدود حقل القمح (Wreszinski, ibid, Pls. 189, 191). على أن هذا المنظر ليس فريدًا في بابه؛ إذ نجده ممثلًا في منظر مسح الأرض، وأهمها على قطعة حجر من منظر ملون وُجد في مقبرة «بطيبة» وهي الآن بالمتحف البريطاني (Budge, “Wall Decorations of Egyptian Tombs Illustrated from Examples in the British Museum London”, Pl. 7)، إذ نجد على هذه القطعة متنًا يُخبرنا أن هذا الرجل المُسِنَّ الذي يحمل العصا (صولجان واس) يحلف بالإله الأعظم الذي في السماء أن لوحة الحدود (أو الشاهد) قائمة في مكانها، ويدل اليمين الذي حلفه، والصولجان الذي في يده على أنه موظف معين من قِبَل مصلحة المساحة ليُراجع أعمال المسَّاحين (وما أشبه البارحة باليوم! فلعَمْرُ الحق هذا هو نفس ما يحدث في أيامنا)، ومن المحتمل أنه يحمل هذا الصولجان في يده في هذه المناسبات بمثابة رمز لتأدية مأمورية، أما اللوحة فكانت لفصل حدود حقل عن حقل، أو بعبارة أخرى كانت توضع تأمينًا لفصل أملاك الأفراد بعضها عن بعض، ولعدم التعدِّي، وقد كانت أمثال هذه اللوحة تُختَم وتُسجَّل في مصلحة المساحة كما تحدثنا عن ذلك صراحة في نقوش الوزير «رخ مي رع»، وذلك عندما كان يُعدِّد لنا في قائمة واجباته اليومية: وعندما يأتي متظلم ويقول إن لوحة حدودنا قد زُحزِحت فلا بد أن يفحص ما قد دُوِّن بخاتم الموظف المسئول، وعلى ذلك يُعاد إليه ما اغتُصب منه بِيَدِ اللجنة التي زحزحت لوحته. على أن مثل هذا التسجيل كان ضروريًّا للفصل في المنازعات التي كانت تقوم بسبب زحزحة الحدود إما بسبب الفيضان أو بسبب استعمال السلطة أو بتعدي الجيران لزيادة أملاكهم. والواقع أن تعدي الجيران على الحدود كان بلا نزاع من الأمور الشائعة لأننا نقرأ في تحذيرات الحكيم «أمنحتب بن كانخت»: لا تزحزحن حجر حدود حقل القمح، ولا تغيرن موضع حبل القياس (راجع J. E. A. Vol. XII. p. 204)، ولا يمكن للباحث عندما يشاهد مناظر هذا القبر البديعة الصنع إلا أن يدهش منها لما تدل عليه من الثراء والنعيم الذي كانت ترتع في بحبوحته البلاد.

فنرى صاحب المقبرة مرتديًا أفخر الملابس عندما كان يقوم بتقديم القربان، فكان يرتدي ثوبًا منمَّقًا وحُلِيًّا ثمينة، وعلى رأسه شعر مستعار، صُفَّ ثلاثَ طبقات بعضها فوق بعض مجعَّدة تجعيدًا دقيقًا أنيقًا، غير أنه كان عاري القدمين، وقد يكون ذلك راجعًا إلى ما تحتمه الشعائر الدينية، وعندما كان يفحص مَسْح حقول القمح نراه مرتديًا حُلَّة بسيطة وقميصًا قصيرًا وشعرًا مستعارًا عاديًّا، ومنتعلًا حذاءً ضخمًا وحاميًا ساقه بدروع خاصة، وليس صاحب المقبرة وحدَه هو الذي تَظهَر عليه نضرة النعيم، بل تَظهَر كذلك على موظفيه؛ إذ نراهم يرتدون ملابس أنيقة وينتعلون أحذية جميلة، حتى أحقر العمال الذين يعملون في تعبئة سنابل القمح في سلات ضخمة كانوا ينتعلون أحذية. (انظر شكل رقم ٦) يُضاف إلى ذلك أنه في أوائل الأسرة الثامنة عشرة كان لكل من عظماء القوم عربة واحدة بجواديها تنتظر الركوب فيها للتنزُّه والعَوْدة من الحقول بعد فحصها. ولكنِ الآن نرى فضلًا عن عربة «خع أم حات» التي نشاهد سائقها وسائسها قد غَرِقا في النوم وهما في انتظار سيدهما، ما لا يقل عن أربع عربات أخرى تنتظر أصحابها، (راجع Wreszinski, Ibid. Pl, 192). بالقرب من شجرة، وهذه العربات كانت بطبيعة الحال لموظفين أقل رتبة من «خع أم حات» (Ibid. Pl. 191). ومن بين مناظر مقبرة هذا العظيم مشهد غير عادي يَظهَر فيه أسطول سفن نقل مصري قد رسا على الساحل في ميناء أجنبية. وهذه السفن كانت تحمل سلعًا من طراز ثقيل، والمقدمة مزينة برءوس ثيران، وكانت تسبح بالشرع والمجاديف معًا، وتُقاد بوساطة دفة واحدة، وتنتهي أطراف المجاديف كلها برءوس ملكية. ويُشاهَد الملَّاحون يذهبون إلى الشاطئ بعضهم يحمل حقائب تحوي سلعًا لا نعرف كنهها، غير أنه المقصود منها التجارة مع الأهالي في مقابل المحاصيل المحلية التي تنتجها هذه البلاد الأجنبية. وتدل شواهد الأحوال على أن أهالي هذه الجهة من الزنوج.

محصول الحبوب السنوي

على أن أهم منظر صُوِّر في مقبرة «خع أم حات» هو حادث وقع في الاحتفال بالعيد الثلاثيني للفرعون «أمنحتب الثالث»، فقد مُثِّل هذا العاهل جالسًا على عرشه، ومثِّل أمامَه «خع أم حات» يقرأ وثيقة، وبجواره نقش يقص علينا أن الفرعون قد ظهر على عرشه لأجْل أن يتسلَّم تقريرًا عن الحصاد في الجنوب والشمال، وفوق «خع أم حات» النص التالي: «تقديم التقرير عن حصاد العام الثلاثين في حضرة الملك يشمل الحصاد الذي نَتَج



شكل ٦: خع أم حات يُشرِف على حقله.

عن الفيضان العظيم لأجْل العيد «سد» الذي احتفل به جلالته بوساطة المدير العظيم لأملاك الفرعون له الحياة والسعادة والصحة، ومعه رؤساء الجنوب والشمال من أرض «كوش» الخاسئة، حتى حدود نهرين.»

وتحت هذه الوثيقة الكلمات التالية: «المجموع ٣٣٣٣٣٣٠٠ بوشل من القمح.» وهذا في الواقع هو التقدير الوحيد لمحصول الحصاد على حسب التقارير الرسمية (أي ما كانت تنتجه مصر وما كان يَصِلها من البلاد الأجنبية التابعة لها). ولا شك في أن هذا يُعيد إلى ذاكرتنا في الحال قصة يوسف — عليه السلام — الذي كان قد جعله الفرعون على خزائن مصر لما تُنتِجه من غلال حتى يدخر منه في المخازن الفرعونية للسنين العِجَاف عندما تهدَّد البلاد بالقحط.

ولم يذهب نشاط «خع أم حات» سُدًى؛ إذ كافأه الفرعون على ما قام به من جليل الأعمال في تغذية البلاد؛ إذ نُشاهِده في منظر يرتدي أبهى حلل العيد، وفي ركابه جماعة موظفيه، والكل ماثلون أمام «أمنحتب الثالث» في حفل عيد «سد» وقد تسلَّم «خع أم حات» وموظفوه «ذهب الجدارة» من الفرعون؛ وذلك لما قاموا به من مجهود محمود، فقد زادوا محصول الحصاد في هذه السنة المباركة (Ibid, Pl. 203).

أما المناظر الجنازية في هذه المقبرة فتوجد بها بعض تفاصيل غريبة. ونخص بالذكر منها منظر الحج إلى «العرابة المدفونة»؛ إذ نشاهد في القارب الذي يجرُّ السفينة التي فيها المتوفَّى بعضَ متاع «خع أم حات» الخاص مثل عربته وجوادَيْها وسريره ووسادته (Ibid. Pl. 207). وفي منظر آخر نُشاهد الموكب الجنازي يسير في الماء إلى القبر الذي مُثِّل هنا في هيئة مبنًى منفرد وأمام بابه علم برأس صقر الغرب (Ibid. 209). وأغرب من ذلك منظر الحفل «بفتح الفم». وهذا الحفل كما سبقت الإشارة إليه كانت تُؤدَّى شعيرته في غالب الأحيان على مومية المتوفَّى أو على تمثاله، غير أن هذا الإجراء لم يُتَّبَع في مقبرة «خع أم حات»؛ إذ نشاهد بدلًا من المومية كرسيًّا خاليًا قد كُدِّست عليه الأزهار موضوعًا في محراب صغير يشبه الجوسق، وهذه الأزهار هي التي كانت تُمثِّل المتوفَّى، ولذلك كان يُقدَّم إليها القربان، وتؤدَّى إليها الشعائر التي كانت تؤدَّى للمومية من كل وجه، حتى النائحات والفتيات وصغار الأطفال الذين يقومون بدورهم في العويل والنحيب أمام هذه الأزهار كأنها مومية أو تمثال المتوفى الحقيقي.

(١٤-١٢) «أمنحتب» كاتب الفرعون

كان «أمنحتب» ضمن الموظفين الذين مُثِّلوا في مقبرة «خع أم حات» وألقابه هي: «كاتب الفرعون، ورئيس أسرار بيت التحنيط، والممدوح من الإله الطيب، والمقرب جدًّا من الفرعون في بيت التحنيط، والمشرف على بيتَيِ الذهب، والمشرف على بيتَيِ الفضة (أي رئيس الخزانة العام)، وكاتب الفرعون الحقيقي ومحبوبه (Loret, “La Tombe de Kha-m-ha p. 131–2)، وقبر هذا الموظف العظيم يقع كذلك في جبانة «شيخ عبد القرنة» (رقم ١٠٢)، وقد جاء فيه خلافًا لألقابه السالفة أنه كان يحمل لقب طفل الرضاعة (راجع Gardiner & Weigall “Catalogue”, No. 102)».

(١٤-١٣) با إري

كان أهم عمل يقوم به «با إري» هو وظيفة كاهن مطهر للإله «آمون»، وكذلك كان يحمل الألقاب التالية: «مطهِّر تاج آمون، ومطهِّر التاج، والمشرف على الأراضي الزراعية، والكاهن الأول للإله «بتاح» (في معبد طيبة)، وأول أولاد الملك أمام «آمون»، والمشرف على الأراضي الزراعية للإله «آمون» (راجع Scheil, “La Tombeau de Pari”, p. 584–5 & Hall, “Hieroglyphic Texts”, Vol. VII. Pl. VII). وبِكْر أولاد الملك أمام «آمون».»

ويقع قبر «با إري» هذا في جبانة «شيخ عبد القرنة»، ويحتوي على المناظر العادية التي نشاهدها في مقابر هذا العصر. ومدخل هذا القبر المصنوع من الحجر الرملي موجود الآن «بالمتحف البريطاني»، وقد رُسم على أحد جانبيه المتوفَّى وهو يتعبد إلى طغراء «أمنحتب الثالث»، وكذلك يظهر على الجانب الآخر وهو يرتدي جلد الفهد ليقوم بوظيفته الدينية (راجع Porter & Moss, “Bibliography” I, p. 144).

(١٤-١٤) «بانحسي» المشرف على الخزانة

ليس لدينا من آثار «بانحسي» هذا إلا قاعدة تمثال عُثر عليها في سرابة الخادم، ومنها نعرف أنه كان يحمل لقب المشرف على الخزانة، وكاتب الفرعون (Gardiner & Peet, “Sinai” Pl. LXV, No. 217).

(١٤-١٥) «منخبر رع» كاهن «آمون» الأول

كان «منخبر رع» يحمل لقب الكاهن الأول للإله «آمون»، ولقب ابن الملك رب الأرضين «أمنحتب»، وليس لدينا من آثاره إلا نقش على قطعة من عمود عُثر عليها في «بجة» Champollion “Notices” I, p. 161، وكان يجب أن نفهم اللقب الثاني على معناه الأصلي غير أن «جوتيه» لم يذكر «منخبر رع» هذا بين أولاد «أمنحتب الثالث» في كتابه عن ملوك مصر.

(١٤-١٦) «من» رئيس النحاتين

كان «من» يُلقَّب بالمشرف على الأعمال في الجبل الأحمر، ورئيس النحاتين للآثار الملكية العظيمة جدًّا، ولا بد من أنه يشير هنا إلى الجبل الأحمر القريب من القاهرة؛ لأنه كان مشهورًا بأحجاره العظيمة، وهي التي كان يفخر «أمنحتب الثالث» بأنه كان يقطع تماثيله منها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد عُثر له على نقش في صخور «أسوان» يُرى فيه وهو يتعبد إلى تمثال ضخم لـ «أمنحتب الثالث»، وكذلك نشاهد على هذه اللوحة ابنه «باق» يتعبد إلى صورة «إخناتون» الذي مُحي تمامًا، غير أن قرص الشمس الذي يمثِّل «آتون» لم يُمسَّ بسوء. ولما كان طراز الوجه كله يوحي بأنه من عهد الزيغ فإن

من المحتمل أن تكون من عمل «باق» نفسه الذي عاش في عهد «إخناتون». (راجع De Morgan, "Cat. Mon." p. 40. No. 174).

(١٤-١٧) «نب كابني» مرضعة بنت الملك «سات آمون»

كانت هذه السيدة تُلقَّب مرضعة الابنة الملكية «سات آمون» وكان ابنها «حقا نفر» كاتبًا في معبد «أوزير». وقد عُثر لهما على لوحة أَهدياها للإله «أوزير» في «العرابة المدفونة» (راجع Mariette, "Abydos". p. 49; Rec. Trav. VII, p. 188).

(١٤-١٨) «نخت» الأمين على الأسلحة في السفينة الملكية «خع أم ماعت»

كان «نخت» هذا الأمين على الأسلحة في السفينة الملكية «خع أم ماعت»، وهي السفينة التي ذُكرَتْ على الجُعَل الذي سُجِّل عليه صيد الحيوانات التي طاردها «أمنحتب الثالث». وقد ورد اسم «نخت» ولقبه على مقبض سوط من الخشب موجود الآن في متحف «ليفربول» (راجع Newberry, "Historical Notes", P. S. B. A. Vol. XXXV. p. 157)، ولدينا أسماء موظفين لهم علاقة بهذا القارب. منهم: «سا آست» الذي كان يُلقَّب حامل العلم على السفينة الملكية «خع أم ماعت» ثم «بتاح مس» وكان يحمل نفس اللقب. ولدينا كذلك لوحة في «المتحف البريطاني» نُقش عليها لقب ضابط لهذه السفينة (Ibid p. 158).

(١٤-١٩) «نفر سخرو» المشرف على خبز قاعة القربان

كان «نفر سخرو» من الأشراف المقرَّبين للفرعون كما تدل على ذلك ألقابه ووظائفه وهي: الأمير الوراثي، والمشرف على خبز قاعة القربان الواسعة، والأمير في البيت العظيم (المعبد الأهلي للوجْه القبلي)، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الأول الذي يقترب من «حور» (الملك) في قصره الخاص (أي الحريم)، وحارس خُطَا الفرعون، ومدير البيت، والكاتب الملكي، ومدير البيت لمعبد «أمنحتب الثالث» (الذي يُسمَّى «رع ساطع»).

وقبر هذا العظيم يقع في جبانة «شيخ عبد القرنة» (رقم ١٠٧) (راجع Porter & Moss, "Bibliography", I, 136).

(١٤-٢٠) «حتب» حامل المروحة على يمين الفرعون

كان «حتب» يشغل وظيفة «حامل المروحة لابن الفرعون»، وقد وُجد له نقش بالقرب من «أسوان» مُثِّل عليه وهو يقوم بتأدية وظيفته وهي الترويح بالمروحة أمام «أمنحتب الثالث» والملكة «تي» (راجع De Morgan, "Cat. Mon." p. 41, No. 181). ويُلاحَظ أن هذا اللقب كان في حالة «حتب» لقبًا فعليًّا، في حين أن لقب حامل المروحة على يمين الفرعون كان قد أصبح لقبًا فخريًّا وحسب.

(١٤-٢١) «حبي ختف» حاكم «منف»

لم نَجِد لهذا الموظف العظيم حتى الآن إلا نقشًا على الصخر الممتدِّ بين الفيلة وأسوان. ونُشاهِده مرسومًا عليه يتعبَّد إلى طغراء الفرعون «أمنحتب الثالث» الذي وُضع على مائدة صغيرة، وألقابه هي: الأمير الوراثي، وعينا الملك في الوجه القبلي والوجه البحري، وكاتب الملك الحقيقي ومحبوبه وحاكم «منف» (Ibid, I, p. 28. No. 8).

(١٤-٢٢) «سبك نخت» مدير بيت «آمون»

كان «سبك نخت» يحمل لقب مدير بيت «آمون»، وكان له ثلاثة أولاد كلهم كَتَبة في الخزانة. وقد ترك لنا واحد منهم وهو «سبك من» لوحة له بمفرده على الصخور الواقعة قِبَلَ «أسوان» على حافة النهر، وقد ظهر فيها وهو يتعبد لطغراء «أمنحتب الثالث»، ويلقب كذلك المشرف على بيت الذهب والفضة (راجع Ibid. I, p. 44, No. 2)، ويحتمل أن له نقشًا آخَرَ في شبه جزيرة «سيناء» يُلقَّب فيه فضلًا عن لقبه هذا بالقاضي (Gardiner & Peet "Sinai" Pl. LXV, No. 220).

(١٤-٢٣) «سبك حتب» كاتب الملك

كان يلقب بلقب كاتب الملك والمشرف على الخزانة (Ibid. Pl. LXV, No. 220).

وقد ذُكر اسمه ولقبه على قاعدة تمثال من المرمر.

(١٤-٢٤) «يويا» والد الملكة «تي»

كان يويا والد الملكة «تي» زوج «أمنحتب الثالث» الشرعية، وقد تكلمنا عنه بعض الشيء فيما سبق، وسنذكر هنا ألقابه كما وُجدت على بعض آثاره التي عُثر عليها في قبره الذي أُقيم في وادي الملوك (رقم ٤٦)، وهاك ألقابه: الأمير الوراثي، والسمير الوحيد الحب، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الأول بين السُّمَّار، وفم ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، ووالد الإله، والمشرف على ثيران «آمون»، والممدوح من الإله الطيب، والممدوح كثيرًا في بيت الفرعون، وعين رب الأرضين، والمشرف على ثيران الإله «آمون» رب «أبو» (كفر أبو الحالي).

وكانت زوج «يويا» تُدعَى «تويا» وألقابها: ربة البيت (وهو اللقب العادي لأي امرأة متزوجة)، والوصيفة الملكية، ومغنية «آمون»، والأم الملكية لزوج الملك العظيمة، والكاهنة المغنِّية للإله «آمون»، والكاهنة العظيمة المغنية للإله «آمون» (Quibell, “The Tomb of Yuaa and Thuiu”, p. 18).

وقد كان «ليويا» و«تويا» غير الملكة «تي» ابنٌ يُدعَى «عانن» ذُكر على عدَّة آثار، فقد جاء اسمه على تابوت والدته «تويا» ولقب عليه الكاهن الثاني للإله «آمون» (Ibid. p. 19)، وكذلك ذُكر بهذا اللقب على تمثال موجود الآن «بمتحف تورين»، هذا فضلًا عن الألقاب الفخرية: حامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، أعظم الرائين في بيت الأمير (أي هليوبوليس)، والكاهن «سم» في «إيون» الجنوبية (طيبة) (راجع Borchardt, A. Z. Vol. XLIV, p. 98).

(١٤-٢٥) «أمنحتب» التشريفاتي

كانت أعظم وظيفة يشغلها «أمنحتب» هي الكاهن «أمي خنت» أي التشريفاتي، وكذلك كان يحمل الألقاب التالية: التشريفاتي الأكبر (ومعناه الحرفي: الذي في الأمام) وكان نشاطه يمتد إلى المعبد والمقبرة والبلاط،[١٩] والممدوح من رب الأرضين. ومزيِّن الفرعون في

[١٩] فبوصفه تشريفاتيًّا للمَلِك كان يضع التاج على رأسه ويُزيِّنه بالحُلِيِّ (راجع Gardiner “Onomastica”, I. p. 23).

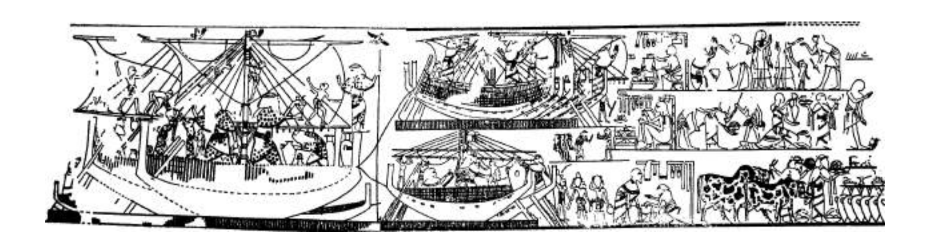
«البيت العظيم» (حيث تُعبَد الإلهة «نخبت» وهو معبد «قوص») (راجع J. E. A. Vol. XXX, p. 27. Note. 3). والذي يحرق القربان لرب الأرضين في بيت اللهيب (برنسر) للإله «آمون» (راجع Loret, "La Tombeau de l'am Xent Amenhotep", p. 25. Mission. Arch Franç (1881–1884))، والممدوح من رب الأرضين، والطاهر اليدين الذي يجعل مديحه في بيت الإلهة «ورت حقا»، والمشرف على صناع «آمون»، والمشرف على صناع رب الأرضين. (Ibid. p. 30). وقبر هذا الموظف العظيم يقع في جبانة «شيخ عبد القرنة» غير أنه لم يُرقَّم بعدُ (راجع Porter and Moss, Ibid p. 193).

(١٤-٢٦) وسرحات المشرف على حريم الفرعون

كان «وسرحات» المشرف على حريم الفرعون، وقبره في الخوخة (رقم ٤٧) (راجع Porter & Moss, "Bibliography", I. p. 78). وعلى الرغم من صِغَر حجم هذا القبر فإن نقوشه جميلة الصنع، غير أنها لم تتمَّ وخُرِّب بعضُها. ونشاهد في أحد مناظره «وسرحات» وخادمه، واقفين أمام «أمنحتب الثالث» والملكة «تي» (A. S. IV. p. 177. p. II). وصورة الملكة «تي» في هذا المنظر تُعَدُّ من أحسن صورة عرفت في كل الآثار المصرية حتى الآن، وقد صُوِّرت هذه الصورة عند الكشف عن المقبرة، ثم رُدم القبر ثانية لعدم أهميته، غير أنه حُفر من جديد بعدَ عدَّة سنين، ولكن بكل أسف كان اللصوص المحترفون قد سبقوا إلى حَفْر المقبرة وقطعوا صورة الملكة من على الجدار التي كانت عليه، وكان من جرَّاء هذا العمل الشائن أنْ مُحِيت بعض النقوش الخاصة بها حتى لا يُعلم من أين أتتْ هذه الصورة، وعلى أية حال فقد تسرَّبتْ هذه الصورة المنقطعة القرين إلى «متحف بروكسل» مجرَّدة من كل نقش يدل على شخصيتها، ولكن بالبحث وُجد أنها هي الصورة الأصلية، وهكذا أباح بعض علماء الآثار لأنفسهم أن يشتروا مثل هذه القطع المسروقة من المقابر دون أن يَسعَوْا حتى في ردِّها بعد تأكُّدهم من سرقتها إلى مكانها الأصلي حتى تكون تحفة لكل المتفرجين ودرسًا لأولئك الذين يعبثون بالآثار وتشويهها من أجْل بضعة دريهمات لا تسد حاجة ولا تشفي غليلًا.

(١٤–٢٧) قن آمون

«قن آمون»: تحتوي المقبرة رقم ١٦٢ الواقعة في طيبة الغربية على منظر فذٍّ من المناظر المنقوشة على جدران عظماء القوم في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد ظل اسم صاحبها مجهولًا لما أصاب نقوش المقبرة من محو إلى أن عُثر على بعض مخاريط أمام المقبرة عرفنا منها اسمه وألقابه. فقد كان «قن آمون» هذا يُلقَّب عمدة طيبة، والمشرف على مخازن غلال الإله آمون. وتدل الأحوال على أنه من المرجح جدًّا قد عاصر الفرعون «أمنحتب الثالث». أما المنظر الهام الذي وُجد على جدران هذا القبر فيمثل رحلة تجارية قام بها تُجَّار من سوريا إلى مصر بحرًا ووصلت سالمة، فنشاهد في الجزء الذي على اليسار في هذا المنظر صورة سفينتين شرعهما منتشرة وعلى اليمين من هاتين السفينتين تشاهد مجموعتين من السفن وقد مُثِّلتا في صفين الواحد منهما فوق الآخر. وعلى يمين هاتين المجموعتين من السفن نرى ثلاثة صفوف وُضعتْ بعضُها فوق بعض، توضِّح لنا كيفية إنزال السِّلَع وتفريغها وعرضها، والحادثة المسجَّلة هنا كانت بطبيعة الحال من الحوادث الكثيرة الوقوع في عهد مجْد الإمبراطورية ونموِّ ثروتها؛ أي عندما كانت آسيا لا تزال تَدِين لمصر بالسلطان، وكانتِ الأحوال مهيَّأة للتجارة الدولية (انظر شكل رقم ٧).



شكل ٧: لوحة قن آمون — السفن السورية في ميناء مصري.

والواقع أننا لن نَحِيد عن جادة الصواب كثيرًا إذا رأينا أن هذا المنظر يُمثِّل بداية سكك التجارة التي كانت تخرج من الثغور السورية، ويحتمل أنها هي التي قد أصبحت واسعة النطاق نامية عندما قام «ون آمون» التعس الحظ برحلته المشهورة (راجع كتاب الأدب المصري القديم جزء ١، ص١٦١ … إلخ) ثم وصلت قمتَها في تلك الرحلات التجارية

التي كان يقوم بها الفينيقيون في أنحاء العالم، أما السفن التي حملت هذه التجارة البحرية المبكِّرة فليس هناك أي شك في أنها من طراز مصري من حيث الشكل والصنع (راجع Sàve-Soderbergh Navy p. 56). ومما يُلاحظ في هذا المنظر ما نُشاهده جاريًا على سطح السفينة الكبرى التي على اليسار؛ إذ نرى بحَّارَيْن يصعدان لطَيِّ الشراع، أحدهما يتسلَّق السارية والآخر يتسلَّق على الأمراس، في حين نرى اثنين آخَرَيْن يظهر أنهما ضابطان صغيران يعملان على إنزال عمود الشراع.

ويلاحظ كذلك في هذا المنظر أن مكانة الأشخاص الذين مُثِّلوا فيه على سطح السفن قد عُبِّر عنها بالطريقة المصرية المعتادة أي على حسب حجم صورة كل واحد، ويمكن رؤية ذلك بوضوح في السفينة الكبيرة التي على اليسار، فأهم شخصيتين بارزتين فيها هما بلا شك صاحبا السفينة والسلع التي تحملها، فنشاهد أحدهما يتَّجِه نحو الشاطئ مقدِّمًا قربانًا استعطافًا لإلهة الميناء في حين أن الآخر كان ينظر خلفه، والظاهر أنه كان يستدعي إليه شخصًا آخر. ويلي هذين في الحجم ضابط السفينة الذي يُشاهَد واقفًا وقفة شاذَّة على عمود مقدمة السفينة وبيده قضيبٌ لجَسِّ الماء بُولِغ في طُوله إلى حدِّ المستحيل، وكان ينظر خلفَه معطيًا الملَّاحين الذين كانوا يُطوُون الشراع الأوامر اللازمة.

وكذلك يُشاهَد على سطح السفينة بحَّار مُنحنٍ ليرفع إناءً ضخمًا مما تحمله السفينة، كما يُرى ضابطان صغيران لابسَيْن ملابس مزركشة كالتي يرتديها رؤساؤهم، يشدان الأمراس، وكان أحدهما يستند على صبيٍّ من صِبْيَة السفينة. أما الملاحون العاديون فكانوا يرتدون القميص القصير العادي ذا اللون الفاقع، وكذلك كان يلبس كل واحد منهم حول عنقه خيطًا يتدلَّى منه قرص مستدير مما يُذكِّرنا بنَوْط تحقيق الشخصية الذي كان يلبسه الجندي في أثناء الحرب. وهؤلاء البحارة كانوا حليقي الرءوس والأذقان معًا، ولم يُستَثْنَ منهم إلا ثلاثة في المجموعة السفلية التي على اليمين وهم الذين كانوا يحملون السلع إلى الساحل، وهؤلاء قد مُيِّزوا عن رفاقهم بلِحَاهم والهدابات المدلَّاة من وسطهم ومن أطراف قمصانهم، ولا نَعلَم إذا كانت هذه القمصان مصنوعة من النسيج أو من جلود الحيوان.

أما الأفراد الذين صُوِّروا خارج السفن فملابسهم بوجهٍ عامٍّ واحدة، فكلٌّ منهم يرتدي قطعة واحدة من نسيج الصوف ملفوفة على جسمه من أول الكعب، وقد لُفَّتْ حول الجسم بطريقة عجيبة، وتحت هذا اللباس يُشاهَد قميصٌ أبيض ذو كمين يستران الذراعين حتى الرسغين، ويتمنطق بحزام عُقد من الأمام عقدة متقنة مزركشة. وهذا الرداء الخارجي

السالف الذكر يَظهَر عليه أنه زيٌّ جديد لم يَشِعِ استعماله إلا بعد عهد تحتمس الثالث. ويحتمل أنه مستعار من زي أهالي «خيتا». أما لبس النساء اللائي مثلن في الصف الأعلى من اليمين في المنظر فيُلاحَظ فيه (كشكشة) أفقية مؤلَّفة من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض، وتُشبه بعض الشيء ملابس أهل «كريت» المتقنة الصنع، وقد أظهر المثال هذا الرداء شفيفًا إلى درجة ما مما يدل على أنه كان مصنوعًا من مادة خفيفة على عكس ملابس الرجال الثقيلة التي كانت أكثر صلاحية لجو شمالي بارِد. أما الجزء الثالث من هذا الرسم الواقع على اليمين فيمثل سوقًا للتجارة على الشاطئ نظمت في ثلاثة صفوف. وهنا يلاحَظ أن معظم السلع قد نُقلت من السفن إلى الشاطئ أمام «قن آمون»: (لم يظهر صورته في الرسم الذي نقله «ديفز») إذ يظهر أنه قد وجدها كانت قد هُشِّمت، فكان يمثل هنا بوصفه وكيل مشتريات مخازن آمون التي تحت إشرافه، ومن المحتمل كذلك أنه كان يقوم بهذه الوظيفة لحساب سلطة عُلْيَا أخرى. والسلع المعروضة للبيع تحتوي أوانيَ ضخمة من النبيذ والزيت، ومما يسترعي النظر من بينها ثوران لهما سنامان وهما من فصيلة أجنبية (اقرن هذين الثورين بما جاء في مقبرة «نب آمون» رقم ١٧، وكذلك ما جاء في مقبرة «باحق من» رقم ٣٤٣).

أما السلع الأخرى المعروضة للبيع فتشمل أوعية تحتوي على طرائف من أنواع مختلفة ونماذج مما أخرجتْه يَدُ الصياغ في صور أوانٍ من المعدن الثمين. ففي الصف الأسفل من اليمين تُشاهِد إناء ذا فوهة واسعة من طراز سوري معروف يحتمل أنه صنع من الذهب، وقد زُيِّن بصورة ثور واقف في داخله، في حين نُشاهِد في الصف الأوسط تاجرًا يحمل إناء طويلًا ضيق الرقبة صِيغ من الفضة (؟) وغطاؤه على هيئة رأس ثور. ويحتمل أن بعض السلع التي خفَّ حملُها وغَلَا ثمنُها — ولا عجب أن تكون من بينها المرأتان والصبي المصورة في الصف الأعلى — كان مآلها أن تُضمَّ إلى متاع «قن آمون» نفسه في مقابل السماح لأصحابها بالاتِّجار في الميناء المصرية بوصفه عمدة «طيبة» التي رَسَتْ عندها السفن، وكذلك بمثابة (عمولة) على المتاجر بوصفه (العميل) الذي يشتري لحساب الإله «آمون رع»، وعلى الرغم من أن البضائع التي كانت تحملها هذه السفن التجارية كانت تُباع بوساطة وكلاء لهم مكانتهم العالية مثل «قن آمون»؛ فإنه كان — على ما يظهر — يوجد بجانب ذلك تجارة صغيرة حرة تُباع بالتجزئة، ولذلك نرى في الصورة الممثلة على الشاطئ بجوار الماء حيث كانت ترسو السفن الأجنبية حوانيت صغيرة يقوم بالبيع فيها صغار التجار نساء ورجالًا وأمامهم السلع مكدسة وحركة التجارة فيها

رائجة. فنشاهد في الصورة التي أمامنا ثلاثة حوانيت، والبضاعة المعروضة للبيع تحتوي قطع نسيج وأحذية، ومواد غذائية وأشياء أخرى لا يمكن معرفة نوعها على وجه التأكيد. ويُشاهَد في الحانوت الذي في الصف الأسفل تاجر سوري يحاول بيع إناء ضخم من النبيذ أو الزيت، في حين نلمح في الصف الذي فوقَه بحارًا عاديًّا حَجَبتْ رأسُه مقدمة السفينة عن الناظرين يَعرِض للبيع قضيبًا من الخشب الثمين، ويدل وجود الموازين الصغيرة الحجم وهي التي كان يستعملها رجلان من أصحاب الحوانيت على أنها كانت تُستخْدَم لوزن التِّبْر الذي كان يُتخذ مادة للمبادلة، ويجوز أنها كانت مستعملة لوزن كميات صغيرة من العقاقير الثمينة وما يشبهها.

وتشاهد كذلك في هذا المنظر امرأة أمام حانوت، وقد حدث بجوارها حادث له علاقة بإدارة الميناء؛ إذ نرى بعض البحَّارة قد ساقهم رئيسهم أمام ضابط من ضباط الميناء كان يُدوِّن أسماءهم أو عددهم. والواقع أن المنظر في مجموعِه يعرض أمامنا لمحة حية عن نواحي الحياة المصرية القديمة التي لا نحظى بمثلها إلا نادرًا؛ لذلك فإنا نقدِّم عظيم شكرنا الجزيل لعمدة «طيبة» «قن آمون» الذي أمر برسم هذه التحفة على جدران قبره، وكذلك نُبدِي عظيم إعجابنا بالمفتنِّ الذي وضع تصميمها، وأخيرًا نفخر بالمَثَّالين الأحداث الذين حفظوا لنا بمجهوداتهم صورة هذا المنظر الذي كان قد ضاع كل أمل في العثور على نسخة منه بعد تهشيم الأصل تهشيمًا لا يُرجَى الاستفادة منه.

(١٤-٢٨) سبكموسي

وكان يحمل لقب مدير الخزانة في عهد أمنحتب الثالث، وقد عُثر على قبره في بلدة «الرزيقات» الواقعة على الضفة الغربية من النيل على بعد ٢٠ كيلومترًا جنوبي الأقصر. وعلى الرغم من صغر حجم قبره فإنه يحتوي نخبة المناظر التي تصور لنا حياة هذا الموظف الدنيوية. وحجرة دفنه قد مُثِّلت على هيئة تابوت وقد نقش على جدرانها جنازة المتوفى، وحياته في عالم الآخرة، ويرى فيها القارئ أنها تصور لنا مضمون «كتاب الموتى» (The Burial Chamber of the Treasurer Hayes, “Sobkmose from Er Rizeihat”, New-York 1939).

المدينة في باكورة الأسرة الثامنة عشرة

(١) الإدارة

لقد كان لسقوط دولة الهكسوس أثرٌ فعَّال في توحيد كلمة البلاد جملة، وتأسيس أسرة جديدة عام ١٨٥٠ق.م، وبتولي فراعنة هذه الأسرة مقاليد الأمور بدأ عهد جديد في الثقافة العالمية؛ وذلك أنه لما انحطَّتْ دول آسيا العظمى في ذلك الوقت، وتدهورت إلى الحضيض، برزت مصر وقتئذٍ في تاريخ العالم كالزهرة النضرة وسط الأرض المجدبة، وقد كانت مصر على اتصال وثيق بجزيرة «كريت» فسارت معها جنبًا لجنب في سبيل الثقافة إلى أعلى مكانة من الرُّقِيِّ. هذا إلى أن المصري قد شعر بمكانته الممتازة وقتئذٍ بين تلك الدول الهاوية، وعلى الرغم من أن البيت الحاكم في البلاد قد بقي كما هو فإن تولِّي «أحمس» وهو أحد أفراده عرش الملك قد عُدَّ فاتحة أسرة جديدة أُطلِق عليها اسم «الأسرة الثامنة عشرة»، كما أُطلق على المدنية التي انتشرت في هذا العصر والعصور التي تلت اسم «مدنية الدولة الحديثة».

وفضلًا عما نالتْه البلاد من استقلال واتساع رقعة سلطانها في الخارج، فإنه كان من أهم واجبات الفرعون وأشقِّها وقتئذٍ إعادة نظام الملك الذي كان قد اختلَّ ميزانه بوضع أسس متينة تسير على نهجها البلاد. وقد رأينا مقدار المقاومة التي كان لا بد من التغلُّب عليها، والحرب التي شُنَّتْ على الهكسوس لم تَقُمْ بها الأمة عن بكرة أبيها لمناهضة السيادة الأجنبية، بل قام بها في الواقع ملوك «طيبة» الشجعان، وهم الذين قد هزتهم النخوة الوطنية والعزة القومية وآزرهم في ذلك أهل الجنوب، وبخاصة جنوده الذين اتصفوا بالشجاعة والإقدام وحب الكفاح.

بقايا الحكم الإقطاعي

وإذا قَرَنَّا حالة البلاد في تلك الفترة بما كانت عليه في عهد الأسرة الحادية عشرة أو في عهد «أمنمحات الأول» عندما هبَّ لجمع شتات كلمة الأمة وقت أن كانت مقسمة مقاطعات يحكم كل واحدة منها أمير وراثي مستقل — وقد ظلت كذلك حتى قَضَى على هذا النظام جملةً «سنوسرت الثالث» — لوجدنا أن الحالة في عهد الدولة الحديثة كانت تختلف كل الاختلاف؛ إذ لم نجد لنظام الإقطاع في البلاد أي أثر فعلي بالمعنى الذي عُرف به في العهد الإقطاعي الأول، اللهم إلا في المقاطعة الثالثة من مقاطعات الوجه القبلي التي اتخذ حكامُها مدينة «الكاب» عاصمة لهم، وقد كان أشرافها على ولاء تام واتصال وثيق بملوك «طيبة» في تلك الفترة، إذ نجد في الواقع كثيرًا من حكام «الكاب» كانوا يُجاهِدون وقتئذٍ في جيش الفرعون وفي أعمال الإدارة، ويرجع تاريخ نسبهم إلى الأمراء الذين كانوا يحكمون هذه المقاطعة منذ الأسرة الثالثة عشرة وما قبلها. وهؤلاء الأمراء كانوا لا يزالون يحملون لقب الإمارة، كما ظلوا ينحتون لأنفسهم مقابر ضخمة على غرار مقابر حكام العهد الإقطاعي الأول مُزيِّنين جدرانَها بتواريخ حياتهم وما قاموا به من أعمال عظيمة، كما كانوا يرسمون عليها مناظر توضح حياة القوم اليومية من زراعة وتجارة وصناعة. وكانت إدارة هؤلاء الأمراء تمتد إلى «إسنا» وما جاورها، فكانوا يشرفون على جباية الضرائب وخزنها في المخازن الحكومية كما كانوا يقومون بتعداد المواشي، والتفتيش على الحقول الملكية. والواقع أن حكم هؤلاء الأمراء كان إداريًّا لا وراثيًّا وقتئذٍ، وكانت سلطتهم تمتد من قرب «طيبة» (برحتحور) حتى «الكاب»، وهذا يدل على أن طبقة الأمراء الوراثيين، كانوا قد اختفوا من البلاد جملة، بعد أن كانوا في عهد الدولة الوسطى عماد نظام الحكم وركنه الركين.

القضاء النهائي على بقايا الحكم الإقطاعي

حقًّا إننا نجد بعض أفراد يحملون لقب الإمارة الذي كان يحمله أسلافهم في العهد الإقطاعي الأول، غير أنهم كانوا يقطنون «طيبة» وفيها دُفنوا، وكانت ألقابهم جوفاء — ألقاب شرف وحَسْب — ولم يَبقَ واحد في مقاطعته الأصلية غير أمير «الكاب»، ففي عهد «تحتمس الأول» نجد أنه قد وَكَل أمرَ تنشئة أحد أبنائه الذي مات في حداثة سِنِّه إلى أمير «الكاب» «باحري» (راجع الجزء ٤)، وبموت الأخير انتهى حكم آخر أمير مقاطعة

في البلاد جملة. وكان الفضل في القضاء عليهم يرجع إلى «أحمس الأول»، وبذلك جمع السلطة كلها في يَدِه ووحَّد كلمة البلاد، وقد ساعده في الوصول إلى ذلك جيشه المدرَّب، وطبقة الموظفين الأَكْفَاء الذين جَمَعَهم حوله من طبقات الشعب الفقيرة.

نُظُم الحكم وما طرأ عليها من تغيير

وقد كانت الصورة التي اتخذها نظام الحكم والإدارة في عهد الأسرة الثامنة عشرة هي نفس الصورة التي كانت تحكم بمقتضاها البلاد منذ القِدَم بصرف النظر عن بعض التغيرات التي كانت تستلزمها الأحوال وتُحتِّمها نظرية النشوء والتطور والارتقاء. فنجد أن أرض الكنانة كانت مقسَّمة نظريًّا قسمين وهما القطران اللذان تتألف منهما البلاد منذ أقدم العهود — الوجه القبلي والوجه البحري — وبقي كل منهما يحمل لقبه الأصلي، ولكن في الواقع نجد الوجه القبلي الذي يُنسب إليه أمراء «طيبة» كان يمتد من «إلفنتين» حتى «أسيوط» و«القوصية»، وقد كان الفرعون «تاعا» وكذلك ابنه «كامس» يحكمان هذا الإقليم، وكان هذا الإقليم بعينه مقسمًا قسمين، شمالي «طيبة» وجنوبها، وقد كان الوزير وحاكم العاصمة هو المشرف على الإدارة فيهما. أما الجزء الشمالي من البلاد الذي كان يمتد من الأشمونين حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهو الجزء الذي كان يسيطر عليه الهكسوس، فكان تحت إدارة وزير آخر يقطن «منف» (راجع ج٤، رخ مي رع).

وهذا النظام الحكومي الذي اتخذتْه البلاد في عهد الدولة الحديثة كان في ظاهره غريبًا، فقد كانت عاصمة الملك تقع بعيدًا عن وسط المملكة على مسافة سبعمائة كيلومتر من «منف» التي تُعَدُّ نقطة الوسط، وعلى مسافة مائتي كيلومتر من «أسوان» من آخر حدود مصر الجنوبية عند الشلال الأول. وهذا الوضع يَظهَر لأول وهلة مخالفًا لما تقتضيه طبيعة البلاد، ولكن السبب الذي دعا إلى اتخاذ العاصمة في هذه الجهة، هو أن «طيبة» كانت مسقط رأس ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وعاصمة ملكهم منذ نشأتهم، ولذلك لم يغادروها عندما استولَوْا على البلاد جميعًا، ومن ثَمَّ نجد أمامنا من جديد عاملًا هامًّا في سير حوادث التاريخ المصري، وهو أن تتبع كل الحوادث السياسية التي كانت بمقتضاها تسير الأحوال في البلاد ويتوقف عليها تكييف النظام لمدة قرون، يضرب بأعراقه في الوجه القبلي. ولا أدل على ذلك من أن توحيد البلاد في بادئ الأمر، وضم الوجه القبلي إلى الوجه البحري كان من عمل الملوك الحوريين الذين نشئوا في «الكاب»، وأخلافهم الذين ترعرعوا في مقاطعة «طينة»، وعندما كان الملك «مينا» قد أتمَّ حصن «منف» الذي كان يُطلَق عليه

«الجدار الأبيض» كان قبره وقبور رجال بلاطه مع ذلك في مقاطعة «طينة»، هذا فضلًا عن أن مقر ملكه كان في منطقة «العرابة»، ولم تصبح «منف» عاصمة الملك ومقر الحكم إلا في عهد الأسرة الثالثة، ومن ثم صار الملوك يُدفَنون في منطقتها. ولما سقطت الدولة القديمة لم يفلح ملوك «إهناسية المدينة» طويلًا في استمرار إبقاء عاصمة ملكهم في مصر الوسطى «إهناسية المدينة الحالية»؛ إذ بعد نضال طويل خضعوا لملوك الأسرة الحادية عشرة الذين كانوا يسيطرون على إقليم «طيبة» وما جاوره، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أصبح لمدينة «طيبة» وإلهها «آمون» مكانة عظيمة، غير أن ملوك هذه الأسرة قد اتخذوا عاصمة ملكهم في الشمال ثانية، فكان مقرهم أحيانًا في «اللشت» وأحيانًا في «الفيوم» (راجع ج٣). ولما تأسَّستِ الأسرة الثامنة عشرة نُقلت العاصمة إلى «طيبة»، وقد بقي مقر الحكم في هذه المرة في الوجه القبلي في هذه المدينة، وأصبح الإله «آمون» إله الدولة يغطي على كل الآلهة الكبرى. وقد كان إقليم الجنوب أو كما يُسمَّى «إقليم رأس الجنوب» من الوجهة الاقتصادية والزراعية في المؤخرة بالنسبة لإقليم مصر الوسطى، وبالنسبة لأرض «الدلتا» التي كانت ذات شهرة عظيمة من حيث الخصب والإنتاج، وفي الحق كانت هذه البقاع الأخيرة الزراعية مسكونة بقوم عاملين يعيشون عيشة هدوء لا يميلون للحروب، وكان في استطاعة كل حاكم قوي أن يسيطر عليهم دون مشقة أو مقاومة تذكر، في حين أن سكان الوجه القبلي كانوا قومًا ميَّالين للحروب أقوياء البنية مما أهَّلَهم لتحمُّل أعباء الحروب، ونخص بالذكر منهم أشراف مدينة «الكاب»، والدور الحاسم الذي قاموا به في محاربة أعداء البلاد. وقد كان يساعدهم في ذلك قبائل البدو النوبيون الذين اتخذهم الفراعنة حينئذٍ موردًا لتغذية جيشهم العامل، كما كان يُتَّخَذ منهم أحيانًا رجال الشرطة الذين يحافظون على الأمن في مشارف البلاد. ولقد كان السبب في بقاء النظام الذي سارت عليه البلاد في عهد الدولة الحديثة نحو مائتي عام يرجع إلى المحافظة على تنفيذ النُّظُم بِيَدٍ من حديد؛ مما لم يُعطِ مجالًا لقيام أي عصيان أو محاولة لنقض أسس الحكم.

الحكم في المقاطعات

ففي المقاطعات ظل نظام الحكم على ما كان عليه؛ إذ كان لكل مقاطعة عاصمة فيها مقر الحكم، كما كان لها معبدها الخاص وإلهها الذي كان يُعبد فيها منذ القِدَم. غير أنه بدلًا من الحكم الوراثي الذي كان يُسيطر على المقاطعة عَيَّن الفرعون لها حاكمًا من قِبَلِه له إدارة خاصة يُعاوِنه فيها كَتَبَتُه، كما كان لكل مقاطعة مجلس (قنبت) يُقِيم في

العاصمة، وكذلك في الأقاليم، غير أن هذا المجلس لم يكن بمثابة مجلس محلي بل كان يتألَّف من الموظفين، وكذلك كانت توجد محكمة بمثابة سلطة إدارية[١] (زازات)، وكان على رأس طائفة الموظفين والإدارة كلها الوزيران اللذان يتلقَّيان تعليماتهما مباشرة من الملك، وكانا هما المسئولين أمامه عن كل ما يحدث في البلاد.

مهامُّ الوزير

والواقع أن الوزير كان لا بد من أن يكون واقفًا على سير الأمور في البلاد؛ إذ كانت تصل إليه التقارير عن عمل كل الموظفين المسئولين أمامه، وهو الذي كان يفصل في الأمور الحكومية كلها، وعلى ذلك كان هو قاضي القضاة؛ إذ كانت تُرسَل إليه كل الأحكام التي كانت تُصدِرها المحاكم المحلية المختلفة، وكان يذهب كل يوم إلى مكتب وزارته ويتربع على كرسيه، ويجلس رجال مجلسه على كلا جانبيه وهم «عظماء الجنوب»، ثم يُؤتى أمامه بأصحاب المظالم والشكايات والمذنبين فيَفصِل في أمورهم، وكان يوجِّه عنايتَه التامة إلى موضوع الأملاك، وبخاصة حدود الحقول التي كانت في معظم الأحيان تَضِيع معالمُها

---

[١] والواقع أن ما وصل إلينا من المعلومات عن نظام الحكم في عهد الدولة الحديثة أقل بكثير مما وصلنا في عهد الدولة القديمة أو الدولة الوسطى، وذلك لأن نقوش المقابر التي وصلتْنا من عهد الدولة الحديثة عن الإدارات المحلية قليلة جدًّا، بل كل ما لدينا غير الأعمال الحربية التي قام بها بعض رجال الدولة في خدمتها، ضرب الضرائب وتسليم الجزية وما أشبه هذا، ذلك إلى ما كان يُغدِقه الفرعون على هؤلاء الرجال من الإنعامات.

ونجد في هذه النقوش التغير البارز الذي ظهر في هيئة الحكومة. وليس لدينا مثال خاص في هذا الموضوع. وقد جمع الأستاذ «أرمان» بعض معلومات مختصرة في هذا الصدد في كتابه «مصر» (“Aegypten und Aegyptischen Leban”, p. 114–145). أما المعلومات التي نجدها في العصور المتأخرة من عهد الدولة الحديثة، (مثل محاضر القواضي في عهد الأسرة العشرين) فيجب ألا نتخذها أساسًا للحكم على سير الأمور في العهد الذهبي للدولة الحديثة؛ وذلك لأن القوانين كانت قد تغيرت. والمصادر الأصلية لنظام الحكم في عهد الأسرة الثامنة عشرة هي النقوش التي نجدها في مقبرة الوزير «رخ مي رع» وما شاكلها من نقوش الوزراء الآخرين في ذلك العهد (راجع ج٤ Davies, “The Tomb of Rekh-mi-Ré”. PP. 84–94; “Newberry, The Life of Rekh-mara”, & Sethe, Urk. p. 1086ff. & Breasted, A. R. II, §ff).

ويظن الأستاذ «زيته» أن تنصيب الوزير يرجع عهده إلى الدولة الوسطى، كما سبق شرح ذلك (راجع مصر القديمة ج٣).

بسبب فيضان النيل، هذا فضلًا عن حوادث التعدي التي كانت تحدث كثيرًا والمنازعات التي كانت تقوم بسبب الإرث، كما كان يرسل إلى المقاطعات رسلًا بمثابة عمال اتصال بين إدارة المقاطعات ومكتب الوزير، فكان عليهم أن يقدموا إليه ثلاثة تقارير كل سنة في اليوم الأول من الشهر الرابع من فصول السنة الثلاثة، وبهذه الاحتياطات الحكيمة تلافت الإدارة المركزية التي كانت في أيدي موظفين معينين من قِبَل الفرعون الوقوع في خطر العودة إلى الحكم الإقطاعي، وكذلك كانت كل الوصايا لا تنفذ إلا إذا أجازها الوزير ووقَّع عليها بخاتمه، وكان الوزير يسير في أحكامه على نهج الحِيَاد المطلق، كما كان رائده في كل أعماله تنفيذ الحق مع مراعاة مصلحة الفرعون في صغار الأمور وكبارها، وكان يُحلِّي جيدَه صورة إلهة العدل «ماعت» لتذكِّره دائمًا بواجبه[٢] من حيث العدالة، وكان من حقه أن يستعمل العصا مع المجرمين لانتزاع الاعترافات منهم، هذا إلى حلف اليمين باسم الملك،[٣] وكان كل مَن يحنث فيه يُعاقَب أشد عقاب.

وقد كان يعمل مع الوزير بصفة دائمة رئيسان للخزانة على ما يظهر كما كان يعمل تحت إدارتهما رؤساء عمال الخزانة والمخازن والمصانع التي كانت تجمع فيها الضرائب والمصنوعات من خمر وزيت وحيوان وملابس وآلات من كل الأنواع حتى أسلحة الحرب وعرباتها والقطع الفنية التي كان يُنتجها المفتنُّون والمجوهرات، هذا فضلًا عن إدارة أعمال الفرعون الخاصة كإقامة المباني وصناعة اللبِن والإشراف على مناجم قطع الأحجار وجلب الأخشاب وصناعتها (راجع مهام الوزير الجزء الرابع).

وقد كان يُخصَّص لكل معمل أو مصنع من هذه الإدارات جيش من العمال عظيم العدد، معظمهم من الرقيق وبعضهم من المصريين، وهؤلاء العبيد قد جلبهم الفرعون من البلاد التي فتحها بحدِّ السيف في حروبه، وكان يقوم على تشغيلهم والإشراف عليهم عدد عظيم من الموظفين من كل الدرجات كل على حسب العمل الذي يشرف عليه (راجع ج٤، رخ مي رع).

---

[٢] (A. S. XL, p. 185).

[٣] في عهد الفرس كان الحلف يعقد بالإله المحلي بدلًا من الفرعون. غير أننا لم نعرف بأي إله يعقد اليمين إذا كان المتخاصمان مختلفين في الديانة (S. Ber. Berl. Ak. 1911. p. 140).

(٢) الحياة الاقتصادية

أما حياة مصر الاقتصادية فهي على النقيض منها في البلاد المجاورة مثل «بابل وآسيا الصغرى»، فقد كانت ثروة البلاد ثروة زراعية من قديم الزمان، واستمرت كذلك في عصور التاريخ المصري كلها في أساسها. حقًّا قد لعبت المعادن الثمينة في اقتصاد البلاد دورًا هامًا؛ إذ كانت تستعمل في صور حلقات من النحاس وغيره بمثابة عُمْلة، ومع ذلك فإنها لم تكن تستعمل في التجارة الحكومية ولا في المعاملات الخاصة، بل في الواقع بقيت تستعمل مثل سلعة أخرى، كالحبوب والماشية. وكانت الموارد الطبعية تستعمل منذ أقدم العهود في التعامل لتسيير الأداة الحكومية، وكذلك في المبادلات التجارية بسهولة، كما تستعمل العملة الذهبية الآن، فكانت المرتبات تُدفَع عينًا من المحصولات على حسب مراتب الموظفين، وعلى حسب عدد المُستخدَمين والخَدَم الذين تحت إدارة كل موظف كبير من هؤلاء الموظفين، بما في ذلك الملكة ووصيفات القصر وأولاد الفرعون العديدين ورجال الحاشية الذين كان يجب إطعامهم، وكانت تُصرف هذه المرتبات من الذخائر التي كنزت في مخازن الحكومة. وكان الضباط العظام وكبار الموظفين وعدد عظيم من المحظوظين يبذل لهم الفرعون العطايا من الأراضي والعبيد كما كان يُقيم المعابد للآلهة، ويجزل لها العطاء، ويحبس عليها الأوقاف العظيمة. والواقع أن كل أراضي الدولة في الأصل، إذا استثنينا ممتلكات الآلهة، كانت ملكًا للفرعون، وهو الذي كان يَهَب مَن يشاء ويَحرِم مَن يشاء، ولا أدل على ذلك من أن يوسف — عليه السلام — لما دخل مصر، واتصل بالفرعون كان أول ما طلب منه أن يجعله على خزائن الأرض، مما يدل على أنها كانت كلها في قبضة الفرعون، على أنه قد جاء في إحدى لوحات «تل العمارنة» ما يُشير إلى وجود أملاك خاصة، وذلك عندما أراد أن يُقيم الفرعون «إخناتون» مدينته الجديدة على مكان لا يَملِكه أحد فقال: تأملوا! إن الفرعون له الحياة والسعادة والصحة، قد وجد أنها ليست ملكًا لإله ولا لإلهة ولا لأمير ولا لأميرة، وأنه ليس لمخلوق أن يدَّعِي ملكيَّتَها (Davies, “El-Amarna”, Vol. V,p. 29). على أن كل ذلك إذا حدث كان بطبيعة الحال من هبة الملك.

والواقع أن نظام الحكومة المصرية كان يقتضي أن كل فرد في البلاد موظفًا أو غير موظف، كان يعيش من فيض الفرعون، وعلى ذلك كان كل فرد يسعى وراء كسب حظوته فينال الهبات التي كان هو وحده القادر على بذلها، وقد كانت الطريق لذلك سهلة أمام خُدَّامه الذين يخلصون في خدمته، كما كانت مفتوحة أمام جيش الموظفين الذين بهم تسير الأداة الحكومية التي يرتكز عليها كيان الدولة وبقاؤها، وقد كانت الطريق لشغل هذه

الوظائف لا يفتح أبوابها إلا لأولئك الذين يتعلمون الكتابة والقراءة في المدارس. وقد كان التلميذ ينفق عمرًا طويلًا في التعلُّم كما كانت العصا أكبر وسيلة تستعمل لإتقان أسرار الكتابة ويستعملها المعلم بسخاء.

(٣) المدارس والتعليم

والظاهر أن المدارس في عهد الدولة الحديثة كانت على درجتين؛ فالأولى تُعادِل بوجه عام ما نُسمِّيه نحن «المدرسة» ويسميها المصريون «بيت الحياة»، وفيها كان يُعلَّم الأولاد الكتابة والأدب القديم، وقد استعملوا لكتابة تمارينهم كما ذكرنا قطعًا من الخزف وشظيات الحجر الجيري التي كانت لا تُكلِّف شيئًا بدلًا من صحائف البردي[٤] الباهظة الثمن، وقد أسعدنا الحظ ببعض معلومات عن واحدة من هذه المدارس، وقد كانت تابعة للمعبد الذي بناه «رعمسيس الثاني» للإله «آمون» في الجهة الغربية من «طيبة» وهو الذي يُطلَق عليه الآن اسم «الرمسيوم»، وقد كانت ضمن المباني العظيمة الخاصة بالإدارات المحيطة بالمعبد من جهاته الثلاث، وقد عُثر في هذا المكان على عدد عظيم من «الاستراكا» يسترعي النظر، وبخاصة ما وجد منها على كومة صغيرة من الأوساخ، وتدل ظواهر الأمور على أن مدرسة المعبد كانت قائمة في هذا المكان ويبدو أن، التلاميذ عندما كانوا ينتهون من كتابة بعض هذه «الاستراكا» كانوا يُلقون بها في هذه البقعة. وبدَرْس هذه القِطَع التي كان ينسخها التلاميذ وجدنا أنها فوق احتوائها على بعض الموضوعات الإنشائية التي تنتمي لعصر الدولة الحديثة تتألَّف من ثلاثة كتب عُثر منها على مقتطفات عدَّة مكرَّرة. وهي تعاليم الملك «أمنمحات» وتعاليم «خيتي» بن «دواوف» وأنشودة النيل، وكلها تُنسب إلى عهد الدولة الوسطى. ومما يسترعي النظر أن هذه القطع الأدبية الثلاث عُثر عليها جميعًا على ورقتين من البردي تدل الظواهر على أنهما ترجعان إلى أصل «منفي»، ولا شك في

[٤] وقد أصدر الأستاذ «جاردنر» كتابًا خاصًّا شرح فيه ما جاء في هذه البردية وغيرها من هذا النوع وأطلق عليه اسم "Ancient Egyptian Onomastica" في ثلاثة مجلدات. وقد تناول البحث في كل كلمة وردت في القوائم الثلاثة الهامة التي من هذا النوع. ويقول عن محتوياتها إنها كانت الخطوة الأولى نحو تأليف دائرة معارف. وقد فسر لنا السبب في تسمية كتابه «أونوماستيكا» أي قوائم كلمات بقوله: «إن هذه الكلمة اليونانية تعني قوائم أسماء أشياء رُتِّبت تحت أنواعها، وإنها ليست سلسلة كلمات مرتبة على حسب الحروف الهجائية» (راجع Ibid. Vol. I, 4–5).

أنهما كانتا تؤلِّفان الموضوع الرئيسي المعتاد لمنهاج المدرسة، وقد وُجدت مدوَّنة بأكملها على هاتين الورقتين. أما ما وُجد على قطع «الاستراكا» فكان يشتمل على مختارات قصيرة من هذه الموضوعات ومن كتابات أخرى لعظماء الكُتَّاب.

ومما يلفت النظر أننا نجد باستمرار في معظم الأحيان نفس المختارات مُعادة، ولا يبعد أنها كانت القِطَع المُنتَخَبة المقرَّرة التي كان لزامًا على كل فرد متعلم أن يحفظها. وحينما كان يتخطَّى التلميذ هذا الدور الابتدائي من التعليم كان يُقيَّد كاتبًا في إدارة ما، ثم يستمر في تحصيل العلم هناك على يد موظفين كبار. ويجوز أنهم كانوا رؤساءه المباشرين. وفي الدولة القديمة نجد أن الأب هو الذي كان يستمر في تلقين ابنه إذا كان من كبار الموظفين. ولا أدل على ذلك من أن «بتاح حتب» طلب إلى «الفرعون» أن يسمح له بأن يُعلِّم ابنَه ليخلفه في وظيفته. وكان على الطالب في أثناء تلقِّيه هذا التعليم العالي أن يستمر في كتابة نماذج إنشائية لا تقف عند نقل بعض سطور كما كان يفعل من قبلُ، بل تشمل قطعًا كبيرة. وقد وجدنا أن طالبًا قد كتب ثلاث صحائف في يوم واحد. وقد لوحظ أن خطأ التلميذ يُصحِّحه معلِّمه على هامش البردية، ولكن لسوء الحظ لم يكن يُعنَى المعلِّم كثيرًا بما كتبه الطالب من الألفاظ التي تُفسِد المعنى. بل جعل معظم عنايته بشكل الحروف. فكان درسه أقرب إلى تجويد الخط منه إلى دراسة اللغة وتحقيقها. وتدل معظم النسخ الخطية المدرسية بوضوح على الأغراض الحقيقية من التعليم عندهم. فكان الغرض منه أولًا: التربية، وثانيًا: المِرَان على الأعمال التجارية، وحسن الخط. والواقع أن موضوع الإملاء لم يكن بالأمر الهين كما ذكرنا؛ إذ إن نظام الكتابة الهيروغليفية أكثر استعدادًا لقبول الأغلاط ولا يَعدِله نظام آخر في العالم. من أجْل ذلك كانت العناية بهذا الموضوع عظيمة جدًّا. ولدينا كتاب يدلنا على عناية القوم وحرصهم على كتابة الكلمات الفردية كتابة صحيحة. ولا بد أن هذا الكتاب كان شائع الاستعمال في المدارس. وقد وضعه كاتب كتاب الإله في بيت الحياة («أمنموبي» بن «أمنموبي»)، وقد عُثر منه على ثلاث نسخ.

وقد اتخذ كاتب هذه الوثيقة لنفسه دور الكاتب الذي أراد أن يعلم التلميذ العلوم كافة. لذلك يحمل كتابه عنوانًا مطولًا، إذ يقول: «التعاليم التي تجعل الفرد أديبًا، وتعلم الجاهل عِلْمَ كل كائن، وكل ما صنعه «بتاح» وما سجله «تحوت»، والسماء ونجومها والأرض وما عليها، وما تخرجه الجبال، وما تجود به البحار، وما له علاقة بكل الأشياء التي تضيئها الشمس وكل ما ينمو على الأرض.» ولا جدال في أن هذا العنوان له رنة

عظيمة في الآذان، إذ يجعل المستمع ينتظر معلومات ضخمة تكشف له الغطاء عن علوم هؤلاء القوم، غير أن الأمر أهون من ذلك، فالكِتَاب في حدِّ ذاته لا يخرج عن مجموعة كبيرة من أسماء وألقاب بعضُها متداول معروف، وبعضها نادر غير مألوف، وقد وُضعت بنظام مرتب ترتيبًا منطقيًّا لا بأس به، فيذكر لنا أولًا السماء وما فيها: السماء والشمس والقمر والنجوم والجوزاء، والدب الأكبر، والقرد، والمارد، والخنزيرة، والسحاب، والعاصفة، والفجر، والظلام والضح والفيء ... وأشعة الشمس. ثم يتلو ذلك أشكال المياه الموجودة في الطبيعة والتربة. ثم يذكر في ست مجاميع الألفاظ التي تدل على الكائنات الحية. فيذكر العلوية منها أولًا وهي الآلهة والإلهات، والأرواح الذكور منها والإناث. ثم يُعدِّد لنا المخلوقات البشرية مرتبة على حسب مركزها في المجتمع. فنجد أولًا الملك ثم الملكة. ثم يذكر لنا بعد ذلك كبار الموظفين. فرؤساء رجال الدِّين والعلماء. ويلي ذلك السواد الأعظم من صغار الموظفين وأصحاب الحِرَف، وبعد ذلك يضع أمامنا التعابير التي يُعبَّر بها عن بني البشر والجنود وأسماء الشعوب الأجنبية والأماكن المختلفة، ثم ينتقل إلى ذكر أسماء ست وتسعين مدينة مصرية واثنين وأربعين اصطلاحًا للمباني وأجزائها. ومسميات للأراضي والحقول. ثم يُعدِّد لنا كل ما كان يأكله الإنسان أو يشربه. ويدخل في ذلك ثمانية وأربعون نوعًا من اللحم المطبوخ. وأربعة وعشرون نوعًا من الشراب، وثلاثة وثلاثون نوعًا من اللحم النِّيء. وفي الجزء الختامي الذي وُجد محطَّمًا كان قد كُتب عليه مسميات عن مختلفات الطيور وعدد عظيم من أسماء الماشية وغير ذلك من الأسماء التي جمعها «أمنموبي» بعناية ليضع أمام العالم صورة عن كل كائن، شاكرًا للإلهَيْن «بتاح» و«تحوت». ولا شك في أن غرضه من جميع تلك المسميات، وترتيبها تعليم تلاميذه كتابة المفردات كتابة صحيحة. وكما أسلفنا كانت كتابة الكلمات الأجنبية الكثيرة والأسماء الغريبة التي اندمجت بوفرة في اللغة المصرية الجديدة عقبة كئودًا حتى للطلبة المتقدمين ولذلك كانت تُبذل عناية خاصة لتعليمها. فمن ذلك أن تلميذًا من الأسرة الثامنة عشرة يضع كل همِّه في أن يكتب على لوحة أسماء في «كفيتو» (كريت)، وسنرى فيما بعد أن نماذج الخطابات التي أوردناها في هذا الكتاب هي من هذا النوع، فتشتمل على كلمات وأسماء ليتعلَّم منها التلميذ كتابة الكلمات الأجنبية كما كان يتعلم من وثيقة «أمنموبي».

والواقع أن قائمة «أمنموبي» هذه لا يمكن أن تُعدُّ فهرسًا لسرد أسماء وحسب. وإن كان هذا هو مدلولها العملي كما يَظهَر لنا من ترتيبها وتنسيقها، ولكن إذا أمْعَنَ الإنسان النظر إلى كُنْهِها بعين فاحصة وجد أنها الخطوة الأولى نحو فكرة تأليف قاموس؛ إذ نجد

أن الترتيب الذي وُضعت به يَنِمُّ عن ترتيب منطقي مميز في داخل كل مجموعة. كما نلاحظ علاقة ظاهرة بين كل لفظة وما سبقتْها. وأعني بذلك أن الكاتب على الرغم من أنه لم يعطنا إيضاحًا عن تلك الألفاظ أكثر مما كنا نعرف، إلا أنه مكَّننا من أن نفهم علاقة الكلمة بسابقتها من مركزها في القائمة، فأهمية هذه الوثيقة لفهم اللغة المصرية عظيمة جدًّا لنا. ويظهر مقدار ذلك جليًّا إذا علمنا أن الفهارس بمعناها الحقيقي معدومة كلية في اللغة المصرية. حقًّا إن لدينا بعض قوائم لأنواع الكلمات على «الاستراكا» كما توجد في متون مشهورة مثل أسماء البلاد السورية التي ذكرها كاتب ورقة «أنستاسي» الأولى أو قوائم أسماء المدن التي استولى عليها فراعنة مصر في الدولة الحديثة، والتي نقشوها على جدران معبد الكرنك وغيره. وكذلك القوائم التي ذُكر فيها أسماء الأمم والأخشاب «والأشياء التي صُنعت منها على الاستراكا». على أن كل هذه القوائم، وحتى وثيقة «جلنشيف» التي نحن بصددها الآن، لا يمكن أن تُقاس بالفهارس الحقيقية البابلية.

وليس من الصعب أن يعرف الإنسان السبب في وجود هذه الفهارس في «بابل» وخلو مصر منها، وذلك أن المصري قد اخترع الكتابة بنفسه لنفسه ليعبر بها عن لغته. وقد نَمَوَا سويًّا في موطن واحد بَعِيدَيْن عن التأثر الخارجي. ولكن في بلاد النهرين أي «بابل» كان للسومريين كتابة خاصة بهم. غير أن قومًا من الساميين الذين لا يعرفون الكتابة غَزَوْا هذه البلاد. ولما أقاموا فيها رأَوا الفوائد التي تعود عليهم لو اقتبسوا منها نظام الكتابة، فأخذوه منها واستعملوه في التعبير عن لغتهم فنقلوا أولًا الكتابة السومرية الأصلية كما شاهدوها. ولكنهم قرءوها بما يُقابِلها في لغتهم «الأكادية»، وتعلَّموا بعد وقت أن يضعوا للكلمات السومرية ما يُقابِلها في لغتهم. ومن ذلك ألَّفوا لأنفسهم فهرسًا باللغتين. وقد دفعهم إلى هذا حاجتُهم المُلِحَّة للتَّفاهُم بينهم وبين القوم الذين غَزَوْهم. ولكن مصر لم تكن في يوم ما في حاجة إلى ذلك، وكذلك نجد أن اللغة الإغريقية التي تُعَدُّ من أعرق اللغات لم تأخذ في وضع قاموس للغتها إلا بعد انقضاء العصر «الكلاسيكي» فيها.

ومما سبق نعلم أن المصري كان يصنع مثل هذه القوائم ليتقن التلميذ فنَّ الإملاء، ولتبصرته بصفة عامة بكل ما يحيط به. وكان أعظم من كل ذلك عناية الأستاذ بتعليم تلميذه الأسلوب الصحيح، والتعابير المختارة لكتابة الرسائل.

من أجْل ذلك كان التلميذ ملزمًا بنقل نماذج رسائل من كل نوع حقيقية كانت أو إنشائية، ونقل النصائح والتحذيرات التي كانت تصلح لهذا النوع من التعليم، إذ كان يكتبها في شكل رسائل. ولذلك كان يُطلق على ما يُسطِّره التلميذ على ورق البردي اسم

(تحرير الرسائل)، وفي غالب الأحيان كان يضع التلميذ اسمه في الخطابات الشخصية واسم معلمه كأنما هما يتراسلان، فنجد التلميذ يكتب لنفسه أنه كسلان وفاسق وعاهر وأنه يستحق مائة جلدة. ويدل ما لدينا من الوثائق على أن بعض الموظفين من مختلف الطبقات كانوا يستقلون بتعليم تلاميذهم، فنجد كاتب خزانة فرعون ورئيس سجلات الخزانة وكاتب مصنع فرعون وغيرهم لهم تلاميذ يتعلمون عليهم. ويرى القارئ في المنافسة الأدبية «ورقة أنستاسي الأولى» أن الموظف وإنْ كان في الإصطبل الملكي كان في قدرته أن يكون معلِّمًا ماهرًا.

ولقد كانت مهنة التدريس متغلغلة في نفوس الموظفين الذين يُحسنون الكتابة لدرجة أنهم كانوا يباشرونها في وسط أعمالهم؛ إذ نجد أن أحد الموظفين الذين كانوا يُشرفون على نحت قبر «رعمسيس التاسع» في صحراء وادي «أبواب الملوك» لم يُطِقْ صبرًا على ترك مهنة التعليم حتى في ذلك المكان المنعزل القفر، فكان يكتب مساعده أو تلميذه أشياء مختلفة بمثابة تمارين على شظيات كبيرة من الحجر الجيري المتخلفة من النحت، وقد عثرنا منها على نموذج خطاب وقصيدة قديمة «لرعمسيس الثاني» وصلوات جميلة لشخص اضطُهِد ظلمًا، فنرى يدَ المعلِّم قد تناولتْها بتصحيح بعض الأخطاء (راجع كتاب الأدب المصري القديم ج٢، ص١٤٢). وكان يوجد بجانب أولئك الموظفين الجيش ورجاله وما يتطلَّبه من نظام وعُدَّة وعتاد مما سنتكلم عنه فيما بعد.

(٤) سلطة الفرعون في داخل البلاد وخارجها

على أن قيام مثل هذا النظام الإداري والحربي وحسن سيره كان لا يتأتى إلا بالطريقة الفعَّالة والأنظمة الحكيمة التي يُقرِّرها الفرعون بنفسه، ولما كان الفرعون وبلاطه هو المصدر الوحيد الذي منه يَستَمِدُّ كلُّ الشعب حياته وسعادته، فإن كانه لزامًا عليه أن يكون قادرًا على صرف العطايا لكل هؤلاء الموظفين بطريقة منظمة لا يعتورها تقصير أو خلل، وبذلك يمكنه أن يضمن حسن سير رعيته ورغبتهم في خدمته. والواقع أن هذه كانت هي الحالة المتَّبعة في عهد الدولة الحديثة، وقد استمرت هكذا بصورة تدعو إلى الإعجاب والدهشة مدة تُربِي على قرن من الزمن، على الرغم مما كان ينتاب البلاد من وقت لآخر من اضطرابات أو ثورات داخلية. ولا شك في أن الدخل الذي كان ينفق منه الفرعون على مبانيه الضخمة وتماثيله الثمينة والآلات وأدوات الزينة، وكذلك على بلاطه وعلى المعابد لا ينفد معينُه، وكان الفرعون يعتمد على جزء هام من هذا الدخل من خراج أملاكه

ومصانعه، ولكن الجزء الأعظم، كان يأتي إليه عن طريق نظام الجزية الدقيق الذي كانت تسير بمقتضاه البلاد، وأول أبواب هذه الجزية كان خراج الأطيان المنزرعة عدا أملاك الكهنة أو أملاك المعبد فقد كانت مُعفاة من الضرائب، والظاهر أنه كان يُجبَى من الأراضي عشرون في المائة من محصولها، كما ذُكر ذلك في تقارير بني إسرائيل عن الحالة المالية في عهد يوسف — عليه السلام — فقد أدخل يوسف — عليه السلام — قانون جباية الخُمْس بمثابة خراج على الأرض المنزرعة وهو ما كان يُعطاه الفرعون، وكانت أراضي الكهنة وحدهم هي التي لا تُعَدُّ من أملاكه (راجع Gen. 27, 26). وهذه الجزية الفاحشة لا يمكن الإنسان أن يتصوَّر فرضها إلا على أرض خصبة مثل الأراضي المصرية الغنية التربة، وعلى هذا النمط كانت تُضرب الضرائب على كل فرع من المحاصيل وعلى ما تُنتجه الصناعات، هذا فضلًا عن الضريبة التي كانت تُفرض على الماشية والأشجار، ولتنفيذ مشاريع المرافق العامة كحَفْر التُّرَع والمحافظة على صلاحيتها وغير ذلك من مرافق الحياة، والظاهر أنه كانت تُفرض ضريبة على الرءوس.

أما الحالة المدنية في البلاد وثروة كل أسرة فكانت تُوضع لها قوائم يُدوَّن فيها عدد أفرادها وحالتهم. ثم تأتي بعد ذلك أعمال السُّخْرة التي كانت تقتضيها الأحوال، وبخاصة لإقامة المباني العظيمة التي كانت تُقام في طول البلاد وعرضها، وقد كانت أعمال السخرة من الأعمال الأساسية. وعندما كانت تشتد الحاجة إلى الأيدي العاملة كان أولو الشأن يستخدمون أسرى الحرب والأفراد الذين كانوا يُجلَبون إلى البلاد بصفة جزية لإنجاز هذه الأعمال. ولقد كان من الضروري لحفظ كيان الحكومة المصرية فضلًا عن سياسة الحروب والفتح في الأقاليم المجاورة أن تُستَورَدَ منتجات البلاد الأجنبية، وبخاصة أخشاب بلاد «لبنان» اللازمة للبناء وصنع السفن المقدسة والأسطول، ومصنوعات بلاد «سوريا»، ومحاصيل مناجم بلاد «النوبة» «وشبه جزيرة سينا». أما أهم هذه المحاصيل وأعظمها لتسيير أمور الدولة فكان ما تُخرجه مناجم جبال بلاد النوبة من الذهب جزية سنوية تُدفع إلى مصر، إذ الواقع أن استيلاء الفرعون على هذا المعدن الثمين قد جعل له المنزلة الأولى التي لا تُجارَى بين كل ممالك العالم المتمدين وقتئذٍ، وبخاصة في العلاقات السياسية؛ إذ كان يُعَدُّ أمضى سلاح يَهزِم به أقوى أمة من البلاد المجاورة له، كما كان وسيلة حسنة لجمع القلوب حوله في مصر ذاتها. فقد كان الفرعون يبذل العطايا من الذهب على الدوام في هيئة حلقات وقلائد للشجعان من ضباطه وموظفيه المرة بعد المرة،

ولا أدلَّ على ذلك من أمير البحر «أحمس بن أبانا» فقد نال ذهب الشجاعة سبع مرات. وكان الفرعون يكنز القناطير المقنطرة من هذا المعدن في خزائنه، وكانت محاصيل جبال بلاد النوبة لا ينضب معينُها في هذه الفترة من الزمن كما ذكرنا عند الكلام على غزوات ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وما كان يُدفع لهم من جزية من الذهب والفضة.

ولا نزاع في أن مَن نظر نظرة سطحية إلى نظام الحكم تحت سلطان ملوك طيبة يجد أنه لا يختلف عنه في عهد الأسرة الرابعة؛ أي إن الفرعون كان يسيطر على البلاد سيطرة مطلقة بوصفه إلهًا، وأن جيش الموظفين الذين كانوا يديرون دفة البلاد لا يختلفون عن نظرائهم في عهد الأسرة الرابعة، غير أن مَن فحص الأمور في عهد الأسرة الثامنة عشرة بعَينٍ ثاقبة يَجِدْ هناك فرقًا أساسيًّا بينها وبين الأسرة الرابعة؛ وذلك لأن الثقافة والحالة العالمية وطرق المعيشة قد تطورت تطورًا عظيمًا؛ إذ الواقع أن الدولة القديمة بالنسبة للدولة الحديثة كبلد محكوم حكمًا استبداديًّا مطلقًا ودولة محكومة حكمًا استبداديًّا مستنيرًا حتَّمَتْه نظرية الرقيِّ والنشوء التي استلزمها مرور ما لا يقل عن ألف وخمسمائة سنة من الزمن في بلاد كانت تسير مع الزمن في تقلباته، فنجد أن الحالة الاقتصادية التي انتهتْ بالدولة القديمة إلى جعل البلاد مقسمة إقطاعات لا نجدها في عهد الدولة الحديثة، وعلى ذلك كانت السُّبُل مهيَّأة للدولة لا يعوقها أي عائق في تنفيذ أغراضها في الداخل والخارج على السواء. ومن ثَمَّ جاءت فكرة الدولة والسيطرة العالمية (أي الإمبراطورية)، ولقد كانت الفرصة سانحة؛ لأن المصريين عندما قهروا الهكسوس وطردوهم إلى «آسيا» فُتحت أمامهم الطريق لتأسيس إمبراطورية عظيمة فيها. وقد وجدنا هذه الفكرة مختمرة في رأس «أحمس الأول» عندما نَطَقَ بتصريحه عن سلطة الملكية ومدى نفوذها إنه إلهٌ وابن الإله، وليس في مقدور أحد أن يقاومه، وكل الشعوب رعاياه، وإنه يضع حدوده في نهاية العالم، على أننا نرى في الوثائق التي تركها لنا أخلافُه أنهم كانوا يُبالِغون أكثر منه في التعبير عن مدى اتساع ملكهم وسلطانهم، وعندما احتلَّتْ مصر هذه المكانة أصبحتْ خلال مدة المائة سنة التي تَلَتْ تأسيس الأسرة الثامنة عشرة، الدولة العظمى التي تقود ثقافة العالم، هذا إلى أنها في داخليتها قد خرجت بذلك من نطاق التقاليد القديمة التي كانت تحيط بوادي النيل؛ ومن ثَمَّ نضجت ثقافتُها وآتتْ أُكُلَها في كل النواحي، ومع ذلك بقيت في عظمتها وعزلتها في أحوالها الداخلية مثلًا لم يُسمَع به عن أي دولة أخرى في العالم.

(٥) سلطان الإله آمون

وعلى الرغم من ذلك كانت توجد قوة أخرى لها من الحقوق ما للفرعون، بل كان لها السيطرة عليه، وهذه هي قوة الآلهة الذين كانوا يسيطرون عليه ويَهَبونه النصر، وكلما كانت انتصارات أولئك الفراعنة عظيمة كان لزامًا عليهم أن يَزِيدوا من الهدايا وإقامة الأعياد لأولئك الآلهة الذين حَبَوْهم الفوز على الأعداء، وبهذه الوسيلة كانوا يضمنون معونتَهم في الأوقات الحرجة.

وقد كان على رأس أولئك الآلهة بطبيعة الحال الإله «آمون» رب «طيبة»، وهو الذي أصبح الآن إله الدولة الأول، وقد كان الاعتقاد فيه أنه يجمع القوة كلها في شخصه، وأنه موحَّد مع الإله «رع» المسيطر على العالم، وقد كانت هذه الفكرة متغلغلة في نفوس الملوك، حتى إنهم كانوا يعتقدون أنهم متصلون به اتصالًا روحيًّا مباشرًا، وأنه هو الذي أنجبهم بطريقة خَفِيَّة لا يَعلَم سرَّها إلا هو، وقد كان المعبد الذي بُني لهذا الإله في عهد الدولة الوسطى في «الكرنك» بسيطًا، غير أنه أخذ يَعظُم ويتَّسِع حجمُه في عهد «تحتمس الأول» الذي أقام له معبدًا عظيمًا، وقد زاد في هذا المعبد كل الفراعنة الذين خلفوه، وأمدُّوه بالمُؤَن والذخائر، وجمَّلوا أرجاءَه حتى أصبح بهجة العالم القديم والحديث، غير أن هذه المباني لا تمثِّل إلا جزءًا صغيرًا مما كان يتدفَّق على الإله من الخيرات التي لا ينقطع معينُها، ففي عهد «أحمس الأول» نرى لدينا قائمة هائلة بالأواني الفاخرة والقلائد والأكاليل وطرائف الحُلِي وأدوات العبادة التي صيغت كلها من الذهب النُّضَار والفضة والأحجار الكريمة وخشب الأرز من بلاد «لبنان»، وكل هذه مما أهداه الفرعون لوالده «آمون رع»، يُضاف إلى ذلك الأوقاف والعربات والعبيد، وأسرى الحرب مما أفاء به الإله عليه. وبذلك تكوَّنتْ في البلاد ملكية خاصة بالإله ذات نظام يشبه نظام الحكومة، فكان لها خزائنها ومخازنها ومصانعها، وموظفوها وإداراتها وعبيدها، وكانت منفصلة عن أملاك بيت الفرعون حتى جاء عهد «تحتمس الثالث» فوكل أمر الإشراف عليها لوزيره «رخ مي رع» الذي كان رئيس وزارة الوجه القبلي (راجع الجزء الرابع إلخ)، وكان للآلهة الآخرين بطبيعة الحال أملاك خاصة، مثل الإله «آتوم» صاحب «هليوبوليس»، والإله «بتاح» رب «منف»، والإله «تحوت» رب «الأشمونين»، والإله «أوزير» صاحب العرابة المدفونة، وقد كان لكل منهم

أملاك في الدائرة التي تحيط به،[٥] كما كان يقدِّم له الفرعونُ الهدايا مما يستولي عليه من فتوحه.

والواقع أن الاهتمام بالإكثار من المعابد الجديدة وإقامة الشعائر الدينية كان يسير على حسب ما في البلاد من ثراء ورخاء. وقد كان ازدياد المباني الدينية وانتشارها يدعو إلى ازدياد عدد الكهنة، وكانوا يحتلون بطبيعة الحال مكانة ممتازة ويعيشون من دخل أملاك المعبد الخاصة، والهِبَات التي كان يُغدِقها الفرعون عليه. وقد كان أولاد عِلْية القوم — ولم تكن بعدُ قد تكوَّنت طائفة كهانة وراثية — يَجِدُّون في البحث للانخراط في سلك كهنة المعبد، وقد كان أثر ذلك أنْ فُصلت كل ممتلكات المعابد عن أملاك الدولة، وأصبحت لا تَدفَع أية ضرائب، وكانت مع ذلك تُوضع تحت المراقبة الملكية كما ذكرنا آنفًا، كما كانت الترقيات بين رجال الكهانة من أدنى درجة — والد الإله ثم المطهر — حتى أعلى رتبة وهي «رئيس كهنة آمون» يقوم الفرعون بالتعيين فيها، فمثلُها في ذلك مثل الوظائف الأخرى في مصالح الدولة. ولكن حقيقة الأمر أن نظام الكهانة هذا قد أوجد حكومة داخل الحكومة المصرية كانت تسير على أسس متينة، وكان رجالها يُعَدُّون المنفِّذين لأوامر الإله مما جعلها تمتاز عن حكومة البلاد الدنيوية بما يُحيطها من السرية والرهبة التي لا يمكن انتهاك حرمتها. ولقد كان من جرَّاء ذلك أنْ أوْجد فراعنة الدولة الحديثة قوة عظيمة نَمَتْ وترعرعت فوق رءوسهم وهم في غفلة لا يدرون أنهم بذلك قد وضعوا بذورًا لإنبات قوة عظيمة في البلاد انتهتْ بما جمعت من سلطان وقوة إلى القبض على زمام الحكم في البلاد بقيام دولة الكهنة كما سنرى بعد.

[٥] وما أشبه ملكيات هذه الآلهة واستقلالهم في إدارتها بالحكم الإقطاعي في عهد الدولة الوسطى!

إدارة السودان

لقد كان لإعادة فتح بلاد النوبة ثانية في عهد «أحمس الأول» في بداية الأسرة الثامنة عشرة أثر كبير في بناء الإمبراطورية الجديدة، وذلك لما كان يَرِد على مصر منها من أموال طائلة ساعدت مساعدة عظيمة في بناء مجْدها في «آسيا» وفي إقامة المباني الضخمة الدينية في داخل البلاد التي خرَّبها «الهكسوس»، وكان من أول الواجبات على الفراعنة بعد إعادة فتح بلاد «السودان» أن يضعوا أُسُسًا قويمة تسير عليها الدولة حتى يكون نفعُها عظيمًا، ولذلك رأى الفرعون أن يجعل علاقته ببلاد السودان علاقة خاصة لما بين البلدين من روابط قديمة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ كما أسلفنا؛ ولذلك عيَّن لها حاكمًا أطلق عليه لقب «ابن الملك» حاكم بلاد «النوبة» فكان بحكم موضعه «نائب الفرعون».

والظاهر أن هذه الوظيفة قد أُنشِئت في عهد «أمنحتب الأول» وبَقِيَتْ حتى عهد الأسرة الحادية والعشرين، وقد كان آخر مَن لُقِّب بهذا اللقب هو «بي عنخي» ابن الفرعون «حريحور» (Petrie “History” Vol. III, p. 203 & M. M. A. II, P, 57)، غير أننا سنرى فيما بعدُ إدارة مصر لبلاد النوبة قد استمرت بعد عهد «حريحور» مدة طويلة، وقد جُدِّد لقب «نائب الملك» ثانية في عهد الأسرة الثالثة والعشرين، وذلك عندما تقلَّده موظف يُدعَى «أوسركون عنخ» (راجع Gauthier, B. I. F. A. O. XII p. 138).

ولكن يلاحظ في هذه الحالة أن الوظيفة كانت مجرَّد لقب شرف قديم بُعث من رقدته ومُنحه «أوسركون عنخ»، أو أنه كان قد انتحله لنفسه على لوحته الجنازية التي تركها لنا، ولا أدل على أن هذا اللقب كان مجرد لقب فخري من أنه قد تقلدتْه الملكة «نسي خنسو» زوج الفرعون «بنوزم الثاني» (Petrie, Ibid p. 218)، وقد كان اللقب الأصلي الذي يحمله نائب الفرعون هو «ابن الملك»، وكان أول مَن حمله على ما نعلم هو «توري» (Urk. IV p. 78)، وهذا الرجل كان يحمل كذلك لقب قائد «بوهن» في عهد «أحمس الأول»، والظاهر أنه كان لقبًا حربيًّا، ولكن في السنة السابعة من حكم «أمنحتب الأول» نجد أنه يُلقَّب «نائب بلاد النوبة» ونُعت «بابن الملك» للإقليم الجنوبي، وذلك على حسب نقوش وُجدت في «سمنة». (راجع Breasted, “American Journal of Semetic Languages & Literature (1908) p. 108). وفي السنة التالية أي في السنة الثامنة تَرَك لنا هذا الموظف الكبير نقشًا في جزيرة «أورونارتي» عدَّد فيه ألقابه، وهي: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، ومحبوب الفرعون في الأراضي الجنوبية، وابن الملك. وفي السنة الأولى من حكم «تحتمس الأول» نجد أن «توري» كان لا يزال يُلقَّب «ابن الملك» والمشرف على الأراضي الجنوبية (Urk IV. p. 79–81)، كما تحدثنا بذلك لوحة التتويج التي عُثر عليها في «بوهن» وعلى صورة منها في بلدة «وادي حلفا»، وكذلك كان لا يزال في السنة الثالثة يقوم بأعمال وظيفته لهذا الفرعون أيضًا (Ibid p. 89–90). وفي عهد حتشبسوت (؟) نراه ممثلًا في المقبرة الوهمية التي أقامها الوزير «وسر» في غربي «سلسلة» وقد لقب عليها ابن الملك والمشرف على الأراضي الجنوبية. (P. S. B. A. Vol. XII p. 104). ويظن الأستاذ «ريزنر» أنه كان في هذا الوقت قد اعتزل العمل، ولكنه مع ذلك كان ما يزال يحتفظ بألقابه بوصفها ألقاب شرف. (J. E. A. Vol. VI, p. 29). وقبل أن نستمر في الكلام عن تاريخ هؤلاء الحكام يجب أن نُثبِت هنا أن لقب «ابن الملك» لم يكن من الضروري أن يحمل معناه الأصلي؛ أي إنه قد يكون لقب شرف وحسب. والدليل على ذلك ما نشاهده في «تتي كي» الذي عاش في عهد «أحمس الأول»، وكان يحمل هذا اللقب، غير أنه لم يكن ابن ملك حقيقي؛ إذ نجده قد مثِّل مع والديه في قبره، فكان اسم والده «رع حتب» الذي كان يشغل وظيفة مدير حديقة النزهة، أما والدته فكانت تُسمَّى «سن سنب» وتحمل اللقب العادي للسيدات المصريات وهو «ربة البيت». (راجع J. E. A. Vol. XI, p. 15). وعلى الرغم من أن «تتي كي» هذا كان يحمل لقب «ابن الملك» فإنه لم يكن «نائب الملك» في السودان. ولقب «ابن الملك» كما قلنا كان يُطلَق على «نائب الملك»

في السودان منذ عهد «أمنحتب الأول» وحسب، والظاهر أن هذا الفرعون هو الذي خلق هذه الوظيفة. والواقع أن كل نواب الفرعون في حكومة بلاد السودان حتى الأسرة الواحدة والعشرين لم يكونوا أولاد ملوك حقيقيين إلا «بي عنخي» بن «حريحور» فقد كان ابن ملك حقيقي، وهو آخِر مَن حمل هذا اللقب بصفة فعلية.

سني

وقد خلف «توري» في هذه الوظيفة «سني»، وتاريخ حياة خدمته على جانب عظيم من الأهمية، ففي نقش مهشَّم في معبد «سمنة» نعرف أنه كان المشرف على إدارةٍ ما قد مُحِي اسمُها في عهد «أحمس الأول» (Urk. IV p. 39–41)، أما في عهد «أمنحتب الأول» فإنه كان يشغل وظيفة مدير مخازن غلال «آمون» ومدير الأعمال في معبد الكرنك. وفي السنة الثالثة من عهد «تحتمس الأول» نجد «سني» هذا قد عُيِّن «نائب الملك» في «بلاد النوبة» بلقب «ابن الملك» والمشرف على الأراضي الجنوبية. وفي عهد «تحتمس الثاني» كان يُلقَّب «رئيس المازوي» (الشرطة) كما كان يحمل الألقاب التالية: «حاكم المدينة الجنوبية» (طيبة)، والمشرف على مخازن غلال «آمون» و«ابن الملك»، والمشرف على البلاد الجنوبية (Ibid p. 142)، ومن ذلك نعلم أن «سني» كان يشغل وظائف إدارية حقيقية في عهد مَلِكَيْن قبل أن يُعيَّن «نائب الفرعون» في عهد «تحتمس الأول».

نحي

ومنذ السنة الثانية من حكم «تحتمس الثالث» ويحتمل في عهد «حتشبسوت» أيضًا، كان يشغل منصب «ابن الملك» موظف يُدعَى «نحي»، ويحمل الألقاب التالية: «ابن الملك» والمشرف على البلاد الجنوبية، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، والأمير الوراثي، والحاكم الذي يملأ قلب الملك (Ibid p. 194) وحاجب الملك، وحاجب الفرعون الأول (Ibid. p. 985-6)، ومحبوب الفرعون في «تاستي (النوبة)» ومدير الإدارة (قاعة المحاكمة؟) (Randell Maciver, “Buhen”, PP. 42-3).

وقد كانت الأصقاع التي تحت إدارته تمتد من «نخب» (الكاب الحالية) حتى «كاراي» الواقعة عند الحدود الجنوبية للإمبراطورية بالقرب من «نباتا» عند الشلال الرابع (Urk. IV. p. 987).

وسرساتت Wesersatet

كان يشغل وظيفة «نائب الملك» في عهد الفرعون «أمنحتب الثاني» «وسرساتت»، وكان يحمل الألقاب التالية: الأمير الوراثي والحاكم، وحامل خاتم الفرعون في الوجه البحري، والسمير الوحيد، وابن الملك والمشرف على الأراضي الجنوبية (L. D. IV, Text, P, 123).

أمنحتب

وقد كان «نائب الملك» في عهد «أمنحتب الثالث» على حسب ما جاء في «لبسيوس» (Ibid. Text, p. 125) يُسمَّى «أمنحتب»، ولكن من المحتمل أنه كان يشغل هذه الوظيفة في عهد «تحتمس الرابع» (١٤٢٠–١٤١١ق.م)، وألقابه كالآتي: المشرف على ماشية بيت «آمون»، والمشرف على الأعمال في الجنوب والشمال، ورئيس إصطبل جلالته، وكاتب الفرعون، «وابن الملك» صاحب «كوش» والمشرف على الأراضي الجنوبية (L. D. Text, Vol. IV, p. 195)، ويلاحظ هنا إضافة كلمة «كوش» لوظيفة «ابن الملك». ومن ثَمَّ أصبح لقب «ابن الملك» صاحب «كوش» هو الاسم المعتاد الذي يطلق على «نائب الملك» في «بلاد النوبة».

وسبب ظهور هذا اللقب الجديد أن «أمنحتب» هذا قد عُيِّن على ما يظهر في عهد «تحتمس الرابع» في وظيفة «ابن الملك» صاحب «كوش» ليُميَّز مِن وليِّ العهد ابن الملك «أمنحتب» الذي أصبح فيما بعدُ فرعونًا على عرش البلاد، فأضيف إلى لقب «نائب الملك» في السودان صاحب «كوش» ليُميَّز مِن ابن الملك الحقيقي الذي كان يُسمَّى «أمنحتب» أيضًا. (راجع J. E. A. Vol. VI, p. 33). أما ألقاب «أمنحتب» هذا الأخرى فهي: «فارس الفرعون» والممدوح من الإله الطيب (L. D. Text. Vol. IV, p. 125).

مرمس

ومنذ السنة الخامسة من عهد الفرعون «أمنحتب الثالث» كان «نائب الملك» في «كوش» هو «مرمس»، وكان يحمل فضلًا عن لقبه الأصلي لقب «حامل المروحة على يمين الفرعون» (Ibid Vol. IV, p. 244)، وهذا لقب جديد قد بدأ يحمله نائب «كوش» وبقي يحمله «ابن الملك» حتى النهاية. والواقع أن هذا اللقب كان في الأصل حقيقيًّا وأول مَن حمله هو «ماي حربري» في عهد «تحتمس الثالث» (راجع Legrain, “Repertoire”, No. 108).

غير أنه أصبح فيما بعدُ لقبًا فخريًّا يُمنَحه كبار رجال الدولة، وإنْ كان صاحبه قد يحمل المروحة المصنوعة من الريش في بعض الحفلات الرسمية ميزة خاصة له.

ولما كان حامل هذا اللقب له علاقة شخصية وثيقة بالفرعون نفسه فإنه كان يُعَدُّ من الميزات العظيمة لَمَن يحمله؛ ولذلك كان لا يُعطاه إلا عظماء الموظفين من حاشية الفرعون «أمنحتب الثاني»، وكما ذكرنا أصبح من التقاليد أن يُعطى هذا اللقب لنائب بلاد «كوش»، غير أنه لم يكن قاصرًا عليه. على أننا نشاهد بنات الفرعون «إخناتون» يحملن المروحة التقليدية المصنوعة من الريش غير أنهن لم يحملن اللقب (راجع Davies, "El Amarna", Vol. III, Pl. XVIII). وقد كان يحمل هذا اللقب كاهن «آتون» الأعظم في عهد «إخناتون» (راجع Ibid Vol. I, Pls. XXXV, XXXVIII, XLI).

ونجد في عهد الأسرة التاسعة عشرة أن هذا اللقب كان يُخلع عادة على أمراء البيت المالك، وكذلك على نائب بلاد «النوبة» (Gauthier, L. R. Tome III, p. 30 & L. D. Text. Vol. III, p. 245)، ومن الألقاب الجديدة التي كان يحملها «مرمس» لقب المشرف على أرض الذهب للإله «آمون»، غير أن بعض المؤرخين يعتقدون أنه وصف خيالي للَّقَب الأصلي يُقصد منه التفاخر، أو بعبارة أخرى هو تعبير للقب «المشرف على الأراضي الجنوبية»؛ وذلك لأن الأقاليم التي كانت تُنتج الذهب تمتد جنوبًا من «إسنا» حتى بلاد «الحبشة»، فيحتمل أن كل بلاد «أثيوبيا» (نب) كانت «بلاد الذهب». على أن التعبير «أراضي ذهب «آمون»» قد ظهر للمرة الأولى على ما نعلم في مقبرة «سننفر» في عهد «تحتمس الثالث» (J. E. A. Vol. VI, p. 80)، فمِن الجائز جدًّا أن «تحتمس الثالث» قد خصص محصول بعض مناجم الذهب لخدمة «آمون»، وبذلك أصبحت ضمن أملاك الإله الخاصة، وهي التي تُعَدُّ منفصلة عن أملاك الدولة، وقد فعل مثل ذلك «سيتي الأول» عندما خصص محصول مناجم «وادي عباد» لمعبد العرابة.[١]

ومن الألقاب الأخرى التي كان يحملها «مرمس»: المشرف على أراضي «كوش» حتى آخرها، والساهر على سيده، كما كان يُلقَّب «كاتب الملك» ومحبوب الإله الطيب.

[١] راجع: J. E. A. Vol. IV, p. 241ff.

تحتمس

وفي عهد «إخناتون» كان نائب الفرعون في بلاد النوبة يُدعَى «تحتمس»، وكان يلقب «ابن الملك» وابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على أراضي الذهب الخاصة «بآمون». والمشرف على البنَّائين (؟) والأمير الوراثي والحاكم، والمشرف على أرض الحدود لجلالته، وحامل المروحة على يمين الفرعون (J. E. A. Ibid. p. 86).

حوي (أمنحتب)

أما في عهد «توت عنخ آمون» فكان نائب الملك يُدعَى «حوي» أو (أمنحتب)، وقبره معروف في «جرنة مرعي» بما يحتويه من المناظر المشهورة، وبخاصة مناظر الجزية التي أُحضرت من بلاد النوبة كما سنتكلم عنه بعدُ، ويحمل الألقاب التالية: ابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على الأراضي الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الفرعون، والأمير الوراثي، والحاكم، والوالد الأهلي محبوب الإله[٢] (لقب كهانة)، ورسول الفرعون لكل الأرض، وكاتب الفرعون، والسمير الوحيد. (راجع L. D. Vol. III, Pls. 115–118). والظاهر أن لقب «رسول الفرعون» كان يحمله «حوي» قبل أن يُعيَّن نائب الملك في «كوش»؛ وذلك لأن مثل هذا الموظف كان يُعدُّ عاملًا له علاقة مباشرة بالملك، وكان مسئولًا أمام موظف ملكي في العاصمة، لا أمام السلطات المحلية المصرية في «كوش»، هذا فضلًا عن أن هذه السلطات كانت ملزمة بأن تساعد وتعضد «رسول الفرعون».

باسر

وقد كان آخِر مَن حمل لقب «نائب الملك» في «بلاد النوبة» في عهد الأسرة الثامنة عشرة هو «باسر»، وكان يشغل هذه الوظيفة في عهد الفرعون «آي»، ويحتمل كذلك في عهد «حور محب»، وألقابه كالآتي: ابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على الأراضي الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الفرعون، والكاتب الملكي (Champollion, “Notices”, PP. 38–40)، والمشرف على أراضي «آمون» في «تاستي» (النوبة)، والمشرف على أراضي الذهب

[٢] راجع: Davies, “The Tamb of Huy”. p. 4, Pl. XXIX.

(L. D. III, Pl. 114 G.)، والأمير الوراثي والحاكم، والأمير حاكم المدنيين (راجع L. D. IV, Text, p. 126, No. 20). ومما هو جدير بالإشارة هنا أن «باسر» هو نائب «بلاد النوبة» الوحيد المعروف لنا حتى ذاك الوقت قد خلفه ابنه في وظيفته.

أمنمأبت (١٣١٥–١٢٩٠ق.م)

وابنه هذا يُدعَى «أمنمأبت» وكان يشغل هذه الوظيفة في عهد «سيتي الأول»، ثم في عهد «رعمسيس الثاني» مدة اشتراكه مع والده في الحكم، وألقابه هي: ابن الملك صاحب «كوش»، وحامل المروحة على يمين الفرعون، والمشرف على الأراضي الجنوبية، وسائق عربة جلالته. (راجع Vol. I, p. 28. De Morgan, "Cat. Mon.") ولا نزاع في أن وظيفة «سائق عربة الفرعون» تُشعر بأن حاملها كان له ارتباط شخصي وثيق بالفرعون.

يوني

ومن الغريب المدهش أنه كان يوجد نائب ملك آخر يُسمَّى «يوني» يَظهَر أنه كان يشغل هذه الوظيفة في عهد «سيتي الأول» أيضًا، وفي عهد «رعمسيس الثاني»، ومما لا شك فيه أن «أمنمأبت» كان يشغل فعلًا وظيفة «نائب الملك»، ولا أدل على ذلك من النقش الذي وُجد له في معبد «بيت الوالي». والظاهر أنه هو الذي كان يُشرف على بنائه بوصفه «نائب الفرعون»، ويعتقد الأستاذ «ريزنر» أن المعبد قد أُقيم في عهد «رعمسيس الثاني» مدة اشتراكه في الملك مع والده «سيتي الأول» (J. E. A.Vol. VI, p. 40). ولكن يحتمل أنه قد رُقِّي من وظيفة رئيس إصطبل «سيتي الأول» وسائق عربة جلالته إلى وظيفة «نائب الفرعون» في «كوش» في خلال حياة «سيتي»، كما يُستَدَل على ذلك من صلواته للملك «سيتي الأول» في «معبد وادي عباد» (L. D. III: Pl. 138 n)، وكذلك نجده قد قام بصلاة لسيده الجديد؛ حيث نجده قد أطلق عليه ابن الملك صاحب «كوش» ورجل إهناسية (راجع Weigall, "Report on the Antiquities of Lower Nubia", p. 137 & Breasted. A. J. S. L, (1906) p. 29). ولما لم يكن لدينا تاريخ بعد أو قبل هذا التاريخ نجد فيه اثنين قد شغلا وظيفة «نائب الملك» في «كوش» في وقت واحد، فلا بد أن نعتبر أن «يوني» خلف «أمنمأبت» بعد إتمام معبد «بيت الوالي» ولكن كان ذلك في مدة اشتراك «رعمسيس» مع

«سيتي الأول» في الملك. وقد كان «يوني» يحمل كذلك لقب «رئيس المازوي» (الشرطة)، ولا عجب إذا حدثتْنا الآثار أن هذه الوظيفة قد تقلب فيها عدة أفراد في عهد «رعمسيس» الطويل، خلافًا لما ذكرنا، وها هم أولاءِ على حسب ترتيبهم التاريخي.

حقا نخت

كان يحمل الألقاب التالية: ابن الملك صاحب «كوش»، وابن الملك والمشرف على الأراضي الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الفرعون، ورسول الفرعون في الأرض كلها، والأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري.

«باسر الثاني» بن «منمس»

وكان يحمل الألقاب التالية: ابن الملك صاحب «كوش» والمشرف على الأراضي الجنوبية، كاتب الملك، «باسر» بن «منمس» ابن الملك (L. D. III, Pl. 196).

ستاو

عُثر له على نقش مؤرَّخ بالسنة الثامنة والثلاثين من حكم الفرعون «رعمسيس الثاني» في «أبو سمبل» ذُكر عليه أن «ستاو»، وكان يحمل الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والحاكم … ابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على الأراضي الجنوبية، ومدير بيت «آمون»، وكاتب الملك (Breasted, A. J. S. L. (1906) p. 26)، وابن الملك (A. S. Vol. XI. PP. 84)، كما كان كذلك يحمل الألقاب الأخرى التالية: حاكم المدينة (Randell Maciver, Ibid I, p. 47)، ومدير أراضي الذهب الخاصة برب الأرضين (Ibid p. 114.)، ومدير أراضي الذهب الخاصة «بآمون»، وحامل المروحة على يمين الفرعون، والمشرف على الخزانة، ومدير عيد «آمون»، والمشرف على أراضي الذهب (A. S. Vol. XI, PP. 77–81)، ورئيس كهنة … ومدير القصر (راجع L. D. Text. Vol. V, p. 165). وآخر نقش مؤرَّخ لولاية هذا النائب كان في السنة الثالثة والستين من حكم «رعمسيس الثاني».

مس سوي

وفي عهد «مرنبتاح» كان «مس-سوي» يشغل وظيفة «نائب الملك» في «كوش»، وكذلك في عهد كل من الملك «أمنمسس» (١٢١٥ق.م) و«سيتي الثاني» (١٢٠٩–١٢٠٥ق.م). وكان يحمل الألقاب التالية: ابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على الأراضي الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الفرعون، وكاتب الفرعون، والواحد المختار صاحب الأرض الجنوبية (L. D. III, p. 176 G).

سيتي

وفي عهد الفرعون «مرنبتاح-سبتاح» (١٢١٥–١٢٠٩ق.م)، كان يشغل هذا المنصب موظف يُدعَى «سيتي»، وقد كان يحمل فضلًا عن الألقاب العادية التي يحملها في العادة «ابن الملك» الألقاب التالية: «الكاتب الملكي لخطابات الفرعون (له الحياة والسعادة والصحة)، ومدير الإصطبل، وعينا ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، والكاهن الأعظم لإله القمر «تحوت»، ورئيس الخزانة، والمشرف على كتاب رسائل بلاط قصر «رعمسيس مري (؟) آمون» في البلاط (راجع A. S. Tom. X, p. 132)، والمدير العظيم لبيت الفرعون. وآخِر أثرٍ له أُرِّخ بالسنة الثالثة من حكم «سبتاح» (De Morgan, “Cat. Mon.” Vol. I, p. 86, No. 29).

«حوري الأول» ابن «كاما» (؟)

وكذلك تولى هذه الوظيفة في حكم «سبتاح» نفسه، نائب ملك يُدعى «حوري»، فقد وُجد له نقش مؤرَّخ بالسنة الثالثة من حكم هذا الفرعون، ويحمل الألقاب التالية: «السائق الأول لعربة جلالته، ورسول الفرعون لكل أرض، والذي يضع الرؤساء في أماكنهم، والذي يُرضِي جلالته، «حوري» بن «كاما» المرحوم، الموظف بإصطبل «سيتي الأول» الخاص بالبلاط (Randell Maciver ibid I, 38)»، وآخر نقش مؤرَّخ لهذا الحاكم كان في السنة السادسة، وهو النقش الذي يُشير إليه بوصفه ابن الملك صاحب «كوش» (Ibid p. 36, Pl. 12).

حوري الثاني

وخلف «حوري الأول» «حوري الثاني»، والظاهر أنه كان يعمل في حكم «رعمسيس الثالث»، ولكن من المؤكد أنه كان يشغل وظيفة «نائب الملك» في عهد «رعمسيس الرابع» (١١٦٧–١١٦١ق.م) ومن المحتمل كذلك أنه كان لا يزال في عمله نائبًا للملك في بلاد «كوش» في عهد «رعمسيس الخامس» (١١٦١–١١٥٧) (راجع De Morgan, Ibid. I, p. 84). والمشرف على أرض الذهب الخاصة بالإله «آمون رع» ملك الآلهة (J. E. A. Vol. VI. p. 50).

ونتاوات

والظاهر أن النائب الذي خلف «حوري الثاني» وهو «ونتاوات» كان ابنه، ويمكن الحكم بذلك من نقش وُجد في «سمنه»، وكان يشغل وظيفته في عهد «رعمسيس السادس» والسابع والثامن، (١١٥٧–١١٤٢ق.م)، وألقابه هي: ابن الملك صاحب «كوش» والمشرف على أراضي ذهب «آمون رع» ملك الآلهة، والكاهن الأول للإله «آمون» صاحب «خنوم واست» وحارس الباب، ومدير بيت «آمون» في «خنوم واست» (Legrain, “Statues”, Vol. II, p. 25–26)، والكاهن الأكبر «لآمون رعمسيس» (Maspero, “Momies Royales”, p. 767). ورئيس إصطبل البلاط، والأول (عند) جلالته (Randell Maciver Ibid. p. 79).

رعمسيس نخت

والظاهر أن «رعمسيس نخت» كان يشغل وظيفة نائب الفرعون في عهد «رعمسيس التاسع» (١١٤٢–١١٢٣ق م)، وكان يحمل ألقاب هذه الوظيفة العادية: «ابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على الأراضي (؟) وحامل المروحة على يمين الفرعون، وكاتب الملك» (راجعIbid. p. 44. Randell Maciver).

بانحسي (أي العبد)

والظاهر أن الفرعون كان يُعيِّن بعض حكام السودان من بين أبناء البلاد أنفسهم، وكان الواحد منهم يفتخر بلونه، ولدينا «بانحسي» ومعناه «العبد»، كان يتولى مهام أمور هذه

الوظيفة في عهد «رعمسيس الحادي عشر»، فقد وُجد له نقش مؤرَّخ بالسنة الثانية عشرة، ويحمل الألقاب التالية (راجع Turin Papyrus: Pleyte & Rossi, "Papyri de Turin", p. 87, Pl. LXVI): حامل المروحة على يمين الفرعون، وكاتب الملك، وقائد الجيش، ومدير مخازن الغلال، «ابن الملك صاحب «كوش»، والمشرف على الأراضي الجنوبية، والقائد، والرئيس الأكبر للخزانة.» (Lieblein, Rec. Trav. Vol. I, p. 141)، وكذلك كان يُلقَّب الأمير الوراثي، والحاكم، ومدير بيت «آمون رع». وآخِر تاريخ له معروف حتى الآن هو «السنة السابعة عشرة من عهد الفرعون «رعمسيس الحادي عشر»» وقد ذُكر فيه بلقبه ابن الملك صاحب «كوش» (Pleyte & Rossi, Ibid. p. 89. Pl. LXVI).

حري حور

خلف «بانحسي» في نيابة «كوش» «حري حور» الذي تمكَّن فيما بعدُ من اغتصاب العرش من آخر الرعامسة الضعفاء، وكان يحمل الألقاب التالية قبلَ تولِّيه العرش: رئيس كهنة «آمون رع»، وابن الملك صاحب «كوش»»، والمشرف على مخازن الدولة، والرئيس الأعلى للجيش، ومدير كل أعمال آثار جلالته، وحامل المروحة على يمين الفرعون (راجع Gauthier, L. R. III, p. 233)، ويُلحظ هنا مما سبق في النقوش، أن هذه الوظيفة كانت تُمنَح في بادئ نشأتها؛ أي في أوائل الأسرة الثامنة عشرة إلى رجال ذوي تجارب حربية كما نَلحَظ ذلك في نهايتها، فقد كان القائمون بها رجالًا ممَّن يحملون ألقابًا حربية، على أنه في نهاية «الأسرة الثامنة عشرة» وفي «الأسرة التاسعة عشرة»، والجزء الأول من «الأسرة العشرين» كان يَشغَلها رجال إداريون، لهم بعض التجارب الحربية، فقد كان تحت تصرُّف الحاكم بعض فِرَق من الجنود كافية لقمع أيِّ عصيان أو ثورة تقوم في هذه البلاد الهادئة الشاسعة، ولكن في خاتمة الأسرة العشرين يَظهَر أن بلاد السودان كانت تُريد أن تُضعِف من النفوذ الفرعوني في أصقاعهم؛ ولذلك كان لزامًا على الفرعون أن يُعيِّن جنديَّ ميدانٍ نائبًا عنه في حكم هذه البلاد ليقبِضَ على زمام الأمور ويَقضِيَ على الثورات في مهدها قبل أن يستفحل خطرُها.

باي عنخي

وقد خلف «حري حور» في حكومة السودان ابنه «بي عنخي» (١٠٩٠–١٠٨٥ق.م) عندما استولى والدُه على عرش مَلِك الفراعنة، وكان «بي عنخي» يحمل الألقاب التالية: حامل المروحة على يمين الفرعون، وكاتب الملك، وقائد الجيش، وابن الملك صاحب «كوش»، وحاكم البلاد الجنوبية، والكاهن الأكبر للإله «آمون رع»، والمشرف على مخازن غلال الفرعون (راجع Gauthier, Ibid. p. 238). على أن «بي عنخي» نفسه لم يَعتَلِ قط عرشَ المُلْك، ولكن الذي خلف «حري حور» في حكم البلاد هو «بينوزم الأول».

مكانة نائب كوش وحدود وظيفته

وبعد «بي عنخي» أمسى هذا اللقب في زوايا النسيان ولم يستعمل بعدُ إلا في حالتين كان يُمنَح فيهما بوصفه لقبَ شرف كما سلف ذكرُه، غير أن ذلك كان لا يعني أن أعمال «نائب الملك» في بلاد النوبة، قد بَطلتْ؛ إذ الواقع أن دائرة الأقطار السودانية كانت منذ تلك اللحظة وما بعدها في أيدي أمراء كانوا قانونًا أولاد ملوك شرعيين؛ ومن ثَمَّ لم يكن هناك داعٍ لبقاء لقب «ابن الملك» ضمن الألقاب التي كان يحملها حاكم السودان. ونستطيع مما لدينا من الوثائق المنقوشة على الآثار أن نقرر أن الأقطار السودانية قد تمصَّرتْ تمصيرًا تامًّا في خلال الخمسين والأربعمائة سنة التي تولَّى نوَّاب الملك فيها إدارة السودان الذي قد أصبح جزءًا لا يتجزَّأ من مصر، وقد زاد تمصير هذه الأقطار أكثر في الفترة التي تقع بين عامي (٧٢٠–٥٠٠ق.م) كما يدل على ذلك آثار ملوك السودان في تلك الفترة. وقد رأينا أن الألقاب الرئيسة التي كان يَحمِلها الحاكم المصري للأقطار السودانية كانت أولًا «ابن الملك»، ثم بعد عهد «أمنحتب الثالث» — أو يحتمل في عهد والده «تحتمس الرابع» — لقب هذا الحاكم «ابن الملك صاحب كوش»، وكان يُضاف إلى هذا اللقب أحيانًا «المشرف على الأراضي الجنوبية» أو ما يُقابِله. ومنذ عهد «أمنحتب الثالث» كذلك نجد أن نائب الفرعون في السودان كان يحمل لقب «حامل المروحة على يمين الفرعون»، غير أن هذا اللقب لم يكن وقفًا عليه، بل كان يحمله موظفون من عظماء الدولة. وكذلك من الألقاب التي كان يحملها نائب الفرعون ولم تكن وقفًا عليه: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري والسمير الوحيد. حقًّا كانت هذه الألقاب تحمل معناها الحقيقي في عهد الدولة القديمة. وبقيت كذلك حتى عهد الدولة الوسطى، ولكنها في عهد الدولة الحديثة قد

استُعملت بمثابة ألقابَ شرف كالألقاب والأوسمة في العهد الحاضر. ومما له أهمية عظمى، الألقاب التي كان يشغلها هؤلاء النواب قبل تولِّيهم حكومة السودان رسميًّا؛ وذلك لأن هذه الألقاب تُعطينا فكرة عن حياة أولئك النواب الحكومية، قبل تولِّيهم حكومة بلاد السودان، والواقع أننا إذا فحصنا هذه الوظائف اتضح أن عددًا عظيمًا من حامليها كانوا في خدمة الفرعون الشخصية، وكان خمسة منهم يشغلون أولًا وظيفة «كاتب الملك» وهي وظيفة ثِقة كانت على جانب عظيم من الأهمية في عهد الدولة الحديثة، ويلاحظ كذلك أنه منذ تولي «توري» وظيفة «ابن الملك» في «السودان» لم نجد واحدًا ممن تولى هذه الوظيفة كان له سلطة حربية في هذه الأقاليم بل كانت السلطة الحربية موكَّلة إلى رئيس رماة «كوش» الذي كان تحت إدارة نائب الملك مباشرة، وكان مسئولًا عن حفظ النظام في السودان، ومن ذلك نفهم أن الفرعون حينما كان يُعيِّن نائبًا له في «بلاد السودان» كان أهم ما يرمي إليه في اختياره أن يكون رجلًا إداريًّا حازمًا يمكنه أن يجمع له الضرائب والمحاصيل، ولذلك كان ينتخبه من أقرب المقرَّبين إليه ممن اشتُهروا بحسن الإدارة والذكاء والإخلاص في العمل لشخصه، فلا يقوم بأية دسائس ضده أو يحاول أن يمتصَّ دماء الأهلين بفرض الضرائب الفادحة عليهم لمنفعته الشخصية، وكان من الطبيعي إذن عندما كان الفرعون يبحث عن شخص تجتمع فيه كل هذه الصفات الحسنة أن ينتخبه من أولئك الأفراد الذين في خدمته الخاصة ممن عَرَف مقدرتَهم وأخلاقَهم عن كَثَب، وعلى ذلك كان كل نائب للملك في السودان يُعيِّنه الفرعون بنفسه، لهذا لم يجعل الوظيفة وراثية، والظاهر أن بقاء هذا النائب وعزله كان على حسب رغبة الفرعون، ولكنه كان في العادة يبقى مدة حياته فيها أو حتى يتولى مَلِك جديد عرش البلاد، قد يُفضِّل تعيينَ نائب آخَر غير الذي نصبه سلفه. ومع ذلك فقد رأينا كثيرًا من الملوك، أبقَوا النواب الذين عيَّنَهم سلفُهم. والظاهر أن بعض النواب في عهد «رعمسيس الثاني» وكذلك النائب «سيتي» في عهد «مرنبتاح-سبتاح» قد أغضَبُوا الفرعون فعَزَلَهم (راجع J. E. A. Vol, VI, p. 84)

ومن المدهش أنه لرغبة الفراعنة الظاهرة في تعيين أفراد في هذه الوظيفة ممن لهم علاقة شخصية بالملك قد بقيت هذه الوظيفة حتى عهد «حري حور» لا يُعيَّن فيها ابن ملك حقيقي، والسبب في خروج «حري حور» على هذا التقليد يمكن معرفته من الألقاب الأخرى التي كان يحملها ابنه، وهي «كاهن آمون» الأكبر، وقائد الجيش الأعلى، ومن ذلك نعلم أن السلطات الروحية والحربية والمالية قد تجمَّعتْ كلُّها تحت رقابة الملك وابنه مباشرة،

وتلك خطة حكيمة سليمة وسياسة دقيقة جَرَتْ عليها البلاد المصرية في تلك الفترة من تاريخها بالنسبة لأملاكها في الخارج، ولكن ضعف الإدارة في الداخل بسبب الانغماس في اللذَّات ووَهن عزائم ملوكها أدَّى إلى اغتصاب رئيس الكهنة المُلْك. وقد كان بدوره يُريد ألَّا يَقَع فيما وقع فيه أسلافُه فعمل على جمع السلطة كلها في يده هو وأسرته.

الإمبراطورية المصرية في آسيا

تحدثنا في الفصل السابق عن نفوذ مصر في إقليمَيْ بلاد النوبة والسودان (كوش)، وكانا يؤلِّفان جزءًا من وادي النيل الذي تسيطر عليه مصر وقتئذٍ، ولا بد لنا الآن من إلقاء نظرة خاطفة على ما كان لمصر من سلطان ونفوذ في الأقاليم الآسيوية المتاخمة لها، وهي الأقاليم التي فتحها فراعنة مصر في «الأسرة الثامنة عشرة». وإذا رجعنا إلى الوراء قليلًا علمنا أن فراعنة مصر كانوا يعملون منذ الدولة الوسطى على تأسيس إمبراطورية مصرية في الأصقاع الآسيوية المجاورة للكنانة. وقبل أن نبيِّن مدى التوسع المصري ونفوذه اللذين أحرزهما فراعنة «الأسرة الثامنة عشرة» في آسيا يجب أن نفهم المقصود من كلمة إمبراطورية في تلك الأزمان القديمة بالنسبة لمعناها الحديث؛ حتى يتسنَّى للقارئ أن يفهم موقف مصر في هذه الأقاليم الشاسعة ويعرف كيف بسطت سلطانَها على تلك الأصقاع، وسنستنبط ذلك مما فصلنا القول فيه من قبل.

ولا نزاع في أن أول عاهل أسَّس بنيان هذه الإمبراطورية على قواعد ثابتة هو الفرعون «تحتمس الثالث»، إذ كانت رقعة فتوحه تنبسط من أعالي نهر دجلة والفرات شمالًا وتمتد جنوبًا حتى الشلال الرابع.

(١) درجات الحكم الإمبراطوري

وكلمة إمبراطورية في معناها العام تعني: درجة ما من السلطان والنفوذ يعترف بهما سكان البلاد الأجنبية المقهورة على أمرها للأمة الغالبة صاحبة القوة. ولكن السؤال الذي يُهمُّنا هنا هو: ما مقدار هذا النفوذ وما حدوده؟ والبحوث الحديثة تدل على وجود ثلاث درجات من النفوذ الاستعماري يُطلَق على كل منها نفوذ إمبراطوري. فالحكم الإمبراطوري

في أدق معانيه وأعلى درجاته كما يفهمه العالَم الحديث وبخاصة فرنسا وإنجلترا يعني التسلُّط على إقليم أو عدَّة أقاليم بوساطة قوات من الجنود تُقيم فيها في جهات مختلفة، هذا إلى إدارة شئونها الداخلية المباشرة بموظفين وعمال تنصبهم الدولة المسيطرة، وهذا الصنف من النظام الإمبراطوري يبلغ الكمال عندما يصبح سكان هذه الأقاليم خاضعين للتجنيد الحربي كما يصير نظامهم المدني وفق نظام الدولة صاحبة السيادة فيجري على سُنَّتِه أهل هذه الأقاليم الخاضعة. غير أننا إذا رجعنا إلى العهود القديمة من التاريخ نجد أن هذا النظام الإمبراطوري الذي حدَّدنا معانيَه لم يكن معمولًا به في عهد أية دولة من الدول القديمة التي سبقت عهد الإسكندر الأكبر، بل في الواقع لم يتحقق إلا جزئيًّا في عهد الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث.

والدرجة الثانية من درجات الحكم الإمبراطوري أقل تنسيقًا من السابقة؛ إذ كانت تتمثل في ارتباط دائم بين الدولة صاحبة السيادة وبين الأقاليم التي تنشر سلطانها عليها بوصفها تابعة لها. وهذه التبعية أو التسلط كان لا يأتي عن طريق الاحتلال الشامل بجنود الدولة المسيطرة أو بإدارة شئونها المباشرة، بل كان يأتي عن سبيل الفزع والخوف من التسلط عليها بالغزو من جهة، ومن جهة أخرى بالحاميات التي توضع في مختلف المدن الكبيرة يشد أزرها ممثلون من قبل الإمبراطور يشرفون عن كثب على نظم البلاد الداخلية ومن يحكمونها من الأمراء المواطنين.

أما الدرجة الثالثة من درجات الحكم الإمبراطوري فكانت تنحصر في استئثار الدولة القوية بمدِّ دائرة نفوذها المنفرد على الأقطار الخاضعة لإرادتها، وكان كل ما تبتغي الدولة المسيطرة من أهلها هي الضرائب وكانت لا تُجبَى بحاميات أو ممثلين، وكانت عرضة للانقطاع من وقت لآخر، وعندئذٍ كانت تحصل بالغزو أو بمجرد التهديد والخوف في كثير من الأحيان.

وإذا أردنا الآن أن نحدد مكانة الإمبراطورية المصرية في آسيا بالنسبة لهذه الدرجات الثلاث من نظام الحكم الإمبراطوري فإنا بلا نزاع نخرجها من الصنف الأول كلية، وذلك عندما نفحص ممتلكاتها في آسيا ومقدار نفوذها فيها. وينحصر كلامنا هنا على الإمبراطورية المصرية إلى ما قبل عهد البطالمة. وقد يكون من المسلَّم به أن احتلال جنوبي سوريا نهائيًّا وأعني بذلك فلسطين الأصلية حتى «عكا»، وهو الجزء الذي فتحه «تحتمس الثالث» ثم فُقد في عهد «إخناتون» وأُعيد لمصر ثانية في عهد «سيتي الأول» يُعدُّ احتلالًا

إقليميًّا بالمعنى الذي نفهمه الآن، غير أنه على الرغم من أن عددًا قليلًا من الحكام المحليين الذين ذُكروا في رسائل «تل العمارنة» في عهدي الفرعونين «أمنحتب الثالث» و«إخناتون» كانوا يحملون أسماء مصرية، وأن بعض الأراضي في «فلسطين» قد أصبحت ضمن أملاك الفرعون نفسه أو في يد الكهنة فإن إدارة هذه الأصقاع في مجموعها كانت قد بقيت في يد حكام من الأهالي الأصليين بطريقة غير مباشرة، ومع ذلك كانت توجد حاميات مصرية وممثِّلون لكَبْح جِمَاح أي عصيان. وكان رجال هذه الحاميات على ما يظهر من الجنود المرتزقة بوجه عام أو مجرد مجندين ممن جندهم الأمراء المحليون، ومع ذلك نستخلص أنه حتى في «فلسطين» لم تكن الإمبراطورية المصرية في عهد «الأسرة الثامنة عشرة» قد وصلت إلى المرتبة الثانية من مراتب التسيطر الإمبراطوري كما نفهمه الآن. والواقع إذن أنه — على قدر ما وصلت إليه معلوماتنا — لم تكن الدرجة الأولى من الحكم الإمبراطوري معروفة، كما أنها لم تصل إلى الحالة التي يكون فيها الأهلون مشتركين في الحكم بمثابة مواطنين في غربي آسيا حتى عهد الدولة الآشورية الأخيرة. فالدول التي قامت في «مسوبوتاميا» قديمًا وهي السومرية والبابلية، والآشورية لم تصل واحدة منها في استعمارها إلى أكثر من الدرجة الثانية أو بتعبير أدقَّ لم يتعدَّ سلطان واحدة منها أكثر من نفوذها المنفرد فقط على الإقليم الخاضع لها؛ ولذلك يُعدُّ نظام الدرجة الثانية من الحكم الإمبراطوري من ميزات عهد «الأسرة الثامنة عشرة» في ترقِّي فكرة الحكم الإمبراطوري، وإن كان هذا الرقي لم يَحِدْ بهم إلى تأسيس فكرة إمبراطورية كما نفهمها الآن.

الواقع أن الإمبراطورية المصرية في آسيا كانت نتيجة مباشرة لطرد الهكسوس الغزاة من وادي النيل، أو أنها قامت بتأثير طرد أولئك الأجانب الغاصبين. ولا نزاع في أن مصر منذ عهد الدولة الوسطى كانت قد بدأت في مدِّ سلطانها وتأليف إمبراطورية من نوع النفوذ الإمبراطوري الثالث في عهد أواخر فراعنة «الأسرة الثانية عشرة» كما فصَّلنا القول في ذلك (راجع الجزء الثالث، إلخ)، غير أن هذا التقدم في سبيل تمكين هذه الإمبراطورية قد عاقه ما حلَّ بالبلاد من انحلال من جرَّاء غزو الهكسوس وضعف ملوك «الأسرة الثالثة عشرة» على الرغم من وجود نفوذ لهم في فلسطين، ولذلك أصبح موضوع تأسيس إمبراطورية مصرية وقتئذٍ في آسيا أمرًا مستحيلًا، ولكن عندما هدأت ثائرة الغارات التي شنَّها هؤلاء الهكسوس وهبَّ المصريون في وجوههم وطردوهم من أرض الكنانة. فُتحت الطريق أمام المصريين ثانية لتأسيس إمبراطورية جديدة في آسيا. وعلى الرغم من أن الغارات التي

قام بها ملوك «الأسرة الثامنة عشرة» في أول الأمر مخترقين بها جبال الكرمل حوالي عام ١٥٨٢ق.م، قد لا يكون الدافع لها في الأصل إلا الانتقام من الهكسوس، فإنه مما لا شك فيه أن دافع القيام بها كان لحدٍّ ما تلاشي مد الهكسوس الذي انعكس فصار آخذًا في الجزر بصورة بارزة، وأعني بذلك وقوف موجات غزو الهكسوس التي لم تكن في الواقع إلا جزءًا من المدِّ العظيم الذي كان يَفِدُ من الشرق وحمل معه الكنعانيين إلى سوريا. وعلى أية حال فإن المصريين كانوا بطبيعة الحال قد تعلَّموا من محاربة الهكسوس لهم ما كان ينتظرهم في سوريا، وكيف يمكنهم الاستيلاء عليها. وقد كان ظهور المصريين في الجنوب الغربي لآسيا في عهد الفرعونين «أحمس الأول» و«تحتمس الأول» مقدمة لتمكين مُلْكهم هناك؛ إذ لم ينشأ في عهدهما ملك وطيد الأركان يمكن أن يُطلَق عليه اسم إمبراطورية حتى من الدرجة الثالثة التي وصفناها. إذ الواقع أن الحملات التي قاما بها كانت غزوات ضعيفة كما كانت العادة المتبعة في آسيا منذ الأزمان العتيقة، فلم نسمع بالاستيلاء على أماكن حصينة مثل «غزة» و«عسقلان» أو «مجدو»، وهي المدن التي كانت تقع في طريق الجيوش الغازية، بل كل ما وصلت إليه معلوماتنا هو الإغارة على قبائل «شاسو» (البدو) الذين كانوا يسكنون الصحراء وقتئذٍ، أو على أهالي «رتنو» في جبال الجليلي، وكذلك نسمع بفرض ضريبة على البلاد الفينيقية حتى مدينة «إرواد»، وعلى القبائل التي كانت تقطن في الداخل في شمالي بلاد «نهرينا» ومقاطعة «حلب». ومما هو جدير بالذكر هنا أن كثيرًا من الجزية كانت على ما يظهر تُرسَل من تلك البلاد النائية لمجرد الخوف من إغارة الفرعون عليها، ولم يكن هذا بدوره يقوم بها إلا عند شبوب ثورات أو إعلان عصيان.

وقد ظلت الحال كذلك إلى أن انفرد «تحتمس الثالث» بالحكم، وعندئذٍ أخذ في تأسيس إمبراطوريته في أقاليم آسيا بصورة ثابتة وسياسة مرسومة. وبالاستيلاء على «غزة» و«مجدو» والأماكن الحصينة الأخرى في فلسطين، تم لهذا الفرعون ضم الجزء الجنوبي الأقصى من سوريا، ويشمل معظم «فينيقية»، وذلك في السنة الثلاثين من حكمه، إذ نسمع وقتئذٍ بتنصيب حكام جدد لحكم الأصقاع، وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن هؤلاء الحكام كانوا من أصل مصري، كما أنه لا يمكننا أن نُقدِّر على وجه التحقيق مبلغ النفوذ العسكري الذي كان لمصر في هذه الجهات. وبعد انقضاء قرن من الزمان على عهد «تحتمس الثالث» نعلم من خطابات «تل العمارنة» التي كانت تَرِد على الفرعون من فلسطين أن الأمراء هناك كانوا يَشكون من سحب الجنود الذين كانوا معسكرين في الحاميات القائمة هناك، ولذلك لا نكون حائدين عن جادة الصواب إذا قررنا هنا أن هذه

الحاميات كانت تحتل تلك المعاقل منذ أن استولى عليها الفاتح العظيم «تحتمس الثالث» بعد حروب طاحنة وحصار مرير كما أسلفنا، وذلك يجعلنا نحكم بأن إمبراطوريته كانت من الدرجة الثانية من درجات الحكم الإمبراطوري، وأعني بذلك أنها كانت أقاليم يُدير شئونَها حكام من أهل البلاد نفسها نصبهم الفرعون برضًا منه لولائهم له، وقد قوَّى هذا الولاء وجود بعض الحاميات والعمال المباشرين الذين عيَّنهم الفرعون من قِبَله هناك. وإذا أردنا أن نرسم خطًّا فاصلًا بمثابة حدٍّ شمالي لهذه الأقاليم الإمبراطورية، فإنه على ما يَظهَر كان يبتدئ من ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالي «إرواد» ثم ينحني إلى الجنوب عند انفصال نهر «العاصي» عن نهر «الأردن» ثم يأخذ في التلاشي في الصحراء الشرقية على مسافة قليلة من جنوبي «دمشق».

والواقع أن «تحتمس الثالث» عند ختام حكمه كان قد أسس إقليمًا إمبراطوريًّا آخَر فوق الأقاليم السالفة الذكر، غير أنه على ما يَظهَر كان من الدرجة الثالثة؛ أي إنه كان إقليمًا يدخل في دائرة النفوذ المصري المحض وحسب؛ أي إنه إذا دخله أي جيش آخَر غير الجيش المصري يكون عُرْضة للتأديب والعقاب الصارم، في حين أن الجيش المصري كان له الحق في أن يسير في هذا الإقليم حُرًّا ويضرب الضرائب على القُرى والمدن التابعة له. وقد كان لزامًا على الممالك العظمى الأخرى المتاخمة له أن تحترم حقوقه المطلقة، مثل مملكة «بابل» الكاسية (كاردونياش)، ودولة «متني»، وقد كانتا أصحاب سيادة إلى أن استقلت بلاد «آشور» الواقعة شمالي «مسوبوتاميا». وكذلك كانت بلاد «خيتا» آخذة في أسباب النمو حتى امتدت إلى ما وراء جبال «توروس»، ولكنها كانت منحصرة في «كابودشيا» بآسيا الصغرى، على الرغم من قيامها ببعض غارات في الجنوب. وكان الجيش المصري يقوم بحملات تأديبية في جهات مختلفة من هذه الأقاليم السورية الشمالية، ولم يقتصر ذلك على شمالي «فينيقية» والجزء الأسفل من نهر العاصي، بل امتدت هذه الحملات إلى بلاد «نهرين»، حتى وصلت إلى بلدة «تونب» التي جاء ذكرها في النقوش المصرية. وليس في استطاعتنا تعيين حدود لهذا الإقليم المبهم الذي يحتمل أنه كان يشمل «كليكيا» أيضًا. وإذا كان «تحتمس الثالث» قد جدَّ في فتوحه فعلًا حتى الشمال الشرقي إلى أن وصل إلى «قرقميش»، فلا يحتمل أنه تخطَّاها، بل قد ترك إقليمَيْ «عنتاب» و«ماراش» دون أن يقتحمهما، فكان يسيطر عليهما رؤساء مواطنون من «خيتا» الذين أظهروا ولاءهم للفرعون بما كانوا يُرسِلونه له من الهدايا كما ذكرنا آنفًا. غير أن الجزء الواقع شمالي «قادش»، وهو الذي على ما يَظهَر لم يتدخل «تحتمس الثالث» في شئونه قبل السنة الثانية

والأربعين من حكمه، ثم كان نفوذه عليه بعد ذلك لا يتعدى ضرب الضرائب، كان يُعدُّ بالنسبة للحكم الإمبراطوري في الدرجة الثالثة، إذ لم تكن تحتله حاميات ثابتة كما لم يكن ممثلو الفرعون هناك من الموظفين الذين لهم دخل مباشر في حكومة الإقليم. والواقع أن سيادة مصر على وسط سوريا الشمالي وشماليها وقتئذٍ كانت تشبه سيادة الإمبراطورية الإنجليزية على الأفغانستان قبل الحرب العالمية الأولى.

وقد بقيت هذه الإمبراطورية المصرية المبهمة الحدود، المفككة النسج، على ما هي عليه سليمة مدة حكم الفراعنة الثلاثة الذين خلفوا «تحتمس الثالث» مرتكزة على ما أحرزه لها هذا الفرعون من سمعة وقوة. وتدل شواهد الأحوال على أن سوريا كانت في سلام من أقصاها إلى أقصاها في عهد «أمنحتب الثالث»، وكذلك دلت النقوش على أنه قد وضعت في عهده أسس علاقات سليمة متصلة بين وادي النيل «ومسوبوتاميا»، وبخاصة ما كان يبذله هذا الفرعون ومِن قَبلِه «تحتمس الثالث» لتمصير السوريين بتعليم أبناء أمرائهم في مصر. وهذه المحاولات الثقافية قد اقتفتْ أثرَها فيما بعدُ الدول العظمى حديثها وقديمها، فقد قامت «روما» بعمل هذه التجربة، وكذلك حاولت الدولة العثمانية نفس الطريقة، وقَفَتْها فرنسا، وأخيرًا اتجهت إنجلترا وروسيا هذا الاتجاه نفسه، غير أن كل هذه التجارب عامة قد باءت بالفشل؛ إذ الواقع أن الدُّبَّ الصغير كان عندما يعود إلى مأواه الذي نشأ فيه يذكر الحِيَل التي علَّمه إياها صيَّادُه، ولكنه كان لا يذكرها بأي نوع من الشكر بل بالحقد والبغضاء فتكون النتيجة عكسية.

ولا نزاع في أن هذه التجربة لم يَجْنِ ثمارَها «أمنحتب الثالث» أيضًا. وقد بدأ منذ السنين الأولى من حكم «إخناتون» تدهور الإمبراطورية المصرية في آسيا، ويرجع الفضل في كشف النقاب عن ذلك إلى خطابات «تل العمارنة»؛ إذ سهلت علينا تتبُّع سياسة مصر الخارجية في هذا العَهْد عن كَثَب أكثر من أيِّ عهد آخر في التاريخ المصري، وسنفصِّل القول في ذلك فيما بعد، وبخاصة قصة المدن التي كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى من أملاك مصر في ذلك العهد بسبب تقصير «أمنحتب الرابع» في إمداد حامياتها، أو إرسال الحملات من وقت لآخر إلى تلك الأصقاع، وانفضاض حكام الإمارات المواطنين من حوله والانضمام إلى العدو بعد أن طلبوا إلى الفرعون النجدة مرارًا وتكرارًا، هذا بالإضافة إلى قيام دول جديدة قوية الشوكة في آسيا لا تَجِد مَن يقف في وجهها أو يَكبَح جِماحَها في الشمال والوسط. ومن المحتمل جدًّا أن سبب هذا التدهور يقع على عاتق «إخناتون»

نفسه، وإن كان بعض اللوم قد يقع على عاتق مَن سبقه. والأمر الذي يدعو إلى الدهشة والعجب أن إمبراطورية عظيمة مثل هذه قامت على نظم ساذجة، كل ارتكازها على سِنان حِراب جنود مرتزقة وغير مرتزقة وعلى حكام ليس لهم من الأمر شيء يُذكَر في إدارة تلك الأصقاع قد بقيتْ قائمة طيلة عهد أربعة ملوك ثم هَوَتْ في عهد خامس مَلِك تولَّى عرشها.

وتفسير ذلك أن مصر قد كسبت ممتلكاتها الآسيوية وقبضت على زمامها في فترة كانت قد انحلَّتْ فيها دول آسيوية عظمى قديمة، ثم أخذت تقوم على أنقاضها دول أخرى فَتِيَّة ناشئة؛ ولذلك لما سار «تحتمس الثالث» بجيوشه في قلب سوريا لم تكن هناك دولة قوية تقف في وجه فتوحه إلا الدولة «الكاسية» المَهيضة الجناح المنحلة القُوى، ثم دولة «متني» (نهرينا) التي كان لا يُقام لها وزن وقتئذٍ، أما مملكة «خيتا» التي قضت على أسرة بابل العريقة في القِدَم فقد انزوت في إقليم «كابودوشيا» وقتئذٍ ولم تكن على استعداد لتَظهَر ثانية في ميدان السياسة أو في ساحة الحرب. هذا إلى أن «آشور» كانت آخذة في أسباب النمو، غير أنها لم تكن قد بلغت أَشُدَّها بعدُ، وكذلك كانت موجة هجرة الآراميين من العرب الساميين وقتئذٍ لا تزال في بدايتها نحو الشمال والغرب، يُضاف إلى ذلك ما كان «لتحتمس الثالث» من تأثير في نفوس هذه البلاد. وبعد انقضاء قرن من الزمان على عهد «تحتمس الثالث» أسس ملوك «خيتا» أسرة مهيبة الجانب قاد ملوكُها جيوشَهم إلى الجنوب ثانية، ثم أصبحت «آشور» دولة عظيمة الشأن على استعداد لمناهضتهم في غرب آسيا، وقد قامت بمحاولة جبارة في عهد ملكها «سالمنرر الأول» ١٢٨٠ق.م، لقطع طريقهم نحو الجنوب. أما الآراميون فقد تجمعوا وألَّفوا حكومة ثابتة حوالي دمشق، ومن ذلك نرى أن كلًّا من هذه الدول قد رسَّخت أقدامَها وثبَّتت مُلْكَها في آسيا أكثر من مصر في أي عهد من عهود سلطانها هناك. وقد كانت النتيجة المحتومة لذلك أن تراجعت مصر بسرعة خاطفة إلى أفريقية. وعندما تولى «حور محب» عرش الفراعنة كانت أملاك مصر السابقة في آسيا قد أصبحت في يد ملوك آسيويين. على أن هذه الممتلكات لم تكن قد ضاعت على مصر نهائيًّا؛ لأن الفراعنة الذين أتوا بعده أعادوا لمصر تلك الإمبراطورية التي كانت تسيطر عليها سيطرة إمبراطورية من الدرجة الثانية، وأعني بذلك «فلسطين» وجنوبي فينيقية، وكذلك أخذ الفراعنة في استعادة سلطان مصر في الجنوب على الإمارات الشمالية، غير أن هذا السلطان لم يكن ثابت الأركان بل كان وقتيًّا.

وإذا أردنا أن نعرف معنى الإمبراطورية المصرية ومبلغ أثرها على الأقطار التي كانت تحكمها، فإن ذلك لا ينطبق إلا على الإمبراطورية التي أسَّسها «تحتمس الثالث» في عهد

الأسرة الثامنة عشرة، وهي تلك الإمبراطورية التي يجب أن نتَّجِه إليها إذن ونفحصها من الوجهة الثقافية في مختلف صورها على ضوء ما فصلنا فيه القول من قبل.

(٢) إمبراطورية تحتمس الثالث والثقافة العالمية

والمعلوم لدى علماء الآثار المصرية أن أعظم انقلاب في الثقافة قد حدث في العهد الأخير من حكم «تحتمس الثالث»؛ إذ نشاهد أن المصانع والصور والزينات التي كانت آخذة في النمو والارتقاء باتزان وثبات مستمرَّيْن منذ عهد الدولة القديمة قد طرأ عليها أثر جديد مفاجئ مما نهض ببعضها وسار به قُدمًا بخُطًا واسعة في سبيل الرقي، كما نجد من جهة أخرى أن بعضها قد انحط وتلاشت معالِمُه. ولا أدلَّ على ذلك من ظهور منتجات جديدة في تلك الفترة إلى جانب فَيْض عميم من المنتجات الأجنبية التي يُعزَى بعضُها على وجه التأكيد والبعض الآخر على وجه الاحتمال إلى أصل سوري، في حين كان غيرها تنسب إلى أصل جزائري؛ أي إنه جُلب من جُزُر بحر «إيجة» المجاورة لمصر، أو قد تأثر بعضها بالثقافة الإيجية كما فصلنا في ذلك (راجع الجزء الرابع). وفي هذه الفترة ظهر كذلك على الآثار أسماء غير مصرية الأصل، يُضاف إلى ذلك أن بعض الآراء والأفكار الأجنبية أخذت تتسرب وتنمو في التربة المصرية، وكذلك نما العتاد الاجتماعي بسرعة وراجتْ سوق التَّرَف بدرجة لم يَسبِق لها مثيل، في حين أننا في نفس الوقت نلاحظ تقدُّمًا اجتماعيًّا يسير في غالب الأحيان جنبًا لجنب مع ازدياد في الرزق وسَعَة في العيش، وقد تبع مظاهر هذا الثراء المطَّرِد كثرة استخدام الجنود الأجنبية المرتزقة بسرعة لحماية مصالح الوطن مع التراخي في استخدام الجنود المصريين. ولا نزاع في أن هذه التغيرات وأثرها العظيم في حياة القوم يرجع في أصله إلى التوسع الإمبراطوري الذي جاء نتيجة لفتوح «تحتمس الثالث» في آسيا. والواقع أن ما تعلَّمه المصريون وشاهدوه في آسيا، وما جلبتْه جيوشهم من غنائم إلى مصر وما تدفَّق على الكنانة من خيرات الجزية التي كانت تُفرض على أمراء الولايات الآسيوية الخاضعة لها، وكذلك ما تدفق على مصر من أقاصي آسيا وبحر إيجة من أموال عن طريق التجارة بوساطة طرق كانت مغلقة منذ أزمان غابرة. كل هذه الأشياء المستحدثة مجتمعة قد تركت أثرها العميق بسرعة مدهشة على الثقافة المصرية مما تكلمنا عنه فيما سبق وما سنتعرَّض له فيما يأتي بعد.

تأثير الفتح المصري في سوريا

أما التأثير الذي أنتجه الفتح المصري في سوريا فإنه على قدْر ما وصلت إليه معلوماتنا من الكشوف الأثرية التي عملت حتى الآن في الأماكن الهامة من عهد الأسرة الثامنة عشرة لم يكن تأثيرًا متبادلًا في تلك الفترة؛ إذ إن الأماكن الأثرية التي كُشف عنها في فلسطين وفي سوريا يُرى فيها أثر مسح للثقافة المصرية بصورة بارزة، وبخاصة في جيزر، فنجد عددًا عظيمًا من الأشياء قد صُنعت في مصر أو صنعت في سوريا وصبغت بالطابع المصري، ولكن جزءًا ضئيلًا جدًّا منها كان يُنسب إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة أو الأسرة التاسعة عشرة، أما الجزء الأعظم فيُعزَى إلى التأثير الذي تركتْه مصر في هذه الجهات منذ القرن العاشر حتى القرن السابع قبل الميلاد.

والآن يتساءل المرء كيف يمكن تفسير كون تأثير الثقافة في عهد الأسرة الثامنة عشرة كان من ناحية واحدة؟ وحقيقة الأمر هي أن الثقافة المصرية في إبان عهدها الأول الإمبراطوري كانت أكثر نموًّا وأعظم شأنًا من الثقافة السورية، وقد كان من المنتظر أن يكون أثرها بينًا واسع النطاق بُعَيْد الغور على السوريين أكثر من أي تأثير سوري على مصر. وعلى الرغم من ذلك نجد الأمر معكوسًا، فقد كان أثرها في سوريا ضئيلًا وسطحيًّا. والتفسير الذي يمكن أن تُعزَى إليه هذه الظاهرة هو أن أعوان نشر الثقافة من المصريين في سوريا كانوا قلائل ولم يُبدوا في الواقع أي نشاط في هذه الناحية بخلاف أعوان نشر الثقافة السورية في مصر، والمقصود من ذلك أنه في الحين الذي كان يَفِد فيه على مصر جماعات كثيرة ليتخذوها موطنًا لهم، ولنشر تجارتهم في عهد الأسرة الثامنة عشرة، كان لا يُقيم في سوريا من المصريين إلا النَّزْر اليسير الذين لم يكونوا من طائفة التجار. ولا بد أن نستنبط من ذلك أن المصريين بعد فتحهم الأول قد قنعوا بما أصابوا من غنائم في بادئ الأمر، وابتعدوا عن هذا المُلْك الجديد الذي لم يَغرَّهم أو يُحفِّزهم إلى الهجرة والضرب في أرجائه الشاسعة المفعمة بالخير الوفير والرزق الواسع، ولا غرابة في ذلك؛ فإن المصري كان معروفًا عنه أنه لا يحب مغادرة مسقط رأسه، ولا يميل للمغامرات والسير في الأرض للتجارة واكتساب العيش.

ومما هو جدير بالملاحظة أن تأثير ثقافة الإمبراطورية في عهد الأسرة الثامنة عشرة يُفسر لنا بوجه خاص حقيقة تاريخية عامة وهي أن الثقافة المصرية في كل عصورها قد بقيت داخلية دون أن تُحدِث الأثرَ الذي كان يُرجَى منها في التقدم العالمي، اللهم إلا ما تسرب منها عن طريق أعوان من الخارج كانوا يَفِدون إليها ليَنهَلوا علومَها ويَستَقوا

من موارد حضارتها الأصلية، ثم يقومون بنشر ما تعلَّموه في بلادهم، ولم يُحاوِل المصري من جانبه نشرَ ثقافة بلاده في الخارج إلا أفراد قلائل؛ لأنه لم يكن ممن يميلون إلى المخاطرات وركوب الصعاب طلبًا للتجارة في الأقطار النائية، وقد يُعزَى ذلك إلى كُرْهِه التسلُّط الإمبراطوري.[١]

أما العهود التاريخية التي نجد فيها أثر الثقافة المصرية ظاهرًا منتشرًا في العالم المتمدين بصورة بارزة فأربعة، يُفصل بعضها عن بعض بفترات قد تكون طويلة أو قصيرة، كانت البلاد في خلالها قابعة في عُقْر دارها، منكمشة بين حدودها في وادي النيل. وهذه العهود الأربعة هي: (١) العصر المنوي الحديث (أي في خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر) ق.م. (٢) العصر الآشوري المتأخِّر (من القرن العاشر إلى القرن السابع) ق.م. (٣، ٤) العصران البطليموسي والروماني (وهما معًا من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن السادس بعد الميلاد). وعلى وجه عام، كانت مصر في عصرين من هذه العصور أو جزء منهما تابعة لنفوذ أجنبي، وفي أحد هذه العهود كانت تسيطر عليها أسرة أجنبية لها علاقة وثيقة بالبحر الأبيض المتوسط، أما في رابع هذه العصور وهو أقدمها (أي العهد المنواني الحديث فإنا لا نعرف الأحوال السياسية وقتئذٍ)، ولكن على الرغم من أن مصر كان لها في هذا العهد دولة آسيوية على وجه التحقيق، فإنه لم يكن لها أي سلطان على «كريت»، كما لم يكن لها جنود أو عمال في قبرص، ومع ذلك فإن هاتين الجزيرتين قد أنتجتا أشياء عِدَّة تُنسب إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية أكثر مما كانت تُنتِجه سوريا بأجمعها، كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على وفود أمراء البلاد الأجنبية في عهد «رخ مي رع». وقد كان الرأي السائد منذ الكشف عن مصنوعات مصرية أو مصنوعات متأثرة بالفن المصري في طبقات الحفر الذي عُمل في المنطقة الإيجية سواء أكان ذلك في الجُزُر أم في أرض بلاد اليونان نفسِها يميل إلى دحض الرأي المتفق عليه، وهو القائل بأن المصريين كانوا قومًا منكمشين في عقر دارهم، منعزلين عن العالم. وقد عزَّز هذا الرأي ما وَرَد في القصص عن السياح المصريين الذين كانوا يجوبون البلاد الأجنبية، هذا فضلًا عن المراسلات السياسية التي كانت تُتبادل بين مصر والأقاليم الآسيوية والتي اتُّخذت دليلًا لتعزيز هذا الرأي، ولكن الواقع يدل على أن الزعم القديم لا يزال قائمًا، وما وُجد من دلائل

[١] راجع: Ed. Meyer Gesh II, 1. p. 212ff. p. 212ff.

في إقليم بحر إيجة، يُعزِّز هذا القول ولا يدحضه؛ وذلك لأن المراسلات السياسية لا تدل كما قلنا على استيطان مصريين فعلًا في الخارج، وأما ما قيل عن القصص[٢] التي كان يقصها بعض أصحاب المخاطرات فلا تدل إلا على أن السياحة إلى الخارج كانت نادرة جدًّا، وأنها لم تكن مهنة محبَّبة للمصريين، أما فيما يخص المصنوعات المصرية التي وُجدت في المواقع الأجنبية فكانت بلا نزاع قد جُلبت إليها لا بالمصريين أنفسهم، بل على يَدِ تجار أجانب من الذين كان لهم مستعمرات أجنبية أُقيمت في شمال مصر، ومن ذلك نعلم أن الحضارة المصرية عندما كانت تتخطى وادي النيل كان الذين يُحضِرونها هم قوم من الأجانب لا من المصريين؛ إذ قد كان لزامًا على التجار المخاطرين وعلى الفاتحين الأجانب أن يأتوا إلى الكنانة نفسها، ويُوقدون مشاعلهم من نور مدنيَّتها المتعددة النواحي، الساطعة الإشراق، وهي تلك المدنية التي كان المصري يحافظ منذ بداية تاريخه حتى نهايته على إخفائها في جوفه وفي داخل بلاده.

وقد كان إخفاق الأسرة الثامنة عشرة في المحافظة على سلطانها الإمبراطوري في غرب آسيا أمرًا لا مفرَّ منه؛ إذ كان لزامًا على مصر أن تخضع لمشيئة أية دولة قوية إثْرَ ظهورِها على مسرح السياسة فتنزل لها عن مكانتها. على أن هذا القول في ظاهره قد يبدو غريبًا، ولكنا نتأكد من صحته إذا لم نحصر أفق نظرنا في عهد الأسرة الثامنة عشرة وحسب، وألقينا نظرة شاملة على كلٍّ من تاريخ الإمبراطورية المصرية في آسيا وتاريخ الإمبراطورية الآسيوية في مصر.

فقد دلت الأحوال على أن هناك ظاهرة ثابتة في التاريخ المصري، وإن شئتَ فقُل قاعدة دلَّتْ على صحَّتِها التجارب، وتتلخَّص في أن مصر لم يكن في استطاعتها أن تحتفظ بأي شيء في آسيا، أو أن أية مملكة أجنبية استطاعت أن تتملك مصر، اللهم إلا إذا كانت هذه أو تلك تملك في قبضتها إقليم شرقي البحر الأبيض المتوسط. وما نجده قد شذَّ عن ذلك يُعدُّ برهانًا على صحة هذه القاعدة. فقد كانت أول إمبراطورية ثابتة الأركان سيطرت على بلاد أجنبية بمصر هي دولة البطالمة الأُوَل الذين كان أسطولهم يبسط سلطانه على شرقي البحر الأبيض المتوسط حتى جُزُر «سيكليدز» شمالًا وغربًا حتى مدخل البحر الأدرياتي. وقد ظلت إمبراطوريتهم صاحبة نفوذ ما بقيت سلطتهم البحرية عزيزة الجانب، ولما

[٢] راجع كتاب الأدب المصري القديم جزء أول، ص٤٧، ١٠٠، ١٦١.

ازدادت قوة أسطول جزيرة «رودس» اختفت قوة البطالمة البحرية في آسيا الصغرى، وعندما ظهر الأسطول الروماني في عالم الوجود تلاشت قوة البطالمة البحرية في سوريا وأصبحت أثرًا بعد عين أيضًا. على أننا من جهة أخرى نعلم أن أول إمبراطورية ثابتة أجنبية قامت في مصر على يد أجانب هي الإمبراطورية الرومانية، غير أن هذه الدولة لم تؤسَّس إلا بعد أن أصبحت روما صاحبة السيادة على إقليم شرقي البحر الأبيض المتوسط، ولم يتسنَّ لها ذلك إلا بعد القضاء على قرصان «كريت» و«كليكيا»، ولم تفقد «روما» ولا خليفتها «بيزنطة» هذه الإمبراطورية إلا بعد أن فقدت سيطرتها على البحر.

وأحسن الأمثلة التي تُبرِهن على صحة القاعدة من الوجهة الأخرى نجدها في تاريخ الإمبراطورية الآسيوية التي استولت على مصر، فنرى أن قوة دولة آشور الجبَّارة لم يكن في مقدورها المحافظة على ما فتحتْه من الأقاليم في أفريقية أكثر من جيل واحد من الزمان، ويرجع السبب في ذلك إلى أنها قد احتلت مصر قبل أن تُخضِع «صيدا» تمامًا، وعندما أخضعت «صيدا» سيدة تجارة إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط لسلطان «آشوربانيبال»[٣] نلحظ أن دولة «آشور» على ما يظهر لم تحاول استخدام أسطولها أو أساطيل فينيقية في أغراضها الخاصة. وقد نتج عن ذلك أن أصبح الفرعون «بسامتيك» والحزب الوطني في مصر الذي يُعارِض الاستعمار أحرارًا في القيام بعمل مفاوضات مع أعداء «آشور» في البحر. وقد أفلح المصريون بمساعدة «جيجس» ملك «لديا» في إحضار سفن محملة بالرجال المحارِبين من آسيا الصغرى ساعدوهم على طرد الأشوريين من وادي النيل بعد أن كانوا قد احتلُّوه بضع سنين.

ولم يكن في استطاعة دولة «بابل» الجديدة أن تُثبِّت أقدامها في مصر قط. أما ملوك الفُرْس الذين خلفوا بابل فإنهم على إثر ظهورهم على ساحل البحر الأبيض المتوسط عقدوا المحالفات مع بلاد فينيقية واستغلوا أسطولها، وبذلك أفلحوا في الاستيلاء على مملكة الفراعنة من أول محاولة قاموا بها لهذا الغرض، وقد مكثوا يحتلونها دون كبير عناء حوالي نصف قرن من الزمان إلى أن ناهضوا الدولة الأفريقية الفتية في السلطة البحرية التي كانت في يد الفنيقيين، مما دعا لقيام الثورات في مصر على الفرس، وبذلك نجد أن تاريخ «بسامتيك الأول» يُعيد نفسَه؛ إذ يقوم الحزب الوطني في مصر بطرد

[٣] راجع: Precis de l'Histoire d'Egypte. p. 200.

الآسيويين من البلاد بعد أن لجئوا إلى طلب المساعدة من الإغريق المرة تلو المرة، وأخيرًا بعد تَطَاحُن نصف قرن من الزمان أفلحوا في طرد أسيادهم الآسيويين كرة أخرى. والواقع أن الفرس لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم ثانية في مصر على الرغم من المحاولات العدة التي حاولوها فيما بعد؛ إذ إنهم منذ عهد عاهلهم «أرتكسرسيس منمون»[٤] قد استخدموا جنودًا من الإغريق لمحاربة الإغريق الذين استخدمهم المصريون لنفس الغرض، ولكن بدون جدوى. وقد ظلت الحال على هذا المنوال إلى أن أضعفت قوة «فليب» المقدوني الغاشمة — وقد كانت آخذة في الازدياد والنفوذ — الولايات الإغريقية وأجبرتْها على الانزواء في عقر ديارها، وفي الوقت نفسه أصبح الذهب الفارسي عاملًا قاهرًا في السياسة الإغريقية؛ مما أدَّى إلى بَسْط النفوذ الآسيوي كرة أخرى على مصر، وقد استمرت هذه السيادة حتى غَزْو الإسكندر للبلاد بعد عشرين عامًا من دخول الفرس مصر للمرة الثانية.

ومن ذلك نرى أن سقوط إمبراطورية الأسرة الثامنة عشرة أمام أول دولة آسيوية قوية تريد السيطرة عليها كان أمرًا لا مفرَّ منه، والدولة القوية التي عملت فعلًا على زوال الإمبراطورية المصرية في آسيا هي بطبيعة الحال دولة «خيتا»، إذ أخذت مصر على إثر ظهورها وتوطيد أقدامها في آسيا تنسحب أمامها من هذا المسرح. وتدل شواهد الأحوال على أن «تحتمس الثالث» قد استخدم البحر في فتوحه ومواصلاته، كما شرحنا ذلك في موضعه، غير أنه لم يُقلِّده في هذا المضمار ممَّن خلفوه إلا القليل. والواقع أنه قد ظهر في خدمة مصر بعض رجال «صور»، ومن المحتمل إذن أن سفنهم وكذلك سفن الفينيقيين في الشمال كانت لزمنٍ ما في خدمة مصر. ولكن هذه المدن قد سقطت في عهد «إخناتون» الواحدة تلو الأخرى وانضمت للخيتا أو الآرميين. وعلى الرغم من أن الفراعنة الأُوَل الذين حكموا خلال الأسرة التاسعة عشرة قد استردُّوا هذه البلاد لمدة ما، فإنه لم يكن في استطاعتهم أن يُحافظوا عليها في وجْه قوة مملكة «خيتا» القوية السلطان. فنجد مثلًا أن مدينة «إرواد» كانت تساعد عدو «رعمسيس الثاني» في موقعة «قادش». ومهما كانت النتائج العاجلة لهذه الموقعة فإنه من الجليِّ أن انسحاب «رعمسيس» العاجل بعد المعركة، وما يُفهم من المعاهدة التي أبرمها مع خيتا في السنة الواحدة والعشرين من حكمه يدل على انسحاب مصر والتخلِّي عن سيادتها على أي جزء في سوريا، اللهم إلا جنوبي «فلسطين»، وحتى

[٤] راجع: Les Peuples de l'Orient. Mediterraneen II,. L'Egypte. p. 581.

هذا الإقليم الأخير قد فُقد بعد عهد «رعمسيس الثالث». وعلى الرغم من أننا نرى فيما بعدُ أن الفرعون «نيخاو» كان في مقدوره أن يمرَّ في سوريا حتى «قرقميش» بجيوشه ويُحرِّرها مدة بضع سنين، فإن ذلك الاستيلاء المؤقَّت لا يُعدُّ تسيطرًا إمبراطوريًّا، بل يُعدُّ غزوًا طارئًا في آسيا إلى أن جاء «الإسكندر» وفتح مصر، ثم أَسَّس أخلافُه البطالمة دولتَهم الضخمة التي كان مقرُّها أرضَ الكنانة.

تنظيم أملاك الدولة العالمية

كان أمر تنظيم الأقاليم المقهورة التي استولى عليها الفراعنة في حروبهم المظفَّرة يسير جنبًا لجنب مع فتوحهم، وقد أظهَر «تحتمس الثالث» مقدرته في هذه الناحية فبنى له فيها مجدًا ثابت الدعائم بجانب مجده الحربي المنقطع النظير في ميدان القتال، ولا أدل على ذلك من أن هذه الأقطار التي نظَّمها قد بقيت مدة تُربِي على نصف قرن من الزمان بعد وفاته هادئة مطمئنة يسودها السلام، وتخيم عليها السكينة، اللهم إلا بعض ثورات قليلة أخضعها أسلافه دون كبير عناء كما ذكرنا، ولذلك ليس من المبالغة أن يقول عنه وزيره الأمين «رخ مي رع»: إن جلالته يعرف كل شيء يحدث، ولا يوجد شيء لا يعرفه، وإنه مثل الإله «تحوت» نفسه إله الحكمة في كل شيء، وإنه لم يَقُمْ بأي عمل إلا نفَّذه. (راجع الجزء الرابع، وUrk. IV. p. 1074) ولا غرابة في ذلك فإن تقاسيم وجهه تُنبئ عن نشاط وثَّاب، ودراية بالنفس عظيمة.

وقد حاول أن يَربِط أمراء الولايات التي فتحها برباط المحبة والألفة والمهادنة، ولذلك كان أول مَن أخذ أولادهم ليُربِّيهم في البلاط المصري «بطيبة» التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ مهد الثقافة العالمية، والظاهر أن البلاد كلها قد أصبحت من أقصاها إلى أقصاها كأنها ضيعة الفرعون كما نوَّه بذلك مرات عدَّة في رسائل «تل العمارنة»، فقد كتب «عبد خيبا» من «أورشليم» يقول: تأمل! لم يَضَعْني والدي ووالدتي في هذا المكان، بل لقد أقامني في هذا البيت ملك والدي (أي نصبني في الإمارة) ساعد الملك،[1] وبعد الاستيلاء على «مجدو» مباشرة

---

[1] راجع: Mercer, “The Tell El-Amarna Tableis”, No. 286, 9ff.

وفتح أقاليم بلاد «لبنان» أمر «تحتمس الثالث» مسَّاحي بيت الملك بوضع حدود للحقول ليستولي على محاصيلها. وقد كان الفرعون يستولي على جزية معلومة من الحبوب والزيوت والخمر والبخور مما تُنتِجه «فلسطين» أو «رتنو» و«بلاد فينيقيا» (زاهي) سنويًّا، ولم يَستَثْنِ من ذلك إلا البلاد التي كانت قد أعطاها الفرعون هبة للإله «آمون» في «فلسطين» كما ذكرنا آنفًا. وخلافًا لذلك كان أمراء الولايات في «رتنو» يقدِّمون الجزية السنوية من كل محاصيل بلادهم، وبخاصة العبيد والإماء الأحداث، هذا إلى خيول وثيران وماشية وبخور، وخمر وزيت وأخشاب ثمينة وذهب وفضة ونحاس وقصدير في صور قوالب وحلقات، وكذلك سِنُّ فيل وريش نعام، كما كانوا يقدِّمون منتجات مصانعهم من العربات المغشَّاة بالذهب والفضة، والأباريق والأطباق، وكذلك أواني الزينة المصوغة والمحلَّاة بالأزهار على جوانبها (راجع جزء ٤، رخ مي رع).

وقد كانت بنات الأمراء يُرسَلْن إلى القصر الفرعوني أيضًا. وهذه الجزية كثيرًا ما نشاهدها ممثَّلة على جدران مقابر عظماء القوم في هذا العهد، فعلى جدران مقبرة الوزير «رخ مي رع» نشاهد عظماء «رتنو» في الأراضي الشمالية كلها من حدود الأرض، ونرى غير الضرائب المفروضة أواني الزينة وعربة حرب وجواد حرب، ودبة وفيلًا صغيرًا وقردة وغير ذلك، وبعد ذلك يأتي باقي إعداد الجيش وتموينه في كل المحاطِّ التي يُعسكِر فيها، وتُجهَّز الثغور بكل ما تحتاج من مُؤَن وذخائر بالسفن الداخلة فيها والخارجة منها، وقد أُقيمتِ الحصون العِدَّة لتأمين السيادة المصرية في «فلسطين»، وبخاصة «بيت شان» (بيسان) الذي يقف حائلًا عند سهل «جزيل» في شرق الأردن، وفي هذه البقعة نجد بقايا معبد من عهد «تحتمس الثالث»[٢] و«أمنحتب الثالث»، كما نجد حصونًا في «بلاد لبنان»، وبخاصة عند مدخل «نهر الكلب» في جنوبي «عرقه» الواقعة شمالي ميناء «سميرا» لحماية الطريق الرئيسية المتجهة نحو نهر «الأرنت» ونحو الشمال. والطريق الكبيرة المؤدِّية إلى «سوريا» التي تسير في سهل ساحل فلسطين ثم جبال «الكرمل» نحو «مجدو»، ومن ثَمَّ إلى «عكا» على طريق الساحل مخترقة بلاد «فينيقيا» حتى «نهر الكلب»، وبعد ذلك يخترق الوادي إما إلى «قادش» أو يسير إلى الشمال مباشرة إلى «حماة» أو «سنجار» ثم إلى «حلب» فإلى «نهر الفرات». وميناء «سميرا» كانت في الوقت نفسه مقرَّ الحاكم،

[٢] راجع: Ed. Meyer, “Gesch”. II, 1. p. 136.

كما كانت المكان المختار الذي تُجمَع فيه الحبوب لكل هذا الإقليم، ومن ثَمَّ كانت تُرسَل إلى مصر. (راجع Mercer, Ibid. No. 60, 22). وكان يُقيم هنا كذلك قائد حصن البحر العظيم «ست آمون» وهو الذي كان ماهرًا في معاملة أهل بلاد «الفنخو» المتوحِّشين، ولذلك كان قادرًا على جمع الضرائب من أولئك المشاغبين العصاة، وهو الذي قد أرسله جلالة الفرعون قائدًا على حصون الأراضي الأجنبية الشمالية. (راجع Speleers, "Recueil des Inscrip. Egyp. Musées Royaux du Cinquantenaire à Bruxelles", p. 35). غير أنه مما يؤسَف له جدَّ الأسف أن النقش المصري القديم لم يُحدِّد لنا المواقع الجغرافية التي كان قائدًا عليها كما هي العادة، ومثل هؤلاء القواد الذين كانوا يُرسَلون لحفظ الأمن في الأقاليم الآسيوية كان يُطلَق عليهم في خطابات «تل العمارنة» لَقَب «ربيصو»،[٣] وكانوا تحت سيطرة أُمَراء المدن، وكان كل واحد منهم ينادي أولئك بلقب «أخ أو والد»،[٤] وبجانب هذا القائد نجد موظفين يحملون رُتَبًا عالية كان عليهم أن يقوموا بالإشراف العام على الأقاليم الخاضعة لمصر في تلك الجهات.

وقد كان المشاة والخيالة الذين يأتمرون بإمرة هؤلاء القواد معظمهم من أهالي «كوش» المرتزقة، ومن أهالي «شردانا» من سكان جزر البحر الأبيض المتوسط، ويؤكد لنا ذلك ما جاء في خطابات «تل العمارنة»؛ إذ يروي لنا «ريبادي» صاحب «جبيل» (ببلوص) أنه عندما كان يرجو إرسال جنود لنجدته من النوبيين (راجع Mercer Ibid. 131, 13). يطالب بإرسال ثلاثمائة محارب وثلاثين عربة ومعهم مائة من «ماتاتي كاشي» أي من «المازوي» من أهالي «كوش»، يُضاف إلى هؤلاء الجنود الذين كان يرسلهم الفرعون، والجنود الذين كان ينتخبهم أمراء المدن من القبائل السامية وبخاصة «الرماة». على أن عدد أولئك الجنود المحاربين لم يكن عظيمًا كما يشعرنا بذلك حروب «تحتمس الثالث» وتحدثنا به خطابات «تل العمارنة».

وكانت طرق المواصلات لا تقتصر على الطريق البرية التي كانت تخترق صحراء «سينا»، بل كانت هناك طريق بحرية يُنقل بها الجنود في معظم الأحيان. وقد رأينا أن

[٣] راجع تسمية أخرى في الخطابات ٧، سطر ٧٧ و٢٥٦، سطر ٩، ١٣١، سطر ٢١، ٢٣.

[٤] فقد أرسل مثلًا «ريبادي» إلى «أمنابا» الخطاب رقم ٧٣ مخاطبًا إياه فيه: «والدي»، ورسالة من «أزيري» إلى «دودو» يُخاطبه فيها قائلًا: إلى «دودو» سيدي ووالدي (الخطاب رقم ١٥٨)، ومن «أزيري» إلى «خاي» (خطاب رقم ١٦٦) يُخاطِبه فيه قائلًا: إلى «خاي» أخي.

سفن الفينيقيين كانت تُستعمل للتموين، وكذلك لنقل أسلاب الحرب والجزية التي تُرسل إلى مصر، وتحدثنا نقوش رئيس الخزانة «سن نفر» كيف أن الفرعون قد أرسله بجنود عن طريق البحر إلى «ببلوص» لقطع أخشاب الأرز من «بلاد لبنان»[٥] (Sethe, Ber. Berl. Ak. (1906). p. 35ff. & Urk. IV, p. 532). وكانت هذه الأخشاب لازمة لعمل عمد شامخة الطول لترفع عليها أعلام الإله «آمون»، وقد كانت مثل هذه البعوث تُرسل من وقت لآخر بدون انقطاع. ولا نزاع في أن تجارة بلاد «فينيقيا» البحرية وصناعاتها قد نمت وترعرعت في ظل الحكم الفرعوني في خلال تلك الفترة التي بلغت فيها الدولة المصرية شأوًا عظيمًا من السيطرة على تلك الجهات. ولدينا من المناظر التي بقيت على جدران مقابر عِلْية القوم ما يشير إلى ذلك؛ إذ نشاهد على جدران مقبرة «نب آمون» عمدة طيبة منظر أسطول فينيقي تجاري قد وصل إلى مصر وأُنزلت منه البضائع وقد تسلمها الموظفون المصريون وفحصوها، وتدل وجوه أولئك التجار وملابسهم على أنهم كانوا من الفينيقيين؛ إذ كانوا ذوي شعر ولِحًى طويلة، كما كانوا يلبسون فوق دثارهم عباءة ملونة كان يرتديها عظماء «سوريا».

أما البحارة فكانت شعورهم قصيرة ولا يرتدون إلا لباسًا يغطي وسطهم (راجع شكل رقم ٧، وكذلك J. E. A. Vol. 33. p. 40–46). والبضائع التي كانوا يحملونها إلى مصر من البلاد الفينيقية وبخاصة من «جبيل» و«صور» كانت تحتوي على غلال، وفي زمن الشدة مثل فترات الاضطرابات التي حدثت في السنين الأخيرة جدًّا من عهد «أمنحتب الثالث» كان يُفرض على الأمراء والعظماء أن يقدموا أولادهم وبناتهم ثمنًا لخروجهم على الفرعون وعصيانه، وقد ذكرنا من قبل أن جزيرة «قبرص»[٦] التي كانت تُعَدُّ مملكة مستقلة كانت تقدم العطايا والهدايا «لتحتمس الثالث». ويُفهم من رسائل تل العمارنة أن هذه الجزيرة كانت مملكة ذات سيادة مستقلة ليست خاضعة لمصر بحال؛ فقد كان ملكها يكاتب ملك مصر على قدم المساواة؛ فيخاطبه بمثابة أخ له، وإذا أرسل إليه مقدارًا

[٥] راجع مصر القديمة الجزء الرابع.

[٦] أصبح من المعروف الآن أن «آلاشيا» (بالمصرية = أرسا) هي جزيرة قبرص؛ كما يثبت ذلك ما جاء في قصة ونأمون ووثائق بوغاز كوي، وكانت هذه الجزيرة منذ عهد تحتمس الثالث تحت سلطان مصر، غير أنه في عهد إخناتون شعرت بنصيب وافر من الاستقلال، حتى كان يُخاطب ملكها الفرعون بلفظة «أخي» (راجع Mercer, Ibid. Vol. II, p. 82, 7).

عظيمًا من النحاس الذي كان يُعد من أعظم حاصلات بلاده انتظر في مقابل ذلك أن يرسل إليه ملك مصر الفضة والزيت، ونلاحظ في هذه المكاتبات التي كانت تدور بين الملكين أن ملك «قبرص» كان يعترف ببعض السيادة لفرعون مصر؛ وذلك لأنه لم يقرن اسمه باسم الفرعون في هذه الرسائل (راجع Ibid. II. p. 872). وكذلك لم تكن العلاقة بين مصر وأمير «كفيتو» صاحب «كريت» علاقة سيد ومسود كما توحي بذلك كتابات الفرعون ونقوشه؛ إذ يقول لنا في قصيدته المشهورة: «لقد حضرت لأجعلك تتمكن من أن تطأ الأرض الغربية، «فكفيتو» و«آسي» تحت سلطانك.» وكذلك يقول: «لقد حضرت (أي الإله) «آمون» لأمكنك من أن تطأ أولئك الذين في الجزر.» وكذلك نجد تفسيرات مماثلة لما ذكرنا جاءت في نقوش القائد «تحوتي»[٧] حيث يقول: «إن رغبة الفرعون قد نفذت في الأرض الأجنبية كلها، وفي جزر البحر العظيم.» (راجع Urk. IV. p. 999).

بل إن الواقع يدل على أنها كانت علاقة مودة ومبادلة الهدايا بين الحكومات كما كانت الحال بين مصر وقبرص، و«متني»، و«بابل» و«آشور» وخيتا، ونشاهد بعوث هذه الممالك مصورة على جدران مقابر عظماء القوم مرات عدة في ذلك العهد، وهم يقدمون خضوعهم مقبلين الأرض كأنهم من رعايا الفرعون فعلًا. كما نشاهد ذلك في نقوش مقبرة «سنموت» ومقبرة الوزير «وسر» و«رخ مي رع» وغيرهم. ونقوش «تحتمس الثالث» تكرر لنا الحديث عن انتصاراته على بلاد الجنوب وتقدم لنا قوائم مطولة عن البلاد التي أخضعها من أهالي الجنوب وأهل الكوش، وهم الذين أوقع بهم في مذبحة عظيمة لا يُستطاع حصر عدد قتلاها، كما ساق رعاياها أسرى إلى «طيبة» وملأ بهم بيت أعمال الإله «آمون» والده، وعلى رأس هذه الأقوام المقهورة نجد أهل «كوش»، ثم يأتي بعد ذلك أسماء مقاطعات عدة سُردت على غير نظام، نعرف من بينها «واوات» و«المازوي» و«بلاد بنت» وقبيلة «إرم» التي ذُكرت في حملة «حتشبسوت» إلى بلاد «بنت» وهي التي جيء منها بابن أميرها مع الجزية في العام الرابع والثلاثين من حروب «تحتمس»، كما كان يؤتى بأولاد أمراء «سوريا». وليس في مقدورنا على حسب ما وصلنا عن هذه الأقطار السودانية أن نحدد بالضبط موقع هذه الأقاليم التي ذكرها لنا «تحتمس الثالث» في قوائمه، والتي ذكرها الفراعنة الذين جاءوا من بعده. على أن الرسوم التي نجدها على جدران مقابر الأمراء تظهر لنا أن أهالي هذه البلاد ينتمون إلى سلالتين مختلفتين تمام

[٧] راجع ما دوَّناه عن هذا القائد في كتاب الأدب المصري القديم، الجزء الأول، ص١١٠.

الاختلاف، وهما سلالة من السود بدون لحية وذوي شعر قصير ملبد محلًّى بريشة كما كانوا يتحلون بالأقراط، أما السلالة الثانية فهي من الجنس الحامي الأسمر اللون الطويل واللحية المدببة. وهم لا يميلون إلى شن الحروب الطويلة.[٨]

والواقع أنهم كانوا يعيشون على السلب والنهب في هضاب الصحراء التي تمتد على طول البحر الأحمر، وهي تلك البقاع الغنية بمناجم الذهب العظيمة، والعامرة بقوافل التجارة التي كانت تخترقها، فكانوا يقومون بالهجوم كلما دعا الأمر للمحاربة دفاعًا عن حريتهم أو طلبًا للغنائم والأسلاب. وقد كانت هذه الغارات المتتالية سببًا في إرسال الفرعون الحملات التأديبية لهؤلاء البدو العصاة وأسر الجنود منهم والعبيد، على أن الفرعون «تحتمس الثالث» نفسه لم يكد يشترك على ما نعلم في هذه الحروب اللهم إلا في العام الخمسين من حكمه، وذلك عندما نسمع أنه أمر بتطهير القناة التي عند الشلال الأول، وهي التي كان قد حفرها جده «تحتمس الأول» عند غزوه لبلاد النوبة و«كوش»، وقد عاد أسطوله فيما بعد انتهاء حروبه كما فصلنا القول في ذلك من قبل. وينقسم وادي النيل نفسه حتى «نباتا» و«الشلال الرابع» منطقتين وهما: منطقة «واوات» التي يُطلق عليها بلاد النوبة السفلية، وتنتهي عند الشلال الثاني، والمنطقة الثانية هي بلاد «كوش» وتشمل وادي «دنقلة» حتى «نباتا»، وكانت كلتاهما في قبضة الدولة المصرية يسيطر عليهما ابن الملك صاحب «كوش». وقد كان محصول الجزية منظمًا كما في «سوريا»، فمنها ترد على الدولة المحاصيل التي نراها ممثلة على جدران مقابر عظماء القوم، ونخص بالذكر منها مقبرة «حوي» التي فصلنا القول فيها عند الكلام على صاحبها في عهد الفرعون «توت عنخ آمون»، فقد كان يرد من هذه الأقاليم العبيد والثيران ذات القرون القوية التي كانت تُستعمل مقابض لآلات مثبتة في خشب، وكذلك الذهب في هيئة حلقات وقضب، وخشب الأبنوس وسن الفيل وجلود الفهود، وبيض النعام وريش النعام، هذا إلى فهود حية وزراف وقردة، وكلاب صيد، فضلًا عن منتجاتهم المحلية، كالتي ترد إلى مصر حتى الآن، وهي

[٨] وقد ذكر «آمون» سكان بلاد «بنت» باسم «خابستيو» أرض الإله، ويحتمل أن هذا الاسم هو اسمهم المشتق من بلادهم، وذلك على الرغم من اختلافه عن اسم «حبش» الذي أُطلق فيما بعد على الأراضي المرتفعة من بلاد الحبشة (راجع Urk. IV. p. 345. L. 14). وقد تكلم الأستاذ «لتمان» عن أصل هذه التسمية عن أصل هذه التسمية (راجع Aksum Expedition IV, 7)، وقال إن هؤلاء القوم كانوا في الأصل في بلاد العرب.

صناعة قد نالت شيئًا من الرقي؛ مثل الدروع والسلات المجدولة والعِصِي المطعمة بالذهب، والمزينة بصور أزهار شجيرات. ونشاهد نساء وأطفالًا يصحبون البعوث، وكذلك الأطفال الصغار يحملهن أمهاتهن الزنجيات على ظهورهن في سلات، وكذلك نشاهد معهم عربات فخمة تجرها ثيران ويُرى بينهم رئيسهم وهو فاتح اللون يسير مستظلًّا من حرارة الشمس بمظلة. ولدينا نقش على صخور «أبريم» في بلاد النوبة السفلية يقص علينا كيف أن هذه الجزية كان يحملها إلى بلاد مصر ما لا يقل عن ألفين وستمائة وسبعة وستين رجلًا (راجع Breasted, "The Temples of Lower Nubia", A. J. S. L. XXIII. (1906) p. 38ff). وبجانب ذلك نجد أن استعمار بلاد النوبة كان يسير بخطًى واسعة، وكان هذا مشفوعًا في كل ناحية ببناء المعابد التي كانت تُقام بجانبها مدن يدير شئونها حكام أو قوَّاد معاقل، وقد رأينا أن «تحتمس الثالث» في باكورة حكمه عندما كانت «حتشبسوت» وصية عليه قد أقام معبد الإله المحلي في «سمنه»، وهو الذي كان قد أقامه «سنوسرت الثالث»، وكذلك أقام معبد الإله «خنوم» في «قمة»، وفي «بوهن» (وادي حلفا) أقام معبدًا للإله «حور»، وفيما بعد أقام في العام الواحد والخمسين من حكمه مقصورة في صخور «الليثريا» بالقرب من «أبريم»، وكذلك المعبد الذي أقامه في «أمدا» للإله «حور أختي» وأتمه ابنه «أمنحتب الثاني»، وفي إقليم الاثني عشر ميلًا الواقع جنوبي الشلال الأول أقام «أمنحتب الثاني» معبدًا في «كلبشه»، أما في بلاد النوبة العليا فكانت المباني قليلة، ففي جزيرة «ساي» الواقعة في نقطة الوسط بين الشلال الثاني والشلال الثالث أقام ابن الملك صاحب «كوش» وهو الذي كان يدير بوجه خاص مباني الفرعون «تحتمس الثالث» حصنًا ومعبدًا، وجنوب ذلك أقام الفرعون في جبل «دوش» بالقرب من «صولب» مقصورة في الصخر. وبعد ذلك أقام «أمنحتب الثالث» معبدًا فخمًا في «صولب» نفسها، وكان يُعبد فيه بوصفه إله الجهة، كما كانت تُعبد زوجه «تي» في معبد «سدنجا» الواقع شمالي «صولب»، ولكن أهم مقر للمصريين في بلاد السودان هو «نباتا» التي تُعَدُّ الحدود الجنوبية للدولة حيث أُقيم معبد عظيم للإله «آمون» في الجبل المقدس «بركل» وهي في الواقع تُعَدُّ «طيبة» الثانية، ولم يبقَ من المباني التي أقامها المصريون شيء؛ ويرجع السبب في ذلك إلى التغيرات التي حدثت في المدينة، والمباني الحديثة التي أنشأها «الأثيوبيون».

أما عن بلاد «لوبيا» فليس لدينا ما يستحق الذكر؛ إذ لم يَرِدْ ذكر الجزية التي تأتي من بلاد «تحنو» (لوبيا) إلا في نقوش عُثر عليها في «وادي حلفا» يرجع تاريخها إلى السنة الثالثة والعشرين من حكم «تحتمس الثالث»، (راجع Urk. IV, p. 809). كما ذُكر

خضوعها للدولة المصرية في قصيدة «تحتمس الثالث» الشهيرة، حيث ذكرت بلاد «تحنو»، وكذلك جاء ذكر «التحنو» في قائمة أقوام الجنوب رقم ٨٨، أما الواحات فكان يحكمها حاكم (حاتي عا) (راجع Urk. IV, p. 57, 963)، وأما خراجها فقد جاء ذكره في نقوش «بوام رع» (Hôlscher, “Libyer und Aegypter”, p. 59; Sethe, Urk. IV, p. 523).

ويحدثنا الأستاذ «أحمد فخري» عن الواحات في كتابه (“Bahria Oasis”, p. 14). فيقول: «يرجع أول نظام قام في الواحات إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد كانت مقسمة مجموعتين، وكان لها حاكم أو حاكمان أحيانًا تحت إدارة حاكم العرابة. ولكنها منذ الأسرة التاسعة عشرة قد أصبح لها حاكم خاص بها. وفي مقبرة «بوام رع» يوجد منظر هام نشاهد فيه الممالك المختلفة آتية بجزيتها، ويمكن الإنسان أن يميز على الجدار الذي رُسم عليه المنظر السوريين والبدو القاطنين في وادي «طليمات»، وفي الصف الثالث نشاهد سكان الواحات، وقد مثلهم اثنان في زي المصريين، وهما يُشاهدان راكعين على الأرض أمام الكاتب الذي يسجل الجزية، وقد نُقش فوقها: «رؤساء سكان الواحات الجنوبية والشمالية.» وكُتب أمامها «إحصاء جزية الواحات»، وقد رُسم ثلاثة من السكان جاءوا مع هذين الرئيسين، وقد وصفهما المستر «ديفز» كما يأتي: «إن السكان الأصليين قد مُثلوا في هيئة فلاحين بشعر مجعد وبدون لحية ومحياهم مصري، ويرتدون قمصانًا قصارًا، ويحملون إناء خمر معلقًا في قضيب وكيسين أو لفتين من النسيج، وسلات على شكل خلية النحل، وهي لا تزال من مميزات صناعات القوم حتى الآن.» وفي مقبرة «رخ مي رع» يُوجد منظر آخر للجزية من الواحات نشاهد فيه بعض الأهالي بشعرهم المجعد، يحضرون أواني من الخمر ذات حجم عظيم محمولة في شبكة معلقة في قضيب. وكذلك يحضرون حصيرًا ملونًا وجلد حيوان صغير (ثعلب؟)، ويمكن تمييز قميصين قصيرين أحدهما مخطط وليس بمصري في أسلوبه، ولكن الآخر يشبه القميص القصير الذي يلبسه كثير من مصريي هذا العهد. وكان حاكم العرابة هو المشرف على الواحات (راجع Gayet, Stele No. c, 26. Pl. XIX; Brugsch “Thesaurus” p. 1479, 856)، وقد نالت الواحات عناية عظيمة من جانب «تحتمس الثالث» كما يُفهم مما سبق. وخلافًا لمناظر سكان الواحات وحاكمها فإنا نقرأ كذلك عن حكام هذه الصحراء أي الصحراء الواقعة في غرب المدينة («طيبة») (راجع مقبرة ددي Ddy Thebes No. 200. XVII, Dyn). ويعتقد «جوتييه» (راجع Gauthier, “Dict.Geog.” IV, p. 163) أن المقصود هنا هي صحراء «لوبيا» وواحاتها (راجع كذلك Urk. IV, p. 616) في عهد «تحتمس الثالث» حيث يذكر لنا أرض اليمين.

وبلاد «بنت» وطرائف حاصلاتها ذكر منها البخور والمر والذهب والأبنوس وسن الفيل وجلود الفهود، وبيض النعام وحيوانات نادرة من كل نوع. ومع ذلك فإن هذه البلاد لم تكن إقليمًا تابعًا للدولة المصرية، بل كانت مثل «قبرص» تربطها بمصر روابط التجارة وحدها، فقد ذكرت لنا تواريخ «تحتمس الثالث» مع الجزية التي كانت ترد بنظام من «سوريا» و«واوات» وبلاد «كوش» حملات كانت تقوم بجلب غلات بلاد «بنت»، ولم يأتِ ذكر هذه الحملات إلا في سنتي ثلاث وثلاثين وثمان وثلاثين. وقد أرسل أهل «جنبتو» أي جنوب بلاد العرب وهي في جهات بلاد «بنت» إلى بلاط الفرعون «تحتمس الثالث» هدية من البخور في السنة الواحدة والثلاثين من حكمه (راجع Urk. IV. p. 695).

ويُلاحظ أن بلاد «بنت» لم تُذكر بعد في حكم الفراعنة الذين جاءوا بعده اللهم إلا بمناسبة بعوث كانت تأتي منها محملة بالعطايا. وهذه وُجدت مصورة على مقابر عظماء القوم، وكانت أرض الإله هذه (بنت) عند المصريين محاطة بسياج من الأسرار والرهبة والغموض لبعدها ولما قُصَّ عنها من أساطير وخرافات. وغني عن البيان أن مناجم شبه جزيرة «سينا» قد استؤنف العمل فيها على قدم وساق كما ذكرنا من قبل. وفي شرقي مصر بالقرب من «سيلة (تل أبو صيفه الحالي)» كان يُوجد في هذا العهد غالبًا واحة منزرعة تنمو فيها الأشجار اليانعة، وتُزرع فيها الحدائق الغناء والكروم وهي «طريق حور» التي كان يتسلم جزيتها «بوام رع» من رئيس البستان بمثابة دخل للإله «آمون» (راجع Urk. IV. p. 523)، وقد كان والد «سن نفر» موظفًا فيها (راجع Ibid. p. 523)، ويحمل لقب «المشرف» على البيت.

ولا نزاع في أن الدولة التي وهبها الإله «آمون» ابنه «تحتمس الثالث» وأخلافه من بعده تُعَدُّ بحق أول إمبراطورية عالمية يستحق أن يُطلق عليها هذا الاسم؛ إذ قد استمرت على الرغم مما مر عليها من تقلبات عدة ما يربو على قرنين ونصف من الزمان ثابتة مشتملة على أقاليم عدة مختلفة، وقد هضمت في جوفها ثقافات عدة، ومن ثم نجد أن هذه الثقافات قد أثر بعضها حقيقة في بعضها، وقد كانت تختلف كثيرًا عن ثقافة الدولتين المصرية والبابلية في عهديهما القديم، وهما اللتان يتصف كل منهما بصفات مماثلة من حيث امتداد نفوذها وشدة التمسك بالمبادئ الأصلية والنظم القويمة، مما هيأ لها البقاء مدة طويلة كما يحدثنا عن ذلك تاريخ كل منهما، وعلى العكس نجد أن كلًّا من هاتين الأمتين بما هُيئ لها من خلق ثقافة حديثة كانت تسيطر على بيئات عظيمة، وبذلك أمكنها أن تصل إمبراطوريتها إلى أعلى قمة المجد.

وكذلك نجد من الوجهة الطبعية أن الإمبراطورية المصرية كانت فريدة في تأليفها مما لم يوجد له مثيل في تاريخ العالم كله، فقد كانت تمتد حتى ما فوق خط عرض ثمانية عشر من «نباتا» في المنطقة الاستوائية إلى ما فوق شمالي «سوريا»، غير أن هذا الامتداد كاد يكون قاصرًا على الجنوب والشمال؛ وذلك لأن الأقطار الصحراوية التي تقع على كلا جانبي النيل إذا استثنينا مناجم الذهب الواقعة في بلاد النوبة ليس لها أية فائدة تُذكر بالنسبة لحجمها، وحتى في أرض الدلتا الخصبة وبلاد «سوريا» نجد أن الأراضي المنزرعة لا تربو على عشرة أو اثني عشر ميلًا في الاتساع في أية بقعة من بقاعها. وكذلك يُلاحظ أن اتساع رقعة الأرض المنزرعة على ضفتي الوادي في القطر المصري لا يزيد متوسطها عن ميلين، هذا فضلًا عن أنها تنقص جنوبي «طيبة» حتى يصبح الشريط الضيق الصالح للزراعة في بلاد النوبة ضئيلًا جدًّا. وتقع مدينة «طيبة» عاصمة الإمبراطورية، وهي التي كانت تخرج منها الرسائل إلى أنحاء الدولة، على وجه التقريب في نقطة وسط في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، أما الطريق الحربي الذي يبتدئ أولًا في القطر المصري من «طيبة» حتى «منف»، ثم منها حتى نقطة الحدود في «سيلة»؛ أي من «تل أبو صيفه» الحالية الواقعة بين بحيرتي المنزلة والبلح، مخترقة صحراء شبه جزيرة «سينا» إلى «غزة»، ثم تسير بمحاذاة الشاطئ، ثم تخترق وادي «نهر الكلب» إلى شمالي «سوريا» فيبلغ طولها من «طيبة» حتى بلدة «ني» أو حتى نهر الفرات حوالي ستمائة وألف من الكيلومترات.[٩]

ويجب أن يبرز الإنسان هذه المسافات حتى يمكنه أن يفهم بحق مقدار ما أبداه الفراعنة من النشاط، ومقدار ما وضعوا من نظم لجعل هذه الإمبراطورية متماسكة الأطراف بتأمين طرق مواصلات جنودها، ووضع قواعد وأنظمة لتسهيل وصول جزيتها وبعوثها، ولسير أساليب الحكم والإدارة فيها، ومراقبتها مراقبة دقيقة عن كثب. ولدينا صورة ناطقة تحدثنا عن تجمع السلطة الإدارية في البلاد رُسمت على جدران مقبرة مدير مخازن الغلال المسمى «خع إم حات» الذي عاش في عهد الفرعون «أمنحتب الثالث»، وقد تحدثنا عنه فيما سبق. إذ في مناسبة العيد «سد» أي العيد الثلاثيني وهو الذي أُقيم

---

[٩] ومن «طيبة» حتى القاهرة بالسكة الحديدية ٧٦٤ كيلومترًا، ومن القاهرة حتى القنطرة نحو ١٨٠ كيلومترًا، ومن القنطرة حتى غزة ٢٤٠ كيلومترًا، ومنها حتى حلب ٧٠٠ كيلومترًا، ومن «طيبة» حتى «أسوان» ٢١٣ كيلومترًا، ومن «أسوان» حتى «سمنة» ٤٢٠ كيلومترًا، ومن «سمنة» حتى «نباتا» على النيل بالقرب من الشلال الثالث ٨٠٠ كيلومتر.

في السنة الثلاثين من عهد الفرعون؛ وصل إلى الفرعون الحساب الختامي عن محصول الدخل لوادي النيل في هذا العام، على يد مدير مخازن الفرعون وموظفي الجنوب والشمال من بلاد «كوش» حتى حدود «نهرين»، وقد كُوفئ الموظفون لأنهم قد زادوا في المحاصيل (أي الجزية)، في حين أنه هو نفسه أنعم عليه بالذهب، وقد بلغ مقدار المجموع الكلي لحصاد هذا العام ٣٠٠ و٣٣٣ و٣٣ بوشل من الحبوب (راجع L. D. III, Pls. 76, 77; Loret, "Mem. Miss. Franc", I. p. 120).

وكان يحيط بهذه الدولة العظيمة في أفريقية قبائل البدو الذين يعيشون في السهول والصحاري من اللوبين والسود وغيرهم من القبائل الحامية هذا إلى بدو شبه جزيرة «سينا» وسهول بلاد العرب و«سوريا». وهؤلاء يربطهم بالفرعون خيط رفيع واهن من الصداقة؛ إذ كان من الصعب كبح جماحهم، ومع ذلك نجد أنهم كانوا يقدمون إليه العبيد والإماء بكثرة، وكذلك كانوا يُستخدمون في الجيش المصري جنودًا مرتزقة.

وكان البحر هو الرابط بين مصر والعالم الإيجي وثقافته، أما في «آسيا» فكانت الدولة المصرية على اتصال مباشر بثقافات البلاد المحيطة بها وهي «بابل» وآشور وبلاد «متنى» ومملكة «خيتا»؛ ولأن هذه الدول كانت تشعر بأن قيام السيادة المصرية في «سوريا» يُعد جرحًا داميًا لا يندمل وكسرًا لا يُجبر بالنسبة لضياع نفوذ بلادهم وقوة سلطان مصر فيها. وعندما كان أمير بلاد «متنى» يعمل مع الأمم التي كانت تقاوم مصر كان في مقدور ملوك الكاسيين أصحاب «كاردونياش» أن يظهروا نشاطهم في هذه البقعة؛ إذ كانوا يدعون إرث السيادة على بلاد «سوريا»، على أنه لو اتحدت كل هذه الدول المجاورة يدًا واحدة على مصر فربما كان من الممكن وقف تقدم الفرعون في هذه الأصقاع، غير أن مثل هذا الاتحاد كان بعيد المنال؛ لما بين هذه الدول من المنافسات، ولذلك فإن تفرقهم قد جعل مقاومة أي واحدة منها على انفراد قصير الأمد لقلة ما لديها من الرجال والعتاد.

ثروة مصر وتأثيرها في الممالك المجاورة

وفي الحق لم تكن سيادة مصر ترتكز على نظامها الحربي وحسب، بل كان سندها الأكبر يعتمد على مواردها المادية التي كانت تحت تصرف مليكها، وبخاصة ما نشأ فيها من مصانع، وما قام فيها من أعمال فنية، وصناعات دقيقة، وأكثر من كل هذا ما كان يُجبى للبلاد من المعادن الثمينة التي كان لا ينضب معينها، وبخاصة من الذهب الذي كان يُجلب إليها من مناجم الذهب في بلاد «النوبة» بمثابة جزية سنوية، كما كان يتدفق عليها

من بلاد «بنت»، ولم يكن في مقدور أية مملكة من الممالك البعيدة المجاورة لإمبراطوريتها أن تجاريها في هذا المضمار، وبذلك استعملت مصر هذا المعدن البراق وسيلة لإخضاع كل الأمم التي تحيط بها لشدة حاجتهم إليه وعدم وجوده عندهم بهذه الكثرة المنقطعة النظير، وعلى أية حال، فقد أرسل ملوك «بابل» و«آشور» و«قبرص» ومملكة «خيتا» ومملكة «أرابخا Arrapacha» المرة تلو المرة هدايا ثمينة للفرعون «تحتمس»، وقد عدَّها هذا الفرعون من جانبه بمثابة جزية مفروضة على تلك الأمم، غير أنه مما لا شك فيه أن الفرعون كان يرسل في مقابلها هدايا أخرى كما نعلم ذلك من خطابات «تل العمارنة» وبخاصة الذهب. وكانت العلاقات السياسية المنظمة التي نشأت بين مصر وهذه البلاد الآسيوية تسير على ما يرام كما ذكرنا، وإن كانت أحيانًا تنقطع لمدة قصيرة في أحوال نادرة، وكانت تُدوَّن باللغة البابلية والخط البابلي حتى مع آسيا، ولم نجد إلا حالات فردية كتب فيها كل من ملك «متنى» وملك «خيتا» بلغته الأصلية. وكذلك كان على الفرعون أن يستعمل هذه اللغات الأجنبية في مكاتباته؛ ولذلك أوجد له كتابًا بلغة غير اللغة المصرية، وبذلك أصبح الاتصال بينه وبين الثقافة الشرقية القديمة وثيق العرى متين الأساس (راجع J. E. A. Vol. XXIII, p. 190ff).

الحياة الدينية

الثقافة والدين

لقد ظلت التقاليد المصرية القديمة في البلاد سائرة في طريقها مدة تربو على ألف ونصف ألف من السنين، كانت في خلالها تخطو نحو الكمال، وهذه التقاليد كانت تسيطر على الحياة المصرية كلها، ووجهت نظر المصري إلى الحياة والأوضاع التي يفكر على هداها، وغرست فيه الأحاسيس التي يندفع متأثرًا بها، كما كان للبناء الجديد الذي بُنيت على أسسه الدولة الحديثة أثره في قلب نظام الحكومة؛ فقد كان كل ما يسعى إليه هو إقامة أنظمة سياسية وحربية تغاير النظم القديمة، وكان القصد منها إعادة ما كان لمصر من مجد تليد في الأزمان السالفة مع السير مع الحضارة في نموها وتقدمها، وذلك بتنفيذ أوامر الآلهة الذين امتدت بقوتهم أملاك الدولة. وقد بقيت مكانة الفرعون وألقابه لم يصبها أي تغيير، كما حافظت الحكومة على ألقاب الموظفين القديمة بقدر ما سمحت به الأحوال، وقد بقي كذلك تقسيم البلاد الأسمى قسمين: الوجه القبلي والوجه البحري، وإن أصبح لا يتفق مع الواقع، وقد صار الإله «آمون» إله العاصمة الجديدة، ورأس جماعة الآلهة في العالم المصري، وبذلك أخذ مكانة الإله «رع» الذي كان يُعد حاكم العالم، وحامي الدولة، ووالد الملك الذي أنجبه من صلبه، مما زاد في سلطانه وعظمته ورفعه عن الآلهة الآخرين. على أن كل ذلك ليس إلا نتيجة للتقدم الديني الذي بدأ منذ الدولة الوسطى في اللاهوت المصري، وما أحاط به من أسرار وغموض على يد الكهنة مما جعلهم يصلون إلى مكانة يُحسدون عليها في البلاد كلها.

وقد وقع على عاتق أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة القيام بإنجاز أعمال كثيرة وإعادة النظام إلى ربوعه بعد الخراب الذي حاق بالبلاد في عهد الهكسوس، فكان عليهم أن يعيدوا

إقامة المعابد والشعائر الدينية الخاصة بها، وما يتطلبه تجديدها من أموال طائلة، فما بقي لنا من قطع فنية من نحت هذا العصر وهو قليل — كانت تشبه القطع المنحوتة في الدولة الوسطى — وكذلك الكتابات التي وصلت إلينا كانت متمسكة أشد التمسك بالأسلوب الكلاسيكي الذي ساد عهد الدولة الوسطى، ولكن ما لبثت الأحوال أن تغيرت رويدًا رويدًا وظهرت أفكار جديدة وأشكال مبتكرة في عالم الوجود. وقد كان أول من خرج على التقاليد القديمة في بناء قبره هو «أمنحتب الأول» ثم «تحتمس الأول» الذي يُعد قبره وما اتُّخذ له من عدة خروجًا صريحًا على عادات أجداده الفراعنة في الدفن؛ فقد أقام قبره كما ذكرنا في واجهة صخرة في الوادي الصحراوي المعروف الآن بوادي الملوك، وبذلك حتم عليه أن يفصل معبده الجنازي عن القبر الذي يثوي فيه جسمه.

المقابر الملكية وتطورها

وقد كان لهذا التجديد في إقامة المدفن الملكي أثر بالغ في فن البناء المصري فقد بطلت إقامة هرم من اللبن أمام قبر الملك أو قبور عظماء القوم كما كانت الحال في البلاد حتى عهد «أمنحتب الأول»، ويدل على ذلك أن أقدم قبر كُشف عنه حتى الآن في «طيبة» لكبير من علية القوم يرجع تاريخه إلى عهد «تحتمس الأول»، والظاهر أن نحت قبور الفراعنة ونحت قبور الموظفين في الصخر قد ظهرا في وقت واحد. والواقع أن المصري عندما يكوِّن فكرة وينفذها كان من الصعب عليه جدًّا أن يتخلى عنها، وإن تقادم عليها العهد حقيقة وأصبحت فكرة بالية فإنه كان لا يزال يتعلق بأهدابها بصورة ما؛ ولذلك نجد أن القوم قد اتخذوا بدلًا من الهرم الذي كان يُقام من اللبن أمام المقبرة في عهد الأسرة السابعة عشرة هرمًا صغيرًا من الحجر يرسمون على واجهاته الأربع المتوفى وهو يتعبد لإله الشمس عند شروقها وعند الغروب.

وعندما أخذ أمراء الإقطاع يستقلون بالحكم في مقاطعاتهم في أواخر الأسرة الخامسة بدأ استعمال المقابر المنحوتة في الصخر، فكان العظماء ينحتون قبورًا يحتوي كل منها على ردهة أمامية ومدخل عمودي طويل يؤدي إلى حجرة الدفن، وقد كان يُضاف إلى ذلك حجرات أخرى. أما في قبور الملوك فكان هذا التصميم نفسه يتقدم ويتسع من عهد إلى عهد بدرجة عظيمة فتضاف إليه قاعات عدة وحجرات جانبية، وقد كان يؤدي إلى حجرة الدفن وما يتبعها من الحجرات الأخرى سلم يمتد في أعماق الصخر إلى مسافات بعيدة، وقد كان يوضع كل التصميم بجميع تفاصيله. ويدل موقع المقبرة وطريقة تنفيذ بنائها على

كيفية السيطرة الفنية التي نشاهدها في مقبرة «تحتمس الأول» حتى مقبرتي «أمنحتب الثاني» والثالث، كما نشاهد التقدم الدائم في تحسينها وتفخيمها؛ فجدران المقبرة وجدران التابوت الضخم الذي كان يُصنع وقتئذٍ من حجر بلاد النوبة الرملي، ثم استُبدل به في عهد الأسرة التاسعة عشرة جرانيت «أسوان» مزينة بالكتابات والصور، وبمناظر أخرى عدة من حياة الفرعون في مملكة «أوزير» ومملكة «رع» ويتبع ذلك تعاويذ لسياحة إله الشمس في سفينتي الليل والنهار، وما يتبعهما من عقبات وصعاب، ومحاربة الثعبان «أبوفيس».

تطور مقابر الأشراف

ولا نرى شيئًا من هذه المناظر في مقابر علية القوم بل كانت رسوم جدرانها خاصة بمناظر الحياة الدنيا، وما كان يتمتع به المتوفى مدة مكثه على الأرض، فنشاهده يقيم الولائم لأسرته وأقاربه، ويشرف على حقوله ومحصولاتها كما نراه يذهب للصيد والقنص في عربته أو مع أفراد أسرته في البطاح والبرك، ويجلس في حديقته، ويتمتع بأزهارها الفيحاء وينعم بهوائها العليل، وكذلك نشاهده يقوم أحيانًا بفحص الجزية الواردة للفرعون من البلاد الأجنبية، وبخاصة من سوريا وبلاد الكوش، ثم غيرها من البلدان التي كانت تحت سلطان الفرعون أو مصادقة له، هذا وقد رسم بعض أصحاب هذه القبور ما كان يشرف عليه من الحرف والصناعات وغير ذلك مما له علاقة بعمله والحياة الاجتماعية؛ ولذلك نجد في رسوم هذه المقابر سجلًّا لحياة الشعب كما فصلنا القول في ذلك. وهذه المناظر على ما يظهر كان معظمها تقليدًا؛ فقد نُقل بعضها عن مقابر الدولة القديمة، وبعضها عن مقابر الدولة الوسطى مع ظهور بعض تجديد في عهد الدولة الحديثة، وبخاصة مناظر تجنيد الجيوش واستقبال وفود البلاد الأجنبية، وإرسال البعوث إلى الأقطار النائية والعودة منها، وكيفية إقامة المباني الضخمة والاحتفال بتنصيب كبار الموظفين، وظهور صور الملوك وما يلقونه من تعليمات على كبار موظفيهم، وغير ذلك من مظاهر الحياة الجديدة التي كانت تستلزمها العلاقات الدولية الحديثة. وهذه المناظر التي ذكرناها ليس لها مكان في قبور الملوك، ومكانها في الواقع المعابد الجنازية التي أقامها هؤلاء الفراعنة لأنفسهم عند سفح الجبل بالقرب من شاطئ النهر، ومع ذلك فإن هذه المعابد قد تغيَّرت صورها الأصلية عما كانت عليه؛ فقد أصبحت عبادة «آمون» والإلهة «حتحور» حامية الجبانة متصلة بالشعائر الفرعونية، وكذلك ظلَّ الفرعون الذي رُفع بعد الموت واتحد مع قرص الشمس

(كما تقول الصيغ الرسمية) عائشًا هنا وعلى اتصال وثيق بالآلهة التي أوجدته وأرضعته بلبانها. ومما يؤسف له جد الأسف أن كل معابد الأسرة الثامنة عشرة قد اختفت من الوجود تقريبًا اللهم إلا معبد «حتشبسوت»، ويرجع السبب في بقائه إلى بعده عن الأراضي الزراعية وقربه من سفح الجبل، ومع ذلك فإنه بدوره قد تهدم ودُفن مؤقتًا، وكان قد اتخذه الأقباط ديرًا لهم، وعبثوا كثيرًا بنقوشه، ولكن أساسه ظل حافظًا لكيانه مما سهل إعادة بنائه من جديد في الأزمان الحديثة. وهذا المعبد هو الذي ابتدع تصميمه مهندس البناء «سموت» كما فصلنا القول في ذلك (راجع الجزء الرابع).

المعابد في عهد الأسرة الثامنة عشرة

لقد كانت إقامة معابد الآلهة في الأسرة الثامنة عشرة من أهم الأمور التي شغلت بال الفراعنة؛ فإنهم وجهوا إليها عنايتهم التامة وبخاصة معبد الإله «آمون» الذي كان يُعد الإله الأعظم للدولة في طول البلاد وعرضها. والواقع أن اهتمام الفراعنة ببناء المعابد لهذا الإله والزيادة فيها مثل معبد الكرنك والأقصر و«طيبة» الغربية كان شغلهم الشاغل. فقد كان الفرعون أحيانًا يفضل إقامة معبد للإله «آمون» أو غيره من الآلهة على إقامة معبد جنازي لنفسه، حقًّا نجد الفراعنة كانوا يقيمون المحاريب للآلهة، ويجهزونها بكل المعدَّات في كل زمان ومكان، غير أن بناء المعابد الضخمة التي تمثل لنا الفكرة الدينية المستحوذة على أفكار الملوك والشعب وقتئذٍ لم نشاهدها قط في كل عصور التاريخ المصري القديم، الذي سبق عهد الأسرة الثامنة عشرة إلا مرة واحدة في معبد الشمس الذي أُقيم في عهد الأسرة الخامسة في بوصير، ولا نجد غير ذلك معبدًا للإله شيد بجوار المعابد الجنازية التي أُقيمت للأهرام. أما في عهد الدولة الوسطى فتدل النقوش وما كُشف عنه حديثًا من الآثار على أنه كانت توجد معابد للإله في «عين شمس» و«الفيوم» و«الكرنك» و«الأقصر» (راجع ج٣)، وهذه لم يبقَ منها قائمًا في مكانه إلا معبد الإلهة «رنوتت» في «كوم ماضي» بالفيوم، أما سائرها فقد عفت عليه الأيام وأُقيمت مكانها معابد أخرى. ومنذ الأزمان القديمة أخذت أشكال هذه المعابد والاحتفال بالأعياد الدينية فيها تتخذ صورة جديدة نامية راقية لتساير ما نال البلاد من تقدم وعمران، كما أن التصميم الهندسي لهذه المعابد اتخذ صورة جديدة. ولكن إقامة المباني الضخمة لعبادة الآلهة في مدة تبلغ نحو نصف ألف سنة، وهو عهد الدولة القديمة لم يحدث إلا مرة واحدة، وذلك في عهد الأسرة الخامسة عندما كانت عبادة إله الشمس قد بلغت قمتها وسادت البلاد. على أن ذلك العهد لم يمكث

إلا مدة لا تزيد على مائة سنة، وبعدها أخذت البلاد تسقط في مهاوي الفوضى والضلالة، فذهبت معها تلك الفكرة الدينية العظيمة، وتمزق شمل استقلال البلاد. ولما عادت للبلاد وحدتها واستردَّت عظمتها في عهد الأسرة الثانية عشرة أقامت معابد للآلهة في طول البلاد وعرضها، وبخاصة معبد الإله «آمون» الذي أُقيم في «الكرنك»، وكذلك المعبد الذي أقامه «سنوسرت الأول» للإله نفسه هناك، غير أن هذه المعابد كانت متواضعة في مساحتها بل لا تزيد عن أربعين مترًا مربعًا، وكذلك كانت الحال في المعابد التي أُقيمت للإله «بتاح» في «منف»، ومعبد الإله «ست» الذي أقامه «الهكسوس» في «أواريس» (تانيس)؛ فقد كانت كلها معابد صغيرة الحجم إذا ما قِيست بما أُقيم من معابد في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

ولا نزاع في أننا نجد في عهد الأسرة الثامنة عشرة أن الفكرة الدينية التي كانت قد ظهرت في عهد الأسرة الخامسة قد أخذت تنمو وترقى بدرجة عظيمة، وقد زاد في نموِّها وظهورها الانتصارات التي كان يحرزها الفرعون بمعاونة الإله الأكبر، ولذلك كان حقًّا عليه أن يقوم لهذا الإله الذي كفل له النصر على أعدائه بجزء عظيم مما أفاء به عليه الآلهة.

ولقد نال نصيب الأسد من هذه الغنائم التي استولى عليها الفرعون إله الدولة الأعظم «آمون» رب «طيبة»؛ فشيد له المباني الضخمة لإقامة شعائره وتمجيده.

وقد شاهدنا أن كلًّا من «أحمس الأول» و«أمنحتب» قد أخذ في إقامة المباني للآلهة في مختلف جهات القطر وبخاصة في معبد الكرنك. غير أن الاتجاه العظيم والمجهود الضخم الذي بذله الفراعنة لم يقم إلا منذ عهد «تحتمس الأول»؛ فقد أقام أمام المعبد القديم للإله «آمون» في «الكرنك» (الذي كان قد أُزيل تمامًا بما أقيم مكانه من المباني الجديدة) بوابتين ضخمتين إحداهما خلف الأخرى، كما نصب أمامهما مسلتين عظيمتين أقامت أعظم منهما الملكة «حتشبسوت» ابنته، وقد بنى الفرعون «تحتمس الثالث» حول مسلتي «حتشبسوت» جدارًا ليحجز ما عليهما من نقوش عن الأنظار انتقامًا منها، وأقام هو في «الكرنك» بدوره مسلتين، وكذلك غيَّر شكل الحجرات الداخلية تغييرًا عظيمًا بإقامة بناء حجرة داخلية نقش على جدرانها تاريخ حروبه منذ الحملة الأولى حتى العام الثاني والأربعين من حكمه كما فصلنا القول في ذلك في الجزء الرابع.

وكذلك أقام «تحتمس الثالث» خلف المعبد الكبير معبدًا للإله «آمون» وقد فصلنا فيه القول (راجع الجزء الرابع).

والواقع أن المعبد كان يُقام تخليدًا لذكرى كل من الملك والإله العظيم، والآلهة الأخرى الذين كانوا أتباعه. وفضلًا عن ذلك كان المفروض أن يعد الفرعون والإله وحدة لا انفصام لها في معبد الإله أو في المعبد الجنازي الذي كان يقيمه الفرعون على الضفة اليمنى للنيل بالقرب من مثواه المنحوت في التلال المجاورة. وكذلك كان الإله الحي والفرعون الذي يصعد إلى السماء متصلين بعضهما ببعض اتصالًا وثيقًا لدرجة أن الأعمال العظيمة التي كان يقوم بها الفرعون كانت تُعَدُّ آتية عن طريق الإله؛ لأنه هو الذي انتخبه ونصبه على العرش، ولذلك كان الفرعون من جانبه يعلن عظم قوته وسلطانه الذي لا حد له، ومن أجل ذلك نجد «تحتمس الثالث» وغيره من الفراعنة قد نقشوا على جدران معابدهم قوائم مطوَّلة بأسماء الأقوام الذين قهرهم، والبلاد التي فتحها. وقد دوَّن لنا هذا الفرعون على جدران معبد «الكرنك» كما فعلت «حتشبسوت» من قبله على معبد «الدير البحري» بصورة خيالية كيفية اعتلائها العرش بوساطة الإله الذي نادى بها ملكًا في قاعة المعبد (راجع الجزء ٤). وكذلك عدَّد لنا المباني والهدايا التي قدَّمها للإله «آمون» من حروبه المظفرة، ورسم لنا النباتات التي أحضرها من «سوريا» وغرسها في حديقة المعبد كما دوَّنت لنا «حتشبسوت» حملتها إلى بلاد «بنت» التي أرسلتها لإحضار أشجار البخور لتُزرع في حديقة معبدها (راجع الجزء الرابع).

ومما يسترعي النظر أننا لم نجد حتى الآن صورًا تمثل لنا الحروب والمواقع الحربية في تلك الفترة من تاريخ مصر. حقًّا يمكن الإنسان أن يرى مفتن هذا العصر قد صوَّر لنا صور الأجانب بدقة ومهارة، ورسم لنا صور حيوانات البحر في خلال الحملة التي أرسلتها «حتشبسوت» إلى بلاد «بنت» والنباتات التي أحضرها «تحتمس الثالث» في أثناء غزواته لبلاد «آسيا»، كما أن نقوش «الدير البحري» ونقوش المقابر الخاصة وما على جدرانها من مناظر قد مثل فيها تفاصيل الرحلات البحرية التي قام بها الأسطول المصري إلى بلاد «بنت»، وكذلك المحاصيل والجزية التي أحضرها سفراء البلاد الأجنبية، وسير الجنود وحركاتها ... إلخ، غير أن ذلك كله لم يخرج عن دائرة المناظر العادية التي نشاهدها منذ القدم على جدران المقابر مثل مناظر العمل في الحقول وفي مصانع العمال، وكذلك ما نجده متجمعًا من طوائف الناس الذين حُشروا جنبًا لجنب مرتَّبين في صفوف على الجدران، بعضهم فوق بعض، كما نشاهد في المناظر القليلة التي بقيت لنا من عهد الدولتين القديمة والوسطى عند مهاجمتهم قلعة من القلاع أو حصنًا من الحصون. أما منظر موقعة حربية بالمعنى الحقيقي نجد فيها الجيشين المتحاربين قد تلاحمت جنودهما، واشتركت عرباتهما

في المعمعة معًا، فلم يكن المفتن المصري قد تجاسر بعد في عهد «تحتمس الثالث» أن يصوره لنا على جدران المقابر أو في الآثار التي وُجدت من عهده حتى الآن. وقد كان أول تصوير وصل إلينا من موقعة حربية اشتركت فيها العربات والمشاة هو المنظر الذي نشاهده على جسم عربة «تحتمس الرابع»، ومن العجيب أن هذا المنظر بعينه قد أصبح فيما بعد النموذج للموقعة الحربية في العهود التي تلت، وهو ما نشاهده في الموقعة التي صُوِّرت على صندوق «توت عنخ آمون» في عهد تلك الأسرة كما سنرى بعد. والواقع أن هذا المنظر لا يمثل أمامنا مجرى الحرب في ساحة القتال، بل يمثل لنا الفرعون المنتصر الذي لا يمكن لعدو أن يقهره؛ إذ نشاهد فيه الفرعون واقفًا وسط المعمعة في عربة يجرُّها جوادان من أصائل الخيل، وقد رُسم بحجم عظيم جدًّا تتضاءل بجانبه العربات الأخرى التي في ساحة القتال، وهو يهاجم عربات العدو مفوقًا إليها سهامه فتفر من أمامه مهزومة مدحورة، والقتلى مضرجين بدمائهم على الأرض، والسهام عالقة بأجسام العدو وحسب.

ومثل هذا الرسم الرمزي المحض الذي يعبر عن الواقعة الحربية لا نجد له نظيرًا في المناظر الحربية في الفن الكريتي؛ إذ كانوا في هذه الناحية لا يعبرون إلا عن الحقائق المحضة، ومع ذلك فإن من المقطوع به أن المناظر الحربية المصرية قد تأثرت بنظائرها في الفن الكريتي تأثرًا عظيمًا، وبخاصة المناظر التي كان قد ابتدعها المفتنون في البلاط الميكاني في عهد أمراء القرن السادس عشر، وهذا هو التفسير الوحيد الذي يمكن أن يفكر فيه الإنسان للتدليل على رسم منظر الموقعة الحربية المصرية في كتلة واحدة، ليست مقسمة صفوفًا فيها الأشكال واقفة مزدحمة، وكثيرًا ما نشاهد فيها الأشكال متصلة في صفوف، ويظهر التأثير الأجنبي بوضوح في هذا المنظر؛ حيث نجد الجياد تركض وهي تختلف عن كل رسوم الحيوانات المصرية وهي تجري؛ إذ نشاهد الأخيرة بأرجلها على الأرض، أما في رسم الموقعة فنشاهد الجياد فيها وهي تقفز بسرعة خاطفة فلا تُرى أرجلها على الأرض. وقد بيَّنا فيما سبق أن أحد أسلحة الملك «أحمس الأول» قد ظهرت عليه صورة كريتية لأسد يقفز قد قلده المفتن المصري عن أصل كريتي (راجع الجزء ٤)، وإذا علمنا أن الفخار الكريتي كانت له سوق رائجة وأنه كثير الاستعمال في مصر حتى إن المصريين كانوا يقلدون صناعته؛ أدركنا بصفة قاطعة تأثير الثقافة الخارجية المحس، ولا أدل على ذلك من إدخال السلع السورية، والميل الشديد المتزايد إلى قبول كثير من الكلمات والتعابير الكنعانية في اللغة المصرية القديمة، وبخاصة عند أفراد الطبقة المثقفة

الذين يريدون إظهار ثقافتهم العالية، واطلاعهم الواسع بحشر تلك الألفاظ في كتاباتهم.[١] والواقع أن موقف الفن المصري في ذلك العهد بالنسبة للفن الإغريقي يشبه موقف الفن الأوروبي لفن شرقي «آسيا» منذ القرن الثامن عشر؛ إذ نشاهد أنه كان يسير دائمًا بجانب الاتصالات الخارجية في هدوء وتؤدة. ولذلك نرى الآن أن تلوين الأواني الفخارية الذي كان قد اختفى منذ أوائل الدولة القديمة، وبخاصة التزيين بالأوراق والأزهار؛ قد ظهر ثانية، وأن رقعة الآنية قد قُسمت بخطوط متوازية، ومُلئت بإشارات وألوان مختلفة، قد جاءت من تأثيرات أجنبية لا يمكن معرفة كنهها. ولدينا بوجه عام مقدار عظيم من صناعات الثقافات المختلفة، وبخاصة الأواني المصنوعة من الحجر، ومن الفخار والمعادن التي زينها الصياغ بالحليات الفاخرة. ومما يلفت النظر من بين هذه الأواني الأطباق الضخمة المغشاة بالذهب والمحلاة حوافها بالأزهار والطيور، وكذلك الكباش المصنوعة من الحجر والضفادع والأسود، هذا إلى صورة الفرعون وهو جالس في عربته (راجع الجزء الرابع من كتاب مصر القديمة). ولا نزاع في أن التصميم مصري خالص، غير أن الذين قدموا هذه التحف أجانب قد أحضروا الجزية للفرعون من «سوريا» و«كريت» وبلاد النوبة. وحقيقة الأمر أن الصياغ الأجانب قد أخذوا هذه الأشكال التي عُملت في مصر وألَّفوا منها سلعًا وأواني كانت تروق في أعين المصريين وبخاصة الفرعون وعِلية القوم، ثم حملوها للفرعون وبلاطه بمثابة جزية. وقد بقي تأثير ذلك لمدة طويلة في بلاد «اليونان» و«أتروريا»، وقد وُجدت في هذه الجهات أطباق كانت تُصنع على هذا النمط في أزمان متأخرة جدًّا.

موازنة بين فن العمارة المصري والإغريقي

على أن التناقض الصارخ بين الثقافتين يظهر جليًّا في فن العمارة؛ إذ نشاهد أن الطموح نحو إقامة المباني الضخمة الأثرية قد انعدم تمامًا في القصور الكريتية، في حين نرى أن المصري منذ بداية التاريخ كان جل همه ومعقد آماله أن يقيم المعابد الضخمة والأضرحة الصلبة، وكان يرمي من وراء ذلك إلى مغالبة الدهر وهزيمة الموت، ولذلك أراد أن يقيم لروحه بدلًا من مأواه الزائل الذي بناه على الأرض مسكنًا خالدًا يهزم الزمن ويقهر الموت معًا. وقد أفلح المصري فلاحًا مبينًا في عهد الدولة الحديثة في محاولته هذه عندما

[١] راجع ورقة أنستاسي الأول (الأدب المصري القديم، جزء أول ص٣٧٨).

أقام تلك المعابد العظيمة، والواقع أنها في أسسها وفي مبانيها منقطعة القرين من حيث الضخامة وسعة الحجم ومتانة المادة وروعة المنظر وبهاء الطلعة والتأثير في النفس، هذا فضلًا عن أن مداخل هذه المعابد قد أُحكمت أجزاؤها، وناسب تنسيقها ضخامة البناء؛ مما ألَّف وحدة جميلة ترتاح إليها النفس وتجذب إليها النظر؛ فنرى قاعاتها الفسيحة الأرجاء المقامة على عُمد ضخمة كانت قد ابتُدعت منذ الدولة القديمة على هيئة سيقان النخل الباسقة وسيقان البردي اليانعة، غير أنها قد أُقيمت بصورة ضخمة في عهد الدولة الحديثة في ساحة المعبد وقاعاته، فكانت بهجة للناظرين، وقد زاد في جمالها ما حُليت به جدرانه من نقوش وصور خلابة بألوان متناسبة يرتاح إليها النظر بما أُقيم أمامه وداخله من تماثيل ضخمة للإله الذي أُقيمت من أجله وللفرعون الذي أعلى بناءها.

المعبد المصري: فكرته وصورته

لا نزاع في أن فكرة بناء معابد تُستخدم لإقامة الأعياد الإلهية وما يتبعها من مواكب وحفلات يُعد أعظم تجديد حدث في عهد الأسرة الثامنة عشرة. حقًّا كانت هذه المعابد موجودة في مصر منذ القدم، غير أنها كانت تظهر بمظهر مغاير لما أصبحت عليه في عهد الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ كانت في الواقع في عهد الدولة القديمة محاريب وحِسب يسكنها الإله، ويُحفظ بجانبه فيها أدوات العبادة الخاصة به وكل ما كان يملك من ذخائر ثمينة، وكذلك كان معبد «الكرنك» في عهد الدولة الوسطى مبنًى صغيرًا مربع الشكل لا يزيد ضلعه عن أربعين مترًا.[٢] أما توسيعه وجعله مبنًى عظيم الحجم وإقامة بوابات أمامه فلم يبتدئ إلا في عهد الأسرة الثامنة عشرة في حكم الفرعون «تحتمس الأول»، هذا إذا استثنينا بعض قطع ضخمة من الجرانيت في معبد «تل بسطة» نُقش عليها اسم الفرعون «خوفو»، ولكنا في الواقع لا نعلم شيئًا البتة عن أصل تصميم البناء الذي كانت فيه هذه الأحجار. وقد أوضحنا في الجزء الثالث أن مبنى «اللبرنت» التي أقامها «أمنمحات الثالث» لا تمت بصلة لمعبد الإله قط، بل كانت في الواقع المعبد الجنازي للملك «أمنمحات الثالث» نفسه (راجع ج٣). يُضاف إلى ذلك أن كلمة بوابة أو «برج» في اللغة المصرية القديمة هي «بخنت» وهي مؤنث كلمة «بخن» أي «برج» أو «قصر»، وقد استُعيرت لباب المعبد، وهذه

[٢] راجع مصر القديمة، الجزء الثالث.

الكلمة نجدها في اللغة العبرية والعربية، وعلى ذلك فهي كلمة أجنبية نُقلت إلى المصرية، وكلتا الكلمتين لا وجود لهما في اللغة المصرية في العصور الأولى؛ وهذا دليل على أن هذا كان تجديدًا بدأ في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

وإذا وازنا المعبد المصري بالمعبد الإغريقي وجدنا بينهما وجه قرابة، وبخاصة الأهمية الكبيرة التي كانت للأعمدة في كل من البلدين، هذا فضلًا عن أننا نجد أن كلا المعبدين يتقابلان في نقطة واحدة، وهي أن مباني المعبد الإغريقي في مدة القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وكذلك المعبد المصري في عهد الدولة الحديثة، والكاتدرائية في عهد القرون الوسطى؛ لم يكن كل منها إلا عنوانًا لعصر بعينه قد تمثل فيه حب التدين المتزايد المشفوع بالطموح لجعل هذا البناء المقدَّس على جانب عظيم من الفخامة والبهجة، وذلك بفضل مساعدة الإله وقوة بطشه وعظيم سلطانه. غير أن المعبد المصري في داخله كان يختلف اختلافًا بينًا عن المعبد الإغريقي.

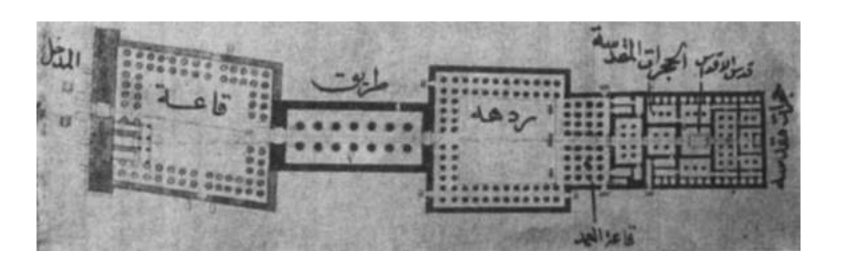
موازنة بين المعبد المصري والمعبد الإغريقي

فالمعابد الإغريقية التي نشأت على غرار بناء القصور — وهي التي كانت عندما تسمح الأحوال تُقام على ربوة — كانت مأوى الإله الرسمي، الذي كان يشرف منه على ما حوله من مناظر طبعية، فهذا المعبد تنجذب إليه الأنظار من بعيد، ويترك في النفس أثرًا عظيمًا لتناسق أجزائه وجمال وضعه، وبخاصة بما تضفيه عليه مجموعة العُمد التي تحيط به وتظهره كأنه وحدة من المباني منفردة، غير أنه لا يترك في النفس أثر السرية الدينية ورهبة التقى الإلهي، أما المعبد المصري فإنه على العكس قد أُقيم ليبعث في النفس ذلك الجلال الديني والغموض الخفي الذي توحي به القوة الإلهية؛ ففي الخارج نجده محاطًا بسور مغلق، وفي واجهته الضيقة بوَّابة هائلة يعلوها برجان، وعلى كلا جانبيها نُصب عمودان يرفرف في أعلاهما علمان ينطحان السماء علوًّا ورفعة، وبذلك تكون المدينة التي يسكن فيها الإله منفصلة تمام الانفصال عن عامة الشعب الخارجين عن هيئة رجال الدين، ولذلك كان كل داخل من هذا الباب الضيق يعد نفسه قد بعد عن سلطان عالم الدنيا، واقترب من عالم الإله، وقد كان المحراب الذي يُوجد فيه الصندوق المغطَّى بفاخر الكتان والمزيَّن بالرموز، وهو الذي كان يُحفظ فيه تمثال الإله موضوعًا في الحجرة النهائية من المعبد يخيم عليها الظلام الدامس وتكتنفها الرهبة. وقد كان منصوبًا في السفينة المقدسة التي تُحمل على أكتاف الكهنة وتظهر للعيان أمام الشعب في قاعة المعبد العظيمة

إذا تطلبت الأحوال ظهوره ليوحي إليهم بمهام الأمور التي يتوقف عليها كيان الدولة وسيرها، وذلك في حضرة الفرعون، وكان عند الاحتفال بأعياد خاصة يخرج هذا الإله لزيارة الآلهة الآخرين في معابدهم وهم يسعون لزيارته، هذا فضلًا عن أنه كان يظهر في يوم انتخاب الفرعون الذي سيحكم البلاد بعد رفع الفرعون الحاكم إلى السماء.

أما طريق الاحتفال الذي كان يخترقه الملك ليذهب إلى الإله أو الإله إلى الفرعون والناس، فكان يملأ جو المعبد كله ويسبغ عليه وحدة داخلية. والواقع أن وحدة المعبد وانفصاله عن باقي المباني التي تحيط به تُدرك حتى في خارجه؛ إذ إنه قد أُقيم على بعد شاسع، وحُف جانباه بتماثيل «بوالهول»، ويصل السائر فيه إلى أعماق المعبد حيث «قدس الأقداس»؛ أي إن محور باب قاعة العمد كان يقع على خط مستقيم مع الطريق الخارجية. وأهم معبد مصري بلغ مبلغًا عظيمًا من الجمال والروعة، وتحققت فيه الفكرة المثالية المعبرة عن المعبد المصري في عهد الأسرة الثامنة عشرة؛ هو المعبد الذي أقامه «أمنحتب الثالث» في «الأقصر» للإله «آمون» (انظر شكل رقم ١)؛ إذ نشاهد أمام بوابته قاعة مستطيلة يخترق فيها الزائر طريقًا محاطًا بصفين من العمد الضخمة كل منهما يشمل سبعة أعمدة ويرى اتجاه المحور في هذا البناء الضخم المؤدي إلى حجرة «قدس الأقداس» قد انحرف انحرافًا ظاهرًا عن المبنى كله. وبعد ذلك يدخل الإنسان في ردهة عظيمة محاطة بالأعمدة الضخمة من كل الجوانب، وهي التي يجتمع فيها الأتقياء من القوم ليشهدوا إقامة الشعائر، ثم يأتي على أثر ذلك بهو ذو عمد عظيمة ينفذ إليها النور من منافذ صغيرة بأعلى الجدران، أما العمد التي مُثل كل منها في صورة حزمة من البردي فلا تزال باقية في مكانها مزدحمة في أرجاء ذلك البهو فلا يرى الإنسان من خلالها منظرًا خارجيًّا إلا بصعوبة، وخلف هذا البهو يدخل الإنسان في الحجرات المقدسة العدة التي لُفت في ظلام حالك، وهي التي كان يُحفظ فيها كل الأدوات الخاصة بالعبادة وما يتبعها من البخور والملابس الثمينة التي كانت مخصصة لهذا الإله العظيم.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن التصميم الأصلي كان يوضع دائمًا بطريقة تجعل البناء قابلًا لإقامة إضافات جديدة عليه دون أن يمس جوهر المعبد الأصلي أو يشوه صورته ووحدته المتناسقة، وقد كانت هذه الفكرة السائدة في بناء المعبد هو أن يبقى على مر الأيام وكر الدهور، كما كانت الفكرة في بناء القبر، وذلك على عكس فكرة بناء القصر الملكي الذي لم يكن الغرض منه إلا عرض الحياة الدنيا؛ ولذلك كان يبنى المعبد سواء أكان للملك أو الإله لتسكن إليه روح المتوفى، وليمثل ما كان عليه من قوة وعظمة،



شكل ١: تخطيط معبد الأقصر (الجزء الذي بناه «أمنحتب الثالث»).

وليبقى هو أبديًّا ما بقي أثره، ومن أجل ذلك نجد الفرعون يقيم قاعات عمد ضخمة كأنها الغابات ذات الأشجار الباسقة والقاعات الشاسعة الأرجاء والتماثيل الضخمة التي تمثل الملك والإله أيضًا، والمسلات التي تناطح السماء في علوها وبهائها التي كان ينصبها عند مدخل معبده العظيم. ولكن بالموازنة نجد أن كل هذه الأشياء لا تقع تحت حس الإغريقي؛ ولذلك نجد المعابد اليونانية خالية منها، ومن جهة أخرى نرى أن المعبد المصري أُقيم بفكرة تمثل الشعور الديني الذي نجده في الكنائس الرومانية والقوطية؛ ولذلك نجد أن الروح الذي نشاهده سائدًا في الشعائر المصرية بصورة غاية في الاعتناء والدقة، وهي التي يطلق فيها البخور في ساحات المعبد، يوجد نظائرها في الكنائس الرومانية والقوطية، كما نشاهد كذلك أن في كليهما قد فُصل «قدس الأقداس» وما يتبعه من أدوات عبادة عن أعين غير رجال الدين في حجرات خاصة لا يُسمح بدخولها ورؤية محتوياتها إلا لأولئك الذين يعرفون الأسرار الدينية من الكهنة.

وكذلك تتشابه الشعائر المصرية بالشعائر المسيحية في أن حرق القرابين كان غريبًا عن كل منهما، وهذا يخالف ما نعرفه عن كثير من الديانات الأخرى التي كان من شعائرها حرق القربان، فالقرابين المصرية التي كانت تشمل الخبز واللحم والفاكهة والشراب والأزهار كانت تُكدس على مائدة قربان، وتُقدم للإله والمتوفى ليأخذ نصيبه منها بتأملها بعد قراءة صيغة الشعيرة الخاصة بها، وبعد ذلك كانت تُؤخذ وتُقسم بين كهنة المعبد والقائمين بخدمته. والواقع أننا نشاهد أحيانًا قربانًا يُقدم للمتوفى يُحرق على موقد خاص (راجع A. Z., 48 p. 69).

بيت الولادة

غير أن شيوع هذه العادة لم يعم إلا في العهود المتأخرة من التاريخ المصري، والظاهر أن ذلك قد جاء عن طريق تأثير آسيوي. وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة نجد بجوار المعابد الكبيرة محاريب صغيرة أُقيمت على ما يظهر بفكرة أخرى مختلفة، وهذه المحاريب هي التي كانت تُسمى في عهد الإغريق بـ «بيوت الولادة»، وكانت تُقام على قاعدة مرتفعة يصل إليها الإنسان بسلم يؤدي إلى داخل المحراب بواسطة بوَّابة محمولة على عمودين، ويؤدي إلى الحجر الداخلية ممشًى في وسط عمد تحمل السقف يستطيع الإنسان من خلالها أن يرى ما هو خارج المحراب. وهذه المحاريب تشبه كثيرًا المعابد الإغريقية في مساحتها، غير أنها لا تشمل إلا الحجرات الصغيرة التي يسكن فيها إله أو آلهة لبعضهم علاقة ببعض، غير أن كل واحد منهم كان له شعائره الخاصة التي تختلف عن شعائر الآلهة الآخرين اختلافًا بينًا. ومن الجائز أن يرى الإنسان في هذه المعابد الصغيرة صور المعابد المتواضعة التي أُقيمت في عهد الدولتين القديمة والوسطى، ولسبب خاص أُطلق عليها في العهد الإغريقي «بيوت الولادة»، وكانت في العادة تُقام أمام المعابد الكبيرة بمثابة جزء تابع لها، وحتى في عهد الدولة الحديثة نجد أن هذه المحاريب التي كان يسكن فيه الآلهة تختلف اختلافًا بينًا عن المعابد العظيمة التي كانت تُقام فيها الشعائر.

هذه نظرة عاجلة عن المعابد المصرية من حيث بنائها وخصائصها ومحتوياتها والشعائر التي كانت تُقام فيها، والآن نعود إلى الكلام عن النمو الفكري في العقائد الدينية في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وبخاصة الحساب والعقاب في عالم الآخرة، وتأثير السحر على أفكار القوم، وانتشار التعاويذ الواقية من نار الآخرة وعذابها وجمعها في كتاب واحد وهو الذي أُطلق عليه خطأ «كتاب الموتى».

الحساب في الآخرة

لقد تتبعنا ذلك التطور الطويل الذي مرَّ فيه الاعتقاد بالمسئولية الخلقية في الحياة الآخرة، (انظر الجزء الثالث) وهو اعتقاد كما نذكر كان حاضرًا في أذهان بناة الأهرام، غير أنه كان منحصرًا في ذاك الوقت في مطالبة المتوفى بالمثول أمام إله الشمس بصفة كونه قاضيًا للإجابة عن ذنب قد يكون اقترفه ضد إنسان آخر لا ليحاسب حسابًا شاملًا. وقد كان الاعتقاد القائم إذ ذاك أنه إذا لم يطلب الإنسان بتلك الطريقة، كان من المحتمل ألا يتعرض

في الآخرة لأي حساب آخر. ولكن بعد عصر الأهرام ببضعة قرون — أي إلى وقت ظهور النصائح الموجهة إلى الملك «مريكارع» — نجد أن ذلك الاعتقاد قد أخذ يحدَّد ويعيَّن بحالة أوضح مما كان عليه من قبل.

فإن ذلك الملك المسن الذى ألقى بتلك الكلمات الحكيمة إلى ابنه «مريكاع» كان متأثرًا تأثرًا عميقًا بالحقيقة القائلة إنه يجب حتى على الملك نفسه أن يحاسَب خلقيًّا في عالم الآخرة عن حياته في هذه الدنيا، فنعيد إلى ذاكرتنا هنا نصيحته الهامة التي يقول فيها: «إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المخطئ ليسوا متسامحين في ذلك اليوم الذي يحاسبون فيه الشرير وقت تنفيذ الحكم … ولا تركنن إلى طول الأيام؛ لأنهم ينظرون (يعني القضاة) إلى مدى حياة الإنسان كأنها ساعة[٣] واحدة، والإنسان يعيش بعد الموت وأعماله تُكوَّم بجانبه؛ لأن الحياة الأخرى باقية، ولا يهمل أمرها إلا الغبي، أما من يصل إليها دون أن يرتكب إثمًا فإنه سيبقى هناك إلهًا يسير بخطًى واسعة مثل أرباب الخلود (يعني الأموات البررة).»

وإذا كان الإنسان يعد لنفسه قبرًا في الجبانة من جهة، فإن «مريكارع» كان يذكره والده من جهة أخرى بأن يقيم قبرًا لنفسه «بصفته إنسانا مستقيم الحال وبصفته إنسانًا أقام العدل (يعني ماعت)؛ لأن ذلك هو الذي يركن القلب إليه.»

«والفلاح الفصيح»[٤] الذي لا صديق له كان يقول «لمدير البيت العظيم» عند مدافعته مطالبًا إياه باستعمال العدالة: «احذر إن الأبدية تقترب.»

وقد رأينا فيما تقدم أن «أميني» أمير مقاطعة «بني حسن» العظيم نقش على باب قبره سجل أعماله الصادرة عن العدالة الاجتماعية فيما يختص بمعاملته لرعيته إذ كان الغرض من نقش ذلك السجل أن يكون له خير زاد يتزوَّد به للذهاب في سفره إلى عالم الآخرة. وقد مُلئت محاجر المرمر بجهة «حتنوب» (بيت الذهب) الواقعة في الصحراء الشرقية خلف تل العمارنة بالنقوش التي دُوِّنت فيها حياة أمراء ذلك العهد الإقطاعي الذين جاوروا تلك البقعة حيث ذكروا ما كانوا عليه من صفات الخير والعدالة التي لا تُحصى، فنجد كثيرًا أن أولئك الرجال الذين عاشوا في ذلك العهد الإقطاعي كانوا يذكرون

---

[٣] وفي القرآن الكريم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. راجع كذلك كتاب الأدب المصري القديم، جزء أول، ص١٩٤.

[٤] راجع كتاب الأدب المصري القديم، جزء أول، ص٥٤–٦٩.

فوق مقابرهم ما كانوا عليه من الأخلاق العادلة بزعمهم، فيقول موظف من موظفي ذلك العصر اسمه «سسنب» إنه أقام العدالة ولا يمقت إلا الباطل الذي لم يَرَه.

على أن متون التوابيت تبين لنا بجلاء أن الشعور بنفع المسئولية الخلقية في عالم الآخرة قد تعمق تعمقًا عظيمًا في نفوس القوم منذ عصر الأهرام إلى ذلك الزمن.

فنجد أن موازين العدالة التي كثيرًا ما كان يذكرها ذلك «الفلاح الفصيح» عند استشهاده على «مدير البيت العظيم» قد صارت إذ ذاك تحتل مكانة عظيمة ممثلة في مسرحية حساب الآخرة حيث يقول أحد الأنام للمتوفى: «إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك، وإنك تصعد … وذنبك مغفور، وظلمك قد مُحِيَ بأيدي أولئك الذين يزنون بالموازين في يوم الحساب.»

وكما كان ذلك «الفلاح الفصيح» يُسمَّى «مدير البيت العظيم» في كثير من الأحيان «موازين العدل»، كذلك كان في مقدور المتوفى أن يكون متحليًا بالأخلاق الفاضلة الحقة التي تشبه في استقامتها كفتي الميزان اللتين لا تحيدان. ومن ثَمَّ نجد «متون التوابيت» تقول: «تأمل! إن فلانًا هذا (إشارة إلى المتوفى) هو موازين «رع» التي يوزن بها الصدق.» (يعني الحق). وهنا يتضح لنا لمن كانت موازين الصدق هذه، ومن هو ذلك القاضي الذي يشرف عليها، حيث نجده — كما كانت الحال قديمًا — أنه «إله الشمس» الذي كان قد حوكم أمامه نفس الإله «أوزير»، ونجد في مناسبة أخرى خاصة بمحاكمة المتوفى أمام «الإله رع» أن هذه المحاكمة كانت تُعقد بحجرة «سفينة الشمس».

وقد صار الزاد الخلقي للإله العظيم — وقتئذٍ — من الأمور الطبعية، ولذلك يقول المتوفى: «إنه كان يحب الحق، ويكره الباطل، وهو الذي تسير الآلهة في سبل عدالته المحبوبة.»

وعندما دخل المتوفى في تلك السبل الإلهية الحقة كان المعنى المقصود من ذلك أنه ترك وراءه الرذائل الخُلُقية، ولذلك يقول المتوفى أيضًا: «إن خطيئتي قد أُقصيت عني، ومُحِيَ إثمي، ولقد نظفت نفسي في تينك البحيرتين العظيمتين اللتين في «أهناس».»

وتلك الحمامات التطهيرية الرسمية التي كثيرًا ما نصادفها مذكورة في «متون الأهرام»[٥] قد صارت الآن تدل بوضوح على معنى خُلقي حيث يقول المتوفى محدثًا عن

---

[٥] راجع: Sethe “Pyramiden Texte”, I, 710c–713a. Sethe Ibid, II, 1164b–1165a; 1530a–d; 1987a–c.

نفسه: «إني أسير فوق الطريق التي أغسل فيها رأسي في بحيرة الحق.» وكثيرًا ما نجد المتوفى يدَّعي أن حياته كانت نقية إذ يقول:

«إني إنسان أحب الحق، وما كرهته هو الباطل.»
«إني أقعد بريئًا وأقوم بريئًا.»
«لقد أقمت العدل ومحوت الباطل.»

ولقد ذكرنا أن القاضي الذي تقف أمامه الأرواح كلها كان في الأصل «رع»، ولكن «أوزير» كذلك قد أظهر نفسه من زمن مبكر في موقف ذلك القاضي؛ حيث نقرأ في «متون التوابيت» عن المجلس العظيم (أو محكمة العدل) للإله «أوزير»، وكان ذلك منذ زمن بعيد يرجع إلى الأسرة التاسعة أو العاشرة (من القرن الرابع والعشرين إلى الثاني والعشرين قبل الميلاد) في أيام حكم الملك «مريكارع»، ولا شك أن انتشار عبادة «أوزير» التي كانت آخذة في الازدياد كان لها علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع — الذي صار الآن عامًّا — بأن كل روح لا بد أن يعمل لذلك الحساب الخلقي العسير الذي ينتظرها في الآخرة كما تكلمنا عن ذلك في الجزء الثالث، وقد صار من المعروف عادة منذ بداية الدولة الوسطى أن يُضاف إلى اسم كل متوفى نعت «المبرأ». وهذا النعت هو الذي ناله «أوزير» فيما مضى بصفته الخصم الظافر على أعدائه المبرأ أمام محكمة «إله الشمس». وقد كان ذلك النعت — كما نعلمه من «متون الأهرام» — لا يُضاف إلا إلى اسم الفرعون فقط، غير أنه صار بالتدريج امتيازًا تمنحه كل روح، أو على الأقل صار من حق كل روح متسمة بالأخلاق الفاضلة.

وكذلك نجد أنه عندما نال «المذهب الأوزيري» القبول عند البلاط الملكي كان الملك يُوحد مع «أوزير المبرأ»، ولهذا صار «الكهنة» — فيما بعد — يضعون كلمة «أوزير» قبل اسم كل متوفى، كما نجد ذلك مذكورًا في «متون الأهرام»؛ حيث نجد أن الملك «بيبي» كان يُسمَّى «أوزير بيبي». والملك «تيتي» كان يُسمَّى «أوزير تيتي».

وقد كان من فوائد انتشار عبادة «أوزير» الآخذة في الازدياد أن المنهج الذي كان يرمي إلى صبغ الحياة الأخروية الملكية الفاخرة بالصبغة «الديمقراطية» قد صار حينئذٍ يوحد كل متوفٍّ ذكرًا كان أو أنثى بالإله «أوزير».

وعلى ذلك لم يقتصر المتوفى على دخول «مملكة أوزير» — كما كانت الحال قديمًا — ليتمتع بحمايته وعطفه، بل صار المتوفى نفسه — ذكرًا كان أو أنثى — «أوزيرًا» وعُدَّ ملكًا.

ولذلك نجد — حتى في مدافن الفقراء — أن المومية كانت تُصوَّر في شكل مومية «أوزير» موضوعة فوق ظهرها. وكانت التعاويذ التي تمثل شارات الملك الفرعوني تُلون على داخل جوانب التابوت، أو كانت تُوضع بهيئة تماثيل بجانب جثمان المتوفى، وقد ظهرت قوة عبادة «أوزير» بحالة تستلفت النظر في العادة الجديدة، وهي إضافة اسم «أوزير» قبل اسم المتوفى.

ومع أنه كان من الجائز للمتوفى أن يُوحد مع إله الشمس — كما كان يحدث ذلك كثيرًا — فإنه على الرغم من كل ذلك كان يُنعت باسم «أوزير»، في حين أن اسم إله الشمس «رع» لم يُفعل به هكذا فلم يُضَفْ قط قبل اسم المتوفى.

وبظهور الدولة المصرية الحديثة بعد سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد نجد أن الأدلة التي تكشف لنا عن ذلك التطور الخلقي الطويل الأمد — الذي نقتفي أثره الآن — قد ازدادت في كميتها وفي أهمية قيمتها، وبخاصة حينما تبين لنا شعور المصري القديم المتزايد بمسئوليته الشخصية عن نوع أخلاقه؛ لأن مرحلة التفكير في ذلك الانتشار الخلقي قد تقدمت تقدمًا محسًّا؛ وذلك لأن المصري القديم في ذلك الوقت كان قد تبصر تبصرًا عميقًا في طبيعة نفسه البشرية. وكان من فوائد ذلك التبصر أن صار المفكرون من المصريين — آنئذٍ — يقدِّرون قيمة المسئولية الخلقية لكل إنسان على حسب حالة عقله نفسه.

وبمناسبة ما جاء ذكره هنا في تلك الفكرة عن «العقل» نقول: «إنه ليس «للعقل» اسم في اللغة المصرية القديمة غير كلمة «قلب» القديمة، وفي عصر الأهرام وجدنا أن «بتاح حتب» ذلك الوزير الحكيم المسن قد لمح عن «القلب» بأنه مركز المسئولية والإرشاد؛ إذ قال فيما ذكرناه له سابقًا: إن المستمع (يعني إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذي يحبه الإله، أما الذي لا يصغي فهو الذي يبغضه الإله، والقلب هو الذي يجعل صاحبه مصغيًا أو غير مصغٍ، وحظ الإنسان الحسن هو قلبه.»

كما نجد في نصائح «بتاح حتب» أيضًا أن قلب الرجل قد صار دليله — بل في الواقع قد صار «ضميره».

فالقلب الإنساني كان في عهد تلك الدولة الحديثة — على أية حال — يُعبر عنه بأكثر من مستمع مجيب إلى النصيحة الطيبة، بل صار يُعبر عنه بأكثر من مرشد إلى حسن الحظ.

ومن المؤكد أن آراء «بتاح حتب» عن القلب ونعته له بالمرشد الحكيم قد استمرت؛ إذ في خلال القرن الخامس عشر ذكر لنا أحد حجاب بلاط الفاتح العظيم «تحتمس الثالث» المسمى «أنتف» خدماته التي أدَّاها للملك؛ حيث قال:

> وقلبي هو الذي حدا بي أن أفعلها، بإرشاده لي، وقد كان هو مرشدي الممتاز، فلم أتخطَّ مقاله، وكنت أخشى أن أتعدى إرشاده، وقد أفلحت بسببه كثيرًا، وقد كنت ممتازًا بما جعلني أقوم به، وكنت ماهرًا بهديه … وإنه وحي من الإله الذي في جوف كل إنسان، وإنه ناصح قد أرشد إلى الطريق الطيبة للفلاح، تأمل! هكذا كنت.

(راجع الجزء الرابع).

ونجد أن أقارب «باحرى»[٦] وهو أمير من أمراء «الكاب» قد خاطبوه بعد موته داعين له بقولهم: «ليتك تمضي حياتك إلى الأبد سعيدًا في حظوة الإله الذي يحل فيك.» كما نجد ميتًا آخر يعلن عن نفسه بقوله: «إن قلب الإنسان هو إلهه، وكان قلبي مستريحًا لأعمالي.»

فكل ذلك يدل على أن المصري القديم قد صار حينئذٍ في حالة من الحساسية والشعور لم يصل إليهما من قبل، وذلك بفضل ما كان يوحي به إليه ذلك الوازع الباطني المنبعث من قلبه وهو الذي سُمي — ببعد نظر مدهش — «إله المرء»؛ وذلك لأن القلب قد صار الآن ذا شعور أكثر اتِّزانًا وأكثر سيطرة وسلطانًا على الإنسان مما كان عليه في عهد ذلك الوزير الحكيم «بتاح حتب» فإنه كان — إذ ذاك — يعلن استحسانه لما يكون عليه المرء من السلوك الحسن أو استياءه لما يكون عليه من السلوك السيء فقط.

ولما صار المصري القديم يشعر بسلطان ذلك الوازع القلبي شعورًا كاملًا، فإنه أخذ — إذ ذاك — يلبس كلمة «القلب» معنى أدق وأوفى حتى صارت أوسع بكثير مما كانت عليه في عصر الأهرام؛ حتى إنها بذلك صارت تزن — بحالة وافية — كلمتنا «الضمير»؛ فنحن إذا قد صرنا الآن في مركز يجعلنا نفهم تمامًا أهمية التحديد والدقة اللذين صوَّر بهما لنا ذلك المصري فكرته النامية الخاصة بحساب الآخرة في الزمن الذي انبثق فيه فجر تلك الدولة الحديثة. وتلك الآراء — التي نجد فيها تفصيلًا أوسع مما كان لدينا عن الحساب في يوم الميعاد — قد وصلتنا عن طريق «كتاب الموتى».

---

[٦] راجع الجزء الرابع.

وقد اجتمعت عندنا ثلاث روايات مختلفة عن الحساب في الآخرة، وقد عُثر عليها في أتم وأحسن اللفائف البردية التي وصلت إلينا للآن.

وكانت هذه الروايات في الأصل مستقلًّا بعضها عن البعض الآخر من غير شك. وعنوان الرواية الأولى منها هكذا.

«فصل[٧] في دخول قاعة الصدق» (الحق)، وهي تحتوي على ما يقوله المتوفى عند الوصول إلى قاعة الصدق عندما يظهر فلان (يعني المتوفى) من كل الذنوب التي اقترفها، ثم يوجه نظره إلى وجه الإله ويقول: «سلام عليك أيها الإله العظيم رب الصدق، لقد أتيت إليك يا إلهي، ولقد جيء بي إلى هنا حتى أرى جمالك، إني أعرف اسمك وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلهًا الذين معك في قاعة الصدق هذه، وهم الذين يقضون على الخاطئين ويلتهمون دماءهم في ذلك اليوم الذي تمتحن الأخلاق فيه أمام «وننفر» (أوزير) انظر: … لقد أتيت إليك.

وإني[٨] أحضر العدالة إليك، وأقصي الخطيئة عنك
إني لم أرتكب ضد الناس أية خطيئة …
إني — في مكان الصدق (هذا) لم آتِ ذنبًا
وإني لم أعرف أية خطيئة
إني لم أرتكب أي شيء خبيث …
وإني لم أفعل ما يمقته الإله
وإني لم أبلغ ضد خادم شرًّا إلى سيده
إني لم أترك أحدًا يتضور جوعًا
ولم أتسبب في إبكاء أي إنسان
إني لم أرتكب القتل
وإني لم آمر بالقتل

---

[٧] راجع: Papyrus Nu. British Museum No. 10477. Sheet 22–24. Budge, “Book of Dead”, Text, Vol. II, p. 125ff.

[٨] راجع: Maystre, “Les Declarations d’Innocence” Cairo. (1937); Papyrus Ani, Sheet 31 & 32. Budge, “Book of the Dead”, Text Vol. II, p. 127ff.

إني لم أسبب تعسًا لأي إنسان
إني لم أنقص طعامًا في المعاد
ولم أنقص قربان الآلهة
إني لم أغتصب طعامًا من قربان الموتى
إني لم أرتكب الزنا
إني لم أرتكب خطيئة تدنس نفسي في داخل حدود بلدة الإله الطاهرة
إني لم أخسر مكيال الحبوب
إني لم أنقص المقياس
إني لم أنقص مكيال الأرض
إني لم أثقل وزن الموازين
إني لم أحول لسان كفتي الميزان
إني لم أغتصب لبنًا من فم طفل
إني لم أطرد الماشية من مرعاها
إني لم أنصب الشباك لطيور الآلهة
إني لم أتصيد السمك من بحيراتهم (أي الآلهة)
إني لم أمنع المياه عن أوقاتها
إني لم أضع سدًّا للمياه الجارية[٩]
إني لم أطفئ النار في وقتها (أي عند وقت نفعها)
إني لم أستولِ على قطعان هبات المعبد
إني لم أتدخل مع الإله في دخله.

والآن ننتقل إلى منظر آخر يمثل الحساب أيضًا؛ حيث نجد القاضي (أوزير) يساعد الاثنين والأربعين إلهًا الذين يجلسون معه لمحاسبة المتوفى والذين هم شياطين مخيفة،

[٩] راجع: Papyrus Nebseni, British Museum No. 9900. Sheet 30. Budge, Ibid. 104ff. & Papyrus Nu. Budge, Ibid. 125, & Papyrus Iuau, Budge, Ibid. 106ff, & Anti, Budge, Ibid. 172ff.

يحمل كل منهم اسمًا بشعًا مزعجًا ويدعي المتوفى أنه يعرف أسماءهم؛ ولذلك يخاطبهم واحدًا واحدًا باسمه وأسمائهم هكذا:

خطوة واسعة — خرجت من «عين شمس».
ومحتضن اللهيب الذي خرج من «طرة».
وآكل الظل الذي خرج من الكهف.
وعينان من لهيب خرجتا من (لتوبوليس) بلدة أوسيم الحالية.
وكاسر العظام الذي خرج من «أهناس».
وآكل الدم الذي خرج من مكان الإعدام.

فكان المتوفى يذهب إلى تلك الأسماء وأمثالها من أسماء المخلوقات التي اخترعها خيال رجال الكهانة المصريين ويوجه لكل منهما — بدوره — اعترافًا ببراءته من خطيئة معينة.

وظاهر طبعًا أن أولئك الاثنين والأربعين قاضيًا ليسوا إلا أسماء مخترعة، وهم يمثلون — كما تقدم ذكره سابقًا — الاثنين والأربعين مقاطعة أو المراكز الإدارية التي تتألف منها البلاد المصرية.[١٠]

ولا شك في أن الكهنة ألَّفوا تلك المحكمة من اثنين وأربعين قاضيًا قصد الإشراف على أخلاق المتوفى في كل أنحاء البلاد؛ حيث يجد المتوفى أن نفسه تواجه على الأقل قاضيًا من بين أولئك القضاة قد جاء من البلدة التي كانت موطنًا له، ويكون ذلك القاضي على علم بسيرة ذلك المتوفى المحلية وشهرته في أقصى وأدنى الشارع الرئيسي في بلدته، وبذلك لم يكن في إمكانه أن يخاتله ويغشه. وتشتمل هذه الاعترافات الاثنان والأربعون على كثير من نفس موضوع الإعلانات التي ذكرناها في الخطاب السالف، فقد وجد الكهنة الذين قاموا بنشر تلك الإعلانات بعض الصعوبة في إيجاد الخطايا الكافية لملء قائمة مؤلفة من اثنتين وأربعين خطيئة؛ ولذلك نجد من بينها كلامًا كثيرًا معادًا، هذا عدا التكرار الذي ذُكر مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ والجرائم التي كان يمكن عدها من الجنايات وأعمال العنف التي يتبرأ منها بقوله:

إني لم أقتل رجالًا

[١٠] راجع تفصيل الكلام عن هذه المقاطعات في كتاب «أقسام مصر الجغرافية» للمؤلف.

إني لم أسرق
إني لم أتلصص
إني لم أسرق امرأً ينتحب على متاعه
ولم تعظم ثروتي إلا من ملكي الخاص
إني لم أغتصب طعامًا
إني لم أبعث خوفًا
إني لم أذكِّ الشجار.

هذا ونجد المتوفى كذلك ينكر الغش وغيره من الصفات المذمومة أو يقول:

إني لم أنطق كذبًا
إني لم أضع الكذب مكان الصدق
إني لم أتصام عن كلمات الصدق
إني لم أخسر مكيال الحبوب
ولم أكن طماعًا
وقلبي لم يلتهم (يعني لم يطمع)
ولم يكن قلبي متسرعًا
إني لم أضاعف الكلمات عند التحدث
ولم يكن صوتي عاليًا فوق ما يجب
ولساني لم يتذبذب
ولم تأخذني حدة الغضب (في طبعي)
إني لم أسب
ولم أكن متسمعًا
ولم أكن متكبرًا (منفوخًا).

كما كان المتوفى أيضًا بعيدًا عن ارتكاب الرذائل الجنسية؛ إذ يقول:

إني لم أرتكب زنا مع امرأة
إني لم أرتكب ما يدنس عرضي.

وكذلك ينكر المتوفى أيضًا مجاوزته للحدود الرسمية؛ إذ يقول:

إني لم أعب في الذات الملكية
إني لم أسب الإله
إني لم أذبح الثور المقدس
إني لم أسرق هبات المعبد
إني لم أنقص طعام المعبد
إني لم أرتكب شيئًا تكرهه الآلهة.

وإنكار هذه النقائص وغيرها مما لم يمكننا فهمه هو الذي يتألف منه ذلك الإعلان بالبراءة، ويُسمَّى هذا الجزء المذكور من «كتاب الموتى» في العادة باسم «الاعتراف». ومن الصعب على الإنسان في الواقع أن يبتدع اسمًا مخالفًا لطبيعة بيان المتوفى الحقيقي أكثر من تلك التسمية؛ إذ هي إعلان واضح عن براءة المتوفى فتكون — بطبيعة الحال — عكس ما يُفهم من كلمة «اعتراف» هذه؛ ولهذا السبب قد صار فساد تلك التسمية من الأمور الظاهرة لدرجة أنه وصل الأمر ببعض الناشرين لذلك الفصل أن أضافوا بعد كلمة «اعتراف» كلمة «إنكاري» وصاروا يسمونه «اعترافًا إنكاريًّا»، مع أن تلك التسمية ليس لها معنى؛ لأن المصري القديم لم يعترف بشيء في وقت تلك المحاكمة. وهذه الحقيقة في غاية الأهمية في تطور المصري الديني القديم كما سيتضح فيما نذكره بعد.

والواقع أن إساءة فهم ذلك الجزء من «كتاب الموتى» بتسميته «اعترافًا» معناه إساءة الفهم التام لذلك التطور الذي كان يسير بالمصري القديم — إذ ذاك — على مهل نحو اعترافه التام بخطاياه وإظهاره المتواضع لها، وهو أمر لا يوجد أبدًا في أية ناحية من نواحي «كتاب الموتى».

ثم بعد أن يذكر المتوفى براءة نفسه أمام هيئة المحكمة العظمى كلها يوجه خطابه إليهم بوثوق فيقول:

سلام عليكم يا أيها الآلهة
إني أعرفكم وأعرف أسماءكم
وإني لن أسقط أمام أسلحتكم
لا تبلغوا عني شرًّا لذلك الإله الذي تتبعونه
إن قضيتي لم تأتِ أمامكم

قولوا عني الصدق أمام (الرب المهيمن)
لأني أقمت الصدق (يعني العدل) في أرض مصر
وإني لم أَسُب الإله
وإن قضيتي لم تأتِ أمام الملك الحاكم وقتئذٍ
سلام عليكم أيها الآلهة الذين في قاعة الصدق (هذه)
والذين خلت أجسادهم من الخطيئة والكذب
والذين يعيشون على الصدق في «عين شمس ... أمام حور» الساكن في قرص «شمسه».[11]
انظروا، إني آتٍ إليكم بدون خطيئة وبدون شر وبدون ذنب
إني أعيش على الحق
وآكل من عدالة قلبي
ولقد فعلت ما تقوله الناس وما يرضي الآلهة
ولقد أرضيت الإله بما يرغب فيه
فأعطيت الجائع خبزًا
والصادي ماءً
والعريان لباسًا
ومن لا قارب له رمثًا
وصنعت قربانًا مقدسًا للإله، وقربانًا من الطعام للموتى
فنجوني أنتم، واحموني أنتم
ولا تقدموا ضدي شكاية للإله العظيم
لأني إنسان طاهر الفم وطاهر اليدين
وإني من قال له كل من رآه: مرحبًا، مرحبًا.

وبتلك الكلمات تتحول ادعاءات المتوفى الدالة على خلقه العظيم إلى تأكيدات تدل على أنه قد راعى كل مستلزمات المذهب الأوزيري الرسمية، وتلك يتألف منها أكثر من نصف ذلك الخطاب الختامي الموجه إلى آلهة المحكمة.

[11] يجب أن نلاحظ هنا أن ذلك برهان آخر على أن المحكمة أصلها شمسي.

وأما الرواية الثالثة عن المحاكمة فهي — من غير شك — الرواية التي أثرت أعمق تأثير على نفس المصري، فهي أشبه بتمثيلية «أوزير» في «العرابة المدفونة» في ظهورها أمامنا بصورة بارزة، إذ ترسم لنا المحاسبة الأخروية — كما حدثت — بالموازين؛ فنشاهد الإله «أوزير» في بردية «آني» الفاخرة المحلاة بالصور جالسًا فوق عرشه في نهاية قاعة المحاكمة، وخلفه كل من الإلهتين «إزيس» و«نفتيس» وقد اصطف على طول أحد جوانب القاعة الآلهة التسعة، وهم المعروفون «بتاسوع عين شمس»، يرأسهم «إله الشمس» وهم الذين ينطقون فيما بعد بالحكم ويدلون بذلك. على أن ذلك المنظر الثالث من المحاكمة كان في بدايته شمسي الأصل، وهو الذي احتل فيه «أوزير» الآن المكان الأول؛ فيُشاهد في وسط المنظر موازين «رع» وهي التي يزن بها الصدق، مطابقًا لما سبق ذكره بتسميتها بذلك الاسم في العهد الإقطاعي. ولكن المحاكمة التي ظهرت فيها تلك الموازين — وقتئذٍ — صارت «أوزيرية» الصيغة حيث كانت الموازين في يد الإله الجنازي «أنوبيس» الممثل برأس ابن آوى ويقف خلفه «تحوت» كاتب الآلهة ليشرف على الميزان، وفي يده القلم والقرطاس حتى يسجل النتيجة، وخلف «تحوت» يقع حيوان بشع الهيئة يُسمَّى «الملتهمة» له رأس التمساح وصدر الأسد، ومؤخرة «فرس البحر»، ويكون متحفزًا لالتهام الروح إذا وُجدت ظالمة، وقد صُوِّر بجوار الميزان — بفكرة تدل على الدهاء — صورة القرد تتبعه الإلهتان «رننوت» و«مسخت» وهما إلهتا الولادة؛ إذ يكونان على أهبة التأمل والتدبر للنظر في مصير تلك الروح التي أشرفتا عليها حينما جاءت إلى هذا العالم قبل ذلك. وكان يُحبس خلف الآلهة الذين كانوا متربعين فوق عروشهم إلها «الأمر والعقل».

على أننا كثيرًا ما نجد — في لفائف بردية أخرى في ذلك الموضوع — أن إلهه العدل «بنت رع» قائمة عند مدخل قاعة المحاكمة، ثم تدخل قاعة المحاسبة الروح التي جاءت حديثًا.

وفي ورقة «آني» يدخل «آني» وزوجه القاعة التي يقرر فيها مصيرهما ورأساهما منحنيان بهيئة تدل على الخضوع وينادي «أنوبيس» في الحال قلب «آني»، والإشارة الهيروغليفية التي تدل على القلب — وهي التي تمثل هنا قلب «آني» — تشبه شبهًا كبيرًا إناء صغيرًا.

وقد ظهرت — هذه الإشارة القلبية الممثلة بالإناء الصغير — موضوعة في إحدى كفتي الميزان، كما ظهرت في الكفة الأخرى ريشة — وهي الرمز الهيروغليفي الدال على — الصدق — أو العدالة، أو الحق (يعني ماعت)، ويخاطب «آني» قلبه في اللحظة الحرجة؛ إذ يقول:

يا قلبي الذي أتيت من أمي!
يا قلبي الخاص بكياني!
لا تقفن شاهدًا علي
ولا تعارضني في المجلس (يعني محكمة العدل)
ولا تكونن حربًا عليَّ أمام رب الموازين
ولا تدعن اسمي يصير منتن الرائحة في المحكمة
ولا تقولن عليَّ زورًا في حضرة الإله.

وقد ظهر أن لهذا الاستعطاف أثره؛ لأن «تحوت» رسول التاسوع العظيم الذي وجد أفراده في حضرة الإله «أوزير» يقول على الفور:

«اسمع أنت هذه الكلمة بالحق:
إني قد حاسبت قلب «أوزير» «آني»[١٢]
وإن روحه تقف شاهدة عليه
وأخلاقه قد وُجدت مستقيمة على حسب الميزان العظيم
ولم يوجد له أي ذنب.»

ثم يجيب الآلهة التسعة على الفور:

«ما أحسن ذلك الذي يخرج من فيك العادل»
ثم يشهد «أوزير آني» المبرأ من الذنوب: «إنه ليس له ذنب
وإنه لم يقترف شرًّا
ولن يكون (للملتهمة) سلطان عليه

[١٢] ترك الكاتب ذكر اسم «آني» بعد «أوزير» سهوًا.

وليؤمر بإعطائه الخبز الذي يوضع أمام (أوزير) والضيعة التي في حقل القربان كما عمل لأتباع «حور».

وبعد أن يحكم له بحكم مرض بتلك الكيفية يقود «حور» ابن «إزيس» «آني» المحظوظ، ويقدمه إلى «أوزير» حيث يقول له في الوقت نفسه:

إني آت إليك يا «وننفر» (أوزير)، وإني أحضر لك «أوزير آني»
إن قلبه المحق يخرج من الميزان، وليست له خطيئة في نظر أي إله أو إلهة
ولقد حاسبه «تحوت» بالكتابة
وقد شهدت له الآلهة التسعة شهادة عادلة جدًّا
فليؤمر بإعطائه الخبز والجِعة اللتين توضعان أمام «أوزير وننفر» مثل أتباع «حور».

وبعد ذلك يضع «آني» يده في يد «حور» ويخاطب «أوزير» فيقول:

تأمل! إني أمامك يا رب الغرب
إن جسمي خالٍ من الذنوب
إني لم أنطق كذبًا على علم مني
وإذا كان ذلك قد فرط مني فإني لم أكرره ثانية
دعني أكن مثل أصحاب الحظوة من أتباعك.

وعندئذٍ يركع أمام الإله العظيم، وفي أثناء تقديمه مائدة القربان يصير مقبولًا؛ إذ يدخل في مملكة «أوزير».

فتلك البيانات الثلاثة عن الحساب في الآخرة على الرغم مما فيها من الحواشي والملحقات التي زخرفها بها الكهنة؛ ذات أثر فعال في النفوس، حتى في نظر الباحث الحديث حينما ينعم النظر في تلك اللفائف البردية التي مضى عليها ٣٥٠٠ سنة تقريبًا، ويعلم أن تلك المناظر ليست إلا تصويرًا محسًّا لنفس الشعور بالمسئولية الخُلقية، ولنفس إيحاء الوازع الباطني الذي لا نزال — نحن للآن — نطالب به أنفسنا؛ إذ نجد أن «آني» يتضرع لقلبه — الذي هو الكلمة المعبرة عنده عن «الضمير» — بألا ينم عليه؛ إذ نجد أن

صدى صيحته تتردد في كل الآباد والدهور في كلمات مثل تلك التي قالها ريشارد[١٣] حيث قال:

إن ضميري له ألف لسان مختلف
وكل لسان يأتي معه بقصة مختلفة
وكل قصة تقضي علي بأني شرير.

وقد أصغى المصري إلى نفس ذلك الإيحاء، وخافه وحاول إخفاءه وإسكاته كما اجتهد في إسكات وحي القلب، مع أنه إلى ذلك الوقت لم يعترف بذنوبه، بل تشبث في إلحاح ببراءته. ولقد كانت الخطوة الثانية في ذلك التدرج السامي هي إظهاره — في خضوع — شعوره بخطيئته إلى ربه، وقد وصل إلى تلك الخطوة فيما بعد، ولكن حدث — إذ ذاك — أن تدخل عامل آخر، فعاقه إعاقة شديدة عن تحرير «ضميره» تحريرًا تامًّا. وليس هناك من شك في أن هذه المحاكمة الأوزيرية التي صُوِّرت لنا بذلك الوضوح مضافًا إليها ذلك التقدير العام لعبادة «أوزير» في عهد الدولة الحديثة؛ كان لهما أثر عظيم في نشر الاعتقاد بالمسئولية الخُلقية فيما بعد الموت، كما كان لهما الأثر أيضًا في تعميم تداول تلك الآراء الخاصة بالقيم السامية للأخلاق الطاهرة النقية، وذلك ما شاهدناه منتشرًا بين علماء الأخلاق والفلاسفة الاجتماعيين الذين نشئوا في البلاط الفرعوني منذ عدة قرون خلت في العهد الإقطاعي (راجع كتاب الأدب المصري القديم، جزء أول، ص٩٥). وبتلك الكيفية صار مذهب «أوزير» قوة عظيمة في انتشار العدالة بين الناس، وكان بابه مفتوحًا على مصراعيه ليدخله جميع الناس، ولكن على الرغم من ذلك فإنه كان من واجب الجميع أن يبرهنوا على أهليتهم لذلك الاعتقاد عند الإله «أوزير» من الناحية الخلقية.

تأثير السحر في الأمور الدينية

على أن الكهنة لو تركوا الأمر على تلك الحال لكان حسنًا مقبولًا، ولكن — لسوء الحظ — كان انتشار الاعتقاد في نفع قوة السحر وتأثيرها في الحياة الأخروية لا يزال مستمرًّا؛ إذ كان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها — من غير نزاع — باستعمال

---

[١٣] هو «رتشارد الثاني» ملك إنجليزي ١٣٧٧–١٣٩٩، وهذا الاقتباس من رواية للشاعر شكسبير.

الرقية الملائمة للحصول على ذلك الأمر المرغوب فيه. كما كان في الإمكان كذلك أن يُعاد إلى الإنسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شيء حتى العتاد العقلي ألا وهو «القلب» الذي معناه — في اللغة المصرية القديمة — «الفهم» أو «العقل» (راجع الأدب المصري القديم، جزء ٢، ص١٠ … إلخ).

فقد رأينا — فيما سبق ذكره — كيف أن نفس تلك الرقية التي تمكنت بها تلك الأم الهلوعة من منع طفلها أن يأخذه ذلك الشيطان الرجيم؛[١٤] كان في الإمكان كذلك استعمالها لمنع أخذ قلب الإنسان منه (يعني سلب عقله منه). وقد وضعت الكهنة[١٥] في «متون التوابيت» في عصر العهد الإقطاعي؛ رقية لذلك الغرض عنوانها: «فصل في عدم السماح بأخذ قلب الرجل منه في العالم السفلي»، وقد أضيفت — الآن — هذه الرقية إلى «كتاب الموتى».

وفي هذا الكتاب نجد أن السحر قد أُدخل إلى عالم جديد آخر وهو عالم «الضمير» والصفات الشخصية والأخلاقية.

وقد سوَّغت للكهنة أبواب الكسب والارتزاق — التي كانت لا تقف حيلتهم فيها عند حد — أن يتخذوا لهم من ذلك الزمن خطة خطيرة للاحتيال على الكسب، ألا وهي السماح لمثل تلك العوامل المنحطة أن تتدخل بتلك الكيفية في القيم الخُلقية؛ إذ كان في مقدور السحر أن يصير عاملًا للوصول إلى الغايات الخلقية، وسنذكر فيما يأتي أن «كتاب الموتى» هو — بوجه خاص — كتاب للرقى والتمائم السحرية، وأنه حتى الجزء الخاص منه بحساب الآخرة لم يستمر طويلًا خاليًا من ذلك؛ حيث نجد أن تلك الكلمات المؤثرة التي وجهها «آني» إلى قلبه عندما كان يُوزن بالموازين الأخروية وهي قوله له: «يا قلبي لا تقم شاهدًا عليَّ»؛ كانت تُدون — إذ ذاك — على صورة «جعل مقدس» مصنوع من الحجر (وهو الجِعْران)، ثم تُوضع فوق قلب الميت حتى تكون بمثابة أمر له نفوذ سحري فعال يمنع القلب إفشاء أخلاق المتوفى (الذميمة).

وقد صارت ألفاظ تلك الرقية الجعلية (الجِعْرانية) فصلًا مستقلًّا من فصول «كتاب الموتى» عنوانه: «فصل لمنع قلب الرجل من معارضته[١٦] له في العالم السفلي.»

---

[١٤] راجع مصر القديمة، جزء ٣.

[١٥] راجع: Papyrus of Nu, Sheet 5. Budge, “Book of the Dead” Text Vol. I, p. 128–129.

[١٦] راجع الفصل الثلاثين من كتاب الموتى.

وكانت مناظر المحاكمة في الآخرة ومتن إعلان البراءة تُكتب مرارًا على صفحات البردي؛ إذ يقوم بتدوينها الكهنة، ثم تُباع لكل الناس، ولا يُكتب اسم الميت في هذه النسخ، وإنما كان يُترك لكتابته مكان يملؤه المشتري بعد حصوله على تلك الوثيقة.

وكانت كلمات الحكم التي تعلن أن المتوفى قد فاز في المحاكمة وبرئ من كل شر نُسب إليه؛ تُدون في كل صحيفة من تلك الصحف. وعلى ذلك كان في إمكان كل إنسان — مهما كانت أخلاقه ذميمة في الحياة الدنيا — أن يستولي من «كتاب الموتى» على شهادة يعلن فيها أن صاحب هذا الاسم — الذي ترك مكانه أبيض — كان رجلًا عادلًا (يعني أن هذا كان يُفعل من قبل أن يُعرف من سيكون صاحب هذا «البياض»).

وقد كان في مقدور ذلك الميت أن يحصل على صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل «إله الشمس» الذي يُعتبر القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة يسقط من سماواته في «النيل» إذا لم يخرج ذلك الميت بريء الساحة تمامًا من محاكمته.

وبتلك الكيفية نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة كان يمكننا تتبعه في حياة الإنسان القديم قد توقف فجأة، أو على الأقل قد صُدم صدمة عنيفة بتلك الحيل الممقوتة التي كان يستعملها أولئك الكهنة الفاسقون جريًا وراء الكسب. ولسنا في حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر في ذلك الشأن الخطير من الاعتقادات الدينية، وما آلت إليه الحال من الارتباك في الفوارق التي انطوت على ذلك التطبيق الأخير للسحر. وذلك الارتباك كان ناتجًا من خيبة الإنسان قديمًا في فهم الفرق بين «ما يدخل في نفس الإنسان» وبين «ما يخرج منها».

فتلك البراءة التي تُطبق على الإنسان تطبيقًا آليًّا بالعوامل الخارجية لتنجيه من العقوبات التي مصدرها من الخارج لا يمكن — بطبيعة الحال — أن تزيل الأضرار التي حدثت في باطن الإنسان؛ فالإيحاء الباطني الذي كان يحسه المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى في الشرق القديم، وهو الإيحاء الذي كانت ترتكز عليه أيضًا كل فكرة عن الحساب الخلقي العسير في عالم الآخرة؛ لا يمكن أبدًا أن يكتفي بمثل تلك الطرق الخارجية التي ابتدعها لهم السحر، ولا بد أن الاعتقاد العام الذي جرت به العادة في الاعتماد على مثل تلك الحيل الدنيئة للفرار من المسئولية الخلقية عن حياة مرذولة — كان قد سمم حياة الشعب الفطرية.

ففي الوقت الذي يكشف فيه لنا «كتاب الموتى» صيغة المحاكمة الخلقية في عالم الآخرة وكيفيتها — وعن الحقيقة التي ألبسها لتصوير المسئولية الخلقية بصورة تامة

أكثر من أي زمن آخر سابق في تاريخ المصريين القدماء — فإنه كذلك يُعتبر كشفًا عن مدى الانحطاط الخلقي في ذلك الوقت؛ إذ بقدر ما صار «كتاب الموتى» سلاحًا لضمان البراءة الخلقية في عالم الآخرة بدون مراعاة لقيمة أخلاق ذلك الشخص صار قوة إيجابية لجلب الشر أيضًا.

ونتاج الكهانة هذا (أي كتاب الموتى) كان — فضلًا عما سبق ذكره عنه — يُعد عاملًا ضارًّا؛ لأنه كان ينتظم طائفة من الرقى والتعاويذ السحرية التي يعتقد فيها القوم القدرة على جلب ما يرضي الميت من الحاجات المادية والجثمانية في عالم الآخرة. وقد زاد عدد تلك الرقى في عهد الدولة الحديثة، وكان لكل واحدة منها عنوانها الدال على ما تؤديه للميت من الأعمال؛ ولذلك فإن الرقى السالفة الذكر مضافًا إليها بعض الأناشيد الدينية في مديح «رع» و«أوزير» وهي التي كان بعضها يُنشد أمام الجنائز، ويحتوي عادة على بعض البيانات عن الحساب في الآخرة كانت — إذ ذاك — تُدون بصفتها متونًا جنازية على صحف من البردي تُوضع مع الميت في قبره. وهذه الأوراق البردية هي التي صارت تُعرف — عندنا عادة — باسم «كتاب الموتى».

كتاب الموتى

والواقع أنه لم يكن موجودًا — في عهد الدولة الحديثة — كتاب كهذا يعرف بذلك الاسم — بل كانت كل لفافة بردي تحتوي على مجموعة — أيًّا كان نوعها من تلك المتون الجنازية على حسب ما يقع تحت يد الكاتب، أو مجموعة من تلك المتون التي كانت سوقها رائجة وقتئذٍ — أي تلك المتون التي كانت تلاقي من الناس أعظم إقبال، حيث كانت توجد لفائف فخمة ذات بهاء يبلغ طول الواحدة منها من ٦٠ إلى ٨٠ قدمًا، وتشتمل على فصول أو رُقًى يتراوح عددها من ٧٥ لغاية ١٢٥ أو ١٣٠، ولكن كان الكهنة من جهة أخرى ينسخون لفائف صغيرة متواضعة لا يزيد طول الواحد منها عن بضعة أقدام، ولا تحتوي إلا على منتخب صغير من تلك الفصول التي تُعَدُّ أكثر أهمية من غيرها. والواقع أنه لم يُعثر على أكثر من لفافتين تحتوي كل منهما على نفس مجموعة التعاويذ التي تشتمل عليها الأخرى.

وقد بقيت الحال كذلك إلى عهد البطالمة (أي بعد القرن الرابع قبل الميلاد بقليل) حينما جُمع منتخب من تلك الفصول وأُدخل استعماله تدريجًا، ثم صار تقريبًا في حكم المتفق على صحة اتباعه. ومن ذلك يتضح — كما ذكرناه فيما سبق — أنه لم يكن هناك

كتاب يُعرف باسم «كتاب الموتى» بصحيح العبارة في عهد الدولة الحديثة، بل كانت تُوجد مجاميع متنوعة من الفصول الجنازية فقط تملأ الأوراق البردية الجنازية التي وُجدت في ذلك العصر.

وقد بلغ مجموع تلك الفصول أو التعاويذ التي كانت تُؤلَّف منها تلك اللفائف ما يربو على مائتين، وأكبر لفافة منها كانت لا تحتوي على تلك الفصول، وقد كان استقلال كل فصل — أو بعبارة أخرى تمييز كل فصل عن غيره من باقي الفصول — واضحًا في ذلك العهد؛ وذلك بفضل اتباع العادة التي جرت بوضع عنوان لكل فصل قبله. وقد كانت تلك العادة متبعة في كثير من فصول «متون التوابيت»، وتوجد هناك مجاميع من الفصول التي تتألف منها أكبر نواة متداولة لكتاب الموتى وتُسمى تلك الفصول غالبًا: «فصول للصعود في النهار»، وهي تسمية وجدناها مستعملة في «متون التوابيت» أيضًا.

وعلى الرغم من كل ذلك لم يكن هناك عنوان شائع عن لفافة كاملة للكتاب «الموتى» باعتباره وحدة شاملة.

وعلى الرغم من أن بعض القطع الضئيلة من «متون الأهرام» قد استمرت طويلًا مستعملة في «كتاب الموتى» فإنه يمكننا أن نقول إن تلك المتون قد اختفت على وجه عام تقريبًا.

وأما «متون التوابيت» فقد ظهرت ثانية بمقدار عظيم جدًّا، وأسهمت إسهامًا كبيرًا في تكوين المجاميع المتنوعة التي يتألف منها الآن «كتاب الموتى».

وقد حدث تجديد في هذه المتون — في ذلك الزمن — لم نرَ منه إلا إشارات فقط في «متون التوابيت»، وكان ذلك التجديد هو إضافة صور فاخرة[١٧] في لفائف الموتى التي عُثر عليها في مخلفات الدولة الحديثة، وكان الغرض منها تصوير مدة حياة المتوفى في عالم الآخرة. وقد كان القوم يعتقدون في تأثير مفعولها اعتقادًا عظيمًا وبخاصة — كما شُوهد ذلك موضحًا — فيما سبق ذكره عن منظر المحاكمة في الآخرة الذي صار — إذ ذاك — مصورًا بهيئة متقنة.

ويمكن القول عن تلك الإيضاحات التي جاءت في «كتاب الموتى» بأنها ما كانت إلا مثلًا آخر لأحكام تلك الطرق السحرية التي كان يُقصد منها تحسين أحوال الحياة

---

[١٧] راجع مثلًا ورقة «آني» السالفة الذكر؛ فإنها تُعَدُّ من أحسن البرديات التي عُثر عليها حتى الآن، زُينت بالألوان الجميلة المختلفة.

الأخروية. والواقع أن «كتاب الموتى» — نفسه — على وجه عام ليس إلا صورة تفسيرية معقدة بعيدة المرمى لإظهار مدى اعتماد القوم المتزايد على السحر في الحياة الآخرة.

وكانت الفوائد المادية التي اجتُنِيَت بتلك الطريقة لا حدَّ لها، ومن الواضح أن ذكاء أولئك الكهنة المرتزقة قد لعب دورًا عظيمًا في التدرج الذي جاء بعد ذلك؛ إذ قد صارت رؤية الآخرة في نظر أشراف الدولة المترفين كما كان يراها الفلاح المصري القديم، ليست بالمستقبل الجذاب، وهي التي كان يمكن المتوفى أن يحرث فيها كما كان يمكنه أن يزرع ويحصد الثمار من حقله. وكما كانت الحبوب أيضًا هي الأخرى تنمو إلى ارتفاع سبعة أذرع (حوالي ١٢ قدمًا)، فلم يكن يروق في نظر أولئك العظماء المنعمين في عصر يزخر بالثراء والترف؛ أن يُكلفوا القيام بعمل ما، أو أن يُجبروا على الذهاب حتى إلى «حقول المنعمين» ليكدوا وينصبوا هناك؛ ولذلك كانت توجد منذ الدولة الوسطى دُمًى مصنوعة من الخشب تمثل خدم الميت في الحياة الآخرة حيث كانت تُوضع معه في القبر لتقوم بدلًا منه بأداء ما يلزمه القيام به من العمل بعد الموت، كما كان يقوم له بذلك خدمه في الحياة الدنيا.

وقد تدرجت تلك الفكرة — إذ ذاك — بعض الشيء في سبيل الرقي والتقدم؛ حيث كانت تُصنع تماثيل صغيرة للمتوفى تحمل كل منها حقيبة وفأسًا ويُطلق عليها التماثيل المجيبة، وكان يُدوَّن على صدور مثل تلك التماثيل رقية خادعة وهي:

> يا أيتها[١٨] الدمى المتخذة لفلان (هنا يكتب اسم المتوفى)، إذا نوديت أو إذا طُلبت اليوم للقيام بأي عمل في العالم السفلي ... فإنك تعدِّين نفسك لي في كل الأزمان لتزرعي الحقول، ولتروي الشواطئ، ولتنقلي الرمل من الشرق إلى الغرب، ولتقولي: إنني ههنا.[١٩]

وهذه الرقية كانت تضمن الرقى التي كانت مدوَّنة في بردي المتوفى تحت عنوان: «فصل في جعل الدمية تقوم بعمل المرء في العالم السفلي»، وهذه الطريقة الحاذقة قد أُتقنت إتقانًا كثيرًا، حتى إنه قد خُصص لكل يوم من أيام السنة دمية من تلك الدمى الصغيرة الخاصة بالميت التي تُوضع معه في قبره.

[١٨] كتاب الموتى، الفصل السادس (راجع Budge, “Book of the Dead”, Text. I, p. 29f).

[١٩] إن الكلمة التي تعبر عن هذه الدمى تُكتب عادة «يوشابتي» أو «شوابتي».

وقد عُثر على تلك الدمى بمقادير عظيمة في الجبانات المصرية القديمة، حتى إن المتاحف (والمجاميع الخاصة) في كل العالم قد صارت الآن آهلة بها.

ولا غرابة إذن إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتزاز أموال الناس بالباطل حبًّا في الكسب الذي كان يأتي إليهم بتلك الطريقة السهلة؛ ولذلك تضاعفت أخطار الآخرة وأهوالها إذ ذاك تضاعفًا عظيمًا، إلا أن الكهنة كان في مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعاويذ الفعالة التي تنجيه من الخطر حتمًا، هذا بخلاف تعاويذ عديدة تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة، كما كانت توجد أيضًا تعاويذ تمنع فقدان المتوفى فمه ورأسه وقلبه. وأخرى لتساعده على استذكار اسمه، وكما كان منها ما يساعد على التنفس والأكل والشرب، ومنها ما يمنعه أكله لبرازه، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يتحوَّل إلى لهيب، ومنها ما يحول الظلام نورًا.

كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية، وكما كانت تُوجد أصناف كثيرة أخرى غير تلك من التعاويذ؛ فكذلك ازداد الآن موضع التقمصات التي كان يرغب الميت في أن يتقمصها روحه، وقد وُضع فصل صغير لكل حالة يرغبها الميت ليساعده على أن يتقمص في صورة «صقر من الذهب» أو «صقر إلهي» أو زنبقة أو مالك الحزين (فنكس) أو بَجَعَة أو الثعبان المسمى ابن الأرض أو تمساح أو إله.

والأدهى من كل ذلك هو اختراع فصل قوي المفعول يمكن الإنسان باستعماله له من أن يتخذ لنفسه أي شكل يريد.

ويتألف من مثل ذلك الإنتاج الذي تقدَّم ذكره الجزء الأعظم من مجموعة المتون التي نسميها الآن «كتاب الموتى». فإذا سميناه إذن بعد ذلك «إنجيل المصريين» كنا قد أسأنا فهم وظيفة هذه اللفائف ومحتوياتها.

وذلك الاتجاه الذي نتجت عنه تلك المجموعة من التعاويذ أو الرقى، وهي التي يُطلق عليها عادة اسم «فصول»؛ نجده ظاهرًا بشكل مميز كذلك في كتابين آخرين، يكوِّن كل منهما وحدة متماسكة متصلة. وأولهما «كتاب الطريقين»،[٢٠] ويرجع عهده — كما تقدَّم ذكره — إلى عصر الدولة الوسطى،[٢١] وقد أسهم ذلك الكتاب من قبل إسهامًا عظيمًا في

[٢٠] راجع: "Le Livre de ce Qu'il y a dans l'Hadés", Gustave Jequier (1894) & Budge, "The Egyptian Heaven and Hell", Vol. I.

[٢١] راجع الجزء الثالث عن هذه الكتب.

تأليف «كتاب الموتى» فيما يختص بالبوابات النارية التي كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة، وإلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما في سياحته.

وعلى أساس تلك التصورات أنتج خيال الكهنة أيضًا كتاب «الذين في العالم السفلي أو ما في العالم السفلي». وهذا الكتاب يصف لنا السياحة التي تقوم بها الشمس السفلية خلال الليل حينما تخترق الممرات ذات الكهوف الاثني عشر التي في أسفل الأرض وكل منها تمثل مسيرة ساعة. والاثنا عشر كهفًا تنتهي الشمس منها في آخر مطافها إلى النقطة التي تطلع منها إلى الشرق صباحًا. (راجع مصر القديمة، جزء ٣)، (Budge. Ibid. Vol. II)، وأما الكتاب الثاني فيُسمَّى عادة باسم «كتاب البوابات» وهو يمثل كلًّا من الاثني عشر كهفًا على حساب الدخول إلى كل كهف من بوابته وهو خاص باجتياز تلك البوابات، ومع أن تلك التصانيف لم تنتشر الانتشار الذي حظي به «كتاب الموتى» فإنها كانت تُعَدُّ — مع ذلك — كتب إرشاد سحرية أَلَّفها الكهنة أيضًا للكسب منها، مثل معظم الفصول التي يتألف منها «كتاب الموتى».

والأمر الذي خلص «كتاب الموتى» من وصمة أنه كتاب سحري يُستعمل خاصة في عالم الآخرة وكفى؛ هو إحكامه للآراء القديمة الخاصة بالمحاكمة الخُلقية في عالم الآخرة، وتقديره الظاهري لمسئولية «الضمير»؛ إذ قد ذكرنا فيما تقدم أن علاقة الإنسان بالإله كانت قد صارت شيئًا آخر أكثر من إقامته للشعائر الدينية الظاهرة، وكان يرجع ذلك إلى ما قبل مجيء العهد الإقطاعي في الحكومات المصرية القديمة؛ حيث صارت — آنئذٍ — علاقة الإنسان بالإله (علاوة على ما ذُكر) أمرًا يتعلق بالقلب والأخلاق.

ولقد كان الشعور الخلقي عند المصري قويًّا جدًّا لدرجة أنه لم يجعل قيمة الحياة الفاضلة قاصرة على قبوله عند «أوزير» في عالم الآخرة؛ ومن ذلك يتضح لنا تحديد الأخلاق الأوزيرية التي تأمر الإنسان بالتفكير في العواقب الخلقية فقط في عالم الآخرة. ومع كلٍّ فإن «أوزير» كان إله الموتى كما ذكرنا ذلك كثيرًا فيما تقدم، وقد نادى فلاسفة الاجتماع الأقدمون — في العهد الإقطاعي — بعدالة «رع» إله الشمس، وطالبوا بإرجاع العدالة الاجتماعية إلى ذلك العالم كما طالب «رع» بإرجاعها.

ولم يعدم أولئك الفلاسفة أخلافًا لهم في عهد الدولة الحديثة، وهؤلاء الأخلاف رجال رأوا أن عليهم في المذهب الشمسي واجبًا يحتم أن يحيوا حياة حقة في تلك الدنيا، كما أدركوا أنهم ينالهم الثواب الدنيوي إذا عاشوا عيشة طيبة بتلك الكيفية. فإله الشمس لم يكن بوجه خاص إله الموتى، بل كان الإله الذي يحكم في شئون البشر الدنيوية، وقد شعر

الناس بالمسئولية الخلقية التي فرضها عليهم «رع» في كل ساعة خلال حياتهم الدنيوية؛ فحوالي سنة ١٤٠٠ق.م وجَّه أحد مهندسي الملك «أمنحتب الثالث» أنشودة مدح فيها إله الشمس حيث قال:

> لقد كنت قائدًا مغوارًا بين آثارك، مقيمًا العدل لقلبك، وإني أعلم أنك مستريح للعدالة، وإنك تجعل من يقيمها على الأرض عظيمًا، ولقد أقمتها؛ ولذلك جعلتني عظيمًا.

وكذلك حينما كان الفرعون يعقد يمينًا فإنه كان يحلف بحب «رع» لي، وبمقدار عطف والدي «آمون» علي (وقد وحد «آمون» مع «رع» منذ زمن بعيد).

وكان الفاتح العظيم «تحتمس الثالث» عندما كان يقسم بذلك القسم توكيدًا لما يقوله وتعظيمًا لاحترامه للصدق عند الإله يشير عند حلفه إلى وجود إله الشمس هكذا:

> لأنه يعرف السماء ويعرف الأرض ويرى جميع العالم في كل ساعة.

ومع أنه صار من الأمور المسلم بها أن عالم الآخرة السفلي في المذهب الأوزيري كان يصور لنا إله الشمس وهو ينتقل من كهف إلى كهف تحت الأرض مارًّا في عالم «أوزير» السفلي وجالبًا معه النور والفرح إلى الساكنين هناك؛ فإن تلك الفكرة لم تكن معروفة في «اللاهوت الشمسي» كما هو مذكور في «متون الأهرام».

والواقع أن إله الشمس — كما ظهر في عهد الدولة الحديثة — كان يُعتبر قبل كل شيء إله عالم الأحياء من البشر الذين كان حاضرًا معهم نشطًا في شئونهم الدنيوية على الدوام؛ ولذا كان الناس يشعرون بمسئوليتهم أمامه في كل وقت، وكانت سيطرته تلك قد تعمقت، واتسع أمامها المجال باتساع أفق ذلك العهد الإمبراطوري إلى أن انبثق لأول مرة في تاريخ العالم الديني لأعين سكان وادي النيل القدامى فجر رؤية إله عالمي واحد فرد صمد. وسنفصل القول فيه في حينه.

مبادئ انحلال الإمبراطورية
وعهد إخناتون

(١) مقدمة

في ختام القرن الخامس عشر قبل الميلاد وصلت مصر إلى قمة المجد؛ فاتسعت رقعتها، وامتد نفوذها من أعالي دجلة والفرات شمالًا إلى «نباتا» عند الشلال الرابع جنوبًا، وصارت مهيبة الجانب نافذة الكلمة، يذعن لقوتها وبطشها أرباب التيجان وأصحاب الدول، ويسعى كل عاهل في الشرق إلى أن يخطب ودها ويفوز برضاها، وكان أهلها في رغد من العيش، ينعمون بحياة ناعمة، ويتمتعون بخير كثير جاءهم من تلك الممتلكات المترامية الأطراف، التي تتبع بلادهم، وتفيض من خيرها عليهم.

من أجل ذلك انصرف حَمَلة الأقلام إلى الإنتاج من الأدب الرفيع، وافتنَّ الصناع ومهروا بفضل ما أمدَّتهم به مستعمرات مصر من خير ورجال، وانكبَّ علية القوم على مناهل اللذة يكرعون من وردها ما شاء لهم الفراغ وطيب العيش.

فليس من الغريب إذن أن نرى مليك البلاد في هذه الفترة «أمنحتب الثالث» الذي تسلم عرشها حوالي سنة ١٤٠٥ق.م يغترف من فيض اللذة والنعيم ما سمح له به الثراء الواسع والجاه العريض، ولم يشأ هذا العاهل العظيم أن يترسم خطا آبائه وأجداده أباطرة مصر الذين دوَّخوا العالم، ورأوا مجدهم في الغزو وامتشاق الحسام، بل آثر حياة الدعة والمتعة، يقضي يومه في الصيد وليله بين الغواني، فما أشبهه بامرئ القيس الملك الضليل في الفترة الأولى من حياته.

رمى «أمنحتب» بنفسه بين أحضان النساء في غير قصد أو اعتدال، وكلما ازداد انغماسًا في تيارهنَّ اشتد وَلَهَه بِهِنَّ، وازدادت لهفته عليهن، وإذا زهد في الزوجة طلب

الخليلة، وإذا أشبع رغبته من المصريات وجد بغيته بين أحضان الأجنبيات. فلقد حدثتنا الكشوف الأثرية أن هذا العاهل الجبار قد تزوَّج بأخت ملك «متني» في شمال «سوريا» المسماة «جلوخيبا» ثم ثنى بأخته الأخرى «تاتوخيبا»، واستقدم مع الأولى ثلاثمائة وسبع عشرة غادة من حسان «نهرينا» الأماليد، وكان هذا حدثًا سعيدًا في تاريخ حياته، خلَّده «أمنحتب» بنقش جُعل تذكاري رصده في عدة نسخ زهوًا ومباهاة، وتحدثًا بنعمة الله.

وجاء في خطاب كُشف حديثًا في «تل العمارنة» أرسله هذا الملك مع رسوله «خانيا» إلى أمير «جيزر» «ميلكيلي»[١] يطلب إليه أن يرسل إلى مصر أربعين من العذارى يتخيرهن من حسان قومه وأجملهن قوامًا، وأن يكنَّ صبيحات الوجوه، وليس في إحداهن ما يشين جمالها، أو يزري بمحاسنها، وجاء في هذا الخطاب ما يدل على شدة شغف الفرعون بالجمال وولعه بالنساء؛ إذ قال لهذا الأمير: «وسأتخذ من هذه الهدية مقياسًا لحسن ذوقك وخبرتك.» وحسبك بهذه الكلمة تصدر من عاهل عظيم لأمير تابع له حتى يذرع أقطار بلاده جاهدًا منقبًا عن رغيبة مولاه؛ لأنه بذلك يرتفع قدره لديه، ويصير أثيرًا عنده مقرَّبًا إليه.

ولم يقصر «أمنحتب» هذا في طلب النساء من آفاق إمبراطوريته الواسعة ما وجد إلى ذلك سبيلًا؛ فقد طلب من أحد أمراء «سوريا» المسمى «شوباندو» عشرين[٢] عذراء، كما طلب من أمير «أورشليم» «عبدي خيبا» أن يرسل إليه إحدى[٣] وعشرين فتاة من أبكار بلاده، يتمتع بهن في قصره الفرعوني، وأن يسلم هذه الهدية النفيسة إلى عامله الأمين «شوتا» حتى تصل إليه كما برأها خالقها لم يمسسها بشر.

وجاء في خطاب آخر من وثائق «تل العمارنة» أن هذا الفرعون بعينه قد طلب من حاكم إحدى الولايات الآسيوية أن يرسل إليه ابنته لأنه معجب بها، كما تدلنا وثائق أخرى وصلتنا عن هذا العصر أن هذا المليك كان يحتفظ في قصره بأميرة بابلية يحبها.

فليت شعرى أي شره هذا! وليس بالكثير على رجل هذه مُتَعُه المحببة أن تقاس أقدار الرجال عنده بما يقدمون إليه من غوانٍ تملأ العين والقلب، فهذا «توشرتا» ملك «متني»

---

[١] وقد أرسل له الفرعون في مقابل ذلك ذهبًا وفضة وملابس وحجر الدم وكل أنواع الأحجار الكريمة المختلفة وكراسي من الأبنوس وكل شيء طريف (راجع Mercer, “The Tell El Amarna Tablets”, Vol. I, (No. 31a) p. 187).

[٢] راجع: Mercer, “The Tell El Amarna Tablets”, Vol. II, (No. 301) 15ff.

[٣] راجع: Ibid, (No. 288) 1. 20.

يهدي إليه[٤] ثلاثين حظية من البيض الرعابيب، كما أن علامة رضاه على العلية والأشراف من رعاياه أن يهبهم مما أفاء الله عليه من سبايا الحرب ما يستهوي القلب من ذوات الدل والخفر. فأصبح الهوى مسيطرًا على قلوب الرجال، وتمتعت الغواني بمنزلة فريدة، وتطلع القوم إلى المثل العليا في الجمال لا لعبادته وشمه، لكن لقطفه وضمه، والناس في ذلك معذورون؛ لأنهم على دين ملوكهم يسيرون.

(٢) إخناتون

نظرة عامة في حياته: لقد صدق من قال: إن الولد سر أبيه. فهذا «إخناتون»[٥] بن «أمنحتب الثالث» قد ورث عن أبيه حبه للنساء وولعه بالأجنبيات منهن اللائي دلفن إليه من المستعمرات المصرية، وقد أفرد لهن جناحًا خاصًّا في قصره يزوره كلما برح به الشوق أو دفعه الهوى، وإنك لتجد في قصره الذي تركه في «إخناتون» (أفق آتون) منظرًا يجذب

[٤] والواقع أن «أمنحتب الثالث» قد أرسل على أقل تقدير خمس مرات في طلب غانيات ليكنَّ في قصره، ومجموع ما عرفناه حتى الآن لا يقل عن ٤٢٨ غانية. وهاتيك المئات من النسوة الأجنبيات اللائي أُرسلن إلى البلاط الفرعوني قد أثمرت ووضعن أولادًا، وناهيك ما كان لاختلاط الدم المصري بالدم الأجنبي من أثر، وبخاصة إذا علمنا أن هذا الاختلاط قد بدأ منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة (راجع A. Z. LXXIII; p. 92). كما أشرنا إلى ذلك من قبل. راجع أيضًا: "Revue d'Assyrologie" Year 31, Vol. No. III, Dossin, "Une Nouvelle Lettre d'el Amarna".

[٥] كان «إخناتون» في بادئ أمره يُسمَّى «أمنحتب الرابع». وقد تسمى «إخناتون» في السنة السادسة من حكمه، غير أنه غيَّر ألقابه بوصفه إخناتون فيما بعد، وهاك ألقابه الأولى والثانية كما أوردها «جن» في مقال له عن هذه الألقاب. (J. E. A., Vol. XI, p. 168–176):

(أ) ليت الإله الطيب يعيش، وهو الذي يفرح بالصدق، وسيد كل ما يحيط به «آتون» رب السماء ورب الأرض «آتون» الحي، العظيم، الذي يضيء الأرضين، ليت الوالد (المقدس والإلهي) يعيش: رع يعيش، وهو «حور أختي» الذي يفرح على الأفق باسمه: الحرارة التي في «آتون» والمعطي الحياة أبد الآبدين، آتون العائش، العظيم في عيد ثلاثيني، والذي يسكن في معبد «آتون» في «إخناتون».

(ب) رع يعيش حاكم الأفق، الذي يفرح على الأفق باسمه رع الأب الذي عاد في صورة «آتون».

والعبارة الأخيرة تشير إلى عودة إله الشمس «رع» إلى حكم العالم بعد أن رفع نفسه إلى السماء كما فصلنا ذلك في كتاب الأدب عند الكلام على قصة هلاك الإنسانية (راجع الأدب المصري القديم، ج١، ص٧١–٧٤).

الأبصار إليه لجماله وغرابته، يمثل حورًا عينًا كأمثال اللؤلؤ المكنون في مقصورات خاصة بهن في القصر الملكي قد توفرن على التزين والتجمل أفرادًا وجماعات، فمن تزجيج وتكحيل، إلى تطرية وترجيل، وبعضهن يتمايلن راقصات، وأخر يتواثبن عازفات، وإذا أنعمت النظر في لباسهن وزينتهن، وطرق تصفيف شعورهن، وفي آلاتهن الموسيقية عرفت أن جمهرتهن أجنبيات وردن إلى قصر الأمير من «سوريا» وغيرها من البلدان التي تدين لمصر بالولاء والسلطان (راجع Davies, “El Amarna”, VI, Pl. XXVIII, p. 36ff).

ولقد أصبح التعرف بالأجنبيات والتودد إليهن، والاتصال بهن عن طريق الزواج أو التسري نزعة محببة إلى النفوس، وموجه جارفة طغت على مصر في ذلك العهد، وشملت الأمراء وغير الأمراء، وما كان المصريون يحيدون عن تقاليد البلاد الموروثة لولا أنهم تأسوا بفراعنة البلاد سادتهم وآلهتهم، وموضع الرجاء والتقديس فيهم؛ وذلك أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة منذ أن تولوا أريكة الملك دأبوا على تحطيم التقاليد التي جرى عليها القوم؛ فتزوجوا أولًا من بنات الشعب، ثم انتقلوا من ذلك إلى التزوج بالأجنبيات، وقد كان فارس حلبتهم في هذا المضمار «أمنحتب الثالث» كما قدَّمنا، فكانت زوجته «تي» التي تزوجها من عامة الشعب، وتنتسب لأبوين من دهماء القوم أحب زوجاته عنده، وأقربهن إليه، وكان الرأي ما تراه والحكم ما ترضاه؛ حتى سيطرت على أمور الدولة،[٦] ووجهت سياسة الإمبراطورية المصرية، وكان زوجها «أمنحتب» لحبه العميق لها وسلطانها العظيم عليه فخورًا بها، ويحتفل دائمًا بذكرى زواجه السعيد منها، وقد خلده بنقشه على جُعل عُملت منه عدة صور، وذكر فيه صراحة أن التي يحبها وتسيطر على قلبه ليست بذات جاهٍ ولا غنًى، ولكنها من أبوين فقيرين، معلنًا بذلك فخره وخروجه على التقاليد البالية الموروثة.

من هذه الزوجة المحبوبة وُلد «أمنحتب الرابع» (إخناتون)، وترعرع في كنف والده مدللًا محبوبًا، ولم يلبث والده أن أنهكته الشهوات التي غرق في بحارها فحطمت قواه، وألزمته الفراش، ولم تُجْدِه الرقى والتمائم، ولم يَشْفِه طب الطبيب ولا سحر الساحر،

[٦] كان الملكة «تي» على علم تام بالأحوال السياسية كما يدل على ذلك خطابات تل العمارنة (راجع Mercer, “Tell El Amarna Tablets”, 26, 7–18; 24, 42ff; 29, 8, 9. 45ff)، وقد تراسلت مع «توشرتا» من أجل ابنها أمنحتب الرابع (Ibid, 26, 20ff)، وقد كان لها نفوذ في سياسة كل من زوجها وابنها (Ibid. 29, 66ff)، وقد أرسل لها ملك «متني» هدايا خاصة (Ibid, 27, 112)، كما أرسل إليها تحيات في مناسبات عدة (Ibid, 27, 4, 28, 7; 29, 3).



شكل ١: إخناتون في شبابه.

ولم تستطع الإلهة «عشتارت»[٧] التي أرسلها إليه صهره ملك «متني» من «نينوة» أن تبعث البرء والصحة في جسم حطمته الخلاعة وتجرَّع اللذة في نهم وإسراف، فأشرك معه ابنه «إخناتون» في حكم البلاد عجزًا منه عن القيام بأعبائه، ورغبة في أن يتفرغ لإرضاء شهواته وميوله التي لم يقلل من إقباله عليها علته التي ألحت عليه.

مكث «إخناتون» يدير الملك مع والده أكثر من تسع سنوات، بل يُقال اثنتا عشرة سنة، ثم ما لبث والده أن دفع صحته وشبابه ثمنًا لملاذه وأهوائه؛ فمات ولم يتجاوز الخمسين ربيعًا من عمره، ولا نستبعد أن يكون قد عرف قبل مماته ذلك الانقلاب الديني الذي يعد ابنه «إخناتون» العدة لإحداثه؛ فقد عُثر على صورة في مقبرة «حوى» أحد رجال

[٧] جاء في الرسالة رقم ٢٣ أن الإلهة «عشتارت» رغبت في الذهاب إلى مصر والعودة ثانية في السنة السادسة والثلاثين من حكم أمنحتب الثالث (راجع Ibid, I, 23)، وقد نُصح للفرعون أن يستقبلها ويكرم وفادتها، وقد كان مقرها بلدة «نينوة».

بلاط «إخناتون» ظهر في جهة منها «أمنحتب الثالث» على عرش الملك ومعه الملكة «تي»، وفي الجهة المقابلة لهما ظهر «إخناتون ونفرتيتي» وعليهما تاج الملك أيضًا، ووُجد قرص الشمس (آتون) مرسومًا فوق كل من الملكين، ومرسلًا أشعته التي تتدلى منها أياد ترمز إلى الخيرات التي يمنحانها من هذا المعبود. ويرجع تاريخ هذا المنظر إلى السنة الثانية عشرة من حكم «إخناتون»، وإن كان من المحتمل أنه رُسم تذكارًا لزيارة والدته «تي» له في «إختاتون»، وتخليدًا لذكرى والده وإظهارًا لرضائه عن مذهبه الجديد، غير أنه توجد شواهد أخرى تعزز أنه عاش حتى هذا التاريخ وانفرد «أمنحتب الرابع» (إخناتون) بالملك بعد موت والده، وكان قد تزوج من «نفرتيتي» أخته بنت «تي» على أصدق الأقوال.

ولدينا من الحقائق التاريخية ما يجعلنا نعتقد أن الانقلاب الديني الذي أحدثه لم يتم بغتة، وأن مقدماته قد ظهرت منذ عهد «تحتمس الرابع» جد «إخناتون»؛ فقد عثرنا على لوحة بجوار معبد «بو الهول» ظهر فيها «تحتمس» يعبد قرص الشمس «آتون» وقد تدلى من هذا القرص شعاع ينبعث من الشمس حاملًا إليه الخيرات، وهذه الصورة تنطبق إلى حد كبير على الصورة الرمزية لديانة «إخناتون»؛ فقد كان يتعبد إلى قرص الشمس الذي ينبعث منه شعاعات تنتهي بأياد إنسانية. يُضاف إلى ذلك أن «تحتمس الرابع» كان أول فرعون ثار على سلطان كهنة «آمون» وانتزع من يدهم وظيفة رئيس كهنة القطرين، وقلدها أحد قواده الذين يركن إليهم ويثق فيهم. وفي عهد «أمنحتب الثالث» خطا الميل إلى عبادة قرص الشمس خطوة ثانية؛ إذ نشاهد هذا العاهل يطلق على القارب الذي كان يتنزه فيه في بحيرته الصناعية بمدينة «هابو» اسم آتون يضيء (تحن آتن).

فلما تولى «إخناتون» عرش البلاد وجد الأمور مهيَّأة بعض الشيء لعبادة إله الشمس وحده، ورمز له بقرصها الذي سماه «آتون»، وقال عن معبوده: «إنه القوة الكامنة وراء هذا القرص، وإنه واحد لا شريك له»، وبنى له في بادئ الأمر معبدًا في «طيبة» عاصمة الملك، فلم يغضب ذلك كهنة «آمون رع»؛ لأن معبودهم «آمون رع» يمثل إله الشمس أيضًا، ولكن الذي أحفظهم إصرار «إخناتون» على عبادة إلهه وحده، وتحريم عبادة «آمون» وغيره من الآلهة الأخرى. ولقد أفلح في نشر مذهبه في طول البلاد وعرضها، وفي القضاء على المذاهب الأخرى بدون كبير عناء؛ مما يدل على أن الأذهان كانت مستعدة لقبوله، وعلى أن للفرعون قداسة، وعلى أن قوله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه معصوم من الخطأ، والقول ما قال، وهذه بلا شك أفكار كان يخضع لها الشعب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الملك إله وابن إله. ومن الغريب أن هذا المليك الذي بدا لنا سديد الرأي

صائب النظر فيما اتخذه من إصلاح ديني يتمثل في توحيد الإله وتمجيد ذاته مما يدل على عقل راجح، ونفس صافية، وتفكير عميق؛ من الغريب أن صاحب هذه المثل العليا في الإصلاح كان شاذًّا في خلقه، وكما يُقال شاذًّا في عقله، منحدرًا إلى الحضيض في بعض تصرفاته.

أما شذوذه الجسمي فلا دخل له فيه، ولا ذنب له في أنه خُلق على تلك الهيئة التي لا تناسب بين أعضائها ولا انسجام، وتماثيله تدل على تركيب غريب شاهد بقدرة الله، وأما شذوذه العقلي فلمخالفته لأهل عصره في عدم تشيعه لآلهة «طيبة» ومقته الشديد للإله «آمون»، وأما شذوذه الخلقي فهذا موضع الغرابة، وقد وصل فيه إلى مرتبة يتنزه عنها الحيوان الأعجم إذا صح ما قيل، فإننا لفي شك مريب في تلك العلاقة بينه وبين أخيه «سمنكارع»؛ إذ كان حبه له وتعلقه به خارجًا عن نطاق العقل والمألوف.

وإن انحطاطه الخلقي ليتجلى كذلك في زواجه من ابنته الثالثة «عنخس إن با آتون» التي أصبحت زوجة «لتوت عنخ آمون» فيما بعد، كما تلمس خشونته في تحوله عن حبه لزوجته الجميلة (نفرتيتي) وسوء معاملته لها؛ على حسب ما توحي به الآثار المكشوفة. مما سنفصل فيه القول.

كان «إخناتون» يمقت الإله «آمون» مقتًا شديدًا؛ فأغلق معابده حيثما وُجدت، ومحا اسمه أينما رآه، بل محا اسم والده؛ لأن في تركيبه اسم «آمون» (أمنحتب)، ثم ولَّى وجهه شطر الآلهة الأخرى فأنزل بها ما فعل «بآمون»، وزاد بأن محا لفظة الآلهة بصيغة الجمع في كل المعابد؛ حتى لا ينصرف الذهن إلا إلى إله واحد، والظاهر أن «إخناتون» قد وجه اهتمامًا كبيرًا لمذهبه الجديد عندما كان شريكًا لوالده في إدارة الملك، ولم يستعمل القوة في نشره احترامًا لعقيدة والده الذي كان يتعبد للإله «آمون رع»، والذي أعاد لكهنة هذا الإله وظيفة رياسة معابد القطرين بعد أن انتزعها منهم «تحتمس» الرابع كما قدمنا.

وكان والده «أمنحتب الثالث» من جهة أخرى لا يعارض ابنه في عبادته «لآتون» والعمل على نشرها؛ بدليل أنه تركه يبني لهذا الإله معبدًا في «الكرنك»، وليس من البعيد أن يكون والده «أمنحتب» ووالدته «تي» قد خشيا عليه تحمسه لمذهبه الجديد، فأسديا له النصح بالهجرة من «طيبة» والاستقرار في بلدة يتخذها مركزًا لنشر مذهبه الجديد، وإن كان «إخناتون» ينكر ذلك، ويدعي في نقش له على إحدى لوحات مدينة «إختاتون» التي هاجر إليها، أنه ترك «طيبة» من تلقاء نفسه، ويقسم أغلظ الأيمان على أنه هو الذي أراد ذلك، ولم يوجهه أحد إليه، ولقد كان تعلقه شديدًا بعاصمته الجديدة، فأوصى بأن يكون

مرقده الأخير فيها إن مات هو أو أحد أفراد أسرته، وإن شاءت الأقدار أن يموت خارجها فلتُحمل جثته إليها حتى يهدأ بالًا، ويرتاح في حياته الثانية.

بنى «إخناتون» عاصمته الجديدة «إختاتون» في سرعة، وكانت البيوت الأولى لعظماء الدولة ورجال البلاط على طراز صحي فاخر، وقد استوفى وسائل الراحة والترف، وقد عمد كل موظف إلى نقش اسمه وألقابه على واجهة بيته بجانب أدعية للإله «آتون»، وبعد أن استقر المقام بعلية القوم توافد الصناع تدريجًا على العاصمة الجديدة، فاتخذوا مساكنهم في الفضاء المتخلف بين منازل كبار الموظفين، ومن هنا ترى في هذه المدينة القصر المنيف يسكنه الوزير بجانب الكوخ الحقير يأوي إليه الصانع الصغير، ولقد سمى الكاشفون الأحداث شوارعها باسم أعظم بيت فيها؛ فسموا شارع الوزير، وشارع رئيس الكهنة، وهكذا.

ولما هاجر «إخناتون» إلى مدينته تبعه جمٌّ غفير من الأشراف وكبار رجال الدولة اقتناعًا بدينه الجديد، أو جريًا وراء مغانم ينتظرونها، فكثير من الناس يقتفون أثر النجم الساطع، ويولون ظهورهم للكوكب الآفل، أو هاجروا إليها فرارًا من أذى أتباع «آمون» إن بقوا في «طيبة» على مذهبهم الجديد متعبدين لإلهه الواحد. ظل «إخناتون» يحكم في عاصمته بتل العمارنة مدة طويلة بانيًا لإلهه معابد مختلفة منثورة في مختلف جهات القطر بالكرنك، والأشمونين[8] وأسيوط، ومنف، وفي نوبيا العليا عند الشلال الثالث، وفي سوريا. ومع هذا الإخلاص العظيم للدين الجديد لم يتورع «إخناتون» عن الاستجابة لداعي الشهوة إذا دعاه. فها هو ذا لا يزال متورطًا مع أخيه «سمنكارع» في أقبح عادة عرفها الناس، ثم هو لا يخجل من أن يطلق على أخيه لقبًا نسويًّا من ألقاب الملكة «نفرتيتي» وهو «الجمال الفائق لآتون» (نفر نفرو آتون)، ولا يخجل من أن يطلق عليه لقب «محبوبه»، ولا يخجل من أن يمثل على لوحة محفوظة الآن في متحف «برلين» تدل على منتهى الاستهتار بالأخلاق والآداب يبدو فيها «إخناتون» ملاصقًا لأخيه «سمنكارع» مطوقًا خصره بإحدى يديه، ويداعب بالأخرى ذقنه في حب وتدليل، وكل منهما يلبس تاج الملك، ولا شك في أن هذه الصورة تبعث في نفس من يراها معاني كثيرة عن العلاقة الجنسية الشاذة بين الأخوين، وتعيد إلى الأذهان تلك العلاقات الجنسية الشاذة التي كانت تربط الإمبراطور «هدريان» بغلامه «أنطونيوس» (راجع Newberry, J. E. A, Vol. XIV,

[8] راجع: Brunner, “Ein Neue Amarna-Prinzessin”, A. Z. Vol. LXXIV, PP. 104–108.

pp. 3ff). ولم تُطِقْ «نفرتيتي» زوجه الجميلة صبرًا على ذلك، فقام نزاع بينها وبين الفرعون؛ فهجرت قصرها طوعًا أو كرهًا إلى حي آخر في المدينة يُسمَّى «ظل رع»، وانتحت مع «توت عنخ آمون» هذا المكان الجديد، وتركت قصرها الأول «لإخناتون» وأخيه المحبوب «سمنكارع» وزوجته، وهي الابنة الثانية له المسماة «مريت آتون». ومن هنا وجدنا الملك قد أمر بمحو اسم «نفرتيتي» من كل مكان يتحلى به في القصر، ونقش بدله اسم «مريت آتون وسمنكارع»، ولأمر ما أثبت «إخناتون» اسم «مريت آتون» على قصر والدتها «نفرتيتي» مع ذكر نسبتها إليه دون أمها، مخالفًا بذلك التقاليد الملكية التي كانت متبعة. على أن هناك أمرًا ذا بالٍ ربما كان سببًا في ازدياد النفور بين «نفرتيتي» و«إخناتون»، ذلك أن «إخناتون» لم يقتصر في ضلاله على الحد الذي ذكرنا، بل إنه تمادى وتزوج من ابنته الثالثة «عنخس[٩] إن با آتون»، ووضعت منه أنثى سُميت بهذا الاسم، فأي صلاح يُرجى منه بعد، ولم يكن زواج الملوك من بناتهم شائعًا حتى ذلك الوقت، ولا نعرف منه إلا ثلاث حوادث من هذا النوع في تاريخ الفراعنة، منها واحدة مشكوك فيها.

وهذه الحوادث الشاذة هي زواج «أمنحتب الثالث» من ابنته «ست آمون»، ويقول بعض المؤرخين إنها أخته بنت «تحتمس الرابع» وليست ابنته، والحادثة الثانية هي التي نحن بصددها الآن، أما الثالثة فإنا نعرف أن «رعمسيس الثاني» قد تزوج باثنتين من بناته على أقل تقدير (راجع (Ibid, p. 108)).

نرجع مرة أخرى «لسمنكارع» حبيب «إخناتون» وأخيه معًا، فنقول: إن هذا الخليع — إذا صح ما يقال عنه — بعد أن تمَّ له الاشتراك مع أخيه في الملك آثر الذهاب إلى «طيبة» رغبة منه في أن يستل سخائم كهنة «آمون»[١٠] ويعيد أواصر الود والصفاء بينهم وبين أخيه بعد أن رأى أخوه انفضاض الناس من حوله، وتآمرهم على قتله، حتى اتخذ حرسه من رجال «المازوي»[١١] (الشرطة)، ومع هذه الحيطة فقد تمت المؤامرة عليه، واشترك

---

[٩] يعتقد الأستاذ «ولف» أن ما يدعيه أو يخمنه بعض المؤرخين عن العلاقة بين «إخناتون» وبين أخيه «سمنخ كارع» مجرد خيال. (راجع A. Z. Vol. LXV, p. 100)، ولا يبعد أن يكون هذا الرأي صحيحًا؛ لأن «إخناتون» كما يقول الدكتور غليونجي قد طغا على جسمه التحنث في آخر أيامه، حتى تحول، وقد تكلمنا عن ذلك فيما بعد.

[١٠] راجع: A. S. Vol. XL, p. 138ff.

[١١] يعتقد الأستاذ «جاردنر» أن المازوي كانوا في هذا العهد من المصريين لا من أهالي بلاد النوبة. كما أشرنا إلى ذلك من قبل.



شكل ٢: إخناتون وسمنكارع (؟).

فيها هؤلاء الأجانب، ولولا يقظة رئيس الشرطة (ماحو) لنجحت المؤامرة، ولقضي على «إخناتون» وقتها على أبشع صورة، ولقد وجدنا رسمًا مفصلًا لتلك المؤامرة في مقبرة رئيس الشرطة المذكور، فرأيناه يستدفئ[١٢] ذات يوم قر، وأحد خدمه يعبث بالنار ليزيدها اشتعالًا، فسمع صياحًا، فامتطى عربته، وأخذ في ركابه أربعة من رجاله الأقوياء، فباغت المتآمرين في وكرهم، وكبَّلهم بالأغلال، وساقهم إلى قاعة الوزير للمحاكمة، ثم نرى الوزير يحف به الكبراء والأشراف في حضرة الفرعون يُقدم إليه المجرمون، وهم: مصري أصلع الرأس، وأجنبيان قد استرسل شعرهما، وقصرت لحيتهما، وعندئذٍ نزل «ماحو» من عربته وصاح قائلًا: «أيها الأمراء، حاكموا بأنفسكم هؤلاء الأجانب المقبوض عليهم.» وهنا توجه الوزير بالشكر «لآتون» الذي وفقهم لكشف هذه المؤامرة قبل تنفيذها.

والواقع أن هذا الانقلاب الديني الذي أحدثه «إخناتون» جاء سابقًا لأوانه، ولو أنه يدل على تفكير راجح لفرعون مصر، ولقد تقبله الناس مرضاة لراعيهم وسيدهم، ولكنهم لم

[١٢] راجع: Davies, “El Amarna”, Vol. IV, Pl. XXVI.

يكونوا مخلصين له مرتاحين إليه، اللهم إلا في «إختاتون» نفسها حيث الملك يقيم، وحيث ذوو الزلفى والأطماع يحرقون البخور بين يديه، ولقد خشيت والدته مغبة نفور الناس من بدعته التي استحدثها؛ فذهبت إليه زائرة في «إختاتون» تقدم إليه النصيحة، وقد لمست تحرج الأحوال في داخل البلاد وخارجها، فأكرم وفادتها وفاء عليها من ولائمه وقصوره وخدمه، ولكنه لم يستمع لرجائها على ما يبدو فإنا رأيناه يزور معها معبد «آتون» ويتعبدان لإلهه. لم تستطع تلك المبادئ الدينية السامية، وهذه الآراء الفلسفية العالية التي أتى بها «إخناتون» ونادى بها الأنبياء المرسلون فيما بعد أن تحفظ إمبراطورية سليمة من بواعث الوهن والتصدع؛ فقد رُزق بطانة سيئة مرتشية ضربت حجابًا كثيفًا بينه وبين الحقائق المؤلمة التي كانت تتورط إمبراطوريته العظيمة فيها، فما كانت تقفه إلا على الزيف من الأخبار السارة، أما المآسي والثورات وغضب الشعب ومخاوفه فما كانت تصل للمليك من بطانته، فكان بينه وبين الحقيقة هوة كبيرة، وليس من إخلاصك للعرش أن تقدم لصاحبه ما يسره ويرضيه، وإن كان كاذبًا زائفًا، وأن تبعد عنه ما يقضه وإن كان حقيقة لا مراء فيها، بل الإخلاص أن تبسط إليه الحال كما وقع، وتشير بالرأي إذا هدى ولمع؛ حتى يتملك ناصية الأمر، ويتخذ للموضوع أهبته، ويثب على المارق في الوقت المناسب وثبته، عندئذٍ تكون قد أدَّيت الرسالة، ومكنت مولاك من أن يصيب المحز فيما يفعل وفيما يذر. لم يجد «إخناتون» هذه البطانة المخلصة؛ فتزلزلت أركان إمبراطوريته وهو لا يدري عن ذلك شيئًا، بل إن سخرية القدر تجعله يرسل إلى مختلف بقاع مملكته الواسعة غير عالم بما فيها يقول لرعاياه:

> اعلموا أن المليك يتمتع بكل عافية مثل الشمس في السماء، وأن جنوده وعرباته الحربية تجوس خلال الديار الجنوبية والشمالية، وتطوي كل مكان تشرق عليه الشمس وتغرب في أمن وسلام.» (راجع الخطاب ١٦٢ Mercer, “Tell el Amarna Tablets”, p. 525)، ولو درى ما تحت قدمه مما حُجِبَ عنه لأرسل جزءًا من هذه القوة المحاربة إلى بلاد آسيا لتحمي جزءًا من إمبراطوريته التي كادت تذوب وتفنى.

وبعد، فقد قضى هذا الرجل نحبه بعد أن حكم ثمانية عشر ربيعًا إلا قليلًا، ولا ندري إن كان قد مات حتف الأنف على فراشه أو اغتاله المتآمرون بعد أن غفلت عنه عين العناية التي كانت تحرسه، وكل ما قرأناه في الكشوف الأثرية أنه قد مات في وقت لمع فيه

نجم مملكة «الخيتا» وازدادت قوة وشوكة، فأخذت تطرق أبواب سيدتها مصر، وتهاجم حدودها آملة أن تسودها.

مات «إخناتون» بعد أن وضع سياسة دينية قويمة، وبعد أن خطا بالعقيدة خطوات موفقة نحو الغاية الصحيحة، التي أُرسل من أجلها الأنبياء.

(٣) عرش مصر بين «سمنخكارع» و«نفرتيتي»



شكل ٣: الملك «سمنخكارع» (؟).

قام بأعباء الملك بعد «إخناتون» أخوه ذلكم الشاب «سمنخكارع» الذي اتخذ منه «إخناتون» شريكًا في الملك أثناء حياته.

تولى «سمنخكارع» واستقر هو وزوجته «مريت آمون» بنت «إخناتون» في «طيبة»، وأراد رجال البلاط وعلى رأسهم الكاهن «آي» الذي كان أكبر مشجع «لإخناتون» على نشر مذهبه الجديد أن تستقر الأمور، ولكن «نفرتيتي» كانت لهم بالمرصاد، دفعها الحقد على سمنخكارع، والحسرة على الهناءة التي سُلِبَتْها في كنف زوجها الراحل أن تنتقم؛ فلم تبايع «سمنخكارع» بالعرش، ولم تعترف له بأي حق فيه، واستمالت نصيره الأول

«آي»، ثم استنجدت بملك «خيتا»[١٣] وطلبت منه أحدَ أبنائه ليكون زوجًا لها ووارثًا لعرش مصر، وهكذا كادت «لسمنخكارع»، وسببت له متاعب كثيرة، ولما تأكد «شبيليوليوما» ملك «الخيتا» من صدق رغبة «نفرتيتي» أرسل أحد أنجاله إلى مصر، ولكن الأمور كانت تجري سريعة في «تل العمارنة» وفي «طيبة»؛ فقد مات الملك «سمنخكارع»، وهنا وثب الثوار على ابن ملك «خيتا» وقتلوه في الطريق غيلة؛ فتعقد الموقف، ثم انفرج باعتلاء «توت عنخ آمون» بن «أمنحتب الثالث» عرش البلاد، ومعه زوجه «عنخس إن با آتون» بنت «إخناتون» و«نفرتيتي».

(٤) عصر إخناتون وما حدث فيه من تجديد

أعطينا القارئ فيما سبق لمحة خاطفة عن «إخناتون» وما تمَّ في عصره، والآن سنعطيه صورة مفصلة موضحة لهذا الإجمال، مبتدئين بذكر فصل عن التدرج في عبادة «آتون» وتأسيسه مدينة «إختاتون» عاصمة ملكه الجديدة، ثم نشفعه بفصل آخر عن التوحيد والمدى الذي أحدثه من التطور العالمي، وبخاصة في الفن المصري القديم، ثم نختم ذلك بفصل عن الإمبراطورية المصرية وانسياقها إلى التدهور والانحلال نتيجة انشغال «إخناتون» بدينه الجديد، وتركه شئون الملك ومهامه.

(٤-١) التدرج في إعلان عبادة «آتون»

«أفق آتون»: تدل كل أعمال «إخناتون» على أنه لم يقم دفعة واحدة بالانقلاب الديني الذي كان يختلج في صدره، وهو ذلك الانقلاب الذي كانت قد ظهرت بوادر الاستعداد للقيام به منذ عهد أسلافه من قبله،[١٤] وبخاصة أنهم كانوا يوجهون عناية تامة لعبادة

---

[١٣] راجع: Ed. Meyer, “Gesch. Des Altertums”, II, I, p. 400.

[١٤] فقد عُثر على جِعْران من عهد الملك «تحتمس الرابع» عليه نقوش غاية في الأهمية من الوجهة التاريخية؛ وذلك أن علماء الآثار قد ظنوا بحق أن الانقلاب الديني والفني الذي قام به «إخناتون» يضرب بأعراقه إلى عهد «تحتمس الرابع»، وهذه النظرية ترتكز على عدة براهين معظمها لا يمكن الارتكان عليها بصفة قاطعة، وهي:

تدل شواهد الأمور على أن إحدى لوحات حدود مدينة «إختاتون» تشير إلى أن «تحتمس» الرابع قد

إله الشمس «رع»، على الرغم من تعظيمهم «آمون» ويعتبرونه الإله الأعظم لكل الدولة. والظاهر أن هذه الفكرة لم تخرج لحيز العمل في خلال حكم من سبق «أمنحتب الثالث»؛ لأنهم كانوا في شغل شاغل لتوطيد سلطان الملك ومدِّ نفوذهم في الأقطار المجاورة، ولا نزاع في أن «أمنحتب الرابع» الذي وُلد في فترة السلام قد سار على نهج أسلافه في تعظيم شأن «رع»، بل من المحتمل أنه في صباه كان يقوم على تربيته الدينية كهنة من «عين شمس» نفسها، فملئوا فكره بعقيدة التوحيد الشمسية، ولقد رأى بثاقب فكره التناقض الغريب بين تعاليم كهنة «عين شمس» وتعاليم كهنة «آمون» والآلهة الآخرين؛ فقد كان في وسع الإنسان أن يسمي إله الشمس باسم «رع» وباسم «حور أختي» (حور الأفق) وحتى باسم «آتوم»، وكان على النقيض من ذلك يرى أن من الخبل وخطل الرأي والكذب الصراح أن يعبد آلهة آخرين في صورة حيوانات، وبخاصة عبادة «آمون» الذي كان يُصوَّر في صورة كبش، هذا فضلًا عن كهنته؛ لما رأوا ما في ذلك من خطل الرأي أضافوا لاسمه اسم إله الشمس «رع»؛ ليجعل له مكانة مثل مكانة الإله «رع» الذي يسيطر على العالم كله بضوئه وأشعته منذ فجر التاريخ المصرى.

وبعد أن احتفل «أمنحتب» بتوليته على العرش في مدينة «أرمنت» — كما كانت العادة المتبعة — بدأ يعمل لنشر عقيدته الجديدة بين أفراد الشعب المصري، وقد كان أوَّل

قام بمحاربة كهنة «آمون»، غير أن الفقرة التي جاء فيها ذكر هذا الحادث مهشمة تمامًا.

عُثر في حفائر الجامعة المصرية على لوحة «لتحتمس الثالث (؟)» يتعبد لقرص الشمس، وتتدلى منه الأيدي التي يمتاز بها «آتون» معبود «إخناتون».

يدل فن عصر «تحتمس الرابع» على أنه قد اتخذ صورة جديدة تحوي تمثيل الحقيقة والطبيعة.

عُثر على قطعة حجر في «تل العمارنة» يظهر عليها الملك إخناتون يقرِّب إلى «آتون» القربان، وقد وصف هذا الإله بأنه ساكن في بيت الملك «تحتمس الرابع» في بيت آتون في «إختاتون».

عُثر على تماثيل مجاوبين للملك «تحتمس الرابع» تشبه تماثيل «إخناتون»؛ لأنها لم يُكتب عليها إلا اسم الملك، وليس عليها أي صيغة سحرية.

عُثر على أشياء مكتوب عليها اسم «تحتمس الرابع» في العمارنة (انظر تحتمس الرابع ص؟).

ولكن أهم برهان قد وجدناه على هذا الجِعْران؛ إذ هو برهان قاطع إذ لم نجد فيه أن آتون كان قد اعتُبِر إلهًا منفصلًا في عهده عن إله الشمس، بل كان يُعبد بوصفه إله المعارك الذي أعطى النصر للفرعون، وأمن تفوُّقه وتسلطه على كل العالم، وجعل كل الإنسانية رعايا لقرص الشمس، والظاهر أن هذا الجِعْران قد نُقش ليخلد ذكرى حملة في سوريا وفلسطين، ومن المحتمل أن تكون الحملة التي قام بها في حكمه أو زيارة قام بها أمراء آسيا يحملون إليه الجزية (راجع J. E. A., XXII, p. 23).

عمل قام به هو بناء معبد لإله الشمس في «الكرنك»[١٥] وهي المدينة المقدسة للإله «آمون»، وقد سمى إله هذا المعبد «رع حور أختي» (أي رع هو حور الأفق)، ثم ميَّزه بأنه الذي ينعم في الأفق بوصفه الضوء اللامع الذي يوجد في أشعة الشمس، وهذه الجملة الطويلة في الواقع يُعبَّر عنها باختصار بلفظة «آتون»؛ أي: قرص الشمس. بعد ذلك بَنَى «إخناتون» لنفسه قصرًا وأطلق عليه اسم «الفرح في الأفق»، وهذا نعت لإلهه. ولا أدل على سرعة «أمنحتب» في الاتجاه نحو تنفيذ فكرته من النقش الذي وجدناه على محاجر السلسلة[١٦] الذي يعلن فيه كل عمال قطع الأحجار في كل جهات القطر من «إلفنتين» حتى «الدلتا» وكذلك موظفيه بالذهاب إلى هذه الجهة لقطع مسلة من الحجر الرملي لإلهه، وقد كانت المسلة منذ القدم رمزًا لإله الشمس، ولقد هُدم معبده الذي أقامه في «الكرنك» بعد وفاته، وبقيت منه أحجار عدة استعملها «حور محب» في بناء بوَّابته المعروفة في الكرنك. ونجد على واجهة إحدى الأحجار على اليمين الصورة المعتادة «لأمنحتب الثالث» وفوقه صورة الشمس «لحور بحدت»، ويدل وجود هذا الحجر هنا على أن هذا الملك كان قد بدأ بناء معبد له في هذا المكان، وهو الذي حوَّله ابنه «أمنحتب الرابع» إلى معبد للشمس، ولكنا من جهة أخرى نشاهد في الصورة التي على الجهة اليسرى أن «أمنحتب الرابع» قد محى اسم والده ووضع بدلًا منه اسمه هو، وكذلك وضع اسم إلهه الجديد الذي كان يُمثل في صورة صقر باسم «حور أختي» وفوق رأسه قرص الشمس، وقد كان هذا الإله فيما قبل لا يزال يمثل إله الشمس، ولم تكن عبادة الآلهة الأخرى وقتئذٍ تتعارض مع عبادة «آتون» في نظر «أمنحتب الرابع»؛ فقد وجدنا صورة في «السلسلة» يُرى فيها متعبدًا كالمعتاد للإله «آمون» وفوقه قرص الشمس المجنح.

وقد كانت المسلات تُقام كالمعتاد بمناسبة عيد «سد»؛ أي العيد الثلاثيني، وكانت تُقام فيه كل المراسيم القديمة المتبعة التي كان يسير على نهجها من سبقه من الملوك، ولم يكن الاحتفال بها بعد ثلاثين عامًا من تولية العرش كما يدل اسمها على ذلك، بل كانت تُقام على إثر تولية الفرعون العرش، وقد اتخذ «أمنحتب الرابع» فرصة هذا الاحتفال ليقدس فيها معبده الجديد، ويشيد باسم إلهه الجديد «آتون»، ويعلنه لكل الشعب، ثم

[١٥] راجع: Weigall, “The Life and Times of Akhenaton”, p. 35ff; Porter and Moss., “Bibliography”, II, p. 89.

[١٦] راجع: A. S., Vol; III, p. 263.

رأى أنه لا بد من اتخاذ خطوات أخرى لتحديد عبادة إلهه، والصورة التي لا بد أن يظهر فيها نهائيًّا؛ إذ كان اسم إلهه «آتون» لا يزال يرادفه كلمة «رع» و«حور أختي»، وكان ذلك في نظره مقبولًا بعض الشيء، ولكن الشيء الذي لم يستسغه هو أن يرى إلهه يصوَّر في صورة إنسان أو بجسم إنسان، ورأس حيوان؛ ولذلك عقد النية على أن يصوِّره كما هو ظاهر للعيان؛ أي على هيئة قرص الشمس الذي يرسل أشعته من السماء على الأرض فيعيش بها الناس. ولقد كانت الأهمية الأساسية للاحتفال بالعيد الثلاثيني (عيد سد) في نظر «أمنحتب» محصورة في تقديم الديانة الحقة للشعب، ووصف الإله بأنه هو «آتون» الحي العظيم الذي يضيء الأرضين في العيد الثلاثيني، وسيد السماء والأرض.

ومن ثَمَّ أخذ الملك يقيم المعابد لإلهه في كل أنحاء القطر، وبخاصة في «هرموبوليس» (الأشمونين) و«منف» و«عين شمس»، وقد كان الإله «آتوم رع» الذي يُعبد في هذه البلاد موحدًا مع الإله «آتون» الجديد، ولقد كان «أمنحتب» في بادئ الأمر يظن أن عبادة إله الشمس في صورة «آتون» التي تعبر عن صورته الحقة وهو قرص الشمس ستقضي على الديانة القديمة بإعطائها للقوم تعبيرًا صحيحًا عن مراميها، وأنه سيكون في استطاعته أن يغض الطرف ولو مؤقتًا عن الآلهة المصرية الآخرين، ولكنه لم يطِقْ صبرًا على هذه الحال؛ إذ لم يجد غير بضعة أتباع له بين الكهنة يعضدون عقيدته، في حين أن الجمَّ الغفير منهم كانوا متمسكين بالديانة القديمة، بل زاد تمسكهم بآلهتهم، وبخاصة كهنة الإله «آمون» في «طيبة» الذين كان في يدهم كل السلطة، وقد كان عامة الشعب في جانبهم.

ولقد كانت الأزمة على أشدها في العام السادس من حكمه عندما أراد أن يقيم لنفسه مدينة خاصة لعبادة إلهه «آتون»، عندئذٍ قلب للإله «آمون» ظهر المجن؛ فقد عامله بوصفه مغتصبًا لمكانة إلهه «آتون»؛ فهشم تماثيله، ومحا اسمه أينما وُجد حتى في سجل خطابات تل العمارنة المكتوبة بالخط المسماري؛ لأنه كان يقصد القضاء على كيانه في عالم الوجود؛ وذلك زعمًا منه أن محو صورة الإنسان يعني القضاء عليه، وهذا ينطبق كذلك على الإله؛ وذلك لأن روحه كان يسكن التمثال أو اسمه، وهذا نفس ما قصده «تحتمس الثالث» حينما هشم تماثيل «حتشبسوت» وأتباعها، ومحا اسمهم من الآثار، وقد امتد تخريب آثار «آمون» ومحو اسمه إلى كل جهات القطر، وكذلك إلى بلاد النوبة. ويمكن للإنسان أن يتصور مقدار التخريب الذي كان يحدثه هؤلاء الجنود الذين أطلق الفرعون لهم العنان، فخرَّبوا المعابد، ومحوا اسم الإله آمون أينما وُجد في المقابر النائية، وكيف أنهم كانوا يقضون على كل من يقف في طريقهم في أثناء تنفيذهم أوامر الملك، حتى إنهم

تركوا المعابد التي كان يُقدس فيها هذا الإله خاوية على عروشها، على أن الآلهة الأخرى لم تكن بأحسن حالًا، بل كذلك سارع هؤلاء الجنود لمحو أسمائهم، اللهم إلا أسماء الآلهة الشمسية مثل «آتوم» و«حور»؛ وذلك لأن وجودهم مع الإله الواحد الأحد إله الشمس كان لا يمكن الصبر عليه، هذا فضلًا عن أن الكلمة التي تدل على اسم الآلهة بالجمع قد مُحِيَتْ من عالم الوجود من كل الآثار أيضًا؛ وذلك لأنها تتنافى مع الوحدانية.

وبعد ذلك رأى أنه من العار والتناقض أن يكون اسمه يحوي اسم الإله «آمون»؛ فمنذ السنة السادسة غيَّر اسمه فأصبح يُسمَّى «إخناتون» (أي آتون مسرور)، وكذلك مَحى من اسم والده لفظة «آمون»، وأصبح لا يسميه هو وأجداده إلا باللقب الذي كان يُطلق على كل منهم عند توليته العرش وبذلك؛ انفصل هذا الملك عن التقاليد الدينية القديمة تمام الانفصال، وبخاصة عندما انتقل إلى عاصمته الجديدة التي كان قد شرع في بنائها، هذا فضلًا عن أنه قبل مغادرته «طيبة» قد سمَّاها مدينة ضوء «آتون»[١٧] العظيم.

(٤-٢) مدينة «تل العمارنة»

لم تكن فكرة نقل عاصمة الملك إلى «إخناتون» ناشئة عن غضب أو ضغينة في صدر «إخناتون» على كهنة «آمون» وسكان «طيبة» وحسب — وإن كان للغضب وحب المحافظة على النفس نصيب كبير في هذه الحركة — ولكن الدافع الحقيقي لهذه الحركة كان جزءًا من فكرة مبيتة الغرض؛ منها أن يفسح لمذهب «آتون» مأوًى أمينًا ومعقلًا حصينًا في كل جزء من أجزاء الإمبراطورية لنشر دعوته في هدوء وسلام؛ ذلك لأن إله الدولة لم يكن في نظره إله مصر وحدها، بل كان إلهًا يشمل سلطانه كل العالم؛[١٨] ولذلك كان من الحكمة أن تُقام له مراكز مقدسة لا في مصر وحدها بل في آسيا وبلاد[١٩] النوبة، فنعلم أن مدينة خاصة بعبادته كانت له في سوريا،[٢٠] غير أننا لا نعلم موقعها بالضبط. أما في «النوبة» فكان مركزها بالقرب من الشلال الثالث وكانت تُسمى «جم آتون» (راجع Baedeker's Egypt (1929) p. 477)، كذلك كان الغرض من بناء عاصمته الجديدة في مصر أن تكون

[١٧] راجع: Weigall, Ibid. p. 56.

[١٨] راجع: Gunn, “Notes on the Aton and His Names”, J. E. A, Vol. IX, p. 169.

[١٩] راجع: Gauthier, “Dict. Geog”, Vol. II. p. 42.

[٢٠] راجع: Hall, “The Ancient History of the Near East”, p. 300.

مركز الحكومة والبلاط، وكان «إخناتون» يريد من هذا أن يكون بمعزل هو وحاشيته عن الوسط الخطر الذي كان يحيط به في «طيبة»؛ وبذلك يضمن لنفسه مكانًا آمنًا خصبًا ليبذر فيه بذور عقيدته الجديدة حتى يتسنى له أن يجني ثمرتها، ويعاقب الجامحين من رجال «طيبة» والناصحين لهم من كهنتها في نفس الوقت.

ولا شك في أن انتقال رجال البلاط كان له أثر سيئ جدًّا في نفوس القوم، وبخاصة عندما عرفوا أن إلههم «آمون» «الطيب» وملكهم الرحيم الذي يُعدُّ في نظرهم المظهر البارز لصورة إلههم قد حجب عنهم ضوء وجهه الوضاح، وهو غاضب عليهم ونافر منهم.

موقع مدينة إختاتون

تقع البقعة التي أقام فيها «إخناتون» مدينته الجديدة «إختاتون» (أفق آتون) على مقربة من مدينة «ملوي»،[٢١] وهي جون في هضبة الصحراء الغربية، يبلغ طولها نحو ستة أميال، وأقصى عرضها نحو ثلاثة أميال، ولم تكن العاصمة الجديدة تشغل كل هذه المساحة في عز ازدهارها؛ لأن أنقاض المدينة القديمة تمتد من نقطة على مسافة تقرب من ميل شمال قرية «التل» (وهي التي اشتُق منها اسم تل العمارنة الذي يُستعمل الآن في الكتب العلمية للدلالة على «إختاتون» القديمة)، إلى قرية «الحواطة»؛ حيث نشاهد تنائف الجبل تحيط بهذه البقعة، حتى تكاد تتلاقى مع شاطئ النيل؛ وبذلك تمتد نيفًا وخمسة أميال في اتجاه شمالي فقبلي. ولكننا حين نشاهد أن طول المدينة يشمل كل المساحة التي على امتداد شاطئ النهر، فإننا نجد من جهة أخرى أن عرضها يشمل أكثر من ثلث هذه المساحة؛ إذ يمتد نحوًا من كيلومتر أو أكثر بقليل؛ وعلى ذلك يمكننا أن نتصور عاصمة «إختاتون» في صورة بلد تشغل شريطًا ضيقًا من الأرض تبلغ مساحته نحو خمسة أميال طولًا في نحو كيلومتر عرضًا، وتقع بين منطقة ضيقة من الأرض الخصبة على شاطئ النهر والصحراء الرملية خلفها فتمتد حتى سفح التلال. ويرجع السبب الذي من أجله جاء تصميم طول المدينة غير متناسب مع عرضها إلى أمرين؛ فمن جهةٍ كانت الأراضي الخصبة التي على شاطئ النهر لا بد من الاحتفاظ بها للزراعة، ومن جهة أخرى كان من المستحيل أن تُقام مبانٍ في داخل الأراضي القاحلة في الصحراء لانعدام المياه فيها؛ من أجل ذلك

[٢١] راجع: Peet and Woolly, “The City of Akhenaton, I, P. Iff.

كان «إخناتون» مضطرًّا أن يضع تصميم عاصمته الجديدة على حسب مقتضيات طبيعة الأرض لا على حسب ما يريد.

ولقد كان من الجلي الواضح أن فكرة النزوح من العاصمة القديمة قد دُبرت من قبل بزمن، وذلك أنه على الرغم من أن كل ما كان يُحتاج إليه لإقامة هذه المدينة هو اللبن والأيدي العاملة الوفيرة حتى يتمكن الفرعون من أن يبني المدينة بسرعة تفوق الوصف؛ فإنه كان لا بد من إنفاذ هذا العمل الضخم في مدَّة لا تقل عن سنتين على أقل تقدير؛ ليتسنى له أن يجهز على وجه السرعة المساكن اللازمة لكل بلاطه وكل مصالح الحكومة. وقد اشترك الملك وزوجه «نفرتيتي» في وضع تخطيط المدينة، وقد احتفل بهذا الحادث احتفالًا عظيمًا، وسجل الفرعون ذلك على لوحات الحدود التي أقامها في حرم مدينته المقدسة، وما أبقت الأيام عليه من هذه اللوحات أربع عشرة لوحة سُجل على واحدة منها ما يأتي:

> السنة السادسة،[٢٢] الشهر الرابع من الفصل الثاني، اليوم الثالث عشر (!) (يلي ذلك مديح الملك وألقابه وألقاب الملكة)، في هذا اليوم كان الملك في سرادق من نسيج أمر جلالته بصنعه (له الحياة والصحة والعافية)، في «إختاتون» واسمها «أفق آتون». وقد زار جلالته في عربته العظيمة المصنوعة من الذهب مثل «آتون» عندما يشرق في الأفق، وملأ الأرضين بجماله، وذلك لما بدأ السير في طريقه إلى «إختاتون» عندما يشرق في الأفق، وملأ الأرضين بجماله، وذلك لما بدأ السير في طريقه إلى «إختاتون»، عندما قام جلالته بأول جولة فيها (له الحياة والصحة والعافية) ليؤسسها أثرًا لآتون، وذلك على حسب أمر والده «آتون» معطي الحياة إلى أبد الآبدين، ولأقوم له بعمل أثر في وسطها. ولقد أمر الواحد (الملك) أن تُقدم قربات عظيمة من الخبز والجِعة والثيران، والعجول، والماشية والطيور، والخمر، والذهب والبخور، وكل الأزهار الجميلة، وفي هذا اليوم أُسست «إختاتون» لآتون الحي؛ حتى يمنح الملك «إخناتون» الحظوة والحب.

[٢٢] راجع ما قاله «ويجول» عن هذا التاريخ في كتاب Weigall, "Life and Times of Akhenaton", p. 82; Schafer, "Die Anfange der Reformation Amenophis des IV", in Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der "Wissenschafien", XXVI, (1919) p. 477Ff.

(راجع Davies, Ibid. Vol. V, p. 32)، ويوجد قبالة «إختاتون» على الضفة الغربية للنيل جون آخر يقع بين النيل وسلسلة جبال صحراء «لوبيا» يحتوي على مساحة عظيمة من الأرض الزراعية يشقها الآن «بحر يوسف»، ولقد أضافها «إخناتون» إلى حرم مدينته المقدسة؛ إذ بدونها يستحيل على المدينة أن تحافظ على كيانها؛ وبذلك أصبح طول المدينة نحو ثمانية أميال شمالًا وجنوبًا، وعرضها يتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر ميلًا شرقًا وغربًا، وقد أقام الفرعون سلسلة من اللوحات العظيمة، نُحت فيها صورة للملك والملكة وأسرتهما وهم يتعبدون جميعًا للإله «آتون»، كما نُقش عليها كذلك تفاصيل عن هذا الإقليم المقدس، وقد أُقيمت هذه اللوحات في الشمال والجنوب والشرق والغرب عند المواقع الهامة حتى لا يجهل إنسان حدود الأراضي المقدسة للإله الجديد. وهاك النقش:

> إنه يمين الصدق الذي أحلف به (وهو اليمين الذي لن أقول عنه إنه كاذب إلى أبد الآبدين)، إنها لوحة بلدة «إختاتون»، وهي التي اتخذت عندها محطًّا، ولن أتخطاها من جهة الجنوب أبد الآبدين، وأقمت اللوحة الجنوبية الغربية مقابلة لها تمامًا على الجبل الغربي لإختاتون.
>
> أما اللوحة الوسطى التي عليها جبل «إختاتون» الشرقي، فإنها لوحة (إختاتون)، وقد أُقيم عندها محط، ولن أتخطاها شرقًا أبد الآبدين. وأقمت اللوحة التي في الوسط على الجبل الغربي «لإختاتون» مقابلة لها بالضبط.
>
> أما اللوحة الشمالية الشرقية «لإختاتون» التي جعلت منها محطًّا فهي اللوحة الشمالية لإختاتون فلن أتعداها منحدرًا في النهر أبد الآبدين، ولقد أقمت اللوحة الشمالية الغربية التي تقع على جبل إختاتون الغربي مقابلة لها بالضبط.
>
> أما مدينة «إختاتون» فإنها تمتد من اللوحة الجنوبية حتى اللوحة الشمالية، ويبلغ طول ما بين اللوحتين على جبل «إختاتون» الشرقي ستة آتر ونصف، وربع خت[٢٣] وأربعة أذرع. وكذلك من لوحة إختاتون الجنوبية الغربية حتى اللوحة الشمالية الغربية في الجبل الغربي لإختاتون تبلغ ستة آتر ونصف ربع حكي وأربعة أذرع بالضبط أيضًا. والمساحة التي تقع بين هذه

[٢٣] خت = ١٠٠ ذراع (راجع Gardiner, "Egyptian Grammar", p. 199).

> اللوحات الأربع من الجبل الشرقي إلى الجبل الغربي هي «إختاتون» نفسها، وهي ملك الأب «حور آتون» بما فيها من جبال وصحارٍ ومراعٍ وجزر وأرض عالية ومنخفضة وماء وقرًى ورجال وحيوان وأحراش؛ وكل الأشياء التي سيأتي بها والدي «آتون» إلى الحياة إلى أبد الآبدين، ولن أهمل هذا اليمين الذي أخذته على نفسي لوالدي «آتون» أبد الآبدين، بل سيُوضع على لوحة من الحجر بمثابة حدود جنوبية شرقية، وكذلك بمثابة حدود شمالية شرقية لإختاتون، كما سيوضع على لوحة من الحجر بمثابة حدود جنوبية غربية، وكذلك بمثابة حدود شمالية غربية «لإختاتون». ولن تُمحى، ولن تُزال ولن تُزاح، ولن تُرجم بالحجارة، ولن يُقضى عليها، وإذا حدث أنها فُقدت أو أُتلفت أو سقطت اللوحة التي كانت عليها فإني سأجددها ثانية في المكان الذي كانت فيه. (Ibid. p. 33.)
> مما سبق يتضح أن العاصمة الجديدة كانت مركزًا مقدسًا «لعبادة آتون» حُرِّم دخول أي شيء دنيوي فيه؛ فكان لها من القداسة ما «للكة» و«بيت المقدس»، ويُلحظ في الفقرات التي اقتُبست من لوحات الحدود أنه قد ذُكر يمين جاء ذكره في اللوحات التي عُملت في العهد الأوَّل من حكم هذا الملك: «لن أتجاوز حدود لوحة «إختاتون» من الجهة الجنوبية، كذلك لن أتجاوز لوحة «إخناتون» من الجهة الشمالية.»

وقد رأى البعض في هذه العبارة أن الملك قد أخذ على نفسه المواثيق بأن لا يبرح حدود هذه البلدة طيلة حياته، ولا شك في أن الألفاظ قد تحمل هذا المعنى، وقد تعني أنه لن يتعدى حدود هذا البلد لأنها ملكه الخاص، والأخذ بهذا المعنى يبرره ما جاء في المتن المطوَّل الذي جاء بعد: «لن أتجاوز لوحة «إختاتون» الشمالية نحو الشمال لأقيم فيه «إختاتون»»؛ أي إن ملك «آتون» يبقى فيها وحسب، ولن يُزاد فيها ظلمًا في أي من جهاتها، والواقع أن هذا المعنى أنسب من المعنى القائل إن «إخناتون» أراد أن يحبس نفسه بين جدران مدينته المقدسة طول حياته، ويترك مملكته ترعى نفسها بنفسها. حقًّا كان «إخناتون» متعصبًا، ولكنه لم يكن مأفونًا كما يعتقد بعض نقاده، ولا نزاع في أنه أهمل أمر إمبراطوريته في الخارج كما سنرى بعد، ولكن السبب في ذلك أنه كان يعلم أنه لن يتسنى له ذلك إلا بالحرب التي كان يكرهها من أعماق قلبه. على أن عدم قيام ثورات في داخل مصر نفسها لَأكبر دليل على أنه لم يتهاون في واجباته التي يفرضها عليه الملك كما يعتقد بعض المؤرخين.

ولقد كان اختيار موقع «إختاتون» من عمل الملك نفسه، كما أن فرحه بتأسيس مدينته المقدسة كان عظيمًا جدًّا، وقد أوضح لنا ذلك في لوحات الحدود الأولى:

لقد وقف جلالته أمام الأب «حور آتون»، وأضاء عليه «آتون» بالحياة وطول العمر، ومقوِّيًا جسمه كل يوم.» وقال جلالته: «آتوني بأصحاب الملك الوجهاء العظماء وضباط الجنود ... في كل البلاد.» وقد أُتي بهم إليه في الحال؛ فسجدوا على بطونهم أمام جلالته، وقبَّلوا الأرض خضوعًا لإرادته، وقال لهم جلالته: «انظروا «إختاتون» التي يريد «آتون» أن أجعلها له أثرًا باسم جلالتي أبديًّا، وإن «آتون» والدي الذي أتى بي إلى «إختاتون» فلم يقدني إليها شريف قائلًا إنه يجدر بجلالته أن يقيم «أفق آتون» (إختاتون) في هذه البقعة، لا بل إنه «آتون» والدي الذي أرشدني إليها لأجعلها له «أفق آتون»؛ وعليه سأقيم «إختاتون» لآتون والدي في هذه البقعة، ولن أتخذ له «إختاتون» جنوبيها ولا شماليها ولا غربيها ولا شرقيها: ولن أتجاوز حدود لوحة «إختاتون» الجنوبية نحو الجنوب، ولن أتجاوز حدود لوحة «إختاتون» الشمالية نحو الشمال لأقيم له فيها «إختاتون»، وكذلك لن أقيمها له في الجهة الغربية «لإختاتون»، بلى، ولكن سأقيم «إختاتون» لآتون والدي في الجهة الشرقية، وهو المكان الذي أحاطه لنفسه بالصخر، وسأقيم له معبدًا في وسطها؛ حتى يتسنى لي أن أقدم له فيه القربان.[٢٤] هذه هي «إختاتون»، ولن تقول لي الملكة: انظر، يوجد مكان آخر لإختاتون في جهة أخرى، وأستمع لما تقول. ولن يقول لي أي شريف من القوم الذين في الأرض: انظر، إنه يوجد مكان طيب «لإختاتون» في جهة أخرى، وأسمع لهم، سواء أكان ذلك المكان في الشمال أم في الجنوب أم شرقًا أم غربًا، ولن أقول سأهجر «إختاتون» أو سارع عنها وأقيم «إختاتون» في ذلك المكان الآخر الطيب أبد الآبدين. بلى، ولكني قد أسست «إختاتون» هذه للإله «آتون» وهي التي رغب فيها بنفسه والتي فرح بها أبديًّا.

[٢٤] راجع: Sandman. Text From the Time of Akhenaton p. 106, and Davies, Ibid, p. 29.

وبعد أن يعدد الملك المعابد المختلفة والمقاصير التي عقد النية على إقامتها «لآتون» في مدينته الجديدة يصرح الملك بتصريح له رنة أسًى في النفس منقطعة النظير؛ حينما يذكر الإنسان كيف أن النهاية التي كان يتنبأ لنفسه بها قد جاءت على عكس تنبئه:

> وسيُنحت لي ضريح في الجبل الشرقي ويُحتفل بدفني في الأفراح العديدة التي أمر بها والدي «آتون»، وكذلك سيُحتفل بدفن الملكة زوج الملك الشرعية «نفرتيتي» في تلك السنين العدة … كذلك سيحتفل ببنت الملك «مريت آتون» فيها بعد سنين عدة، فسيُؤتى بي وأُدفن في «إختاتون»، وإذا ماتت كذلك الملكة «نفرتيتي» في أية بلدة في الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق بعد سنين يخطؤها العد فإنه سيُؤتى بها وتُدفن في «إختاتون»، وإذا ماتت بنت الملك «مريت آتون» في أية بلدة في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب فإنه سيُؤتى بها وتُدفن في «إختاتون».

ولا يسع المرء هنا إلا أن يقرن بين النهاية المرجوة والنهاية التي لاقاها بعد موته؛ فبدلًا من أن يُدفن بإقامة الأفراح والاحتفالات الضخمة التي تليق بمقامه وهي التي تنبأ لنفسه بها في «إختاتون» مدينته المقدسة التي أحبها بكل قلبه؛ نجد أنه قد قُذف به في قبر دنس من مقابر وادي الملوك في «طيبة»، تلك المدينة التي كان يمقتها من أعماق قلبه. ولعمري فإن ذلك لَمَثَل من الأمثلة القليلة التي سخر فيها القدر ولعب فيها دوره المعكوس بين الحقيقة والنبوءة.

وليس لدينا من النقوش ما يدل على الشجار الذي قام بين «إخناتون» وكهنة «آمون» إلا جملة في لوحة من لوحات الحدود الأولى. وهي تظهر لنا بجلاء روح البغضاء المريرة التي كان يشعر بها هذا الفرعون حتى وهو في وسط السرور الذي كان ينعم به من عمله الجديد؛ فيذكر لنا المقابلة السيئة التي قُوبلت بها تعاليمه على يد من يُعلِّمون الناس والصدق. كذلك يشير إلى الصراع الذي قام بين هؤلاء الكهنة وبين جده «تحتمس الرابع»: إني أقسم بحياة والدي «حور آتون» … الكهنة، كانوا أشد إثمًا من الأشياء التي سمعتها حتى العام الرابع، وأشد ضررًا من الأشياء التي سمعتها في عام … أشد ضررًا من الأشياء التي سمعها «منخبرو رع» تحتمس الرابع … في فم العبيد، وفي فم أي قوم … والأشياء الفظيعة التي سمعها «تحتمس الرابع»، وقد سبق الكلام عنها؛ لأنه كما ذكرنا من قبل قد حارب كهنة «آمون» وأخضعهم على يد «حور محب».

أسرة إخناتون

ويُلحظ هنا أن أسرة «إخناتون» كانت تتألف قبل بناء هذه المدينة من الملك و«نفرتيتي» ثم الأميرة «مريت آتون»، وفي خلال المدة الواقعة بين تخطيط «إختاتون» والانتقال إليها وُلد له بنتان أخريان، وهما «مكت آتون» و«عنخس إن با آتون».

وتدل كذلك الآثار على أنه رُزق ابنة رابعة اسمها «نفرنفرو آتون تاشيري» ونحن نعلم أن الأولى قد تزوَّجت من «سمنخكارع» خليفة «إخناتون»، غير أننا لم نسمع عنها شيئًا قط بعد وفاة زوجها الذي لم يحكم أكثر من ثلاثة أعوام، أما الثانية «مكت آتون» فقد ماتت قبل والدها، وقبرها معروف في «تل العمارنة»، والثالثة وهي «عنخس إن با آتون» كما نعلم قد تزوَّجها «توت عنخ آمون» الذي ولي العرش بعد «سمنخكارع»، وبعد وفاته تزوجها «آي» ليتمكن من الجلوس على العرش؛ إذ كانت بطبيعة الحال الابنة الباقية لإخناتون، ولكن الكشوف الحديثة قد أماطت لنا اللثام عن حادث غريب في حياة هذه الأميرة ووالدها «إخناتون»؛ فقد دلَّت الآثار على ما يحملنا على الظن بأنها كانت قد تزوجت من والدها قبل أن تتزوج من «توت عنخ آمون»، وأنها كذلك قد رُزقت منه ابنة سمتها باسمها وميَّزتها عنها بلقب «الصغيرة».

فقد عُثر على قاعدة تمثال منقوش عليها «... سيدة كل الأرض، الزوجة الشرعية للفرعون، التي يحبها، وسيدة الأرضين، «الجمال الفائق» لآتون (نفرتيتي) ... بنت الملك من صلبه التي يحبها «عنخس (با) آتون» والتي ولدتها زوجة الملك (الجمال الفائق) لآتون.» هنا نجد أن طغراء الملك قد مُحي في كلتا الحالتين، والظاهر أنه كانت تُوجد على هذه القاعدة مجموعة مؤلفة من الملك والملكة وأولادها أو على الأقل الملكة وبنتها «عنخس إن-با-آتون»، وكان هذا التمثال بالقرب من القصر الملكي الرئيسي. وهذا المحو له أهمية عظمى؛ فقد محى اسم الملكة حبًّا في بنتها «مريت آتون» في قصر «مارو آتون»، وكذلك على التمثال الذي نشره «شارف». أما قاعدة التمثال هذه فهي الأولى من نوعها وفيها اسم «عنخس إن-با-آتون»، وفيها محى اسم أمها، ويظن «جرفث» أن كلًّا من «مريت آتون» و«عنخس إن-با-آتون» قد أصبحت ملكة على البلاد بعد طرد والدتها أو موتها لتكون هي الملكة الوحيدة، ولكننا من جهة أخرى نعلم أن «مريت آتون» قد تزوجت من «سمنكارع»، وكذلك كانت تُسمى أكبر بنات الملك، وليست تحمل لقب ملكة، ويظن مستر «ديفز» أن الملكة قد انضمت إلى صفوف الأعداء في «طيبة» وتَسَمَّت باسم «نفرنفرو» (آمون)، ولكن أليست هذه هي «نفرنفرو آتون تاشري» البنت الرابعة «لإخناتون»، وقد ادعت لنفسها

الصفة الملكية في أزمة من الأزمات؟! ولكن الغريب في قاعدة هذا التمثال أن «عنخس إن با آتون» قد محت اسم والدتها وصلتها بها؛ ومن ذلك نعلم أن من الجائز جدًّا بل من المحقق أنها تزوجت من والدها كما جاء في نقوش الأشمونين، فقد عُثر على أجزاء من معبد «الأشمونين» الذي بناه «إخناتون» في هذه الجهة، وفيها أن الأميرة الملكية «عنخس إن با آتون» قد رُزقت بنتًا اسمها «عنخس إن با آتون» (عنخس إن با آتون تاشري)؛ وذلك مما يثبت الرأي القائل إن «إخناتون» لم يتولَّ الملك وهو لم يبلغ الحلم بعد؛ من أجل ذلك لا بد أن ابنته الثالثة «عنخس إن با آتون» قد وُلدت في السنة الرابعة أو الخامسة من حكمه، وأقدم صورة لهذه الأميرة وُجدت على لوحة من لوحات الحدود في السنة السادسة، ومن جهة أخرى نعلم أن «إخناتون» قد حكم على الأقل ١٨ سنة، وأن البنات كُنَّ يصلحن للزواج في سن مبكرة ويحملن؛ ولذلك فإنه من الممكن أن هذه الأميرة قد تزوجت في سن مبكرة، ورُزقت ابنة أسمتها باسمها، وتدل كل الأحوال على أن «إخناتون» هو والد الأميرة الصغيرة (A. Z. Vol. LXXIV, p. 104–108).

أما ابنته الصغيرة «نفرنفرو آتون تاشري» فلا نعلم عنها شيئًا، وكل ما نعلمه أن أحد خطابات «بورا بور باش» ملك بابل أرسل خطابًا للفرعون «إخناتون» نفهم منه أن إحدى بنات الفرعون كانت زوجة لأحد أولاد هذا الملك، ولكنها كانت تسكن في قصر والدها، ولا بد أن هذا الزواج كان بالوكالة، ولم يكن بين بنات الفرعون وقتئذٍ ابنة في سن الزواج إلا كبراهن، ونحن نعلم أنها تزوجت «سمنخكارع»، فمن المحتمل أن هذا الأمير البابلي قد تزوج من إحدى صغيرات بنات الفرعون ولكنه في الوقت نفسه أبقاها عند والدها، وقد أرسل بهذه المناسبة ملك «بابل» للأميرة زوج ابنه[٢٥] (أ) عِقدًا من الأحجار الثمينة يبلغ عدد حباته ١٠٤٨ حبة، وقد حرص هذا العاهل أن يعد حبات هذا العقد حتى لا يُسرق منه شيء في أثناء الطريق، ومن المحتمل جدًّا أن هذه الأميرة هي «نفرنفرو آتون» (Mercer, “Tell el Amarna Tablets”, No. 10, 41ff)، هذا وتدل الآثار على أن «إخناتون» كان له بنتان أخريان وهما «نفر نفرو رع» و«ستب إن رع» (L. D. III, Pl. 99).

[٢٥] راجع: Baikie, “The Amarna Age”, p. 277; Weigall, Ibid, p. 195، غير أن الخطاب المشار إليه (رقم ١٠) لا يذكر لنا شيئًا عن هذا الزواج.



شكل ٤: أسرة «إخناتون».

وهنا نلحظ أن «إخناتون» لم يتمسك في أخريات حياته بإضافة اسم «آتون» إلى تركيب أسماء بناته، كما فعل من قبل؛ وذلك يدل على أنه لم يكن متعصبًا للفظة «آتون» في آخر حياته كما كان يحرص عليها عندما نقل الحكم إلى «إختاتون» مباشرة، فهل يُفهم من ذلك أنه رأى تعصبه لإلهه قد جرَّ عليه المتاعب، وأثار الفتن فارتد إلى التسمية القديمة «رع» وهي التسمية التي ألفها الشعب منذ فجر التاريخ، وبذلك أرضى نفسه، وأرضى شعبه؟ إنها لسياسة رشيدة ومحكمة جدًّا، وبخاصة إذا علمنا أن «سمنخكارع» بعد أن اشترك مع «إخناتون» في الحكم عاد إلى «طيبة» وأخذ في تهدئة الحال مع كهنة «آمون». وقد وجدنا له قصيدة في مدح «رع» بين آثار «توت عنخ آمون» التي اغتصبها الأخير منه.

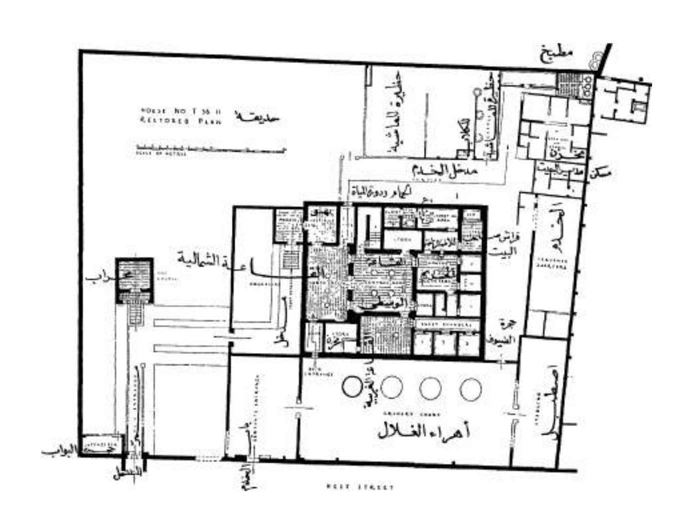
وصف مدينة إختاتون

وفي السنة الثامنة من حكم «إخناتون» وجدنا أن نقل البلاط قد نفذ تمامًا وأصبحت «إختاتون» العاصمة للملك. وهذه الحقيقة قد قُرِّرت بعبارة خاصة ظهرت في كثير من لوحات «تل العمارنة»، وهي كما يأتي: «وهذا اليمين (الخاص بالحدود) قد كُرر في السنة الثامنة من الشهر الأول من الفصل اليوم الثامن؛ فقد كان عرش الملك في «إختاتون» والفرعون (له الحياة والصحة والعافية) قد وقف ممتطيًا عربته العظيمة المصنوعة من السام يفحص لوحات الإله «آتون» التي أُقيمت على الجبل بمثابة الحد الجنوبي الشرقي للمدينة «إختاتون».» ويُعد تجديد هذا اليمين بمثابة الخطوة الرسمية النهائية لنقل مقر الملك. وعلى ذلك يكون العمل في تأسيس العاصمة قد بُدئ في العام السادس، وانتهى في العام الثامن.

ويرجع الفضل في كشف النقاب عن تخطيط البلد القديم إلى البعثات الألمانية والإنجليزية التي حفرت هذه البقعة حفرًا علميًّا منظمًا.

تكلمنا فيما سبق عن مميزات مدينة «إختاتون»؛ من حيث الطول والعرض، وعن السبب الذي دعا إلى تخطيطها على هذا النحو. فهذه البلدة العظيمة الطول الضيقة العرض قد وُضع تصميمها بشكل منسجم لا بأس به، وكانت تخترقها من الشمال إلى الجنوب ثلاثة شوارع رئيسية تقاطعها في زوايا قائمة شوارع أخرى تخترقها من الشرق إلى الغرب، وخلافًا لهذا النظام المستطيل الشكل لم يحاول المهندس واضع التصميم إيجاد انسجام في وضع المنازل التي كانت تختلف اختلافًا عظيمًا من حيث التخطيط، والظاهر أن فكرة تخطيط مدينة على طراز ممتاز لم يَدُرْ بخلد مهندسي «مدينة الأفق»، وذلك على الرغم من أنه كانت أمامهم قطعة أرض أخرى بكر يمكن تخطيطها على طريقة هندسية دقيقة. وربما يرجع السبب في ذلك إلى السرعة التي كان يتطلبها إنجاز المدينة وإعدادها، وكذلك حالَ هذا بين تقسيم رقعة المدينة إلى حي مساكن عمال، وآخر لمساكن عِلْية القوم والموظفين؛ فالتصميم الذي لدينا يدل على أن المساكن قد خُططت دون مراعاة توزيعها إلى مجاميع منسجمة؛ فبينا نرى منزلَ شريفٍ بفخامته وسِعَة أرجائه نجد منزلًا حقيرًا لعامل أو صانع قد لَاصَقَه، حتى ليخيل للإنسان في أيامنا أنها خُططت لتكون بلدة ديمقراطية، فالكاهن الأعظم يقيم في محاذاة صانع الجلود، والوزير بجوار صانع الزجاج، ويرجع السبب في ذلك إلى أن عظماء القوم عندما حلوا بالمدينة استولى كل منهم على قطعة عظيمة من الأرض ليقيم فيها قصره، ولكنه بعد أن أخذ ما يكفيه لبناء بيته تخلف بعد ذلك

فضاء اتخذه العمال والصناع الذين وفدوا إلى المدينة لبناء منازلهم الصغيرة، ولم يكن لهم الخيار في أن يتخذوا أماكن أخرى لإقامة منازلهم؛ لئلا يبتعدوا عن المياه فيصبح نقلها عسيرًا عليهم.



شكل ٥: تصميم منزل بمدينة إختاتون (تل العمارنة).

ومن المحتمل أن مدينة «إختاتون»[٢٦] المقدسة لم تكن رائعة في منظرها لعدم انسجام مجاميع البيوت التي تتألف منها إذا قِيست بالمدن الحديثة، غير أن عدم التكافؤ هذا في المباني كان يعطيها بهجة خاصة وهي بهجة التناقض، وبضدها تتميز الأشياء، فإذا تصور الإنسان قصر الرجل العظيم بما فيه من أبهة وفخامة، وما يحيط به من عظمة وبهاء، ثم يرى في الوقت نفسه كوخًا حقيرًا لعامل وراء جدران هذه الحديقة، بدا الكوخ كأنه عش طائر صغير في أصل شجرة باسقة وارفة. والواقع أن قصور العظماء كانت منازل فسيحة الأرجاء بما فيها من ردهات زُينت جدرانها وأرجاؤها بما ينم عن ذوق سليم، هذا إلى حجرات عدة للسكن والنوم جُهزت بحمامات عظيمة ودورات مياه، وقد

[٢٦] راجع عن هذا الفصل Peet and Woolley, “The City of Akhetaton”, p. 1ff.

كان حجم البيت المتوسط من الطراز الأنيق في تلك المدينة المقدسة يتراوح بين ٦٥ إلى ٧٠ قدمًا مربعًا.

وقد عُثر أخيرًا على بعض منازل أمكن لأحد المهندسين أن يكوِّن منها فكرة صحيحة عن البيت في عهد إخناتون، وسنفصل القول هنا بعض الشيء في وصف هذا البيت ومحتوياته ليأخذ القارئ فكرة عن البيت في عهد الأسرة الثامنة عشرة على وجه عام.

(أ) البيت المصري في عهد إخناتون

تدل شواهد الأحوال على أن البيت المصري في عهد الفرعون «إخناتون» كان غاية في الأناقة وحسن الذوق والتنسيق الصحي البديع. وقد استطاع أحد المهندسين أن يضع أمامنا صورة حية لبيت من البيوت التي كُشف عن بقاياها في مدينة إختاتون المعروفة الآن بتل العمارنة.

والبيت الذي سنصفه هنا يقع في الضاحية الشمالية من المدينة المذكورة، ويُعدُّ من أجمل البيوت وأفخمها. وتدل الآثار على أنه كان مؤلفًا من طابقين.

فهذا البيت وما يتبعه من حديقة وملحقات قد سُوِّر بجدار عالٍ يكتنفه من جانبين شارعان ومن الجانبين الآخرين ضياع رب المنزل، ويقع المدخل العمومي لهذا البيت على شارع، وقد أُقيمت في أوَّله حجرة حارس البيت، وتحتوي على مقعد وموقد مسطح. أما المدخل نفسه فيتألف من برجين أنيقين يكتنفانه ويعلوهما «كرنيش» محلًّى برسوم على هيئة جريد النخل، وقد لوَّن مصراعا بابيه باللون القرمزي.

وبعد اجتياز الإنسان هذا المدخل بقليل يستقبل طريقًا زُين جانباه بصفين من الأشجار الصغيرة غُرست في أحواض مملوءة بغرين النيل الخصب، وفي نهاية هذه الطريق يجد الزائر أمامه محرابًا صغيرًا على هيئة معبد قد أُقيم على رقعة من الأرض مرتفعة بعض الشيء يرقى إليه الإنسان بسلم ذي درج. والجزء الأوسط من هذا المحراب عارٍ من السقف؛ وذلك تمشيًا مع شعيرة عبادة الإله «آتون» الذي يُمثل في قرص الشمس المشرق. أما قاعة عمد هذا المحراب فيزينها سقف جميل. وعند الفراغ من تقديم فروض العبادة في المحراب يتجه الزائر نحو ردهة داخلية يصل إليها بطريق تقع على محور زاوية قائمة مع المحراب نفسه. وهذه الردهة تؤدي إلى البيت بوساطة مدخل له خارجة بارزة وبابه ملون بالألوان الزاهية، وكُتب اسم صاحب البيت وألقابه بالخط الهيروغليفي على عارضتي الباب المصنوعتين من الحجر، وكذلك يوجد للبيت باب آخر خاص بالتجار وأصحاب

الحاجات، ويقع على الطريق العامة. ويؤدي إلى ساحة عامة نُصبت فيها مخازن الغلال المفعمة بالحبوب المكدسة في صوامع مخروطية الشكل وتشبه من كل الوجوه الصوامع التي يخزن فيها الفلاحون غلالهم إلى يومنا هذا في ريف مصر وصعيدها.

وقد خُصص القسمان الجنوبي والشرقي من هذا المبنى العظيم لإصطبلات الخيل ومساكن الخدم والمطبخ وحظائر الماشية وغير ذلك.

الإصطبل: يتألف الإصطبل من رقعة مرصوفة من الأرض تسع ثمانية جياد لكل منها مذود ومربط مصنوع من الحجر، ومثبت في أصل الطوار، وخلف هذه المذاود ممر ليُوضع فيه علف الخيل، ويصل إليه الإنسان من الخارج، ولا شك أن إنشاء الإصطبلات بهذه الصورة يُعد حديثًا. ويلحق بهذا الإصطبل حجرة طويلة خُصصت لصيانة سرج الخيل ولجمها … إلخ، هذا مع وجود مكان صغير لتُحفظ فيه عربة صغيرة من الخشب وآخر لتُحفظ فيه فضلات الخيل.

قسم الخدم: ويشتمل القسم الخاص بالخدم على حجرة كبيرة ذات خارجة صغيرة مثبتة في مدخلها، ويرتكز سقفها على عمد مربعة من اللبن.

المطبخ: ويتألف من مسكن رئيس الطهاة أو مدير البيت. وهو مبني على نمط حجر البيت الرئيسية ولكن بحجم مصغر. أما المطبخ نفسه فيتألف من صف أفران تماثل بالضبط أفران الخبز التي نشاهدها في قرى الريف الآن، ويتصل بهذا المطبخ حجرة أخرى بُني فيها رف لما يُخزن، ولتقديد الخبز. هذا إلى حجرة أخرى ثُبتت فيها لوحة مبطنة بالإسمنت كانت تُستعمل لخلط العجين وتجهيزه. وأُقيمت خلف البيت كذلك حظائر الماشية وفناء متوسط الحجم فيه وجران للكلاب. وبجوار المدخل المعد لخدَّام البيت بئر قريبة الغور يُوصل إليها بدرج حلزوني للسقاية، أما الركن الشمالي الشرقي من هذه الضيعة فقد هُيئ ليكون حديقة منظمة ليتمتع بها صاحب البيت وأسرته.

البيت: أما البيت نفسه فكان يتألف من قاعة رئيسية مرتفعة عن باقي حجرات تحتل وسط البيت مضاءة بنوافذ، وحجرات أخرى خارجية مضاءة من الجوانب. والواقع أن حياة الأسرة تتركز في هذه القاعة ذات العمد القرمزية اللون والأبواب الملونة؛ لأنها متصلة بالحجرات الخاصة الأخرى، وكذلك تتصل بقسم الخدم الواقع في الجهة الجنوبية، وبالسلم الذي يؤدي للدور العلوي في الجهة الشرقية، هذا فضلًا عن أنها تؤدي إلى القاعتين الشمالية والغربية. وهكذا عندما يتخطى الزائر الباب تواجهه القاعة

الشمالية، وهي حجرة كانت تستعملها الأسرة عادة عندما تكون حرارة الشمس لافحة في فصل الصيف، لها منفذ يوصلها بالمطابخ، كما أن لها باب خدم من جهة مخزن الغلال، والسقف في هذه الحجرات الواسعة يتألف كل منها من عرق رئيسي فوق الأعمدة ملون بلون زاهٍ وزخرفة، هذا إلى عروق صغيرة ملونة باللون القرنفلي، وبين هذه العروق ألواح ملونة بالأبيض. وتوجد في جدران الحجرة منافذ صغيرة للإضاءة، وتضم جدران هذه القاعة الشمالية ثلاثة أبواب تؤدي كلها إلى القاعة الوسطى العظمى، وأوسط هذه الأبواب يعلوه عتب نُقش عليه ثانية اسم صاحب البيت وألقابه. وعندما يخترق الإنسان هذا الباب يسير بين العمد الأربعة العالية، ثم يصل إلى طوار مرتفع بعض الشيء مصنوع من اللبن. وقد فُرش بالجلود والطنف حيث كان يجلس صاحب البيت ليدير شئونه أو ليستقبل الضيفان. وهذه الحجرة تُضاء بنوافذ فُتحت بالقرب من السقف، وصُورت في الجدار المقابل نوافذ كاذبة لتكون المقابلة تامة بين الجدارين. وفي أحد جوانب هذه القاعة وُضع حجر للغسيل واسع، ومعه إناء يغتسل منه الزائر عند وصوله، وبالقرب من الطوار وُضع موقد على هيئة طبق يُوقد فيه الفحم.

أما القاعة القريبة وسلسلة الحجرات الخاصة بالضيفان التي تُفتح عليها، وكذلك حجرات الخزن المختلفة وجميعها تكمل الجزء العام من البيت؛ فإنها صورة مصغرة من القسم الشمالي من هذا البيت، وفي الغالب كانت تُستعمل في أثناء فصل الشتاء عندما يكون القسم الآخر من البيت باردًا لا تصله الشمس كثيرًا.

قسم النساء: والآن لم يبقَ أمامنا إلا الجزء الخاص من البيت، ويشمل قسم النساء وحجرة نوم رب البيت، وكلها مجتمعة حول حجرة صغيرة مربعة داخلية كانت مستعملة للجلوس.

ويُلاحظ أن النساء والأطفال كانوا يسكنون على ما يظهر في ثلاث حجرات صغيرة، أما رب البيت فكان يحتل حجرة فسيحة بملحقاتها الفخمة التي لا تقل في نظامها وحسن ترتيبها عما نجده في فندق حديث؛ إذ نشاهد حجرة نومه التي كان يصل إليها من باب قاعة الجلوس قد صُنعت فيها كوة مرتفعة بعض الشيء عن سطح الحجرة لتحتوي سريره. ويُلاحظ أن السرير كان مرفوعًا فوق أربع قطع من الحجر، وكذلك نشاهد بابًا آخر في حجرة الاستقبال مؤدِّيًا إلى حجرة التعطير والزينة، وقد عُثر فيها على قطعة من الأثاث مؤلفة من ثلاث أوانٍ مقطوعة في حجر واحد. ولا تزال واحدة منها تحمل بقايا بلورات تشبه أملاح الحمام، ومقعد من الحجر كان يجلس عليه رب البيت في أثناء

تعطيره. وخلف هذه الحجرة نجد حمامًا لرش الجسم (دش) مبنيًّا من الحجر الجيري، كان يقف فيه رب البيت في حين يصب عليه الماء عبدٌ من خلف جدار حاجز مبنيًّا. ويلي هذا الحمام كنيف يُرى فيه المقعد الحجري المثقوب الذي كان يجلس عليه لقضاء الحاجة، ويكتنفه حوضان مملوءان بالرمل، وكان لا يزال في واحد منهما إناء من الفخار. وكانت حجرة التعطير والحمام والكنيف ملونة باللون الأبيض.

ومما هو جدير بالملاحظة أن جميع أبواب هذا البيت كانت مصنوعة من الخشب وأسكفاتها من الحجر، أما درجات السلم فكانت من اللبن تحميها من التفكك قطع خشب.

ولا شك في أن الدور العلوي من البيت كان قد أُقيم على نظام خاص غير أن معلوماتنا عنه ضئيلة ولا يمكن وصفه بصورة قاطعة، ولا نزاع في أن هذا النظام الذي وجدناه فيما تبقى لدينا من بيوت مدينة إختاتون كان شائعًا في عهد الدولة الحديثة، بل ربما كان في العصور التي سبقته غير أن عوادي الدهر قد قضت عليها جملة.

أما قصر الوزير «نخت» فهو من أجمل أنواع المعمار في المدينة؛ إذ يبلغ حجمه نحو ٩٥ قدمًا في ٨٥ قدمًا. وأما بيوت العمال فقد كانت نسبة حجمها إلى أحجام بيوت عِلية القوم ضئيلة جدًّا، فالبيت لا يحتوي على أكثر من قاعة أمامية، وحجرة استقبال وحجرة نوم ومكان للطهي. وقد كانت جميع بيوت المدينة سواء أكانت لعلية القوم أم لصغار العمال مبنية باللبن، ولم يشذ حتى الجزء الأعظم من قصر الفرعون نفسه من ذلك، وهذا النوع من البناء كان يتفق مع رأي المصري وفلسفته؛ فيرى أن كل إنسان يجب أن يقيم مبناه لمدة حياته هو، وفق ميوله الشخصية، وعلى حسب ذوقه الخاص؛ فلا يصح إذن أن يفرض على خلفه منزلًا مقامًا من الحجر الصلب ربما لا يروق في نظره، هذا فضلًا عن أن البناء باللبن يخفف من وطأة حرارة الشمس وبخاصة في فصل الصيف.

وقد أقام «إخناتون» لنفسه قصرًا في حي المدينة الشمالي على مسافة قليلة جنوبي المعبد الكبير وعلى مقربة من شاطئ النيل. على أن يد الدهر لم تُبقِ لنا شيئًا كثيرًا من مبانيه حتى أصبح من المتعذر علينا أن نميز حال العمد التي وجدناها في القاعة العظمى أكانت تتألف حقيقة من عمد أم كانت حوامل أُقيمت عليها رقعة حجرة أخرى فوق الطبقات السفلية من القصر. على أن أهم ما يلفت النظر في هيئة هذا المبنى الضخم الغريب هو حجرة العمد التي يبلغ عرضها ٤٢٨ قدمًا وطولها ٢٣٤ قدمًا؛ مما يجعل قاعات القصور الملكية أو غيرها تتضاءل بجانبها، هذا إذا ما قرناها بمساحة القصر كله

الذي كان يبلغ ١٤٠٠ قدم طولًا ٤٠٠ أو ٥٠٠ عرضًا، وهذه القاعة تنتظم ٥٤٢ عمودًا، فإذا كانت الأعمدة التي وُجدت فيها حقًّا أعمدتها كانت تلك القاعة في بهائها تمثل غابة مزدحمة بالأشجار الباسقة. وعلى الرغم من حقارة المادة التي صُنعت منها جدران هذا القصر فإن النقوش التي كانت عليها غاية في الفخامة والروعة. ومما يؤسف له جد الأسف أن رقعة حجرات هذا القصر المزينة بالألوان التي قد أسبغ عليها صانعها قوة طبعية بما وُضع فيها من الرسوم الناطقة المنسجمة. وكذلك الزينات التقليدية التي كانت تُحلى بها تيجان العمد وهي التي أُحكم صنعها بزجاج مطلي براق زادها بهجة ورواء؛ لم يبقَ منها إلا نتف صغيرة يمكننا أن نستخلص منها ما كان يحدث في نفس الزائر عند التمتع برؤيتها، ولا غرابة إذن في أن يتخيل الإنسان أن قصر «إخناتون» كان جنة الله على الأرض، ينعم فيها في هدوء بعيدًا عن متاعب طيبة وفتنها وأحابيل كهنتها. وكانت «إختاتون» حافلة بالمعابد المختلفة الأنواع والأحجام، ولم يكن الفرعون وحبه لإلهه لينسيه احترام ذكرى أجداده العظام على الرغم من أنه قطع حبل الصلة بينه وبينهم من جهة العقائد الدينية؛ فقد وجدنا في المدينة بقايا عدة معابد كانت قد أُهديت لملوك الماضي العظام مثل «أمنحتب الثاني» و«تحتمس الرابع».

وبجانب هذه كانت تُوجد معابد صغيرة مثل معبد «بيت راحة آتون»، وكانت الملكة «تي» والدة إخناتون تقوم بتأدية الشعائر فيه، هذا إلى معبد للأميرة «باك آتون» أخت «إخناتون» الصغيرة، وآخر للأميرة «مريت آتون» أسنِّ بنات الفرعون، ويُسمَّى بيت الفرح للإله آتون في جزيرة آتون الممتاز في أعياده، ثم معبد النهر والجوسق المقدس التابع لرحبة البركة الجنوبية ومعبد «مرو آتون» أي رحبة آتون، أما معبد الدولة العظيم فكان يغطي على كل ما سواه حجمًا وفخامة وأبهة. وفي أقصى جنوب سهل «تل العمارنة» وبالقرب من قرية الحوطة يوجد على حساب الكشوف الحديثة حي من أهم أحياء مدينة «إختاتون»، وهذا الحي يُسمَّى «مرو آتون» أي «رحبة آتون»، وهو اسم لا بد قد أُطلق على جزء كبير مسوَّر كانت تنعم فيه الملكة كأنه جنة على الأرض، فهي تتمتع بالهواء الطلق في ظلال الحدائق الوارفة التي كان يحبها كل مصري. هذا إلى قاعة استقبال أنيقة ومعبد صغير، والواقع أن حب الطبيعة يتجلى في كل تعاليم «إخناتون» الدينية، والظاهر أنه قد ابتُدع وسائل المتعة بجمال الطبيعة في «مرو آتون» وهو ذلك الجمال الذي وهبه إياه إلهه «آتون»، فقد أوجد بيئة محفوفة بمتع الحياة، ومزينة بمناظر الطبيعة التي أوجدها «آتون»، ليمكنه أن ينتقل في أرجائها في أقل من لمح البصر لعبادة خالق كل هذا؛ إذ

كانت مناظر الطبيعة وملاذ الحياة توجد جنبًا لجنب مع المعبد، وقد كانت «مرو آتون» هذه مؤلفة من مبنيين محاطين بسور يفصل بعضهما عن بعض جدار. وتبلغ مساحة المبنى الشمالي وهو أكبرهما ٢٠٠ × ١٠٠ متر، أما الثاني فتبلغ مساحته ١٦٠ × ٨٠ متر، ويمتاز المبنى الأصغر بقاعة استقبال ذات عمد وبحيرة من صنع الإنسان، أما باقي مساحته فالمرجح أنها كانت مزروعة بالأزهار المنسقة والأعشاب النضرة. وقد كان الجزء الأعظم من القسم الأكبر من هذه الجنة يشغله بحيرة مستطيلة أو حوض يبلغ مساحته ١٢٠ × ٦٠ مترًا وعمقها نحو متر، وفي نهاية تلك البحيرة من الجهة الغربية أُقيم طوار داخل في الماء ليكون بمثابة سلم مريح لمن أراد التنزه في سفينته في ذلك الخضم المترامي الأطراف، وقد زُينت شواطئ تلك البحيرة بمبانٍ مختلفة أشكالها، وكانت مجموعة المباني التي في الركن الشمالي الشرقي من البحيرة أهم ما يسترعي النظر والاهتمام؛ فعلى الرغم من أنها كانت بمثابة قاعة استقبال في الجهة الشمالية من البحيرة فإن كهوفها لا بدَّ كانت يومًا مكتظة بزجاجات الخمر. ويدل على ذلك أختامها المصنوعة من الطين، وهذا لعمري يبرهن على أن تمتع «إخناتون» بجمال الطبيعة ومفاتنها لم يجعله ينسى نصيبه من ملاذ الحياة الدنيا ومتاعها، أما أقصى الركن الشمالي الشرقي لتلك الجنة فكان يشغله مبنًى مزخرف مما جعله بهجة للناظرين، والظاهر أنه كان نوعًا من الأحواض التي تنمو فيها النباتات المائية على مختلف أنواعها وألوانها، وجنوب هذا الحوض المائي ذي النباتات الفيحاء تقع عين الناظر على طائفة من أسرة الزهر اليانع، وجنوب هذه يجري جدول مائي يلتف حولها من الجوانب الأربعة مكونًا جزيرة صغيرة كان يصل إليها الزائر من الجنوب بوساطة دهليز معبد مقام على عمد، وله بوابتان، وينتهي بجسر صغير يمر فوق خندق إلى جزيرة، وعند مدخل الجزيرة من هذه الناحية يواجه الفرعون جوسقين هما توأمان في الصورة والتصميم، وأمام كل منهما أُقيمت واجهة ذات عمد غير مسقوفة، وفي نهاية المطاف يصل الفرعون وضيوفه من أصحاب الحظوة عنده إلى سلم معبد صغير أُقيم في منتصف رقعته مائدة، وخلفها باب يؤدي إلى جسر آخر يتصل بحديقة النباتات المائية السالفة الذكر.

هذه لمحة عن مفاتن مدينة «إختاتون» الخلابة، وعلى الإنسان أن يرخي لخياله العنان فيتصور الفرعون وهو عائد مثقل بأعباء مهام الدولة فيطرحها عن نفسه بما سيجده من متاع بين أصدقائه وسماره، وقد ملأ البشر والفرح قلوبهم، ثم يأخذ بنصيب من مسرات الحياة ومفاتنها قبل أن يأتي اليوم الذي يقصم فيه الأسى والحزن قلبه وتكسر

الهموم من حدة روحه الفتية الوثابة. ولا غرابة؛ فإن كل ما وصفناه هنا من مناظر ومتاع دنيوي هو من مميزات الطبيعة المصرية، وبخاصة بعد أن سما بها «إخناتون» في عهد «تل العمارنة» إلى أعلى عليين، وهذا الحب للطبيعة جزء لا يتجزأ من ديانة «آتون»، بل كان في الواقع ولعًا لا تخبو ناره في نفسه إلى أن صعدت روحه إلى عالم السماء، مع خالقه «آتون» المشرق في ربوعه. (راجع Baiki The Amarua Age p. 277).

وسط المدينة (إختاتون)

أما وسط المدينة فيقع جنوبي المعبد الكبير، وهو يحتوي على المخازن التي بين ضياع الفرعون وبين صفوف بيوت الكهنة الواقعة جنوبيها. وجنوب الضياع الملكية كانت تقوم مصلحة السجلات، وهي تقع في الجزء الغربي للمدينة وتسمى مكان مراسلات الفرعون — له الحياة والصحة والعافية — والظاهر أن مكان هذه الإدارة كان قد أُعدَّ لكتاب العمال، وقد هُدم فيما بعد، وحلَّت محله إدارة السجلات،[٢٧] وقد أُقيمت الجامعة في المكان الشرقي لهذه الإدارة، وقد عُثر على لبنات تدل على ذلك، كما عُثر هناك على عدة «إستراكا» كُتب عليها قوائم بأسماء الكتاب الملكيين، ويُحتمل أنهم كانوا المحاضرين في الجامعة. وفي شمالي السجلات كانت تُوجد مجموعة إدارات وقد وُجد بعض أبواب هذه المباني مغلقًا باللبنات، وذلك يدل على أن الشك كان يخالج نفوس الموظفين فيما إذا كان الانتقال إلى «طيبة» سيستمر أم لا، ونحن نعلم أن طبقة الفنيين لم يكونوا متأكدين من ذلك؛ لأنهم تركوا منازلهم قابلة للسكنى. وجدير بالملاحظة هنا أن معظم الإيجي[٢٨] كان من هذا الجزء من المدينة؛ إذ وُجد هنا بكثرة، وكانت المنازل الخاصة يحتلها الفقراء الذين لم يمكنهم الذهاب إلى «طيبة».

وفي جنوبي هذه البقعة صفوف من بيوت الكتاب، وفي الشرق عدة مخازن، كذلك وُجد في هذا المكان الثكنات العسكرية، وكان فيها جنود المازوي (القرطة) وكذلك إصطبلات الخيل.

---

[٢٧] راجع: J. E. A. Vol. XXI, p. 136، حيث نجد بحثًا عن أسماء مباني «إخناتون» في وسط المدينة، وكاتبه يعتقد أن الجزيرة تحتوي على كل مباني القصر والمعبد، أو بعبارة أخرى تُعَدُّ مرادفًا لوسط المدينة.

[٢٨] راجع: Pendlebury, J. E. A., Vol. XVI, p. 87 & note 15.

(٤-٣) التوحيد (أقدم عقيدة للتوحيد العالمي)

مقدمة

لقد أثرت السلطة الاجتماعية التي سادت مصر في العهد الإقطاعي تأثيرًا كبيرًا في دينها وأخلاقها، كما تركت الحكومة المصرية في عهد الأهرام مثل ذلك الأثر في التشريع السياسي. وكلا الأثرين كان ينحصر في دائرة القطر المصري وحده.

والواقع أن عصر الأهرام لم يجنِ إلا فكرة مبهمة عن أملاك إله الشمس الواسعة، وقد خُوطب ذلك الإله مرة في متون الأهرام باللقب الطنان «غير المحدود»، وإن كان قد ظهر في هذا العصر ما يبشر بنمو اجتماعي عند بعض الكتاب النابهين أمثال «بتاح حتب» الذين آمنوا بوجود قيم خلقية عالمية تسيطر على الملك، وتخضع لإله الشمس، وهذا يدلنا على أن المصريين كانوا قد بدءوا يسيرون بالفعل في الطريق المؤدي إلى التوحيد.

وقد كان في مقدور المصريين وقتئذٍ أن يتقدموا نحو الوصول إلى المعرفة التامة «بالوحدانية» بما تصوَّروه من النظام الإداري الخلقي العظيم. وقد وصل فعلًا إلى ذلك رجال الفلسفة واللاهوت الذين أتوا بعد ذلك العصر، لكن على الرغم من ذلك قد بقي هذا النظام الخُلقي فكرة قومية لم يمتد سلطانها حتى ينتظم العالم كله، فبقي إله الشمس يحكم مصر وحدها، فنراه في أنشودة متون[٢٩] الأهرام العظيمة يقف حارسًا على الحدود المصرية فيقيم هناك الأبواب التي تمنع الأجانب دخول مملكته، ومن قبل كانت قد بدأت عملية إدماج ملوك مصر الآخرين بإله الشمس فصار يحل في كل شيء، واستحالت الآلهة جميعها من حيث أشكالها ووظائفها إلى وحدة واحدة، ولكنها مقصورة على مصر، ولم تنفذ بعد من أقطارها حتى تصير إلهًا عالميًّا واحدًا، ولكن اتساع مجال الفتوحات الأجنبية العظيمة على يد «تحتمس الثالث» في «آسيا» جعل السيادة المصرية تظلل رقعة من العالم واسعة تمتد من أول الجزر الإغريقية فسواحل آسيا الصغرى، ومرتفعات أعالي نهر الفرات شمالًا حتى الشلال الرابع لنهر النيل جنوبًا.

ولما كان اللاهوت الشمسي سريع الاندماج بأحوال العالم فقد انسابت حاسيته زاحفة نحو الأفق الواسع الذي أصبح تابعًا لمصر، فامتد إجلال الإله وتقديسه حتى ظلل هذه

---

[٢٩] راجع: Sethe, “Die Altagyptischen Pyramidentexte”, lines. 1587–1595c; Breasted, “The Development of Religion and Thought”, PP. 13–14.

الميادين الجديدة التي دانت لمصر بالسلطان. فأثرت الإمبراطورية المصرية الواسعة على الفكرة الدينية القديمة، وقد صاحب ذلك تيقظ عقلي هزَّ التقاليد المصرية القديمة من أساسها. وكان «تحتمس الثالث» الفاتح يُعد أول شخصية تتسم بسمة البطولة العالمية، فتأثر بذلك لاهوت الدولة، وأُرغمت مصر على الخروج من عزلتها القديمة إلى الاشتراك في العلاقات العالمية التي كان لإله الشمس صلة وثيقة بها.

على أن العلاقات التجارية التي كانت قائمة من قديم الزمان لم تكف لأن تجعل العالم الخارجي الواسع يخضع خضوعًا محسًّا للتفكير المصري، فإن نشاط التجارة كان محصورًا من قبل في تخوم وادي النيل قبل أن يألف المصريُّ العالمَ الخارجي، ولم يكن في مقدور المعاملات التجارية وحدها مع عالم أوسع من مصر أن يزحزح تقاليد البلاد عما كانت عليه، فكم من تاجر في «بابل» النائية وفي «طيبة» المصرية قد رأى حجرًا يسقط من حالق إلى الأرض، ولكنه لم يدرك تلك القوة الطبعية قوة الجاذبية، تلك القوة التي اهتدى إلى سرها ذلكم الصبي الراقد تحت شجرة التفاح بعد تلك العهود بأمد طويل (نيوتن)، وكم من تاجر قد رأى الشمس تبزغ خلف معابد بابل وبين مسلات «طيبة»، ولكنه لم يصل إلى كنهها الحقيقي، وإذا كان «تحتمس» قد قال عن إله الشمس «إنه يرى جميع العالم في كل ساعة»، فإنه يقصد بذلك تلك السلطة الإمبراطورية التي تناولت أولًا خيال رجال الإمبراطورية المفكرين، وكشفت لهم المجال العالمي لممتلكات إله الشمس في صورة مجسمة، فالتوحيد إذن لم يكن إلا السلطان الإمبراطوري في التدين، ففي عهد «أمنحتب الثالث» الذي كان من أعظم أباطرة مصر نرى توأمين من رجال العمارة هما «سوتي» و«حور» كانا يعملان في طيبة لحسابه، وقد ترك لنا أنشودة للشمس فوق لوحة موجودة الآن بالمتحف البريطاني توضح لنا مدى ميل ذلك العصر، كما توضح لنا المجال الآخذ في الاتساع الذي كان رجال الإمبراطورية يحلمون به مدركين أن مملكة إله الشمس لا حدَّ لها في امتدادها واتساع رقعتها.

وهذه الأنشودة الشمسية تحتوي على أسطر خطيرة المعنى وهي:[٣٠]

إنك صانع مصوِّر لأعضائك بنفسك
ومصوِّر دون أن تصوَّر

---

[٣٠] راجع: Budge, “Guide to Sculpture”, p. 134. No. 475. P. XX.

منقطع القرين في صفاته مخترق الأبدية
مرشد «الملايين» إلى السبل
وعندما تقلع في عرض السماء يشاهدك كل البشر
على الرغم من أن سيرك خفي عن أنظارهم
إنك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ
بل مئات الآلاف وملايين المرات
وكل يوم تحتك (تحت سلطانك)
وحينما يأتي وقت غروبك
تصغى إليك أيضًا ساعات الليل
ولا يكون اجتيازها نهاية كدك
كل الناس تنظر بوساطتك
وأنت خالق الكل ومانحهم قوتهم
وأنت أم نافعة للآلهة والبشر
وأنت صانع مجرب …
وراعٍ شجاع يسوق ماشيته
وأنت ملجؤها ومانحها قوتها …
وهو الذي يرى ما خلق …
والسيد الأحد الذي يأخذ جميع من في الأراضي أسرى كل يوم
بصفته واحدًا يشاهد من يمشون فيها
ومضيء في السماء كائن كالشمس
وهو يخلق الفصول والشهور
والحرارة عندما يريد
والبرد عندما يشاء
فكل البلاد في فرح
عند بزوغه كل يوم لأجل أن تسبح له.

ولم تصل إلينا وثيقة تضم تعبيرات صريحة عن التفكير المصري أقدم من هذه؛ إذ جاء فيها: «السيد الأحد الذي يأخذ جميع من في الأرض أسرى كل يوم بصفته واحدًا يشاهد السائرين عليها.» ومن الأمور الهامة أن ندرك أن ذلك الاتجاه كانت له علاقة

مباشرة بالحركة الاجتماعية في العصر الإقطاعي المصري؛ إذ إن النعوت التي كان يُنعت بها إله الشمس مثل قوله: «الراعي الشجاع الذي يسوق ماشيته، وهو ملجؤها ومانح قوتها.» تشبه تلك التي وُجدت قديمًا في عهد النصائح التي وُجهت إلى «مريكارع»، فقد سُمي الناس في هذه: «قطعان الإله»، وكذلك تشبه أفكار «أبور» حيث يقول: «إنه راع لجميع الناس.» ويلفت نظرنا كذلك نعت آخر هو «أم نافعة للإله والبشر»؛ لأنه يحمل في ثناياه فكرة تشعر بالاهتمام ببني البشر. على أن النواحي الإنسانية في سلطان إله الشمس التي اشترك في إيجادها بصفة خاصة المفكرون في العهد الإقطاعي لم تختفِ بين العوامل السياسية القوية التي ظهرت في ذلك الميدان العالمي الجديد.

ولقد تقدم لنا بيان ما قام من النزاع الشديد بشأن العرش حوالي سنة ١٣٧٥ق.م، عندما خلف «أمنحتب الرابع» والده «أمنحتب الثالث»، وميل الملك الشاب إلى إله الشمس القديم وإعراضه عن مذهب «آمون» الذي أطلق عليه أتباعه «آمون رع» قاصدين بذلك أنه اتحد مع إله الشمس «رع»، وبينا كذلك أن «أمنحتب الرابع» ناصر في باكورة حكمه فكرة جديدة للمذهب الشمسي ربما كان غرضه منها التوفيق بين المذهبين.

وقد حدث في الوقت الذي كان فيه موقف البلاد المصرية السياسي في «آسيا» في غاية الحرج أن كان الملك منهمكًا بكل حماسة في تعضيد التسلط العالمي لإله الشمس الذي أدركنا كنهه في أيام والده، فأعطى هذا الملك إله الشمس اسمًا جديدًا خلص به المذهب الجديد من التقليد المحفوف بخطر الشرك في «اللاهوت الشمسي القديم»، فصار إله الشمس يُسمَّى وقتئذٍ «آتون»، وهو اسم قديم يُطلق على الشمس المجسمة.

ومن المحتمل أن هذه التسمية كانت لا تدل إلا على قرص الشمس فحسب. وهذا الاسم الجديد ذُكر مرتين في أنشودة رجال عمارة «أمنحتب الثالث» التي اقتبسنا منها جزءًا فيما تقدم. وكأن هذا الاسم قد لاقى بعض الإقبال في عهد ذلك الملك الذي سُمي به أحد قواربه الملكية «آتون يسطع»، كما أسلفنا.

ولم يقتصر الحال على إعطاء إله الشمس اسمًا جديدًا بل منحه ذلك الملك الشاب رمزًا جديدًا. فقد ذكرنا فيما مر سابقًا أن أقدم رمز لإله الشمس كان هو الشكل الهرمي — كما كان يُرمز له كذلك بالصقر؛ لأن صورة ذلك الطائر كانت تدل عليه. وعلى أية حال، فإن هذين الرمزين كانا مفهومين بين سكان وادي النيل فحسب، ولكن «أمنحتب» الرابع كان في مخيلته وقتئذٍ مسرح أفسح وأوسع من القطر المصري؛ إذ إن الرمز الجديد قد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقة تنتشر فوق الأرض كما كان كل شعاع من أشعته ينتهي طرفه بهيئة يد بشرية.

وقد كان ذلك الرمز يدل على السيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوي، وهي تضع أيديها تلك فوق العالم وعلى شئون البشر الأرضية، مع أن أشعة إله الشمس منذ عصر «متون الأهرام» قد شبهت بذراعين له. وظن الناس إذ ذاك أنها نائبة عنه في الأرض.

«إن ذراعي أشعة الشمس قد رُفعت مع الملك (وناس) صاعدة به إلى السموات.»

وقد كان ذلك الرمز سهل الفهم لكل البشر الذين يسيطر عليهم الفرعون كما كان معناه واضحًا كل الوضوح، حتى إنه كان في استطاعة سكان نهر الفرات، أو رجال بلاد النوبة على النيل السوداني أن يدركوا معناه على الفور. على أن ذلك الرمز لم تقتصر دلالته على السيطرة العالمية فحسب، بل صار خليقًا بأن يكون رمزًا عالميًّا إلى أقصى حد. وكذلك قد بُذلت بعض الجهود لتعريف تلك القوة الشمسية التي رُمز لها بتلك الصورة، فقد كان اسم إله الشمس الكامل: «حور أختي (حور الأفق) فرحًا في الأفق[٣١] باسمه الحرارة التي في «آتون».» وكان ذلك الاسم يُوضع في طغراءين ملكيتين مثل اسم الفرعون المزدوج (يعني اسمه ولقبه). وهذا الوضع مأخوذ من مشابهة سلطان «آتون» لسلطان الفرعون. وذلك برهان آخر يدل على التأثير الذي أوجدته الإمبراطورية المصرية بصفتها الحكومية في مذهب اللاهوت الشمسي. ولكن الاسم الموضوع في الطغراءين حدَّد لنا بوجه عام مقدار القوة الجثمانية الحقيقية للشمس في العالم المحس، ولم يكن في الوقت نفسه يمثل شخصية سياسية ما.[٣٢]

[٣١] راجع: A. S. Vol. III, p. 262.

[٣٢] راجع: J. E. A., Vol. IX, p. 168ff.

والكلمة المصرية القديمة التي ترجمتها في اسم ذلك الملك «حرارة» قد يكون معناها أحيانًا «نورًا» أيضًا.

ومن الواضح أن ما كان الملك يعبده هو القوَّة الدالة على وجود الشمس فوق الأرض. وكل الأدلة الكثيرة التي نجدها في أناشيد «آتون» منسجمة مع تلك النتيجة كما هي منسجمة في الأناشيد الآتية بعد هذا، وهي التي نرى فيها «آتون» نشطًا باسطًا أشعته على كل مكان فوق وجه الأرض.

ومع أنه كان من الواضح أن ذلك المذهب الجديد قد استقى وحيه من مدينة «هليوبوليس» حتى إن الملك الذي كان يحمل لقب الكاهن العظيم للإله «آتون» سمى نفسه «الرائي العظيم»، وهو نفس كاهن «هليوبوليس» العظيم، فإنه على الرغم من كل ذلك كان قد أزال معظم سقط المتاع القديم من الشعائر التي كانت تتألف منها ظواهر اللاهوت التقليدية، ولذلك ترانا نبحث عبثًا في ذلك اللاهوت الجديد عن السفن الشمسية، كما ترانا نبحث عبثًا عن باقي الإضافات التي أُدخلت فيما بعد على المذهب الشمسي في مثل السياحة في كهوف الأموات السفلية وغير ذلك؛ إذ قد مُحيت منه جملة.

فإذا كان الغرض الذي رمت إليه حركة مذهب «آتون» هو التوفيق بينها وبين كهنة «آمون»؛ فإنها قد فشلت وقام بينها ألد الخصام الذي اشتد وبلغ الذروة عندما صمم الملك أن يتخذ من «آتون» إلهًا واحدًا للإمبراطورية المصرية، ويقضي على عبادة «آمون». وقد نتج عن ذلك المجهود الذي بُذل لمحو كل الآثار الدالة على وجود «آمون» أن اتخذت جميع الإجراءات الممكنة المؤدية إلى ذلك الغرض؛ إذ نجد أن الملك قد غيَّر اسمه من «أمنحتب» يعني «آمون راضٍ» إلى «إخناتون» يعني «آتون راضٍ»، وذلك الاسم الجديد الذي اتخذه الملك لنفسه هو ترجمة للاسم القديم للملك بفكرة مماثلة لما كانت عليه، غير أنه حُوِّل إلى مذهب «آتون» هذا من جهة، وكان اسم «آمون» من الجهة الأخرى يُمحى أينما وُجد فوق آثار «طيبة» العظيمة، ولم يحترم الملك تنفيذًا لفكرته هذه أيَّ نقش وإن كان المنقوش اسم والده الملك «أمنحتب الثالث». لم يكن الأمر قاصرًا على محو اسم «آمون» فحسب بل تعداه إلى كلمة الآلهة جمعًا، فإنه كان يأمر بمحوها أيضًا أينما وُجدت كأنه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاه، كذلك عُومِلَتْ أسماء سائر أفراد الآلهة الآخرين معاملة «آمون» بالمحو.

وقد هجر الملك «إخناتون» طيبة على الرغم مما كان لها من السيادة والأبهة عندما وجد ارتباكها بالتقاليد اللاهوتية القديمة التي كانت أكثر مما يلزم، وأقام لنفسه حاضرة جديدة في منتصف الطريق بين «طيبة» والبحر تقريبًا في بقعة تُعرف في وقتنا هذا باسم «تل العمارنة» وسماها «إختاتون» (أفق آتون) كما شرحنا ذلك، كما أسس في بلاد النوبة مدينة «لآتون» مشابهة لها. ومن المحتمل جدًّا أنه أقام مدينة أخرى لذلك الإله في «آسيا»، وبذلك صار لكلٍّ من ثلاثة الأجزاء العظيمة التي تتألف منها الدولة وهي «مصر» والنوبة و«سوريا» مقرٌّ لمذهب «آتون». وقد شِيدت كذلك معابد أخرى لآتون في أماكن مختلفة من مصر غير المعابد المبنية في تلك الحواضر، ولم يتم ذلك طبعًا دون تأليف حزب قوي من رجال البلاط الملكي يمكن للملك به أن يناهض أولئك الكهنة المنبوذين، وبخاصة كهنة «آمون». وقد أثرت تلك الفتنة التي نتجت عن ذلك الانقلاب بلا شك تأثيرًا خطيرًا في قوة البيت المالك؛ إذ كان حزب ذلك البلاط الذي نما إذ ذاك في ظل «إخناتون» يعمل معه جاهدًا على نشر ذلك المذهب الديني الجديد الذي يصح أن يُعد أهم دور وأبهجه في تاريخ ذلك الشرق القديم، يدلنا على ذلك ما بقي من نقوش فوق جدران تلك المقابر التي نحتها الملك في الصخر لأشراف رجاله قبالة الجبال المنخفضة التي تقع في الهضبة الشرقية القائمة خلف تلك المدينة الجديدة.

والواقع أننا مدينون لمقابر أتباع ذلك الملك بمعلوماتنا هذه التي تتضمن تلك التعاليم الهامة التي كانت تُنشر في تلك الفترة، وهي تحتوي على سلسلة أناشيد في مدح إله الشمس، كما تحتوي على مديح إله الشمس والملك بالتبادل. تلك التعاليم تمدُّنا على الأقل بلمحة من عالم الفكر الذي نشاهد فيه ذلك الملك الشاب وأتباعه رافعين أعينهم نحو السماء محاولين بذلك إدراك مجال الذات الإلهية في بهائها الأبدي الذي لا حد له ولا نهاية، وهي الإلهية التي لم ينحصر سلطانها بعد في وادي النيل، بل امتد بين جميع البشر في العالم كله.

ولا يمكننا الآن أن نأتي بشيء عند هذه السانحة أفصح من تلك الأناشيد التي تقص علينا بنفسها شيئًا عن تلك التعاليم، وأطول أنشودة[٣٣] بينها وأهمها هي الآتية بعد. (راجع Davies, “El Amarna”, Vol. VI, Pl. XXVII, XLI; & Sandman Text From The Time of Akhenaton p. 93ff.)

[٣٣] راجع: Selim Hassan, “Hymnes Religeux du Moyen Empire”, p. 192–193، حيث تجد بعض أفكار «إخناتون» كانت قد دُونت قبل عهده وأنه ليس أوَّل مبتدع لهذه الأفكار الدالة على التوحيد.

«بهاء آتون» وقوته العالمية

أنت تبزغ بجمالك في أفق السماء
أنت يا «آتون» الحي الذي كنت في أزلية الحياة
فحينما كنت تشرق في الأفق الشرقي
كنت تملأ كل البلاد بجمالك
أنت جميل ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض
أشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك
أنت «رع»، وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعني الأرضين)
وأنت توثقهم (يعني البشر) لابنك المحبوب (يعني الفرعون)
وعلى الرغم من أنك قصي جدًّا فإن أشعتك فوق الأرض
وعلى الرغم من أنك نجاة البشر فإن خطواتك خفية (عنهم).

الليل والإنسان: موازنة (الأنشودة)

حينما[٣٤] تغيب في أفق السماء الغربي، فإن الأرض تظلم كالموت، فينامون في حجراتهم ورءوسهم ملفوفة. ومعاطسهم مسدودة، ولا يرى إنسان الآخر في حين أن أمتعتهم تُسرق وهي تحت رءوسهم وهم لا يشعرون بذلك.

المزامير

تجعل ظلمة فيكون فيه يد كل حيوان الوعر (المزمور ١٠٤: ٢٠).

ونظمها بعض النصارى فقال:

تجعل ظلمة فذا ك الليل أسدلا
والحيوان عند ذا يدب في الفلا

نظم المزامير (١٠٤: ٢٠).

---

[٣٤] سنورد هنا موازنة بين هذه الأنشودة والمزامير من الكتاب المقدس (التوراة).

الليل والحيوان: موازنة (الأنشودة)

وكل أسد يخرج من عربته (ليفترس)، وكل الثعابين تنساب لتلدغ والظلام يخيم، والعالم يكون في صمت في حين أن الذي خلقهم باقٍ في أفقه.

المزامير

الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها (المزمور ١٠٤: ٢١).

وقد نظمها بعض النصارى فقال:

تزمجر الأشبال كي   تـخـطـف مـا تـراه
كذا لكي تلتمس الـ   ـطـعـام مـن الـلـه

(مزمور ١٠٤: ٢١).

النهار والإنسان: موازنة (الأنشودة)

والأرض زاهية حينما تشرق في الأفق عندما تضيء بالنهار مثل «آتون»، فإنك تقصي الظلمة إلى بعيد. حينما ترسل أشعتك تصير الأراضي في عيد. والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند إيقاظك لهم، وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم ثم يرفعون أذرعتهم تعبدًا لطلعتك، ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم في كل العالم.

المزامير

تشرق الشمس فتجتمع، وفي مآويها تربض، الإنسان يخرج لعمله وإلى شغله إلى المساء. (المزمور ١٠٤: ٢٢-٢٣).

ونظمها بعض النصارى فقال:

إذ تشرق الشمس ترا   هـا اجـتـمـعـت لـلـحـين
ثـم انـزوت رابـضـة   فـي وسـط الـعـريـن

فيخرج الإنسان للـ ـدخول في الأعمال
ويبقى إلى المساء في دوائـر الأشـغـال

(نظم المزامير ١٠٤: ٢١–٢٣).

النهار والحيوان والنبات

وجميع الماشية ترتع في مراعيها، والأشجار والنبات تينع، والطيور في مستنقعاتها ترفرف، وأجنحتها منتشرة إليك تعبدًا، وجميع الغزلان ترقص على أقدامها، وجميع المخلوقات التي تطير أو تحط تحيا عندما تشرق عليها.

النهار والمياه: موازنة (الأنشودة)

والسفن تقلع في النهر صاعدة أو منحدرة فيه على السواء. كل فج مفتوح لشروقك، والسمك يسبح في النهر أمامك، وأشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم.

المزامير

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابات بلا عدد صغار حيوان مع كبار، هناك تجري السفن لوياثان، هذا خلقته ليلعب فيه.

(المزمور ١٠٤: ٢٥–٢٦).

ونظمها بعض النصارى فقال:

فالأرض ممتلئة من خيرك الغزير
وبحرها المتسع الـ أطراف والكبير
ليس لدباباته عدٌّ ولا انحصار
فالحيوانات به الـ ـكبار والصغار
هناك تجري سفن تأتي وتذهب
لوياثان فيه قد خلقت يلعب

خلق الإنسان

أنت خالق الجرثومة في المرأة، والذي يذرأ من البذرة أناسًا، وجاعل الولد يعيش في بطن أمه مهدئًا إياه حتى لا يبكي، مرضعًا إياه حتى في الرحم، وأنت معطي النفس حتى تحفظ حياة كل إنسان خلقته حينما ينزل من الرحم (أمه) في يوم ولادته، وأنت تفتح فمه تمامًا وتمنحه ضروريات الحياة.

خلق الحيوان

وحينما يصير الفرخ في لحاء البيضة تعطيه النفس ليحفظه حيًّا في وسطها. وقد قدَّرت له ميقاتًا في البيضة ليخرج منها، وهو يخرج من البيضة في ميقاته (الذي قدَّرته له) فيمشي على رجليه حينما يخرج منها.

الخلق العالمي (الأنشودة)

ما أكثر تعدد أعمالك وهي على الناس خافية، يا أيها الإله الأحد الذي لا يوجد بجانبه شأن لأحد، لقد خلقت الأرض على حسب رغبتك، وحينما كنت وحيدًا (لا شيء غيرك) خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان وجميع ما على الأرض مما يمشي على رجليه وما في عليين مما يطير بأجنحته، وفي الأقطار العالية «سوريا» و«كوش» وأرض مصر، وإنك تضع كل إنسان في موضعه وتمدهم بحاجاتهم وكل إنسان لديه قوته. وأيامه معدودات، والألسنة في الكلام مختلفة، كذلك تختلف أشكالهم وجلودهم، وإنك تخلق الأجانب مختلفين.

المزامير

ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمة صنعت، الأرض ملأى بغناك.

ونظمها بعض النصارى فقال:

يا رب ما أعظم أعـ ـمالك يا منان
جميعها صنعت بالحـ ـكمة والإتقان

فـالأرض مـمـتـلـئـة من خـيـرك الـغـزيـر
وبحـرها المتسع الــ أطـراف والـكـبـيـر

(نظم المزامير ١٠٤: ٢٤-٢٥).

ري الأراضي في مصر وفي خارجها

أنت تخلق النيل في العالم السفلي
وأنت تأتي به كما تشاء
ليحفظ أهل مصر أحياء (كلمة أهل استعملت هنا فقط لأهل مصر)
لأنك خلقتهم لنفسك
وأنت سيدهم جميعًا
وأنت الذي تنهك[٣٥] نفسك من أجلهم
وأنت شمس النهار عظيم الافتخار
وجميع الأقطار العالمية القاصية
تخلق حياتها أيضًا
لقد وضعت نيلًا في السماء
حينما ينزل لهم يصنع أمواجًا فوق الجبال
مثل البحر الأخضر العظيم
فيروي حقولهم في مدنهم
ما أكرم مقاصدك يا رب الأبدية
ويوجد نيل في السماء للأجانب
لأجل غزلان كل الهضاب التي تتجول على أقدامها
أما النيل فإنه يأتي من العالم السفلي لمصر.

[٣٥] وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ سورة ق٥٠، آية ٣٨.

فصول السنة

أشعتك تغذي كل بستان (كلمة تغذية هنا تعني تغذية الأم لطفلها)
وعندما تبزغ فإنها تحيا
فهي تنمو بك
أنت تخلق الفصول
لأجل أن ينمو كل ما صنعت
فالشتاء يأتي إليهم بالنسيم العليل
والحرارة لأجل أن تستطعمهم (أي يكون لها طعم لذيذ في فمك).

السيطرة العالمية

أنت خلقت السموات العُلى لتشرق فيها
ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لا تزال وحيدًا (لا شيء غيرك)
مضيئًا في صورتك مثل «آتون» الحي
وبازغًا وساطعًا وذاهبًا بعيدًا وآيبًا (في الغدوِّ والآصال)
وأنت تخلق آلاف الآلاف من الصور منفردًا بنفسك
والمدن والقرى والحقول والطرق العامة والأنهار
وجميع العيون تراك تجاهها
لأنك «آتون» (شمس) النهار فوق الأرض
وحينما تغيب
وجميع الناس الذين سويت وجوههم
لأجل ألا ترى نفسك بعيدًا وحيدًا
يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته
ومع ذلك فإنك لا تزال في قلبي.

وحي الملك

«ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك «إخناتون».»
«لقد جعلته عليمًا بمقاصدك وبقوتك.»

الوقاية العالمية

العالم يعيش بصنيع يدك
فيحيا حينما تشرق
ويموت حينما تغيب
لأن حياتك طول مدى نفسك
والناس يعيشون بوساطتك
وأعين الناس لا ترى إلا جمالك حتى تغيب
وكل نصب يُطرح جانبًا
وحينما تغيب في الغرب وحينما تشرق ثانية
فإنك تجعل كل كف يندى لأجل الملك
والخير في إثر كل قدم
منذ أن خلقت العالم
وأوجدتهم لابنك
الذي وُلد من لحمك
ملك الوجه القبلي والوجه البحري
العائش في الصدق رب الأرضين
«نفر» – «خبرو» – «رع» – «وع ن رع» (إخناتون)
ابن «رع» العائش في الصدق رب التيجان
«إخناتون» ذو الحياة الطويلة
«ولأجل» كبرى الزوجات الملكية محبوبته
سيدة الأرضين «نفر» – «نفرو» – «آتون» – «نفرتيتي»
عاشت وازدهرت أبد الآبدين.

ويحتمل ألا تمثل هذه الأنشودة الملكية إلا قطعة منتخبة أو سلسلة منتخبة من شعائر «آتون» كما كان يُحتفل بها من يوم لآخر في معبد «آتون» بتل العمارنة.

ومما يُؤسف له أن هذه الأنشودة لم تُدون إلا في مقبرة واحدة فقط من تلك الجبانة، وقد فُقد منها نحو ثلثها من جراء تعدي المخربين من الأهالي الحاليين؛ ولذلك لم يصلنا من الجزء المفقود إلا نسخة نُقلت بغير اعتناء وعلى عجل منذ خمسين سنة (أي سنة ١٨٨٣م).

وأما المقابر الأخرى فقد كُتبت نقوشها الدينية بالنقل عن الفقرات التي كانت شائعة الاستعمال وقتئذٍ وعن الجمل التي كان علمها مفروضًا، وهي التي عرفنا منها مذهب «آتون» كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر.

ويجب علينا ألا ننسى أن المنتخبات التي بقيت لنا في جبانة «تل العمارنة» من مذهب «آتون» وهي مصدرنا الرئيسي؛ قد وصلت بشكل آلي إلى فئة قليلة من الكَتَبَة المهملين غير المدققين ذوي العقول الخاوية الفاترة. وهؤلاء كانوا لا يُعدون إلا أذنابًا لحركة عقلية دينية عظيمة.

وغير هذه الأنشودة الملكية نجد أن أولئك الرسامين كانوا قانعين في كل مكان بالقطع والنتف التي نُقلت في بعض الأحوال من تلك الأنشودة الملكية نفسها أو بقطع أخرى مرقعة وُضعت بهيئة أنشودة قصيرة حيث ينقشونها كلها أو بعضًا منها على هذا القبر أو ذاك وهم في ذلك ليسوا إلا مسخَّرين فيما يعملون. ولما كانت المواد التي في متناولنا عن ذلك المذهب ضئيلة إلى هذا الحد مع أهمية الحركة التي أماطت لنا عنها اللثام، فإن تلك المعلومات الجديدة القليلة — التي تمدنا بها تلك الأنشودة القصيرة — صارت لها قيمة عظيمة.

وقد عُزيت تلك الأنشودة في أربع حالات إلى الملك نفسه — أي إن الملك يُشاهد وهو ينشدها أمام «آتون».

وهاك نصها كما جاءت:[٣٦]

أنت تشرق بجمالك يا «آتون» الحي يا رب الأبدية
إنك ساطع وقوي وجميل
وحبك عظيم وكبير
أشعتك تمد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك
ولونك الملتهب يجلب إلى قلوب البشر الحياة

---

[٣٦] راجع: Davies, “El Amarna”, Vol. IV, Pl. XLIII, Tomb of Apy;
Ibid, Vol. I, Pl. XXXVII, Tomb of Meryra,
Ibid, Vol. IV, Pls. XVI, XXIII, XXIX, XL,
Ibid, Vol. VI, Pl. XV, Tutw,
Ibid, Vol. IV, Pls. XXXII, XXXIII, Ani. And, Sandman. Hid, PP. 10ff.

عندما تملأ بحبك الأرضين
إيه أيها الإله الذي سوَّى نفسه بنفسه
وخالق كل أرض
وبارئ كل من عليها
والناس، وكل قطعان الماشية والغزلان
وكل الأشجار التي تنمو فوق التربة
فإنها تحيا عندما تشرق عليهم
وأنت الأب والأم لكل من خلقته
وعندما تشرق فإن عيونهم ترى
بوساطتك
وتضيء أشعتك كل العالم
وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب
عندما تشرق بصفتك سيدهم.

* * *

وعندما تغيب في أفق السماء الغربي
ينامون كأنهم أموات
وتدور رءوسهم
وتقف معاطسهم
حتى يعود شروقك في الصباح
في أفق السماء الشرقي
وعندئذٍ يرفعون أذرعتهم إليك تعبدًا
وتجعل قلوب البشر تحيا بجمالك
لأن الناس تحيا عندما ترسل أشعتك
ويكون جميع الكون في عيد
فالغناء والموسيقى وتهليل الفرح
تكون في قاعة بيت «بنبن»[٣٧]

[٣٧] كان الـ «بنبن» حجرًا هرمي الشكل مثل الهرم الصغير الذي يُتَوِّج المسلة. وقد كان هذا الحجر يُعتبر غاية في القداسة، وكان في الأصل يحتل مكانة ممتازة في المعبد أو في بيت معبد الشمس الذي في

وفي معبدك في «إختاتون» ومكان الصدق (ماعت)
حيث تكون فيه مسرورًا
ويُقدم لك فيه الطعام والمئونة
ويؤدي لك ابنك الطاهر احتفالاتك السارَّة
يا «آتون» الحي في مواكبه البهجة
كل ما خلقته يطرب أمامك
ويفرح ابنك الجليل وقلبه في حبور
آه يا «آتون» الحي المولود كل يوم في السماء
إنه يلد ابنه الجليل وع-ن-«رع إخناتون»
مثل نفسه دائمًا
ابن الشمس اللابس جماله «نفر خبرو-رع-وع-ن-رع (إخناتون)»
وحتى أنا ابنك الذي تسر به
والذي يحمل اسمك
قوَّتك وبطشك يسكنان في قلبي
وحتى أنت يا آتون العائش الأبدي
لقد خلقت السماء العليا لتشرق فيها
لأجل أن تشاهد كل ما صنعته
عندما كنت لا تزال وحيدًا (لا شيء غيرك)
وعشرات آلاف الأنفس موجودة فيك لتحفظها حية
لأن مشاهدة[٣٨] أشعتك هو نفس الحياة في المعاطس
وجميع الأزهار تحيا وكل ما تنبت الأرض يحيا
ويصيرناميًا لأنك تشرق
فهي نشوى أمامك
وجميع الماشية تطفر على أقدامها

«هليوبوليس»، وهذه الفقرة تدل على أن «إخناتون» قد أدخل في معبد «تل العمارنة» «بنبن» مماثلًا للذي كان في «هليوبوليس».

[٣٨] وفي رواية أخرى «أن النفس يدخل في المعاطس عندما تظهر نفسك لهم.»

والطيور تطير في المستنقع من الفرح
وأجنحتها التي كانت مطوية تنتشر
مرفوعة لآتون الحي تعبدًا
أنت يا خالق[٣٩] …

ففي هذه الأناشيد تُوجد قوة عالمية ملهمة لم توجد من قبل، لا في الفكر المصري القديم، ولا في فكر أية مملكة أخرى، فهي تشمل في مداها العالم كله، كما يدعي الملك أن الاعتراف بسيادة إله الشمس العالمية كان كذلك شاملًا، وأن جميع البشر يعترفون بسلطانه، وكذلك قال الملك عنهم في لوحة الحدود العظيمة:

إن آتون خلقهم (لنفسه هو)
فجميع الأراضي وأهل بحر إيجة يحملون
ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم إلى الذي
أوجد حياتهم والذي بأشعته يحيا البشر
وينشق الهواء.

ومن الواضح أن «إخناتون» كان يبرز بذلك دينًا عالميًّا يحاول أن يحل محل القومية المصرية التي سبقته وسارت عليها البلاد خلال عشرين قرنًا مضت. وبجانب تلك القوة العالمية نجد كذلك أن «إخناتون» كان يتأثر تأثر عميقًا بأزلية إلهه. وكان الملك نفسه يتقبل — بسكينة واطمئنان — فناء نفسه. فنراه في باكورة حكمه في «تل العمارنة» يعلن التعليمات الدقيقة الخاصة بدفنه فيما بعد الموت، ويسجلها باستمرار فوق اللوحات التي أقامها على الحدود المصرية، ولكنه مع ذلك كان يعتمد على علاقته الوثيقة «بآتون» حتى يضمن له شيئًا من خلود إله الشمس، ومن أجل ذلك كان يحتوي لقبه الرسمي دائمًا بعد ذكر اسمه على النعت الآتي: «الذي مدة حياته طويلة.»

[٣٩] بقية هذا السطر قد فُقدت. ولم يستمر من خمسة المتون لهذه الأنشودة إلا متن واحد، وتجده كذلك قد قُطع عند هذه النقطة (راجع Sandman Ibid. p. 15).

ولكن في بداية كل شيء برأ «آتون» نفسه من الوحدة الأزلية — أي إنه الخالق لكينونة نفسه — إذ نجد في إحدى لوحات «تل العمارنة» العظيمة أن الملك يسميه هكذا:

سوري المكون من «مليون» زراع
ومذكري بالأبدية
وحجتي لأشياء الأبدية
وهو الذي سوَّى نفسه بنفسه بيده هو
والذي لا يعرفه صانع.

ونجد أن الأناشيد تميل بانسجام مع هذه الفكرة إلى أن تردِّد تلك الحقيقة القائلة: «إن خلق العالم الذي يلي ذلك قد حدث حينما كان لا يزال وحيدًا.» (لا شيء غيره)، وتكاد الكلمات «حينما كنت لا تزال وحيدًا لا شيء غيرك» تكون نداءً يُردَّد في تلك الأناشيد. وهو الخالق العالمي الذي ذرأ كل أجناس البشر، وميَّز بعضهم عن بعض[٤٠] في اللغة واللون والجلد، ولا تزال قوته المنشئة مستمرَّة تأمر بالخروج من العدم إلى الحياة حتى البيضة الجامدة.

ولم يظهر عجب الملك بشكل بارز في أي مكان آخر أكثر مما نجده مذكورًا بسذاجة في تعبيره عن قوة إله الشمس المانحة الحياة في تلك المعجزة التي تتمثل في أنه داخل لحاء البيضة التي يسميها الملك «حجر البيضة»؛ أي في هذا الحجر الذي لا حياة فيه؛ تجيب أصوات الحياة نداء أمر «آتون»، فيخرج مخلوق حي بعد أن أنعشه النفس الذي يمنحه إياه (ذلك الإله). وتلك القوة المانحة الحياة هي مصدر الحياة الدائمة الزاد، والوساطة المباشرة لها هي أشعة الشمس التي تجلب النور والحرارة إلى الناس.

وذلك الاعتراف المدهش بنشاط الشمس بصفتها منبع الحياة فوق الأرض يُردَّد باستمرار دائم.

[٤٠] هذه العبارة قد وُجدت في الأناشيد الدينية منذ الأسرة السابعة عشرة (راجع Selim Hassan “Hymmes Religieux du Moyen Empire”, p. 192).

فالأناشيد تميل إلى الإمعان في ذكر أنها قوة عتيدة على الدوام، وهاك بعض الأمثلة:

أنت في السماء ولكن أشعتك فوق الأرض
أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم
أشعتك فوق ابنك المحبوب
ذلك الذي يجعل بأشعته الأعين سليمة
إن مشاهدة أشعتك هي نفس الحياة في المعاطر
والطفل (يعني الملك) الذي ولد من أشعتك
وقد سوَّيته (يعني الملك) من أشعة نفسك
أشعتك تحمل ألف الألف من الأفراح الملكية
وحينما ترسل أشعتك فإن الأرضين «تكونان في فرح»
«أشعتك تشمل الأرضين وحتى كل ما صنعته».

وسواء أكان في السماء أم في الأرض فإن كل الأعين تشاهده دائمًا وهو يملأ «كل الكون» بأشعته ويجعل كل البشر يعيشون.

واعتماد مصر في حياتها على «النيل» جعل من المستحيل تجاهل ذلك المنبع الحيوي في عقيدة الملك «إخناتون»؛ إذ الواقع أنه لا شيء يكشف لنا بوضوح عقيدة «إخناتون» وقوة عقله أكثر من أنه محا طائفة الأساطير التي كانت محترمة، والتقاليد التي جعلت «النيل» الإله «أوزير» عدة أزمان، ثم نسب الفيضان في الحال إلى قوى طبعية يسيطر عليها ذلك الإله. وهو الذي خلق — بمثل ذلك الاهتمام — للبلاد الأخرى نيلًا آخر في السماء.

وقد تُجوهل كليةً الإله «أوزير»؛ فلم يُذكر قط في كل الوثائق الإخناتونية، ولا في أي قبر آخر من قبور «تل العمارنة».

ثم ينتقل عند هذه النقطة تفكير «إخناتون» إلى ما وراء الاعتراف المادي المحض عن نشاط الشمس فوق الأرض؛ إذ يدرك اهتمام «آتون» الأبوي بجميع المخلوقات.

وذلك التفكير هو الذي رفع من شأن الحركة التي قام بها «إخناتون» إلى حدٍّ بعيد فوق ما كانت قد وصلت إليه ديانة قدماء المصريين أو ديانات الشرق بأجمعه قبل ذلك الوقت؛ حيث كان إله الشمس في نظر «إبور» «راعيًا شفيقًا» كما تقدَّم ذكره فيما سبق، كما كان الناس في نظر «مريكارع» كذلك كما سبق أيضًا «(قطعانه) التي من أجلها صنع الهواء والماء والطعام.»

ولكنا نجد أن «إخناتون» يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول لإله الشمس: «أنت أب وأم لكل ما صنعت.»

وذلك التعليم هو الذي ينبئ عن كثير من التطور المقبل في «دين القوم» حتى إلى عصرنا الحالي، فكان جميع العالم الحي في نظر تلك الروح الحساسة التي كانت تدب في نفس ذلك الخيالي المصري يملؤه شعور قوي بوجود «آتون» وبالاعتراف بشفقته الأبوية، فمستنقعات السوس تينع أزهارها بإشعاع «آتون» الأخاذ الذي تنشر الطيور أجنحتها فيه «تعبدًا لآتون الحي»، وفيه تطفر الماشية فرحة في ضوء الشمس، ويثب السمك في النهر مرحبًا بالنور العالمي الذي ينفذ أشعته حتى في وسط البحر الأخضر العظيم.

كل تلك الأشياء تكشف لنا عن مدى إدراك ذلك الوجود العالمي لإله الطبيعة، وعن اقتناع باطني معترف بذلك الوجود عند كل المخلوقات.

ويوجد هنا تقدير لوحي الإله في العالم الحي كما سنجده فيما بعد ذلك العهد بنحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة مذكورًا في المزامير العبرية، وكذلك فيما جاء على لسان شعراء الطبيعة بيننا منذ عصر «ورد زورت».[٤١]

وظاهر أن أعمق المصادر قوة في تلك الثورة العظيمة — على الرغم من أصلها السياسي — يوجد في ذلك الالتجاء إلى عالم الطبيعة:

«تأمل سوسن الحقول». «فإخناتون» كان رجلًا مأخوذًا بالإله قد انقاد عقله بحساسية وإدراك مدهشين إلى البراهين المحسة الدالة على الإله الذي حوله.

وقد كان مأخوذًا بجمال النور الأبدي العالمي؛ ولذلك ترى أشعته تغمره في كل أثر صُوِّر عليه من آثاره التي بقيت لنا.

وقد كانت تلك الحال قاصرة عليه وعلى الملكة وأولاده؛ لأنه كان يدعي لنفسه علاقة لا يشاركه فيها أحد مع إلهه فهو الذي يدعو بقوله:

ليت عيني تنشرحان بمشاهدته يوميًّا
حينما يشرق في بيت «آتون» هذا ويملؤه
نفسه بأشعته هذه — ذلك الجميل في حبه
ويرسلها عليَّ في حياة راضية أبد الآبدين.

[٤١] «ورد زورت» شاعر إنجليزي (١٧٧٠–١٨٥٠ ميلادية)، وهو مشهور بأشعاره في وصف الطبيعة.

ويمرح الملك وحتى يسكر في ذلك النور الذي وحده أكثر من مرة مع الحب كما ذكرناه هنا، أو كذلك يوحده مع الجمال بمثابة أنه البرهان الظاهر الدال على وجود الإله، وذلك بنشوة قل أن يكون لها نظير، وفرح يبلغ حد الوله مثل الفرح الذي تشعر به روح كروح «رسكن»[٤٢] عندما شاهد النور بتدبر، فقد وصفه «رسكن» كما رآه في إحدى حالاته:

النور المتنفس الحي المبتهج
الذي يشعر ويتسلم ويعمل
وينتخب شيئًا وينبذ آخر
ويبحث ويجد ويفقد ثانية
نافذًا من صخرة إلى صخرة
من ورقة إلى ورقة
ومن موجة إلى موجة
متوهجًا أو بارقًا أو متلألئًا
على حسب ما يصيب أو يكون ممتصًّا وغامرًا
لكل شيء وملتفًّا حوله في كمال سكونه العميق
وعندئذٍ نراه يُفقد ثانية في دهشة وشك وظلمة
أو يُمحى ويختفي وتراه واقعًا في حبائل الضباب الجارف
أو يذوب في الهواء مكتئبًا ولكنه مع ذلك لا يزال متأججًا
أو منحرفًا أو لامعًا أو ثابتًا
فهو النور الحي الذي يتنفس في أعمق سكونه
وأشده خلابة
وهو النور الذي ينام ولكنه لا يموت أبدًا.

فنجد في هذا الوصف الافتتان الحديث ببهجة النور وهو الإنجيل الحقيقي لجمال النور. وأقدم تلميذ له عبر عنه هو ذلك الخيالي الوحيد «إخناتون» الذي عاش خلال

[٤٢] هو «جون رسكن» الكاتب الإنجليزي الشهير (١٨١٩–١٩٠٠)، ويمتاز بنقده وطول باعه في الكتابة عن الفن.

القرن الرابع عشر ق.م، وقد كان من الجائز كذلك في نظر «إخناتون» أن النور ينام حينما كان.

«يذهب خالق الأرض ليستريح في أفقه»، غير أنه كان في نظره كما كان في نظر «راسكن» «أنه ينام ولكن لا يموت أبدًا.»

وقد نجح الأستاذ «زيته» في ترجمة فقرة مهمشة في الأنشودة الكبرى تدل على أنه على الرغم من أن الظلمة قد خيمت، والناس نامت؛ فإن «إخناتون» يمكنه أن يشعر به حيث يقول: ومع ذلك فإنك لا تزال في قلبي.

فتلك الناحية من حركة «إخناتون» تدل إذن على أنها إنجيل الجمال والرأفة للنظام الطبيعي، كما هو اعتراف برسالة وحي الطبيعة إلى روح الإنسان؛ مما جعلها تُعَدُّ من أقدم النهضات التي نسميها «الرجوع إلى الطبيعة التي ظهرت في أقوال أمثال الفنانين «ملت» و«بيرنز» الشاعر الإيقوسي ومدرسته، و«وردزورث» وأخلافه؛ فالرسامون في ذلك الوقت كانوا يصوِّرون حياة مستنقعات البرية بروح جديد يختلف عن روح السرور الهادئ الذي صوَّر به رسامو «مصاطب الأهرام» قصور هؤلاء الهادئة التي تتمثل فيها نزهات الأشراف في حقول البردي تحلي جدران مزارات قبورهم بالجبانة «المنفية» بسقارة.»

وأما الصور التي رُسمت فوق الجص وهي التي تزين رقعة قاعة قصر «إخناتون» ذات الأعمدة «بتل العمارنة» فمملوءة بمناظر سارة للحياة جديدة، تشعرنا عند رؤيتها بشيء من العاطفة القوية التي أثارت يد المفتن حينما رأى بعيني ذهنه الثور الوحشي يقفز في أدغال البردي ضاربًا برأسه نحو الطيور الهلوعة المشقشقة فوق يراع المستنقع كأنها تؤنب ذلك الطفيلي الفظ الذي ينزل الضرر بأوكارها.

ولكن مما يؤسفنا أن تلك النقوش الفاخرة التي رُسمت فيها الحياة والحركة يتألقان، والتي طالما تمتعت بهما أعين الناظرين في عصرنا الحالي «بتل العمارنة» قد خربت إلى الأبد بأيدي أولئك المخربين الأحداث من أهالي تلك القرى المجاورة لبلدة «تل العمارنة».

وهذا الروح الجديد في عصر «إخناتون» الذي استمدَّ إلهامه من جمال الطبيعة وفيضها كان كذلك ذا حساسية من جهة حياة الإنسانية والعلاقات البشرية، فلم يزعجه مزعج من التقاليد؛ إذ مُثل بدون تكلف، ولا تُعمل علاقات «إخناتون» بأسرته باللون الطبيعي البهيج، وقد ظهر ذلك حتى فوق الآثار العامة؛ فقد عُثر على تمثال صغير غير

تام الصنع في مصنع أحد المثالين الملكيين بتل العمارنة، لم يقتصر فيه صانعه على تمثيل الملك جالسًا فحسب مع ابنته الصغيرة فوق حجره، وهو يضمها[٤٣] كما يضم الأب الملكي أميرة صغيرة، بل مُثل الفرعون وهو يقبل ابنته الصغيرة كما يفعل ذلك أي والد عادي بابنته، وليس من الصعب على الإنسان أن يتصور الحنق والهلع اللذين تبعثهما مثل تلك الصورة الملكية في شعور طائفة المحافظين على التقاليد في عصر «إخناتون»، وهم أولئك الأشراف رجال التقاليد في البلاط الملكي الذين يرون وجوب تصوير الفرعون كما كان يصوَّر منذ ألفي سنة في هيئة حضرة سامية جالسة في جلال جامد؛ أي صورة جامدة كأنها مقدسة، لا تشوبها أية خصلة أو إشارة من المشاعر البشرية أو جهات الضعف الإنسانية، وقد بقي لنا للآن ذلك الكرسي الجميل الذي جيء به من قصر «تل العمارنة» في مقبرة «توت عنخ آمون»، وهو مزين بمنظر يظهر فيه الملك الشاب جالسًا بحالة تدل على البساطة وعدم التكلف؛ إذ نشاهد إحدى ذراعيه وهو يلقيها باستهتار فوق ظهر كرسيه، في حين أن الملكة الشابة الجميلة ممثلة واقفة أمامه وفي يدها إناء صغير من العطور تصب منه برشاقة أنيقة بضع نقط من الطيب فوق ملابس زوجها الملك. ونجد هنا لأول مرة في تاريخ الفن منظرًا موضوعه علاقة الإنسان بالإنسان.

علاقة الإنسان بالإنسان: نجد هنا أن الفن المترجم يتخذ الحياة الإنسانية موضعًا لبحثه، وهذان مثلان فقط من بين الأمثلة العدة التي يمكننا ذكرها للاستدلال بها على شخصية «إخناتون» القوية، واستعداده الذي لا يأبه لإطراح قيود التقاليد بجرأة وبغير أدنى تردد حينما حاول تأسيس عالم من الأشياء على حقيقته الفطرية السليمة. ولذلك نرى من المهم أن نلاحظ هنا أن «إخناتون» كان رسولًا لكل من عالمي الطبيعة والحياة الإنسانية، فكان مثله في ذلك كمثل «عيسى» حيث استقى دروسه من سوسن الحقل، وطيور الهواء، وسُحُب السماء من جهة، ومن المجتمع الإنساني الذي يحيط به من جهة أخرى، كما يُفهم ذلك من مثل قصة الابن المبذر[٤٤] والطبيب السامري[٤٥] أو المرأة[٤٦] التي

[٤٣] هذه الصورة قد تُرجمت بمعنى آخر؛ إذ يرى البعض أنها تمثل إخناتون يقبل أخاه «سمنخكارع». (راجع شكل رقم ٢ وما كُتب عنها، وهو رأي الأستاذ «نيوبري» عن سمنخكارع).

[٤٤] راجع إنجيل لوقة الإصحاح ١٥: ٣٢.

[٤٥] راجع إنجيل لوقة (إصحاح ١٠: ٣٠–٣٥).

[٤٦] راجع إنجيل لوقة (١٥: ٨-٩).

أضاعت قطعة نقودها، وعلى ذلك النمط قد استقى ذلك الرسول المصري المجدد القديم تعاليمه من التدبر في مشاهد عالَمي الطبيعة والحياة الإنسانية معًا.

ومع أن الفن المعبر عن تلك الحركة الثورية التي كان زمامها في يد «إخناتون» قد وجد رضًى جديدًا في الحياة الإنسانية، فإنه كان هناك شيء كثير لم يكن في مقدور «إخناتون» أن يتجاهله من التجاريب المصرية الشائعة بالوراثة في المجتمع البشري، فقد قبل تمامًا «إخناتون» بالوراثة المذهب الشمسي الذي ينطوي على نظام خُلقي عظيم، وإذا كنا قد خصصنا في كتابنا هذا للأخلاق عند قدماء المصريين جزءًا لا بأس به من عقيدة «التوحيد» الثورية التي قام بها «إخناتون»، فإن ذلك يرجع إلى أن تلك الحركة التوحيدية ليست إلا ذروة للاعتراف القديم بالنظام الخلقي الذي نُودي به على لسان المفكرين المصريين القدماء الذين عاشوا في عهد الأهرام، وهم الذين أسسوا مملكة عظيمة من القيم الخلقية العالمية التي كانت تمثلها تلك الكلمة الشاملة الجامعة «ماعت» (العدالة) التي أوجدها إذ ذاك إله الشمس في «هليوبوليس»، وقد انتشر ذلك التوحيد بوساطة أسس ثلاثة؛ أوَّلها وهو كما رأينا كان سياسيًّا، حتى إن اسم إله الشمس الجديد كان يوضع في طغراء باعتباره شعارًا ملكيًّا مزدوجًا. والثاني في ملاحظة أن سلطان إله الشمس وسيطرته العالمية بصفة قوة مجسمة حاضرة في كل مكان تظهر فيه حرارة الشمس ونورها فقط. والثالث كان في الانتشار المنطقي لمذهب «هليوبوليس» الخاص بالنظام الخُلقي الذي كان أقدم من عهد «إخناتون» بنحو ألفي سنة. وواجبنا الآن أن نفحص آخر هذه الأسس الأصلية التي قام بها التوحيد عند «إخناتون»، على أننا عند هذه النقطة نشعر بقلة المصادر المدوَّنة وضآلتها. على أن المصادر النادرة التي بقيت لنا عن ذلك العصر تكشف عن مدى التقدُّم في تفكير ذلك الملك الشاب خلال نصف الجيل الذي حكمه، ولا يمكن الباحث أن يفكر أن حركة نامية ذات تقدم مثل الحركة التي قام بها «إخناتون» لم تكن أنتجت أبحاثًا مدونة فيها تعاليمه.

وفضلًا عن ذلك فإنه لا يزال لدينا برهان محس للدلالة على وجود مثل تلك الأبحاث؛ ففي مقابر «تل العمارنة» التي كان يرغب أشراف رجال البلاط الإخناتوني في أن يرسموا فوق جدرانها ما كانت عليه علاقاتهم مع مليكهم؛ نجد أنهم كانوا يشيرون باستمرار دائم إلى ذلك المذهب الجديد، ولم يكن لديهم للتعبير عن ذلك إلا كلمة واحدة وهي كلمة «التعليم». وهذا التعليم لم يكن يُنسب إلا للملك فقط، وليس في مقدورنا أن نشك في أن ذلك التعليم لم يكن إلا الاسم العام للبيان الرسمي لمذهب «إخناتون» الذي كُتب طبعًا في مقالٍ من نوع ما على بردي.

على أنه بعد سقوط «إخناتون» لم يترك أعداؤه حجرًا واحدًا لم يقلبوه لإزالة كل أثر باقٍ يدل على مدة حكمه الممقوت عندهم. وقد أتلفوا بطبيعة الحال مخطوطات الملك هذه المدونة على البردي، وأما معلوماتنا عن تلك الحركة من ناحية العقائد الدينية فكانت مستقاة بأجمعها من نتف وقطع منتخبة وقعت لنا عرضًا، وبخاصة تلك الأناشيد التي زين بها أشراف رجاله جدران مقابرهم، وحينما نقرأ أنشودة «آتون» العظيمة لأول مرة يظهر لنا جليًّا أنها تعبر عن وحي ديني لا يشتمل إلا على إشارات قليلة عن الأخلاق والسلوك الإنساني، وهو الذي كان قد احتل مكانة بارزة — كما نعلم — في تفكير الديانة الشمسية الهليوبوليتية وهي التي تضرب إليها حركة «إخناتون» الدينية بوشائجها القوية.

ويرجع السبب في قلة ذكر شيء عن الأخلاق والسلوك إلى أن تلك القوة الرئيسية التي حركت روح «إخناتون» كانت العاطفة. والواقع أن ثورة «إخناتون» كانت في روحها أولًا عاطفية بدرجة قوية. وهذه الحقيقة ظاهرة تمامًا في الأناشيد كما نجدها كذلك بارزة في الفن، فعندما يرسم لنا أحد مفتني «تل العمارنة» صورة «إخناتون» وهو يتعبد، أو يصور لنا صورة أحد من رعاياه رافعًا الذراعين تضرعًا إلى إله الشمس، فإن الصفة العاطفية التي تمثل تينك الذراعين المرفوعتين تبلغ في شدة جاذبيتها ذراعي «الونرادوز»[٤٧] المستعطفين حينما تبسطهما لاستقبال محبوبها «أرمندو»، غير أن الذي كان يعبده «إخناتون» إذ ذاك جمال إله الشمس وفيضها، وتلك العاطفة التي نقلتها إلينا أناشيد «تل العمارنة» لا تحتوي على لاهوت أو خلقيات اجتماعية، وعلى الرغم من ذلك فإنه من الواضح تمامًا أن «إخناتون» قد قبل قبولًا شاملًا اعتناق الخلقيات الهليوبوليتية التي كانت إذ ذاك ذائعة ذيوعًا ساميًا. وقد نتج عن ذلك في الواقع أن صار النظام الخلقي للتعاليم الشمسية القديمة بارزًا أكثر مما كان عليه في أي وقت كان قبل حكم «إخناتون». على أن علاقة حركة «إخناتون» هذه الوثيقة باللاهوت الهليوبوليتي ظاهرة في كل نواحيها، فقد كان توحيد السلالة الملكية بسلالة إله الشمس على يد كهنة «هليوبوليس» في «متون الأهرام»، فجعل لذلك كل فرعون ابنًا لإله الشمس كما ذكرنا من

[٤٧] «الونرادوز» ممثلة ذائعة الصيت في الروايات المحزنة، وهي فرنسية الأصل عاشت في أواخر القرن التاسع عشر. وقد كانت مشهورة بعمق عاطفتها، والإبداع الذي كانت تمثل به أدوارها العاطفية، أما «أرمندو» فهو بطل في إحدى الروايات التي جعلت «الونرادوز» ذات شهرة عالمية.

قبل، فنقل إلى الإله «رع» الصفات البشرية لملك كريم تشبع بروحه فراعنة ذلك العهد الإقطاعي. وفي ذلك الحين كان قد صار الفرعون «الراعي الطيب» أو «راعي الماشية الطيب».

فهذه الصورة التي تعبر عن عطف ملكي أبوي حامٍ لرعاياه قد نُقلت إلى «رع»؛ وبذلك اكتسب «رع» لنفسه بشكل مدهش صفات إنسانية، وعطفًا أبويًّا، وما كان ذلك إلا نتيجة لذلك التطور الذي حدث في تصور الملكية في العهد الإقطاعي، وبذلك كانت تلك القوى الاجتماعية التي أوجدت هذا المثل الأعلى للملكية هي المؤثرات النهائية التي زادت بمعونة الملكية، وهذبت التصور السياسي لسلطان «رع»، وهو ذلك التصور الذي كان قبل ذلك لا يخرج عن كونه فكرة آلية مهملة، فالمعونة الإنسانية التي كان يتطلبها وقتئذٍ الملك «إخناتون» كانت على ذلك قريبة من التي كان ينشدها «أوزير» نفسه، وكانت التعاليم الإخناتونية منجذبة بكليتها نحو ذلك الميل الذي ينعطف إليه المذهب الشمسي؛ إذ في عهد والد «إخناتون» عثرنا على أنشودة للشمس سُمي فيها إله الشمس: «الراعي الشجاع الذي يرعى قطعانه»، وهذه إشارة تربط بوضوح مذهب آتون بالحركة الاجتماعية الخلقية التي ظهرت في العهد الإقطاعي.

وحينما نعيد إلى ذاكرتنا الآن كما سبق بيانه الأصل «الهليوبوليتي» «لماعت» (الحق، الصدق، العدالة) التي صارت تمثل إلهة وهي بنت إله الشمس، نلاحظ أنه جاء في «كتاب الموتى»[٤٨] أن جماعة الآلهة يجلسون في قاعة «ماعت»، حيث لا يوجد بأجسامهم إثم ولا بهتان، وهم يعيشون على الصدق («ماعت») حيث يؤكد الميت لأولئك الآلهة نقاءه بقوله:

> إني أعيش على الصدق وأتزود من صدق (أو عدالة) قلبي.

ونجد وقتئذٍ أن هذا المذهب الشمسي الذي يشد أزره أولئك الآلهة في «هليوبوليس» قد اعتنقه «إخناتون» تمامًا، حتى كان على الدوام يذيل اسمه الملكي في كل آثار الدولة العظيمة بهذه الكلمات: «العائش على الصدق «ماعت».» وهذا النعت الهام الذي أُلحق باسم «إخناتون» قد صيَّره الممثل الرسمي والمعاضد للنظام الخلقي القومي العظيم، وهو نفس ذلك النظام الذي تصوَّره كهنة المذهب الشمسي قديمًا في «هليوبوليس» في

[٤٨] فصل ١٢٥ من كتاب الموتى.

عهد يرجع تاريخه إلى عصر الأهرام. وقد ألبسه المفكرون الاجتماعيون ورسل العهد الإقطاعي المصري أهمية خلقية أكثر مما كانت له في أي زمن من قبل، ولكن حينما نعيد إلى ذاكرتنا عدم كفاية «إخناتون» للتسلط على سائر العالم، فإنه يظهر لنا أنه ما كان يرمي من وراء إضافته تلك الكلمات إلى اسمه الملكي إلا إظهار رغبته في امتداد سلطان النظام القومي الخلقي القديم حتى يصير مسيطرًا على سائر العالم الدولي العظيم، الذي كان هو سيده إذ ذاك. وبذلك امتدت سيطرت مملكة إله الشمس للقيم الخلقية قديمًا إلى حدودها العالمية المنطقية، وقد فُسر بذلك «التوحيد» الذي كان منطويًا في أسرار تعاليم كهنة «هليوبوليس» تفسيرًا لا إبهام ولا خفاء فيه، على يد «إخناتون».

وقد سمى «إخناتون» عاصمة ملكه الجديدة في «تل العمارنة» مقر الصدق (ماعت) في الأنشودة القصيرة متمشيًا مع تلك الحقيقة. وقد كان أتباعه على علم تام بالاعتقاد الشديد في «ماعت»؛ ولذلك كان رجال البلاط الملكي يعظمون «الصدق» كثيرًا؛ إذ يقول أحد أعلام معاضدي الملك وهو «آي» الذي تولى الملك بعد «توت عنخ آمون»:

إنه (يعني الملك) أحل الصدق في جسمه
والذي يمقته هو الكذب.

وإني أعلم أن «وع-ن-رع» (يعني إخناتون) يمرح فيه «الصدق»، ثم يؤكد نفس هذا الرجل أن إله الشمس:

واحد قلبه مستريح للصدق، والذي يلعنه هو الكذب.

كما يذكر لنا موظف آخر فوق جدران قبره في «تل العمارنة»:

سأتكلم لجلالته «لأني» أعلم أنه يسكن فيه …
وإني لا أفعل ما يكرهه جلالته؛ لأن الذي يمقته
هو حلول الكذب في جسمي …
لقد قرَّرت لجلالته الصدق؛ لأني أعرف أنه يسكن فيه
إنك «رع» والد الصدق …
وإني لم آخذ رشوة الكذب
كما أني لم أُقص الصدق لأجل الرجل العسيف.

ويجب أن نذكر هنا مرة ثانية — بمثابة دليل هام على إخلاص «إخناتون» للصدق — أنه لم يقصر فضيلة الصدق على السلوك الشخصي فحسب، بل أدخله كذلك في ميدان الفن حيث صارت له فيه نتائج ذات آثار باقية في التاريخ.

وعلى ذلك كان لا يزال «رع» المنشئ المعضد للصدق أو الحق «ماعت» في ذلك الانقلاب الذي قام به «إخناتون»، يعني النظام الخلقي والإداري، كما كان ذلك النظام قائمًا منذ أكثر من ألفي سنة مضت. وإذا لم نسمع عن حساب الآخرة في مقابر «تل العمارنة» فمن الواضح أن ذلك يرجع سببه إلى نبذ الآلهة، وأنصاف الآلهة وعلى رأسهم «أوزير»، وهم الذين كانت تشملهم المحاكمة في حساب الآخرة، كما نجد ذلك مذكورًا في «كتاب الموتى» حيث سبق بيانه فيما تقدم. فأولئك الآلهة قد نُفُوا وقتئذٍ، والظاهر أن منظر المحاكمة التمثيلي قد اختفى باختفائهم. ومع ذلك فإنه كان من الواضح أن المستلزمات الخلقية في المذهب الشمسي — وهو المذهب الذي نشأت منه فكرة المحاكمة في الآخرة، وانتشرت — لم تَنْتَهِ المطالبة بها في التعاليم الإخناتونية ولم تفتر. وكذلك فإن الحملة التي قام بها الكهنة على عالم الأخلاق بالعوامل السحرية الآلية لضمان براءة الميت فيما بعد الموت قد أقصاها «إخناتون» بداهة عن تعاليمه التوحيدية فصارت «الجعل» القلبية (الجعارين) التي كانت مألوفة من قبل لا يُنقش فوقها التعاويذ السحرية لإخماد وحي الضمير عند المتهم، بل صارت وقتها يُنقش فوقها صلاة بسيطة موجهة إلى «آتون» طلبًا لحياة طويلة سعيدة وعطف وطعام.

وما ذكرناه عن «الجعل» (الجعارين) ينطبق تمامًا على تماثيل المجاوبين التي هي تماثيل صغيرة كانت تقوم بالأعمال بدلًا من الميت إذا طُلب منه ذلك فيما بعد الموت في الحياة الأخروية.

وإذا فكرنا مليًّا فيما ذُكر نجد أن أمثال تلك التغييرات الأساسية تبسط أمامنا عظم المد الجارف من الفكر الموروث عن الأقدمين مع العادات والتقاليد، ذلك المد الذي تحوَّل عن مجراه على يد ذلك الملك الشاب الذي كان يقود ذلك الانقلاب.

على أننا نبدأ في تقدير قوة شخصية «إخناتون» العظيمة فحسب، عندما ندرك هذه الناحية من حركته التوحيدية إدراكًا واضحًا، فقد كانت الوثائق الدينية قبل عهده تُنسب عادة إلى الملوك القدامى والحكماء الأوَّلين. وكانت قوة العقيدة لا ترتكز بوجه خاص إلا على ادعاء أقدميتها الساحقة، على قدسية العادة العريقة في القدم. وقد كان تاريخ العالم حتى عهد «إخناتون» لا يرتكز إلا على مجرد سطوة التقليد الذي كان سلطانه

لا يعارض. وليس لدينا استثناء بارز في هذا المضمار إلا ذلك الطبيب النطاسي، والمهندس العظيم «أمحوتب» الذي أدخل على فن العمارة البناء بالأحجار جملة، وأقام أوَّل مبنًى من الحجر، وهو ذلك القبر الهرمي الشكل الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد.

وغير هذه الشخصية من المصريين الأقدمين لم يكن الناس يعدون بعدها إلا نقطًا من الماء بجانب ذلك التيار الجارف العظيم.

فإذا استثنينا «أمحوتب» هذا، كان «إخناتون» أوَّل شخصية بارزة ظهرت في التاريخ المصري القديم. فإنه قد أحرز مكانة سامية بنفاذ بصيرته، وحسن تدبيره وتفكيره العقلي، ثم نهض بنفسه علانية، وقام في وجه كل التقاليد ونبذها ظهريًّا، ولم يلجأ في توطيد مذهبه الجديد إلى أية وسيلة من وسائل الأساطير أو الروايات العتيقة مما كان معترفًا به لسلطان أولئك الآلهة اعترافًا واسعًا، بل لجأ استعمال البراهين العتيدة الظاهرة الدالة بنفسها على سلطان إلهه، وهي أدلة بُسطت أمام الجميع.

وأما من جهة التقليد فإنه اجتهد في القضاء عليه أينما وُجد في أي مظهر مادي للآلهة الأخرى في السجلات التي يمكن الوصول إليها، على أن سياسته التي قوامها التخريب إلى هذا الحد كان لا بد لها من أن تصادف معارضة قوية فتاكة. وسنتكلم عنها في حينها.

(٤-٤) الفن في عهد إخناتون والعهد السابق له

لم يكن الانقلاب الذي أحدثه «إخناتون» قاصرًا على إحياء عقيدة التوحيد باسم «آتون»، بل قد تخطت حركته إلى انقلاب عظيم في الفن المصري — لأنه كان جزءًا من منهاجه — وخروج المفتنين على تقاليد القوم الموروثة منذ أزمان سحيقة في القدم، غير أننا نكون مغالين بعض الشيء إذا قلنا إن مذهب «آتون» هو العامل الوحيد الذي أوجد هذا الانقلاب في الفن المصري وطرائقه؛ لأننا إذا رجعنا البصر كرة إلى عهد الملكة العظيمة «حتشبسوت» وخلفها «تحتمس الثالث» وجدنا هناك روحًا جديدًا قد أخذ يتغلغل في نفس المفتن المصري، فالقوة الهائلة والوقار، والخشونة، وقوة التأثير التي كانت تمتاز بها أحسن القطع الفنية في عهد الدولة الوسطى بما تنطوي عليه من قوة غاشمة؛ قد أخذت تتسم بسمة النعومة، وتتحوَّل تدريجًا روحًا جديدًا ينم عن رشاقة وجاذبية، ويظهر هذا الروح حتى في نحت التماثيل؛ ففي الآثار الضخمة العظيمة كالتماثيل الهائلة

التي كانت في الواقع تُصنع لا لتمثل صورة حقيقية بل لتمثل عناصر فنية عظيمة، نجد فيها على الرغم من ذلك قوة تعبير، كما يُلمس ذلك في تمثال «تحتمس الثالث» الموجود الآن في المتحف المصري؛ إذ تنم تقاطيعه عن القوة الغاشمة، ولا شك في أن مثل هذه القطعة الفنية يسيطر على كل شيء حوله كما كان «تحتمس الثالث» نفسه يسيطر على العالم الذي كان يعيش فيه.

ومع ذلك نجد في نقش الأسرة التي عاش فيها «تحتمس» أن التغيير قد أخذ يدب دبيبه؛ فنرى بجانب تمثال «تحتمس» في نفس القاعة المعروض فيها بالمتحف البريطاني رأسًا «لأمنحتب الثالث» متقن الصنع، يشف عن عظمة وجلال، ومع ذلك أخذ عامل النعومة والليونة يدب في تقاسيمه، هذا إلى أن المفتن قد حاول أن ينفث فيه روح شخصية مميزة، ولكنا نلاحظ التغيير الذي يرمي إلى محاكاة الطبيعة في قطع الحفر الصغيرة من التماثيل، فما أعظم الفرق بين التمثال الفاخر «لسنوسرت الثالث» المصنوع من الجرانيت الأزرق الذي عُثر عليه في الدير البحري والموجود الآن بالمتحف البريطاني، وبين تمثال «تحتمس الثالث» المصنوع من الشيست الدقيق المحفوظ «بالمتحف المصري»؛ فكلا التمثالين ينم في ملامحه عن شخصية وثابة، ولكن مفتن الدولة الوسطى كان خشنًا إلى درجة ما في تمثيل ملامح «سنوسرت الأول» التي تدل على خلق مهيمن. فكل نقطة يمكن أن تظهر عبوسه وتقطيب شخصيته الصعبة المراس المرة قد مُثلت في تقاطيع وجهه تمثيلًا بارزًا، والواقع أننا نقرأ في تقاطيع وجه «سنوسرت» الجامدة الشعور بالقوة، بل نلمس كذلك متاعبها الأليمة المرة، على أن «تحتمس الثالث» لا يقل قوة عنه بما أوتي من أنف محدب، ولكن هذا الجندي العظيم يُرى مبتسمًا طلقًا مما خفف من احديداب أنفه، وأسبغ على ملامح وجهه جاذبية ناطقة، ولا يفوت القارئ أن المادة التي صُنع منها التمثال الأول، وهو الأقدم هي مادة الجرانيت، أما الثاني فقد نُحت من الشيست، وهما ينمان بوضوح عن التغير في الطراز الذي انتهجه كل من المفتنين، كما يدلان على عصريهما، ومن ذلك يتضح أن فن التصوير قد بدأ منذ باكورة الأسرة الثامنة عشرة يفقد شيئًا من خشونته، وفي آن واحد أخذ يكتسب مرونة ورقة كانتا بعيدتين عنه من قبل، ومع ذلك فإنه لم يفقد بصورة ظاهرة شيئًا من الصدق في التعبير أو القوة في التأثير، فالفن المصري لا يحتوي إلا على قطع قليلة أكثر صدقًا في التعبير عن الحقيقة، أو أعظم تأثيرًا في النفس كتمثال الجرانيت «لأمنحتب بن حابو»، ذلك الرجل الحكيم الذي عاش في عهد «أمنحتب الثالث»، وهذا التمثال موجود الآن في «متحف القاهرة»، فلم

يكن «أمنحتب» هذا جميل المحيا، ولم يحاول مصوِّره أن يحسن شيئًا من تقاسيم هذا الرجل العظيم التي ظهر فيها القبح والكفاية معًا، ولكنك لن تجد بسهولة صورة تمثل الحياة بعينها لرجل ذكي الفؤاد أريب عركته الدنيا مثل «أمنحتب»، هذا على الرغم مما هو عليه من قبح بيِّن.

فالمثَّال المصري إذا كان قبل حلول عهد «إخناتون» ينحت تماثيله جاعلًا نصب عينه الرقة والليونة في إخراج قطعه الفنية، وهو في الوقت نفسه لم يجعلها تكاد تفقد شيئًا في قوة تأثيرها أو ترجمتها للطبيعة، ويرجع هذا التغير في تقاسيم محيا التماثيل في هذا العهد إلى أن شكل الوجه قد بدأ يتغير وبخاصة في عِلية القوم؛ وذلك بإدخال عنصر دم جديد غريب عن البلاد، ويرجع السبب في ذلك إلى التزوج بأجنبيات في عصر الفتوحات العظيم.

وهذا الاتجاه في التصوير يُلاحظ في الرسوم البارزة على الجدران، وأحسن مثال لدينا من أعمال الإمبراطورية من الطراز القديم هي الرسوم التي على معبد «حتشبسوت» بالدير البحري، ومع ذلك فإنا نجد فيها ما يشعر بسيطرة الروح الجديد، ولكن عندما نصل إلى عهد «أمنحتب الثالث» نجد في الرسوم البارزة في أمثال مقبرة «خع إمحات» و«وسرحات» في طيبة وحتى في بعض الرسوم البارزة في معبد الأقصر؛ ظرفًا ونفاسة ورقة يعجز عن إظهارها مثَّالو العهد القديم، غير أن الإنسان في ذلك لا يمكنه أن يفضل مثَّال العصر الحديث عن مثَّال العصر الذى سبقه؛ لأننا نجد في القديم قطعًا تمتاز عن مثيلاتها في الحديث، ولكنا نجد أن المثَّال الحديث قد أخذ يتعرَّف أكثر على مادته الجديدة؛ وبذلك أصبح في مقدرته أن يتصرف فيها كيف شاء، وبخاصة عندما تخلص من القيود القديمة وشعر بحرية في إبراز عمله، وقد كان من نتائج تلك الحرية في العمل أن أصبح المثال على استعداد أن يأخذ على عاتقه تنظيم صور أكثر تعقيدًا عند وضع تصميم منظر صور بارزة.

على أن الاتجاه نحو الزيادة في الحرية، والحصول على جرأة واندفاع في تمثيل المناظر مضافًا إلى ذلك ميل أكثر إلى محاكاة الطبيعة يُلاحظ بصراحة في الصور الملونة في عهد الأسرة الثامنة عشرة، ولذلك يُعد من الخطل في الرأي أن يقول الإنسان عن مناظر رقعة قصر «إخناتون» الملون وهو الذي عُثر عليه في مدينة «إختاتون» إنها كانت أوَّل محاولات من جانب المصوِّر المصري لمحاكاة الطبيعة في حياة الهواء الطلق وما فيه من حركة، ولا أدل على ذلك مما نشاهده مصوَّرًا في سقف قصر «أمنحتب الثالث»؛ من

طيور تحلق، وفراش يرفرف، وبط يسبح في رقعتها؛ مما يدل على أن المثَّال في عهد والد «إخناتون» كان في مقدوره أن يحاكي الطبيعة، ولكنه لم يكن عنده المران في تأليف الصور المركبة وتنسيقها مثل خلفه، على أن هذا الميل إلى محاكاة الطبيعة يمكن أن يرجع إلى زمن أقدم من ذلك، فالطيور التي تطير من المستنقعات في مقبرة «أمنمحات» الكاتب في عهد «تحتمس الثالث» ليست إلا خلفًا للتي وُجدت في قصر «أمنحتب الثالث»، وفي قصر «إخناتون» هذا إلى المناظر التي نشاهدها في قبري «نخت»[٤٩] و«منا»،[٥٠] والمناظر الموجودة الآن بالمتحف البريطاني المأخوذة من قبر «سبك حتب»،[٥١] كل هذه تبرهن على النمو السريع لروح الحرية في تمثيل الصور الطبعية. فمن بين المناظر الموجودة في المتحف البريطاني صورة نجد فيها امرأتين تلتفتان بوجهيهما[٥٢] تمامًا إلى الناظر إليهما، وهذه الحركة التي لا نراها إلا نادرًا في التصوير المصري. هذا إلى أنه يصعب أن توجد صورة تفوق في براعتها صورة القطه التخطيطية الفائقة الحد في التعبير التي نشاهدها في إحدى مناظر قبر «نخن» بطيبة، فإنها تكاد لفرط هزالها وجوعها تلتهم سمكة.

وهذه الصورة التي يُحتمل أن يرجع عهدها إلى عصر «تحتمس الرابع» تبين لنا أن المفتن المصري كان سريع الخطا في سيره للوصول إلى تصوير طبعي أعظم شانًا وأكثر دقة قبل أربعين سنة من عهد «إخناتون».

ومن ذلك نرى أنه لا يوجد ما يبرر الاعتقاد بأنه لا علاقة بين فن عهد العمارنة، والفن القديم التقليدي؛ إذ الواقع أن عملية التغير لم تأتِ فجأة، بل سارت تدريجًا، وكانت قد أخذت في سيرها بوضوح منذ قرن قبل اعتلاء «إخناتون» العرش على أقل تقدير كما أوضحنا، كما أن مذهب «آتون» لم يكن وليد ليلة، بل كان يضرب بأعراقه إلى أقدم عهود العقائد المصرية، كذلك كان الفن الذي سار مع «آتون» جنبًا لجنب يضرب بأعراقه في الماضي، ولم تكن ظاهرة طبعية، بل شجرة نمت وترعرعت، وعلى أية حال فإن النمو يمكن إدخاله في تدرُّج العقل الإنساني كما يمكن إدخاله في الطبيعة، فالعقيدة

[٤٩] راجع: Davies, “The Tomb of Nakht at Thebes”.

[٥٠] راجع: Colin Campbell, “Two Theban Princes”.

[٥١] راجع: Budge, “Wall Decorations of Egyptian Tombs, Illustrated from Examples in the British Museum”, p. 15. Fig. 9, p. 14, fig. 7.

[٥٢] راجع: Budge, Ibid, Pl. IV.

الآتونية، وبخاصة رجال الفن فيها كانوا يعبرون باستمرار عن وجهة نظر الفرعون، وهي التي دفعت العنصر العامل في فن العصر إلى الأمام، فنجد أن من بين الألقاب التي كان يتمسك بها «إخناتون» نفسه لقب «عنخ إن ماعت» (يعني العائش في الصدق)، وقد أخذ المعنى الصريح لهذه العبارة وجعلها مبدأه في الحياة. فقد كان المقصود منها لديه أن يتقبل حقائق الحياة اليومية ببساطة، ومن غير كلفة، فكان يعتقد أن ما مضى كان حقًّا، وأن صلاحه كان ظاهرًا من نفس وجوده، ولا شك في أن تأثير مثل هذا القانون على الفن كان عظيمًا، ولذلك فإن التقدم الذي كان سائرًا بالفعل في الفن المصري قد شجعه هذا المبدأ، وأسرع في خطاه إلى حد بعيد، فيصف لنا «بك» نفسه وهو كبير رجال الهندسة الملكَ ومثَّاله الأول على لوحة في «أسوان» بأنه هو المساعد الذي علمه جلالته ليكون رئيس المثَّالين لآثار الملك الضخمة العظيمة، على أنه لا يتحتم أن يُفهم من هذه العبارة أن «إخناتون» كان متطفلًا على الفن وأنه كان يسلي نفسه، أو أنه كان يضايق رجال الفن برسم أشياء يفرض عليهم تنفيذها كما كان يفعل «تحتمس الثالث»، ولكن الواقع أنه كان يبين لمثَّاليه أن «الحياة في الصدق» كانت جزءًا من تعاليمه الدينية، وأن من واجبهم أن يأخذوها مرشدًا لهم، ثم يتركهم يعملون بمقتضاها.

وقد كانت نتائج هذا التوجيه إخراج قطع فنية من الطراز الفائق الحد في طبيعته، فقد وجد كل من المثال «بك»[٥٣] وصاحبه «أوتو»[٥٤] وهما مثَّالا الملكة «تي»، وكذلك غيرهما من مثَّالي عصر «العمارنة»؛ أنهم أصبحوا لأول مرة في تاريخ الفن المصري طليقي الأيدي تمامًا، يرسمون الشيء كما يرونه، فلم يتقيدوا بالتقاليد القديمة التي كانت حجر عثرة أمام تقدم الفن المصري في الماضي؛ ولذلك اختفى الوضع الكهنوتي المرسوم للمثَّالين إلى حد بعيد، ومن ثم مُثل الملك والملكة والأميرات ورجال البلاط لا كما يجب أن يكونوا في الاحتفالات العظيمة مزملين في ملابس العظمة التقليدية، بل مُثلوا كما يعيشون بطبيعتهم؛ مما جعلنا نراهم في مواقف ليس فيها من جلال الملك شيء؛ فيُشاهد ذلك مثلًا في منظر «إخناتون» وهو يلتهم[٥٥] الأكل على مائدة الطعام، أو وهو يطوِّق بساعده أخاه «سمنخكارع» ويداعبه — وإن كان في هذه الصورة شك — أو ظهور الأسرة الملكية في

[٥٣] راجع: De Morgan, “Cat. Mon.”, I, p. 40, No. 174.

[٥٤] راجع: Davies, “El Amarna”, Vol. III, Pl. XVIII.

[٥٥] راجع: Davies, Ibid. Vol. III, Pl. IV.

الشرفة وهم عرايا الأجسام، على أن أكبر مظهر للتحويل في التصوير هو ما نشاهده في تمثيل الأجسام البشرية، فيرى الإنسان في تصويرها على حسب ما يتراءى له تقدمًا أو انحطاطًا.[٥٦]

أما في المجالات الأخرى غير الصور الإنسانية فإن التحول أو التغير على الرغم من أنه معلم ظاهر تمامًا فإنه لم يبلغ أقصى مداه كما يظن البعض أحيانًا، فالحياة في الحقل مثلًا لم تكن في حياة الفن المصري خاضعة يومًا لقيود التقاليد التي غلت يده في تصوير الجسم الإنساني؛ إذ الواقع أن الرسَّامين والمثَّالين المصريين كانوا منذ أقدم العهود ينقلون ما في الطبيعة عندما يصورون المستنقعات والنهر والصحراء بما فيها من حياة وحشية، ونباتات. ولقد خطا فنانو عصر «إخناتون» بهذه الرسوم خطوة أخرى إلى الأمام يمكن أن يُقال عنها إنها ناتجة عن تعاليم «إخناتون»، وقد وصف الأستاذ «برستد» هذا الفن بأنه فن بسيط جميل ينم عن الحقيقة، ويرى ببصيرة ثاقبة ما لم يَرَه أي فن آخر من قبل، غير أن في هذا بعض المبالغة؛ لأن المفتنين القدامى في مصر لم يكونوا محجوبي النظر عن حقائق الطبيعة وأسرارها، أكثر من المفتنين «بك» و«أوتو»، ولو لم يخلف عهد «إخناتون» لنا من نماذج أعماله الفنية إلا صور الحياة البرية بما فيها من نبات وحيوان، فإنه يصبح من الصعب علينا جدًّا أن ندرك منها حدوث أي فاصل أو تحول في تقاليد القوم الفنية، بل على النقيض كنا نرى في هذا الازدهار الفني الجديد تقدمًا مشروعًا لخطط مألوفة ليس فيها تحول عن الطرق القديمة التي انتهجها المفتنون القدامى.

وعلى أية حال فإن الأمر يختلف اختلافًا تامًّا في تصوير الجسم الإنساني في عصر العمارنة، وهذا في الحقيقة أهم الأشياء التي خلفها لنا عصر «إخناتون» من الوجهة الفنية. وفي هذه الحالة يمكن الإنسان أن يتحدث عن فن عصر «تل العمارنة» وهو يشعر أنه يناقش وحدة مميزة لها حياتها وشخصيتها الخاصة بها، فالرجل والمرأة يصورهما المفتن على طبيعتهما أي كما يراهما أمامه بالعين المجردة، وهو يخرج صورته بمعناها الحقيقي حرة من كل قيد، متوخيًا في ذلك إبراز التفاصيل بصدق مما كان غريبًا عن الفن القديم الذي كان معتادًا في البلاد. فمنذ عهد «إخناتون» لا يرى الإنسان الصور الآدمية مرسومة في وضع خاص في مجموعة قليلة في تنوعها وتتناول موضوعًا واحدًا وهو ما سمحت به العادة؛ إذ كان يصور الإنسان بساقه اليسرى إلى الأمام وذراعه مدلاة

[٥٦] راجع: Davies, Ibid. Vol. VI, p. 22, Pl. XXIX.

بجانبه وراحتاه مقبوضتان ... إلخ. أما في صور «تل العمارنة» فنرى أناسًا جالسين وواقفين ومتحركين ومضطجعين بكل وضع طبعي يمكن للإنسان تصوُّره، وأحيانًا يُصور في أوضاع لا يمكن قبولها أو تصورها، كما أنها غير طبعية في الوقت نفسه.

وأجمل نموذج كُشف حتى الآن لهذه الحرية الجديدة في الرسوم البارزة الصورة الملونة الصغيرة الرائعة الموجودة الآن بمتحف «برلين»[٥٧] وهي التي رُسم فيها «إخناتون» و«نفرتيتي» معًا كما هي العادة، فنشاهد فيها الملك واقفًا أو بعبارة أدق متراخيًا في وقفته في وضع رشيق لا تكلف فيه، ومتكئًا على عصًا تحت إبطه الأيمن، ويُرى طرفا حزامه الطويلان وأهداب شعره المستعار يداعبها الهواء، وتقف أمامه الملكة «نفرتيتي» في هيئة لا تُوصف إلا بالقحة وفي يدها اليسرى طاقة من أزهار البشنين المفتحة الأكمام، وفي يدها اليمنى طاقة أخرى من أزرار الأزهار مقدمة إياها لزوجها ليشم رائحتها، وترتدي ثوبًا من الكتان شفيفًا يداعبه النسيم، ولولا أن «إخناتون» كان يحلي جبينه بالصل الملكي، والملكة ترتدي الصل المزدوج الذي كان يميز الملكة في هذا العصر، ما كان أحد يظن قط أنه في حضرة فرعون مصر أعظم ملوك العالم وقتئذٍ، والذي يتقمصه الإله العالمي، فالصورة في مجموعها تُعَدُّ من حيث بساطتها وسحرها من أندر ما أخرجه الفن القديم عامة، ولكنها في الوقت نفسه تناقض الصور العادية للفرعون؛ إذ إنها قد فقدت كل مهابة الملك وجلاله.

وأعجب الثمرات التي أنتجها لنا فن «إخناتون» الرءوس التي تمثل الصور الآدمية، والتماثيل الصغيرة لهذا العصر، وقد كشفت البعثة الألمانية عددًا عظيمًا منها، والواقع أن المثَّال المصري كان قد أخذ في اعتلاء مكانته الحقيقية شيئًا فشيئًا حتى أصبح يحتل مكانة وضعته بين قادة الفن في العالم، وهي مكانة كان ينكرها عليه منذ سنوات قليلة مفتنو عصرنا بنوع من السخرية. ولقد جاء الكشف الألماني لهذه الرءوس المنحوتة نحتًا دقيقًا مكذبًا لتلك الادعاءات. وهذه الرءوس معظمها للأسرة المالكة، منها عدد عظيم «لإخناتون» نفسه، ومعظمها مصنوع من الحجر الجيري الأبيض، ثم تماثيل صغيرة للملكة «نفرتيتي» تصور الحقيقة بدرجة فائقة الحد، وكذلك رءوس صغيرة للأميرات لها سحر عجيب، وصور لبعض رجال البلاط، من بينها رأسان ربما كانا للكاهن «آي»

[٥٧] راجع: Schafer, "Von Aegyptischer Kunst besonders der Zeichenkunst. Ein Einfuhrung in die Betrachtung Agyptischer Kunstwerke", p. 23.

الذي ولي الحكم فيما بعد ولزوجه «تي». على أن أعجب درتين في كل هذه المجموعة هما الرأسان اللذان يمثلان الملكة «نفرتيتي»، إحداهما من الحجر الجيري الملون، ولها شهرة واسعة، ويعترف الجميع بأنها من أروع الأمثلة في النحت في العالم، وإنها لجديرة حقًّا بتلك الشهرة التي نالتها، ولا بد أن «نفرتيتي» نفسها كانت تفوق نساء عصرها في جمالها ورشاقتها، وسواء أكان المثال «بك» أو غيره قد نحتها فإنه قد ارتفع إلى القمة في الفرصة التي سنحت له؛ إذ الواقع أن هذا التمثال النصفي للملكة «نفرتيتي» لا تضارعه قطعة أخرى في دقة تصويره، ورشاقة ملامحه التي تدل على التفكير؛ ولذلك يحق للمثال المصري أن يسابق بشهرته وهو مطمئن البال في هذا المضمار على هذه القطعة الفنية الخلابة، وأما القطعة الثانية فإنها أقل شهرة؛ ويرجع السبب في ذلك إلى المادة المصنوعة منها، وكذلك إلى الحالة التي وُجدت عليها، فالناظر إليها لأول وهلة لا تستهوي مشاعره. وهي للملكة «نفرتيتي» أيضًا، وقد صُنعت من الحجر الرملي الأسمر، ولكنها في الواقع لا تقل جمالًا عن سالفتها في عين المفتن الناقد، فالقطعتان معًا لا نظير لهما، ويدرك الإنسان عند تأملهما سر ما لهما من شهرة تاريخية للجمال واسعة النطاق.[٥٨]

ومن القطع التي تتميز بها مدرسة الفن في «تل العمارنة» وإن كان لم يُعثر عليها في «إختاتون» رأس الملكة «تي» المصنوع من الأبنوس والذهب، وهي في دقة صنعها آية من آيات الفن، وقد عُثر عليها في «الفيوم»، وهي الآن في متحف «برلين»، والواقع أنه لم يُعثر على قطعة مدهشة مثلها في الفن القديم أو الحديث يقرأ الإنسان في تقاسيمها أخلاق صاحبتها، وليست لفظة الجمال بالتعبير الصادق الذي يستعمله الإنسان عند وصفها، ولكن هو التأثير المدهش الذي تتركه بما توحيه من شخصية مسيطرة، وربما كان ما صوره المثال في تقاسيمها من معاناتها الألم هو سر جمالها، وهذا الرأس الفذ الصغير الحجم لا يزيد ارتفاعه عن بعض سنتيمترات، ولكنه قطعة فنية أعظم تعبيرًا، وأقوى تأثيرًا من معظم التماثيل الضخم انظر [فصل: الفرعون أمنحتب الثالث – امبراطورية أمنحتب الثالث وملاهيه].[٥٩]

وترتكز عبقرية الفن المصري وقوته في عصر «إخناتون» إذن على الموضوعات التي تتعلق بالإنسان. ولا نزاع في ذلك لأن هذه الشهرة تستند على حقائق يؤيدها الواقع

---

[٥٨] راجع: “Chronique d’Egypte”, No. 31 (Jan. 1941), p. 46; Davies, Ibid, Vol. VI, Pl. XXXVIII.

[٥٩] راجع: Fechheimer, “Die Plastik der Agypter”, p. 88, 89.



شكل ٦: الملكة نفرتيتي.

تأييدًا واسع النطاق، ولكن مما يؤسف له أن صفات هذا الفن السامية بحق قد طُمست معالمها إلى حد ما، وأن ما أخرجته هذه المدرسة قد أُوذي بخاصية مستهجنة، وليس في استطاعتنا أن نحكم فيما إذا كانت هذه الهجنة ترجع إلى مبالغة «إخناتون» في تمسكه بفضيلة الصدق التي نجدها في تفكيره، وفي فنه، وفي تشبثه بأن ينتهج فنه هذه السبيل المعوجة، فنعلم أن الملك كان شاذ الخَلق كما يتضح ذلك من تماثيله وصوره الملونة، بل إن أهم من كل ذلك غطاء الوجه الذي كان عليه بعد وفاته؛ فقد كان شذوذه يتمثل بوضوح في ضخامة جمجمته بشكل خارج عن المعتاد، وكذلك نمو الجزء الأسفل من جسمه وفخذيه نموًّا غير مألوف، وقد دلت البحوث الطبية على أن الأسرة كان فيها هذا الشذوذ أو على الأقل في إخناتون نفسه. ولما كان «إخناتون» يحب الحقيقة والصدق إلى أقصى حد، فإنه صمم أن يُرسم بما فيه من شذوذ جسمي مطابق للحقيقة بدون ملق أو محاباة في تمثيل كل ما فيه من قبح وشذوذ، وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالة مُثلت

الأجزاء المراد إبرازها بشيء من المبالغة ازدادت بمر الأيام، ولذلك نجد أن هذه الطريقة المنكودة قد ظهر أثرها المبالغ فيه في كل صور أفراد الأسرة المالكة في هذا العهد، وليس من المعقول بتاتًا أن الملكة «نفرتيتي» والأميرات كن مصابات بهذا الشذوذ الجسمي كالفرعون، ولا أدل على ذلك من جذع تمثال الأميرة الصغير المصنوع من الحجر الجيري والموجود الآن بجامعة «لندن»[٦٠] فإنه خالٍ من كل هذا الشذوذ، ولكن العادة القبيحة في التشبث بإظهار خاصيات الملك الجسمية قد أدى إلى خلق خاصيات من هذا الطراز لا وجود لها، ولذلك فإنا نجد الملكة والأميرات يمثلن في كثير من الأحوال بدون مبرر بشذوذ جسمي قبيح لا ينطبق على الواقع قط، وهن منه بريئات قطعًا.

ولقد انتقلت هذه البدعة القبيحة إلى رجال البلاط كما كان المنتظر، والناس على دين ملوكهم، حتى إن الأمر قد وصل إلى درجة من المجون؛ فمُثل الرجل قبيحًا بقدر المستطاع تقليدًا لصورة جلالته، وهذا أمر كان لا يمكن تلافيه. ولقد كانت نتيجة هذا العبث أن أصبح جزء عظيم من فن «تل العمارنة» بكل ما فيه من محاسن يقرب من الصور الممسوخة الهزلية.

ولقد كانت الكارثة في كل هذا مزدوجة، فإن هذا الفن الذي كان رفيعًا في ذاته حقًّا، بل لا نغالي إذا قلنا إنه أحسن زهرة تفتحت عن العبقرية المصرية قد مُسخت محاسنه بهذه المبالغات التي انتابته، على أنه لما غُلب مذهب «آتون» على أمره بدا في نفوس القوم اشمئزاز من ذلك الشذوذ الذي طمس محاسن فن «تل العمارنة» الرائعة، حتى قضى على عبقرية الفن المصري بدرجة عظيمة. ولقد انزعج المصريون من نتائج انزلاقهم في صدق التعبير في رسومهم ومحاكاة الطبيعة؛ ولذلك فإنهم أخذوا يتشبثون حتى آخر أيام تاريخهم القومي في حياتهم الفنية بأهداب طراز فنهم الثابت الذي كان متبعًا في غابر الزمن، وكأن خلاصهم الوحيد كان متوقفًا عليه. حقًّا إنه كان لا يزال في عهد الأسرة التاسعة عشرة أعمال فنية جميلة تحمل في طياتها بوضوح أثر فن العمارنة غير أنها كانت ضئيلة.

أما في العهد الساوي فقد قامت نهضة عجيبة ظهر فيها بعض الأعمال الفنية الرفيعة على غرار الأساليب القديمة يصحبها صدق التعبير؛ مما جعلها جديرة بأن

---

[٦٠] راجع: Fechheimer, “Die Plastik der Agypter”, p. 94. & Ghalioungui, “A Medical Study of Akhenton”, A. S., Vol. XLVII, PP. 29ff.

تُضاهى بأعمال مفتني عصر «إخناتون»، غير أنه لم يعد يوجد قط ذلك التعبير الأول الجميل الذي ينطوي على فرط الفرح المستهتر الذي كنا نراه أيام «إخناتون»، حينما كان يلقن أتباعه بأن ينظروا إلى الحياة والأشياء بأعينهم هم فحسب، لا بوساطة التقاليد القديمة التي طُبع على بصرها غشاوة.

الصناعات الأخرى في عهد إخناتون

على الرغم من أن مدينة «إختاتون» قد أُقيمت في الأصل لتكون مدينة دينية وحصنًا حصينًا للمذهب الجديد وللبلاط الفرعوني، فإنه كان ولا بدَّ أن يستند أهلوها — وبخاصة الطبقات الدنيا منهم — على إنشاء صناعات خاصة بهم، وقد بينت لنا أنواع هذه الصناعات بدرجة عظيمة الأحوال التي أُسست فيها هذه المدينة. والواقع أن مدينة «إختاتون» كانت تشبه في حياتها النار التي أُوقدت في هشيم فارتفع لهيبها إلى عنان السماء ساعة ثم خبت وصارت ترابًا هامدًا؛ لذلك كان مقدرًا لهذه المدينة التي أُنشئت ما بين غمضة عين وانتباهتها أن تجد مكانًا في محيطها لإقامة مقابر عدة، ومقاصير وقصر ضخم للفرعون، ومساكن جميلة لكل الأشراف ورجال البلاط، وكذلك مقابر ومقاصير لهم. وقد كان المصري يعني بها أكثر مما يعني بمسكنه، فكل هذه المنشآت كانت تتطلب بطبيعة الحال مقدارًا ضخمًا من صناعة الزخرفة والزينة. أما نوع هذه الصناعة فقد كان القول الفصل فيه للذوق السائد في هذا العصر، وقد كان الذوق العام في زخرفة المباني مندفعًا نحو الرسوم البارزة وتزيينها بالألوان الزاهية، وهذا الذوق كان من خصائص الفن المصري في كل عصوره، ولكنه أخذ يتجه في عهد «إخناتون» إلى استعمال الخزف المطلي، والزجاج الملون في أعمال الزخرفة. ولقد كان أبسط وأسهل وأيسر على القائمين بالأمر أن يُنشئوا معامل للخزف المطلي والزجاج الملون في المدينة نفسها من أن يجلبوه من أماكن نائية كانت في معظم الأحيان معادية للمدينة؛ ولذلك كان من مميزات «إختاتون» ما أُقيم فيها من مصانع لعمل الخزف المطلي والزجاج الملون، وتدل بقايا ما وُجد من هذه الصناعات على أنها ازدهرت وتقدمت تقدمًا عظيمًا في «إختاتون»، وقد بلغت هذه الصناعة من التنوع والبهاء حدًّا لم تصل إليه من قبل ولا من بعد، وكان هذا العصر أعظم عصر بلغت فيه صناعة الخزف منتهى تقدمها، كما وصلت إلى أعظم غاية في تنوع استعمالها.

وقد كشفت أعمال الحفر عن موقع مصنعين عظيمين لصناعة الخزف المطلي، وكذلك عن عدة مصانع لعمل الزجاج على أن حجرات العمل في هذه المصانع قد اختفت نهائيًّا، غير أن بقايا هذه الصناعات لا تزال كائنة تظهر لنا في القطع المتخلفة طريقة العمل في إنتاج هذه الصناعة في حين أن مئات من قطع أواني الزجاج وأشياء أخرى تضع أمامنا شكل القطع التي تم صنعها.

ولما كانت الأذواق تختلف باختلاف العصور، فإن بعض القطع التي كانت تُصنع من الزجاج الملون قد يمجها ذوقنا، فقد صُنعت مثلًا تماثيل كاملة من الخزف المطلي، وهي لا تكاد تُعَدُّ قطعًا فنية كما نفهم الفن الآن، ففي أشياء أخرى كان الذوق الفني في عهد «إخناتون» ناقصًا على الأقل في نظرنا، ولكن لسنا في شك من القيمة الزخرفية للألوان الفنية التي كانت تُستعمل في صورة خزف مطلي لتزيين منازل الأشراف والقصور الملكية والمعابد. وقد وصل إلينا بعض قطع من أجمل نماذج صناعة الزجاج الموجود في العالم من هذا العصر؛ مثل الإبريق الأزرق الفيروزي المزين بخطوط بيضاء وزرقاء قاتمة، وكذلك الآنية ذات أربعة المقابض بلونها الأزرق اللازوردي، والمزينة بخطوط متموجة صفراء وبيضاء وزرقاء خفيفة وهما في مجموعة اللورد «كارنرفون»، هذا إلى قدح الشراب ذي اللون الفيروزي الأزرق الخالص، وهو الآن بمتحف متروبوليتان[٦١] بمدينة «نيويورك».

أما من جهة البهاء والفخامة فإن الدقائق الزخرفية والتفاصيل التي توجد على جدران قصر «إخناتون» التي استُعمل فيها الزجاج الملون والذهب الوفير لتزيين تيجان أعمدتها التي على شكل جريد النخل؛ لدليل ناطق على مقدار ذوقهم، ويقول الأستاذ «فلندرز بتري» إن تاج العمود في هذا القصر كان صورة من عمل الميناء التي يحذقها الصائغ المصري، وهو عبارة عن رقعة مقسمة أقسامًا دقيقة وُضع في كل منها حجر ثمين في إطار من الذهب ليخرج من المجموع رسم رائع يظهر فيه كل لون براق مفصول عن المجاور له بخيط من الذهب، وقد استعمل المفتن تلك الصورة على نطاق أوسع في فن العمارة؛ ولذلك كانت تظهر تيجان الأعمدة وهي لامعة بهذا الذهب وبهذا الخزف المطلي الذي يشبه الجواهر. ولا شك في أن التأثير الذي يحدثه صف من هذه الأعمدة المزينة بتلك الزينة لَمِمَّا يأخذ بالألباب لروعته وفخامته، وبخاصة عندما تسطع عليها أشعة

[٦١] راجع: Steindorff, “Die Kunst der Agypter”, p. 276.

شمس مصر اللامعة. ولعمري فإن مثل هذا المنظر في عين السفير الآسيوي كان يزيده اعتقادًا في أن الذهب كان بمصر يفوق التراب. على أن الفرعون لم يكن مبذرًا دائمًا في بذل الذهب في مثل هذه الأحوال، ولا أدل على ذلك من أنه استُعمل في قاعة المدخل في جنة «مرو آتون» تقليدًا رخيصًا لتزيين عمدها، فقد استُعمل بدل الخزف المطلي عجينة مطلية، وبدل الذهب طلاء أصفر يحاكيه.

أما المهارة في الصناعة في هذا العصر فيدل عليها نماذج الأثاث الجميلة التي عُثر عليها في مقبرة «آي» وفي مقبرة «توت عنخ آمون». فالصناعة المصرية في هذا العهد كانت لا عيب فيها من حيث الرسم والفكرة، وصوغها بديع، ولكنها كانت لا تروق في عين عصرنا هذا لما فيها من الفخامة والبذخ المتناهي؛ فخشب المقاعد وغيرها من أدوات الأثاث كثيرًا ما كان يُغطَّى كله بأوراق من الذهب مما يخفي بهجة القطعة من حيث الفن، كما كان يُغطى في معظم الأحيان بطبقة من الجص المرسوم رسمًا بارزًا، وكانت الصناديق تُزين بأحجار شبه كريمة، وخزف ملون بسخاء، وعلى الرغم من أن مثل تلك الزخرفة عندما تقع عليها عين الناقد الحديث تبدو أحيانًا غير متقنة لا تصلح لتأدية الغرض الذي من أجله صُنعت، فليس من شك أن بعض قطع الأثاث مثل عرش «توت عنخ آمون» المشهور، وبعض الصناديق من نفس المقبرة، ومن مقبرة «آي»[٦٢] تُعَدُّ أمثلة منقطعة القرين في جمال رسومها، كما أنها نماذج بديعة للصناعة المصرية نفسها، على أن الانحراف عن الذوق السليم يحدث في كل عصور الفن، وعصر «تل العمارنة» لم يكن خاليًا من إبراز قطع تنبو عنها الأعين، وأي شيء أشد قبحًا من تلك الأَسِرَّة المذهبة التي عُثر عليها في مقبرة «توت عنخ آمون»، وكذلك بعض تلك الأواني المصنوعة من قطعة واحدة من المرمر ومزينة برسوم طبعية من النباتات[٦٣] النيلية، وقد رُصعت بقطع مستديرة من حجر الأبسديان، فإن العين حين تقع عليها لا تلبث أن تتحول عنها؛ لما في صورتها من انعدام الذوق.

وعلى أية حال فإن ذوق عصر «تل العمارنة» على وجه عام قد احتفظ بخصوبة بالغة في الجمال، وصلاحية لا تضارعه فيهما عصور أخرى. فمن الصناعات التي تلفت إليها الأنظار لما فيها من رشاقة وجمال فن صناعة الأدوات الصغيرة التي كان يستعملها

---

[٦٢] راجع: Davies, “El Amarna”, Vol. VI, Pls. XXXIX, XL. Etc.

[٦٣] راجع: Carter, “The Tomb of Tutankhamon”, Vol. II, Pl. XLVIII.

الإنسان، وبخاصة أدوات الزينة، كملاعق العطور والأواني، والمرايا وجعبها، والأمشاط، وغيرها من الأدوات الصغيرة التي كانت تُصنع من أخشاب أجنبية أو من العاج أو من الشبة أو المرمر، أو حجر استايتيت؛ فكلها كانت قطعًا فنية للاستعمال العادي، ومن المحتمل أن توجد أشياء قليلة تأخذ العين والعقل لبساطتها وقوتها معًا. حقيقة إن مصريي القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانوا في مستوى أية أمة متحضرة في الثقافة العالمية؛ يشهد بذلك هذه الأشياء الصغيرة بما يتجلى فيها من براهين تدل على تمتع القوم وسرورهم بكل ما هو جميل، والحقيقة أن الأشياء الصغيرة الخاصة بحضارة القوم هي في أغلب الأحيان عنوان هذه الحضارة، والمطلع على تاريخ البلاد يعرف تأثير الأفكار الآسيوية التي بدأت تتسرب إلى مصر في بداية الفتوحات المصرية في باكورة هذه الأسرة، غير أنه على ما يظهر لم يكن للنماذج الفنية التي أُتي بها من سوريا، وكذلك أصحاب الصناعات الذين نزحوا إلى مصر في عهد «تحتمس الثالث» ومن بعده من الفراعنة تأثير مستمر. وعلى أية حال فإن تأثير «سوريا» الفني لم يكن ذا أهمية في فن «تل العمارنة» على الرغم من أننا وجدنا أن الفخار السوري كان يُوجد بمصر بدرجة لا بأس بها في ذلك الوقت، ولكن أهم من ذلك هو ما يجب معرفته عن مقدار تأثير النماذج المنوانية (كريت) في الصناعات المصرية؛ لما بين البلدين من علاقات تجارية، هذا فضلًا عن أن أساليب الفن المنواني كانت تنطوي على حيوية وجاذبية في أشكالها وتصميم صنعها كما تكلمنا على ذلك من قبل.

ولا نزاع في أن فخارًا من العصر المنواني الثالث قد جُلب إلى مصر في عهد العمارنة، وقد وُجد منه قطع في مدينة «إختاتون»،[٦٤] والظاهر أنه جُلب إلى مصر من «كريت» و«رودس» وغيرها من جزائر بحر إيجة، أو من بلاد الإغريق نفسها.

وقد كانت الأواني المنوانية التي على شكل ركاب السرج ومصفاة الخمر منتشرة في مصر في ذلك العهد، وكان الصانع المصري يقلدها في الخزف المطلي والمرمر والمعدن. ومن الجائز أن المصري عندما عاد إلى حب الطبيعة وتقليدها وهو ما يتميز به فن عصر «العمارنة» ثم أخذ المفتن يطلق ليده العنان بما وُهب من حرية وسهولة في تصويره الأشياء؛ قد تأثر بعض الشيء بروح الفن المنواني، ذلك الفن الذي لم يُقيد بتقاليد قط،

[٦٤] راجع: Frankfort and Pendelbury, “The City of Akhenaton”, II, p. 110.

بل كان قانون نفسه، ونستطيع أن نقول إن هذا التأثير لم يكن إلا عنصرًا ضمن عناصر عدة كان بمثابة روح تنفخ في شخصية كانت في عالم الوجود فعلًا شاعرة بقوتها، وبميلها الشخصي، ولم تكن قط ظلًّا لذوق أجنبي يُفرض على عقول تقبلها بسهولة؛ لأنها خاوية بيضاء الصحيفة؛ إذ الواقع أن الحضارة المصرية كانت شيئًا ضخمًا جدًّا، وعريقة في قِدَمها جدًّا وأصيلة في شعبها أكثر مما يجب مما جعل تكييفها تكييفًا جديدًا بمؤثرات خارجية أمرًا مستحيلًا، فالمصري كان يعرف الشيء الحسن عندما كان يراه، ولم يكن لديه أي مانع من انتحاله لنفسه، ولكنه كان في ذات الوقت عنده قوة العبقرية الحقة التي تجعل ما ينتحله لنفسه — إذا اتفق أنه انتحل شيئًا — ملكه وقطعة منه.

وخلاصة القول أن الرقي الذي حدث في عهد «تل العمارنة» منبعه وصدق تعبيره عن الطبيعة من روح مصرية، ومع ذلك لا يمكننا أن ننكر احتمال وجود تأثير منواني إغريقي رائده الحرية وعدم التقييد بالتقاليد[٦٥] الموروثة.

(٤-٥) تدهور سلطان مصر في سوريا: زحف البدو و«خيتا»

المصادر وترتيب تاريخ الحوادث

لقد كان النزاع بين الأمراء الخاضعين للسيادة المصرية في «سوريا» لا ينقطع حبله ولا ينضب معينه؛ إذ كان كل أمير يرغب في توسيع رقعة إمارته، ومد نفوذه على حساب جاره، وبخاصة الضعيف، وتلك سنة الطبيعة، وقد كان موقف الفرعون وقُوَّاده في مثل هذه المنازعات هو المحافظة على الدولة وبقاء كيانها، ولذلك كانوا يقفون بجانب الوالي المخلص، وينصرونه على الوالي المغتصب الثائر على العرش، كما أنهم كانوا في الوقت نفسه لا يألون جهدًا في صد غارات أقوام البدو الهمج، الذين يغيرون على البقاع المتحضرة ويسلبون متاعها.

ولقد بقي النشاط المصري على هذا المنوال من اليقظة والشدة حتى تولى الملك «أمنحتب الثالث»، وكان متساهلًا في أمر دولته؛ فَشَلَّ نشاط الجيش، وانحلت قواه. والواقع أن هذا الفرعون قد أراد أن يترك الأمور في مختلف بقاع دولته تجري كما شاء

[٦٥] راجع المقال الممتع الذي كتبه الأثري «بندلبري» عن علاقة مصر مع «كريت» وجزر بحر «إيجة» في عهد الأسرة الثامنة عشرة (J. E. A. Vol. XVI, p. 75ff).

القدر، فكان لا يعير أذنًا صاغية لأي توسل أو رجاء يأتيه من مختلف بقاع إمبراطوريته، ولم يحركه أي إنذار ينبئه بدنوِّ الخطر المحدق بممتلكاته في «سوريا» فيعد حملة يقضي على الفتنة في مهدها، بل كان منغمسًا في ملاهيه بعاصمة ملكه «طيبة». ومما زاد الطين بلة أنه لم يهتم بإصدار أوامر مشددة إلى هذه الأصقاع إلا بعد لَأْيٍ وجَهْدٍ، يُضاف إلى ذلك أن المنافسة والشره وجمع المال كانت مستحكمة بين عماله، ولعبت دورها في تقويض بنيان الإمبراطورية التي بناها جده العظيم «تحتمس الثالث» في «سوريا»؛ وبذلك تخلخل الحكم في هذه الولايات، وانتشرت الفوضى في أرجائها.

ويرجع الفضل في كشف النقاب عن هذه الحالة إلى وثائق «تل العمارنة». وقبل أن نتكلم عن أهمية هذه الوثائق نضع أمام القارئ كيف عُثر عليها.

لقد كانت بقعة «تل العمارنة»[٦٦] وهي «إختاتون» عاصمة «إخناتون» الجديدة معروفة منذ زمن بعيد للباحثين عن الكنوز القديمة، كما كانت معلومة لرجال الآثار الذين كانوا يبحثون وراء العلم والدرس أمثال «لبسيوس» و«ولكنسون» وغيرهما ممن وقفوا حياتهم على التعمق في درس تاريخ مصر وآثارها، غير أن الأنظار قد اتجهت إلى هذه البقعة بصفة خاصة منذ عام سنة ١٨٨٧م، حتى ذاع اسمها، وعلا ذكرها لدرجة تفوق المعتاد؛ وذلك على أثر عثور امرأة فلاحة من القرى المجاورة لهذا التل الأثري في أثناء بحثها عن السماد في خرائبها، على حجرة صغيرة كانت فيما مضى مستعملة مخزنًا، وكان هذا المكان هو الذي تُحفظ فيه سجلات الفرعون، وقد عرفنا ذلك من أختام على لبنات تدل على ذلك.

ولقد وجدت تلك المرأة المحظوظة عددًا عظيمًا من اللوحات المصنوعة من الآجر المحروق مكتوبة بالخط المسماري البابلي، فنقلت غنيمتها على ظهر حمارها، وباعتها لجار لها بمبلغ عظيم في نظرها وهو عشرة قروش، ولقد ظنَّت في بادئ الأمر أنها قد غبنت المشتري في هذه الصفقة؛ إذ وجد الأخير صعوبة في بيعها، ولا غرابة في ذلك فإن هذه اللوحات لم يكن في شكلها أو صنعها ما يغري جامعي الآثار.

عُرضت هذه اللوحات على تجار الآثار، فقاموا بدورهم بإرسالها إلى الدكتور «أوبرت» في «باريس»، ولم يمضِ طويل زمن حتى جاءهم الجواب بأنها من صنع يد

---

[٦٦] هذا المكان كان يُسمَّى في الأصل «التل»، وهو قرية صغيرة، غير أن علماء الآثار أطلقوا عليه «تل العمارنة» نسبة للقبيلة التي تسكن في هذه القرية بني عمران.

حديثة، ثم أرسل بعضها إلى المسيو «جريبو» مدير مصلحة الآثار المصرية وقتئذٍ، فصمت عن إبداء رأيه كما كانت حالته. ولما شاع الخبر في نهاية الأمر بأن هذه اللوحات قليلة القيمة حُملت في غرائر إلى «أخميم» ومدينة الأقصر، حيث كان يُنادى على بيعها. ومما يؤسف له جد الأسف أن معظمها قد حُطم في أثناء نقلها، وما بقي منها مما لم تنله يد التحطيم لا يُعد إلا جزءًا ضئيلًا مما كانت تتألف منه هذه المجموعة في الأصل، على أنه لو أُتيح لها في هذه الفترة عالم يقدِّر قيمتها، واستولى عليها في الحال، لكان لها شأن آخر أعظم مما هي عليه الآن. ولقد بدأت قيمة هذه اللوحات تُعرف بعد أن تناولت يد التدمير معظم ما كان محفوظًا في هذا المخزن الثمين، فاشترى معظم ما بقي منها كل من متحفي «بريطانيا» و«برلين»، ثم استولى متحف «سنت بيترز برج»، ومتحف «باريس» على جزء صغير منها، هذا فضلًا عما تسرب للجمعيات الخاصة، أما المتحف المصري فلم ينل منها إلا نصيبًا ضئيلًا [٦٧] بالنسبة لما كان يجب أن تستولي عليه.

[٦٧] ونجد الآن أن لوحات تل العمارنة موزعة على متاحف العالم كالآتي:

١٩٤ لوحة في متحف «برلين».

٨٢ لوحة في المتحف «البريطاني».

٥٠ لوحة في متحف «القاهرة».

٢٣ لوحة في متحف «إشموليان». اثنتان منها صحيحة فقط.

٧ لوحات في متحف «اللوفر».

لوحة واحدة في متحف «القسطنطينية» من «تل الحسي» في فلسطين.

٤ لوحات في حيازة «روستوفيتز».

… لوحة في متحف «لينinجراد».

لوحة واحدة عند «أوبرت».

لوحتان في متحف «متروبوليتان».

لوحة واحدة في متحف «بركسل».

٨ لوحات قطع ملك جمعية الحفر الإنجليزية.

وأوثق المصادر التي يُعتمد عليها الآن لدرس هذه اللوحات اثنان وهما:

(1) Knudtzon, “Die el Amarna Tafeln” (1907–1715).

(2) Mercer, “The Tell el Amarna Tablets”, (1939).

ويُلاحظ أن كتاب الأستاذ «مرسر» قد أُلف على ضوء كل التراجم الحديثة والإضافات التي عُملت بعد سنة ١٩١٥، وسنعتمد عليه في دراستنا هذه عند الإشارة إلى الخطابات.

هذه هي القصة المحزنة لهذا الكنز العظيم الذي بدَّدته يد الجهل، والذي يُعد بحق أهم كشف حدث في المدة الأخيرة في مصر، بل في كل بلدان الشرق القديم، ولا غرو فإن هذه اللوحات التي وصلتنا من هذه الذخيرة التي لا يتجاوز عددها الثلاثمائة والستين، والتي قد أخطأت يد الجهل تدميرها قد أسفر حل رموزها عن أنها كانت المراسلات السياسية للشئون المصرية الخارجية خلال عهد الملك «أمنحتب الثالث» ثم «أمنحتب الرابع»[٦٨] وتُعَدُّ مدة حكميها من أعظم عصور التاريخ المصري القديم. وقد أسفرت المعلومات التي تمخضت عنها تلك الرسائل عن قبس من نور أضاء لنا الطرق المظلمة، والمسالك المعماة، لا في تاريخ مصر في هذا الوقت وحسب بل في كل تاريخ العالم القديم المتحضر في تلك الفترة؛ فقد كشفت لنا حقائق عن «بابل» وبلاد آمور، ومملكة الآشوريين، وبلاد متني، و«قبرص» و«كليكيا»، وكذلك كُشف لنا عن بداية حركة اليهود ونزوحهم لأول مرة في الأرض الموعودة وإن كان هناك ما يدل على وجودهم قبل هذا العهد في عهد «أمنحتب الثاني» وما قبله كما ذكرنا من قبل. ولم تقتصر نفاسة هذه اللوحات على الناحية التاريخية فحسب، بل لقد رسمت أمامنا صورة عن الحياة الاجتماعية في مختلف البلاد التي تناولتها. هذا غير ما بينته لنا من حياة هذه الأمم العقلية، وما وصل إليه ملوكها وأمراؤها وحكامها من ميزان عقلي، حتى إن القارئ ليخيل إليه أحيانًا، وهو يقرأ حركاتهم وتقلباتهم الخلقية والسياسية أنه يعيش معهم أكثر مما لو كانوا أناسًا يعاشرهم ويخالطهم الآن.

وإنه لطريف حقًّا أن يقرن المؤرخ هذه الرسائل التي أحيت لنا عصرًا غامضًا في تاريخ العالم بعد أن كان عظامًا نخرة بالكشف الحديث الذي أُميط عنه اللثام عام ١٩٢٢، ذلك الكشف الذي هز أركان العالم، وجعل الكل يتحدث بضخامته وانقطاع نظيره، تلكم هي مقبرة «توت عنخ آمون» وما عُثر فيها من نفائس أثرية. على أن هذا المظهر من الاهتمام البالغ قد أنكره العالم على وثائق «تل العمارنة»، ولا غرابة في ذلك؛ فإن كشف «توت عنخ آمون» أسفر عن ذهب وأحجار كريمة، وتماثيل فنية فخمة، أما

[٦٨] كتب الأستاذ «ألبريت» مقالًا عن الخطاب رقم ١٥٥ في هذه الرسائل، وهو الخطاب الذي أرسله «أبمييلكي» أمير «صيدا» إلى ملك مصر، وقد ظن الكاتب أن الملك المقصود هنا هو «سمنخكارع» وأن اسم «مايا-أتى» هو «مريت آتون» زوجه؛ غير أن هذا الرأي لا يزال يحتاج إلى إثبات وتمحيص (J. E. A., XXIII, p. 190; Mercer, “The Tell El Amarna Tablets”, No. 155).

لوحات «تل العمارنة» فهي قطع من الآجر تَزْوَرُّ عنها العين، ويَمجُّها الذوق السليم، وقد كُتبت بأحرف ليس فيها ما يلفت النظر. ولكن شتان بين ما أسداه كل منهما للعلم والتاريخ؛ حقًّا قد أهدى «توت عنخ آمون» إلى العالم ذهبًا وتحفًا فنية جميلة وحسب، وأما الألواح فكشفت لنا حياة العالم في زمن قد انقطعت صلتنا به وكنا في جهالة عمياء بالنسبة لتاريخه، ومع كل هذا فقد بِيعت الألواح بأبخس الأثمان (عشرة قروش)، وتُقدَّر تحف «توت عنخ آمون» بالقناطير المقنطرة من الذهب. والظاهر أن هذه الألواح كان مقر جزء منها في «طيبة»، فلما انتقل «أمنحتب الرابع» إلى مقره الجديد في «إختاتون» في السنة السادسة من حكمه نقل المراسلات التي كانت تجري بين والده وبين الملوك والأمراء، ثم زاد عددها في أيام حكمه هو، ولكن مما يُؤسف له أن هذه الرسائل لم تكن تؤرَّخ بتواريخ محدودة تدل على وقت كتابتها، وقد كانت تتبادل كما ذكرنا بين مصر وبابل و«متني» و«آشور» ومملكة «خيتا»، وكان يُذكر في كل رسالة اسم المرسِل واسم المرسَل إليه، وباستقرائها وجدنا أن ما يقرب من نصفها قد كُتب في عهد «أمنحتب الثالث»، وأن نصفها قد أرسله الولاة الذين كانوا تحت حكم الفرعون في «سوريا» و«فلسطين».

ويلاحظ أن رسائل الولاة لم يُذكر فيها اسم المرسل إلا في أربعة خطابات أرسلها «أكيزي» Akizzi أمير «قطنا»، وكلها كُتبت في عهد «أمنحتب الثالث»، ونستخلص من رسائل «أكيزي» هذا أن الثورة التي قام بها «أيتاكاما» Aitakama ملك «قادش»، والزحف الذي قام به «أزيرو» حاكم أراضي «الأموريين»، وأول هجوم قامت به «خيتا» في عهد ملكهم «شوبيليوليوما» على شمالي «سوريا»، وهو ما جاء ذكره في وثائق «بوغاز كوي»؛ كل هذا قد حدث في عهد «أمنحتب الثالث»، بَيْدَ أننا نشاهد في الوقت نفسه أن ملك «خيتا» قد أرسل خطابًا وديًّا «لأمنحتب الرابع» يهنئه فيه بعرش الملك (الخطاب رقم ٤١)، وكذلك نجد بين الرسائل المؤرَّخة الأخرى خطابًا من ملك «نوخاشي (٥١)» وآخر من ملك «تونب» (رقم ٥٩)، وبعض خطابات «ريبأدي» أمير «ببلوص» (جبيل) وقد كان يطلب فيها النجدة على «أزيرو» (راجع الخطاب ١٠٢ … إلخ).

ولم ينقطع تيار إرسال هذه الرسائل في عهد «أمنحتب الرابع»، وهذه يمكن معرفتها على وجه التأكيد؛ إذ إنها تذكر حوادث وقعت في عهد والد المرسَل إليه (راجع الخطابات ١٠٨ سطر ٢٨ … إلخ، ١١٦ سطر ٢١ … إلخ، ١٣١ سطر ٣٢ … إلخ، ١٣٢ سطر ١٠ … إلخ).

أما في الخطابات التي كانت تَرِد من «فلسطين» فقد وجدنا فيها مستندًا لتحديد تاريخها؛ فنجد في خطاب «لابايا» (٢٥٤) مكتوبًا بالمداد بالخط الهيراطيقي ومؤرَّخًا بالسنة الثانية عشرة من حكم «أمنحتب الرابع»؛ ومن ثم نعلم أن الخطاب الذي ذُكر فيه موت «لابايا» قد وصل إلى مصر بعد هذا التاريخ. أما أحدث خطاب وُجد في وثائق «تل العمارنة» (١٧٠) فيذكر لنا هجوم «خيتا»، ويرجع تاريخه على حسب وثائق «بوغاز كوي» إلى ما قبل موت «أمنحتب الرابع» بزمن قصير جدًّا.

ولدينا عن المدة التي قبل ذلك خطابات عن العصيان الذي قام به «عبدي أشرتا» والد «أزيرو»، وقد خصص لها «ريبأدي» نصف الخطابات التي أرسلها إلى الفرعون (٦٨–٩٥)، وكذلك الخطابات التي كان قد أرسلها «عبدي أشرتا» نفسه (٦٠ … إلخ)؛ كل هذه قد أُرسلت في غضون حكم «أمنحتب الثالث».

ولدينا مصدر آخر هام لتحديد تواريخ هذا العهد، وهو سجلات «بوغاز كوي»[٦٩] (خاتوس) عاصمة مملكة «خيتا»، وبخاصة ما نعرفه منها عن المقدمات التاريخية التي كانت تفتتح بها المعاهدات التي أبرمها ملك «خيتا» «شوبيليوليوما» مع الأمراء الذين انتصر عليهم، ولكنا تنقصنا التواريخ في هذه أيضًا، بيد أننا عندما نربط المعلومات التي نجدها في كلا المصدرين «الخيتي» و«المصري» فإنه يصبح من السهل علينا الوصول إلى تحديد الزمن أو التاريخ الذي وقعت فيه الحادثة على وجه التقريب.

ولدينا تاريخ محدَّد ذكره «مورسيل» الثاني ملك «خيتا»، وهو أنه في أثناء ما كان والده «شوبيليوليوما» يحاصر «كركميش» أرسل القائدان «لوباكي» و«تشوب سلمان»

[٦٩] كان أوَّل من عثر على سجلات «بوغاز كوي» في بلدة «بوغاز كوي» ونشرها في عام ١٩٠٧ هو «هوجو فنكلر» Hugo Winckler، وهذه السجلات تبحث في تاريخ «خيتا» في ألف السنة الثانية قبل الميلاد. وبعد الحرب العالمية الأولى مباشرة أخذ العلماء في الاهتمام بهذه السجلات والبحث في محتوياتها، ونخص بالذكر منهم «هرزني» Hrozny، و«فيدنر» Wiedner، و«سومر» Sommer، وفي ١٩١١ جمع «مسرشمت» سجلًّا شاملًا لكل متون «خيتا»، ولكن منذ ذلك الوقت نُشرت وثائق كثيرة، وبخاصة «فيدنر» فإنه قام بعمل طبعة شاملة في عام ١٩٢٣ (راجع Mercer, "The Tell el Amarna Tablets", II, p. 829; Meyer, "Gesch", II, 1, P. 336. note 2.).

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الكثير من متون سجلات «بوغازي كوي»، وكذلك من خطابات «تل العمارنة» لا يزال غامضًا، غير أن ما حُلَّ منها تمامًا قد كشف النقاب عن علاقة مصر ببلاد «خيتا» وغيرها من البلدان المتاخمة التي كانت لها صلة بالدولة الأخيرة أو بمصر في تلك الفترة.

ليفتحا إقليم «عمق» (وهو الوادي الذي بين جبلي لبنان)، وكانت النتيجة أن ذُعر المصريون، وولوا هاربين، هذا إلى أن ملكهم «ببخوريا» قد مات (أي أمنحتب الرابع)، وأرسلت أرملته إلى ملك «خيتا» ترجوه أن يرسل ابنه ليكون زوجًا لها؛[٧٠] لأنه ليس لها ولد يتولى عرش الملك، وقد قُتل هذا الأمير في مصر كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وعلى أثر ذلك قام ملك «خيتا» ينتقم لابنه بإعلان الحرب على مصر، وقد ذُكر الغزو الذي قام به «لوباكي» في «عمق» في الخطاب الذي أُرسل للفرعون (١٧٠) بين خطابات «تل العمارنة»، وعلى ذلك فقد صار من المستحيل أن نجد بعد موت «أمنحتب الرابع» الذي تلاه نقل العاصمة إلى «طيبة» خطاباتٍ قد وُضعت في سجلات «تل العمارنة».

وعلى ذلك فلا شك أن «ببخوريا» هو لقب العرش الذي كان يحمله «أمنحتب الرابع»، وهو بالمصرية «نفر خبر رع»، وأن الخطاب الذي أُرسل إلى ملك «خيتا» قد أُرسل في آخر سنة من سني حكمه، ولدينا مستند آخر لتحديد هذا الحادث، وهو ما جاء في قول الملك «مواتلا» بأن جدَّه «شوبيليوليوما» قد ظلَّ يحارب «الخاري» (متني) في «سوريا» ستة أعوام، وفي خلالها امتد سلطانه على «قادش» وبلاد «آمور»، وبأنه انتصر على المصريين ونصب ولديه ملكين على «حلب» و«كركميش»،[٧١] وفي خلال هذه المدة مات «أمنحتب الرابع»، ويُرجَّح أنه مات في نهايتها. وأكبر مدَّة يُظن أن «أمنحتب» قد حكمها ثماني عشرة سنة، وهو التاريخ الذي وجدناه على إناء من الحجر،[٧٢] ولا يُظن أنه قد حكم أكثر من هذه المدة. وعلى ذلك فالخطابات التي تُنسب إليه من «تل العمارنة» تنحصر في مدة لا تتجاوز ثماني عشرة سنة، وفضلًا عن ذلك نعلم من صور مقابر «تل العمارنة» أنه قد قُدِّم لهذا الفرعون الجزية والأسرى في السنة الثانية عشرة من حكمه من بلاد «سوريا» ومن بلاد «النوبة»،[٧٣] وفي نفس هذه السنة أرسل العاصي «لابايا»

---

[٧٠] راجع: Meyer, “Gesch” II, 1. p. 337, note 2.

[٧١] راجع: Forrer, “Forschung” II, 10.

[٧٢] راجع: Gauthier, “L. R” II, p. 343.

[٧٣] راجع: Davies, “El Amarna” II, p. 40ff, Pls. XXXVII–XL, Meryra II; Vol. III, p. 6ff. Pls. XIII–XV.

خطابه الذي يفيض بالولاء[٧٤] (٢٥٤). وكان قبل ذلك قد أُرسل جيش مصر إلى «سوريا» لتهدئة الثورة ويحتمل أنه أُرسل في السنة الحادية عشرة من حكم «أمنحتب الرابع»، وقد انتصر انتصارًا عظيمًا بعد جهد جهيد، ومن الجائز أن هذا الجيش لم يشتبك في حروب مع ملك «خيتا» نفسه بل كان يحارب العصاة الذين كان يحرضهم هذا العاهل.

وقد وضع لنا الأستاذ «فورر» تاريخًا مؤكدًا عن هذا العهد، وصل إليه عن كسوف للشمس حدث في السنة التاسعة من حكم ملك «خيتا»[٧٥] «مورسيل» الثاني؛ وذلك على حسب ما جاء في سجل تاريخ حياته، وقد كان يحارب في بلاد «أزي»»، وقد استمرت هذه الحروب مدة عشرة سنوات، وقد دلَّت البحوث الفلكية على أن هذا الكسوف حدث في مارس عام ١٣٣٥ق.م. وعلى ذلك يكون «مورسيل» قد بدأ حكمه سنة ١٣٤٤، وعلى أية حال فإن أقصى تاريخ بدأ فيه «شوبيلوليوما» حكمه هو عام ١٣٤٦ق.م؛ إذ قد حكم بينه وبين «مورسيل» الثاني، «أرنواندا» الثالث مدة قصيرة، يُضاف إلى ذلك ما ذكره «شوبيلوليوما» من أن «مورسيل» قد أقام عيدًا في السنة الخامسة عشرة من حكمه (١٣٣٠ق.م) في نهر «مالا» شكرًا للإله الذي منع الطاعون الذي كان قد تفشى في بلاده خلال الحملة التي قام بها والده على المصريين لقتلهم أحد أولاده، ويُذكر أن هذا الطاعون قد استمر يفتك بالبلاد عشرين حولًا كاملًا، ومع ذلك نستنبط أن هذه الحرب قد شبت

---

[٧٤] وفيه يقول: «إلى الملك سيدي وشمسي. هكذا يقول «لابايا» خادمك، والتراب الذي تدوس عليه، وإني أركع عند قدمَي الملك سيدي وشمسي سبع مرات، ولقد سمعت الكلمات التي كتب بها إليَّ الملك. ومن أنا الذي ينبغي للملك أن يفقد أرضه من أجلي؟! تأمل! إني خادمك الملك الأمين، ولم أرتكب جريمة ولم أقترف ذنبًا، ولم أرفض دفع جزيتي، ولم أعصِ طلب نائبي، تأمل! لقد هُجيت وأُسيئت معاملتي، غير أن الملك سيدي لم يُعلنِّي بجريمتي، يُضاف إلى ذلك أن جريمتي هو أني دخلت «جازري» وقلت: لقد استولى الفرعون على كل متاعي جميعًا، ولكن أين كل ما يملكه «ميلكيلو»؟ إني أعرف عمل ميلكيلو ضدي. يضاف إلى ذلك: أن الفرعون قد كتب عن أمر «دوميا» (يجوز أنه ابن «لابايا» نفسه)، وإني لا أعلم إذا كان «دوميا» قد ذهب مع أهل «ساجاز» (العبرانيون)، غير أني قد وضعته أمانة في يد «أدايا»، يُضاف إلى ذلك أنه في حالة ما إذا كتب إليَّ الفرعون أن أرسل إليه زوجي فهل أرفض ذلك؟ وإذا كتب إليَّ الفرعون أن أطعن صدري بخنجر من البرنز وأموت فهل لا أنفذ أمر الملك؟» (راجع Mercer, “The Tell el Amarna Tablets”, II, No. 254).

[٧٥] راجع: Forrer, Ibid. p. 2ff.

نارها عام ١٣٥٠ق.م؛ أي قبل موت عاهل «خيتا» «شوبيليوليوما» بخمسة أعوام، ونحن من جهتنا نعلم أن «أمنحتب الرابع» قد تُوفي حوالي عام ١٣٥١ق.م.

غزو قبائل البدو السامية البلاد المتحضرة

الآراميون والإسرائيليون

لقد كانت قبائل البدو العنصر الذي نزح إلى كل أنحاء «سوريا» منذ بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وقد جاء ذكر هذه القبائل في خطابات «تل العمارنة»، والواقع أنهم غمروا هذه البلاد وهدَّدوا مدنها، واتخذهم الأمراء في خدمتهم ليزيدوا من قوتهم، ومد سلطانهم في حروب بعضهم مع بعض، ثم تركوا لهم البلاد المغلوبة على أمرها ليتخذوها مقرًّا لهم ومسرحًا لنهبهم، وقد كان يُطلق على هذه القبائل المغيرة اسم «خبيري»[٧٦] وكذلك كانوا يُسمون «ساجاز» أو «جاز» وحسب. وهذه التسمية وُجدت في البابلية أيضًا، ووردت كثيرًا في المتون «الخيتية»، وعلى الأخص في أسماء مجموعة آلهة في وثيقة معاهدة في نهاية قائمة طويلة بأسماء آلهة خيتية، غير أنها ذُكرت قبل آلهة العالم السفلي، وقبل كل مجموعة الآلهة الذكور والإناث لبلاد «خيتا»، ومُيزت بأنها آلهة «لولاخي» وآلهة

---

[٧٦] جاء اسم هؤلاء القوم بلفظة «عبرو» في اللوحة التي كشف عنها الدكتور «أحمد بدوي» في «منف»، وهم «خبيرو» الذين ذُكروا في خطابات تل العمارنة (راجع الجزء الرابع، Meyer, "Gesch. Albright, "From the Stone Age to Christianity", p. 182) إن البراهين تتراكم تباعًا؛ بما يشعر أن العبرانيين القدامى كان لهم صلة بالعبرو (خبيرو) الذين قاموا بدور هام في الوثائق المسمارية التي يرجع عهدها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر، وكذلك في الوثائق النوزية، والخيتية، وخطابات تل العمارنة في القرنين الخامس عشر والرابع عشر. ففي «مسوبوتاميا» وسوريا ظهروا بأنهم جنود لا وطن لهم؛ إذ كانوا ناهبين وأسرى وعبيدًا من أجناس مختلفة، وقد ذُكروا كثيرًا في فلسطين في الرسائل الكنعانية من القرن الرابع عشر بوصفهم مغيرين وعصاة على السلطة المصرية، وقد كان ينضم إليهم أحيانًا الكنعانيون.

أما لفظة «خبيرو» فقد جاءت في الخطابات التي كان يرسلها «عبدي خيبا» للفرعون (راجع الخطاب ٢٨٦ سطر ١٩، ٥٦). أما عن توحيد لفظة خبيري بلفظة «ساجاز» فقد فحصه الأستاذ «بول» Bôhl (راجع "Kanaanâer und Hebraier", p. 87)، وأثبت في النهاية أنهما كلمتان مترادفتان وحسب، وإن كانت كلمة «ساجاز» تدل على معنى أوسع (راجع Mercer, "The Tell el Amarna Tablets", II, p. 844).

«خبيري»، ومما لا شك فيه أنها لا تدل على اسم جنس بل تميز اسم جماعة معينة من السكان.

أما عن «لولاخي» فلا نعرف شيئًا أكثر من هذا، ولكن «خبيري» هم قبائل رحل من البدو كما ذُكر في خطابات «تل العمارنة»، وقد استوطنوا آسيا الصغرى مع سكانها الأصليين، وكان من الصعب على «خبيري» وعلى الساميين أن يستوطنوا في سهول «سوريا» وما بين النهرين والصحاري السورية العربية. وقد جاء ذكر قبائل «سوتي» (البدو) مع «خبيري» في وثائق «تل العمارنة»، وقد كانوا يعملون جنودًا مرتزقة أو يجتمعون جماعات للسلب والنهب. وهؤلاء الساميون الذين أغاروا على البقاع المتمدينة في «سوريا» وأرض «نهرين»؛ قد ذُكروا لأوَّل مرة في الوثائق الآشورية في عهد الملك «أريكدنيلو»، وقد حاربهم بوصفهم قبائل «أخلامي» وقبائل «سوتي» (البدو).

وفي المتون التي جاءت بعد كانت قبائل «أخلامي» تُسمى كثيرًا الآراميين، يُضاف إلى ذلك أنه قد وصل إلينا متن مهشم جدًّا من خطابات «تل العمارنة» يتكلم عن هؤلاء القبائل بمناسبة الكلام عن «كاردونياش» (راجع خطاب ٢٠٠)، وكذلك نعرف أن الملك «سلما نصر الأوَّل» ملك «آشور» (١٢٨٠ق.م) كان متحالفًا مع مملكة «متني» و«خيتا» وقوم «الأخلاميين»، يُضاف إلى ذلك أن «خاتوسيل الثالث» (١٢٨١ق.م) ملك «خيتا» يقص في إحدى كتاباته إلى ملك «بابل» غارة «الأخلاميين»[٧٧] على رجال سفارته في أثناء سيرهم في هذه الأصقاع، ثم بعد ذلك الوقت نشاهد أن كل شمالي بلاد «نهرين» و«حران» و«نصيبين» و«شمالي سوريا» إلى ما وراء دمشق ثم إلى منبع نهر «الأردن»؛ قد احتلها «الآراميون»، وأحلوا لغتهم محل اللغات القديمة التي كانت سائدة في هذه الجهات، وكذلك أخذ سلطانهم يمتد بدون انقطاع في بلاد «بابل». وقد تحدثت إلينا خطابات «تل العمارنة» عن بداية طغيان هؤلاء القوم من الساميين الرحل على البلاد المتحضرة عندما هجروا وطنهم المقفر، وتدل ظواهر الأحوال على أن الإسرائيليين كانوا مرتبطين ارتباطًا وثيق العرى مع الآراميين في تقاليدهم القومية، فنجد أن أجداد هؤلاء يرجع أصل تكوين أساطيرهم وعاداتهم الدينية إلى أقصى بقاع جنوبي فلسطين وشرقي نهر الأردن (نهر العاصي)، وهم في ذلك يتصلون في سلسلة النسب إلى الآراميين، وهم على

---

[٧٧] راجع: Keilschrifttexte aus Boghaz Koi. I, 10. ZI. 37, Winckler, “Mitteilungen der Deutschen Orient gesellschaft”, 35, 22.

العكس من الكنعانيين الذين لا تربطهم بهم أية رابطة. فالإسرائيليون[٧٨] ليسوا فلاحين متوطنين مثل الكنعانين، بل هم قوم رعاة رحل، فقد نزح إبراهيم — عليه السلام — بعد ولادته إلى حوران، ومن ثم إلى «حبرون»، وقد جاء في كتاب التشبه صحاح ٢٦ سطر ٥ فصل القربان، أن جد هؤلاء القوم آرامي (ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك آراميًّا تائهًا كان أبي). والواقع أننا نعرف أن الإسرائيليين قد تدفقوا على الأراضي الجبلية في فلسطين (افرايم) في القرن الرابع عشر؛ إذ تدل الآثار على أنهم في عهد «مرنبتاح» بن «رعمسيس الثاني» كانوا قد استوطنوا هذه البقاع فعلًا، ومن أجل ذلك لا يمكن أن نرجع غزوهم فلسطين إلى عهد «سيتي الأوَّل» أو عهد «رعمسيس الثاني»، بل لا بد أنهم قد قاموا بغزوهم هذا في عهد قبل «أمنحتب الثاني»، والظاهر أنهم قبل ذلك الوقت كانوا يسكنون الشمال الغربي لبلاد العرب، أي في أرض «مدين»، فكانوا يضربون خيامهم في منطقة سينا البركانية، ومن ثمَّ اعتنقوا عبادة التوحيد في بيت الإله «يهوه» إله النار، وقد كان عرشه على صورة صندوق وهو تابوت «يهوه»، وكانوا يحملونه معهم أينما ساروا ويسكن بينهم أينما حلوا.

ويُعد استيطان بني إسرائيل في فلسطين وتوسع الآراميين في احتلالهم بلاد سوريا وبلاد النهرين نتيجة متتابعة لهؤلاء الناس، وقد حفظت لنا وثائق تل العمارنة لمحة عند بدايتها «نهرين»، ولا يبعد إذن أن الإسرائيليين كانوا فيما سبق في الوقت نفسه يتكلمون لهجة آرامية أيضًا، وأن اللغة العبرية قد انتقلت إلى الكنعانيين لأنهم كانوا يقيمون معهم.

ومنذ ذلك العهد كان الأجانب الذين على اتصال بالإسرائيليين يطلقون عليهم اسم «عبرين»؛ أي العبرانيين، ومن ثمَّ سُمِّيَت لغتهم العبرية، وهذه التسمية ليست اسمًا لقوم من الناس بل نعتًا لهم، ومعناه: قوم من العبر المقابل لنهر الأردن (وكلمة عبر في العربية معناه شاطئ النهر أو البحر). ومما يدل على أن العبرانيين كان لهم على ما يظهر

---

[٧٨] وتدل البحوث على أنه من الجائز جدًّا أنه كانت تُوجد روابط بين العبرانيين و«خبيري»، وهذه الروابط لغوية وتاريخية. غير أننا مع ما لدينا من معلومات في هذا الصدد لا يمكننا أن نجزم في هذه الصلة بصفة قاطعة، ومن المحتمل أن أحسن مخرج من هذا المأزق أن نؤكد بوجود علاقة بين العبرانيين (خبيرو) والإسرائيليين، وفي الوقت نفسه نميز بينهما بأن كل الإسرائيليين كانوا من العبرانيين (خبيري) ولكن ليس كل العبرانيين إسرائيليين (راجع Selin, “Gesch. Des Israelitisch–Judischen Volkers”, I, p. 16–23.).

في الأصل أهمية واسعة النطاق أن قبائل الألواح «يهوا» التي أنزلت على «موسى» قد أطلقوا كلمة «عابر» الجد الأول لجنسهم على كثير من القبائل العربية، وعلى الجد الأول «سام» (سفر التكوين الإصحاح العاشر سطر٢٣ ... إلخ): (وسام أبو كل بني عابر). وبنو «سام» هم قوم لهم اسم يتسمى به أشراف البدو الذين لهم سلسلة نسب، كما أن «بني إسرائيل» لهم كذلك سلسلة نسب، وذلك خلافًا لسكان المدن الذين ضاعت أنسابهم على الرغم من أنهم من أصل عريق. ومما سبق نجد أن كلمة «عبري» لها علاقة وثيقة بكلمة «خبيري» من جهة النطق ومن جهة المعنى، لا يمكن التغاضي عنها هنا؛ ذلك أن هناك وجه شبه بين كلمة «عبري» وكلمة «خبيري» في النطق، يُضاف إلى ذلك أن الكلمة تدل على عنصر من الناس في آسيا الصغرى الخيتية. ولكنا لا يمكننا أن نتكلم هنا بنفس المعنى المعتاد الذي نطلقه على العبرانيين، فمن الجائز أن هذه التسمية التي كانت في الأصل تُطلق على قبائل البدو الجائلة في فلسطين قد حرَّف القوم اشتقاقها وجعلوها مشتقة من كلمة عبري؛ أي الذين من العبر المقابل لنهر الأردن.

وعلى أية حال فإنه ليس هناك مجال للشك في توحيد كلمة عبرانيين أو إسرائيليين بقوم «خبيري» الذين جاء ذكرهم في خطابات تل العمارنة.[٧٩]

الثورات في عهد أمنحتب الثالث

إن أوَّل تَعَدٍّ قامت به مملكتا «خيتا» و«متني» على الأملاك المصرية كانت باكورة الأخبار التي وصلت إلينا عن زحف خبيري (العبرانيين فيما بعد)، وقد جاءتنا عن طريق خطابات تل العمارنة التي أرسلها أمير «جبيل» «ببلوص» «ريبادي» (رب هداد) إلى الفرعون؛ إذ كانت رسائله التي لا ينقطع معينها مفعمة بالشكوى عما كانت تحدثه عصابات اللصوص من الأضرار الجسيمة؛ مما جعل بلده في مأزق حرج، حتى إن أميرها اضطرَّ في آخر الأمر أن يطلب المعونة من المؤن من دلتا النيل، وقد نوَّه في هذه الخطابات إلى أن الحال إذا استمرت على هذا المنوال فإن كل إمارته قد تصبح على وشك الإفلات من سيطرة

[٧٩] راجع ما كُتب عن «خبيري» و«ساجاز» في خطابات تل العمارنة في كتاب: Mercer, “The Tell el Amarna Tablets”, II, p. 838ff.

الفرعون. وقد كتب للفرعون «أمنحتب الثالث» (الخطاب ٨٥ سطر ٦٩) يقول: «منذ ذلك اليوم الذي غادر فيه والدكم «صيدا» وأظهر فيه عطفه على بلاد «خبيري» لم يعد في استطاعتي أن أحصل على شيء.» وهذه العبارة تدل على ظاهرة وهي أن الاضطرابات في هذه الأصقاع كانت قد شملت كل مدة حكم «أمنحتب الثالث»، ولقد قام مرة «باخامناتا» Pachamnata قائد «سميرا» وحاكمها (ربيص) من قبل الفرعون بتخليص «ببلوص» (جبيل)، ولكن لم يمضِ زمن طويل حتى أصبحت «سميرا» نفسها مهددة،[٨٠] وقد كان المهاجم هنا «عبدي أشرتا»[٨١] أمير بلاد «الأموريين»، ولكنه أرسل خطابًا إلى «باخامناتا» «سيده» يبرر فيه هجومه بقوله إنه في أثناء غيابه هاجم قائد بلدة «شخلال» «سميرا»؛ ولذلك طار بجيشه من «عرقا» (إرقات irqaat) وخلص المدينة والقصر من يد الغاصب، ثم هو يرجوه الآن أن يرسل إليه نجدة من الجنود. وكذلك أوضح للفرعون في خطابه هذا أنه يحافظ على سلطان الفرعون في كل بلاد الأموريين و«أولآزا» Ullasa و«سميرا» (راجع الخطابات ٦٢، ٦٠، ٦٤).

والواقع أن هذا الولاء لم يكن إلا رياء ومداهنة؛ إذ إنه قد صار بجيشه وهو لا يزال يعترف بسلطان الفرعون، واستولى على كل بلاد الساحل، ثم اتضح أنه كان على اتصال وثيق بعصابات المغيرين من «خبيري»، هذا إلى أنه كان يحرض سكان الولايات المصرية بالثورات على الحكم الفرعوني. ولقد كان لهذه التحريضات أثرها الفعال في كثير من الإمارات؛ فقد قُتل أمير «أمبي» وأمير «عرقا» Arqa بسبب هذه الدسائس والفتن، وكذلك أفلت «ريبادي» من أحبولة مؤامرة حِيكت لقتله، غير أنه جُرح جرحًا بليغًا، هذا إلى أن الأحوال قد تحرَّجت في إمارة «ريبادي»؛ إذ انتُزعت منه بلادها الواحدة تلو الأخرى، وانتهى الأمر بضياع (باترون) Batrun الواقعة شمالي «جبيل».[٨٢] ولما رأى الفرعون أن الثورات لا ينقطع حبلها بل تتجدد كل يوم أرسل عامله «أمانابا» (أمنموبي) الذي كان مقيمًا في البلاط وقتئذٍ، وكان قبل ذلك نائبًا للملك على هذه الإمارات، وجهزه بجيش

[٨٠] راجع خطاب ٦٨.

[٨١] راجع كذلك الخطاب رقم ١٣١ سطر ٣٢ … إلخ؛ حيث نجد «ريبادي» يقص علينا أن أمنحتب الثالث أرسل «باخامناتا» بجيش صغير.

[٨٢] وهذه الحقائق نستخلصها من الخطابات ٧١–٩٣.

صغير، وتدل ظواهر الأمور على أنه وصل فعلًا بجيشه إلى «سمييرا»،[83] لكنه لم يعجز عن السيطرة على الموقف وحسب، بل كان مجيئه نكبة على «ببلوص» (جبيل) التي كانت أكبر معقل للسيادة المصرية في هذه الممتلكات (راجع الخطاب رقم ٧٩).

يُضاف إلى ذلك أن «زيمريدا» أمير «صيدا» قد انحاز إلى جانب «عبدي أشرتا»، على أنه لم يعق هذا الخائن أن يرسل للفرعون «أمنحتب الثالث» وإلى عماله خطابات ولاء ويطلب إلى الفرعون المعونة على «الخبيري» ويرجوه إرسال جيش، ومن جهة أخرى نعلم أن أمير «صور» قد قُتل ومعه أخت «ريبادي» وأولادها الذين احتموا في هذه المدينة، ومن ذلك يرى المرء كيف أن الضرورات قد أحرجت مراكز الأمراء في تلك الجهات إلى درجة جعلتهم يعقدون معاهدات مع أي الفريقين المتناهضين على السلطة إبقاءً على حفظ كيانهم، وبقيت «ببلوص» معلقة في يد القدر يحفها الخطر[84] الداهم مدة ثلاث سنوات، وبخاصة أن المؤنة لم تكن تصل إليها من الدلتا إلا ببطء وتراخٍ، وقد شكا «ريبأدي» من هذا الحال مرَّ الشكوى، حتى صرح بأنه سيضطر آخر الأمر إلى تسليم سكان بلاده وكذلك أولاده؛ حتى يمكنه أن يدفع ثمن ما يقتات به، ثم يقول: «إن حقلي قد أصبح كالمرأة التي لا زوج لها؛ لأنه يعوزه الزرع.» وفي نهاية الأمر هدَّد بأنه إذا لم يصله جواب أو يرسل جيش لنجدته في خلال شهرين فإنه سيضطر لعقد مهادنة مع «عبدي أشرتا»، أو أنه يقتل نفسه وأهله، وبذلك يتخلص من الحياة وأعبائها (راجع الخطابين ٨٢، ٨٣).

ولقد كان لهذا الخطاب أثره؛ إذ وصف لنا «ريبأدي» المخرج من المأزق فيما بعد بقوله: «عندما استولى «عبدي أشرتا» على «سمييرا» وكانت المدينة تحميها ثلة صغيرة من الجنود، وفي تلك الأثناء لم يكن معي جنود حامية؛ كتبت آنئذٍ للفرعون سيدي، فأمدني بجيش استولى على «سمييرا».»[85] وكان قائده «ينخام» موضع ثقة الفرعون في الأراضي السورية، والظاهر أن «عبدي أشرتا» انضم إلى القائد، وأصبح في سلم مع مصر مما اضطرَّه إلى إعادة «سمييرا» وقصر حكمه على بلاد «آمور».

---

[83] راجع الخطاب ٨٥، سطر ١٩ … إلخ؛ حيث يطلب «ريبادي» ٤٠٠ رجلًا و٣٠ زوجًا من الخيل كما كان قد أعطى «سوارتا» صاحب «عكه» لمساعدته. (اقرن الخطابات ٨٨، ٤٦؛ ٨، ٢٩؛ ٢٣٢).

[84] راجع الخطابات ٨٥، ٨ … إلخ، و٨٦، ٣٨.

[85] راجع الخطاب رقم ١٣٨ سطر ٢٨ … إلخ.

وفي خلال تلك الاضطرابات أخذت الأمم المجاورة تتدخل في الممتلكات المصرية، وبخاصة مملكة «متني»، وبلاد «خيتا»، غير أن الخطابات التي تشير إلى ذلك كانت مختصرة ولم يُفهم كنهها؛ فقد كتب «ريبادي» بعد أن كان في ضائقة شديدة أن ملك «خيتا» قد تمَّ له النصر (راجع خطاب ٧٥ سطر ٣٦ ... إلخ)، وكذلك كتب للفرعون أمير مجهول الاسم أن ملك «متني» قد خرج عليه بخيله ورَجْله، وكذلك نعرف عن طريق «ريبادي» أن ملك «متني» قد وصل في زحفه حتى «سميرا»، وأنه كان مواصلًا زحفه نحو «جبيل» (ببلوص)، ولم يجبره على النكوص على عقبيه إلا قلة الماء، وفضلًا عن ذلك كان يريد نهب أراضي الآموريين (الخطاب ٥٨).

ولا ننسى أن نذكر هنا أن «دوشرتا» ملك «متني» بعد أن استولى على عرش بلاده، وأبعد قاتل أخيه جدَّد العلاقات الودية التي كانت بين والده وبين «أمنحتب الثالث»، وقد كتب له أن «خيتا» هاجمت بلاده ولكنه انتصر عليهم؛ ولذلك فهو يرسل إليه هدية من الغنائم التي استولى عليها، وتتألف من عربتين بجيادهما وغلام وفتاة،[٨٦] ونلحظ أن ملك «خيتا» «شوبيليوليوما» قد ذكر في مقدمة المعاهدة التي أبرمها فيما بعد مع ابن «دوشرتا» النصر المؤقت الذي أحرزه هذا الأخير. ولقد كان من البدهي أن يستغل «دوشرتا» تدخله في الحرب التي أعلنتها «خيتا» على شمال «سوريا» بحجة أنه حليف مصر، ولكن غرضه الثاني هو توسيع نفوذه بزحفه في الجنوب، ولكن من جهة أخرى قام يعارضه «عبدي أشرتا» وتحالف مع «خيتا».[٨٧]

على أن تدخل الجيش المصري بإمرة «يانخام» لم يأتِ بنتيجة حاسمة في إعادة الأمن إلى نصابه؛ إذ نفهم إجمالًا من خطاب غامض المعنى أن «عبدي أشرتا» قد قتله نفر من الجند، اجتاحوا بلاد الآموريين، وأن حصن جزيرة «إروادا» (إرواد) (التي لا نعلم قط أنها كانت تحت النفوذ المصري) قد تدخلت في هذه المعركة واستولت بسفنها

[٨٦] الخطاب رقم ١٧ سطر ٣٨ ... إلخ، وفي هذا الخطاب نقرأ أنه قد أرسل هدايا لأخته «جيلوخبيا» تشمل عقودًا وأقراطًا وآنية مملوءة بالزيت الطيب، وقد أرسل رسوله «جليا» وآخر معه، ورجا ملك مصر أن يسرع في عودتهما حتى يسمع بتهانيه له بهذا النصر، وأن أواصر المصادقة قائمة بينهما.

[٨٧] ولذلك نجد ملك الآشيا (قبرص) في خطاب أرسله إليه (٣٥، ٤٩) بألا يعقد معاهدة مع ملك «خيتا» ولا ملك «سنجار»: أما من جهتي فإن أية هدايا قد أرسلها لي أخي فقد أرسلت لك ضعفها، وقد أتى إليَّ رسولك في ميعاده، ورسولي سيأتي إليك في ميعاده.

على الأماكن الساحلية،[٨٨] وقد طلب «ريبادي» إلى ملك مصر أن يحجز سفن هذه المدينة (أرواد) في مصر، غير أن طلبه لم يلقَ أذنًا صاغية ورجعت السفن إلى مينائها دون أية معارضة من جانب المصريين، هذا فضلًا عن أن ممتلكات «عبدي أشرتا» قد آلت إلى ابنه «أزيرو» وإخوته، وكذلك كان في مقدورهم أن يعيدوا الاستيلاء على «أولوزا» و«أرداتا» و«أمبيا» و«شيجانا» وغيرها، ثم أخضعوا «عرقا» و«سميرا» (خطاب ١٠٥). وقد كان أمير كل مدينة لا يخضع لرعوية «أزيرو» يُعذب عذابًا أليمًا،[٨٩] وقد أصبح كل الإقليم الواقع بين «ببلوص» حتى «أوجاريت» (رأس الشمرة) موحدًا في عدائه «لأزيرو»، في حين أن «ينخام» الحاكم المصري كان لا يبدي حراكًا أمام ما يرى، وقد كانت كل توسلات «ريبادي» وإنذاراته بالخطر المحدق الذي كان يبديه الحاكم «ينخام» ليحفزه على إرسال طلب نجدة على جناح السرعة من مصر لحماية «جبيل» قد ذهبت أدراج الرياح (خطاب رقم ٩٨)، ولما أعيت «ريبادي» الحيل واستولى اليأس عليه انسحب من المدينة، وقد حاول «ينخام» في خلال تلك المدة أن يأتي بنجدة من «سميرا» ولكن بدون جدوى، وقد كان يحاصر المدينة أولاد «عبدي أشرتا» برًّا وسفن «أرواد» بحرًا؛ حتى أصبحت حبيسة كأنها طائر في قفص.[٩٠]

يُضاف إلى ذلك أن «زيمريدي» أمير «صيدا» تحالف مع أولاد «عبدي أشرتا» و«إرواد» وحاصر معقل جزيرة «صور» وقطع المياه عن المدينة وبعض المؤن، كما قبض على رسول «أبيميلكي» ملكها؛ وبذلك قطع كل مواصلة بين «أزيرو» ومصر.[٩١]

وفي نهاية تلك الحروب التي مكثت مستعرة مدة عام وصل «أزيرو» على رأس إخوته إلى القوة والسلطان اللذين كان يتمتع بهما والده، غير أن الحوادث كانت تجري سراعًا؛ إذ كان «أزيرو» قد أوثق عروة التحالف مع «أيتاكاما» ملك مدينة «قادش» العظيم،

[٨٨] راجع الخطاب ١٠١.

[٨٩] راجع الخطابات ١٢٥، ٣٥؛ ١٣٠، ٣٢.

[٩٠] ولذلك نجد أن «ريبادي» يمطر الفرعون وابلًا من الرسائل (راجع ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٣. وكذلك راجع الخطابات التي تُبودلت بين «يباخ أدي» أو «ينخام» ٩٨، ١٠٢).

[٩١] ولا نزاع في أن خطابات أبيميلكي صاحب «صيدا» (١٤٦، ١٤٧، ١٥١) قد كُتبت في هذا العهد، ولا أدل على ذلك من أنه يقص هنا في الخطاب ١٥١ سطر ٥٩ … إلخ أن «أيتاكاما» صاحب «قادش» وأزيرو قد هاجما «تامياوزا».

الواقعة على نهر «الأرنت» (نهر العاصي) وراء بلاد الأموريين، ومنها سار بجيشه نحو «عمق» وهضبة البقاع الواقعة بين جبلي «لبنان» ثم أرض «أوبي» وسهل «دمشق» ليخضعها جميعًا، وفي إقليم «أوبي» نجد أن «أرزاويا» أمير «روخيزي» و«تواتي» أمير «لابانا» قد تحالفا معه، وكذلك حذا حذوهما «داشا» في «عمق». أما الأمراء الذين بقوا على ولائهم لمصر، فقد حُرقت بلادهم على مرأًى منهم، وقد استجاروا بملك مصر ليرسل إليهم النجدة، فلم يجدوا أذنًا صاغية. هذا فضلًا عن أن أمير «نميا وازا» المجاور لهذه الإمارات قد رأى بعينه بلاده تُخرب وأصبحت في خطر، وأغلقت بلدة «يانوعام» أبوابها في وجهه. وقد انضم ضد صفوف العدو كثير من الأمراء الآخرين مثل أمير «بوصرونا» (يحتمل أنها البصرة في حوران)، وكان يسعى لحماية إقليم «تاخاس» و«دمشق» وقلعة «كوميدي» عند مدخل «البقاع الجنوبي»، ولكن على ما يظهر سقطت «دمشق» في يد «أزيروا» أيضًا.

وقد سهل النصر لكل من «إيتاكاما» و«أزيرو» تحالفهما مع «خيتا»، وقد بدأ «شوبيليوليوما» ملك «خيتا» يوطد بهذا التحالف أولًا قوة بلاده التي كانت قد ضاعت هيبتها في آسيا الصغرى، ثم وجه عزمه وقوته بعد ذلك إلى «دوشرتا» ملك «متني» لينتزع منه ثمرة انتصاراتها في «سوريا» الشمالية، وبعد ذلك أخذ يصطدم مع الثائرين عليه. فبينما كان يخرب «سوريا» الشمالية، كان «أيتاكاما» يسير بجيشه لمقابلته، فقبض على «أكيزي» ملك «قطنا»، وقد حاول عبثًا أن يضمه إلى جانب ملك «خيتا»، وقد وصل ملوك «نوخاشي» و«ني» و«سنزار» و«تونانات» وبلدة «تونب» (بعلبك) إلى نفس الموقف اليائس، ثم طلب بإلحاح النجدة من فرعون مصر «هداد نيراري» أمير «نوخاشي» و«أكيزي» ملك «قطنا»،[٩٢] وأخيرًا طلبت مدينة «تونب» أن ترسل إليها ولي عهدها ابن «أكيتشوب» بعد عشرين عامًا، ولكن بدون جدوى، وفضلًا عن ذلك فإن «أزيرو» كان يتقدم في زحفه كذلك نحو الشمال فاستولى على «ني» و«تونب» بسرعة، وبعد ذلك قدم ملك «نوخاشي»، و«إيتاكاما» ملك «قادش» و«أزيرو» فروض الطاعة لملك «خيتا» «شوبيليوليوما»، وقد كان يحق له الآن أن يفخر بمدِّه سلطانه حتى «لبنان»،[٩٣] وعلى

[٩٢] «قطنا» كانت مكان بلدة «مشرفة» الحالية غربي حمص.

[٩٣] ومعلوماتنا عن هذه الحوادث مستقاة من خطابات «أكيزي» للفرعون أمنحتب الثالث (٥٢–٥٧) وخطاب أمير «تونب» رقم ٥٩، وخطاب «هداد نيراري» أمير نوخشي رقم ٥١، هذا فضلًا عن الخطابات الخاصة بمدن عمق (١٧٤–١٧٦).

الرغم من كل هذا فإنه قد بقي على اتصال ودي مع مصر، وتبادل مع «أمنحتب الثالث» الرسائل والهدايا، وكان يرى أن هجومه على «سوريا» الشمالية أمر طبعي؛ لأنه كان يعدها بدون سيد، ولأنه كان صاحب الحق في الاستيلاء عليها؛ لأن جده قد انتصر على «حلب». وليس لدينا ما يُشعِر أن «دوشرتا» قد حاول مقاومة ملك «خيتا»؛ إذ الواقع أن مركزه وقتئذٍ كان حرجًا؛ لأن عرى الصداقة بين ملك مصر وملك «خيتا» كانت موطدة، ولما طلب إليه «أمنحتب الثالث» التزوُّج من ابنته «تدوخيبا» أرسلها إليه في الحال وزوَّدها بهدايا ثمينة، وقد كان ينتظر بطبيعة الحال أن يهديه الفرعون ذهبًا كثيرًا مما كانت مصر[٩٤] غنية به.

تولي أمنحتب الرابع عرش الملك وانتشار الفوضى في سوريا

انتهى حكم «أمنحتب الثالث» بمفرده في السنة السادسة والثلاثين كما أسلفنا، والظاهر أنه كان عليلًا، ولذلك أرسل إليه «دوشرتا» الإلهة «عشتارت»[٩٥] إلهة «نينوى» وربة الأرض لتشفيه من سقامه، وقد أعلنت بنفسها أنها تريد أن تذهب إلى مصر تلك الأرض

---

[٩٤] راجع الخطابات التي تُبودلت بين «دوشرتا» و«أمنحتب الثالث»، وبخاصة من ١٧–٢٤؛ حيث تجد تفصيلًا شاملًا عن العلاقات بين البلدين في هذه الفترة والهدايا التي تُبودلت بين ملكيهما، وكذلك نجد في الخطاب رقم ٢٥٥ شيئًا خاصًّا بالمبادلات التجارية.

[٩٥] وهاك نص الخطاب (رقم ٢٣):

> إلى نوموريا ملك مصر، أخي وصهري الذي أحبه والذي يحبني، هكذا يتحدث «دوشرتا» ملك «متني» الذي يحبك وصهرك: إن حالتي حسنة، وأرجو أن تكون حالتك حسنة! وكذلك حالة بيتك و«تدوخيبا» ابنتي وزوجك التي تحبها أرجو أن تكون ناعمة البال! وكذلك أرجو أن تكون حالة أزواجك وأبنائك وعظماء رجالك وعرباتك وخيلك وجنودك وبلادك، وكل ممتلكاتك؛ حسنة جدًّا، وإن عشتارت ربة «نينوة» وسيدة الأراضي تقول: إني سأذهب إلى مصر الأرض التي أحبها وسأعود منها. وفي الحق لقد أرسلتها الآن وقد سارت في طريقها، والواقع أنه في عهد والدي ... ذهبت السيدة إلى تلك الأرض، وقد كانت مبجلة طول مكثها هناك؛ ولذلك أرجو يا أخي أن تبجلها عشر مرات أكثر من قبل، وأرجو أخي أن يبجلها ويعيدها في فرح، وإني أرجو أن تعود، وليت «عشتار» إلهة السماء تحمي أخي وتحميني، وليت سيدتنا تمنح كل منا مائة ألف سنة سرورًا عظيمًا، وبذلك سنفعل الخير. إن «عشتار» هي إلهتي. أليست إلهة أخي — السنة الخامسة والثلاثون، الشهر الرابع من الشتاء، كانوا في الجبال الجنوبية ...

التي تحبها. ولما أرسلها ملك «متني» قال: «ليت «عشتارت» ربة السماء تحمي أخي وتحميني وتمنحني وإياه حياة مداها مائة ألف سنة، وتهبني السرور العظيم.» على أن «عشتارت» لم يكن في مقدورها أن تحقق ما وعدت به، وعلى أثر تولي «أمنحتب الرابع» العرش كتب له «شوبيليوليوما» ملك «خيتا» وكذلك «دوشرتا» يطلبان استمرار أواصر الصداقة والمهادنة بينهم، وأن يرسل الهدايا التي وعد بها والده من قبل. وفي الحق كان يرى ملك «متني» أن كيان بلاده يتوقف على بقاء العلاقات الودية بينه وبين مصر. ولذلك أكد للفرعون من جديد اعتماد بلاده على مصر وحبه له؛ إذ قال: «إن «خانيجالبات» (متني) ومصر بلد واحد.» ثم ثَنَّى باستعطاف الملكة «تي» والدة «أمنحتب»، وكانت على علم أكيد بالعلاقات التي كانت بين البلدين، هذا فضلًا عما كان لها من نفوذ على ابنها، غير أن «أمنحتب الرابع» كان على شيء من الشدة[٩٦] مع والدته، على الرغم مما يحفظه لها من احترام؛ إذ نشاهدها في رسم مقبرة «خيروف» في «طيبة» في أوَّل حكم ابنها، وهي واقفة خلفه تتعبد للإله «آتوم» والإلهة «حتحور». ولا شك في أن «إخناتون» حافظ على دوام الود بينه وبين ملك «متني»؛ إذ تزوج من «تدوخيبا» التي كانت زوجًا لوالده أمنحتب الثالث من قبل، ولكنه من جهة أخرى لم يرسل إليه الذهب الوفير الذي كان يأمل فيه؛ فبدلًا من تمثال الذهب المرصع باللازورد الذي وعد به والده من قبل، أرسل تمثالًا من الخشب المذهب[٩٧] وحسب، وقد كان الرسول الذي بعثه ملك «متني» لهذا الغرض مكث زمنًا طويلًا في بلاد الفرعون في انتظار الهدية الموعودة.

على أن الروح الحربي الذي ملأ في أجداد «أمنحتب الرابع» كان قد انطفأ سراجه تمامًا في والده، واتجهت ميوله وأغراضه إلى أمور أخرى، فكان الولد هنا سر أبيه، فلم يعبأ بالشئون الحربية قط؛ ولذلك لم يقم وزنًا للحوادث والثورات التي كانت تنشب

ومن هذا الخطاب نعلم كيف كان الملوك يتراسلون فيما بينهم، كما نعلم أن هذه الإلهة كانت تحمل نفس اللقب الذي كانت تحمله إلهة مصرية، وإن لم يكن هناك فارق حقيقي بين أولئك الآلهة القدامى إلا في الاسم والصورة، أما الألقاب فكانت واحدة، على أن من أهم ما يسترعي النظر في هذا الخطاب وغيره الخضوع الذي كان يظهره الملوك الآخرون عند مخاطبة فرعون مصر.

[٩٦] راجع: J. E. A., Vol. IX, p. 134, Pl. XXII.

[٩٧] راجع خطاب رقم ٢٧، وكذلك راجع الخطاب رقم ٤١، ١٤ … إلخ؛ حيث نقرأ أن رسول ملك متني قد عِيق في البلاط الفرعوني.

أظفارها في «آسيا»، بل ترك الأمور تجري في أَعِنَّتِها كما فعل والده من قبل؛ مما أسفر عن الدمار والخراب في تلك الأصقاع النائية، ولقد كانت شكاوى أمراء «سوريا» وأنَّاتهم تصل إلى آذانه بلا انقطاع، وبخاصة الإنذارات الخطيرة التي كان يبعث بها «ريبأدي» مفسرًا[٩٨] فيها الحالة المضطربة التي كانت تقض مضجعه وتهز كيان بلاده، والظاهر أن الرأي السائد وقتئذٍ عند رجال البلاط الفرعوني أن هذه المشاحات القائمة بين أمراء الولايات المصرية، ليست إلا أمورًا عادية، وأن كل واحد منهم يسعى في الواقع وراء أغراضه الشخصية، وأن مخاصمة بعضهم بعضًا لا ضرر فيها على سلطان مصر، بل على العكس يثبت أقدامها اتباعًا للمذهب القائل: «فرق تسد». على أن الأمراء المتهمين بالخيانة والغدر لمصر لم يعلنوا في صراحة شق عصا الطاعة على الفرعون، بل على العكس كانوا يكتبون له ولموظفيه معربين عن ولائهم راجين ألا يسمع ما يُقال من وِشايات بهم من جانب أعدائهم العصاة. فقد أكد «أيتاكاما» أمير «قادش» أن «نامياوزا»[٩٩] أحد الأمراء قد بدأ القتال وأحرق بلاده، ولذلك كان رده على ذلك أن انتزع منه إقليمي «تاخاش» Tachas و«أوبي» Ubi، وردهما ثانية إلى حماية الفرعون. والواقع أن كلًّا من هذين الأميرين كان يستعين بعصابات البدو لخدمته، فكان الواحد منهما يهاجم خصمه ويغتصب منه أماكن يسلمها «للخبيري»، ثم يقوم الآخر بدوره ويقصيهم عنها ثانية.[١٠٠]

ولقد ظهرت هذه الحالة فيما بعد بين «زمريدا»[١٠١] و«أزيرو»؛ إذ سار الأخير بجيشه نحو «سميرا» لحمايتها، غير أن الأهلين لم يسمحوا له بدخولها،[١٠٢] وطلبوا إلى ملك

---

[٩٨] راجع الخطابات: ١٠٦، ١٣ … إلخ، ١١٧، ٧ … إلخ، ١٢٤، ٣٥ … إلخ.

[٩٩] «نامياوزا» أحد الأمراء، ويحتمل أنه يُنسب إلى أسرة ملوك «متني» (Mercer, “The Tell el Amarna Tablets”, II, p. 577).

[١٠٠] راجع خطاب «أيتاكاما» رقم ١٨٩ وخطاب «نامياوزا» (رقم ١٩٧)، وهو الذي أرسله للفرعون يعرب فيه عن ولائه وإخلاصه؛ إذ يقول: «تأمل! إني أخرج بجندي وعرباتي وإخوتي وقوم «ساجاز» (العبرانيون) التابعين لي، وكذلك قوم «سوتي» (البدو) أمام الرماة إلى أي مكان يأمر سيدي (بالذهاب إليه).»

[١٠١] راجع الخطاب رقم ١٤٤ … إلخ.

[١٠٢] راجع الخطاب ١٥٧ سطر ١١.

«خيتا» يد المساعدة على صدِّ الخطر الذي كان يتهدد بلده، على يد مملكة خيتا، وعلى ذلك برَّر استيلاءه على تونب.[١٠٣]

وفي الحق لم يكن يقصد أي أمير من هؤلاء أن يغير السلطة المصرية ليكون تحت نير دولة أخرى بأية حال من الأحوال، بل كان كل منهم يرغب في الاستفادة من الموقف السياسي ليمد سلطان إمارته على حساب خصمه المجاور له مستعملًا في الوصول إلى ذلك الجنود البدو الذين كانوا في خدمته، هذا على أن يبقى طريق المفاوضات بينه وبين كل من مصر ومملكة «خيتا» مفتوحًا.

على أن مصر لم تصبر على هذه الحال طويلًا؛ إذ تحركت فجأة، وتدخلت في قمع تلك الثورات، ووقف تلك الحالة المحزنة عند حد.

وتدل ظواهر الأمور على أن هذا النشاط قد حدث عند اعتلاء «أمنحتب الرابع» العرش.[١٠٤] وكان القائد «ينخام» الذي في يده القيادة العليا في بلاد آسيا موجودًا وقتئذٍ في البلاط الفرعوني، وكان «ريبادي» يطلب على الدوام بإلحاح إلى الفرعون أن يرسله على رأس جيش لكسر شوكة الثوار. وتدل الوثائق على أن هذا القائد ظل في بادئ الأمر مقيمًا في مصر، ولكنه أرسل على ما يظهر إلى «سوريا» جيشًا بإمرة قائد يُسمَّى «باخور» (بوخورو)، وقد نشر على أثر ذلك أمرًا لكل الأمراء التابعين للحكم المصري بأن يعدوا لهذا الجيش العدة من الجنود والمؤن، والذخائر، فأظهر كل الأمراء صغيرهم وعظيمهم الطاعة،[١٠٥] ولم يستثنِ من ذلك «أيتاكاما»[١٠٦] أمير «قادش» و«أرزاويا» أمير «روخيري»، غير أن هذه الحركة من جانب المصريين لم تأتِ بنتيجة حاسمة، بل على العكس وجدنا أن «سميرا» استسلمت «لأزيرو»، وكذلك قُتل القائد المصري «باوارو» على الرغم من تحذير «ريبادي» أمير «جبيل» له، وكان موته نكبة عليه؛ إذ أصبح في نفس الموقف

[١٠٣] وقد كتب للفرعون الخطابات ١٦٥، ١٦٦؛ ١٦١ من مقره في «تونب» دون أي مبرر، يُضاف إلى ذلك أن الفرعون لم يوجه له أي لوم في الخطاب الذي أرسله إليه (رقم ١٦٢).

[١٠٤] راجع الخطاب ١١٧ سطر ٢٢، عن تاريخ هذا الحادث.

[١٠٥] راجع الخطابين ١٩٣، ١٩٥، الأول من أمير يُدعى «دياتي» والثاني من «ناميوزا».

[١٠٦] إذ يقول «أيتاكاما» في الخطاب رقم ١٨٩ للملك: أخدمك بهذه الحالة ومعي كل إخوتي، وعندما تكون حرب معلنة على الملك سيدي فإني أذهب إليها بعرباتي وكل إخوتي ... إلخ. وفي الخطاب رقم ١٩١ يتحدث إلينا «أرزاويا» ملك «روخيزي» بنفس النغمة أيضًا.

الحرج الذي كان فيه أيام محاربة «عبدي أشرتا» له، يُضاف إلى ذلك أن «أبيميلكي» أمير «صور» لم يتحسس الموقف الذي كان فيه. حقًّا قد صُدت هجمة عن القلعة نفسها قام بها «زيمريدي» أمير «صيدا» بمعاضدة «أزيرو» و«أرواد»، ولكن «زيمردي» استولى على «أوزو» الواقعة في اليابسة؛ وبذلك منع المياه وورود الخشب عن قلعة الجزيرة، فجعل بذلك دفن القتلى مستحيلًا[١٠٧] (في جبيل)، وعلى الرغم من موقف «ريبأدي» الحرج فإنه لم يُعِرْ أذنًا صاغية لإلحاح أسرته عليه في طلب مهادنة «أزيرو» ومحالفته؛ وذلك وثوقًا منه في وصول نجدة مصرية تحل بلدته من عقالها، بيد أن شعبه لما رأى أن لا أمل في النجدة المصرية المزعومة شقوا عليه عصا الطاعة، ولكنه أخمد الفتنة في مهدها بعد أن أراق دماء غزيرة. ولما اشتدت به الحال عما كانت عليه، ولم يجد له أي مخرج، ولَّى وجهه شطر «خامونير» ملك «بيروت»، وطلب النجدة منه، ولكنه لما عاد وجد أن أخاه قد أغلق باب «جبيل» في وجهه، وانضم إلى «أزيرو»، «وقد وقع ما لم يحدث منذ الأبدية إذ أُخرجت آلهتنا من بلدنا.»

وقد أرسل «أزيرو» الطاعن في السن بعد أن رأى أسرته في يد أعدائه الرسالة تلو الرسالة للفرعون يتوسل إليه أن يرسل النجدة، مظهرًا له أهمية «جبيل» ومكانتها بالنسبة لأملاك مصر في «آسيا»، ولما استحوذ عليه القنوط أرسل ابنه إلى البلاط الفرعوني رجاء أن يصل إلى حل، ولكنه مكث أربعة أشهر في العاصمة دون أن يرى وجه الفرعون،[١٠٨] وفي خلال ذلك لم ينفك «ريبأدي» عن طلب المعونة والنجدة من «أبيميلكي» أمير صور، ولقد جاءته البشرى في نهاية الأمر هو و«أمونير» أمير «بيروت» بأن جيشًا مصريًّا في طريقه لنجدته، ومما يُؤسف له أننا لا نعلم شيئًا بعد ذلك عن أمر هذا الجيش.[١٠٩] ولكنا نعلم من رسالة بعث بها الفرعون فيما بعد إلى «أزيرو» أن «ريبأدي» حين يئس من

[١٠٧] وقد كتب «أبيميلكي» للفرعون خطابًا شرح له فيه هذا الموقف وطلب إليه المدد (راجع الخطاب رقم ١٤٩).

[١٠٨] يصف لنا «ريبأدي» في عدة رسائل بعث بها إلى الفرعون (١٣٤–١٣٨) موقفه من عدوه «أزيرو» والحالة اليائسة التي وصل إليها بعد طرده من «جبيل».

[١٠٩] الخطابات من ١٤١–١٣٤ التي تُبودلت بين «أمونير» أمير «بيروت» وبين الفرعون، وكذلك الخطابان ١٥٣ و١٥٤ وقد تُبودلا بين «أبيميلكي» أمير «صور» والفرعون في هذا الصدد.

معونة الفرعون ولَّى وجهه شطر «صيدا»، وقد حاول هناك أن يصل إلى اتفاق مع عدوه حتى يسمح له بالعودة إلى «جبيل» وطنه، ولكن ملك «صيدا» على ما يظهر سلمه لعدوه فقتله.[١١٠]

ولا شك أن هذه الحوادث المحزنة قد امتد أجلها عدة سنوات، غير أننا لا نعرف على وجه التحقيق مقدار تدخل «متني» في هذه الاضطرابات، ولا إلى أي مدى كان تدخل «خيتا». ولكن مما جاء في أخبار «شوبيليوليوما» ملك «خيتا» نعلم أن «دوشرتا» ملك «متني» قد نقض ميثاق السلام بينهما بإرساله حملة إلى «سوريا» الشمالية، وكان أهل «خيتا» يدعون حق التسلط عليها، وقد كان من نتائج هذه الحرب أن طرد «ساروبايا» ملك «نوخاشي» من بلاده، فلم يرضَ عن هذا العمل على ما يظهر، وأرسل بعض الجنود لمحاربته،[١١١] وخلافًا لذلك لم نسمع بأي تدخل من جانبه. وفي خلال السنين التالية لذلك نعرف أن طائفة كبيرة من الملوك العاديين كانوا يحكمون في تلك البقاع، وكانوا على صفاء وود مع السفراء المصريين أيضًا، فنرى من بينهم «إيتاكاما» ملك «قادش»، وكذلك «أزيرو» ملك الآموريين قد عادا إلى الاعتراف بسلطان مصر[١١٢] أما عن تدخل «متني» في هذا الوقت، فلم نجد له ذكرًا في خطابات «تل العمارنة». وعلى أية حال فلا بد من الاعتراف هنا بأن رابطة الصداقة التي كانت بين مصر «ودوشرتا» ملك «متني» قد أثرت تأثيرًا فعالًا في سير الحوادث بالنسبة لمصر في تلك الفترة المليئة بالحوادث الجسام.

الحالة في فلسطين

لم تكن الحالة في فلسطين تدعو قط إلى الارتياح والطمأنينة، بل كان الاضطراب ضاربًا أطنابه في نواحيها، كما كانت الحالة في إقليم نهر «الأرنت» وفي بلاد «فينقيا» تدعو

[١١٠] والخطاب الذي أرسله الفرعون إلى «أزيرو» (رقم ١٦٢) أظهر فيه تألمه وعدم رضاه عن خيانته وأثرته، ثم يعده فيه بالمساعدة إذا هو أصبح مواليًا مخلصًا للفرعون، أما إذا جنح إلى الخيانة والتمرد واستمر على ما هو عليه من التقلب والنفاق فإن الموت يكون مآله.

[١١١] راجع: Meyer, “Gesch”. II, 1. p. 362, note 1.

[١١٢] فمثلًا نجد أن «أزيرو» قد كتب إلى الفرعون خطابًا (رقم ١٦٠) يعد فيه بأنه سيقوم بتحقيق كل رغبات الفرعون، وأنه قد عِيق في بناء «سميرا»، وسيقوم ببنائها في سنة واحدة، وقد رجا الفرعون ألا يصغي إلى ذم أعدائه فيه. راجع كذلك في هذا الموضوع الخطابين ١٦١ سطر ٣٦؛ ١٦٩.

كذلك إلى القلق لانتشار الثورات فيها؛ ومن أجل ذلك كانت الشكاوى تنهال على الفرعون مفعمة بالأنين من عسف بعض الأمراء، وقيام الثورات في بعض الأماكن، هذا فضلًا عن زحف قبائل «خبيري» في الولايات، ونهبهم بلادهم، وسلب متاعهم، وقد كان الخطر منهم على الممتلكات المصرية عظيمًا، ولذلك كان طلبهم المعونة من الفرعون لوقاية المدن لا ينفك عن الإلحاح في إرسال حملة وإمداد المدن بحاميات تتقي بها شر المغيرين، يُضاف إلى ذلك أن الشئون الخارجية الخاصة بإرسال الجزية وبخاصة العبيد والقيان، وبحماية القوافل التي كانت تسافر إلى «خانيجالبات» (بلاد متني) وإلى بلاد «بابل»؛ كان لا بد لتأمين طرقها والمحافظة على سلامتها، وتأمين حياة الموظفين القائمين على حراستها من قوة حربية لصد غارات اللصوص وقطاع الطرق. ولا أدل على سوء الحال من هذه الناحية من الشكوى التي أرسلها «بورنابورياش» ملك «بابل» إلى «أمنحتب الرابع» يذكر فيها ما حاق بقافلتين من قوافل التجارة والسلب والنهب على أيدي أمراء المدن غير ما أنزله أمير «ساتاتنا» أمير «عكا» وأحد الأمراء المجاورين له في مكان يُدعى «خيناتون» في إقليم «الجليلي» وتجار بلاد «بابل» من النهب والسلب والتقتيل.[١١٣]

وليس ثمة شك في أن هؤلاء الأمراء أنفسهم كانوا يبعثون الرسائل المفعمة بالولاء والطاعة لسيدهم الفرعون. أما في شمالي «فلسطين» حيث كان «نامياوزا» يمثل مصالح الفرعون[١١٤] كان مرجل البلاد يغلي، والثورات تكشر عن أنيابها في كل مكان، فقد حاول أمير «خاسور» وهي معقل جبلي أن يتحد مع قبائل «خبيري» ليمد رقعة إقليمه، ونذكر هنا من بين الأماكن المأهولة التي استولى عليها ثلاثة بلدان من إقليم «إياب»، وكان حاكمها يسيطر على بلدة «بلا» Pella الواقعة على مسافة بعيدة في الجنوب على الضفة

---

[١١٣] راجع الخطاب رقم ٧ سطر ٧٣ … إلخ؛ إذ يقول: «أما من جهة «سالمو» رسولي الذي أرسلته إليك فإن قافلته قد نُهبت مرتين، فنُهب قافلة «برياماز»، والقافلة الأخرى (نهبها) «باماخو» حاكم بلادك التابعة، فالمرجو من أخي أن يفصل في هذا الشجار أو عندما يأتي رسولي إلى حضرة أخي فليأمر بإحضار «سالمو» أمام أخي، واجعلهم يردُّون إليه فديته ويعملون على ردِّ ما خسره.»

[١١٤] ففي الخطاب رقم ١٢٩ سطر ٨٢ والخطاب ٢٥٠ سطر ٢٤ … إلخ، نجد أن الأوَّل من «ريبأدي» للملك والثاني من «أدر أورساج» للملك أيضًا. ومما جاء في الخطابين نفهم أنه هو الذي كان يقوم على مصالح الفرعون في هذه الأصقاع.

الأخرى لنهر الأردن، ويظهر أنه استولى[115] على «إياب» ذاتها بنفس الطريقة، أما «لابايا» في الجهة الجنوبية فكان أشد وطأة وأعظم خطرًا؛ إذ أخذ يزحف بجيشه يعاضده «ميلكيل» و«تاجي» وهو والد زوجة الأخير فاستولى على ولايات «سهل يزرعيل» الواحدة تلو الأخرى مثل «شونم» Sunem و«بورقانا» Burquna و«جتريمون» Gitrimmon وغيرها. أما «شكيم» Sickim وإقليمها فقد أُعطي لقبائل «خبيرو»، وكذلك حاصر الأمير «بيريديا»، وفي الجنوب استولى على «غزة» الواقعة في سهل الشاطئ.[116]

ولما تفاقم الأمر إلى هذا الحد همَّ الفرعون بالتدخل في الأمر بجد ليضع الأمور في نصابها. ويُرجح أن هذا التدخل من جانب الفرعون كان في السنة الحادية عشرة من حكم «أمنحتب الرابع»، وكان القائد المصري في هذه الأصقاع آنئذٍ هو «يانخام»، أما في «سوريا» فقد أرسل الفرعون «حاني»[117] بن «مري رع»، وكان يحمل لقب «ابن الملك» (نائب الملك) في أرض «كنعان»، وأمره بأن يأتي برءوس أعداء الفرعون. وعلى إثر وصوله لم يُبْدِ أي أمير مقاومة ما أو عنادًا بعد إعلان أوامر سيده التي كانت تشد من أزرها جيوشه،[118] بل لقد كان كل أمير يتسابق لإظهار سروره، وتقديم فروض الطاعة، ويعلن انضمامه للفرعون، ولم يستثنِ من ذلك ملك «خاسور» ولا الأمراء «لابايا» و«تاجي»

[115] إذ في الخطاب رقم ١٤٨ سطر ٤١ … إلخ، نقرأ أن ملك «خازورا» قد ترك بلده واتحد مع قوم «ساجاز»، وليعرف الملك أنهم معادون للمشاة، وأن بلاد الفرعون قد أصبحت في قبضة قوم «ساجاز» (العبرانيون) … إلخ.

[116] ففي الخطاب رقم ٢٣٧ نجد أن كتابه للفرعون «بيادي» Bajadi يشكو أن مدن الفرعون قد اغتُصبت ومغتصبها هو «لابايا»، وفي الخطاب رقم ٢٤٤ يكتب «بيريديا» أمير «مجدو» إلى الفرعون طالبًا النجدة ليخلص «مجدو» من عدوان «لابايا». وفي الخطاب ٢٤٩ نشاهد أن «أدو-أورساج» يكتب للفرعون يشكو من «ميلكيل» «وتاجي» وتحريضهما السكان على العصيان، أما الخطاب ٢٥٠ فقد كتبه كذلك «أدو-أورساج» للفرعون، وفيه يقول: «إن ابني «لابايا» قد عزما على تخريب أرض الفرعون، وأن «ميلكيل» مشترك معهما ويطلب المعونة من الفرعون ويظهر ولاءه له.» (راجع كذلك ٢٨٩، سطر ٢٢ و٢٥٣، ٢٥٤).

[117] راجع الخطاب رقم ٣٠١؛ حيث يقول «شوباندو» في خطابه للفرعون: «إن الملك سيدي الشمس في السماء قد أرسل «خاني» إليَّ، وتأمل! لقد أصغيت إلى كلمة الملك سيدي بانتباه، وتأمل! لقد قدمت ٥٠٠ ثور و٢٠ جارية.» … إلخ.

[118] وقد ظهر من بين أسماء القُوَّاد الذين أُرسلوا في هذه الفترة «مايا» (راجع الخطابات ٢١٦–٢١٨؛ ٢٩٢، سطر ٣٣؛ ٣٠٠ سطر ٢٦).

و«ميلكيل»؛ فقد أتوا إليه طائعين، وقَبِل الفرعون خضوع «ميلكيل» و«تاجي»، أما «لابايا» فلم يغفر له خطيئته، ولم يقبل له شفاعة على الرغم من تضرعاته وتوسلاته للفرعون وأخذه المواثيق على نفسه أن يكون عبدًا خاضعًا لسيده، وأنه مستعد لتقديم زوجه أو طعن نفسه[١١٩] بخنجر إن أمره الفرعون بذلك، غير أن كل هذه التضحيات لم تحرِّك نفس الفرعون، بل ظلَّ حانقًا عليه يتوق فؤاده أن يُساق إليه هذا الغادر إلى مصر، وقد وكل هذه المهمة إلى أمير «عكا»، غير أن الرشوة لعبت دورها فأخلى سبيله خلسة وولى الأدبار، ولكنه اغتِيل في أثناء هربه، وكذلك هرب «إياب» أمير «بلا»[١٢٠] من قائد الملك. هذا واستولى «بيريديا» أمير «مجدو» على إقليم «سونم»، وكان مشتركًا في مطاردة «لابايا» بغيرة وحمية، وكذلك استولى على مدن أمراء آخرين، وهؤلاء كانوا يفخرون بأنهم كانوا يستعبدون فلاحي البلاد المجاورة في أعمال السخرة.[١٢١]

وقد عادت الحملة المصرية التي أحرزت هذه الانتصارات لمصر في يناير من السنة الثانية عشرة[١٢٢] من حكم «أمنحتب الرابع»، وأحضر قائدها معه الأسرى من الساميين، وليس بينهم أسير واحد من «خيتا»، وكذلك جاء في ركابه سفراء من «سوريا» يحملون الجزية التي قدَّموها إلى الفرعون، وتدل الرسوم التي عُثر عليها في تل العمارنة على أن الغنائم لم تكن عظيمة بالنسبة لغنائم الملوك السابقين، هذا فضلًا عن أن هذه الحملة التأديبية لم يدم أثرها زمنًا طويلًا؛ إذ ما كادت تنتهي حتى أخذ البريد يمطر الفرعون وابلًا من الشكاوى أكثر من ذي قبل، فكان ولدا «لابايا» يتميزان غيظًا لقتل والدهما ويتحفزان للأخذ له بالثأر، ومن أجل ذلك أخذا يحرضان القبائل التي كانت تدين لوالدهما بالطاعة، وساعدهما في ذلك «ميليكل» و«تاجي» على الرغم مما كانا يبعثان به للفرعون من الرسائل معربين فيها عن ولائهما وخضوعهما[١٢٣] له، وذلك في حين كانت قبائل «خبيري» يتوغلون في البلاد بقضهم وقضيضهم ناهبين الأماكن المأهولة، وفارضين الضرائب الفادحة على مدن الساحل أمثال «غزة» و«إيالون» و«صرعا» و«لاكش» وحتى

---

[١١٩] راجع الخطابات رقم ٢٤٥، ٢٥٠، سطر ٢٧؛ ٢٨٠ سطر ٣٠، وكذلك ٢٥٢–٢٥٤.

[١٢٠] راجع الخطاب رقم ٢٥٦.

[١٢١] راجع: “Revue d’Assyriologie”, XIX, p. 97.

[١٢٢] راجع: Meyer, “Gesch” II, 1. p. 339.

[١٢٣] راجع الخطابات ٢٥٥ … إلخ؛ ٢٥٠ سطر ٣٢؛ ٢٨٧ سطر ٢٩؛ ٢٨٩ سطر ٥ … إلخ و٢٥.

«عسقلان»[١٢٤] لم تفلت من أيديهم ففرضوا عليها الجزية، وكان الحاكم المصري في هذه البقاع عاجزًا عن تقديم مساعدة تُذكر، حتى إنه اضطر أن يسحب جنود بعض المعاقل لحماية «غزة»[١٢٥] الواقعة عند الحدود المصرية.

وهكذا ترك المدن وولاتها يدافعون عن كيانهم؛ ففي «أورشليم» جاهد «عبدي خيبا» أن يصد هجوم قبائل «الخبيري» و«ميلكيل» وأولاد «لابايا» على الإقليم الساحلي التابع «لشواردانا» أمير «كلنا» «قعلا» غرب «أورشليم»، وكان يؤازره في ذلك «سوراتا» أمير «عكا» و«أنداروتا» أمير «أكشاب»، وقد سار المتحالفون[١٢٦] في بادئ الأمر بروح الوئام، ولكن عندما ثارت بلدة «قعلا» على أميرها أسرع «عبدي خيبا» ومعه «شوارداتا» ليخلص المدينة من الوقوع في يد «ميلكيل»،[١٢٧] غير أنه سرعان ما دبَّ بينهما دبيب الطمع والأثرة، وبدأ كل منهما يعمل لحسابه، فلما تمكن «شوارداتا» من الاستيلاء على المدينة أراد أن يستخلصها لنفسه على كره من «عبدي خيبا»؛ ولذلك أعلن الأخير أنه «لابايا» ثانٍ انضم في الحال إلى «ميلكيل»، ولكن النصر حالف «شوارداتا»؛ إذ أخذت المدن تخضع لسلطانه الواحدة تلو الأخرى، حتى بلغ ما استولى عليه ثلاثين مكانًا، وكان «ميلكيل» في الوقت نفسه يحرض قبائل «خبيري» عليه مما اضطرَّه إلى طلب النجدة من الفرعون، وانتهى الأمر أن ساءت حالة «عبدي خيبا»[١٢٨] فأصبح محصورًا في «أورشليم»، ولذلك كتب إلى الفرعون يرجوه إذا لم يكن في استطاعته إرسال جيش لإنقاذه أن يرسل في طلبه هو وأسرته حتى يموت بجوار سيده الفرعون.[١٢٩]

وقد عملت يد القتل في الأمراء[١٣٠] بدرجة عظيمة؛ حتى صارت مدن الولايات الفرعونية لا ولاة لها. يُضاف إلى هذا أن إقليم الجنوب الأقصى من فلسطين قد اكتظ

---

[١٢٤] راجع الخطابات ٢٨٧ سطر ١٤ … إلخ؛ ٢٧٣، سطر ٢٠، (أما عن حالة «غزة» المحزنة) راجع كذلك ٢٩٢ سطر ٤٢ … إلخ. (أقرن كذلك ٢٩٤، سطر ١٦ … إلخ)؛ ٢٩٧، سطر ١٦؛ ٢٩٨ سطر ٢٠ … إلخ، ٢٩٩ سطر ١٤.

[١٢٥] راجع الخطابات رقم ٢٨٧ سطر٤٥ … إلخ، ٢٨٩ سطر ٣٠ … إلخ. اقرن كذلك ٢٨٦ سطر ٢٥.

[١٢٦] راجع: "Revue d'Assyriologie", XIX, p. 98.

[١٢٧] راجع ٢٨٠، ٢٨٩ سطر ٢٥ … إلخ؛ ٢٩٩ سطر ١٠.

[١٢٨] راجع الخطابات ٢٧١ سطر ٩، و٢٨١–٢٨٣.

[١٢٩] راجع الخطاب ٢٨٨ سطر ٥٧ … إلخ.

[١٣٠] راجع الخطابات ٢٨٨ سطر ٤٠ … إلخ (= ٣٣٥).

بقبائل «خبيري»[١٣١] وأصبحت كل مدن الداخل معادية للحكم المصري؛ أمثال «أودومو» (دوما) (راجع يوشع ١٥ سطر ٥٢)، و«أرارو»، و«خنيانابي» (يوشع ١١، ٢١ و١٥، ٥٠) «مجدالم» وغيرها؛ وبذلك أصبحت كل المدن التي على منحدرات جبال يهودا جنوبي «حبرون» معادية لمصر،[١٣٢] ولذلك كان «عبدي خيبا» يكرر في رسائله للفرعون قوله: «إذا توانى الفرعون في إرسال نجدة فإن كل ممتلكاته ستقع فريسة في يد قبائل خبيري.»[١٣٣]

وقد كانت نتيجة هذا التهديد المتكرر أن أرسل الفرعون القائد «ينخام»[١٣٤] الذي كان يثق به القوم إلى فلسطين. غير أنه عجز عن القيام بعمل حاسم في هذا الجوِّ المضطرب. هذا فضلًا عن أنه في السنين الختامية لحكم «إخناتون» كانت السيادة المصرية قد تفككت عراها وانحلت أواصرها في خارج البلاد وداخلها.

سيطرة «خيتا» على سوريا

سقوط دولة «متني» وظهور الآشوريين: بعد أن تدخل الجيش المصري في قمع الثورات في فلسطين أرسل الفرعون القائد «خاني» إلى الأقاليم الشمالية لإعادة النظام والأمن فيها بعد أن اختل ميزانها. وفي الحق كان القائمون بالأمور في هذه البقاع أصحاب حزم وعزم،[١٣٥] يقبضون على مقاليد الأمور بيد قوية أكثر من أولئك الذين كانوا في فلسطين؛ ولذلك لم تكن مهمة «خاني» شن حرب، بل كان عمله ينفذ بالطرق السلمية، ومن أجل هذا لم يكن في هذه الجهات إلا قوة صغيرة من الجند، وكان أكبر مشاغب هناك «أزيرو» أمير بلاد «آمور»، وإن لم تصلنا معلومات وثيقة عن سلوكه وتصرفاته في هذه الآونة بعينها، ولكنا نجد أن الفرعون أرسل إليه أمره بإعادة بناء «سميرا»، وكان عليه كذلك

[١٣١] راجع الخطابات: ٣٠٥ سطر ٢٠، ٣٠٧، ٣١٣، ٣١٨. وقد ذكر مع الخبيري كذلك قبايل البدو (سوتي) (٢٩٧ سطر ١٦ و٣١٨ سطر ١٣).

[١٣٢] راجع ٢٥٦ سطر ٢٢ … إلخ، ولم يكن محميًّا إلا قلعتي «غزة» و«يافا» (راجع ٢٩٦ سطر ٣٢، اقرن كذلك ٢٩٤ سطر ٢٠).

[١٣٣] راجع ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٦، سطر ٤٩ … إلخ، ٢٨٧ سطر ٢٠ … إلخ.

[١٣٤] راجع الخطاب ٢٧٠، سطر ١١؛ حيث نجد «ينخام» يطلب من «ميلكيلي» ٢٠٠٠ شكلًا من الفضة، وكذلك طلب إليه أن يعطيه زوجه وأولاده أو يقتله.

[١٣٥] كان القائد هناك يُدعى «خاي» وكان «أوزيرو» يخاطبه بلفظة أخي (راجع ١٦٦، ١٦٧).

أن يقدِّم نفسه في الحال للبلاط الفرعوني ليبرر موقفه المشين في الحوادث الأخيرة. ولما أحس «أزيرو» حضور رسول الفرعون ذهب في الحال إلى «تونب» وآوى إليها حذرًا من مقابلته. وقد مكث «خاني» مدة طويلة في انتظار «أزيرو»، ولما سئم الانتظار عاد إلى مصر. ولا نعرف إلى أي مدى تدخل في الأمور هناك. ومن المدهش أن «أزيرو» لم يرد أن يحفل برسول الفرعون كما حفل بمبعوث ملك «خيتا»، ولكنه مع ذلك قدَّم اعتذاره للفرعون عن عمله هذا بحجة أنه لم يكن يعلم بوصول «خاني» رسول الفرعون إلا متأخرًا، وأنه لم يستطع الوصول لمقابلته قبل مغادرته بلاده، ومع ذلك فقد احتفل به أخوه وأكرم وفادته وأغدق له العطايا والهدايا الثمينة، ثم أخذ على نفسه بأنه سيراعي ذلك في المستقبل.

أما عن إعادة بناء «سميرا» المخربة فقد طلب إرجاء ذلك، إذ كان مضطرًّا؛ لأن ملك «نوخاشي» قد شن عليه حربًا عوانًا ولا بد له من الدفاع عن كيانه. وأما عن استيلائه على ببلوص (جبيل) فقد أوضح للفرعون في خطاب آخر أن ذلك لا يضر الفرعون في شيء، وليس فيه خسارة تلحق بالسيادة المصرية؛ إذ يقول: «إني خادمك مثل كل الأمراء الذين كانوا قبلي في المدينة (يقصد ريبادي)، وإني على استعداد أن أقدم للفرعون ما كان يقدمه هذا (أي ريبادي).» ولقد كانت الأحوال تضطر «أزيرو» ألا يعلن العصيان وقتئذٍ في وجه الفرعون؛ إذ كان في حاجة ماسة لمساعدة الجيش المصري إذا ما هاجمه ملك «خيتا» الذي كان يظهر له الغدر، وقدم «أزيرو» الأمر الذي أصدره ملك «نوخاشي» إلى وكيله «خاتب» ليفصل فيه. وفيه يأمره ملك «نوخاشي» أنه إذا لم ينضم إليه فإن بلاده ستُنتزع منه، ويغتصب منه معظم كنوزه المعدنية وتبقى في حيازته.[١٣٦] وقد رجا «أزيرو» «خاني» أن يزوره مرة ثانية، وحينذاك سيكون على استعداد لتسليمه كل أعداء الملك.

أما الفرعون «إخناتون» فقد أجاب على خطاب «أزيرو» برسالة حُفظت لنا في وثائق «تل العمارنة»، وهي الرسالة الوحيدة التي يمكن للمؤرخ أن يرى بين سطورها بصيصًا ضئيلًا عن أخلاق هذا الفرعون، وقد بسط فيها سلوك «أزيرو» المشين ضد «ريبادي»، فقد تحالف مع «أيتاكاما» أمير «قادش» (كنزا) الذي كان يحقد عليه الفرعون ويبغضه. هذا إلى أن اعتذاراته التي بعث بها إليه محض كذب وافتراء، وكل ما قاله بعيد عن

---

[١٣٦] راجع الخطابات ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢ سطر ٧ … إلخ.

الحقيقة كل البعد، وكذلك حذره بأنه إذا أصر على عناده فإنه سيقضي عليه وعلى جنسه بحد السيف، أما إذا رجع عن غَيِّه فإنه سيكتب له الحياة، ثم قال إنك تعلم أن الملك لما أظهر حيال كل بلاد كنعان الحقد والبغضاء قسا في معاملتها قسوة شديدة، وعلى ذلك يجب عليك أن تحضر في الحال إلى البلاط أو ترسل ابنك، وحينئذٍ ستشاهد الملك الذي تعيش كل الأراضي بنظرة منه. هذا إلى أن الملك قد أرسل مع «خاني» قائمة بأسماء المنشقين الذين يجب عليه أن يأتي بهم مكبلين في السلاسل والأغلال، ولم يسع «أزيرو» إلا الخضوع لكل طلبات الفرعون، وفي خلال تلك الفترة كان موقف «أزيرو» قد تحرج أكثر مما كان عليه من قبل؛ لأن «شوبيلوليوما» كان قد توغل بجيشه في «نوخاشي»، ولكن على الرغم من ذلك فإنه حزم رأيه على الذهاب إلى مصر مع «خاتب»؛ ثقةً منه بالضمانات التي فاه بها الفرعون، وسيده ووالده «دودو» الذي كان سنده العظيم بين رجال البلاط،[١٣٧] وقد انهال ملك «نوخاشي» باللوم على ابن «أزيرو» قائلًا إنه قد باع والده بالذهب في مصر، وإنه لن يعود قط، وإن البدو (سوتي) قد انقضوا على بلاده، وإنه قد أصبح آلة[١٣٨] في يد مصر، غير أن هذه المخاوف لم يتحقق منها شيء؛ إذ استُقبل «أزيرو» في مصر استقبالًا حسنًا، وعاد إلى بلاد الآمورين معافًى صحيحًا وهو ممتلئ أملًا بقدرته على صدِّ زحف «خيتا» عن بلاده.

وقد كانت المصائب والويلات تحيق ببلاد «متني» وتزلزل كيان عرشها. والواقع أنه منذ زمن بعيد كان سقوط دولة «متني» على يد أمراء آشور يلوح في الجو حتى أصبح أمرًا منتظرًا، فمنذ عام ١٣٩٠ق.م؛ أي في نفس الوقت الذي اعتلى فيه «دوشرتا» العرش جدَّد «أشور ناديناشي» ملك «آشور» علاقته الودية بمصر، فأهداه «أمنحتب الثالث» ثلاثين «تالنت» من الذهب (التالنت يُقدر بـ ٢١٣–٢٥٣ جنيهًا)، وكذلك أعطى مثلها ملك «متني». وقد كتب خلفه الثاني وهو «أشورو بالليت»[١٣٩] إلى «إخناتون» يطلب إليه بطبيعة الحال مقدارًا عظيمًا من الذهب، وقد خاطبه على قدم المساواة بلفظة «أخ»، ولكن ملك «كردونياش» (عاهل بابل) لم يَرُقْ في نظره أن يخاطبه أحد الأمراء التابعين

[١٣٧] راجع الخطابات التي أرسلها «أزيرو» إلى «دودو» (١٦٤، ١٦٥) وكذلك التي أرسلها «أزيرو» إلى «خاي» (١٦٦، ١٦٧)، وإلى الملك (١٦٨).

[١٣٨] راجع الخطاب ١٦٩.

[١٣٩] راجع الخطابين ١٥ و١٦.

له كأنه نِدَّه؛ ولذلك كتب «بورنابورياش» (١٣٩٠ق.م) إلى «أمنحتب الرابع» منوِّهًا له بالمسلك الودي الذي اتخذه والده «كوريجالزو» حياله عندما طلب الكنعانيون يد المساعد لمناهضة المصريين، ثم استمر قائلًا: «إن هذا الآشوري من رعيتي لم أرسله إليك فلماذا ذهب إليك وإلى أرضك من تلقاء نفسه؟ فإذا كنت تحرص على مودتي فلا تتعامل قط معه بل دعه يَعُدْ فارغ الأيدي.»[١٤٠] ولم يكن ملك «بابل» في حالة تمكنه من مهاجمة الآشوريين في تلك الفترة، ولكن على أثر زواجه[١٤١] هو أو زواج أخيه من إحدى بنات «آشورو بالليت» — وقد كان لهذا الزواج أثره فيما بعد في الفصل في مصير دولة «بابل» — قد سنحت له الفرصة عندئذٍ لمهاجمة بلاد «متني».

انتهز «شوبيليوليوما» مهاجمة[١٤٢] «دوشرتا» لبلاد «نوخاشي»، وانقضَّ على الأراضي الجبلية الواقعة على ضفتي نهر الفرات في شمال «متني»، وليس لدينا معلومات صريحة عن نتائج هذه الحرب، ولكن هذه التقارير التي كان يضعها ملك «خيتا» عن حروبه وجدناها في مقدمة المعاهدات التي كان يبرمها بينه وبين بلاد «متني» و«نوخاشي» و«كزوتنا»، وكانت كلها مكتوبة بصورة واحدة، وكانت طريقة إنشائها مشوهة، وقد كتبها هو أو مستشاره باللغة الأكادية، والظاهر أنه كان لا يجيدها، وقد كان يكتب في كل مرة جزءًا من الحوادث، أما الجزء الآخر فكان لا يُذكر قط أو يذكر باختصار. ولكن على الرغم من ذلك أمكننا أن نصل إلى صورة عامة عن سير الحروب؛ بربط الحوادث المنفردة بعضها ببعض.

ولقد كان أول ما اهتم به «شوبيليوليوما» انهماكه في تثبيت سلطان «خيتا» في شرقي «آسيا» الصغرى، وفي الأراضي الجبلية الواقعة على نهر «الفرات» وفي «أسوا» وفي المقاطعات التي ضمها لملكه ثانية. وهذا يفسر لنا السبب الذي من أجله لم يكن لهجومه في «سوريا» الشمالية أثر باقٍ، فتوغل في «إسوا»، وطرد العناصر الأجنبية من بلاده، وضم إلى جانبه «سونا سورا» ملك «كزواتنا». وقد ذكر لنا هذا الملك الأخير أنه قد أصبح سعيدًا؛ إذ لم يعد بعد الآن خادم «متني»، بل صار ملكًا حرًّا طليقًا، ويُلاحظ أن المعاهدة تحتوي على مواد شديدة بالنسبة لأهل «متني»، وربطت بلاد «كزواتنا» وحاكمها بروابط وثيقة

[١٤٠] راجع الخطاب رقم ٩.

[١٤١] راجع: Meyer, “Gesch”. II, 1, p. 154, note 3.

[١٤٢] راجع: Ibid, p. 370. Note 4.

ثابتة مع مملكة «خيتا»، ونجد مظاهر هذه الروابط الدائمة بين البلدين في المعاهدات التي كانت تُبرم بين «خيتا» وأية أمة أخرى، فقد كان يذكر دائمًا في ذيل المعاهدة أسماء آلهة «خيتا» وآلهة «كزواتنا» جنبًا لجنب بوصفهم شهودًا.

أما في بلاد «متني» نفسها فقد أبرم «شوبيليوليوما» معاهدة مع المطالب بعرش هذه البلاد، ويُدعى «أرتاتاما» اعترف فيها بأنه ملك بلاد «متني» الشرعي، وقام في نفس الوقت «أشورو بالليت» ملك «آشور» بهجوم على «متني». هذا إلى أن «شوبيليوليوما» بعد أن هزم «إسوا» هزيمة منكرة في حملة ثانية أصبح ما تبقى أمامه في ميدان القتال لعبة سهلة، وقد انضم إليه أمير «ألسي» Alzi الذي كان يسيطر على أعالي نهر دجلة، وبذلك صار من السهل عليه الاستيلاء على «واسو-جاني» عاصمة مملكة «متني» ونهب كنوزها، ولم يكن في مقدور «دوشرتا» وقتئذٍ أن يدافع عن بلاده بأية حالٍ من الأحوال.

بعد ذلك وَلَّى ملك «خيتا» وجهه شطر نهر الفرات متجهًا نحو الجنوب فاستولى على «حلب» وكذلك «تاكوا» Takuwa ملك «ني» Ni، وقد حاول أخوه «أكيتشوب» Akitesub الذي كان يرأس جنود «المارياني» أن يقاوم ملك «خيتا» بمناصرة «أكيا» Akià أمير «أراختي (إرَّخ)»، وساق الثوار أسرى في الأغلال، وكذلك ساءت الحال في «قطنا»؛ فقد تحققت المخاوف التي كان يعلنها على الملأ أميرها منذ سنين مضت. بعد ذلك سار «شوبيليوليوما» بجيشه نحو «نوخاشي»، واستولى على أسرة ملكها «ساروبسا» Sarrupsa وأخذهم أسرى،[١٤٣] وكان قد وعد فيما مضى أن يحمي هذا الملك، والظاهر أنه قد قتله تخلصًا منه، وولَّى مكانه «تيتا» ملكًا على «نوخاشي» وكانت هذه الحوادث تجري في الوقت الذي كان قد أرسل فيه «أزيرو» من «تونب» إلى الفرعون يطلب إليه العون، ثم ذهب بنفسه إلى البلاط كما ذكرنا آنفًا.

ولقد كان مَثَل المصريين في عدم القيام بأية مقاومة في هذه الحروب كمثل «دوشرتا» «ملك متني»؛ إذ إن الحاميات المصرية التي بقيت في يد المصريين في بعض الأماكن مثل «تونب» كانت ضعيفة خائرة القوى، ولذلك نُزعت منه من غير مقاومة تُذكر، ومن الغريب أن «شوبيليوليوما» ملك «خيتا» قد تجاهل في تقاريره الحربية ما استولى عليه من الأماكن التي كانت تدين لمصر بالطاعة والسلطان، ويرجع سبب ذلك إلى أنه كان يعد السلام ما زال قائمًا بين البلدين بصفة رسمية.

---

[١٤٣] راجع: Meyer, “Gesch”, II, 1, p. 375. Note 1.

أما «أزيرو» فإنه أخذ يتخذ العدة لنفسه ويتهيأ للموقف الجديد الذي حتمته الأحوال، فعلى أثر عودته من مصر قدم لملك «خيتا» فروض الطاعة ووضع نفسه تحت سلطانه، وبقي على هذه الحالة حتى وافاه الأجل المحتوم. وفي خلال ذلك الوقت كان «شوبيليوليوما» قد سيطر على كل أراضي «الأموريين» وفرض عليهم جزية يؤدونها تُقدر بمبلغ ثلاثمائة شكل من خالص الذهب.[١٤٤]

غير أن «أيتاكاما» ملك «قادش» قد قام من جهة أخرى يسعى للمحافظة على استقلاله، ولكنه غُلب على أمره وأُسِرَت أسرته وجنوده من قبائل «الماريانا»، وكذلك استولى على إقليم إمارة «أبينا» وإقليم «آبي» أو «أوبا» (الذي جاء ذكره في خطابات «تل العمارنة»)، وعلى سهول «دمشق» التابعة له، وقد رأى ملك «خيتا» أنه من الحكمة وحصافة الرأي أن يعفو عن «أيتاكاما» ويعيده على عرش ملكه، ولكنه قام فيما بعد بثورة على «مورسيل» ملك «خيتا» وانتصر عليه الأخير في السنة التاسعة من حكمه.[١٤٥]

ومما سبق نعلم أن «شوبيليوليوما» قد استولى من جديد في مدة عام على كل أراضي نهر الفرات حتى «لبنان». هذا في ميدان الحرب. أما في ميدان السياسة وبُعْد النظر في المحافظة على هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، فإنه قيد كل هذه الإمارات الصغيرة في تلك الجهات بمعاهدة عقدها مع «نوخاشي»، وبلاد آمور، ثم مع «تونب» فكان من واجب حكامها أن يهبوا في وجه أية ثورة أو قيام أي عدو يناهض مملكة «خيتا» داخل البلاد، أما ملك «خيتا» فكان عليه أن يمد يده لمساعدة هؤلاء الأمراء إذا أُعلنت الحرب على واحد منهم. هذا إلى أنه ولَّى ابنه «تليبينوس» ملكًا على «حلب» وابنه «بياسيل» ملكًا على «كركميش»، غير أنه لم يتمكن من إخضاع «كركميش» إلا بعد كفاح دام مدة طويلة.

وفي خلال تلك المدة انقض «أرتاتاما» الذي اعترف به «شوبيليوليوما» ملكًا على بلاد «متني» على بلاد نهرين، ومعه ابنه «سوتارنا»، واستولى عليها، ونهب عاصمتها، بمساعدة ملكي «آشور» و«ألاشيا» (قبرص). وتدل الشواهد على أن «سوتارنا» هو الذي قبض على مقاليد الحكم في «متني»، فكان مما قام به هدم قصر «دوشرتا» في

[١٤٤] وقد جاء ذكر ذلك في المعاهدة التي عُقدت بين «خاتوسول» الثالث وبين «بسينا» Bentesina أمير الأموريين. أما المعاهدة التي عُقدت بين «شوبيليوليوما» و«أزيرو» فقد ضاعت بدايتها (راجع Meyer, Ibid. p. 375, note 2).

[١٤٥] راجع: Forrer, “Boghaz Koi-Texte in Umschrift”, p. 43.

«وسوجاني» عاصمة الملك، ثم أعاد الباب المصنوع من الذهب إلى ملك «آشور»، وكان قد اغتصبه «سوساتار» ملك «متني» من بلاد «آشور» ثم اعترف باستقلال مملكة «آشور»، وكذلك أهدى إلى بلاد «ألاشيا» (قبرص) بعض الطرف من بلاده. وهكذا دفع «دوشرتا» ثمن بغيه وحنثه بالأيمان: «لقد ذهبت «متني» إلى الدمار التام»؛ فقد وقعت مذبحة عظيمة بين سكان بلادها وهُدمت بيوتهم، وشُتت بلدانهم، أما أشرافهم فقد سِيقوا إلى «آشور» و«ألاشيا» ليذوقوا أفظع ألوان العذاب. وأما «ماتيوزا» بن «دوشرتا» فقد حاول بادئ الأمر الهرب إلى «بابل»: وقد رغب ملك هذه البلاد في أن يحمي ذماره، وينقذ حياته، فبقي هناك آمنًا مطمئنًّا إلى أن فرَّ، ولكن ليطأه «شوبيليوليوما» بقدمه.

غير أننا نرى من جهة أخرى أن تصرف «سوتارنا» في بلاد «متني» لم يَرُقْ في عين عاهل «خيتا»، وبخاصة عندما رأى أنه نزل عن الأراضي الواقعة على الضفة الثانية لنهر الفرات لملك «آشور»، وكان جوابه على ذلك أنه رغب عن طيب خاطر في إعادة «ماتيووازا» إلى عرش بلاد «متني»، فزوَّجه أولًا من ابنته، ثم أمر ابنه (بياسيل Byassil) أن يعود من «كركميش» وزوَّده هو و«ماتيووازا» بجيش عظيم انقضَّا به على جحافل جيش «سوتارنا» غربي بلاد «نهرين» وانتصرا انتصارًا حاسمًا؛ فسقطت بلدة «حران»، ونكص «الآشوريون» على أعقابهم، واستسلمت «وسوجاتي» العاصمة. وعقد «شوبيليوليوما» مع «ماتيووازا» معاهدة أقسم فيها الأخير ورعاياه يمين الإخلاص أن يكونوا على أهبة الاستعداد للمساعدة. وقد سمح لملك «متني» «ماتيووازا» أن يتخذ لنفسه زوجات أُخَر، على أن تكون الأميرة الخيتية هي الملكة الشرعية على عرش البلاد. أما الحدود التي كانت تفصل بين البلدين فكان نهر الفرات الحد الفاصل لها، وعلى ذلك اعترفت بلاد «متني» بالتخلي عن «سوريا». أما الأراضي الواقعة على ضفة نهر الفرات حتى جنوبي مصب نهر «الخابور» إلى ما وراء «تيرقا» Tirqa فيستولي[١٤٦] عليه «بياسيل» ملك «كركميش»،[١٤٧] هذا إلى أن يكون «ماتيووازا» موطدًا أواصر الصداقة والود معه، وأن تكون «متني» منفصلة عن «سوريا» تمام الانفصال.

وفي خلال تلك المدة لا نعلم إلى أي مدى مدَّت مصر سلطانها ثانية في بلاد ساحل «فينقيا»، فقد ظلت «سميرا» و«ببلوص» في قبضة «أزيرو»، ولقد عنفه الفرعون على

---

[١٤٦] راجع: Forrer, “Forechung”, II, p. 41ff.

[١٤٧] راجع: Forrer, “Boghaz Koi–Texte in Umschrift”, No. 41, col. 2, § 10.

زحفه، غير أنه لم يسعَ إلى رده على أعقابه، ولا نعلم كذلك إذا كان قد أخضع «صيدا» ثانية؛ إذ في ذلك شك عظيم. أما «صور» فإنه أراد المحافظة عليها، ومن المحتمل كذلك «بيروت» أيضًا. وخلافًا لذلك كانت الأراضي الواقعة بين سلسلتي جبال «لبنان» (عمق) تدين لسلطان «أزيرو»، وقد حاول بعد ذلك أن يضم إلى جانبه «قادش» في أثناء محاصرة «شوبيليوليوما» لبلدة «كركميش». ولما أحس ذلك «شوبيليوليوما» أرسل قائده «لوباكو» ومعه قائد آخر على جناح السرعة للقضاء على «أزيرو» فخربت بلاد «عمق» بعد حملتين. وبذلك انفصمت عرى الصداقة التي كان ملك «خيتا» يحافظ على دوامها بينه وبين مصر؛ فأصبح البلدان في حالة حرب علنية.

وتُعَدُّ الرسالة التي وصلت إلى مصر معلنة خبر الغزو الذي قام به جيش ملك «خيتا» بإمرة «لوباكو» في «عمق» على المصريين؛ آخر خطاب وصل إلى «تل العمارنة». وقد لخص لنا «توت عنخ آمون» خلَف «إخناتون» نتائج حكم أخيه في «آسيا» في المنشور الذي أصدره عندما تولَّى عرش مصر في الكلمات التالية:

> وعندما أرسلت الجنود إلى بلاد فينقيا لأجل مد حدود البلاد المصرية لم يكن في استطاعتهم الوصول إلى النتيجة.

وعلى أية حالٍ، فإنه على أثر مهاجمة «خيتا» للأملاك المصرية تحرجت الأحوال في مصر مما قلب سياستها في الداخل والخارج رأسًا على عقب.

(٤-٦) آثار إخناتون الباقية

أقام «أمنحتب الرابع» آثارًا عدة في طول البلاد وعرضها غير مدينة «إختاتون» التي شيَّدها عاصمة لملكه، وهي المعروفة الآن «بتل العمارنة» على مقربة من بلدة «ملوي» الحالية، وقد فصلنا القول فيها فيما سبق.

منف

في مدينة «منف» القديمة عُثر له على بعض قِطَع من الحجر من معبد له بالقرب من مدخل الإله «بتاح» أعظم آلهة هذه المنطقة. وقد وُجدت هذه القطع مستعملة ثانية في رقعة هذا المعبد، وإحدى هذه القطع محفوظة الآن بمتحف «جامعة سدني» بأستراليا.

(راجع Necholson. “On the Disk Worshipper of Memphis”. Transactions of the Royal Society of Literature 2. Sec. IX, (1870) Pl. I, p. 197).

وله قطعة أخرى عليها جزء من منظر مُثل فيه ملكان أحدهما أصغر من الآخر، ويُقال إنهما «إخناتون» و«سمنخكارع» (راجع J. E. A, XIV, p. 8. Fig 3)، وقطعة ثالثة عليها طغراءات الفرعون (Necholson, Ibid. Pl. I, No. 4. p. 8) وقد نشرت «مريت» قطعة أخرى عليها متن خاص «بإخناتون» (راجع Mariette, Mon Divers. Pl. 27 (e)).

وعُثر في «كوم القلعة» على قطع من الحجر، نقوشها من عصر «إخناتون»، كما وُجدت صورة رأس هذا الملك في نفس المكان وكانت كلها مستعملة ثانية في مبانٍ أقامها الفرعون «مرنبتاح» (راجع Mariette, Ibid Pl. 24 (e) 1–3; & The Eckley B. Coxe, Tr. Egyptian Expedition in Pennsylvania University Museum Journal, VIII (1917) p. p. 225–228 Fig. 88).

وقد وُجدت بعض قطع استُعملت ثانية في مبانٍ بالقاهرة بالقرب من جامع «الحاكم» ومن «بوابة النصر»، ويُحتمل أنها جُلبت من «منف» أو من «هليوبوليس» (راجع Petrie, “History”, II, p. 221, A. Z. XIX, p. 116).

وفي سقارة وُجدت لوحة لشخص يُدعى «حوي» لُقب عليها برئيس تجار معبد «آتون» (راجع Petrie, Ibid, p. 221)؛ حيث يقول إن وجود هذه اللوحة هنا قد اتُّخذت دليلًا على وجود معبد في «منف»، ولكن من الجائز أن هذا الموظف كان مقر وظيفته «هليوبوليس» (راجع Mariette, Mon. Div. p. 56. 2).

هليوبوليس

وُجدت في «تل الحصن» قطع نُقش عليها اسم «إخناتون»، وهي محفوظة الآن بمتحف «جلاسجو» بأسكتلندا (راجع Petrie, “Heliopolis”, Pl. VIII). ومن آثار هذا الفرعون التي وُجدت في «هليوبوليس» كذلك لوحة مُثل عليها هو وأسرته يتعبدون لقرص الشمس (آتون). فتشاهد أعضاء الأسرة المالكة راكعين أمام مائدة قربان أُرسلت عليها أشعة «آتون» التي ينتهي كل واحد منها بيد بشرية، وهذا الوضع (الركوع) ليس بالعادي؛ إذ في الغالب ترى الأسرة المالكة يتعبدون لقرص الشمس وهم واقفون أمام مائدة القربان. وهذه اللوحة قد اغتصبها لنفسه كاهن معبد «رع» الأكبر المسمى «بارع محب»، وقد

عاصر الفرعون «حور محب»؛ فنجده قد استعمل ظهر اللوحة الخالي من النقوش ودوَّن عليه رسومه ونقوشه؛ فعلى الجزء الأعلى الفرعون «حور محب» يعبد كلًّا من الإله «آتوم» والإلهة «حتحور»، وعلى الجزء الأسفل نشاهد «بارع محب» ممثلًا مرتين، وكذلك نشاهد صورتين للإله آتوم. (راجع Lacau, "Steles du Nouvel Empire", Pl. LXV).

وقد وُجدت كذلك في هذه الجهة قطعة من الجرانيت الأحمر عليها اسم «مريت آتون» بنت «إخناتون»، وكذلك أُشير عليها إلى مبانٍ للإله «رع» في «إيون» أي «هليوبوليس» (راجع A. Z. XIX p. 116; Rec. Trav. VI, p. 53).

ويقول «ويجول» إن «إخناتون» قد أقام معبدًا في «عين شمس» يُسمَّى «سرور رع في هليوبوليس»، وكذلك أقام لنفسه قصرًا هناك Weigall, "Life & Times of Akhenaton", p. 166.

كوم مدينة غراب

تدل الآثار على أن «إخناتون» وأسرته قد أقاموا بعض المباني الأثرية في جهة «كوم غراب». والواقع أننا نجد فضلًا عن بعض الآثار للملك «أمنحتب الثالث» وزوجه «تي» آثارًا أخرى للفرعون «توت عنخ آمون» وزوجه «عنخس إن آمون». أما الفرعون «إخناتون» فقد وُجدت له قطع من الحجر عليها اسمه، وتدل على أنه قد أقام أثرًا في هذه البقعة، وكذلك شوَّه معبد جده «تحتمس الثالث»، وهو الذي محاه فيما بعد «رعمسيس الثاني» (راجع Porter & Moss, Bibliography IV, p. 122). ولدينا ورقة من «غراب»، وهي عبارة عن خطاب مرسل للفرعون «أمنحتب الرابع» يخبره فيه أن كل شيء في معبد «بتاح» في «منف» على ما يُرام، وقد أُرخ هذا الخطاب بالسنة الخامسة من حكمه (راجع Griffith "Kahun Papyri", (Text) p. 91)، وهذا دليل على أنه لم يكن معتنقًا بعد ديانة «آتون» في السنة الخامسة من حكمه.

إهناسية المدينة

وُجدت قطعة من الجرانيت الأحمر عليها اسم «إخناتون» في خرائب إحدى البيوت التي تنتسب إلى العهد الروماني، ويقع هذا البيت في الجهة الغربية من المعبد الذي أُقيم في هذه الجهة (راجع Petrie, "Ehnasya" p. 20, 21. Pl. XVI. (Top)). والنقوش التي

عليها ممحوة جدًّا، ويعتقد «بتري» أن هذه القطعة وكذلك القطع التي عُثر عليها في بلدة «غراب» كانت في الأصل في مدينة «إختاتون»، ثم نُقلت هناك عن قصد عندما قام أعداء مذهب إخناتون بهدم آثاره وتشتيتها في كل مكان.

الأشمونين

تدل الكشوف الحديثة على أن «إخناتون» أقام معبدًا للإله «آتون» في بلدة «الأشمونين». فقد عُثر على بعض قطع من الجرانيت نُقش عليها مناظر وكتابات لهذا الفرعون، وقد استُعملت فيما بعد في إقامة معبد الإله «تحوت»، ويرجع المعبد إلى عهد متأخر، فنشاهد على إحدى هذه القطع الملكة «نفرتيتي» والأميرة «مريت آتون» تتعبدان «لآتون» وتقدمان القرابين التي كانت تتألف من طاقة صغيرة من زهر اللوتس وُضعت على قاعدتين نحيلتين، ويُلاحظ هنا أن وجوه الأسرة المالكة قد هُشمت تمامًا، ولكن كل الطغراءات وقرص الشمس (آتون) والأشعة المرسلة منه قد بقيت سليمة. (راجع Roeder, "Vorlaufiger" Berecht uber die Deutsche Hermopolis Expedition 1931–1932. PP. 34–37 Abb. 16, 17. Pl. IV).

وكذلك وُجدت في هذه الجهة مائدة قربان من الجرانيت، وقد وجدها «بريس دفن» Prisse d'Avennes, "Lettre à M. Champollion Figiac". Rev. Archeol (1847) p. 730.

وكذلك وُجدت بعض القطع المنقوشة من معبد للملك «إخناتون» في هذه الجهة المستعملة ثانية في بعض مقابر الدولة الحديثة وهي الآن «بالمتحف المصري» (راجع Weill, "Monuments Piots", Vol. XXV p. 420).

ومن بين القطع الهامة التي عُثر عليها في «الأشمونين» مستعملة ثانية في مبانٍ متأخرة قطعة منقوش عليها اسم أميرة بقيت مجهولة حتى الآن وتُدعى «عنخس-ن-با آتون الصغيرة»، وأمها هي الأميرة «عنخس-ن-با آتون» بنت «إخناتون» وزوج «توت عنخ آمون» فيما بعد (راجع Hellmut Bunner, "Eine Neue Amarna Princessin in A. Z. LXXIV, p. 104ff)، وقد استنبطت كاتبة المقال عن هذه القطعة كما وضحنا فيما سبق أن هذه الأميرة قد تزوجت والدها ووضعت منه ابنة صغيرة سمتها باسمها وميزتها عنها بلفظة «الصغيرة».

وفي «تونة الجبل» لا تزال إحدى لوحات الحدود لمدينة «إختاتون» التي نحتها هذا الفرعون في وجه الصخر، وقد أُرخت بالسنة السادسة من حكمه كما ذكرنا من قبل.

الشيخ عبادة (أنتوي)

وُجدت في هذه الجهة قطع من محراب «لإخناتون» في الناحية الشمالية من معبد «رعمسيس الثاني»، وقد نُقش عليها خراطيش الفرعون وبعض نقوش مهمشة الآن (راجع Gayet, "Compte Rendu des Fouilles. Annales du Musee Guimet XXVI, 3me Partie p. 55).

تل العمارنة

عُثر في «تل العمارنة» على بعض قطع من المرمر في مقبرة «إخناتون» في أثناء الحفائر التي قامت بها الجمعية الإنجليزية في هذه الجهة بين عامي ١٩٣١–١٩٣٢، وهي الآن بالمتحف المصري، وبعد فحصها وُجد أنها كانت تؤلف جزءًا من صندوق من المرمر الجميل الذي كانت تُوضع فيه أواني الأحشاء، وإذا قرنا هذا الصندوق بصناديق الملوك الآخرين نجد أنه فريد في بابه من بعض الوجوه. ويدل الفحص على أنه لم يُستعمل فعلًا، كما أننا لا نعلم شيئًا قط عن مصير تابوت هذا الفرعون، كما أن مصير جثته لا يزال إلى الآن سرًّا غامضًا (راجع A. S. XL, p. 537ff).

ويُلاحظ في نقوش هذا الصندوق أن «إخناتون» كان متمتعًا ببعض الشعائر الدينية القديمة على الرغم من اعتناقه لمذهب «آتون» (؟) (؟).

أسيوط

أقام «إخناتون» معبدًا في مدينة «أسيوط»، وقد اغتصبه فيما بعد «رعمسيس الثاني». والمناظر الأصلية والنقوش التي كانت على جدرانه قد أصابها عطب كبير، غير أن ما تبقى من النقوش يدل على فن رفيع من طراز العمارنة الخاص. وقد وُجد على قطعة جزء من منظر هام يُشاهد فيه بعض الأشخاص في حضرة الفرعون يرتدون على رءوسهم مخاريط العطور؛ مما يدل على أنهم كانوا في وليمة. ونرى وجه امرأة ترفع يد الفرعون بخضوع وتجلة إلى شفتيها وتقبلها، وقد مُثلت هذه الحركة بمهارة وإتقان. والواقع أنها

على قدر ما وصلت إليه معلوماتنا تُعَدُّ الأولى من نوعها حتى الآن في الفن المصري؛ إذ الحقيقة أننا لم نعثر على صورة تمثل تقبيل اليد عند المصريين إلى الآن في غير هذا المنظر Gabra, “Un Temple d’Amenophis IV à Assiut” (Chronique d’Egypte, July) .(1931 p. 237, fig. 5.)

وقد عُثر على هذا المعبد تحت مباني أحد بيوت الأهالي في شارع فاروق «بأسيوط»، وقد كان صاحب البيت الذي أرشد إلى هذا الكنز ينتظر وجود قناطير من الذهب النضار، ولكن الأثريين والمؤرخين عثروا فيه على كثير من الحقائق التاريخية والفنية.

المطمار (بالقرب من البداري)

عثر «برنتون» في أثناء الحفائر التي قام بها لحساب المتحف البريطاني عام ١٩٢٨–١٩٢٩ على بقايا قرية من عهد الأسرة التاسعة عشرة بالقرب من قرية «المطمار»، ومن بين الآثار التي وجدها معبد للإله «ست» أقامه «رعمسيس الثاني»، وقد وُجد من بين أحجار هذا المعبد المخرب بعض قطع من معبد للإله «آتون» أقامه «إخناتون»، وقد استخدم «رعمسيس» أحجاره في بناء معبد الإله «ست» السالف الذكر (راجع .(Chronique d’Egypte, July 1936 p. 224

قفط

يُوجد في متحف «ليون» الآن قطع من لوحة صُنعت من الجرانيت الرمادي عليها بقايا طغراءات للفرعون «إخناتون»، وقد عُثر عليها في «قفط» (راجع Reinach Catalogue .(p. p. 41–42 (3a, 3b)

وتدل ظواهر الأحوال على أن «إخناتون» قد استغل محاجر «وادي الحمامات»؛ إذ تُوجد بعض اللوحات المقطوعة في الصخر منقوش عليها اسمه ونخص بالذكر منها لوحة مقدمة إلى موظف يُدعى «أمنحتب» (راجع Golenischeff, “Hammamat”, I, 6). وكذلك نُقش على الصخر دونه شخص يُدعى «أمنمس» (Gouyat & Montet, “Hammamat”, p. 116, 251)، ولا بد أن هذه النقوش قد عُملت في بداية حكم هذا الفرعون، ويُشاهد أن «سيتي» الأول قد محا منظرًا ظهرت فيه عبادة الإله «آتون» ونقش مكانه منظرًا له وهو يتعبد للإله «آمون رع»، وقد ترك «سيتي» قرص الشمس الذي

كان في المنظر الأصلي دون أن يمسه بسوء، وأضاف إليه فقط صلين متدليين منه (راجع Ibid. No. 94. Pl. XXIII).

قوص

وفي «قوص» وُجدت قطع من الحجر الرملي منقوش عليها طغراءات «إخناتون» وزوجه «نفرتيتي» (راجع Wilkinson, "Modern Egypt and Thebes" II, p. 132. & Porter & Moss, Bibliography, V, p. 135).

الكرنك

كان أوَّل عمل قام به «إخناتون» بعد توليه العرش بناء معبد للشمس في «الكرنك»، وهو المكان المختار لعبادة الإله «آمون». وقد أطلق على إله الشمس في هذا المعبد اسم «رع حور أختي» ومعناه (رع هو حور في الأفق)، وأضاف إليه اللقب التالي: «الذي يفرح في الأفق باسمه شعاع النور الذي في قرص الشمس.» وقد أراد بذلك أن يصف هذا الإله بأنه هو الشمس نفسها لا أحد مظاهرها، وقد عبر عن هذا الاسم بكلمة «أتون» فيما بعد. وقد عبر عن نفسه في اسمه الملكي بالكاهن الأكبر لهذا الإله الجديد، وكذلك فإن القصر الذي أقامه في «طيبة» قد أطلق عليه «الفرح في الأفق» ليكون منسجمًا مع لقب إلهه الجديد، وقد اتخذ الأهبة لإقامة هذا المعبد بسرعة مدهشة؛ ولا أدل على ذلك مما جاء في النقش الذي عُثر عليه في محاجر جبل السلسلة؛ إذ أمر بحشد كل عمال قطع الأحجار من «إلفنتين» في أقصى حدوده الجنوبية حتى «تل البلمون» في أقصى حدوده الشمالية، وإرسالهم إلى هناك لقطع مسلة من الحجر الرملي لإلهه. غير أن هذا المعبد الذي اهتم بإقامته في «الكرنك» قد أزاله أعداء «أتون» بعد سقوطه، ولكن بقيت منه قطع عدة قد استعملها «حور محب» في إقامة البوابتين التاسعة والعاشرة في «الكرنك» منها واحدة عليها صورة «إخناتون» في هيئة «بولهول» (راجع Prisse Mon. Egypt. X. 2) الذي كان يمثل إله الشمس، وقد وُجد على إحدى هذه القطع كذلك صورة «أمنحتب الثالث» مُثل عليها صورة شمس «حور أدفو»؛ مما يدل على أن هذا الفرعون قد أخذ في بناء معبد هنا، غير أن ابنه قد استعمل أحجاره في بناء معبده الجديد؛ وذلك لأن الصورة التي وُجدت على يسار صورة «أمنحتب الثالث» كانت لابنه «أمنحتب الرابع». ويُلحظ

أن الأخير قد محا صورة والده واسمه، ووضع مكانهما اسمه واسم إلهه الجديد الذي صوَّره في صورة إنسان برأس صقر، وجعل أشعة الشمس فوق رأسه (راجع Schafer in “Der Amtl”. Berichten aus den preuss. Kunst-sammlungen. XLI (1920), 158ff).

وقد عُثر على قطع أخرى من أنقاض هذا المعبد (راجع Breasted A. R. II, & 932; & Schafer A. Z; 55, 28, 2, and Amtl Ber, XL, 1919, 225; Pillet, A. S. XXII p. 250 fig. 4 & ibid Pl. IV).

وفي عام ١٩٢٥ قام المهندس «شفرييه» بحفر مصرف كبير حول معبد «الكرنك» من ثلاثة جوانب لمنع تسرب المياه. وفي أثناء القيام بهذه العملية عُثر على تمثالين ضخمين للفرعون «إخناتون» محفوظين بالمتحف المصري (A. S. XXVI p. 121ff)، وقد أدت أعمال البحث في مكانهما إلى الكشف عن بقايا أحد عشر تمثالًا ضخمًا مثل التمثالين السابقين، وقد دلَّ الفحص على أنها كانت مُقامة بظهورها مستندة على عمد مستطيلة من الحجر الرملي على غرار العمد الخارجية العادية التي تُقام في المعابد، وكانت تكتنف ردهة واسعة لمبنى يحتمل أن «إخناتون» أقامه، وهذه التماثيل قد نُحتت نحتًا دقيقًا، غير أنها تمثل صورة إنسان قبيح المنظر شاذ الخلق لدرجة عظيمة. وعند الكشف عنها وُجدت مهشمة قطعًا وملقاة بوجوهها على الأديم، وكان كل واحد مُلقًى أمام العمود الذي كان يحليه. وهذه التماثيل تصور لنا «إخناتون» واقفًا وذراعاه على صدره وفي إحدى يديه صولجان وفي الأخرى زخمة، وذلك على غرار تمثال الإله «أوزير»، غير أن «إخناتون» هنا لم يُمثل مزملًا في ملابسه مثل «أوزير» في صورة مومية، بل مُثل في هيئة ملك حي لابسًا القميص الملكي القصير ومرتديًا على رأسه الكوفية (نمس) والصل وعليهما التاج المزدوج أو لباس رأس آخر غريب في بابه مؤلف من أربع ريشات وُضعت عمودية، وتظهر عندما تُشاهد من وضع جانبي مثل تاج الإلهة «ماعت»، ويظهر لنا أحد هذه التماثيل على وجه خاص غريب في شكله؛ إذ يُمثل هذا الفرعون وهو عاري الجسم تمامًا، وهنا نشاهد أن جسمه قد صُور في هيئة جسم امرأة. ويُلاحظ في وضع كل هذه التماثيل أن الكتفين ضيقتان، وأن الوسط نحيل، وأن الحوض واسع، والفخذين منحنيتان؛ مما يشعر بصورة أنثى لا صورة ذكر. أما الوجه فطويل وضيق وخداه بارزتان. وعيناه ضيقتان ذواتا جفنين ضيقتين، وفمه ذو شفتين غليظتين ينطبع عليهما الشهوة البهيمية، ويدل انحناؤهما على الرضا بهذا النقص الخلقي والخلقي. ويُلاحظ

على الوجه تجعيدة عميقة تبتدئ عند انحناء المنخرين حتى زاويتي الفم؛ مما يزيد بدرجة عظيمة في دمامة الوجه عامة. ولا نزاع في أن هذه التماثيل تقدم لنا صورة صادقة لرجل شهوة خليع منحط التركيب والخلق. والواقع أن مظهر هذه التماثيل الشاذ وغيرها من تماثيل «إخناتون» وصوره كانت موضوع فحص طبي قام به الدكتور «غلينجي» (راجع “A Medical Study of Akhenaton”, A. S. XLVII. p. 29ff)، وقد فسر التحول الذي حدث في الصور الجميلة (انظر الصورة رقم ١٢. الصفحة ٢٥٤) التي كانت لهذا الفرعون في صغره على الرغم مما فيها من بعض مظاهر التخنث في صغر سنه حتى أصبحت فيما بعد صورًا غاية في القبح وسوء الخلق؛ بأن ذلك يرجع إلى تغيير حقيقي في صورة هذا الفرعون، وأن ذلك لا يُعزى كما يدعي البعض إلى نزعة جديدة في الزي الفني، واستدل على صحة قوله بأن صورة الملكة «نفرتيتي» لم يحدث فيها شيء من هذا الشذوذ قط. ويظن الدكتور «غلينجي» أن المرض الذي أصاب «إخناتون» كان سببه انحطاطًا في وظيفة الغدد الجنسية جاء تدريجًا؛ مما أدى في النهاية إلى تحول جسمي محس وميل إلى التخلق بالأخلاق النسوية جسميًّا، وعقليًّا؛ ومن ثم يمكن تفسير كثير من أعماله المعروفة لنا في أخلاقه وصفاته.

الأقصر

عثر الدكتور «كمبل» على قطع من الحجر في ساحة معبد «الأقصر» في عام ١٩٠٥، وعلى إحدى هذه القطع نُقشت صورة جميلة لإخناتون وخلفه أشعة «آتون» تعطي الحياة والسعادة. ويظن الدكتور «كمبل» أن هذه القطع كانت في الأصل من قبر «رعموسي» رقم ٥٥ «بطيبة الغربية» (راجع P. S. B. A. XXVIII (1906) p. 156).

المدمود

تدل الآثار التي عُثر عليها في منطقة «المدمود» على أن «إخناتون» قد أقام فيها معبدًا على ما يظهر؛ إذ عُثر على قطعة حجر رُسم عليها صورة «لإخناتون» يتعبد للإله «آتون»، كما عُثر على قطع أخرى قد استُعملت في إقامة مبنًى روماني في «المدمود» أيضًا (راجع Porter & Moss Bibliography V, p. 144).

وكذلك عُثر على حجر جيري منقوش مستعمل في بناء منزل في قرية قبطية، والمنظر الذي على هذا الحجر يمثل ملكين يلبسان ملابس العيد الثلاثيني وفوقهما قرص



شكل ٧: تمثال إخناتون.

الشمس مرسلًا أشعته التي تنتهي بأيدٍ إنسانية (راجع Rapport sur Les Fouilles de Madmoud (1932) p. 5, 6).

أرمنت

تدل النقوش الخاصة بعهد «إخناتون» على أن هذا الفرعون قد أقام معبدًا في «أرمنت» في الوقت الذي أقام فيه معبد «آتون» في «الكرنك»؛ أي قبل أن ينقل عاصمة ملكه إلى «إختاتون»؛ إذ عُثر على هرم صغير بالقرب من «الكرنك» تشير النقوش التي عليه إلى معبد يُسمَّى «أفق آتون في أرمنت» (راجع Rec. Trav. XXIII, p. 62)، وكذلك عُثر على

قطعة حجر في معبد العجول عليها اسمه، هذا إلى قطع منقوشة أخرى مهمشة ذكرها «نافيل» تدل على وجود معبد للإله «آتون» في «أرمنت» (راجع Mond & Meyers, "The Temple of Arman" I, p. 3, 4).

وتُوجد قطع أخرى عليها اسم «إخناتون» كانت مستعملة مبانيَ في بيوت «أرمنت» الحديثة (راجع Ibid).

زرنيخ

بالقرب من «إسنا» عثر «لجران» على لوحتين مقطوعتين في الصخر ونُقشتا نقشًا جميلًا باسم «أمنحتب الرابع»، ويظهر في الجزء الأعلى من اللوحة الأولى يقدم الهدايا للإلهة «نخبت». أما المتن الذي فوق الملك والإلهة فتهشم تهشيمًا مريعًا ولا تميز منه إلا كلمة «نخبت» سيدة السماء، أما الجزء الأسفل من اللوحة فنشاهد فيه مقدم اللوحة راكعًا يتعبد، وكذلك يشمل نقشًا مهشمًا، غير أننا على الرغم من تهشمه نعلم منه أن موظفًا يُدعى «أبي» بن «حور مأخت» قد جاء إلى هذا المكان في سنة ما من عهد «أمنحتب الرابع» قبل أن يغير اسمه للقيام بالأعمال التي تخص «معبد الشمس» المسمى ««حور أختي» يفرح في الأفق باسمه النور الذي في «آتون».» وقد رسم تذكارًا لهذه الرحلة الفرعون وهو يقدم قُرَبًا للإلهة «نخبت» كما ظهر هو نفسه وهو يتعبد.

وغني عن البيان أن هذه اللوحة قد أُقيمت في عهد هذا الفرعون قبل أن تختمر تمامًا في نفسه فكرة التوحيد وإطلاق اسم «آتون» على معبوده الواحد. أما اللوحة الثانية فأكثر حفظًا من الأولى ولم يُهشم إلا الثلث من سطحها الأيسر. وتقع بالقرب من اللوحة الأولى. ونشاهد في المنظر الذي على اليمين فيها الإله «آمون» جالسًا على عرش وأمامه طاقة من الأزهار وخلفه ثلاث موائد قربان محملة بالقرب وفوق «آمون» تقرأ: «آمون رع» ملك الإلهة ورب السماء. وفوق طاقة الأزهار نقرأ متنًا يعدد القربان، وقد تبقى من المتن الذي نُقش على هذه اللوحة سبعة أسطر لا يخرج معناها عن معنى المتون الأخرى التي تُكتب على لوحات الموظفين الذين يقومون بمثل هذه البعوث، وقد كان يصحب «أمي» أو «آي» كما يقول «برستد» موظف يُدعى «نفررنبت». وعلى أية حال فإن هذه اللوحة لا بد أنها قد نُسيت عندما أمر «إخناتون» بمحو اسم «آمون» أينما وُجد، ومن جهة أخرى نعلم كما ذكرنا أن «أمنحتب» لا بد أنه كان في أوَّل عهد حكمه عندما أرسل

«أبي» و«نفررنبت» إلى «زرنيخ»؛ إذ كان لا يزال يحافظ على عبادة الإلهة «نخبت» والإله «آمون»؛ كما يدل على ذلك نقوش هاتين اللوحتين (راجع A. S. III p. 259–62).

الكوم الأحمر (هيراكنيوبوليس)

وجد الأثري «كوبيل» في الحفائر التي قام بها في «الكوم» الأحمر مائدة قربان باسم «إخناتون» في داخل سور المعبد المقام في هذه الجهة، بين بقايا الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (راجع Quibell and Green, “Hierakonpolis” p. p. 11–15).

حبل السلسلة

(على الشاطئ الشرقي) تُوجد في جبل «السلسلة» لوحة مقطوعة في الصخر من عهد «أمنحتب الرابع»، وتقع في شمالي المحاجر على مقربة من «الجبانة العتيقة»، وعلى الجزء الأعلى منها نشاهد قرص الشمس ناشرًا جناحيه على منظر يُرى فيه الملك يقدم قربانًا للإله «آمون»، كما شاهدنا مثل ذلك على لوحة «زرنيخ» وقد كُتب عليها اسمه الأصلي «أمنحتب الرابع»، غير أنه عندما غيَّر اسمه إلى «إخناتون» أمر بمحو اسمه «أمنحتب» وكذلك اسم «آمون». والمتن المنقوش على الوجه هو ما يأتي:

> يعيش حور الثور القوي صاحب الريشتين الساميتين محبوب الإلهتين، عظيم الملك في «الكرنك»، حور الذهبي لابس التيجان في «هليوبوليس» الجنوبية، ملك الوجهين القبلي والبحري، الكاهن الأعظم في المعبد المسمى «حور أختي الفرح في الأفق باسمه الصور التي في آتون» «نفر خبرو رع وع ن رع» بن رع «أمنحتب» الحاكم المقدس لطيبة العظيم في خلوده، والعائش أبديًّا «آمون» رع رب السماء وحاكم الأبدية.
>
> المرة الأولى لجلالته في إعطاء الأمر … لجمع كل العمال «إلفنتين» حتى «سما بحدت» (تل البلمون) وقواد الجيش لأجل أن يقوموا بعمل منجم كبير لقطع حجر رملي لأجل قطع بنين (قطعة هرمية الشكل) كبير خاص بالإله «حور أختي» باسمه الضوء الذي في آتون في الكرنك. تأمل! إن الموظفين والسمار ورؤساء حاملي المراوح كانوا هم المشرفين على العمل في المناجم لنقل الأحجار. (راجع A. S. Vol. III, p. 262).

صولب

وفي صولب عُثر على نقوش للفرعون «أمنحتب الرابع» على بوابة المعبد، وفي هذا المنظر نشاهد هذا الفرعون يتعبد لوالده «أمنحتب الثالث» الذي أسس هذا المعبد. ويُلاحظ أن وجوه الأشكال قد أُتلفت (راجع Pl. 110. L. D. III, K.VI, Baedeker, “Egypt” (1929) p. 447).

سسبي

يُعتقد أن معبد «سسبي» (عند الشلال الثالث) الذي أقامه «إخناتون» هو نفس معبد «جم آتون» في بلاد النوبة وهذا المعبد يقع في الركن الشمالي الغربي من قلعة «جم آتون»، وهو المعبد الوحيد الذي بقي للإله «آتون» في بلاد النوبة، وقد محا «سيتي الأول» كل النقوش الأصلية الخاصة «بإخناتون» ونقش مكانها أخرى باسمه وهو يتعبد للإله «آمون رع» (راجع Baedeker, bid. p. 447; L. D. III, Pl. 141 n.).

(٤-٧) الموظفون والحياة الاجتماعية في عهد إخناتون

انتقل مع «إخناتون» في مقره الجديد «إختاتون» نفر من رجال الدولة العظام، غير أنه رفع من شأن عدد عظيم من عامة الشعب. وقد كانوا يفتخرون في نقوشهم بأصلهم الوضيع. وأبرز الرجال الذين خدموا هذا الفرعون هم:

نخت-با آتون

كان «نخت-با آتون» الوزير الذي خلف «رعموسي» على كرسي رياسة الوزارة في عهد «إخناتون»، وكان يحمل الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل الخاتم، والوزير. وقبره في «تل العمارنة» (رقم ١٢)[١٤٨] وتدل شواهد الأحوال على أنه لم يتم بناؤه نهائيًّا. وكل ما أنجز من عمله فيه هو مدخله وواجهته، أما في داخله فلا ترى إلا جزءًا صغيرًا

[١٤٨] راجع: Davies, “The Rock Tombs of El Amarna”, Vol. V. PP. 12, 13.

من رقعته، والأجزاء العلوية من ثلاثة عمد قد فُصلت من الصخرة التي حُفر فيها هذا القبر. وعلى الرغم من أن نحته لم يتم فإن صاحبه قد دُفن فيه. وقد كتب بالمداد متنين أو ثلاثة على عارضتي الباب الخارجتين بدلًا من نحت النقوش اللازمة على جدرانه. ولا يبعد أن «نخت-با آتون» على الرغم من مكانته في الدولة وتوليه أعلى وظيفة فيها قد أراد أن يضرب المثل لغيره باتخاذ مقبرة ساذجة لنفسه كي يظهر للملأ مقدار تواضعه وخضوعه. ويظن الأثري «ديفز» أنه كان في بادئ أمره رجلًا مغمور الذِّكر، ثم تسنم مرتبة الشرف عند سقوط الموظف العظيم «معي»، فاتخذ من حياة الأخير درسًا لنفسه، وتجنب المظاهر الكاذبة كما فعل من قبله «أبي» و«رعموسي»، وإذا كان «نخت» هذا هو نفس حاكم المدينة والوزير «نخت» كان يملك قصرًا فاخرًا غاية في الأناقة في «إختاتون»، وبذلك يكون قد نقض القاعدة التي كانت متبعة عند قدماء المصريين، وهي أن المصري كان يقيم لقبره وزنًا، ويهتم بتنسيقه أكثر من اهتمامه ببيته الدنيوي.[١٤٩]

«معي» المشرف على الجنود

يدل ما قصه «معي» عن نفسه — إذا صدقنا ما جاء في نقوشه — على أنه كان رجلًا في بادئ الأمر مغمور الذِّكر، وضيع النسب، فقير الحال، بل كان يتكفف لينال ما يسد به رمقه من خبز، ولم يلبث أن بلغ من المراتب أعلاها، غير أنه قد انطبق عليه المثل القائل «ضع متكففًا على صهوة جواد فلن يلبث بعد ذلك أن يمتطي ظهر الشيطان.» والواقع أن «معي» قد أساء كثيرًا استعمال حظوته لدى الفرعون، فلا غرابة في أن كان سقوطه من عليائه مفاجئًا ومثيرًا للعجب والدهشة، وبخاصة إذا علمنا أن شهرته كانت قد بلغت عنان السماء، وأن ثروته وقوته كانتا مضرب الأمثال.

وقد كان أيامَ ابتسام الدهر له وعز سلطانه يحمل الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وكاتب الملك، والمشرف على جنود رب الأرضين، ومدير بيت «سحتب-آتون»، ومدير بيت «وع-ن-رع» (أي إخناتون) في «عين شمس»، والمشرف على ثيران معبد «رع» في «عين شمس»، والمشرف على كل أعمال الملك، وكاتب المجندين، وحامل المروحة على يمين الفرعون، وأذني «حور»

[١٤٩] راجع: Peet and Woolley. “The City of Akhetaton”. p. 41. Pl. VII, 4, 6.

الحقيقيتين، والمرافق للفرعون في «قارب الصقر». (راجع Davies Ibid, Pls. II, IV, PP. 4, 5). وتدل الحالة التي وُجد عليها قبر «معي» في «تل العمارنة» (رقم ١٤) على أنه لم يتم بناؤه نهائيًّا؛ إذ لا بد أن صاحبه قد غضب عليه الفرعون قبل أن يتم زخرفته. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن قبور عظماء عهد «إخناتون» كان يُخصص جزء كبير من مناظرها لأعمال الأسرة المالكة؛ فنشاهد هنا في قبر «معي» منظرًا فيه «إخناتون» والملكة «نفرتيتي» يتبعهما ثلاث من بناتهما، وهما يقدمان القربان للإله «آتون»، كما نشاهد «موت بنرت» أخت الملكة يتبعها قزماها «بارع» و«رع نحح» وهما ذكر وأنثى. وأسفل هذا المنظر كان يوجد في الأصل رسم «معي» وهو يتعبد، غير أنه مُحي تمامًا، وغُطي مكانه بطبقة من الجص (.Davies. Ibid. Pl. III)، ولكن الصلوات التي كان مفروضًا أن يتلوها قد بقيت. ولا غرابة في ذلك؛ لأنها كانت تمجيدًا للإله «آتون» والملك (Davies ibid Pls. II, XIX, p. 16). ونشاهد منظرًا آخر، كان المقصود منه إظهار «معي» وهو يتسلم الهبات الملكية من الفرعون، وهو مطل من شرفة قصره، غير أنه قد خُط بالمداد وحسب (راجع Ibid Pl. V)، ويُشاهد في الجزء الأمامي من المنظر القاربان الملكيان وقد رَسَوَا في الميناء.

وأهم يلفت النظر في هذه المقبرة ترجمة «معي» لنفسه وهي: التعبد للإله «حور أختي» (آتون الذي يمنح الحياة)، وللملك الجنوب والشمال العائش في الصدق، رب الأرضين، «نفر خبرو رع، وع-ن-رع» ابن الشمس العائش في الصدق، رب التيجان «إخناتون» العظيم في بقائه، وللوارثة العظيمة في القصر جميلة الوجه، الفرحة بالريشتين، محبوبة «آتون» الزوجة الملكية الأولى التي يحبها، سيدة الأراضي «نفرتيتي» العائشة مخلدة. حامل المروحة على يمين الفرعون … ومن عظمة ملك الجنوب … على الرغم من حلول الشيخوخة، ومن جسمه سليم على الرغم من مرور الزمن، والعظيم في حظوته، والسعيد في … ومن يسير في ركاب سيده، ومن كان رفيق قدميه طول الحياة، ومن حبه دائم، كاتب الملك، وكاتب المجندين، ومدير بيت «سحتب آب رع»، ومدير بيت «وع-ن-رع» في «عين شمس»، والمشرف على أعمال الملك كلها، والمشرف على جنود رب الأرضين، «معي» يقول:

> استمعوا أنتم لما أقول، أنتم أيها الرجال كبارًا وصغارًا؛ لأني سأقص عليكم النعم التي أفاءها الحاكم عليَّ. ولا ريب في أنكم ستقولون عندئذٍ: حقًّا! ما أعظم الأشياء التي عُملت لهذا الرجل المغمور الذكر! وعلى ذلك ستطلبون حقًّا

> له (أي للملك) أبدية من أعياد «سد» مدة لا نهاية لها بوصفه رب الأرضين، وعندئذٍ سيعمل لكم حقًّا مثل ما عمل لي الإله الذي يتصرف في الحياة!
>
> كنت رجلًا وضيع الأصل أبًا وأمًّا، ولكن الأمير وطد مكانتي؛ فقد جعلني أعظم … بفيضه، عندما كنت رجلًا لا أملك شيئًا، وقد جعل عدد عشيرتي ينمو من أجلي، وكثر عدد أخواتي، وجعل كل أهلي يعملون لي، ولما أصبحت سيد مدينة جعلني أصاحب الأمراء والسمار، على الرغم من أني كنت فيما مضى أشغل المكان الأخير، ومنحني المئونة والجراية يوميًّا، وإني أنا ذلك الشخص الذي كان يسأل قوته، وقد جعلني …

وعلى الرغم من كل ذلك المدح والإطراء الذي كاله للفرعون، فإن صوره قد مُحيت محوًا تامًّا من قبره. وقد غُطي هذا النقش بوجه خاص بطبقة من الجص. وقد يكون السبب الداعي إلى ذلك هو أن الفرعون ربما رأى أن بقاءه يكون هجاء أبديًّا لحظوة الفرعون له. ولا نعلم — في الواقع — السبب في سقوط «معي» والغضب عليه، غير أن التاريخ قد قلب ظهر المجن «لإخناتون» فكان الجزاء من جنس العمل، فقد محى اسمه من آثاره كلها، في حين أن الحفائر الحديثة قد أعادت لذلك العصامي «معي» ما كان يرغب فيه — وهو تخليد اسمه — وأن يعرف الناس أن الأصل ليس هو كل شيء ولكن العمل والجد والمثابرة تغطي على كل شيء وترفع صاحبها إلى قمة المجد.

«مري رع» الكاهن الأعظم

ولا نزاع في أن «مري رع» كان من أعظم رجال «إخناتون» شهرة؛ لأنه كان يحمل لقب الكاهن الأعظم للإله «آتون»، وألقابه هي: أعظم الرائين للإله «آتون» في معبد آتون «بإختاتون»، وحامل المروحة على يمين الملك، والأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وقريب الفرعون (راجع Davies, Ibid. Vol. I, p. 42)، والظاهر أن «مري رع» هو الكاهن الأكبر الوحيد المعروف لدينا للإله «آتون»، وقد يكون السبب راجعًا إلى أنه عند بداية حركة الانقلاب الديني كان الفرعون نفسه هو الذي يشغل هذه الوظيفة. على أن تركيب اللقب نفسه له أهمية؛ فقد كان — كما هو المنتظر — مكتوبًا على غرار لقب الكاهن الأكبر للإله «رع» في «عين شمس» وهو «أعظم الرائين» لا «الكاهن الأول»، كما كان يُطلق على رئيس كهنة «آمون» وغيره من الآلهة.

أما عن التاريخ الذي عُين فيه «مري رع» كاهنًا أعظم للإله «آتون» فليس لدينا شيء معين إلا بعض شواهد يمكن أن نعرف منها على وجه التقريب تاريخ تنصيبه، وذلك هو عدد بنات «إخناتون» اللائي رُسمن معه، ومع زوجه «نفرتيتي»، وهن في هذه الحالة كن أربعًا، وكانت صغراهن لا تزال في المهد، ومن ذلك نعلم أن تزيين القبر كان على قدم وساق في السنتين التاسعة والعاشرة من حكم هذا الفرعون، بالنسبة لسن أصغرهن. وقد عُثر على اسم هذا الكاهن مكتوبًا على زجاجة خمر مؤرخة بالسنة السادسة عشرة من حكم الفرعون، مما يدل على أنه كان لا يزال يقوم بأعباء وظيفته في هذا التاريخ.

ويُحتمل أنه قد بقي يشغلها حتى وفاة «إخناتون»، ولا نعرف عنه شيئًا بعد ذلك الحادث على وجه التأكيد. وتدل حجرة دفنه التي لم يتم نحتها قط على أنه لم يُدفن في هذا القبر. ومن أهم ما يسترعي الأنظار في قبره منظر تنصيبه كاهنًا أوَّل للإله «آتون»، فنشاهد الملك والملكة تتبعهما الأميرة «مريت آتون» وهم متكئون على جدار الشرفة ومطلون منها، وقد طُلب «مري رع» ليمثل أمامهم، فنراه يصل وبصحبته أهل بيته، فيركع أمام الفرعون الذي يقلده تلك الوظيفة السامية ويغدق عليه ما يثقل كاهله من حلي الذهب بين هتاف المتفرجين (Davies, Ibid. Pls. VI, VIII.)، وقد ألقى الفرعون خطابًا لتنصيبه في هذه الوظيفة، وقد كان ذلك الخطاب قصيرًا مفيدًا وفي صلب الموضوع، وهو على عكس معظم الخطابات الرسمية فاستمع إليه (Ibid p. p. 21, 22.): «إن الملك الذي يعيش على الصدق رب الأرضين «نفر-خبرو، رع-وع-ن-رع» يقول للكاهن الأكبر لآتون «مري رع»: تأمل! إني قد نصبتك كاهنًا أعظم «لآتون» في معبد «آتون» في «إختاتون»، وقد عملت ذلك حبًّا فيك قائلًا: «يا خادمي، يا من يسمع لتعاليمي، إن قلبي راضٍ عن كل عمل تقوم به»، وإني أمنحك الوظيفة قائلًا: ستأكل مئونة الفرعون (له الحياة والسعادة والصحة) سيدك في معبد «آتون».»

وفي أسفل المنظر الرئيسي نشاهد عربة «مري رع» في انتظاره لتحمله إلى منزله. أما الهدايا التي منحها إياه الفرعون فقد تسلمها الخدم ليحملوها له. وقد جيء بطائفة من المغنيات والراقصات المأجورات للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة أمام هذا الحفل العظيم، وقد حملت قائدتهن طاقة أزهار في يدها، وغنَّت أغنية مدح وثناء مطلعها: «إن الهبات التي يمنحها «وع-ن-رع» مزدوجة» (Ibid p. 23, Pls. VI, IX.) ولدينا منظر آخر يمثل زيارة ملكية لمعبد «آتون»، غير أننا لا نعرف مناسبتها على وجه التأكيد، ويُحتمل أن الفرعون كان قد ذهب في عربته إلى المعبد ليقدم الكاهن الأول لكهنة المعبد المجتمعين

هناك. ومن جهة أخرى يجوز أن هذا يمثل «مري رع» في وظيفته «كاهن أكبر لآتون» وهو يتقبل الملك والملكة في المعبد للصلاة ويقوم بعمله الديني هناك أمامهما (راجع Ibid, Pls. X–XXII). وهذا الحادث قد مُثل من أوَّل خروج الموكب الملكي من القصر إلى حيث يُرى الفرعون يساعده «مري رع» وهو يضحي للإله «آتون». ومما هو جدير بالملاحظة هنا أننا لا نشاهد الفرعون وحده عند ذهابه إلى المعبد يسوق عربته بل كذلك نشاهد الملكة «نفرتيتي» والأميرات الكبيرات يسقن عرباتهن أيضًا.

وإذا نظرنا إلى المعبد من أعلى نشاهد فيه تفاصيل عديدة. والواقع أنه ليس كالمعابد القديمة التي أُقيمت في «طيبة» وغيرها في العهود السابقة؛ إذ نجد فيه قدس الأقداس يصل إليه الإنسان بدرج سلم، وقد أُقيم في ردهة غير مسقوفة في العراء، وهذا أمر طبعي بالنسبة للإله يمثل الشمس.

وقد كانت الموسيقا تلعب دورها في مثل هذه المناسبة؛ إذ نشاهد طائفة المغنيات والضاربات على الآلات الموسيقية قد حلت محلهن طائفة من الضاربين على العود من الذين كُف بصرهم. كما نشاهد الموظفين يسوقون ثيران الضحية المسمنة والمزخرفة بالأطواق حول أعناقها، وعلى رءوسها عصابات مزينة بالريش صُفت بين قرونها، وهناك حقيقة تستحق الملاحظة؛ وذلك أن الفرعون «إخناتون» على الرغم من أنه في عاصمة ملكه الجديدة كان محاطًا بأشخاص قد وضع فيهم ثقته، واختارهم بنفسه ورغبته لخدمته، فإننا نجده مع ذلك وهو سائر في طرق المدينة — في مثل هذه المناسبة التي نحن بصددها — كان يحيط به حرس عظيم — فهل يا ترى كان ذلك الحرس مجرد مظهر من مظاهر الأبهة، أو كان يخاف شر أعوان «آمون» الذين تغلب عليهم منذ زمن؟ والواقع أنه كان لا يخاف شر الاغتيال والمؤامرة، وقد برهن سلوك «مري رع» على أنه جدير بالثقة التي وضعها الفرعون فيه، عندما خصه بأكبر وظائف الدولة الدينية، والآن قد حلَّ الوقت الذي يُكافأ فيه هذا الكاهن المخلص أمام الشعب من مليكه العارف لجميله (Ibid, XXV–XXX). وقد كان من واجبات «مري رع» بوصفه كاهنًا أكبر الإشراف على مخازن الغلال التي كانت تصرف منها القربان، وقد ظهرت مواهبه في هذه الإدارة؛ ولهذا نجد أن معظم هذا المنظر يمثل حظائر الماشية وسفن الشحن التي كانت تحضر خراج «آمون» من أقاصي البلاد، وكذلك صور المخازن الشاسعة التابعة للمعبد (راجع Ibid Pl. XXV). وهنا نشاهد الملك وفي ركابه الملكة وبناتها يستقبلون «مري رع» في الردهة الخارجية للمخزن العظيم. وكانت هذه هي اللحظة التي توج فيها بأعظم المنح؛ إذ

نشاهد المشرف على كنوز الأطواق الذهبية رافعًا يديه تحية وإذعانًا لأمر سيده ومطوقًا جيد «مري رع»، بهذه الإنعامات الملكية؛ إذ طوقه بستة عقود يشمل كل منها صفين من حبات الذهب، وكان لا يزال يغدق عليه هدايا أخرى، وقد قال الفرعون، وأريحية الكرم تهز عطفيه: «دع المشرف على خزانة حلقات الذهب يأخذ «مري رع»، ويضع ذهبًا حول رقبته حتى قمته، وكذلك على قدميه؛ وذلك لإطاعته تعاليم الفرعون الدينية (له الحياة والسعادة والصحة)، ولأنه يفعل كل ما قيل له خاصًّا بهذه الأماكن الفاخرة التي أقامها في بيت «بنبن» في معبد «آتون»؛ لأن «آتون» في «إختاتون» قد ملأها بكل الأشياء الطبية، وبالشعير والقمح الكثير، مائدة قربان «آتون» «لآتون»» (راجع Ibid, p. 36).

وقد كان جواب «مري رع» قصيرًا: الصحة «لوع-ن-رع» للابن الجميل «لآتون»! فليتفضل بأن يتمم مثل خلودك (؟) امنحها إياه أبد الآبدين (أي الحياة الأبدية) (راجع Ibid. p. 36).

ومن المحتمل أن «مري رع» قد تغلب عليه العطف الملكي حتى عجز أن يزيد كلمة عما قال، كما يحتمل أن التقاليد الرسمية كانت تمنع الموظف أن يرخي للسانه العنان ليقول ما في صدره!

«بانحسي» الكاهن الثاني

يُحتمل أن «بانحسي» هذا كان يشغل المرتبة الثانية بعد «مري رع» في معبد «آتون»؛ إذ كان يحمل الألقاب التالية (Ibid Vol. II, p. 29.): الخادم الرئيسي للإله «آتون» في معبد «آتون» في «إختاتون»، والكاهن الثاني لرب الأرضين «نفر خبرو رع-وع – ن-رع» في معبد «آتون»، والمشرف على مخازن غلال «آتون»، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، وقريب الفرعون، وخادم سيد الأرضين «نفر خبرو-رع – وع-ن-رع» في معبد «آتون»، ومدير ماشية «آتون».

وقد كان «بانحسي» مثله كمثل «مري رع» نشأ من أسرة وضيعة، ووصل إلى مكانته العالية بعطف الملك عليه، وتدل ظواهر الأحوال واسمه على أنه كان من أصل نوبي أو سوداني، وأنه كان بعيدًا من المشاحات الدينية التي كانت قائمة في هذا العهد، وقد جذبه الملك إلى جانبه؛ لأنه لم يكن له ماضٍ ديني يمنعه اعتناق المذهب الجديد، وقد تحدث إلينا «بانحسي» في نقش تركه لنا في مقبرته يجمع بين الدين وبين حياته الشخصية؛ إذ يقول (راجع Ibid. p. 29, 30): «صلاة للإله «حور أختي»: الذي يمنح الحياة إلى أبد

الآبدين، عند إشراقه على الأفق الشرقي، واستعطافًا له عند غروبه في الأفق الغربي. الحمد لك! إنك تشرق في السماء، وتنير في الصباح في الأفق آتيًا في سلام يا سيد السلام، وكل بني الإنسان يحيون عند رؤيتك، وكل الأرض تجتمع عند طلوعك، وأيديهم تحيي بزوغك. ما قاله الخادم الأول للإله «آتون» في «إخناتون» «بانحسي» المرحوم: «الحمد لك يا إلهي يا من ذرأتني وفعلت الخير لي، ومن شجعني ومنحني طعامًا وأمدني بالمؤن من روحه، وإنك الحاكم الذي أوجدتي بين الخليقة وجعلني ضمن أصحاب الحظوة عنده، وجعل كل عين تعرفني، ولقد جعلني في المقدمة بعد أن كنت في المؤخرة، وصيَّرني قويًّا بعد أن كنت مغمور الذكر، وكل جيراني (فرحوا)؛ لأني أصبحت محظوظًا عند من فعل ذلك لي، وقد أتت؟ إلى مدينتي، وكنت أرتجي، وبذلك أصبحت عظيمًا بأمر من رب الصدق … إلخ».»

وقبر «بانحسي» في «تل العمارنة» كان في الأصل قبرًا جميلًا، غير أنه قد أصابه عطب كبير على يد شيعة «آمون» أوَّلًا، وعلى يد من سكنه من الأقباط فيما بعد الذين لم يكتنفوا بتغيير معالم القبر بل محو النقوش بوضع طبقة من الجص عليها. وعلى أية حال فإن مناظر هذا القبر لم يكن من بينها ما يسترعي النظر بوجه خاص؛ وذلك لأنه على الرغم من إتقان صنعها، فإن موضوعاتها كانت عادية، فنشاهد في إحدى المناظر «بانحسي» يظهر أمام الفرعون يتسلم مكافآت الذهب مقابل الخدمات التي قام بها لمليكه. وقد كان من بين أولئك الذين حضروا هذا الحفل اثنان من العبيد واثنان من الآسيويين ملتحيين، ويحتمل أنهم سفراء أو رهائن، (راجع Ibid Pl. X)، ومما يلفت النظر الحركة الرشيقة التي قامت بها الملكة «نفرتيتي» عند تلفتها لكبرى بناتها «مريت آتون» كأنها تريد أن تقودها إلى الأمام لتتمكن من رؤية ما يدور في الحفل في أسفل النافذة التي كانوا يطلون منها. وبعد الفراغ من الحفل يركب «بانحسي» عربته ويعود إلى بيته حيث يشاهد الشعب المتحمس يرحب به، ومن بينهم أصدقاؤه وأفراد أسرته (راجع: Ibid Pl. XI)، وكذلك نشاهد الأسرة المالكة قد صُورت في منظر في معبد «بانحسي» وهم يسوقون عرباتهم كما شاهدنا في مقبرة «مري رع»، ولكن لما كان هذا المنظر قد تُرك ناقصًا ولم يُكتب معه متون، فإنا لا نعرف الغرض من هذه الجولة الملكية، ويُشاهد في هذا المنظر أن الحرس الفرعوني كان يحتوي سوريين ولوبيين بالإضافة إلى الجنود المصريين. ومما يلفت النظر في هذا المنظر ما نشاهده في الصف الثاني، وهو أن موظفًا قد ضرب بكرامته عرض الحائط، فقد ثنى نفسه وهو يقبض بيديه بهيئة جنونية على قضيب العربة منتظرًا من لحظة لأخرى أن يصرع الأرض على إثر قفزة مباغتة (راجع Ibid Pl. XVII).

حويا

تدل شواهد الأحوال على أن «حويا» كان قبل كل شيء موظفًا لدى الملكة «تي»، وألقابه هي: المشرف على الحريم الملكي، والمشرف على الخزانة (بيتا الذهب والفضة)، ومدير بيت زوج الملك العظيمة «تي». وهذه هي ألقابه الحكومية، ولكنه فضلًا عن ذلك كان ينعت الممدوح من «وع-ن-رع» (Ibid Vol. III, p. 19. & Pl. III, XV.)، وقد حاول البعض توحيد اسم «حويا» مع «خعويا» الذي جاء ذكره في خطابات «تل العمارنة» وهو الذي ذكره «بورا بورياش» ملك «كاردونياش» (بابل) في خطاب للفرعون «إخناتون» بوصفه رسول «خايا»، غير أن هذا الزعم لم يُقبل على وجه عام (راجع Ibid p. 19).

ويُعدُّ قبر «حويا» من الوجهة الفنية، وكذلك من الوجهة التاريخية من أهم المقابر التي عُثر عليها في «تل العمارنة»، وتدل الظواهر كلها على أن صاحبه قد دُفن فيه، ويوجد فيه منظران كبيران يدلان على أن الملكة «تي» قد وفدت بصحبة ابنتها الصغرى «بكت آتون» إلى مدينة «إختاتون» لزيارة «إخناتون» و«نفرتيتي»، ولا نعلم إذا كانت هذه زيارة وقتية أو أنها قد اتخذت «إختاتون» مقرًّا لإقامتها، غير أنه مما يلفت النظر أن خادمها الأمين صاحب السلطان العظيم كان له قبر في هذه البلدة، ويُرجح أنه دُفن فيه. هذا بالإضافة إلى أنه كان يُوجد معبد في «إختاتون» يُعرف باسم «ظل رع الخاص بالأم الملكية» والملكة العظيمة «تي» الحية (Ibid p. 8). وفي أحد المنظرين الكبيرين اللذين أشرنا إليهما الآن نشاهد الأم الملكية وابنتها الصغيرة على مائدة الطعام مع «إخناتون» و«نفرتيتي» واثنين من بناتهما، وهما «مريت آتون»، أما اسم الأميرة الثانية فقد مُحي (Ibid Pls. IV, V). وقد كانت موائد القربان مزدحمة بأنواع الطعام، ويُلاحظ أن الأميرات الصغيرات كنَّ يتسلمن نصيبهن بوساطة والديهنَّ. ومما يلفت النظر هنا أن آداب المائدة التي كانت مرعية دائمًا في الرسوم المصرية القديمة قد أُلقيت ظهريًّا هنا؛ إذ كان الملك والملكة يأكلان بنهم، فنشاهد «إخناتون» ينهش عظمة يبلغ طولها ذراعًا، في حين نرى «نفرتيتي» قابضة بيدها على بطة بأكملها وتأكل منها، ولم تحاول قط أن تقطعها أقسامًا مناسبة كما تقتضيه آداب الطعام. أما الملكة «تي» فلا نعلم كيفية تناولها الطعام؛ لأن اللقمة التي كانت تتناولها قد فُقدت بسبب كسر في الرسم، غير أنه على ما يظهر كانت أكثر أناقة في تناول طعامها. ولكنا لا نعرف ماذا قد صنعت بالبطة التي كان يقدمها رئيس أتباعها «حويا» بوساطة أحد الخدم! وتدل الصورة على أن هذه

الوجبة كانت تؤخذ في خلال النهار؛ إذ نرى قرص الشمس فوق رءوس الحفل الملكي، يفيض بنوره عليهم وعلى طعامهم.

ويُشاهد أسفل المنظر الرئيسي الخدم وهم يحضرون الطعام في حين أن طائفة من المغنين والمغنيات يضفون على الحفل بهجة ويزيدونه سرورًا وأنسًا بغنائهن.

وبجانب ذلك نشاهد منظرًا مكملًا صُوِّر فيه الملكة «تي» و«إخناتون» و«نفرتيتي» وهم يعاقرون بنت الحان، وقد كانت بناتهن حاضرات، ولكنهن كن يأكلن فاكهة فقط. ويُلاحظ أن «مكت آتون» قد استولى عليها الشره؛ إذ كانت تقبض في يدها على تينة كبيرة وتبحث في طبق الفاكهة عن أخرى. وهنا يُشاهد «حويا» وبيده عصاه (؟) يدير بها الخدم، وقد وقع هذا المنظر في خلال الليل؛ كما تدل على ذلك المصابيح المضاءة الموضوعة فوق قواعد خفيفة، كما يشاهد زجاجات قد صُفت؛ مما يدل على أن شهوتهم إلى الشراب لم تكن بأقل منها إلى الطعام. وقد زاد المجلس سرورًا وغبطة طائفة المغنين المصريين والمغنيات الأجنبيات. ومن أهم ما يلفت النظر في قبر هذا الموظف عن الملكة «تي» أننا نراها تزور معبدًا (أو جزءًا من معبد) أُطلق عليه اسم «ظل الملكة تي»،[١٥٠] ورسم هذا المنظر في القبر قد قُسم ثلاثة أقسام؛ نشاهد الملك «إخناتون» في أعلاها وأكبرها وهو يقود والدته بيده نحو الباب العظيم الذي يُرى من داخله مائدة القربان العظيمة التي يُصعد إليها بدرج، وكان في صحبتهما الأميرة الصغيرة «بقت آتون» التي كان يرعاها مرضعتان. أما باقي الخدم رجالًا ونساء فكانوا في المؤخرة. وكان «حويا» منحنيًا أمام الملك مباشرة ومعه طائفة من الموظفين. وكذلك يُشاهد منظر عام للمعبد بما فيه التماثيل الملكية وموائد القربان. وفي أسفله قد انتظرت العربات الملكية لتحمل الملك وحاشيته إلى القصر الملكي.

أما الصف الثاني فقد خُصص لإظهار عظمة «حويا»، غير أنه لسوء الحظ قد مُحي معظمه، والظاهر أنه كان يمثل «حويا» وهو يقود ثماني طبقات من الموظفين الصغار الهتافين الذين تحت مراقبته قد كلفهم بالنداء بالثناء على الفرعون ووالدته. ومن النقوش المفسرة نعلم أن بعض هؤلاء الموظفين كانوا سائسين وحمَّالين «لحويا» المشرف على (الحريم) الملكي.

---

[١٥٠] راجع: Ibid Pls. VIII–XIII.

أما الصف الثالث وهو الأسفل في المنظر فيظهر أنه لا علاقة له بالحوادث السالفة، وهو عبارة عن شريط ضيق مهشم، ويظهر فيه مناظر الريف وشاطئا النهر، وقد لُوِّنت كلها بالألوان الطبعية الخالية من التقليد.

ولدينا منظر في هذه المقبرة منقطع القرين في كل الجبانة؛ لأنه على ما يظهر يمثل لنا حادثة ربما كانت «حاسمة» في تحديد جزء من تاريخ «إخناتون» ووالده «أمنحتب الثالث»، والمنظر يمثل تسلم الجزية الآتية من البلاد الأجنبية (Ibid Pls XIII, XIV, XV, XVII). وقد كُتب معه هذا المتن تفسيرًا له:

> السنة الثانية عشرة، الشهر الثاني من فصل الشتاء، اليوم الثامن الحياة للوالد، الحاكم المزدوج، «رع آتون» الذي يمنح الحياة أبد الآبدين، إن ملك الجنوب والشمال «نفر خبرو رع» والملكة «نفرتيتي»، العائشين إلى الأبد مخلدين؛ قد ظهرا للعيان على المحفة العظمى المصنوعة من ذهب لأجل أن يتسلما جزية «سوريا» وبلاد السودان «كوش»، وكذلك جزية الغرب والشرق وكل الممالك مجتمعة في وقت واحد، وكذلك الجزر التي في قلب البحر تحضر جزية للملك عندما كان على عرش «إخناتون» العظيم؛ لأجل تسلم جزية كل قطر مانحًا أهلها نفس الحياة.

وبداية هذا المنظر يظهر فيها أن الموكب كانت طلعته من القصر.

وقد كان الملك والملكة جالسين في محفة فاخرة محمولة على أعناق رجال الحاشية، وقد كان «إخناتون» يجلس الجلسة التقليدية الجامدة. أما «نفرتيتي» فكانت تطوِّق وسطه بذراعها في حنان وحب، وهذا الوضع كان شائعًا منذ الدولة القديمة، وتُشاهد الأميرات يمشين خلف المحفة يتبعهن وصيفاتهن، ولم يكن حاضرًا منهن إلا اثنتان، وكان يسير في ركاب الموكب ثلة من الجنود الذين على ما يظهر قد جُنِّدوا من قبائل البدو؛ لأنهم كانوا مسلحين بالعِصِيِّ الخاصة المعقوفة التي تحملها تلك القبائل، كما كان كل واحد منهم يحلي شعره بريشتين، ويُرى «حويا» بين هذه الثلة من جنود الحرس، ولكنه كان يلبس ملابس عادية، ونشاهد كاهنًا يحرق البخور أمام المحفة الملكية، في حين نجد على رأس الموكب طائفة من الغلمان والرجال يرقصون بحركات عنيفة، وهؤلاء قد يكونون هتافين كما هي الحال في كل زمان أو متفرجين يعبرون عن شعورهم بالفرح لهذه المناسبة، وقد كانت تتبع الموكب الملكي عربات ملكية يحرسها سائسون. والظاهر أن الحفل كان مجرد استعراض أو تمثيل عودة الموكب الملكي.

أما الجزية التي أحضرتها الأمم الخاضعة، فكانت محمولة أمام الموكب يحرسها الشرطة، وجزية الشمال يحوي عربتين وأربع ركائز من النحاس وعددًا عظيمًا من الأواني المنمقة وأواني أخرى عليها أغطيتها في صورة رءوس حيوانات قد وُضعت على قواعد لأجل أن يفحصها الفرعون. أما جزية الجنوب فخاصة بمدنية هذه الأصقاع، وتحتوي على عبيد وُضعوا في الأغلال، وقد ساروا فرادى وأزواجًا وأولادهم ونساؤهم خلفهم. كما تحتوي على جلود فهود، وحلقات من الذهب، وحليات مزينة بالأزهار والنباتات أيضًا. هذا إلى حقائب ملأى بالتبر والعاج وسن الفيل والقردة الحية والغزلان وفهد.

وقد كان عدد العبيد من السوريين يفوق عددهم من السودانيين؛ إذ نجدهم قد مُثلوا في تسعة صفوف يختلف عدد كل صفٍّ من أربعة إلى ستة، وكلهم ينتظرون مقدم الفرعون، وقد كانت كل طائفة في حراسة ضابط مصري وحارس. ولما لم تكن هناك أعمال حربية فلا بد أنهم كانوا عبيدًا أو رهائن لضمان الجزية المفروضة على بلادهم، ومعظم هؤلاء المساجين كانوا عبيدًا مصفدين بالأغلال. وقد لاحظنا حتى الآن أن معظم المناظر التي وصفناها كانت خاصة بالأسرة المالكة واستعراضاتها، غير أن «حويا» لم ينسَ أن يُظهر نفسه في أهم لحظة من لحظات حياته الحكومية؛ فقد صوَّر لنا منظر تنصيبه في وظيفة «المشرف على الحريم الملكي»، والمشرف على الخزانة، ومدير بيت الأم الملكية «تي».

وقد كان من الطبعي أن تحتل صورة «إخناتون» المكانة الأولى في هذا المشهد وبصحبته «نفرتيتي»، وكانا يطلان من النافذة لمنح العطايا الذهبية المعتادة في مثل هذه المناسبة. والظاهر أن الهدية لم تكن سخية؛ وذلك لأن «حويا» لم يكن موظف الملك نفسه، بل كان موظفًا في خدمة والدته يدير بيتها وأملاكها، وقد أراد الفرعون في هذه الحالة أن يوافق على هذا التعيين وحسب. وعلى أية حال فإن مكافأة «حويا» لم تكن بعيدة المنال؛ إذ نشاهده في مناسبة أخرى يتسلم هدية ملكية عظيمة من الفرعون نفسه؛ فقد خلع عليه لقب «الممدوح من سيد الأرضين» (Ibid Pl. XVII.)، فنشاهد جيده قد أُحيط بقلائد ضخمة من الذهب في حين أن معصميه قد حُليا بأساور من الذهب أيضًا.

وفي أسفل هذا المنظر نشاهد «حويا» يفحص المصانع المختلفة للفرعون، وذلك بوصفه المشرف على الخزانة، غير أن معظم المنظر قد هُشم، ولكن لحسن الحظ قد بقي منه تحفة تحدثنا عن براعة النحات المصري في ذلك العهد وحسن ذوقه؛ فقد أجاد في إخراجها حتى ليخيل للإنسان أنه كان يعمل عشقًا في الفن ورغبة فيه. ولا يبعد أن

«أوتا» المثَّال الذي يُصور هنا كان هو المفتن المكلف تزيين القبر وزخرفته، فلم يألُ جهدًا في تخليد ذكراه بهذه الكيفية؛ فنشاهد «أوتا» رئيس المفتنين لزوج الملكة العظيمة «تي» جالسًا على كرسي يقوم بعمل الزخرفة النهائية لتمثال للأميرة «بكت آتون»، والواقع أن التمثال كان قد تمَّ نحته، وكان «أوتا» يلوِّنه ويعطيه الصيغة النهائية، ويُلاحظ أن أحد تلاميذه كان في أثناء ذلك ينظر بدقة إلى حركات يد معلمه وطريقة عمله، وكذلك يُلاحظ أنه كان بجانبه مفتنون آخرون مجدون في عملهم؛ فكان واحد منهم يعمل بقدومه ليكمل قائمة كرسي على هيئة أسد، في حين كان الآخر يعمل في إخراج رأس تمثال ... إلخ. على أن المنظر الذي يُعد غاية في الأهمية من الوجهة التاريخية في مقبرة «حويا» هو ذلك الذي نشاهده على كلا عارضتي الباب المؤدي إلى الحجرات الداخلية، وهو يمثل صورة «حويا» والصلاة التي كان مفروضًا أن يقرأها. وعلى العارضة اليمنى نشاهد كلًّا من «إخناتون» و«نفرتيتي» يعلوهما قرص الشمس بأشعته، وعلى العارضة اليسرى «إخناتون» و«أمنحتب الثالث» والملكة «تي»، وقد ذُكر هنا «أمنحتب الثالث» بلقبه «نب ماعت رع»، غير أنه لم يُنعت بالمرحوم؛ مما يدل على أنه كان لا يزال على قيد الحياة (Ibid p. 15.)، وكذلك يُشاهد على عتب هذا الباب الملك «إخناتون» والملكة «نفرتيتي» على اليسار جالسين جنبًا لجنب، وعلى الجهة اليمنى نشاهد «أمنحتب الثالث» وزوجه «نفرتيتي» والأميرة «بكت آتون»، وهذا المنظر يوحي بأن «أمنحتب الثالث» كان لا يزال حيًّا في السنة الثانية عشرة من عهد حكم «إخناتون»، وقد تناولنا بحث هذا الموضوع في مكانه.

والغريب الذي يسترعي النظر في رسوم مقبرة «حويا» أنه لم يَحِدْ عن الشعائر التقليدية التي كانت متبعة في الدفن منذ أقدم العهود؛ لدرجة أنه رسم موميته على صورة «أوزير»، غير أنه عند الدعاء بطلب القربان من كل نوع وجه دعاءه للإله «آتون»، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تمسكه بالقديم وعدم تأثره بمذهب «آتون» من كل وجه، وبخاصة إذا علمنا أن سيدته «تي» كانت من أتباع الديانة القديمة على وجه عام (راجع Ibid p. 16).

«أحمس» كاتب الفرعون الحقيقي

كان «أحمس» هذا من خدام الفرعون المقربين، وكان متصلًا به اتصالًا شخصيًّا، وألقابه الحكومية هي: كاتب الفرعون الحقيقي، ومحبوبه، وحامل المروحة على يمين الفرعون،

والمشرف على قاعة المحكمة، ومدير بيت «إخناتون». وقد كان يحمل غير هذه الألقاب بعض ألقاب شرف وهي: «حامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الذي على رأس السمار، والحارس لخطوات رب الأرضين.» وعلى أية حالٍ نلاحظ أن معظم موظفي «إخناتون» كانوا لا يحملون إلا ألقابًا حقيقية. أما ألقاب الشرف الجوفاء فقد اختُصرت، وأصبح عددها قليلًا بالنسبة للعهود السابقة، وهذا ليس بغريب عندما نعلم أن نظام هذا الملك في الحكم كان على أسس جديدة؛ ولذلك كان كل الرجال الذين في خدمته يحملون ألقابًا حقيقية.

وقبر «أحمس» يُعد إحدى المقابر التي لم يتم نحتها ونقشها، ومما يُؤسف له أن الجزء الذي لم يتم نقشه هو الذي كان قد خُصص لنقوشه الشخصية وحياته الحكومية؛ ففي أحد المناظر التي تم نقشها نشاهد الملك والملكة ومعهما إحدى بناتهما في عربة ذاهبة إلى المعبد دون أي حفل أو موكب في صورة غاية في البساطة، ومما يُلحظ في هذه الصورة أن الملكة قد مالت على الملك كأنها تريد أن يقبلها في وسط الشوارع العامة[١٥١] (Ibid. p. 28. Pls. XXXII, XXXII a).

وفي منظر آخر نرى أعضاء الأسرة المالكة قد ساروا يصحبهم حرس ظهر فيهم جنود من السوريين واللوبيين والسودان (Ibid. Pl. XXXI)، كما نشاهد الأسرة المالكة ثانية في حفل أسري (Ibid. Pls. XXXII–XXXIV)، فالملك والملكة جلس كل منهما على كرسي في قاعة الطعام، يقدم لهما الخدم المأكولات من موائد وُضعت بالقرب منهما، وكانا يلتهمان الطعام بشره؛ فقد أمسك الملك بطة فنهشها نهشًا، في حين أن «نفرتيتي» قد قبضت بيدها على ضلع لحم وتأكل منه برغبة وشهية! وقد جلست أميرتان بجانب والدتهما على مائدة خاصة بهما، في حين أن أميرة صغيرة ثالثة كانت تجلس على حجر والدتها، وكان الخادم يقدم «لنفرتيتي» قدحًا من الخمر (؟)، وخلف كرسي الملكة كانت تقف مربيات القصر وطائفة المغنيات، وفي الخلف نشاهد جزءًا من القصر بما في ذلك حجرة المأكولات وحجرة «الحريم»؛ حيث كانت النسوة يمتعن أنفسهن بالموسيقا والنوم على الفراش الوثير.

وهنا يشاهد الإنسان سريرًا كُدس بالفراش الوثير حتى كان من الضروري لمن يصعد إليه أن يتسلق درج سلم، هذا فضلًا عن أن من يقضي ليلته في هذه الحجرة لن

[١٥١] راجع: Ibid. p. 33.

يشكو جوعًا أو عطشًا؛ إذ قد وُضع بجانب رأس النائم مائدة مكدسة بالخبز الذي وُضع فوقه أوزة مشوية وخسة، وكذلك كان يوجد بجانبه إبريقان من الشراب (راجع Ibid Pl. XXXIII).

والأماكن التي يظهر فيها «أحمس» هذا هي واجهة القبر وعارضتا الباب؛ حيث نشاهده يتعبد للإله «آتون» (راجع Ibid. p. 31 & 32. Pls. XXVII–XXIX).

«آني» قريب الفرعون

كان «آني» من المقربين كذلك إلى الفرعون؛ كما يدل على ذلك ألقابه، وهي: قريب الفرعون[١٥٢] الذي يحبه، وكاتب الفرعون الحقيقي، وكاتب مائدة قربان رب الأرضين، وكاتب مائدة قربان «آتون» لأجل «آتون» الذي في معبد «آتون» في «إختاتون»، ومدير بيت «أمنحتب الثاني». وقد أُهدي لذكرى هذا الرجل ما لا يقل عن ست لوحات صغيرة، ويُحتمل أن الذين أهدوها إليه هم أشخاص من الذين كانوا في خدمته إلا لوحة واحدة أهداها أخوه «بتاح معي».

على أن هذه الظاهرة لم نجدها حتى الآن في أية مقبرة من مقابر هذه الجبانة؛ ومن ذلك نفهم أن «آني» هذا كان رجلًا رقيق العواطف حلو الشمائل؛ مما جذب إليه قلوب من كانوا في خدمته وأصدقائه. والواقع أن ما جاء من العبارات على هذه اللوحات يشعر بعطف وحنان وحب صادق، ومما يلفت النظر كذلك أن تقاطيع وجه «آني» قد مُثلت تمثيلًا صادقًا على هذه اللوحات، ومنها نفهم أن «آني» كان مرتفع السن عند وفاته، وأنه اعتنق مذهب «آتون» في أواخر أيامه. وهذا يتفق مع اللقب الذي كان يحمله في عهد «أمنحتب الثاني» وهو مدير بيت «أمنحتب الثاني»؛ وذلك أنه إذا كان فعلًا يشغل هذه الوظيفة في عهد «أمنحتب»، فلا بد أنه كان موظفًا مدة لا تقل عن خمسين سنة وعاصَر أربعة ملوك.

وقد دُفن «آني» في قبره «بتل العمارنة» قبل أن يتم تزيينه، اللهم إلا بعض أجزاء قليلة منه تم تزيينها (راجع Ibid. p. 7)، فنجد على العتب منظرًا للفرعون والملكة وثلاث

[١٥٢] راجع: Davies, “El Amarna”, Vol. V. p. 7.

من بناتهن يقدمن القربان للإله «آتون» ونشاهد «آني» في منظرين يتقبل القربان (راجع Ibid. Pls. IX, X). وفي ثالث نشاهده كأنه يدخل قبره (Ibid. Pl. XX.)، وكل هذه المناظر قد صُورت بالألوان فقط، ويظهر فيها رسمه الجانبي رسمًا متقنًا يلفت النظر.

أما اللوحات التي أُهديت إلى «آني» فتستحق الذكر، وهاك وصفها:

الأولى: لوحة قدمها «باخا» مدير الأعمال، ويُشاهد عليها وهو يقدم طاقة من الأزهار إلى «آني»، ويقول: إلى روحك طاقة من «آتون» ليمنحك النسيم، وليضم أعضاءك معًا، وليتك ترى «رع» عندما يشرق وتعبده، وليته يسمع ما تقول (راجع Ibid. p. 10. & Pl. XXI).

واللوحة الثانية: أهداها كاتب يُدعى «نب وعوي» (Ibid. p. 10. Pl. XXI)، ويُرى في أعلى اللوحة واقفًا أمام «آني» قائلًا: تأمل الثور الذي قيل عنه «احضره». وفي أسفل يُشاهد «نب وعوي» يقود الثور إلى الأمام ويقول: لقد رأينا الأشياء الطيبة التي فعلها الحاكم الطيب، وكاتب موائد قربانه، لقد أمر له بدفن حسن في «إختاتون».

واللوحة الثالثة: أهداها خادم كاتب الفرعون «آني» الذي يُسمَّى «آني من»، ويُشاهد وهو يقدم إناء ضخمًا من الخمر إلى «آني» قائلًا دع الخمر تُصب لك (راجع Ibid. p. 10, Pl. XXII).

اللوحة الرابعة: يحتمل أنها كانت مهداة من سائق عربة «آني» المسمى «ثاي» وإن كانت النقوش لا تذكر ذلك، وقد مُثل عليها «آني» راكبًا في عربته وبجانبه «ثاي» يقود الجوادين (راجع Ibid).

اللوحة الخامسة: قد أهداها «بتاح معي» وهو أخو «آني»، ويُشاهد الأخوان معًا على اللوحة، ويُوجد بينهما وجه شبه كبير (راجع Ibid. p. II, Pl. XXIII).

اللوحة السادسة: وقد أهداها الخادم «آي»، ويُرى مقدمًا طاقة لسيده «آني» وهو يقول: لروحك (أو لحضرتك) طاقة من «آتون» الذي يحبوك ويحبك (راجع Ibid).

با آتون-محب

كان «با آتون-محب» يحمل الألقاب التالية: مدير أعمال «إخناتون»، ومدير بيت رب الأرضين، والمشرف على جنود رب الأرضين (راجع Davies Ibid, Vol. V, p. 15)، وقبر

هذا الرجل لا يشتمل إلا على مدخل؛ إذ قد ترك العمل فيه بعد ذلك، وقد قيل إن «با آتون-إم-حب» كان الاسم المؤقت الذي انتحله «حور محب» في عهد «إخناتون» وهو الذي أصبح فيما بعد الفرعون المشهور الذي خلص مصر من الفوضى وأعاد لها بعض مجدها القديم.

إبي

إن تاريخ هذا الموظف يحيطه شيء من الغموض، وقد عُثر على عقد باب من الحجر الجيري في أحد بيوت مدينة «إخناتون» وعليه ألقاب موظف يُسمَّى «إبي» وهي: «كاتب الملك ومدير بيت «منف» ومدير ... له الحياة والسعادة والصحة في «إخناتون» ومدير البيت» (راجع Roeder, “Aegypt. Insch. Mus. Berlin” Vol. II, p. 399).

وكذلك عُثر على قبر لم يتم بناؤه بعد، ولم يُدفن فيه أحد في جبانة «تل العمارنة» باسم فرد يُدعى «إبي»، وكان يُلقب: كاتب الملك ومدير البيت أيضًا (راجع Davies, “El Amarna”, Vol. IV, p. 101, Pl. XXXI).

وتدل شواهد الأحوال على أن هذين الأثرين هما لرجل واحد، ولا نزاع في أنهما «لإبي» ابن مدير البيت العظيم «أمنحتب» الشهير الذي تكلمنا عنه فيما سبق؛ وذلك لأن «إبي» يحمل على اللوحة التي أهداها لوالده في قبره «بمنف» الألقاب التالية: كاتب الملك، والمدير العظيم لبيت «منف» (راجع Schiaparelli, Cat. Mus. Florence No. 1617)، وحامل المروحة على يمين الفرعون، والمدير العظيم للبيت (راجع Lieblein Dic. Noms, II, p. 791, No. 2053).

ومع كل فالظاهر أن «إبي» لا بد قد أقام قبره في «منف» بالقرب من قبر والده «أمنحتب»، وقد وُجدت أواني أحشاء مصنوعة من المرمر كُتب عليها اسمه وألقابه (راجع Hayes, J. E. A. Vol. XXIV p. 24)، ومن المحتمل أن «إبي» كان من رجال «منف» الذين لم يكن لهم ميل خاص لعبادة «آمون» فاعتنق ديانة «آتون» وهاجر مع الفرعون إلى «إختاتون» حيث سكن بعض الوقت وقام بنحت قبر لنفسه هناك، ولكن عندما حدث انقلاب على عبادة «آتون» رجع إلى «منف» حيث دُفن هناك على ما يُظن في عهد «توت عنخ آمون» أو «آي» أو «حور محب». وفي القبر الذي نحته في «تل العمارنة» نجد أن أحسن المناظر المحفوظة التي تمثل أعضاء الأسرة المالكة، وهم يتعبدون «لآتون»، ويُحتمل أن هذا القبر كانت قد طغت عليه الرمال فأخفته عن الأعين في عهد الانقلاب؛

ولذلك بقي لنا هذا المنظر الطريف محفوظًا، وكان قد نُحت بأحسن طراز ممثل لهذا العصر، ونشاهد فيه (Davies, Ibid. Pls. XXXI, XLIV.) «إخناتون» و«نفرتيتي» وثلاثًا من الأميرات وهن «مريت آتون» و«مكت آتون» و«عنخس با آتون»، والجميع يقدمون قربًا للإله «آتون» الذي كان يرسل أشعته في صورة أيد بشرية على الفرعون وزوجه.

والواقع أن المنظر نفسه تقليدي، ولكن ما يلفت النظر هو القربان الذي يقدمه الملك وزوجه؛ فالذي يقدمه «إخناتون» هو قطعة مزخرفة نشاهد فيها طغراءي «آتون» يكتنفهما ويسندهما تمثالان صغيران يمثلان أميرتين. أما القربان الذي تقدمه «نفرتيتي» فهو من هذا الطراز نفسه، اللهم إلا أن الطغراءين يستندان على صورة واحدة صغيرة تمثل الملكة نفسها. والظاهر أن الفرعون لم يكن وحده هو الذي يقدس اسم «آتون» بل كانت كذلك أسرته، كما يوحي بذلك هذا المنظر. وقد ذُكر اسم «إبي» على جِعْران في متحف «تورين»، ولكنه يحمل لقب المشرف على أعمال بيت الذهب (التحنيط)، ومن المحتمل جدًّا أنه ليس هو نفس «إبي» المدير العظيم للبيت وكاتب الفرعون (راجع A. S. Vol. X, p. 108).

«بنثو» الطبيب الأول

كان «بنثو» يحمل الألقاب التالية: «كاتب الملك، والمدير الفرعوني، والخادم الأول للإله «آتون» في معبد «آتون» في «إختاتون»، والطبيب الأول والتشريفاتي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، ومقتفي قدمي رب الأرضين، والذي يقترب من شخص الفرعون وعظيم العظماء، والممدوح من الإله الطيب، والسمير رئيس السمار.» ومن هذه الألقاب نعلم أن هذا الموظف كان من الشخصيات البارزة في هذا العهد، ومن المقربين عند الفرعون، وبخاصة لأنه كان طبيبًا ماهرًا، ومما يؤسف له أن رسوم جدران مقبرة هذا العظيم وُجدت في حالة سيئة جدًّا؛ إذ قد تساقط معظمها، وكذلك لأن القبر كان قد اتُّخذ مسكنًا لبعض الأفراد الذين أرادوا أن يُدخلوا بعض التحسينات في داخله ليجعلوه صالحًا لسكناهم، والصور التي على الجدران كلها صور تقليدية من جهة الموضوع والفن؛ فنشاهد منظر ذهاب الفرعون لزيارة المعبد، وكذلك مكافأة المخلصين له في عملهم من الموظفين، ومنظر الأسرة المالكة على المائدة. ومن المدهش أن هذه المناظر التي كانت وقفًا في الأزمان السالفة على رجال من علية القوم مثل «بنثو»، غير أنها أصبحت تُرسم في بعض مقابر الموظفين في عهد «إخناتون».

نفر خبرو حر سخبر

كان «نفر خبرو حر سخبر» عمدة «إخناتون»، كما كان يحمل لقب رئيس الأشراف، وقبره من الوجهة الهندسية يُعد من أجمل المقابر في هذه الجبانة (راجع .Davies, Ibid p. 23)، غير أنه تُرك ولم يتم نحته ونقشه؛ إذ نجد أن بعض العمد لم تُفصل بعد من أصل الصخر، وكذلك الزخرفة لم تُرسم، وكل ما وجدناه تذكارًا لهذا العظيم هو بعض نقوش خُطت بالمداد على جانبي المدخل، ويدل عدم كتابة لقب الفرعون على الجانب الأيمن على أن العمل في هذا القبر قد أُوقف فجاءة.

ماع نختوف

لم يُعثر حتى الآن على قبر هذا الموظف، وكل ما نعلمه عنه مستقًى من نقش عتب بابه الذي كُشف عنه في مدينة «إختاتون» (راجع .Roeder, "Aegypt. Insch. Mus. Berlin" .(p. 127–129

وتدل ألقابه على أنه كان رجلًا مشغولًا طوال مدة خدمته الحكومية؛ إذ كان يحمل لقب المشرف على البنائين الذين كانوا يعملون في «إختاتون»، والواقع أننا عندما نفكر في عدد المباني الجديدة التي كان عليه أن ينجزها للفرعون، ورجال حكومته في أقصر زمن ممكن؛ أدركنا أن أولئك الذين كلفوا هذا العمل لم يعد لديهم من الفراغ شيء. وألقابه هي: مدير البنَّائين، ومدير بنَّائي آثار جلالته، ومدير بنَّائي رب الأرضين، ومدير البنَّائين في «إختاتون» ورجل البلاط الذي يتبع تعاليم جلالته.

«محو» رئيس الشرطة

كان «محو» رئيس شرطة مدينة «إختاتون» (.Davies, Ibid. Vol. IV, Pl. XXI)، وقد تكلمنا عن الدور الذي قام به في المؤامرة التي دُبرت حول العرش، وهذا الحادث قد مُثل في قبره بتل «العمارنة» (.Ibid. Pl. XXVI)، وزخرفة هذا القبر لم تتم؛ ولذلك نجد معظم المناظر قد خُطت بالمداد فقط، والفن الذي نشاهده في هذه المقبرة يعطينا صورة عن فن «تل العمارنة» في نهاية مدته، بما فيه من سوء استعمال النِّسب في رسم أعضاء الجسم، وكذلك رسم الوجوه الإنسانية القبيحة. غير أنه في مقابل هذه النقائص نجد الرسام قد أُعطي هبة وحرية مطلقة في تمثيل الحركات السريعة، وحسًّا ماكرًا ينطوي

على التنكيت. هذا فضلًا عن أن مناظر قبر «محو» تشمل أشياء مبتكرة، مما لا نجده في مناظر القبور الأخرى في هذه الجبانة، وقد يعزى ذلك إلى طبيعة وظيفة صاحبه وما ينطوي عليه من مناظر جديدة، فنجد المثال حتى في المناظر التقليدية في هذا القبر قد أعطاها طابعًا خاصًّا؛ فمثلًا نجد هنا منظرًا آخر للفرعون، و«نفرتيتي» والأميرة «مريت آتون» راكبين معًا، في عربة، كما شاهدناهم في قبر «أحمس»، ولكن يلفت النظر هنا أن «نفرتيتي» تظهر بمظهر الحب فتغازل الفرعون مما يربكه وهو يسوق عربته، وقد زاد في ارتباكه أن الأميرة «مريت آتون» كانت مائلة على مقدمة العربة وتضرب الجوادين بعصا (راجع Ibid. Pl. XXII).

وفي المنظر الذي نشاهد فيه الملك والملكة مغادرين أبواب المعبد نجد ثلة من الشرطة في ركابهما، وكذلك الوزير «محو» والكل يهرولون أمام العربة. حقًّا إن ذلك ليس بالشيء المتعب للجنود النشطين الذين كانوا يسرعون بعزم وقوة الشباب، ولكن «محو» كان يظهر عليه عدم الارتياح لهذا التمرين العنيف، وكان منظر الوزير البائس يثير الضحك وهو يتعثر في جريه، وكأنا نسمع دقات قلبه وسخطه وهو يجهد نفسه في السير بخطًا واسعة مع رفاقه الذين كانوا يبدون نشاطًا وحيوية في جريهم.

غير أن من أهم الأشياء التي تلفت النظر في المقبرة ما نشاهده في المنظر الذي يتمثل لنا فيه نظام الشرطة في العاصمة الجديدة. وأول ما يُلحظ هو عدم وجود سلاح مع حرس الشرطة الذين يتبعون الفرعون؛ مما يدل على أنه كان محبوبًا، على الرغم من المؤامرة التي قامت عليه في مدينته، اللهم إلا إذا كانت قد وقعت بعد ذلك. وفي مكان آخر نشاهد أن محل الحراسة كان محصنًا وليس له إلا باب واحد، والدخول منه كان محروسًا بسياج من هيئة أعمدة يصل بعضها ببعض حبال حاجزة (راجع Ibid. Pl. XXIV). والظاهر أنه كانت توجد سلسلة بيوت حراسة صغيرة متباعدة حول المدينة، وكان يحتل كل واحد منها حارس. وفي منظر آخر نشاهد «محو» وهو يقوم بأعمال وظيفته بنشاط؛ ففي مكان نشاهده يتصل بالوزير الذي كان لا بد أن يقدم له تقاريره. وفي جهة أخرى نجده يفحص معدات جنوده ويشرف على إحضار مواد الطعام (جراية الشرطة)، كما يُشاهد مخزن أسلحة يحرسه ثلة من الجنود مسلحة تسليحًا تامًّا.

وقد كُوفئ «محو» على إخلاصه؛ إذ نشاهده خارج المعبد وهو يقدم شكره للإله على ما غمره به الفرعون من أطواق الذهب الكثيرة (راجع Ibid. Pl. XVIII).

«باك» مدير أعمال محاجر الجبل الأحمر

كان «باك» هذا ابن أحد رؤساء النحاتين الذين قاموا بنحت الآثار العظيمة للفرعون «أمنحتب الثالث»، ووالده هو «مين» الذي تكلمنا عنه في عهد «أمنحتب الثالث» (راجع ...)

وقد اقتفى «باك» خطوات والده؛ فكان يشغل الوظائف التالية: مدير أعمال محاجر الجبل الأحمر، والذي علمه جلالته بنفسه، ورئيس النحاتين للآثار العظيمة للملك في معبد «آتون» في بلدة «إختاتون».

وصورة هذا الموظف ونقوشه نشاهدها في نقش على لوحة في الصخر بالقرب من «أسوان» مع والده، وقد ظهر فيها وهو يتعبد لتمثال «إخناتون» (؟) وقد محا اسمه واسم والده من هذه اللوحة بعد الانقلاب الذي حدث بموت «إخناتون»، غير أن اسم «آتون» بقي ولم يُصب بسوء (راجع De Morgan. Cat. Mon. p. 40. No. 17. 4)، على أن ما يلفت النظر هنا في لقبه الأول أن «إخناتون» كان هو المعلم الأول لهؤلاء المهندسين والنحاتين، وذلك لتنفيذ فكرته الخاصة بالفن في تلك الفترة.

«مري-إتي نيت» الكاهن المطهر الثاني

كان «مري-إتي-نيت» أحد موظفي الفرعون في الأقاليم، ومعلوماتنا عنه قد جاءت إلينا من قطعة حجر منزوعة من مقبرة خربت بالقرب من مصطبة الفرعون الواقعة جنوبي «سقارة»، وألقابه هي: الكاهن المطهر الثاني، ومدير بيت معبد «آتون»، ويمكننا أن نقول ببعض التأكيد إن «مري-إتي-نيت» هذا كان أحد موظفي معبد «آتون» في «منف» (راجع Roeder, “Aegypt”, Insch. Mus. Berlin. Vol. II p. 121).

«سارا بيخينا» المسمى «أبي» كاهن الإلهة «عشتارت» والإله «بعل»

هذا الموظف كان — كما يدل اسمه — أجنبيًّا، ولما كان اسمه تمجه الآذان فقد تسمى باسم مصري خفيف على السمع واللسان. وكان مثله كمثل سابقه «مري-إتي-نيت»؛ أحد الموظفين في معبد الشمس بمنف، وكان يحمل لقب كاهن الإلهة «عشتارت» والإله «بعل»، ومما هو معلوم أن هذه الإلهة كانت تُعبد في «منف»؛ حيث كانت أحيانًا يُشار إليها بابنة الإله «بتاح» أعظم آلهة هذه الجهة. وقبر هذا الموظف يظهر أنه كان في منطقة «سقارة» (راجع Petrie, “Memphis”, I, PP. 8, 19 & L. D. Text. Vol. I, p. 16).

«معي» المشرف على جياد الفرعون

ظهر «معي» هذا هو وطائفة عظيمة من كبار الموظفين في مقبرة الوزير «رع موسى»، والظاهر أنه كان ضمن موظفي الفرعون «إخناتون» يقوم بأعباء وظيفته: المشرف على جياد رب الأرضين، ورسول الفرعون في كل بلد والمقرب إليه (راجع Steindorff, "Kunst der Aegypter", p. 236).

«رع نفر» المشرف على جياد كل الإصطبل

وكان «رع نفر» كذلك أحد الموظفين القائمين على صيانة جياد الفرعون؛ إذ كان يحمل لقب «المشرف على جياد كل الإصطبل».

ولم تصلنا أية معلومات عن هذا الموظف إلا ما جاء عنه في نقش وُجد في إحدى كوات منزل بمدينة «إختاتون» (راجع Peet & Woolley, "The City of Akhetaton", I, Pl. IX. 6).

«بارت نفر» ساقي الفرعون

كان «بارت نفر» ساقي الفرعون، وغاسل يدي جلالة الفرعون (؟) (راجع Davies, "El Amarna", VI, Pls. III, VII, p. 6). (أو نظيف اليدين على حسب رأي آخر في الترجمة)، ويُوجد في «الخوخة» «بطيبة الغربية» مقبرة تحمل رقم ١٨٨، وتُؤرخ بلا نزاع بعهد «إخناتون»، غير أن اسم صاحبها قد مُحي عن قصد في كل مكان وُجد فيه على جدران المقبرة، وصاحبه يحمل لقب ساقي الفرعون، ونظيف اليدين، ومدير البيت؛ على حسب ما جاء في ترجمة «جاردنر» و«ويجول» (Gardiner & Weigall, Cat. No. 188.)، والفن الذي يُشاهد في نقوش هذه المقبرة يرجع إلى بداية عهد «إخناتون»، ويميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن هذا القبر قد عمل «بارت نفر» رسمه، ثم هجره ورحل مع سيده «إخناتون» إلى بلدة «إختاتون»، وهناك أقام مقبرة، وعلى الرغم من أنها صغيرة الحجم فإن الجزء الذي تمَّ منها زُخرف بكرم وإتقان. وتدل شواهد الأحوال على أنه قد جلب لنفسه غضب الفرعون لسبب ما؛ وذلك لأن القبر لم يتم زخرفته، وكذلك مُحي اسمه في كل مكان وُجد فيه على الجدران، ولا بد أن هذا الغضب له علاقة بما حدث في القبر الذي نُحت في «الخوخة» (رقم ١٨٨). والواقع أن قبر «بارت نفر» يحتوي مناظر غاية في الإتقان،

وبخاصة التي تم نقشها. ومن المناظر النادرة منظر زيارة الأسرة المالكة زيارة غير رسمية لمقبرة هذا الموظف. وقد يجوز أن هذه حادثة حقيقية، أو باعتبار ما سيكون قد نسجها خيال «بارت نفر»، فيُرى الملك والملكة يسيران على مهل وبتؤدة وساعد الملك مطوي حول رقبة زوجه، ويداهما مشتبكتان معًا (راجع Davies, Ibid. Vol. VI, Pls. III, VII, VIII)، وفوقهما قرص الشمس مرسل أشعته تتدلى منه الأيدي البشرية التي تمسك بالفرعون من تحت إبطه كأنها تحميه من التعثر في حجارة الصحراء، وأمام الفرعون تابعون يسيرون حاملين المظلات لوقايته من حر الشمس. وهكذا نشاهد في منظر واحد «آتون» يحمي الملك من السقوط، ويحمي هو من حرارته، وبذلك يجتمع النقيضان.

ويأتي خلف الملكة ثلاث من الأميرات ومعهن مربيتهن، وإثر هذا المنظر يُشاهد الخدم يحملون الكراسي وأدوات الكتابة. ولم يُذكر اسم «بارت نفر» في هذا المنظر. وعلى أية حال فإن هذا الموظف قد كوفئ على إخلاصه؛ إذ نشاهد الفرعون وزوجه السمحة الوجه يقدمان له ذهب الجدارة، وقد كان حاضرًا في هذه المناسبة السعيدة الأميرات الثلاث و«موت بنرت» أخت «نفرتيتي» (راجع Ibid. Pl. IV)، وهذا المنظر قد بقي مخطوطًا بالمداد فقط فلم يُحفر، وما تبقى منه يظهر فيه «بارت نفر» وهو عائد إلى بيته في عربته وفي ركابه طائفة من أتباعه يحملون المنحة الملكية، وعند وصوله تخرج زوجه من بيتها مهرولة نحوه رافعة يديها، وكانت أول من حياه وهنأه، وقد كان ثناؤها على الهدية الملكية عظيمًا، ثم جاء خلفها طائفة من العذارى يرقصن ويضربن على الدفوف. والظاهر أن بعضهن قد أسرعن لمقابلته حتى إنهن قد خرجن عاريات الأجسام (راجع Ibid. Pl. V).

وفي منظر آخر يُرى الفرعون وقد مُثل جالسًا على عرشه تحت مظلة وأمامه موظفان لم يُذكر اسمهما، أحدهما حاملٌ إبريقًا ومنديلًا، ويظهر أنه يقدم شرابًا للفرعون، والثاني يُرى راكعًا، ولا بد أن الأول هو ساقي الفرعون «بارت نفر» نفسه وهو يؤدي وظيفته (Ibid. Pl. VI). والمنظر مهشم تهشيمًا كبيرًا، غير أنه يمكننا أن نرى جماعات من المغنيات وصفًّا عظيمًا من الأباريق والأطعمة قد وُضعت خلف القبر (؟)؛ مما يبرهن على أنه كان ساقي الفرعون حقيقة.

توتو

لقد دلَّ البحث العلمي على أن «توتو» هو نفس «دود» الذي ورد في خطابات «تل العمارنة»، وهو الذي لعب دورًا مشينًا على حسب ما توحي به هذه الخطابات التي تُبودلت بين الفرعون وأمراء آسيا؛ مما أدى إلى سقوط الإمبراطورية المصرية.

وألقابه كما جاء في قبره هي: التشريفاتي، وتشريفاتي سيد الأرضين، والخادم الأول للفرعون، «نفر خبرو رع-وع-ن-رع» في بيت … معبد «آتون» في «إختاتون»، والخادم الأول للفرعون «نفر خبرو رع-وع-ن-رع» في السفينة، والمشرف على كل أوامر رب الأرضين، ومدير كل أعمال جلالته، والمشرف على كل الفضة والذهب، ملك رب الأرضين، والمشرف على الخزانة في «آتون» في معبد «آتون» في «إختاتون» الفم الأعلى لكل الأرضين، والخادم الأعظم للفرعون، والتابع الأول (؟) وخادم «وع-ن-رع» ومدير كل أعمال جلالته.

ومما يُلحظ في قبر هذا الرجل العظيم أن المناظر التي تصف رقيه والمكافآت التي نالها قد برزت بشكل واضح؛ ولذلك نشاهد فيها كل الاحتفالات الضخمة التي أُقيمت بكل أبهة وفخار لهذه المناسبات. وقد كانت المكافآت الملكية تشمل الماشية السمينة كما كانت تحتوي على الحلي الذهبي الفاخر (راجع Ibid, Pls. XVII–XXII)، وقد تكلمنا فيما سبق عن الدور الذي لعبه في سياسة الدولة.

«رع موسى» المدير الملكي

كان «رع موسى» هذا يُلقب المدير الملكي، والمشرف على جنود رب الأرضين، ومدير بيت «أمنحتب الثالث». وعلى الرغم مما يوجد من توحيد في لقبه الأخير واسمه مع اسم «رع موسى» الذي خدم «أمنحتب الثالث» وأقام لنفسه قبرًا في جبانة «شيخ عبد القرنة» يحتوي على مناظر من عهد «إخناتون» وما قبله من الوجهة الفنية؛ فإنه ليس لدينا ما يدعو إلى الاعتقاد بتوحيدهما. والواقع أن قبر «رعموسي» هذا المقام في «تل العمارنة» كان قبرًا صغيرًا، والمناظر التي فيه يظهر فيها الملك «إخناتون» والملكة «نفرتيتي» والأميرة «مريت آتون» يتعبدون للإله «آتون»، ويُشاهد فيه صورة راكعة تمثل «رعموسي» وقد نُقش أمامه وفوقه الصلاة التي يدعو بها ربه (راجع Ibid. Pl. XXXV).

«سوتي» حامل العلم

كان «سوتي» يُلقب بحامل العلم لطائفة جنود الفرعون «نفر-خبرو-رع-وع-ن-رع» (إخناتون) وقبره في «تل العمارنة»، ولم يُنقش منه إلا عارضتا الباب، والنقش دعاء جنازي (Ibid. Pls. XXXVIII, XXXIX, PP. 25, 31).

«حاتياي» مدير مخازن معبد آتون

كان قد كُشف عن مقبرة في جبانة «شيخ عبد القرنة» في عام ١٨٩٦، وعُثر فيها على تابوت كبير، وعليه اسم «حاتياي»، ويحمل الألقاب الآتية: الكاتب، ومدير مخزن غلال معبد «آتون». وقد أرخ الأثري «دارسي» هذا القبر بعهد الفرعون «أمنحتب الثالث» أو بداية عهد حكم «إخناتون» (راجع A. S. II, p. 2). وبعد ذلك عُثر في مدينة «إختاتون» على عتب باب لشخص يُدعى «حاتياي» ويحمل لقب مدير الأعمال، ومحبوب رب الأرضين (راجع "The City of Akhetaton", p. 109, Pl. XXIII, 4).

ولذلك يُحتمل أن يُوحد هذا الرجل بصاحب المقبرة المذكور سالفًا.

«سوتاوي» مدير خزانة رب الأرضين

كان «سوتاوي» يحمل لقب مدير خزانة رب الأرضين.

وقبر هذا الموظف في «إختاتون» صغير جدًّا لم يتم العمل في داخله ولا في خارجه. والظاهر أن هذا التعس لم يجد أملًا حتى في إتمام حجرة دفنه المتواضعة، وكل ما حاوله هو أن تُخلد ذكراه وذكرى الملك على جزء من الجدار في المدخل، فعلى أحد جانبي المدخل رسم أفراد الأسرة المالكة وهم يتعبدون «لآتون»، وأسفل ذلك رسم صورته، وبعض النقوش التي تحدثنا عن أن «سوتاوي» كان رجلًا من أسرة متواضعة، وقد رفعه الفرعون إلى درجة عالية من الغنى والثراء والنفوذ، على أن حجم قبره وحالته لا يدلان على شيء من ادعائه العريض (راجع Davies, "El Amarna", Vol. V, p. 14, Pls. XIV, XV).

«مري رع الثاني» كاتب الفرعون

كان «مري رع» الثاني من كبار رجال بلاط «إخناتون»؛ إذ كان يحمل الألقاب التالية: كاتب الفرعون، والمشرف على (الحريم) الملكي، والمشرف على الخزانة، ومدير البيت، والمشرف على (الحريم) الملكي للزوجة الملكية العظيمة «نفر نفرو آتون» «نفرتيتي» العائشة أبد الآبدين (Ibid. Vol. II, Pl. XXIX).

والواقع أن مقبرة هذا العظيم كان مثلها كمثل المقابر الأخرى في هذه الجهة لم يتم نحتها ونقشها تمامًا، وعلى أية حال فإن الكثير من زخرفتها كان قد أُنجز ويظهر فيه مناظر الأسرة المالكة و«مري رع» وهو يتقبل الإنعامات الملكية من الملك والملكة شخصيًّا، ويعتقد الأثري «ديفز» أن كل مقابر «تل العمارنة» كانت قد نُحتت بأمر ملكي، وأن الملك نفسه هو الذي أمر برسم هذه المناظر الملكية في هذه المقابر، وهي التي يجب أن تكون في قبر الملك نفسه وحده. وأهم منظر على جدران هذه المقبرة هو مشهد استقبال الجزية الأجنبية (راجع Ibid. Pls. XXXVII–XLVII & p. 38ff)، وتاريخ هذا الحادث قد مُحي، والظاهر أنه كان مثل التاريخ الذي وُجد على مقبرة «حويا» القريبة منه؛ وعلى ذلك يمكن أن يكون السنة الثانية عشرة من حكم «إخناتون». وهاك النص: «السنة الثانية عشرة، الشهر الثاني، من فصل الشتاء، اليوم الثامن من حكم ملك الوجه القبلي والبحري، العائش على الصدق، رب الأرضين «نفر-خبرو-رع» بن الشمس، العائش على الصدق، رب التيجان «إخناتون» العظيم في بقائه، والزوجة الملكية محبوبته «نفرتيتي» العائشة أبد الآبدين. ظهر جلالته على عرش الوالد المقدس والملك، «آتون» الذي يعيش على الصدق، وكل رؤساء الأراضي قد أحضروا جزيتهم (أو هداياهم؟) … وملتمسين العطف من يده (؟) حتى يستطيعوا شم نفس الحياة.» والواقع أن النقوش التي في قبر «حويا» كما ذكرنا قد سجلت حادثة لجلب الجزية من «سوريا» و«كوش» والشرق والغرب، وجزر البحر، ومن المحتمل أن هذا الوصف كان مجرد تقليد. وهنا نشاهد الملك جالسًا على العرش ومعه أسرته، وعلى الجهة اليمنى تُرى جزية الجنوب (Ibid. Pl. XXXVII–XL.)، وعلى اليسار أمم الشمال. ويُلاحظ أن الملك وزوجه يجلسان على كرسيين متحدين جنبًا لجنب، ومما يلفت النظر أنه حتى في مثل هذا الحفل العام الذي يظهر فيه وفود الأجانب نرى الملك يجلس جلسة تدل على مغازلته لزوجه، فالملكة تطوق الفرعون بذراعها الأيمن، وذراعها الأيسر وُضع على ذراعه، وهنا نشاهد ست أميرات قد حضرن في

هذا الحفل وهو عدد لم نجده في أي رسم آخر، والأميرتان الجديدتان في هذا المنظر هما «نفر نفرو رع» والأميرة «ستب-ن-رع».

وأمام الفرعون رُسم ستة صفوف تمثل إحضار العطايا بوساطة قبائل عبيد الجنوب، وفي الصف الأعلى نشاهد نماذج الهدايا، وهذه كانت تُقدم في صورة مجاميع مزخرفة على حسب ذوق الأهالي؛ فمثلًا نجد هنا كومة مزخرفة بالجلود وذيول الحيوان، والخواتم من الذهب مدلاة في هيئة سلاسل طويلة، في حين نرى كذلك صفًّا من ريش النعام يزين الجانب الأعلى، ويُشاهد هنا كذلك جزية أخرى مؤلفة من الدوم يحتمل أنها صُنعت من المعدن الثمين، وخلف ذلك يوجد أطباق عظيمة عليها ركائز من المعادن، وحقائب من التبر، وخواتم من الذهب، ودروع وسهام وأقواس، وأسفل ذلك نرى هدايا مماثلة للسالفة مقدمة من رؤساء بلاد «واوات» أو «يام» في بلاد النوبة، كما نشاهد من بينها بعض الحيوان مثل الفهود الأليفة والغزال (؟).

وفي الصف الثالث نشاهد أسرى ضمن الجزية، ومن بينهم نحو اثنتي عشرة جارية قد وُضعت الأغلال في أعناقهن وفي أيديهن، وكل واحدة منهن كان يتبعها ثلاثة أطفال أو أربعة، والكبار من الأطفال يسيرون بجانب الجواري، أما الصغار فقد حُملن على ظهورهن في سلات، وهذه على ما يظهر كانت عادة شائعة. أما الصف الذي يلي ذلك فيمثل منظرًا حربيًّا، ولكن من غير أسلحة، والظاهر أنه منظر ألعاب رياضية، ويشتمل على المصارعة ولعب العصا والملاكمة.

وفي هذه الأثناء نشاهد «مري رع» ومعه أربعة من الموظفين ينزلون الطوار ليقدموا أنفسهم للفرعون، ومعهم أتباعهم من حاملي المراوح وغيرهم ممن اشتركوا في هذه الحملة أو الرحلة، وفي الوسط نجد الصبية يحيونهم، وكذلك نرى جماعة صغيرة يشتركون في الاحتفال بمنح «مري رع» عقدين من الذهب.

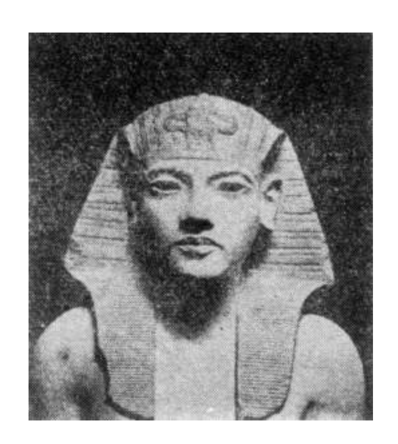
وعلى يسار الطوار (راجع Ibid p. 40). نرى أهل الشمال (وهو الشرق بالنسبة لنا) ويؤلفون ستة الصفوف التي تقع خلف السوريين (رتنو) مباشرة، وكلهم ذوو شعر كثيف ولِحًى طويلة. وفي أعلى الصورة نشاهد جزءًا عظيمًا من الهدايا، وتحتوي على الأسلحة التي كان المصريون قد تعلموا قيمتها في حروبهم مع «سوريا»، منها القوس والنشاب والخناجر والحسام، والحراب والدروع، والزرود والعربة التي يجرها جوادان، وكذلك هدايا يحملها الآسيويون في أيديهم، ومن بين هذه الهدايا ثلاث عذارى قد دُفع بهن إلى الأمام ليستلفتن نظر الفرعون، ثم نشاهد رؤساء البعثة راكعين أمام الفرعون

ومقدمين أوانيَ من المعدن وقبعات وسن فيل وسهامًا وأقواسًا، وثلاثة حيوانات — غزالًا ووعلًا وأسدًا. وفي الصف الثاني نجد تسعة أسرى أو عبيدًا مغلولي الأيدي.

وفي الصف التالي نشاهد بعثة من بلاد أخرى ربما كانوا الأموريين وهداياهم تشمل فتاتين وعربة وأواني مختلفة جميلة الصنع. والصفان الأسفلان يُحتمل أنهما يمثلان قبيلة أخرى من السوريين لا يمكن تحديدها. ثم نشاهد كذلك أهل «بنت» على ما يظهر يقدمون جزيتهم (Ibid. p. 41.)، ثم يأتي بعد ذلك «اللوبيون»، ثم أهل «خيتا» الذين كانوا يحملون هدايا لا بد أنها من صنع أهل «كريت».

وبعد موت «إخناتون» بقي «مري رع» حائزًا للعطف الملكي، فنشاهد الملك «سمنخكارع» يستقبله هو وزوجه «مريت آتون»، وأغدق عليه الهدايا المعتادة من الذهب، وثبته في وظيفته (راجع Ibid. p. 43).

توت عنخ آمون



ولقد أدَّى موت «سمنخكارع» أن يعتلي «توت عنخ آمون» عرش الملك، ومعه زوجه «عنخس-ن-با آتون» بنت «إخناتون» و«نفرتيتي».

وقد ظل كثير من الحقائق التاريخية التي تتعلق «بسمنخكارع» و«توت عنخ آمون» غامضًا إلى أن كُشفت مقبرة الأخير وفُحصت كنوزها فحصًا علميًّا دقيقًا، فاتضح أن كثيرًا من الحلي والجواهر التي وُجدت مع «توت عنخ آمون» كانت في الأصل قد صُنعت للملك «سمنخكارع» وحُليت باسمه، ثم نرى أثر التغيير باديًا عليها؛ فمُحي اسم «سمنخكارع» ونُقش مكانه اسم «توت عنخ آمون». وقد أرتنا هذه الكشوف أن النقوش الدينية التي

كانت في الأصل «لسمنخكارع» لا تمت بصلة إلى ديانة «آتون»، بل كانت الأناشيد الدينية فيها تتجه إلى الإله «رع»، كما وُجدت أشكال آلهة لها رءوس حيوان وجسوم إنسان، وهذه بداهة لم تُصنع في «إختاتون» مقر عبادة القوة الشمسية الواحدة، بل إنها من صنع «طيبة» التي اتخذها «سمنخكارع» مقرًّا له بعد أن غادر عاصمة أخيه. وهذه الدلائل كلها تثبت لنا أن «سمنخكارع» قد عاد إلى الشعائر الجنازية القديمة الخاصة بالدفن.

والظاهر أن «سمنخكارع» قد حمل مقدارًا عظيمًا من سبائك الذهب التي كانت توجد بكثرة في «إختاتون»، وأن دالته على أخيه وسلطانه عليه كانا كفيلين بإجابته إلى كل ما يرنو إليه، وهذا يعلل لنا السر في إسراع «توت عنخ آمون» ورائديه، وبخاصة «نفرتيتي» والكاهن «آي» بالعودة إلى «طيبة»، فقد رموا من وراء ذلك الاستيلاء على ذلك النضار الذي حمله معه «سمنخكارع» من «إختاتون» أولًا والقضاء على التأثير الذي تركه «سمنخكارع» على كهنة «آمون» مدة إقامته ملكًا في «طيبة» ثانيًا بنشر فضائحه وعلاقته المشينة بأخيه كما يدعي البعض، وقد تم لهم ما أرادوا؛ فتملكوا أثاث «سمنخكارع» وجواهره، واستولوا على النضار الذي جلبه من «تل العمارنة»، واستلبوا كل الهدايا التي أغدقها عليه «إخناتون»؛ وبذلك حرموا «سمنخكارع» إقامة شعائر دينية تليق بملك مثله، كما حرموه أثاثه الجنازي. وليس بخافٍ أن «توت عنخ آمون» ذلك الصبي الساذج الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره يقصر عقله وتفكيره عن تدبير مثل هذه المكايد لأخيه. أما الرأس المفكر والعقل المدبر فهو ذلكم الداهية الكاهن «آي» الذي كانت له أطماع واسعة، وأهداف بعيدة يسعى إلى تحقيقها، ولكنه كان يتستر ويتخفى في كل خطوة يخطوها؛ لأنه ربما كان يخشى شخصية قوية هي شخصية القائد «حور محب» الذي كان يسيطر على جيش البلاد في تلك الآونة، وإن كانا في الظاهر يعملان معًا؛ إذ إنهما من رجال الجيش كما سنرى بعد.

بدا على المسرح الآن أمامنا بطلان، كلاهما طاعن في السن، وكلاهما طامع في العرش، ولكل منهما طريقته التي يراها توصله إلى مطمحه؛ «فآي» يتخذ السياسة والدهاء ونفوذه في بيت الملك ونقضه للدين الجديد، وعودته لعبادة «آمون» والقوة أيضًا وسائله لتحقيق ما تصبو إليه نفسه، و«حور محب» يرى أن القوة هي كل شيء، وأنه ما دام يأخذ بزمام الجيش فإنه لا بد واصل إلى ما يريد، واحتدمت الغيرة الشديدة بين الرجلين، واشتعلت نار الحقد بين القلبين، وأخذ كل منهما يعمل سرًّا في هدم صاحبه بدعوى

الإخلاص للملك، وما الملك في أيديهما إلا ألعوبة يحركانها فتتحرك، ويقفانها فتقف، وليس لأحد منهما في خدمة الملك رغبة، وإنما لكل منهما في ذلك غاية، هي اغتصاب ملكه والوثوب على عرش آبائه.

عاد «توت عنخ» إلى «طيبة» كما قلنا، وبقي محتفظًا باسمه المركب مع كلمة «آتون» مدة ما، فصار يُدعى فيها «توت عنخ آتون»، ويعتقد بعض المؤرخين أنه غيَّر اسمه على إثر انتقاله إلى العاصمة القديمة «طيبة»؛ فصار يُدعى «توت عنخ آمون» اقتداء بالكاهن «آي» الذي عاد وقتها إلى عبادة «آمون» ثانية، وليس هناك ما يبرر هذا الإسراع في تغيير الاسم؛ فإن اسم «آتون» لم يكن ممقوتًا في «طيبة» أو في غيرها؛ لأنه يدل على عبادة «رع» الذي يؤمن به الجميع، وأكبر دليل على عدم مقتهم لهذا الاسم أن أعداء مذهب «إخناتون» لما أرادوا تشويه مقابر «إختاتون» (تل العمارنة) ومعابدها قصروا هذا التشويه على محو اسم «إخناتون» نفسه، ولم يتعرضوا لرمز الشمس «آتون» بالمحو أو التشويه، والظاهر أن «توت عنخ آمون» قد غيَّر اسمه بعد تركه «إختاتون» واستقراره في «طيبة»، فإن أثاثه الجنازي عدا أساس قصره الذي حمله معه في قبره يحمل اسم «توت عنخ آمون»، وأهم ما يسترعي النظر من التناقض في نقش اسم هذا الملك ما شوهد على كرسي عرشه وكرسي آخر له نموذجي، فقد نُقش على الأول صورة الفرعون وزوجه باسميهما مركبين مع لفظة «آمون»، ومع هذا نرى فوقهما «آتون» مرسلًا أشعته التي ينتهي كل شعاع منها بيد إنسان، فضلًا عن أن قرص الشمس هذا يكتنفه طغراء «آتون» من جانبيه، ونرى نفس الظاهرة بادية على ظهر الكرسي عينه، فإننا نجد اسم الملك مركبًا مع لفظة «آتون» كذلك. أما الكرسي الثاني وهو النموذجي فنرى أن الاسم المنقوش عليه هو «توت عنخ آتون» أيضًا أينما وُجد الاسم. ولعل هذين الكرسيين قد صُنعا في «طيبة» قبل أن يغير الملك اسمه، ولا داعي لأن نفترض أنهما صُنعا في «إختاتون» ثم أُرسلا إلى «طيبة»؛ لأنه لم يكن ثم كما قلنا من قبل كفر وجحود في النطق بلفظة «آتون» فيها، ومن الجائز أن يكون «توت عنخ آتون» قد غيَّر اسمه على ظهر كرسي عرشه، وهو الجزء البادي من الكرسي عند جلوسه عليه لأسباب سياسية خاصة، وترك اسمه الأصلي على الكرسي المثالي ليُدفن معه، وهذا دليل على أن عبادة آتون لم تُمحَ بسرعة جارفة بعد موت «إخناتون» كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

وعندنا من آثار «توت عنخ آتون» لوحة صغيرة من الحجر الجيري الأبيض محفوظة الآن بمتحف «برلين»، وهي تمثل «توت عنخ آتون» بلباس فضفاض يقدم القربان للإله

«آمون رع» والإلهة «موت» زوجه، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية عظيمة؛ لأنها تصور بصفة قاطعة رجوع الملك إلى عبادة آلهة طيبة مع احتفاظه باسمه الأصلي «توت عنخ آتون». ولا يمكننا أن نحدد بالدقة التاريخ الذي غيَّر فيه هذا الملك اسمه، وكل ما نعرفه أنه كان قبل السنة الرابعة من حكمه لا يحمل اسمه الأصلي المركب مع لفظه «آتون»؛ إذ وجدنا في قبره زجاجة نبيذ مختومة، وقد نُقش على الختم السنة الرابعة من حكم «توت عنخ آمون».

مكثت «طيبة» طيلة مدة حكمه مسرحًا للحكم بعد انتقاله إليها من «إخناتون»، وعلى الرغم مما بين «حور محب» و«آي» من تشاحن على الملك إلا أنهما أخذا يعملان معًا في الظاهر وكل منهما طامع في أن يتولى العرش بعد «توت عنخ آمون»، وسنرى فيما بعد أن الذي تولى عرش الملك بعد «توت عنخ آمون» هو الكاهن «آي» ومن بعده «حور محب»، ثم استولى مكانه «رعمسيس الأول»، وكلهم من رجال الجيش، كما سنأتي على كل ذلك بالتفصيل.

(١) «حور محب» الوصي على العرش والقائد المظفر في حروب «توت عنخ آمون»

تفزعت البلاد ووقف كل مصري خائفًا يترقب؛ «فالخيتا» بالمرصاد تهدد الكنانة وما بقي من أملاكها بالغزو، والشئون الداخلية في مصر مختلة نتيجة الارتباك الديني والفوضى الاجتماعية التي أعقبت إصلاحات «إخناتون» فتطلعت البلاد إلى يد قوية حازمة تبسط سلطانها على شعب مصر، وترهب في نفس الوقت أعداء البلاد، ووجدت رغبتها في القائد العظيم «حور محب»، فتولى زمامها وصيًّا على عرش الملك الصغير.

والظاهر أن «حور محب» كان من عامة الشعب ولا ينتسب إلى أسرة عريقة في المجد من بلدة «حت نسوت» من أعمال المقاطعة السابعة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي. وقد عاش في كنف إله مقاطعته المحلي المسمى «حور». ولم يكن «حور محب» مغمورًا في حياته أو ظهر فجاءة في هذا الوقت العصيب، بل كان فذًّا في كل عمل وُكل إليه أمره؛ فكان كاتب المجندين الموفق في عهد الفرعون «تحتمس الرابع»، ثم ارتفع في عهده أيضًا إلى مرتبة «مربٍّ قدير لإحدى بناته»، ثم صعد إلى وظيفة «قائد لكتائب الفرسان»، ثم عهد إليه مولاه بمهمة خطيرة لا ينهض بأعبائها على الوجه الأكمل سواه، تلك هي محاربة كهنة «آمون» وانتزاع الرياسة الدينية لكهنة القطرين من أيديهم، وليس ذلك

بالأمر الهين في هذا الوقت فهم أصحاب نفوذ كبير، وإليهم آلت السلطة المسيطرة في البلاد، هذا إلى أن إعلان الفرعون الحرب على كهنة «آمون» سابقة خطيرة لم يعتدها القوم ولم يألفوها من قبل، فإقدام الفرعون على ذلك يدل على أنه واثق تمام الوثوق من مقدرة ذلك القائد الذي عهد إليه بالأمر. وقد صدقت فراسته، ولم يخيب «حور محب» ظنه فانتصر فعلًا على هؤلاء القوم، وانتزع منهم تلك الوظيفة التي كان شاغلها يسيطر على المرافق الدينية والاقتصادية في كل المقاطعات، وهي وظيفة «رئيس الكهنة لكل آلهة القطرين»، وهنا ارتفعت منزلة «حور محب» في عين سيده فولاه راضيًا هذه الوظيفة مكافأة له على إخلاصه وصدق عزمه، وإن كان من رجال الجيش، وليس من كهنة الدين، على أن هذه الوظيفة لم تستطع أن تبقى طويلًا خارج حدود الكهنة، فقد اضطر «أمنحتب الثالث» أن ينزل عنها مرغمًا إلى الكهنة فرجعت إلى حوزتهم مرة ثانية إلى أن جاء «إخناتون» وانتزعها منهم إلى الأبد. وقد بقي «حور محب» — على ما يبدو — محتفظًا بوظيفة قائد الجيش في عهد إخناتون، كما كان كذلك مديرًا لأشغاله. والظاهر أنه لما أحدث «إخناتون» ذلك الانقلاب الديني غيَّر «حور محب» اسمه مسايرة للجو الذي يعيش فيه؛ فسمَّى نفسه «آتون-محب» (يعني آتون في عيد)، وقد رأينا هذا الاسم على قبر في «تل العمارنة» يحمل صاحبه لقب «قائد الجيش»، ثم مُحي ثانية، غير أننا لا نقطع بصحة هذا الاستنباط.

وقد زاد نفوذه، وامتد سلطانه في عهد الملك «توت عنخ آمون» كما قلنا، فقد كان وصيًّا على العرش، وقابضًا على معظم السلطة الحربية في البلاد، وتدل نقوشه التي خلفها لنا ومقبرته في «سقارة» على أنه صار في ذلك العهد أرفع مكانة، وأقوى سلطانًا، وإن ألقابه الضخمة التي وُجدت على جزء من تمثال له تنطق بتلك المنزلة العالية التي وصل إليها، فقد جاء فيها أنه:

> عظيم العظماء، وقائد القواد، والرئيس الأعلى لمجلس الحكام، والمنصب من الفرعون رئيسًا للقطرين، والقائد الأعلى لكل جيوش الملك، ومدير بيت الفرعون.» كما قال في هذه النقوش متحدثًا عن نفسه: «لقد وضعت القوانين للفرعون، وإن جلالته مسرور من كفايتي، وحسن إدارتي للبلاد.» كما حدثنا عن نفسه في وثيقة توليته أمور العرش فقال: «قد اغتبط الملك لحسن اختياره إياي؛ ولذلك نصبني رئيسًا أعلى للبلاد، ونفذت له قوانين هذه البلاد كلها، ولم يشركني أحد في ذلك، وكان الناس يُعجبون بما تنطق شفتاي. وإذا ما

> ناديت أحدًا بصوتي أمام الملك اهتزت أركان القصر، ولكني إذا حادثت جلالته مجيبًا على أسئلته سُر بعذب منطقي الذي وهبني إياه الإله «تحوت» رب العلم، و«بتاح» (رب الحرف والصنائع والجمال)، وهكذا حكمت القطرين عدة سنين، وكان رجال مجلس الحكام ينحتون أمامي عند مدخل القصر الملكي، وأمراء البلاد الأجنبية من الجنوب إلى الشمال يرفعون إلي أكف الضراعة كما يرفعونها للإله (أي الملك)، وكل شيء يجري وفق ما أريد، والناس يتمنون لي السعادة والصحة، والشعب يحبني كما يحب رب الأرضين (أي الملك).

هذا معنى ما قاله «حور محب»، ولا شك في أن مثل تلك الألقاب الضخمة، وهذه السلطات الواسعة التي نسبها لنفسه لا تكون إلا لحاكم بأمره، ولم يصل إليها حتى «سنموت» الذي مر الكلام عنه، وإن كان وجه الشبه بينهما عظيمًا. ولم يذكر لنا في هذا النقش اسم ذلك الذي ولَّاه قيادة الناس، وجعل له الأمر النافذ فيهم، والهيمنة على شئون البلاد، ولكن الآثار تدلنا بجلاء على أن ذلك الملك الذي أمده بكل تلك السلطة هو «توت عنخ آمون»؛ فلقد وجدنا تمثالًا «لحور محب» جالسًا في مقبرته وفي يده المرسوم الملكي الذي أعطاه فيه «توت عنخ آمون» كل هذه السلطة الواسعة، وقد نُقش فيه اسم هذا الفرعون.

وقد كان أهم عمل قام به «حور محب» في عهد «توت عنخ آمون» هو الحروب التي أشعل نارها وظفر بالانتصار فيها نصرًا مؤزرًا، ولقد اتخذ ذلك النصر فيما بعد ذريعة تؤهله لاعتلاء العرش بعد الملك «آي» كما سترى.

وكانت أولى حروبه تلك التي ادَّعى فيها أنه بدأ بإعلانها على «خيتا»، ومن جهة أخرى ادعى أهل «خيتا» أنهم هم البادئون بشنها على مصر، ويزعم «حور محب» أنه انتصر على «خيتا» في هذه الحرب كما ينقض «خيتا» هذا الزعم ويقررون أنهم هم المظفرون فيها.

وإذا استعرضنا الأمر في شيء من التبصر أمكننا أن نزيل هذا التناقض ونخرج بوقائع نرتاح لصحتها بعض الارتياح. فإنه كان من البدهي أن تأخذ النعرة ملك «خيتا» ويقدم سيدها «شوبيليوليوما» على الانتقام من مصر لقتلها ابنه الذي استُدعي إليها ليكون زوجًا وملكًا، فيشن الغارة عليها، ويجيء من بعده خليفته «مورسيل» فيسير في تلك الطريق التي اختارها سلفه انتقامًا للشرف الضائع والكرامة المجروحة، وأخذًا بثأر الدم الزكي المسفوح.

أما التناقض بشأن نتائجها فيدَّعي «حور محب» أن المصريين انتصروا على الآسيويين، ويدَّعي «مورسيل» أنه انتصر على الجيش المصري رجالته وفرسانه، وأسر منهم خلقًا كثيرًا،[1] فتفسيره كما جاء في تقرير «خيتا» أن الأسرى المصريين قد نقلوا معهم وباء فتاكًا[2] إلى بلاد «خيتا» نكبهم نحو عشرين عامًا، ولم يتمكنوا من متابعة انتصارهم على المصريين، فاضطر لذلك ملكهم إلى وقف القتال، وبقي السلام ناشرًا ألويته بين الدولتين منذ ذلك الوقت إلى عهد «سيتي الأول».[3] ومن هنا أخذ كل من المعسكرين ينظر إلى المعركة من الناحية التي ترضي عاطفته الوطنية، فخلع على نفسه البطولة، وادَّعى أنه المنتصر المظفر.

على أن هذا السلام الذي ساد جوَّ الدولتين «خيتا ومصر» قد مكن المصريين من متابعة حروبهم التي شنوها على أهل «فلسطين» بسبب ثورتهم على الحكم المصري، ومحاربتهم الأمراء الموالين لمصر، وكان أكثرهم إثارة للقلاقل قوم «خبيري» (اليهود فيما بعد)، ولكن «حور محب» تمكن من إخماد ثوراتهم، وانتصر عليهم نصرًا مبينًا. وكان يرافقه في هذه الحرب مليكه «توت عنخ آمون»، ونستخلص ذلك من لقب «حور محب» الفخري الذي خلعه على نفسه: «إنه مصاحب سيده في المعركة في ذلك اليوم الذي انتصر فيه على الآسيويين.»

وقد ترك لنا هذا القائد مناظر ممتعة على جدران قبره في «سقارة»[4] تدور حول هذه الحروب فنشاهد فيها جماعات الأسرى الذين ساقهم معه من فلسطين، وقد شاءت براعة المثَّال أن توضح جنسية كل فئة منهم، فنستطيع أن نخرج منهم الآسيويين، ونميز كذلك الأوروبيين الذين كانوا في «فلسطين» وقت هذه الحروب، فنرى كذلك صورة مهشمة جدًّا فيها الملك والملكة وأمامهما «حور محب» يقدم الأسرى، ولما كانت هذه الصورة تمثل فن «تل العمارنة» في روحها فقد نسبها بعض المؤرخين إلى عهد «إخناتون»، ولكن فيها من الوقائع ما يفند هذا الرأي؛ فليس فيها أبدًا ما يدل على عبادة «آتون»، بل إن

[1] راجع: Forrer, “Forschung”, II, p. 14.

[2] راجع: Forrer, “Forschung”, II, PP. 11, 12, 14.

[3] راجع: Meyer, “Gesch.”, II, 1, p. 404, note 4.

[4] راجع: Helck, “Der Eiufluss der Militarfuhrer in der 18. Agyptischen Dynastie”, p. 78 note c.

فيها على العكس من ذلك «حور محب» يتعبد للإله «آمون رع» ويتعبد للإله «حور»، ويتعبد للآلهة الآخرين، ونقرأ عليها الصيغ الدينية الخاصة بالإله «أوزير»، فلا محل إذن للادعاء أنها من عهد «إخناتون»، وإذا كان فيها روح فن «تل العمارنة» واضحًا؛ فذلك لأن «حور محب» كان قد استعان بكثير من الصناع ورجال الفن الذين جلبهم من «تل العمارنة» لتزيين قبره ونقشه، فلا بدع أن تتغلب عليهم طبيعة بلدهم، وأن تظهر في أعمالهم الروح الذي ضروا عليه وامتزج بنفوسهم، وصارت من مميزات بدائعهم.

ونشاهد فوق الصور المذكورة جنودًا من الآسيويين قد أرسلوا لحاهم، وجثوا يتوسلون إلى «حور محب» أن يعفو عنهم، وترى من بين المقهورين لوبيا، وزنجيا، وخلف هذين وأولئك آسيويون آخرون قد زالت لحاهم، وأرسلوا ذؤابات من الشعر على أصداغهم، وارتدوا ملابس سورية، ومعهم خيلهم، وأسبلوا خصلات من الشعر تدل على أنهم آريون، وترى نقوشًا أخرى تصف ما حاق بهؤلاء المنكوبين من جراء ولائهم لمصر؛ فتحدثنا بأن مساكنهم قد حُرقت، وحقولهم قد خُربت، واستولى عليها غيرهم، وأصبحوا جياعًا بلا مأوًى يهيمون كالسائمة بين الشعاب والجبال؛ ولذلك جاءوا إلى الفرعون يحتمون بسيفه الصارم، ويعتزون بقوته الغالبة، وترى بجانب هذا الحديث مترجمًا يحمل إلى «حور محب» — وقد بدا في جيده طوق من الذهب — قرار الفرعون في صدد هؤلاء المغلوبين على أمرهم، وهو يقضي بحمايتهم، وضمان حدود بلادهم.

وهذه الحال السيئة التي يعانيها أتباع مصر في البلاد الآسيوية هي نفس الحال التي كان يرسف في أغلالها أهل «لوبيا» وأهل «كوش» الذين كانوا يدينون لأهل مصر بالولاء والسلطان، فلا عجب أن تأخذ النخوة «حور محب» وينهض ليقوي نفوذ مصر في هذه الممتلكات، ويرجع إليها هيبتها، ويرد لها ما ضاع من ولاء القوم وخضوعهم. ويظهر أن «حور محب» قد أفلح في إنجاز هذا العمل، فإننا نقرأ في بعض النقوش بيانًا بالأسلاب التي عاد بها من بلاد «النوبة»، وفي أخرى أنه صعد بجيشه في النيل سفيرًا ملكيًّا لقهر العصاة من أهالي «كوش»، ثم نراه يظهر بعد ذلك أمام الملك على رأس رجال المجلس الأعلى يقدم الجزية، ثم نشاهد جزية الشمال (آسيا) وجزية الجنوب (بلاد كوش) محمولتين أمامه، و«حور محب» بين يديه يقدمهما لمولاه.

ولا نزاع في أن الملك المذكور الذي قُدِّمت إليه الجزية ووقف «حور محب» بين يديه هو الملك «توت عنخ آمون»؛ فقد رأينا منظرًا مطابقًا لهذا المنظر في مقبرة «حوي» وقد استُبدل باسم «حور محب» اسم «حوي» نائب الملك «توت عنخ آمون» في بلاد «كوش».

(٢) سلطان مصر في بلاد كوش

تمتد بلاد «كوش» هذه من «نخن» (الكاب حاليًّا) إلى «نباتا» أو «كاراي» عند الشلال الرابع، وقد كان «حوي» الذي سبق ذكره نائبًا للملك فيها، وقد أُطلق عليه هذا الاسم وهو صغير، فلما كبر سُمي «أمنحتب»، وقد برهن الأستاذ «زيته» على صحة ذلك.[٥] ولما كانت المناظر التي رسمها في قبره تكشف لنا عن بعض النواحي المظلمة في تاريخ هذا العصر وبخاصة عن تعيينه نائبًا للملك في «بلاد كوش»؛ آثرنا أن نعطيها جانبًا من الاهتمام. فالمناظر الأولى[٦] توضح كيف احتُفل بتعيين «حوي» نائبًا للملك في «كوش»؛ فنشاهد أولًا «توت عنخ آمون» جالسًا على عرشه وأمامه صفَّان من الرجال في جماعات تقوم كل منها بعمل في ذلك الحفل، ثم نشاهد موظفًا كبيرًا يستقبل «حوي» وهو يتقدم نحو الفرعون تحف به طائفة من رجال البلاط، ونرى هذا الموظف الكبير يقدم إلى «حوي» خاتمًا من الفرعون رمزًا لتعيينه حاكمًا على القطر الذي يمتد من «نخن» إلى «نباتا» ويقول له: «خذ خاتم وظيفتك يا ابن الملك.» وهو اللقب الذي كان يُعطاه نائب الملك في «كوش»، ثم يخرج «حوي» من القصر بعد الحفل بتعيينه فتستقبله أسرته وكبار الموظفين فرحين مهللين، وفي منظر آخر نرى نائب الملك «حوي» منحنيًا أمام سيده «توت عنخ آمون» ويقدم له جزية الآسيويين الذين يحملون إليه الذهب والفضة والآنية الفاخرة والأحجار الثمينة، وقد كُتب فوق صورة «حوي» ما يأتي:

> يقول ابن الملك صاحب «كوش» حاكم الأقاليم الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الفرعون: «ليت والدك «آمون» يحفظك لتستقبل أعيادًا لا عداد لها، وليته يمنحك الخلود مالكًا للأرضين، وحاكمًا لشعوب الأقواس التسعة. إنك «رع»

[٥] راجع: A. Z. XLIV, p. 89.

[٦] راجع هذه المناظر كلها في مقبرة «حوي»: Davies, “The Tomb of Huy” 1926.

> وعنصرك عنصره، والسماء ملكك وثابتة على عمدها الأربعة، والأرض تحتك مدحوة، وذلك بسبب سموك أيها الحاكم الطيب.»[٧]

كما كُتب فوق الآسيويين:

> إن رؤساء «رتنو العليا» الذين لم يعرفوا مصر منذ أيام الآلهة يلتمسون الصلح من جلالته ويقولون: «امنحنا نسيم الحياة الذي تهبه أيها السيد، وسنتكلم عن قوتك الظافرة، ولا يوجد ثوَّار بجوارك بل كل أرض في سكينة.

وفي منظر آخر قريب من السابق نرى «حوي» نفسه يقدم جزية بلاد «كوش» التي يتولى أمرها، وفيما يقدمه ذهب وفضة وأوانٍ فضية وذهبية وعربة، ودروع وأثاث، ثم نرى رؤساء «كوش» يقولون:

> الحمد لك يا ملك مصر، يا شمس الأقاليم التسعة، أعطنا نسيم الحياة الذي تهبه، حتى نستطيع أن نعيش برضاك الطيب.[٨]

والغريب في الأمر أن نائب الملك في «كوش» يقدم أيضًا جزية بلاد «آسيا» مع جزية بلاد النوبة، ولا توجد له علاقة بآسيا ولا الآسيويين، ولكن مما يخفف حدة هذه الغرابة أن «حور محب» كان يقدم أيضًا جزية بلاد «آسيا» و«كوش» في آن واحد، وإذا كان «حور محب» وصيًّا على العرش، فقد كان «حوي» نائبًا للملك ويُلقب بابن الملك، فلا بد أن مكانته كانت عظيمة في البلاط، وقد لا تقل عن مكانة «حور محب».

كل هذه المناظر التي سجلناها وفصلناها تدلنا على أن سلطان مصر كان لا يزال ممتدًّا على بعض أجزاء «آسيا» وبخاصة «فلسطين»، وأن «لحور محب» وقوته الحربية الفضل كل الفضل في إنعاش مصر وإرجاع ممتلكاتها إليها، وامتداد سلطانها الذي كان قد تقلص عن آسيا كلها تقريبًا في عهد «إخناتون»، كما بدأ وهو وصي على العرش يعيد إلى الكنانة الأمن والرخاء في ظل قوانين عادلة محترمة كما سيجيء بعد.

---

[٧] راجع: Ibid. p. 29.

[٨] راجع: Ibid. p. 24.

(٣) أعمال «توت عنخ آمون» السلمية

لقد هال رجال البلاط والقائمين على شئون المملكة في عهد «توت عنخ آمون» ما انزلقت إليه البلاد من الضعف والفساد في أيام سلفه؛ فصحت نيتهم على إنهاض البلاد من كبوتها في الخارج وإنقاذ مرافقها في الداخل، فعملوا على أن يعيدوا إليها مجرى الحياة الطبعية الذي كان قبل عهد «إخناتون» الزائغ عن دينه في نظرهم، فأعادوا عبادة الآلهة القدامى، وأنقذوا البلاد من الفوضى الدينية المحزنة التي وقعت فيها، ولذلك يقول «توت عنخ آمون» في لوحة تذكارية «بالكرنك» يصف حالة البلاد عندما تولى أمرها ويتحدث بمجهوده في إصلاحها وتعميرها:

> لقد وجدت المعابد قاعًا صفصفًا، والجيوش المصرية منهزمة في فينيقية، والآلهة قد ولَّت ظهورها للأهلين في طول البلاد وعرضها، فلا تسمع نداءهم ولا تستجيب دعاءهم، ولكنني أصلحت الحال؛ لأن الإله نفسه قد صوَّرني، وأرواح «عين شمس» مجتمعة قد سوَّتني، وإنني ملك رصين مخلد، وحاكم يعمل لسعادة آبائه الآلهة، ويسيطر على أرض «حور» (مصر)، وتنحني أمامي البلاد الأجنبية وغيرها إجلالًا، وقد أعدت بناء ما هدمته الأزمان الغابرة، وقضيت على الكذب ودعمت الصدق.

ولقد رسم «توت عنخ آمون» هذه الخطة لنفسه في جلسة ملكية في قصر «تحتمس الأول» بطيبة مقر حكمه الجديد؛ ولذلك كان أول عمل قام به أنه عظم شأن الإلهين «آمون طيبة» و«بتاح منف»، ولم يثنه ذلك عن التفكير في الآلهة الآخرين؛ فقد أرجع عبادتهم في معابدهم، ورصد لهم دخلًا عظيمًا، وبنى لهم سفن الآلهة التي كانت تُقام في عرض النيل لتستعمل في المحافل، وعند زيارة إله لآخر، ونصب لخدمتهم كهانًا وخدمًا من بين عظماء مدنهم، ممن صح نسبهم، وثبتت عراقتهم، بخلاف أولئك الذين رقَّاهم «إخناتون» وقلَّدهم هذه الوظائف وهم من سوقة الناس وعامتهم، كما وهب خزائن هؤلاء الآلهة مالًا وفيرًا، ورصد للمعابد من غنائم الحرب القينات والعبيد، وخصص لها المغنيات والراقصات لينهضن بالشعائر الدينية التي كان لهن دور كبير فيها.

ولم ينسَ «توت عنخ آمون» أن يعيد مظاهر الدين القديم إلى معبد «الأقصر»؛ فأرجع اسم الإله «آمون» الذي أزاله «إخناتون» وصوره التي محاها من هذا المعبد ومن غيره، ثم أخذ في إتمام بنائه بعد الجزء الذي كان والده قد أتم تشييده، ودوَّن اسمه

على الجزء الذي بناه، وزيَّن جدران قاعة العمد بالمناظر والنقوش التي تصور الحفل بعيد رأس السنة الذي كان يُقام لآلهة «طيبة»، وبخاصة لثالوث «طيبة» المؤلف من الإله «آمون» وهو الأب، والإلهة «موت» وهي الأم، والإله «خنسو» وهو الابن (راجع "Ancient Egypt", 1924, Part. III, p. 69). ولقد أمر «توت عنخ آمون» كذلك بقطع تماثيل ضخمة لنفسه من حجر الكوارتسيت،[٩] تبدو فيها نفس القسمات البادية في وجوه تماثيله التي نصبها لنفسه في معبد الكرنك، وفي غطاء الوجه الذي وُجد في قبره. والظاهر أنه قطع هذه التماثيل الضخمة تحتل مكانها في معبده الجنازي (وهو معبد كان يقيمه كل فرعون من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة على الضفة اليمنى للنيل في «طيبة» قريبًا من مكان دفنه؛ لتُقام فيه المراسيم الدينية، وتُقدم القربان فيه).

ومن الجائز أنه قد وُضع تصميم هذا المعبد في مدينة «هابو»، ولكن مما يُؤسف له أن هذه التماثيل[١٠] قد اغتصبها لنفسه خلفه الملك «آي»[١١] الذي كان من أكبر أعوانه مدة حياته، غير أن ربك بالمرصاد، فسقاه من الكأس التي شرب منها «توت عنخ آمون»، فاغتصبها منه بدوره خلفه «حور محب» كما اغتصب كل شيء أقامه سلفاه.

ومن المحقق أن ملكًا مثل «توت عنخ آمون» يحكم تسعة أعوام طوال، ويشيد جانبًا كبيرًا من معبد الأقصر الهائل، ويجمع لنفسه أثاثًا نفيسًا وُجد في قبره؛ لخليق بأن يبني لنفسه مقبرة فاخرة تتفق مع جلاله وغناه، تشابه على الأقل تلك التي بناها غيره من الملوك الذين حكموا مدة تعادل مدته أو تقل عنها، ولكنا وجدناه في مقبرة صغيرة حقيرة لا تتناسب مع الدفين الذي ضمته، ولا مع ما احتوته من فاخر الأثاث، وقناطير الذهب؛ مما يدل على أن هذه المقبرة ليست له، وإنما دُفن فيها بدافع الضرورة الملجئة، والموت الفجائي، ومما يعزز هذا الرأي أن بعض الأثاث الذي دُفن معه كان ضخمًا، وكان من العسير أن تتسع له فتحة الباب، فقاموا بتوسيعها ليسمح بدخول القطع الضخمة من الأثاث أمثال أجزاء المحاريب الكبرى التي وُجدت في هذا القبر، ولقد كان من نتائج هذا

[٩] راجع: Legrain, "Statues et Statuettes de Rois et Particuliers, I, Cat. Gen. Musee du Caire" Pls. LVII; A. S., Vol. XXXVIII, p. 24.

[١٠] راجع: Holscher, "Madinet Habu (Morgenland) Vol. XXIV, Pl. 14, fig. 33.

[١١] راجع: Holscher, "The University of Chicago Oriental Institute" (ed. Breasted) I, Pl. 33.

الإجراء أن بدا ترتيب المقبرة معكوسًا، فعُكست لذلك المحاريب،[١٢] واختلفت اتجاهاتها مع الشعائر الدينية، والمعتقدات المعروفة.

ويعتقد العالم «لوكاس» أن هذا القبر كان في الأصل للكاهن «آي» صاحب الكلمة العليا في «طيبة» من عهد «توت عنخ آمون»، وليس معنى هذا أن «توت عنخ آمون» لم يفكر في بناء مثوًى له يضم رفاته بعد مماته، ولم يتخذ العدة لنحت قبر يتفق مع مكانة صاحبه وجلاله، بل تدل شواهد الأحوال على أنه قد أخذ فعلًا في نحت مقبرة له في وادي الملوك، وهو تلك التي وُجد عليها اسم «آي» ممحوًّا، ولكنه ما كان يتعجل الأمر، وهو لا يزال غض الشباب طري الإهاب، فقد تولى ملكه في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره فما الذي يتعجله وهو ما برح في مقتبل السن، ينتظره العمر الطويل، والحياة الحافلة، وما دام قد أعدَّ كل أثاثه الجنازي فأي داع يضطره إلى الإسراع في بناء القبر، والشقة بينهما طويلة الأجل! ولكن الموت كان على قيد خطوة منه، فاهتصر عوده اللدن وهو في ميعة الشباب، ودالة الصبا، فمات بعد حكم تسع سنوات حافلات، ولا ندري أي ميتة لاقاها؟ أمات حتف أنفه على فراشه أم انتزعت حياته بفعل وغد أثيم؟ ولكن الذي ندريه أن التاريخ قد أسدل ستارًا كثيفًا على هذه المأساة، وقد يتبدد هذا الستار بفضل كشف جديد في «وادي الملوك» أو بردية مطوية في جوف الأرض توقفنا إلى ملاقاتها الأقدار.

والآن نضع هنا أمام القارئ ترجمة حرفية للوحة «توت عنخ آمون» وهي تصف لنا أحوال البلاد التي كانت عليها قبل توليه الملك، والأعمال التي قام بها، وقد اغتصبها «حور محب» عند توليته العرش؛ لاعتقاده أنه هو الذي قام بكل ما جاء عليها من أعمال عظيمة.

لوحة إصلاح «توت عنخ آمون»

(١) في السنة … الشهر الرابع من فصل الفيضان، اليوم التاسع عشر في عهد جلالة «حور» الثور القوي — الجميل الولادة، السيدتان[١٣] — صاحب القوانين الطيبة، ومن يهدئ الأرضين، حور الذهبي — صاحب التيجان الرفيعة، مرضي الآلهة، ملك الوجه

[١٢] راجع: A. S., Vol. XL, Pls. XXI, XXII.

[١٣] أي إلهتي الوجه القبلي والوجه البحري: «نخبت» و«وازيت».

القبلي والبحري — نب خبرو رع، ابن الشمس — «توت عنخ آمون»، حاكم «أرمنت» — معطي الحياة مثل رع أبد الآبدين.

(٢) محبوب آمون، رب عروش الأرضين وسيد «إبت إسوت» (الكرنك) و«أتوم» رب الأرضين و«عين شمس»، و«رع حور أختي»، و«بتاح جنوبي جداره» وسيد «عنخ تاوي» (اسم حي في منف)، و«تحوت» سيد كلام الإله، وهو الذي يظهر على عرش حور الأحياء مثل والده «رع» كل يوم، والإله الطيب ابن «آمون»، وصورة «كمفيس» (ثور أمه) والبذرة الفاخرة، والنسل الجليل، وسليل «آمون» نفسه، (والد الأرضين؟)، والمصور مصوره، وخالق خالقه، والذي يجتمع من أجله أرواح «عين شمس» لأجل أن يُهيأ ليكون ملكًا أبديًّا مثل «أبدية حور» الخالد، الحاكم الطيب الذي يعمل أشياء نافعة لوالده، ولكل الآلهة، وهو الذي جعل ما كان قد خرب صالحًا بمثابة أثر خالد، مدى الدهر، وقضى على الأعمال الخاطئة في كل الأرضين، ووطد الحق، وجعل الكذب ممقوتًا في البلاد كما كان في بادئ أمرها. وعندما أشرق جلالته الآن ملكًا كانت معابد الآلهة والإلهات من بداية «إلفنتين» حتى مناقع الدلتا … قد أهمل شأنها؛ إذ قد أصبحت محاريبها خاوية، وصارت أراضي تغشاها أعشاب كا (ث؟) ومعابدهم أصبحت كأن لم تغنَ بالأمس، وحجراتهم كانت طرقًا معبدة، والبلاد كانت في ارتباك، وهجرت الآلهة هذه الأرض، وإذا أرسل جيش (؟) إلى «زاهي» ليمد من حدود مصر لم ينل أي نجاح قط. وإذا دعا الله إنسان ليطلب إليه حاجة، فإنه لا يأتي إليه بأية حال، وإذا تضرع إنسان لآلهة فإنها كذلك لا تجيب تضرعه بأية حال؛ لأن قلوبهم كانت ضعيفة من نفسها بالغضب، فخربوا ما كان قد عُمل.

وبعد أن مضت بضعة أيام على ذلك ظهر جلالته على عرش والده، فحكم ممالك «حور»، وكانت الأرض السوداء والأرض الحمراء تحت سلطانه، وكل بلد كانت تخضع لقوته.

انظر! لقد كان جلالته في قصره في ضيعة «عا خبر كارع» (تحتمس الأول) (ذُكر هذا المكان كذلك في لوحة «آي» في السنة الثالثة من حكمه. على أن الأهمية التي يظهر بها «بتاح» هنا وذكر «عنخ تاوي» على هذه اللوحة من البراهين التي تدل على أن هذا المتن كُتب في «منف»؛ أي إنها العاصمة وقتئذٍ كما يدعي البعض، ولكن الحقيقة أنها كانت في «طيبة») مثل «رع» في السموات، وكان جلالته يحكم هذه الأرض، ويدير حركة شاطئ النهر يوميًّا، وبعد ذلك استشار الملك قلبه منقبًا عن كل فرصة ممتازة، باحثًا

وراء ما يفيد والده «آمون»، فيصنع تمثاله الفاخر من الذهب الخالص الجميل، وأضاف إلى ما كان قد عُمل له فيما سلف من الأزمان؛ إذ نحت تمثال والده «آمون» ليُحمل على ثلاثة عشر قضيبًا، أما تمثاله المقدس فصُنع من الذهب الخالص الجميل، واللازورد، والفيروز، ومن كل ما ندر وغلا ثمنه من الأحجار، في حين أنه في الأزمان السالفة كان تمثال جلالة إلهه الفاخر يُحمل على أحد عشر قضيبًا، وكذلك صنع تمثالًا للإله «بتاح القاطن جنوبي جداره» رب «عنخ تاوي»، وكان تمثاله الفخم من الذهب الجميل (يُحمل على أحد عشر قضيبًا) وتمثاله المقدس صيغ من الذهب الخالص واللازورد والفيروز، في حين أن جلالة هذا الإله الفخم كان يُحمل على ستة قضبان، وكذلك صنع جلالته آثارًا للآلهة، فصاغ تماثيله من الذهب الخالص من أحسن ما في الأراضي الأجنبية. وأعاد بناء معابدهم لتكون آثارًا خالدة على الدهر، ومنحها أملاكًا إلى الأبد. وأسس لهم عطايا مقدسة لتكون قربانًا يوميًّا دائمًا، وأمدهم بقرابين من الطعام على الأرض. وأضاف إلى ما كان لهم في سالف الزمن. ففاق في ذلك ما كان قد عُمل منذ عهد أجداده. وعين كهانًا وسدنة وخدام الإله من أبناء أشراف البلاد، وكان كل ابن رجل مشهور واسمه معروفًا، وقد ضاعف ثروتهم بالذهب والفضة، والشبة، والنحاس، ومقادير لا حصر لها من كل الأشياء، وملأ مخازنهم بالعبيد رجالًا ونساء، وذلك من ثمرة ما سلبه جلالته، وتضاعفت كل ممتلكات المعابد فصارت ثلاث ورباع من الفضة والذهب واللازورد، والفيروز، وكل الأحجار النادرة الغالية، والكتان الملكي، والنسيج الأبيض، والكتان الرفيع، وزيت الزيتون والصمغ والشحم (…) والعطور وبخور «أهمت» «والمر»: مما لا يدخل تحت حصر من كل الأشياء الطيبة، وقد صنع جلالته (له الحياة والفلاح والعافية) سفنهم التي تجري على النهر من خشب الأرز الجديد، وهو أحسن ما ينمو على منحدرات الجبال، ونخبة بلاد «نجاو» (مكان بالقرب من جنوب «ببلوص») وغشي بالذهب، وهو أحسن ما تنتجه البلاد الأجنبية، وهي تضيء النهر. وقد خصص جلالته «له الحياة والصحة والعافية» لها عبيدًا وإماء، ومغنين وراقصات ممن كانوا خدمًا في بيت الفرعون، وكانت أجورهم تُدفع من … قصر رب الأرضين، وقد قمت بحمايتهم وحفظهم لآباء كل الآلهة؛ وذلك رغبة مني في إرضائهم بعمل ما تحبه نفوسهم حتى يحفظوا «تامري» (مصر)، وأصبحت الآلهة والإلهات التي في هذه الأرض قلوبهم فرحة وأصحاب المحاريب مبهجين، والأراضي في أعياد تقيم الأفراح، والسرور منتشر في كل الأرض بعد أن أصبحت حالة البلاد مرضية.

وتاسوع الآلهة الذين في معابدهم كانوا يرفعون أيديهم تعبدًا، وهي مفعمة بالأعياد الأبدية الخالدة وكل ما معهم من الحياة والفلاح قد أعطيه أنف «حور» الذي ولد ثانية (يشير إلى عيد سد) الابن المحبوب من (والده «آمون رع» سيد عرش الأرضين)، وقد سوَّاه (أي آمون) حتى يسوِّي هو نفسه، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب خبرو رع» محبوب «آمون» ومحبه، وبكر أولاده الحقيقي، ومن يحمي الوالد الذي سواه حتى يكون مسيطرًا على ملوك كل البلاد، ابن الشمس «توت عنخ آمون» حاكم «أرمنت». وهو ابن نافع لمن برأه، غني الآثار، ثري في معجزاته، ومن يقيم الآثار بقلب نقي لوالده «آمون»، جميل الولادة ملك، تسلم التيجان في «خميس» (المكان الذي وضعت فيه إيزيس «حور»)، في هذا اليوم (يوم تتويجه) كان الواحد (الفرعون) في قصره الجميل في ضيعة المرحوم (عا-خبرو-رع). تأمل! إن جلالته (أي آمون) (له الحياة والفلاح والصحة) قد تصبى ثانية، ومن يقبض (أي على تاج الملك) قد أسرع من تلقاء نفسه (أي أسرع بنفسه للملك)، وقد سوَّاه «خنوم» عظيمًا؟ ... فكان قوي الساعد، عظيم القوة ممتازًا على الشجعان، عظيم البطش مثل ابن (نوت ...)، قوي الساعد مثل «حور»، ولا يوجد من يضارعه بين الأقوياء في الأراضي قاطبة، وإنه يعرف مثل «رع»، والذي ... مثل «بتاح»، والذي يفهم مثل «تحوت»، والذي يسن القوانين الممتازة، والذي يأمر (...) المتفوق في نطقه. ملك الوجه القبلي والوجه البحري، رب الأرضين، ورب الشعائر، والرب القوي الساعد «نب خبرو رع» الذي يرضي الآلهة، ابن «رع» محبوبة من جسده، وسيد كل أرض أجنبية، ورب التيجان «توت عنخ آمون» حاكم «أرمنت»، معطي الحياة والثبات والفلاح مثل «رع» أبد الآبدين.[١٤]

ولا نزاع في أن نقوش هذه اللوحة تقدم لنا صورة صادقة عن حالة البلاد وما كانت عليه معابد الآلهة ومحاريبهم في طول البلاد وعرضها في الفترة التي حكم فيها «إخناتون»؛ إذ كان ينعق فيها البوم الغربان، وأصبحت مأوًى للحشرات ومرتعًا للسائمة، خاوية على عروشها، لا يأوي إليها إنسان، بعد أن كانت تزخر بالثراء وعامرة بالأعياد التي كانت تُقام فيها، والمحافل التي كانت لا تنفك تترى في عرصاتها تؤمها الوفود من كل أرجاء العالم.

[١٤] راجع: J. E. A., Vol. XXV, p. 8ff.

(٤) حياة «توت عنخ آمون» الخاصة من آثاره

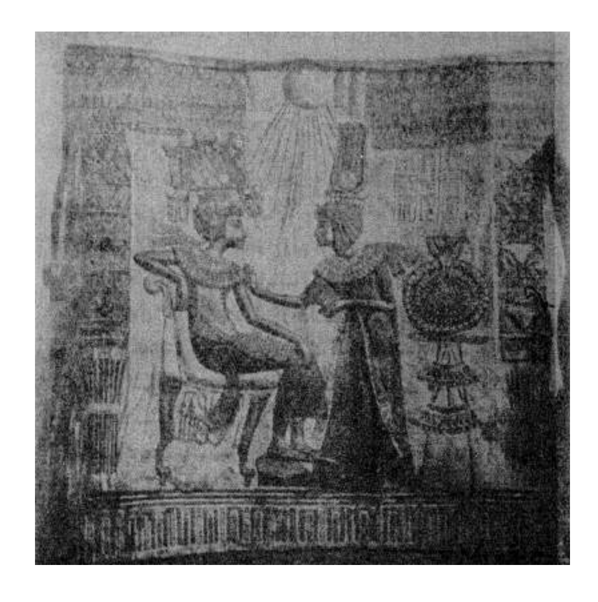
ليس في مقدور التاريخ أن يصدر حكمًا سليمًا على هذا الشاب؛ فقد تولى أمر بلاده في بداية العقد الثاني من عمره، وتُوفي ولما يبلغ ختام هذا العقد، وهو غير مسئول بداهة عن الأعمال التي تمت في مستهل حكمه؛ إذ كان قاصرًا، ولم يكن له من الأمر شيء، بل كان في الواقع لعبة يتقاذفها الكاهن «آي» والقائد «حور محب»، يتلقفها هذا مرة وذاك أخرى، واستكانت اللعبة أخيرًا في يد القائد «حور محب» الذي سيطر على شئون الدولة، وهيمن على كل مرفق داخل البلاد وخارجها، فهذان اللاعبان اللذان تناوبا أمور البلاد في هذه الفترة هما المسئولان عما جرى فيها، ولقد كان من سوء طالع التاريخ أو من سوء طالع أمير البلاد الصغير أن القدر لم يمهله حينما قارب النضوج، وأخذ يدب فيه روح الرجولة، فاختفى فجاءة من مسرح الحياة دون أن يترك لنا كلمة عن حياته ونشأته، ومراميه التي كان يهدف إلى تحقيقها، وهو على سرير الملك، ولكنه ترك لنا في الصور التي أمر بنقشها على أثاثه الجنازي ما يكاد يغني عن الكتب المخطوطة، والوثائق المسطورة، فعرفنا منها ميوله وأخلاقه، وكثيرًا عن حياته الخاصة إذا كان فعلًا يقصد ما صوَّره.

وإن من ينعم النظر في تلك الصور التي خلَّفها لنا «توت عنخ آمون» على آثاره ليؤمن تمام الإيمان بأن المصور المفتن لا يقل قدره عن إبراز أفكاره للناس من الكاتب اللبق؛ ترينا هذه الصور الناطقة مواقف «لتوت عنخ آمون» تفيض بسالة وإقدامًا، وأخرى تتدفق حبًّا وحنانًا، تلمس فيها عاطفة العاشق، ووله الزوجة المغرمة الوفية، وبأس الملك الصغير الشهم، تلمس فيه تلك الصور حياة وحركة وقوة على التعبير تجعلك حائرًا مشدوهًا؛ فهنا الملكة الشابة «عنخس إن آمون» تتحسس بيدها صدر زوجها الشاب تعطر ما أحاط به من ثياب، وتعدل ما شذ عن معيار الهندمة والتنسيق من ملابسه، في رفق وحنان وإعجاب، حتى لا يغادر بعلها حجرته الخاصة ليرأس اجتماع مجلس البلاط إلا في أتم زينة وأجمل رونق[١٥] (انظر شكل رقم ١).

ويظهر أنه كان سعيدًا بحياته الزوجية؛ فنراه ممثلًا على محرابه الذهبي، ومعه شبله الصغير وزوجته المحبوبة في رياضة خلوية ممتعة، يحمل فيها قوسه ونشابه،

---

[١٥] راجع: Carter, “The Tomb of Tutankhamon”, Vol. I, Pl. II.



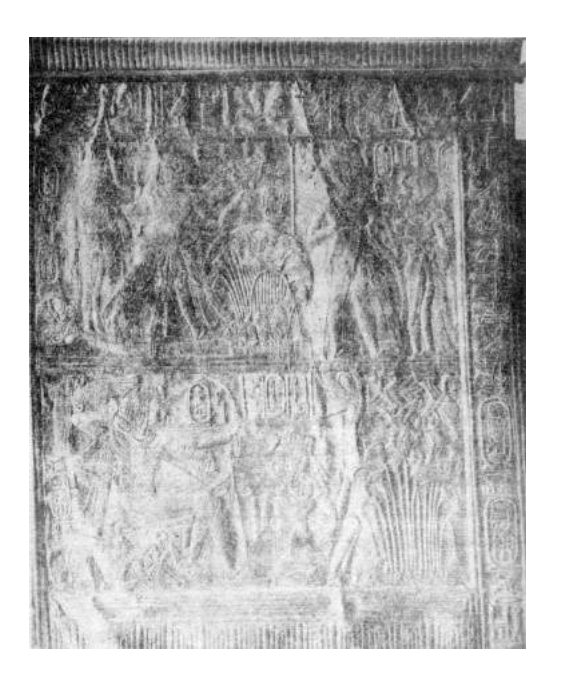
شكل ١

ويلهو بصيد الوز البري (انظر شكل رقم ٢)، وزوجه الجميلة تجلس أمامه على أديم الأرض تناوله بإحدى يديها سهمًا وتشير بالأخرى إلى وزة سمينة قد حطت على سوق البردي اليانع،[١٦] وكأنها تقول لزوجها: «البدار يا زوجي المحبوب، فهذا صيد سمين ساقه الله إليك، فسدد نحوه رميتك تشبع رغبتك، وتكسب جولتك.» كما نرى على نفس المحراب هذه الزوجة الشابة تقدم لقسيمها في الحياة يانع الأزهار، وجميل القلائد، وتطوِّق جيده بما يزينه من ملبس. وفي موقف آخر بدت الملكة تصحب «توت عنخ آمون» في نزهة أخرى لصيد الطيور، يقضيها في قارب[١٧] من سيقان البردي، وقد استند ذراعه عليها كأنها تعينه على احتمال مهام الدولة التي أنهكته. وقد رأينا في صورة جميلة ما يدل على ذلك الحب العميق الذي غرسه الله في قلب هذين الزوجين المتحابين، فها هما ذان

[١٦] راجع: Carter, “The Tomb of Tutankhamon”, Vol. II, Pl. Ib.

[١٧] راجع: Ibid, PP. 14–15.

الزوجان يجلسان في حجرتهما الخاصة في جلسة أسرية هنيئة، وها هو ذا الزوج يعبر عن عاطفة نحو زوجته فيصيب في راحتها قدرًا من العطر[١٨] الذكي الغالي.



شكل ٢: توت عنخ آمون مع زوجه في أوضاع مختلفة للصيد والتنزه.

فأي شيء يترجم عن هذه العواطف المشبوهة بين الزوجين أكثر من هذه المناظر التي استعرضناها (انظر شكل رقم ٢). وقد دلتنا تلك الصور وغيرها مما رأيناه على أنه كان يُغرم بالصيد، ولعل ذلك قد نسل إليه بالوراثة؛ فآباؤه وأجداده ملوك الأسرة الثامنة عشرة لهم قدم سابقة في هذا المضمار، بل كانت هذه الهواية موضع المناقشة بين هؤلاء الفراعنة، وكان كل منهم يحرص أشد الحرص على تسجيل مغامراته في هذا

[١٨] راجع: Ibid, Pl. Ia.

المضمار على ما خلفه من الآثار، وبخاصة «أمنحتب الثالث» الذي أنفق جزءًا عظيمًا من وقته في صيد الأسود والظباء، ومن قبله «تحتمس الثالث»، وابنه «أمنحتب الثاني»، وقد أسهبنا القول في مناقبهما في هذا المضمار، «فتوت عنخ آمون» لم يند عما كان عليه أسلافه من الإغرام بالصيد والمباهاة بالتبريز فيه، فنشاهده في بعض نقوشه التي خلفها على مقبض[١٩] مروحته التي وُجدت معه في قبره خارجًا من «منف» ليصيد النعام من صحراء «عين شمس» وليصنع من ريش ما يصطاده مروحة تعجبه، ثم نراه في نقش آخر على نفس المقبض، وقد عاد من رحلته مظفرًا منصورًا يحمل تحت إبطه ريش النعام، وخلفه أتباعه يحملون صيده المؤلف من نعامتين، ويظهر أن ذلك الريش الذي تأبطه هو الذي صُنعت منه تلك المروحة التي صاحبته في قبره.

وقد وجدنا «توت عنخ آمون» في بعض نقوش يتمرَّن على الصيد، ومعه مجموعة من أدواته[٢٠] وقد رُصع بعضها بالأحجار الكريمة، وغُطي بصفائح من الذهب المطرز، ويدل حجم هذه الأدوات الصغير على أن الفرعون كان يستعملها منذ نعومة أظفاره، وقد طغى إغرامه بالصيد على كل ما عداه، فصوَّر على قراب خنجره الذهبي الجميل وعلى قارورة[٢١] عطوره ثيرانًا وأسودًا وظباء، وأرانب برية، وكلاب صيد، ويظهر أنه كان لهذه الأخيرة شأن كبير في هذه الرياضة؛ إذ لا يكاد يخلو منها منظر من مناظر صيده التي سجلها على آثاره.

ولقد كانت صحراء «رستاو» التي تشمل «منف» و«الجيزة» وأرباضهما، وبخاصة وادي الغزال تزخر بحيوان الصيد، فكان انتقال «توت عنخ آمون» إلى «منف» أحيانًا فرصة مكنته من إشباع رغبته، كما كان من قبله ملوك الأسرة الثامنة عشرة يفدون إلى هذا المعالم على كل ضامر من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم فيصطادوا ويؤدوا مناسك الحج لهذا الإله العتيق الرابض في صحراء الجيزة «حور إم-أختي» (حور الأفق)، الذي كان يمثل إله الشمس «بولهول»، وكان كل فرعون يحرص على أن يسجل هذه الزيارة الميمونة لهذا المعبود العظيم عند كل توليته الملك، فيضع أثرًا يخلد به ذكرى هذا الحج المبرور. ومن الذين حجوا إلى هذا المشعر المقدس، وسجلوا تأديتهم لهذه الشعيرة

---

[١٩] راجع: Ibid. Pl. LXII.

[٢٠] راجع: Carter, Ibid. p. 15.

[٢١] راجع: Steindorff, “Die Kunsi der Agypter”, PP. 305 and 273 Carter, Ibid, Pls. L, LI.

الدينية «أمنمس بن تحتمس الأول»، وهو أول من سنَّ هذه البدعة على ما نعلم، ثم «تحتمس الثالث» وابنه «أمنحتب الثاني»، ثم «تحتمس الرابع» ثم «أمنحتب الثالث» ثم بطلنا «توت عنخ آمون»، فلم يمنعه صغر سنه أن يؤدي مناسك الحج، ويصطاد في حماه في وادي الغزال ويترك لنا لوحة تذكارية عثرنا على جزء منها في حفائر الجامعة المصرية سنة ١٩٣٦، وقد بدا فيها «توت عنخ آمون» وزوجه «عنخس-إن-آمون» يتعبدان «لبولهول»، وقد مُحي من اللوحة صورة «بولهول»، وهُشم جزء من اسم الملك كما مُحي اسم الملكة، وشُوِّه وجهاهما، ولا يبعد أن يكون هذا فعل بعض المتعصبين لعبادة «آتون».

وقد ترك لنا «توت عنخ آمون» في هذه المنطقة أثرًا آخر، وهو نزل من اللبن في الجنوب الغربي من معبد الوادي، وبابه من الحجر الأبيض، وقد كُتب عليه اسم «بوالهول» ثم اسم الملك ثم اسم الملكة، ولكن اسم «توت عنخ آمون»، قد غُطي بطبقة من الملاط بأمر «رعمسيس الثاني» الذي نقش اسمه مكانه؛ كما كانت عادته في اغتصاب الآثار.

ومما يستحق التنويه عنه هنا أن اسم «بولهول» قد نُقش على هذا الباب، وأول ظهوره على الآثار المصرية المعروفة كان في عهد «أمنحتب الثاني»، وقد نُقش بلفظ «حولنا»؛ مما يدل على أن المستعمرين من أهل فلسطين الذين استوطنوا هذه المنطقة قبل عهد «توت عنخ آمون» كانوا قد بدءوا في عبادة معبودهم «حولنا» أو «حول»، وهو اسم إله الكنعانيين الذي يشبه «حور أختي»، وهو اسم «بولهول» الأصلي، ومن ثم اشتُق اسم «بولهول» (فلفظ «بو» معناها مكان، و«حول» أي المعبود «حول»).

ومن الجائز أن هذا البناء وما حوله من الأبنية كان ديرًا للكهنة، واستراحة لرواد الصحراء الصائدين.

على أن النزل الذي كان يأوي إليه «توت عنخ آمون» بعد صيده كان مجهزًا بحمام يأوي إليه مليكنا الشاب ليغتسل ويزيل آثار وعثاء المطاردة والصيد، ويعطي جسمه حقه من النظافة والاستجمام، بعد هذه الرياضة الشاقة في تلك الصحراوات الرملية الحارة. هذا وقد نُقل بناء هذا الحمام بهيئته التي كان عليها إلى جهة أخرى بجوار الهرم الثاني ليُحفظ هناك تذكارًا من آثار هذا الشاب.

وإذا كان «توت عنخ آمون» مغرمًا هذا الإغرام بصيد الحيوان وطرده فلا بد أن يكون شجاعًا جريئًا، وقد رأينا قطعة من الحجر الجيري أمام مقبرة هذا الفرعون تؤكد

لنا هذه الشجاعة الفائقة ظهر فيها هذا الملك يطعن بحربته أسدًا[٢٢] ضاربًا طعنة نجلاء، ويساعده في مهمته كلبه الأمين، والصور تمتاز بقدرتها على تمثيل حركات الطعن تمثيلًا رائعًا، وفيها من الحياة والحركة ما يعجب ويغرب، والعثور عليها أمام قبره كان بشيرًا بما يحويه ذلك القبر من ذخائر الفن والتراث المجيد، وقد صدقت البشرى ووُجد القبر عامرًا بكل تليد. فهذا صندوق[٢٣] صغير من الخشب المطلي، وعلى وجوهه سلسلة من المناظر الملونة البديعة، وهذا غطاؤه المحدب يزدان بمناظر صيد مختلفة وبخاصة صيد الأسود (انظر شكل رقم ٣)، وهذه جوانبه ملأى برسوم الوقائع الحربية يقاتل فيها «توت عنخ آمون» وحاشيته قتالًا عنيفًا، ويُرى على طرفي الصندوق مليكنا في صورة أسد يدوس الأعداء بقدميه.

ولا نزاع في أن الخيال وقوة التأثير والحياة التي ظهرت في هذه المناظر تفوق حد المألوف، بل ليس لها نظائر في الفن المصري، وإن كانت لا تخلو أحيانًا من المبالغة، فقد جاء في بعضها صورة الملك النحيل، وقد بدا فيها عملاقًا ضخمًا حتى يتفق ذلك مع ما نُسب إليه من عمل جبار، كما رأينا في بعضها الآخر مليكنا يصوب سهامه من عربته فلا يكاد يصل إلى الأعداء حتى يحدث في صفوفهم الرعب والفزع، وتتساقط القتلى، ويتلاحق الصرعى، وتحل بالقوم الهزيمة، كما رأينا من مناظر الصيد ما يدل على قسوته، فنراه يطارد الحيوان على عربته التي تجرها الجياد المطهمة في غير هوادة، ونرى قطعانًا تطلق لساقيها العنان هربًا من سهامه الفتاكة، وهو يلاحقها في غير إشفاق حتى يودي بحياتها أو يتركها تعاني الآلام وهي مضرجة بدمائها والسهام لا تزال عالقة بأجسامها.

على أن هذه الصرامة في المعاملة لم تكن مسيطرة على خلقه بل كانت له نواح أخرى أظهرنا جوانب منها تدل على رقة القلب ودماثة الطبع.

وقد دلَّ الفحص الطبي لجسمه[٢٤] على أنه كان نحيل القوام عظيم الرأس تشبه ملامحه وجوه تماثيله التي عُثر عليها في «الكرنك»، كما أن في تركيب بعض أعضائه ما يتفق مع أخيه «إخناتون».

---

[٢٢] راجع: Carter, Ibid. Pl. II.

[٢٣] راجع: Carter, Ibid, I, Pls. L–LIII, see also Pl. III.

[٢٤] راجع: Ibid. II, PP. 143ff.



شكل ٣: توت عنخ آمون يصطاد الأسود.

وبعد فهذا قل من كثر من تاريخ هذا الشاب العظيم، وإنا لنعلق كثيرًا من آمالنا في معرفة ما خفي من تاريخ هذا الشاب على معول رجال الآثار، وإن كانت تلك البوادر التي كشفناها وحققناها تدل على أن هذا الفتى الصغير كان شهمًا، وقد خلد للبلاد مجدًا فنيًّا عظيمًا، ولو كان القدر قد أمهله لأرانا كثيرًا من عظمته، فمخايله في صباه كانت تبشر بما ننتظر منه في كهولته وشيخوخته.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدرًا كاملًا

(٥) الموظفون في عهد الفرعون «سمنخكارع» و«توت عنخ آمون»

«با-واح» أعظم الرائين

ليس لدينا معلومات تُذكر عن الموظفين في عهد هذا الفرعون، وذلك لا يدهشنا؛ لأنه عندما تولى «سمنخكارع» عرش الملك منفردًا كانت الإمبراطورية المصرية آيلة للسقوط والتمزق السريع، هذا فضلًا عن أنه لم يمكث على عرش الملك إلا فترة قصيرة، وبطبيعة الحال لدينا بعض آثار خاصة قليلة ترجع إلى عهده، ولا نزاع في أنه أبقى على معظم الموظفين الذين كانوا في خدمة سلفه، وإذا كان قد أظهر رغبة في العودة إلى اعتناق مذهب «آمون» فإن هؤلاء العظماء الذين كانوا في ركابه لن يتأخروا طرفة عين عن اقتفاء أثره عن طيب خاطر ولو ظاهرًا، وبخاصة إذا علمنا أن ديانة «آتون» كانت قد فُرضت على بعضهم

فرضًا، وكبار الموظفين على دين ملوكهم، وعبيد لتنفيذ رغباتهم، حتى نبذ دينهم إرضاء لهم.

ولدينا إطار من الحجر الجيري لأحد بيوت «إخناتون» ويحمل اسم فرد يُدعى «با-واح» وكان ضمن موظفي «إخناتون» ويحمل لقب «أعظم الرائين للإله «آتون» في معبد «رع»»، ويُحتمل أن هذا الرجل هو نفس الكاهن الذي كان يحمل الألقاب التالية في «طيبة» في عهد «سمنخكارع» في السنة الثالثة من حكمه وهي: الكاهن المطهر وكاتب القرابين المقدسة للإله «آمون» في بيت «عنخ خبرو رع» في «طيبة»، وإذا حكمنا بالكلمات المؤثرة التي نُقشت من أجله على جدران قاعة «بايري»[٢٥] في جبانة «شيخ عبد القرنة» (رقم ١٣٩)؛ فإنها تدل على أن رجوع «با واح» إلى عبادة «آمون» كان رائده الإخلاص. والظاهر أن هذا التعس قد أصابه العمى. وهذه المصيبة ربما عزاها إلى غضب «آمون» عليه؛ ولذلك كان يعتقد أنه هو الذي في استطاعته أن ينجيه منها، وهذا المتن كان قد نقشه في الواقع أخوه الرسام «باثاي» وهو:

> السنة[٢٦] الثالثة، الشهر الثالث من فصل الفيضان اليوم العاشر من حكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري «عنخ خبرو رع» محبوب «نفر خبرو رع» ابن الشمس، «نفر نفرو آتون» محبوب «رع–ن–رع»؟ يقدم الثناء «لآمون» والخضوع أمام «وننفر» من الكاهن المطهر، وكاتب القرابين المقدسة «لآمون» في بيت «عنخ خبرو» في «طيبة» «با واح» الذي وضعته «أتف سنب» يقول: إن قلبي يتوق لرؤياك أنت يا رب شجر شاواب عندما تأخذ حنجرتك ريح الشمال. وإنك تعطي الشبع بدون أكل، والري بدون شرب. إن قلبي لفرح يا «آمون»، يا ناصر الفقير، وإنك والد من لا أم له، وزوج الأرمل، والنطق باسمك محبب، وإنه مثل طعم الحياة، وإنه مثل طعم الخبز للطفل، والكساء للعريان، وإنك مثل طعم … خشب في فصل الحرارة، وإنك مثل … مع … نفس الحرية إلى رجل كان في السجن، وإنه لآمن … رجل الفضيلة، التفت إلينا يا رب الأبدية، وإنك كنت هنا قبل أن يوجد أي شيء في الوجود، وإنك

[٢٥] راجع: Le Tombeau de Pare in Mem. Miss. Arch. Fr. V, 581–90.

[٢٦] راجع: Stela in Brit. Mus. 1182, Hiero. Texts From Egyptian Stela Pt. VII, Pl. 7.

> هنا عندما يكونون ... وإنك تجعلني أرى ظلامًا من عطيتك، أَضِئْ لي حتى أراك (؟)، وإني أستحلفك بقدر بقاء روحك، وبقدر بقاء وجهك الجميل أن تأتي من بعيد، وتجعل خادمك الكاتب «با واح» يستطيع أن يرى، وأَعْطِهِ بقاء «رع»! حقًّا، إن عبادتك حسنة. يا آمون! أنت يا من البحث عنه عظيم إذا كان في الإمكان الوصول إليه، أبعد الخوف، وضع الفرح في قلوب الناس، وإن القوم الذين يرونك لفي سرور «يا آمون»، وإنه لفي عيد كل يوم. إلى روح «كا» الكاهن المطهر، وكاتب معبد «آمون» في بيت «عنخ خبرو رع» «با واح» الذي وضعته «إتف سنب». إلى روحك (كا) امض يومًا سعيدًا في وسط زملائك من أهل بلدتك! (نقشه) أخوه الرسام «باثاي» التابع لبيت «عنخ خبرو رع».

وهذا مثل من الأدعية والتضرعات التي أصبحت فيما بعد ذائعة في جبانة «طيبة»، وهي التي نرى فيها روح التقى والورع والتقرب من الآلهة، ولم تكن معروفة قبل ذلك العهد.

(٦) الموظفون في عهد «توت عنخ آمون»

حوي

من أبرز الرجال الذين عاشوا في عهد «توت عنخ آمون» حاكم السودان «حوي»، وقد تكلمنا عنه في مكانه (راجع ص١٦٨) (راجع Davies & Gardener, The Tomb of Huy).

«معي» كاتب مالية بيت «توت عنخ آمون»

وُجدت له لوحة في معبد الملك «سحو رع» أحد ملوك الأسرة الخامسة في «بوصير»، وكانت مهداة للإلهة «سخمت» قدَّمها موظف يُدعى «معي»، وكان يشغل وظيفة خادم الإله «بتاح» وخادم الإلهة «سخمت» وكاتب مالية بيت «توت عنخ آمون»، ولا بد أن قبر هذا الموظف كان في هذه الجهة، أو أنه قدَّم هذه اللوحة تقربًا لهذين الإلهين في هذه الجهة (راجع Borchardt Sahure Vol. I, Pl. 121, 122).

«باسر» بن «حوي» المشرف على الخيل

كان «باسر» أحد أبناء «حوي» نائب بلاد «كوش» في عهد «توت عنخ آمون»، وقد تقلَّد وظيفة المشرف على الخيل، وكانت ضمن الوظائف الرفيعة الشأن في الدولة في ذلك العهد، وقد ظهر في رسوم قبر والده، ويُحتمل أنه هو الذي أصبح فيما بعد نائب «كوش» (راجع L. D. text III, p. 306).

نهاية الأسرة الثامنة عشرة

عرض عام للنظم الحربية والإدارية ونفوذ الجيش
في عهد الأسرة الثامنة عشرة

كان «توت عنخ آمون» آخر فرعون تولَّى عرش مصر من سلالة التحامسة ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وبعد وفاته توالى على عرش البلاد ثلاثة فراعنة لم يكن يجري في عروقهم الدم الملكي، وهؤلاء هم الفرعون «آي» الذي خلفه «حور محب» ثم أعقبه «رعمسيس الأول». وقد كان كل من هؤلاء قبل أن يقبض على زمام الأمور في البلاد يحمل لقب «القائد الأعلى» لجيوش الدولة المصرية، كما سنفصل ذلك بعدُ في حينه، على أن كل واحد منهم كان يبرر توليته عرش البلاد بزواجه أحيانًا من إحدى أميرات هذا البيت المالك الذي انقرض نسل الذكور فيه.

(١) موازنة بين الموظفين ورجال الجيش

ولا شك في أن موضوع تولي قائد الجيش أعظم سلطة في البلاد يكون مثارًا للدهشة والعجب عندما يستعرض الإنسان أمامه الدور الضئيل الذي كان يقوم به كل من الجندي وقائده في بناء مجد المملكة المصرية الداخلي؛ فقد كانت حكومة الأسرة الثامنة عشرة تعتنق مذهب الحكم «البيروقراطي»، وبعبارة أوضح كانت حكومة البلاد وقتئذٍ تتركز في يد سلسلة من طوائف الموظفين درجات بعضها فوق بعض كل منها مسئولة أمام رؤسائها وحدهم، بيد أنهم كانوا يقبضون في الوقت نفسه على كل صغيرة وكبيرة ماسة

بحياة القوم العامة والخاصة. ولم يكن في يد الأشراف في هذه الفترة أية سلطة لمناهضة هذا النظام البيروقراطي؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفراعنة الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة قد أجهزوا على معظم فئة الأشراف من حكام المقاطعات، أما البقية الباقية الذين أفلتوا من أيديهم، فقد تلاشوا تدريجًا على كرِّ الأيام، ومن ثم أصبحت طبقة الموظفين تُعَدُّ أعلى طبقة بين أفراد الشعب في كل البلاد؛ ولذا كان يُنظر إليها بعين التبجيل والاحترام، أما الطبقات الأخرى من الشعب فقد كان يُنظر إليها بعين الاحتقار والامتهان، ولا غرابة إذا رأينا أن الكتاب والموظفين كانوا يقبضون على زمام البلاد وحدهم فيما بعد، ويحتلون مكانة ممتازة فيها.

وقد بقي لنا صدى منزلتهم الرفيعة فيما دُوِّن في كراسات تلاميذ من عهد «الرعامسة» فقد دافع حملة الأقلام عن هذه الفئة دفاعًا مجيدًا، على حين أنهم كانوا يحتقرون وظيفة الجندي وغيرها من الحرف،[1] ولا شك في أن هذه ظاهرة تدل صراحة على مهاجمة مكانة الجندي والطبقة التي ينتسب إليها، وقد كان هذا الروح العدائي بين طبقة الموظفين وطبقة الجند سائدًا في عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى عصر «إخناتون»، هذا على الرغم من أن الروح العسكري كان سائدًا في عهد التحامسة الأول؛ إذ على أعناق رجال الجيش وبحد سيوفهم تبوَّأت مصر المكانة الرفيعة بين دول العالم بعد أن استردت استقلالها وطردت الغزاة الغاصبين من عقر دارها، غير أنه لم يكن يدور بخلد أحد في هذه الفترة أن هذه القوة العسكرية سوف تناهض السلطة البيروقراطية، وتحتل مكانتها، إلا أن الأقدار شاءت أن تتكون رابطة قوية بين الفرعون وبين جنوده الذين خاضوا جنبًا لجنب معه غمار الحروب الطاحنة التي شنوها على الممالك المجاورة، وهي التي أسفرت عن تكوين إمبراطورية مصرية مترامية الأطراف أغدقت على الشعب المصري الخير العميم، والأرزاق الوفيرة. ولقد كان من نتائج تكوين هذه العلاقات بين الفرعون وجنوده أن انتقلت السلطة الحكومية الفعلية تدريجًا إلى يد القواد الحربيين في هذه الفترة، ولا بد لنا الآن من أن نبحث هنا الأسباب التي أدَّت إلى هذا الانتقال، ونعرض صورة العصر الذي بدأ يظهر فيه اندماج الوظائف الحربية بالوظائف المدنية، وكذلك يجب علينا أن نبحث الدور الحقيقي الذي لعبه القائد الحربي قبل انتقال السلطة المدنية إلى يده، وما كان يقوم به خلال التمتع بها، ولكن قبل أن نقف على حقيقة ذلك

[1] راجع كتاب الأدب المصري القديم ج١، ص٣٥٠ … إلخ.

لا بد من الإجابة على السؤال التالي: من هو الموظف الخارج عن هيئة السلك العسكري الذي يقوم بأعباء وظيفة لها ارتباط بالجيش؟ ثم نتساءل كذلك كيف كان تدرج تلك الوظيفة؟ والجواب على ذلك هو أن رجال السلك العسكري كانوا ينقسمون طائفتين؛ طائفة الموظفين الحربيين، (أي رجال الإدارة) وطائفة الجند العاملين، وكان لكل من الموظفين الحربيين وضباط الميدان عمل خاص بهم. ولما كان بعض هذه الوظائف حربيًّا محضًا وبعضها الآخر يجمع بين العمل الحربي والعمل المدني أصبح من الضروري أن نحدد أوَّلًا الفرق بين عمل الموظف الحربي، وعمل الجندي المقاتل، وعلى هذا يمكن وضع حد فاصل بينهما نعرف به الموظفين الذين كانوا في زمرة الجنود العاملين في الميدان ثم تقلدوا فيما بعد وظائف مدنية، وبهذه الكيفية يمكننا أن نحدد الرقعة التي يمتد عليها هذا البحث، ثم نعرف التأثير الذي أحدثه هؤلاء الموظفون في قلب كيان الأداة الحكومية في نهاية الأسرة الثامنة عشرة. وأخيرًا لا بد أن نجيب عن سؤال آخر وهو: من أية طبقة من طبقات الشعب نشأ القائد الحربي؟

(١-١) «أمنحتب» بن «حبو»

كان موظفو الإدارة الحربية هم الطائفة العظيمة الذين كانوا يسيطرون بنفوذهم على القيادة الحربية، ومن أبرز رجال هذه الطائفة الذين عُرفوا في تاريخ الأسرة الثامنة عشرة «أمنحتب بن حبو»[٢] وهو الذي اشتهر فيما بعد بحكمته وأصالة رأيه لدرجة أن الشعب قد رفعه في عهد البطالمة إلى مرتبة الآلهة، وتاريخ حياة هذا الرجل العظيم يمثل أمام أعيننا حياة الموظف الذي تقلب في أعمال الإدارة الحربية، فبدرس حياته إذن نعلم حدود هذه الإدارة وما تشمل عليه من الوظائف.

[٢] وأهم المصادر الأصلية التي سنعتمد عليها في درس حياته هي ما يأتي:

- تمثال من معبد آمون بالكرنك (راجع A. S. XXVIII, p. 141).
- تمثال من معبد الكرنك (راجع A. S. XIV, p. 17).
- تمثال آخر (راجع A. S. XIV, p. 19).
- تمثال نشره «لجران» (راجع Legrain, “Statue”, I, No. 42127).
- تمثال نشره «يورخارت» (راجع Legrain, “Statues”, II, p. 853).



شكل ١: «أمنحتب» بن «حبو».

- تمثال كتب عنه «جلانفيل» (راجع J. E. A., XV, p. 2).
- (راجع Legrain, "Statues" IV, p. 942).

أما معبده الجنازي فقد كتب عنه «روبيشون» و«فاري» (راجع Robichon et Varille, "Le Temple du Scribe Royal Amenhotep fils de Hapoui, I, et Cone Funeraire Robichon et Varille, Fouilles de l'Inst. Franç. Du Caire", Vol. XI, 1936).

راجع كذلك: "Revue d'Egyptologie", II, fasc. 1, 2; "Revue Egyptologique (1919) nouv. Serie, I, p. 74.

حياة «أمنحتب» بن «حبو»

وُلد «أمنحتب بن حبو» في بلدة «أتريب» (بنها الحالية) من أعمال المقاطعة العاشرة من مقاطعات الوجه البحري؛ كما ذكر لنا ذلك في ترجمته لنفسه التي تركها في نقوش عدة،[٣] ولذلك كان مما يفخر به أنه يحمل لقب «رئيس كهنة إله بلدته» الذي كان يُدعى «حور خنتي ختي»،[٤] على أن بلدة «أتريب» مسقط رأسه لم تكن ذات مكانة تُحسد عليها في خلال الأسرة الثامنة عشرة،[٥] ومع ذلك فإن «أمنحتب» هذا كان كثير التفاخر بانتسابه إليها لأسباب لا تزال مجهولة لدينا؛ فنراه يذكر لنا بسرور وغبطة في ترجمة حياته،[٦] كيف أن الفرعون أجاب ملتمسه فزين هذه المدينة بأحسن الزينة وأفخرها.

وتدل كل الأحوال على أنه وُلد من أبوين فقيرين؛ أي إنه نشأ من عامة الشعب؛ فقد ذكر لنا اسم والده «حبو»[٧] واسم والدته «إتو» مجردين عن كل لقب، ومن هذين الأبوين المغموري الذكر نشأ «أمنحتب»، وتدرج إلى معارج الرقي، حتى أصبح يقبض على زمام أمور الدولة المصرية في عهد «أمنحتب الثالث» أشهر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، وقد أُوتي الحكمة وفصل الخطاب؛ مما وضعه في مصاف الآلهة في العصور المتأخرة؛ فقد كان القوم يحتفلون بعيد ولادته في اليوم العاشر[٨] من الشهر السابع من كل سنة، وقد عُمر طويلًا؛ إذ بلغ على حسب بعض الأقوال الثمانين حولًا في نهاية حكم «أمنحتب الثالث»، وأرجح الأقوال أنه وُلد في عهد الفاتح العظيم «تحتمس الثالث». وقد حاول البعض أن ينسبه إلى أسرة أحد أمراء المقاطعات بحجة أنه كان يحمل لقب الحاكم «المشرف على الكهنة»[٩] وفي هذا من خطل القول ما فيه؛ لأنه في هذه الفترة من تاريخ البلاد لم يكن في

[٣] راجع: A. S. XIV, p. 19.

[٤] راجع: Legrain, “Statues”, No. 42127.

[٥] راجع: A. Z. LXXIII, p. 44.

[٦] راجع: Borchardt “Statuen und Statuetten” II, p. 583. L. 5.

[٧] راجع: Spiegelberg, “Rec. Trav.”, XXIII, p. 98; A. Z., XXV, p. 117.

[٨] راجع: Naville, “Temple of Deir el Bahari”, V, Pl. 150.

[٩] مما هو جدير بالملاحظة هنا أن لقب «الحاكم المشرف على الكهنة» في عهد الأسرة الثامنة عشرة منذ عهد حتشبسوت كان كل منهما لقب شرف وحسب (عدا حكام نخن، والكاب وطينة) يُعطى لمن أُحيلوا على المعاش، وقد كان الحاكم الحقيقي للمدن يُدعى «الحاكم» (حات عا) أو «العمدة»، ولم يكن يوجد مثل هذا الحاكم إلا في أوائل الأسرة الثامنة عشرة في «نخن» و«الكاب» وكما كان كذلك في طينة.

المقاطعات أمراء يحكمونها؛ لأن هذا النظام من الحكم كان قد قُضي عليه نهائيًّا في عهد الأسرة الثانية عشرة، هذا إلى أن والده «حبو» كما ذكرناه قد وصل إلينا اسمه مجردًا عن الألقاب؛ مما يدل على أنه لم يرث أي لقب قط عن أجداده، بل على العكس نال مجده بجده وعبقريته الفذة.

لم يذكر لنا «أمنحتب» شيئًا ما عن حياته قبل اعتلاء سميه «أمنحتب الثالث» عرش الإمبراطورية المصرية، وأوَّل وظيفة تقلَّدها في حكم هذا الفرعون هي «مساعد كاتب الملك».

ولا بد أنه كان قد ناهز الخمسين من عمره حينما تقلد أعباء هذه الوظيفة الصغيرة. ومن المحتمل أنه كانت توجد بينه وبين الملك الشاب رابطة جعلته ينخرط بسرعة في سلك الوظائف المدنية، غير أن الآثار لم تمدنا بأية معلومات في هذا الصدد كما أغفلت ذكر الوظائف التي كان يتقلدها قبل هذه الوظيفة التي وجدناه يقوم بأعبائها، فاستمع لما يقصه في ترجمته عن نفسه وهو في دور التكوين: «كنت قد رُقيت إلى وظيفة مساعد كاتب ملكي، وكنت قد تفقهت قبلها في كتاب الإله، ورأيت قوة «تحوت» (إله العلم)؛ فكنت بذلك ماهرًا في أسرار كتابه، حتى إني كنت أحل كل معضلاتها، وكان كل إنسان يسألني النصيحة[١٠] (المشورة).» ثم يذكر لنا في نفس هذه الوثيقة أن الفرعون قد رقَّاه بعد فترة من الزمن إلى وظيفة «كاتب المجندين» برتبة «رئيس كتبة الملك». وتلك كانت الوظيفة الرئيسية التي تقلدها «أمنحتب بن حبو»، وسنفصل القول عن نشاطه فيما بعد.

وقد كلفه الفرعون بوصفه «كاتب المجندين» أن يسهم في إقامة المباني الملكية؛ ولهذا منحه لقب «مدير كل المباني الملكية»، وقد كان نطاق وظيفته هذه بالإضافة إلى وظيفة «كاتب المجندين» قاصرًا على الوجه البحري؛[١١] ولهذا السبب كان يُلقب بحق على أحد النقوش «مدير المحاجر للجبل الأحمر».[١٢] وهذه المحاجر واقعة بالقرب من «عين شمس»، وكانت تُعَدُّ في نظر ملوك الأسرة الثامنة عشرة أعظم محاجر تمتاز بفخامة الأحجار المستخرجة منها؛ إذ كان يُقطع منها الحجر الرملي الأحمر المحبب، ومنه تُصنع

---

[١٠] راجع: Borchardt, “Statuen und Statuetten”, 483, 1, 12.

[١١] راجع: Anthes, A. Z., LXXII, p. 68.

[١٢] راجع: A. S., XIV, p. 17; A. S. XXXIII, p. 85; Ibid, XXX IV, p. 10.

التوابيت الملكية،[١٣] وتدل شواهد الأمور على أن «أمنحتب الثالث» كان معجبًا بأحجار هذه المحاجر، ويقال إنه في أول حكمه لقب الأحجار المستخرجة منها «بالأحجار المدهشة».[١٤] ومن المحتمل أن سبب تفضيله هذه الأحجار على غيرها يرجع إلى الذوق الشخصي من جهة، وإلى الصعوبات التي كان لا بد من تجشمها في نقل أحجارها الضخمة عن طريق النهر إلى «طيبة» من جهة أخرى، وكذلك إلى الصعوبات الفنية التي كان لا بد للمفتن المصري من التغلب عليها في نحتها، وإخراجها في صور متقنة بهجة. ولقد عبَّر لنا «أمنحتب الثالث» عن كبريائه وعجبه وقوته في هذا الصدد عندما فاه بالجملة العظيمة المعبرة عن نقل هذه الأحجار: من «عين شمس» الشمالية إلى «عين شمس الجنوبية» (أي من هليوبوليس إلى طيبة)، وقد دوَّن «أمنحتب» بن «حبو» هذه العبارة على آثار سيده الخالدة إلى الآن بنصها. وكذلك خلع «أمنحتب الثالث» على نفسه في نقوش تماثيله الضخمين المقامين أمام معبده «بطيبة» الغربية لقب: صاحب الآثار العظيمة التي نقلها بقوته من «عين شمس الشمالية» إلى «عين شمس» الجنوبية[١٥] (طيبة)، كما ترك لنا «أمنحتب بن حبو» على التمثال[١٦] الذي أهداه إياه الفرعون، وحباه بإقامته في «معبد آمون» نقوشًا تصف إقامة تمثال الملك العظيم بكلمات ملؤها الفخر والإعجاب، لا تقل عما سبق ذكره؛ إذ يقول:

> لقد نصَّبني الفرعون مديرًا للأعمال القائمة في محجر الجبل الأحمر، وهي الآثار التي كانت ستُقام في «معبد الكرنك» للإله «آمون»، فنقلت تمثاله الضخم الذي كان يمثل صورة جلالته بكل دقة فنية، وقد أُحضر من «عين شمس الشمالية» إلى «عين شمس الجنوبية»، وهو لا يزال إلى الآن رابضًا في مكانه، وقد حباني سيدي؛ فسمح لي بإقامة تمثالي في معبد «آمون»؛ لأنه يعلم أني ملك يديه أبديًّا.

[١٣] راجع: Sethe, “Festschrift fur Ebers”, p. 30.

[١٤] راجع: Ibid, p. 28.

[١٥] راجع: Varille, A. S. XXXIII, p. 83ff، وهذان التمثالان هما تمثالا «ممنون» المشهوران.

[١٦] راجع: A. S., XIV, p. 18.

كذلك تدل اللوحة الجنازية التي جاء فيها ذكر إهداء المعبد الجنازي الذي أُقيم فيه هذا التمثال على أنه قُطع من نفس المحاجر السالفة الذكر؛ إذ يقول الفرعون:

لقد ملأ جلالتي المعبد بالآثار والتماثيل من الجبل الأحمر.[١٧]

والظاهر أن «أمنحتب بن حبو» هو الذي كان يشغل وظيفة مدير الأعمال التي كانت تُقام في هذا المعبد، وإن لم يذكر لنا ذلك صراحة. ويمكن استخلاص ذلك من أن «أمنحتب بن حبو» قد أقام معبده بجوار معبد سيده مباشرة، وقد كافأه الملك على ما قام به من جليل الأعمال في إدارة المباني الملكية وقطع أحجار التماثيل ونقلها بالتصريح له بإقامة تمثاله في معبد «آمون». وهذا التمثال لا يزال باقيًا حتى الآن، وقد عُثر على تمثال آخر معه مشابه له في نقوشه، والتمثالان موجودان الآن بالمتحف المصري.[١٨] والظاهر أنهما نُصبا في هذا المعبد في وقت واحد، وقد جاء على الأخير منهما ذكر عيد «سد» الأوَّل للفرعون «أمنحتب الثالث»، وهذا العيد كان يُقام في الأصل كما يُقال بعد مرور ثلاثين سنة من حكم الفرعون الجالس على العرش؛ ولكن هذا التقليد لم يكن يُعمل به دائمًا من جهة المدة كما ذكرنا. وعلى ذلك يظهر أن هذين التمثالين قد نحتهما «أمنحتب بن حبو» بمناسبة هذا العيد، وكذلك تدل الشواهد على أن تمثالي «ممنون» قد نُصبا في خلال هذه الفترة؛ لأننا نقرأ على واحد منهما الدور الذي لعبه «أمنحتب» في إقامتهما.

ومما يؤثر عنه من جليل الأعمال التي قام بها لسيده كذلك في أعمال البناء الضخمة التي لا تزال آثارها باقية حتى الآن نصب تمثال هائل بمعبد الكرنك،[١٩] فيقول:

لقد نصبني سيدي مديرًا لكل المباني الملكية، فجعلت اسم الفرعون مخلدًا؛ لأني لم أُقلد أعمال السلف، بل بنيت له جبلًا[٢٠] من الحجر الرملي (أي إن معبد موت عامة كان مفعمًا بتماثيل من — هذا النوع من الحجر حتى أصبح جبلًا من هذا الحجر الرملي)؛ لأنه وارث الإله «آتوم»، وقد أقمت ذلك على حسب

[١٧] راجع: L. D. III, Pl. 72, line 4.

[١٨] راجع: A. S., XIV, p. 17, 19.

[١٩] راجع: Borchardt, Statuen und Statuetten” II, 583.

[٢٠] راجع: Sethe, “Bauersteine”, p. 31.

ذوقي الخاص؛ فجعلت صورته في معبده العظيم هذا من كل نوع، وجعلته يناهض السماء في علوه من الأحجار الصلبة؛ ولذلك جاء عملي هذا منقطع القرين منذ الأزل.

ولقد أشرفت على عمل تمثاله العظيم الشاسع في عرضه والسامق في طوله حتى فاق عمد المعبد الذي نُصب فيه، ولقد أشرق جماله على بابه؛ إذ بلغ طوله أربعين ذراعًا، أما مادته فقد قُطعت من محاجر الحجر الرملي المقدس للإله «رع آتوم»، وكذلك بنيت له سفينة خاصة وأحضرته فيها بالنيل، وأقمته في معبده العظيم الأبدي، فكان يناهض القبة الزرقاء في سموِّها، وسيحكم من سيأتي بعدي على عملي العظيم الأبدي هذا. وكان الجيش بقيادتي، وكان جنوده يعملون بسرور وقلوبهم فرحة؛ لأنهم يقومون بتأدية واجبهم لإلههم الطيب مسبِّحين بحمده، وقد أنزلوا هذا الأثر في «طيبة» مهللين مستبشرين، وهو رابض الآن في مكانه أبديًّا.

فنرى من الوصف السابق أن تمثال الملك هذا قد قُطع من محاجر «الجبل الأحمر»، وقد أوضح لنا «أمنحتب» في النقوش السالفة الذكر تفضيل الفرعون هذه المحاجر المقدسة، وتقع على مقربة من «عين شمس» وتُنسب للإله «آتوم»، وهو الإله المحلي لهذه الجهة، ولما كان الفرعون يعد نفسه ابن الإله «آتوم» ووارثه على الأرض، فإنه كان بطبيعة الحال يفضل نحت تمثاله من أحجار هذا المحجر بوصفها موروثة عن أبيه «آتوم».

والتمثال المشار إليه كان منصوبًا في معبد «الكرنك»، وقد تعرف عليه الأستاذ «زيته» ثانية (راجع Sethe Festschrift fur Ebers p. 107ff)، وقال إنه هو التمثال الضخم المنسوب إلى الفرعون «أمنحتب الثالث»، وهو الذي لا تزال قاعدته قائمة للآن أمام الواجهة الجنوبية للبوابة العاشرة التي أقامها «حور محب»، وهذا التمثال حقيقة منحوت في الحجر الرملي المجلوب من الجبل الأحمر، ولكن يبلغ ارتفاعه على حسب رأي الأستاذ «زيته» إلا نحو خمسة عشر مترًا. وقد فُسر ما جاء في النقوش من أنه يبلغ ذرعه أربعين ذراعًا بأن هذا الطول يُنسب إلى قطعة الحجر التي نُحت فيها التمثال في المحجر. ولا بد أن هذا التمثال هو أحد التماثيل الضخمة القائمة في الجهة الشمالية من نفس البوابة وهي التي اغتصبها «رعمسيس الثاني» لنفسه كما كانت عادته. يُضاف إلى

ذلك أن تمثال «أمنحتب الثالث» هذا ليس قائمًا في مكانه الأصلي، وليس لدينا معلومات عن المكان الذي كان قد أُقيم فيه أوَّلًا. هذا كل ما وصلنا عن أعمال البناء التي قام بها «أمنحتب بن حبو». يُضاف إلى ذلك تمثال آخر له في معبد «الكرنك»، ولكن هذا لا يدل على أنه قد أقام بها مباني هناك، والظاهر أن التمثال المذكور قد أُقيم في هذا المعبد بعد أن تم بناؤه نهائيًّا.

أما المباني التي أمر «أمنحتب الثالث»[٢١] بإقامتها في «إتريب» (بنها الحالية) تكريمًا «لأمنحتب بن حبو» مدير مبانيه بوصفها مسقط رأسه، فلم يذكر لنا الأخير أنه هو الذي أشرف على إقامتها، وكل ما نعرفه أن الفرعون «أمر أن تُحفر في هذه البلدة بحيرة في شمالها وأخرى في جنوبها، وأن تُزين شواطئهما بالأزهار والأشجار ... وكذلك أقام معبدًا لإله بلدتي ... وزاد في قرابينه اليومية؛ وبذلك أسدى سيدي إلى بلدتي شرفًا عظيمًا. هذا إلى أنه أغدق من فيضه على أسرتي في الحياة الدنيا.»

ويُعزى لقب «كاهن سم في بيت الذهب» (مكان التحنيط) الذي يحمله «أمنحتب» إلى نشاطه بوصفه مشرفًا على المباني الدينية والآثار، وهذا اللقب كان لا يحمله إلا امرؤ مقدس طاهر منحه الله قوة ربانية؛ لأنه كان لا يجوز لأحد غيره لمس أدوات العبادة، وهذا هو السبب الذي من أجله قد عُين «إخرنوفرت»[٢٢] في عهد الدولة الوسطى على حسب أوامر الملك «سنوسرت الثالث» ليضع صورًا دينية ثانية في «العرابة» للإله «أوزير»، فيقول إخرنوفرت: «وكانت يدي طاهرة عند تزيين الإله بوصفي «كاهن سم» وأصابعي نظيفة، وكذلك كانت الحالة مع «منمسو»[٢٣] الذي عاصر كلًّا من «تحتمس الثالث» و«أمنحتب الثاني»، وكان يحمل لقب «مدير المباني الملكية في الوجه القبلي والوجه البحري»؛ لأنه مُنح وظائف في كل المعابد التي كان يدير العمل فيها كهنة مطهرون.»

وهذه الأعمال الجليلة المنقطعة النظير التي قام بها «أمنحتب بن حبو» لمليكه قد قابلها الفرعون بإنعامات عظيمة فريدة في بابها أيضًا، فتفضل وسمح له بإقامة قبر

[٢١] راجع: Borchardt, ibid. II, 583, Rs. Line 5ff.

[٢٢] راجع: Schaefer, “Stele des Ichernofert”, Line 17.

[٢٣] راجع: Bisson de la Roque, “Fouilles de Medamoud” rapport Preliminaire. IV, 2. p. 52. Line 29.

على غرار قبر الفرعون، فأقام لنفسه معبدًا جنازيًّا على الضفة اليمنى للنيل في «طيبة الغربية»،[٢٤] ونحت قبره على مقربة منه في الصخور التي على حافة الصحراء، كما كان يفعل الفراعنة. وهذه ميزة فريدة اختُص «أمنحتب بن حبو» على كل أقرانه بها؛ فقد تساوى بالفراعنة من هذه الناحية في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وليس هناك من يضارعه في هذا الإنعام إلا «سنموت»[٢٥] أكبر رجال الملكة «حتشبسوت»، فقد سمحت له أن يقيم قبره في منطقة معبدها بالدير البحري كما فصلنا القول في ذلك (راجع الجزء الرابع).

وفي خلال المدة التي كان يقوم فيها «أمنحتب بن حبو» بأعباء إقامة تمثالي «ممنون»، ويشرف على بناء معبده الجنازي، ومعبد الفرعون أيضًا، وكل إليه «أمنحتب الثالث» أمر القيام بمهمة أخرى خطيرة الشأن، وذلك أنه عندما حلَّ موعد أحفال العيد الثلاثيني أراد هذا الفرعون أن ينتهز من الحفل به فرصة سانحة ليقيم لإلهه «آمون» ولنفسه معبدًا عظيمًا في بلاد النوبة، فرأى أن خير من يقوم بهذا العمل الضخم هو «أمنحتب بن حبو»؛ ولذلك كلفه أن يشرع بإعداد كل ما يحتاج من معدات دينية واقتصادية لتنفيذ ما أراد. وفي ذلك يقول[٢٦] لنا «أمنحتب بن حبو» نفسه: «لقد نُصبت مندوبًا فوق العادة لجلالة الفرعون؛ لأجل أن أحضر له أناسي من «طيبة» وهم عبيد ممتلكات الفرعون لأقدمهم أبديًّا للإله آمون في عيد «سد» الأول لجلالته، وقد وكل إليَّ جلالته تنظيم إدارة الإله «آمون»، فنصبت الكهنة في وظائفهم … وعينني الملك مدير عيد «آمون» في كل أعياده، فجهزت قربانًا يوميًّا.»

وعلى الرغم من أن معبد بلدة «صولب» المقصود هنا لم يُذكر بالاسم في هذه النقوش فإن من الظاهر بداهة أنه قد أُقيم فيها بهذه المناسبة، هذا فضلًا عن أن الرسوم الواضحة التي تمثل «أمنحتب» في هذا المعبد لا تدع أي مجال للشك في أن معبد «صولب» هو المقصود هنا.

ونعلم أن «أمنحتب بن حبو» هو الذي حبس على هذا المعبد الحقول، وخصص لها فلاحين ليقوموا بزرعها وصيانتها، وقد نُقلت من أملاك الملك لتكون هبة للمعبد، وكذلك

---

[٢٤] راجع: Robichon et Varille, “Le Temple du Scribe Royal Amenhotep fils de Hapou, Tome I, Fouilles de l’Inst. Franç. Du Caire” XI. p. 1936.

[٢٥] راجع: M. M. A. (Feb. 1928) p. 12.

[٢٦] راجع: A. S., XIV, p. 19.

أعد ما يلزم لإقامة الشعائر الدينية من مغنين وراقصات، هذا إلى أنه جهز كل ما يلزم لإتمام معدات المعبد، وكان أهم أمر لفت نظره هو تنصيب الكهنة الذين كانوا تمتعوا بأوقافه وهباته، وقد كافأه الفرعون على ما قام به لإعداد هذا الحفل بالعيد الثلاثيني؛ ففضلًا عن أنه جعله يقوم بتمثيل الفرعون قد خلع عليه رتبة «ربعت» (أي نائب الملك)، وهو لقب شرف عظيم القدر؛ ولهذا السبب وجدنا هذا اللقب العظيم منقوشًا على تابوته بالصور التالية: «وظيفة نائب الملك» (ولي العهد) في «عيد سد». ومما يلفت النظر أن «أمنحتب بن حبو» هو الفرد الوحيد الذي شُوهد على ما بقي من نقوش هذا المعبد يمثل هذا الدور وحده في هذا الحفل،[٢٧] وتصفه النقوش بأنه «نائب الملك والكاتب الملكي» «أمنحتب بن حبو»، وقد استُقبل هناك بوصفه ملكًا عند المحراب المخصص للإله، وقرع على بابه كما يقرع الملك بصولجانه.

ويُستدل من الآثار أن لقب «ربعت» (ولي العهد) لم يكن لقبًا قديمًا يُستعمل في عيد «سد»؛ لأننا لم نجده في نقوش معبد الشمس للملك «نوسر رع»[٢٨] من فراعنة الأسرة الخامسة، بل كان يُطلق على من يمثل هذا الدور لقب آخر حلَّ محله هذا اللقب، واللقب القديم الذي كان يحمله من يقوم بهذا الدور يتفق في الواقع اتفاقًا تامًّا مع ما كان يقوم به «أمنحتب» بن «حبو» بوصفه منظمًا للمعبد بمناسبة الحفل بأول عيد ثلاثيني لهذا الفرعون. على أن «أمنحتب» لم يكن الموظف الكبير الوحيد الذي أخذ بنصيب وافر في الحفل بهذا العيد الثلاثيني للملك «أمنحتب الثالث»؛ إذ نجد في نقوش «صولب» نفسها أنه قد ذُكر بوجه خاص «وزير الجنوب» «رعموسي» والكاهن «مري»،[٢٩] يُضاف إلى ذلك أن «إتن تحن» مدير بيت «أمنحتب الثالث» كان يقوم بدور في هذا العيد[٣٠] مع «نفر سهرو» الذي كان يحمل لقب «مدير العرشين». وكذلك نجد صورة «مدير الجنوب» «خع-محات» كاهن الإله «أنوبيس»[٣١] بين الذين اشتركوا في الحفل بهذا العيد. ونظن أن

---

[٢٧] راجع: Sethe, “festschrifte fur Ebers”, p. 118; L. D., III, iPl. 83ff, L. D. Text, V, p. 235.

[٢٨] راجع: Bissing-Kees, “Textband zum Re Heiligtum III, PP. 29, 58.

[٢٩] راجع: L. D., III, Pl. 84.

[٣٠] راجع: Statue Berlin Mus. No. 2293; Naville, “Bubastis”, Pl. XXXV, G,; A. Z. LIX, p. 110; A. Z., XLVII, p. 91.

[٣١] وقد تكلمنا عن «خيروف» والدور الذي لعبه في هذا العيد من قبل، راجع ص٨٨.

«أمنحتب بن حبو» لعب دورًا آخر بعد نهاية هذا العيد الثلاثيني، ويرتكز هذا الظن على النقش الذي وُجد في قطعة حجر من معبده جاء فيها: «السنة الثلاثون،[٣٢] الشهر الحادي عشر، اليوم الثاني من الشهر، تمييز كاتب الملك الحقيقي «أمنحتب» بلقب «عز مر» (حاكم المقاطعة)؟ في نهاية العيد الثلاثيني، ومُنح حليًّا من الذهب وأنواعًا مختلفة من الأحجار الكريمة الجميلة؛ فقد أُهدي قلادة من الذهب، وزُين جيده بأنواع كثيرة من الأحجار الكريمة، واعتلى كرسيًّا من الذهب، (الذي يقابل قاعة العرش)، وكسا جسمه بأحسن أنواع الكتان ...» فهذا النقش يدل على أن «أمنحتب بن حبو» قد لعب دور «عز مر» في نهاية عيد «سد»، وهذا الدور لم يُعرف من قبل في مناظر هذا العيد قط. أما الامتيازات التي اختص بها عن طريق الهبات الملكية فيمكن قرنها بالإنعامات التي أنعم بها نفس الفرعون على «مدير الغلال» «خع-محات» في العام الثلاثين من حكمه (أي في عيد «سد») والممثلة في قبره.[٣٣]

وقد قص علينا «أمنحتب» في النقوش التي على تمثاله مقدار نشاطه في هذا العيد؛ إذ يقول: «إن الملك قد نصبه مشرفًا على عيد «آمون»، وهو بذلك يقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به الفرعون نفسه»، والواقع أن الفرعون كان يعين نائبًا عنه في الأقاليم من كبار رجال الدولة في مناسبات الحفل بالأعياد في هذه الجهات.[٣٤] وكذلك في معبد «الكرنك» كان ينوب أحيانًا عن الفرعون موظف كبير من رجال البلاط المقربين.[٣٥]

وقد قام «أمنحتب بن حبو» بدور الملك في تبريك معبد «صولب»، ولكن «أمنحتب» قد جمع إلى شرف تمثيل الفرعون فائدة مادية؛ فقد ذكر لنا نفسه: «أن[٣٦] سيده قوته ... وسمح له بالخبز بعد العيد ...» فهو بهذا قد استولى لنفسه على نصيب القربان الذي كان خاصًّا بالفرعون، وثبت صحة هذا التفسير أن «دودو» الذي كان يُلقب «بالفم الأعلى

[٣٢] راجع: Robichon et Varille, “Le Temple du Scribe Royal Amenhotep”, Pl. XXXV.

[٣٣] راجع: L. D. III, Pl. 76b.

[٣٤] راجع: Urk. IV, 208–9; Urk. IV, 981. A, Z. LXV, p. 85.

[٣٥] فقد مثله «سن نفر» عمدة المدينة في عهد «أمنحتب الثاني»، ومدير البيت العظيم «مري رع» في عهد تحتمس الرابع (A. Z. LXVII p. 132.)، ومدير المالية «معي» في عهد «حور محب» (راجع Davies Tomb of Thouthmes IV, p. 2374).

[٣٦] راجع: Borchardt “Statuen und Stattuetten”, II. 583, Rs. 8.

للملك «إخناتون»» كان يشغل هذه الوظيفة عن جدارة، وأنه كان يأكل نصيب جلالة الفرعون في معبد «آتون» ببلدة «إختاتون».[٣٧] وكانت ترقية «أمنحتب بن حبو» إلى وظيفة «مدير أملاك» كبرى الأميرات المسماة «سات آمون» إعلانًا بأن حياته كموظف حربي قد خُتمت، وأنه بذلك لن يرتقي قط إلى رتبة «قائد جيش». والظاهر أن الأميرة «سات آمون» قد لعبت دورًا هامًّا في البلاط الفرعوني وقتئذٍ؛ إذ لا يُعد من طريق المصادفة المحضة أنها كانت تملك ضياعًا عظيمة، ولكن الواقع أنها تزوجت[٣٨] من والدها «أمنحتب الثالث» كما تنطق بذلك الآثار الباقية. ولا شك في أنها كانت تتضاءل بجانب والدتها «تي» التي كانت تسيطر على «أمنحتب» وتلعب دورًا خطيرًا في سياسة الدولة الخارجية والداخلية، كما أنه لم يكن لها أي ذكر بعد وفاة «أمنحتب الثالث»، وقد ظل «أمنحتب بن حبو» بعد هذا الزواج يدير أملاك هذه الأميرة.

وقد بقي «أمنحتب بن حبو» بعد اعتزاله أعمال الحكومة وتقاعده يشغل وظيفة «حامل المروحة على يمين الفرعون» في البلاط، وبذلك ظل مرتبطًا بالبيت المالك تمام الارتباط. ويغلب على الظن أن «أمنحتب» هذا قد نال لقب «مدير ثيران آمون» في الوجه القبلي والوجه البحري في آخر أيام حياته؛ إذ من المحتمل أن القطعان التابعة لمعبد «آمون» كانت ترعى في أملاك الأميرة «سات آمون»، وهذا هو التفسير الممكن لحمله هذا اللقب.

وهنا يصل بنا المطاف إلى خاتمة حياة «أمنحتب بن حبو»، ولا نزاع في أنه قد وصل إلى ذروة مجده في مجال حياته الحكومية في السنة الثلاثين من حكم «أمنحتب الثالث»؛

[٣٧] راجع: Davies, “El Amarna”, VI, p. 15; Davies, “El Amarna” I, p. 22, Pl. VI، حيث نجد الكاهن الأكبر «مري رع» في تل العمارنة يذكر أنه كان يأكل من نصيب الفرعون.

[٣٨] راجع: Newberry, P. S. B. A., (1902) p. 247، وتدل النقوش التي على صندوق في المتحف البريطاني أنه تزوَّجها ”Archeological Journal, “VIII, p. 396 (5899A) وهاك النص: «الإله الطيب رب الأرضين صاحب القرابين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب ماعت رع» ابن الشمس «أمنحتب» والابنة الملكية، والزوجة الملكية «سات آمون» التي وضعتها الزوجة الملكية العظيمة «تي» معطاة الحياة والصحة مثلي «رع» أبديًّا.» ومن هذا المتن نفهم أنها كانت ابنته وزوجه في آن واحد. اقرن ذلك بما ذكر رعمسيس الثاني وزواجه من بناته، راجع: Maspero, “Histoire Ancienne des Peuples de l’Orient”, I, p. 50 (Inceste Ramses II)، أما يُقال عن ارتكاب «سنفرو» لمثل هذا العمل (Sethe, A. Z., 50, 57; 45, 54.) فلا يعترف به «ريزنر» (A. Z. LXIV, p. 97).

فقد أقام أفخر مباني سيده، وأشرفها، ووصل بعمله هذا إلى أعظم الرتب التي لم ينلها إلا النزر اليسير من أمثاله من الموظفين. ومما يؤسف له أننا لا نعرف تاريخ وفاته حتى الآن. أما ما وصل إلينا عن المرسوم الخاص بمعبده الجنازي وهو الذي ذُكر فيه: «السنة السادسة، الشهر الثامن، اليوم الواحد والعشرون» فهو محض اختراع وُضع في الأسرة الحادية والعشرين، وليس ثمة شك في أنه قضي في الحادية والثلاثين أو الثانية والثلاثين من حكم الفرعون «أمنحتب الثالث».

ولا ريب في أن ما حباه به سيده من الإنعامات وألقاب الشرف كان لها أثر بالغ في الإشادة بذكره، والرفع من شأنه، والتعظيم لقدره، كما ذكرنا من أن سيده «أمنحتب» الثالث قد صرح له بإقامة معبد جنازي لنفسه بجوار معبده، ولم يجعله كعامة الموظفين ينحت لنفسه مدفنًا في تلال «طيبة» الواقعة على الضفة الغربية من النيل، هذا إلى أنه قد نحت تابوته[٣٩] على غرار توابيت الملوك، ونقشه كذلك بنقوش ملكية. وكانت تُقام له في معبده الجنازي هذا الشعائر الدينية كأنه ملك مؤلَّه مثل الفراعنة الذين دُفنوا بجواره في أبواب الملوك، ومن أجل ذلك نلاحظ أنه قد ظهر في صورة ترجع إلى عهد «رعمسيس» الرابع في مقبرة «أنحرت خعو» الذي كان يدير شئون المعابد الملكية، وفيها نشاهد أن «أنحرت خعو» هذا يقدم القربان[٤٠] للملوك المتوفين، وفي نهاية قائمة هؤلاء الملوك نجد ملكًا ممثلًا يحمل اللقب التالي: نائب الملك الكاتب الملكي «حوي» (وهو اسم مصغر لأمنحتب).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن القوم كانوا يقدسون هذا الرجل العظيم مدة حياته؛ إذ كانوا يعدونه خارقًا للعادة، فلا غرابة إذن في أن كانوا ينظرون إلى تمثاله بمثل هذه النظرة بعد وفاته. والواقع أن هيبة تمثاله كانت توحي في نفوس الشعب الإجلال والاحترام؛ فكان القوم يعتقدون فيه أنه لسان حالهم، وحاميهم والشفيع لهم في معبد الإله بعد مماته، كما كان الملجأ الذي يلجئون إليه مدة حياته، ولا عجب في ذلك؛ فقد وجدنا منقوشًا على قاعدتي التمثالين اللذين وُجدا أمام البوابة العاشرة بالكرنك النص التالي: «أنتم يا أيها الناس الذين يرغبون في رؤية «آمون»، تعالوا إليَّ لأني بشير هذا

[٣٩] راجع: Dawson, “Aegyptus”, VII, p. 124.

[٤٠] راجع: L. D. III, Pl. 2d.

الإله، فقد نصبني «أمنحتب الثالث» لأبلغ كلمات القطرين إذا قرأتم لي صيغة القربان، وناديتم باسمي إنسانًا محبوبًا عمل خيرًا.»

ومما يدعوا إلى العجب أننا عثرنا على تمثالين آخرين لموظفين آخرين من رجال «أمنحتب الثالث» كل منهما يحمل لقب «كاتب المجندين الملكي» ويقوم بدور بشير الإله، وهو الدور الذي كان يقوم به بطلنا «أمنحتب بن حبو». فالتمثال الأول كان «لمن»،[٤١] وقد عُثر عليه في معبد «آمون» بالكرنك، وقد نُقش عليه النص التالي: «إني حاجب سيدتي «موت» (زوج الإله آمون)، وإني أجعل تضرعاتي تصعد إليها.» أما التمثال الثاني فكان لموظف يُدعى «رعيا»[٤٢] وقد دُونت عليه نقوش مماثلة للسابقة: «إني رسول ربة السماء (إزيس في قفط)، وإني في ردهتها.[٤٣] قل لي تضرعاتك وإني سأرفعها إلى ربة الأرضين؛ لأنها تُصغي إلى تضرعاتي.» ومهما يكن من أمر فإننا في هذا الموقف لا يمكننا أن نجد أية علاقة أو ارتباط بينهما وبين رجلنا العظيم «أمنحتب بن حبو».

وعلى أية حال فإنه ليس من شك أو ريبة في أن تماثيل «أمنحتب» بطلنا كانت موضع احترام وتقديس في مدة حياته، كما كانت عبادته بعد مماته في معبده الجنازي المقام في «طيبة الغربية» موضع سرور القوم وإجلالهم. ومن ثم يظهر لنا تدرج القوم في احترامه وتعظيم شأنه؛ فقد كان في بادئ الأمر يُنظر إليه نظرة حكيم ورع، ثم ارتفعت درجته في أعين الشعب على مرِّ الأيام حتى عُدَّ في مصافِّ الآلهة في العهد البطليموسي.[٤٤]

(١-٢) موظفو إدارة الجيش: كاتب المجندين

تقلب «أمنحتب بن حبو» في سلك الموظف الحربي العادي في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد أكدت لنا هذا الرأي النقوش التي تتحدث عن حياة موظفين حربيين آخرين من هذا العصر. والواقع أن حياته لا تختلف في هذه الناحية عن حياة أي موظف آخر. أما حياة جندي الميدان فكانت تختلف عن حياته اختلافًا بينًا؛ وذلك أن الموظفين الحربيين كانوا

---

[٤١] راجع: Benson and Gourlay, “The Temple of Mut in Asher”, p. 331.

[٤٢] راجع: Cairo: 627.

[٤٣] فهذه التماثيل كانت تُوضع في الردهة حيث كان يأتي المتعبدون لاستعطافها.

[٤٤] راجع: Sethe, “Hastings Encyclopedia of Religion and Ethics” IV, p. 651. (Heroes and Hero Gods).

يبدءون حياتهم بالتلمذة في وظائف إدارية صغيرة؛ فكان الواحد منهم يعمل بوصفه مساعد كاتب ملكي،[٤٥] وكان أمثال هؤلاء التلاميذ يُدربون على تصريف الأمور، ويحذقون كتاب الإله، فيشاهدون قوة «تحوت» (إله العلم)؛ وبذلك يصبحون مَهَرَة في أسرار الكتب. ولم تمدنا الوثائق بالمدة التي كانوا يقضونها في ممارسة هذا الدور من التعليم، وتدل شواهد الأحوال على أن وظيفة «كاتب الجند» كانت تقع في دائرة الوظائف الصغيرة،[٤٦] وكان هؤلاء الكتاب يجلسون في مكتب إدارة الجيش وينفذون أوامر «رئيس الإدارة» دون أن يكون لهم دائرة عمل محدودة. وكان لكل وحدة في الجيش كاتب من هؤلاء. والظاهر أن هؤلاء الكتاب الحربيين هم الذين نشاهدهم يمشون خلف رؤسائهم في رسوم المناظر التي تصور توزيع الطعام، والجرايات، كما هو مشاهد في رسوم[٤٧] مقبرة «آمون امحب» ومقبرة «بخسوخر»، وهؤلاء الكتَّاب يختلفون في ملابسهم عن ضباط الجيش العاملين؛ إذ كانوا يرتدون فوق قمصانهم لباسًا آخر.

وقد جرت العادة أن يُنتخب الموظفون أصحاب الرتب العالية في الجيش من كتاب الجند؛ فمنهم من يكون مديرًا للكتاب الحربيين، وكاتب المجندين، ثم القائد.

وقد كان عمل مدير الكتَّاب[٤٨] الحربيين هو تدوين التقارير عن كل ما حدث في خلال المعارك أثناء الحملات الحربية. فهو إذا كان الموظف الذي يدون اليوميات الرسمية عن سير المواقع. وقد دوَّن لنا «ثنني» بكبرياء على جدران قبره أنه كان يسير في ركاب سيده «تحتمس الثالث» خلال المعارك التي شنَّها، «ودوَّن أعمال الشجاعة التي قام بها في كل بلد أجنبي، وقد دوَّنها كما حدثت»، وهذه الألفاظ التي ذكرها «ثنني» تنطبق على يومياته الحربية التي خلدت[٤٩] ذكراها بمنتخبات منها لا تزال باقية منقوشة على جدران معبد الكرنك، ومما يؤسف له أن نقوش ترجمة[٥٠] حياته في مقبرته قد وُجدت مهشمة،

---

[٤٥] راجع: Borchardt, “Statuen und Statuetten” II, 853, line 12.

[٤٦] راجع: Mariette, “Abydos” p. 1137.

[٤٧] راجع: Wreszinski, “Atlas”, I, Pl. 94; Ibid. Pls. 279–280.

[٤٨] هذا اللقب كان يحمله «ثنني» في عهد «تحتمس الثالث» (Urk. IV, p. 1000–1007) وحور-محب في عهد تحتمس الرابع “Mem. Miss. Arch. Franç” V, p. 415ff.

[٤٩] راجع: Urk. IV, 662.

[٥٠] راجع: Urk. IV, p. 1014–1015.

ولكنا نستخلص منها أنه كان يعمل كذلك في عهد «أمنحتب الثاني» وفي عهد «تحتمس الرابع»، وقد دون لهما أسماء جنود كثيرين، ومن أجل أعماله العظيمة رُقي إلى منصب «كاتب المجندين» (راجع ص٤٥).

كاتب المجندين

يظهر أن هذه الوظيفة لم تكن شائعة الاستعمال قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة، وإن كانت قد وُجدت منذ الدولة القديمة، ويقول البعض إنها أُنشئت في عهد الأسرة الثانية عشرة، أما في خلال الأسرة الثامنة عشرة فنجد عددًا عظيمًا من الموظفين يحملونها، وبخاصة في عهد «تحتمس الثالث» و«أمنحتب الثاني» و«تحتمس الرابع» و«أمنحتب الثالث»[٥١] و«أمنحتب الرابع»[٥٢] ثم «حور-محب»[٥٣] والواقع أنه كان لكل من الوجه القبلي والوجه البحري كاتب مجندين، وقد كان تعدد الموظفين الذي يحملون هذه الوظيفة معلومًا واضحًا من تعدد درجة القائد التي تليها في درجات الرقي، ومع هذا فإن من المؤكد أنه لم يُذكر لنا في أية وثيقة تقسيم سلطة هذه الوظيفة في الوجهين القبلي والبحري، وكذلك لم يظهر أمامنا على النقوش إلى الآن كاتبان للمجندين أو أكثر في وقت واحد أبدًا.

ويدل ما جاء في حياة «أمنحتب بن حبو» على أن هذه الوظيفة كانت في الوجه البحري الذي كان يُعد أهم من الوجه القبلي من الناحية الحربية، وما وصل إلينا عن كتاب المجندين لا يدل قط على أن تقسيم هذه الوظيفة كان ممكنًا؛ وذلك لأن الترقيات التي كانت تلي هذه الوظيفة ليس لها أي أثر قط في النقوش المصرية.

التجنيد

وصف لنا «أمنحتب بن حبو» في النقوش التي تركها لنا نشاطه بوصفه كاتب المجندين، فقد بدأ أحد نقوشه بالكلمات التالية: «لقد جمعت[٥٤] المجندين لسيدي، وأحصى قلمي

[٥١] راجع: Hermann, “Mitteilungen des Deutschen Instituts.” Kairo VI, p. 38.

[٥٢] راجع: Davies, “El Amarna”, V, Pl. IV, and Ibid. IV, p. 21.

[٥٣] راجع: A. S. XIX, p. 127.

[٥٤] راجع: Borchardt, “Statuen und Statuetten”, 583, line 13.

عددًا لا نهاية له. ووضعت الشباب مكان القدامى من الجنود، فتصبح عصا الشيخوخة ممثلة في أبدانهم الحية، وأحصيت ضريبة بيوتهم على حسب عدد أفرادها، وأعفيت بيوتهم من الضرائب ...» فمن وصف هذا التجنيد نعلم أنه ينقسم صنفين مختلفين، ولكن لا يمكن أن نستخلص منه ما إذا كان هذا التقسيم يعالج الجنود النظاميين أم جنود الرديف؛ إذ نعلم بدورنا أنه منذ تكوين جيش عامل في عهد الدولة الوسطى كان تنظيم المجندين من هذين الصنفين من الناس مختلفًا، فقد عرفنا أنه في «البرشة» في عهد الفرعون «سنوسرت الثالث» كان شباب الجيش العامل منفصلًا عن المجندين في المقاطعة.[٥٥]

والواقع أنه كان للجنود النظاميين في عهد الدولة الوسطى أراضٍ معفاة من الضرائب زمن الخدمة العسكرية وبعدها، فكانت باب رزق أساسي لهم ولأسرهم، هذا إلى أن ملوك الدولة الوسطى كان لهم حرس يُنتخبون من صنف من الضباط العاملين، وهؤلاء خُصص لهم حقول وماشية وعبيد؛[٥٦] وذلك لأن الفرعون كان مضطرًّا في أوائل هذه الأسرة إلى معونة عدد عظيم من الجنود في الحروب التي كان يشنها لتحرير البلاد من جهة، وللمحافظة على الأقاليم التي فتحها وضمها لمصر في سوريا والسودان من جهة أخرى. (وكان للفرعون في أوائل الأسرة الثامنة عشرة أراضٍ شاسعة، وبخاصة الأراضي التي استولى عليها من حكام المقاطعات بعد القضاء على سلطانهم وتشتيت شملهم، وكذلك الأراضي التي استولى عليها بعد طرد الهكسوس من البلاد). ومن أجل ذلك نرى أن ضياع الجنود في هذه الفترة كانت منتشرة في أنحاء البلاد لدرجة عظيمة، فكان ربان السفينة «أحمس بن أبانا» يمتلك في ذاك الوقت بهذه الوسيلة أراضي شاسعة في مقاطعة «الكاب»، وهو يقص علينا بنفسه أن معدات سفينته كان ينفق عليها من أراضٍ مُنحها. وفي عهد حكم الفرعون «أحمس» كان مدير السفن المسمى «نسي» يملك حقولًا في «منف» تبلغ مساحتها نحو خمسة عشر ومائة أرورا قد وهبها إياه الفرعون، وقد أُقيمت من أجلها قضية نزاع على ملكيتها في عهد «حور محب»، واستمرت في يد القضاء حتى عهد «رعمسيس الثاني».[٥٧]

[٥٥] راجع: Newberry, "El Bersheh", I, Pl. XV، حيث نجد أن جنود كل مقاطعة اشتركوا في جر تمثال «تحوتي حتب» قد ذُكر كل فريق منهم على حدة.

[٥٦] راجع: Pap. St. Petersburg, 1116A. Z. 59; A. S. XXIX, p. 5–14, line 11.

[٥٧] راجع: Gardiner, "The Inscription of Mes.", p. 42-43.

وكذلك عُثر على لوحة حدود[٥٨] جاء فيها أن «تحتمس الأول» قد منح راكب العربة «كري» حقلًا تبلغ مساحته نحو خمسين ومائة أرورا (الأرورا = ٢٩٣٥ مترًا أو ثلثي فدان)، وكان كذلك حامل العلم «نب آمون» يملك حقولًا قبل أن يعين صاحب الشرطة في عهد «تحتمس الرابع» في «طيبة»[٥٩] الغربية، ومن هذا يمكن القول بأن الإعفاء الذي ناله «نب آمون» عن أملاكه بوصفه رئيسًا للشرطة يدل على أن الأراضي التي يُمنحها الجنود لم تكن معفاة من الضرائب، كما يمكن الإنسان أن يستنبط هذه الحقيقة من مضمون نقوش قضية «مس»؛ لأن وصف سير هذه القضية يشعر بأن ضرائب هذه الأطيان كانت تُدفع إلى بيت المال وإلى «إدارة الغلات»، غير أننا نجد من جهة أخرى أن الإعفاء من الضرائب كان على ما يظهر شائعًا بين الجنود فيما بعد، وبخاصة في عهد الرعامسة. يدل على ذلك ما جاء في قصيدة «رعمسيس الثاني» التي تصف لنا موقعة «قادش» (وهي المسماة «بنناور» خطأ)؛ إذ يقول الفرعون لجنوده مؤنبًا: «لقد أعفيتكم من الضرائب.» ويظهر كذلك أن هذه الأملاك التي كانت ضمن أملاك الحكومة لا يمكن تقسيمها بين أولاد الجندي القديم المستولى عليها إلا بوصفهم زرعًا لها فقط، وكذلك كان لا يمكن لأولاد عمه الاستيلاء عليها إلا بهذه الكيفية.[٦٠]

وكانت الأراضي التي تُعطى هبة لهؤلاء الجنود تنحصر في قرًى معينة وفي مناطق عسكرية. وبهذه المناسبة نذكر أن «أمنحتب الثالث» أمر في أثناء إحدى نزهاته لصيد الثيران الوحشية وهو بصحبة كل حرسه أن تُجند الجنود الذين يسكنون في الجهة المجاورة لمحل الطراد (دندرة)، وأن يكون على رأسهم قائدهم ليكونوا جميعًا مرشدين لجلالته في هذه الجهة.[٦١] هذا وقد جاء في رسوم الفرعون «حور محب» ذكر مستعمرات عسكرية؛ إذ نجد مع القوائم التي تحتوي على الأفراد المدنيين قوائم تشمل جنودًا عاملين يملكون سفنًا[٦٢] وحدائق. وذكر لنا كذلك «رعمسيس الثاني» كرة أخرى في موقعة «قادش» بعض الحقائق في هذا الصدد؛ إذ يقول: «إني صرحت لكم بالسكنى في

[٥٨] راجع: Berlin Mus. No. 14994.

[٥٩] راجع: Davies, “Tombs of Two Officials of Thothmes IV”, Pl. XXVI.

[٦٠] راجع: Gardiner, Ibid, p. 25–26.

[٦١] راجع: P. S. B. A. XXI, Pl. III, p. 156.

[٦٢] راجع: Muller, A. Z., XXVI, p. 70, lines 17, 34.

ضياعكم وأمددتكم مع أنكم لم تقوموا بالخدمة العسكرية.»[٦٣] فهذه الكلمات التي فاه بها «رعمسيس الثاني» كان يقصد بها منح هذه الأراضي المعفاة من الضرائب لتكون بمثابة أساس لإنشاء جيش عامل في البلاد؛ إذ إنه قرن استغلالها بأن يكون مالكها على تمام الأهبة دائمًا ليقوم بواجبه العسكري كلما دعا داعي الحرب للدفاع عن حياض الوطن، وإذا حدث أن أصبح مالك هذه الأرض المعفاة من الضرائب غير قادر على حمل السلاح، فإن ابنه الذي يرث هذا الإقطاع من بعده يجب عليه أن يحمل السلاح بدلًا منه. وإذا اتفق أن ليس في الأسرة ذكر قادر على حمل السلاح، فإن الإقطاع يرجع ثانية ملكًا للفرعون، فيعطيه بدوره غيره من القادرين على حمل السلاح. ولا ريب في أن الادعاء الذي ذكره لنا «رعمسيس الثاني» من أن المبدأ القائل بأن المالك لمثل هذه الأراضي كان من حقه أن يستمر في تملكها حتى ولو كان غير قادر على حمل السلاح، وليس له ولد يحل محله، مبالغ فيه؛ وذلك لأن القانون الأصلي معروف تمامًا، وهو يقضي بأن ملكية الأرض والانخراط في سلك الجيش العامل كانا يتمشيان معًا جنبًا لجنب منذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ يقص علينا في هذا الصدد «أحمس» الذي أصبح فيما بعد مديرًا لمعدات السفن في عهد آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة: «كان والدي جنديًّا في جيش الفرعون «سقنن رع» … ثم أصبحت جنديًّا بعده مع أني كنت لا أزال صبيًّا.»[٦٤]

ومن ذلك نستخلص أن معظم جنود الجيش العامل كانوا أولاد جنود.[٦٥] يُضاف إلى ذلك أن «أمنحتب بن حبو» (كاتب المجندين) أعلن في نقوشه أنه يجعل المجند الصغير يحل محل سلفه؛ لتكون بذلك عصا شيخوخته ممثلة في ابنه الذي يحبه، وكان يشير إلى أنه تحت سلطانه — بوصفه كاتب المجندين — الإدارة التي تجعل الولد يحتل مكان والده في الأملاك التي وهبها الفرعون إياه مقابل خدمته في الجيش العامل، وكذلك كان يقصد الكاتب «ثنني» نفس المعنى بكلماته التالية التي ذكرها لنا في تاريخ حياته … «لقد رافقت الفرعون «تحتمس الرابع» ودوَّنت له أسماء جنوده العدة.»[٦٦] وكذلك نجد

---

[٦٣] راجع كتاب الأدب المصري القديم، ص٢٠٦.

[٦٤] راجع: Urk. IV, p. 2.

[٦٥] راجع: Davies, “Two official” p. 23; Rec. Trav IV, p. 135, Brit. Mus. 215، حيث نجد أن الابن يرث والده في وظيفته.

[٦٦] راجع: Urk. IV, 1005–6.

نقوشًا تفسر لنا صورة تدل على تدوين أسماء كل جيوش جلالته «… تسجيل كل الجيش أمام جلالته، واقتراع المجندين من بين كل الشبان، وجعل كل رجل يعرف واجبه في عامة الجيش على يد كاتب الملك الحقيقي محبوبه، وكاتب الجيوش «ثنني».» وهذان النصَّان يدلان على ما كان يحدث في هذه الإدارة الحربية. فقد كان من الواجب التأكد من هذه القوائم بمراجعتها، وكذلك التحقق من قدرة كل جندي على الخدمة في الجيش، أو مما إذا كان ابنه سيحل محله فيأخذ أملاكه بدون ضريبة. ونجد أمثال هذه المراجعات لقوائم الجنود في نقوش قبر كل من «ثنني»[٦٧] و«حور محب»،[٦٨] وكان كل منهما يحمل لقب «كاتب المجندين»، فنجد في المناظر الجنود مقسمين فرقًا بقيادة حامل العلم أمام «كاتب الإدارة» في صفوف، ونشاهد «كاتب المجندين» يراجع القوائم، وهي التي كانت الأساس في تنظيم الجيش؛ إذ بها يستطيع الإنسان أن يتأكد عندما يوجد أي شك في موضع أي جندي أو ضابط، وكانت الجيوش تُعبأ على حسب هذه القوائم.[٦٩] وعلى هذا الأساس من النظام أصدر ولي[٧٠] العهد في حكم «رعمسيس الثاني» إلى الضباط: «أن ينادي الشباب من الشجعان المدوَّنين في قوائم جلالة الفرعون، وأنه يجب عليهم أن يحملوا السلاح أمام جلالته.»

والظاهر أن أولاد جنود الجيش العامل كانوا يُدرَّبون في سن محددة، ولكن مما يُؤسف له أنه لم تصلنا نصوص صريحة عن ذلك في عهد الأسرة الثامنة عشرة، مع أننا كما سبق قد وجدنا «أحمس» قد حلَّ محل والده وهو لا يزال صبيًّا، غير أنه قد بيَّن لنا أن حالته كانت حالة خاصة، ومع ذلك فقد ذُكر في بردية من العهد الإهناسي، (أي الأسرة العاشرة) أن سن التدريب كانت في العشرين، ولكن في ذلك خلاف عند علماء الآثار.[٧١] وكان هؤلاء المجندون يُجمعون في فرق خاصة، حيث كانوا يُدربون كما يُستخلص ذلك من لقب «حامل العلم» «سني مسو»[٧٢] الذي كان يُطلق عليه لقب «مدرب فرقة البحارة».

---

[٦٧] راجع: Mem. Miss. Arch. Franc. V, p. 598.

[٦٨] راجع: Wreszinski, “Atlas” I. Pl. 245.

[٦٩] راجع: Pap. Anastasi I, 12.

[٧٠] راجع: Wreszinski, “Atlas” II, Pls. 110, 111.

[٧١] راجع: J. E. A. I, p. 27.

[٧٢] راجع: Urk. IV, p. 1006; Wreszinski, “Atlas” I, 23, 236.

وهذا الجندي بعينه هو الذي نراه مصورًا على جدران مقبرة «كاتب المجندين» «ثني» وقد رُقي إلى وظيفة «كاتب المجندين»، كما نجد كذلك في نفس الصورة نظام سير هذه الفرق ذهابًا وإيابًا تحت إشراف ضابط يحمل لقب «حامل العصا» (أي إنه مسلح بالعصا)، ولكن من الجائز أن تكون كل مناظر مقبرة «ثنني» تمثله نفسه في وظائفه المختلفة.

وكان هذا التدريب العسكري يجري في حاميات لا نعرف موقعها على وجه التحقيق، فنعرف أن واحدة منها كانت في «طيبة» حيث كان يدرب حرس الفرعون، وهؤلاء كانوا على حسب ترتيب الوزير[٧٣] لا بد أن يرافقوا الفرعون عندما يغادر «طيبة»، وكان الفرعون يرافق الجيش بنفسه أحيانًا كما ذكرنا ذلك من قبل عندما خرج «أمنحتب الثالث» للصيد والقنص. وكانت توجد حامية أخرى كذلك في «منف» التي كانت مقر القائد الأعلى لجيوش الدولة في خلال الأسرة الثامنة عشرة كما سنرى بعد. هذا وقد وُجد في قبر الصائغ «أبوي» صورة تمثل بعض أقسام الحامية التي كان يُدرَّب فيها المجندون. ويرجع تاريخ هذه المقبرة الكائنة بسقارة إلى أواخر الأسرة الثامنة عشرة.[٧٤]

وليس لدينا حاميات أخرى في الدلتا إلا إذا استثنينا معاقل الحدود والحاميات التي في المقاطعات، ولا شك في أن جزءًا عظيمًا من هذه الفرقة التي كانت تحمل السلاح هم الجنود الذين يتألف منهم الجيش العامل، ويقضون وقتًا غير محدود في تلك الحاميات يُدرَّبون تدريبًا عسكريًّا قبل أن يُطلق سراحهم ويؤذن لهم بالعودة إلى إقطاعاتهم التي مُنحوها.

وكان تجنيد العساكر الرديف كذلك تحت إدارة «كاتب المجندين»، وكانوا يشتغلون كثيرًا في خلال الأسرة الثامنة عشرة في شئون النقل.

أما في الحروب فكانوا لا يُستعملون إلا عند الضرورة الملحة، فنشاهد مثلًا على جدران معبد الدير البحري فرقة الجنود الخاصة ينقلون مسلات الملكة «حتشبسوت» وعلى مقربة منهم مجندو الجيش أي الجنود الذين كانوا يُدربون ليصبحوا جنودًا نظاميين،[٧٥] وهم الشباب المقترعون. وفي نص آخر ذُكروا بأنهم من بلدة «أطفيح»[٧٦] أي

---

[٧٣] راجع: Urk. IV, p. 1112, line 23.

[٧٤] راجع: Quibell and Hayter, “Excavations at Sakkara”, (1927) VIII, Pl. 12.

[٧٥] راجع: Naville, “Deir el Bahari”, Vol. IV, Pl. XCI.

[٧٦] راجع: Ibid. VI, Pl. CLIV.

المقاطعة العاشرة من أعمال الوجه القبلي. ولا نعلم إن كان هذا التخصيص يدل على أنه كانت توجد نسبة مئوية للتجنيد أم لا. وكل ما وصل إلينا إلى الآن من معلومات في هذا الصدد وثيقة واحدة ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة،[٧٧] ذُكر فيها أن النسبة كانت ١٪، وذلك حينما أُريد جمع جيش من الرديف للقيام بحملة إلى الواحات.[٧٨] والواقع أنه لا يمكننا أن نحدد النسبة المئوية الحقيقية للمجندين الذين كانوا يؤخذون من الأهلين؛ لاختلاف أنواع المجندين أنفسهم، وبخاصة في الجيش العامل الذي كان يتألف من عدد عظيم، ومن المحتمل أن هذا التجنيد كان يُنفذ قهرًا؛ إذ نجد في مقبرة رئيس الشرطة «نب آمون» «بطيبة» الغربية منظرًا يُشاهد فيه عدد عظيم من الشباب قد جُمعوا في مكان واحد ليُنتخب منهم من تتوافر فيه شروط التجنيد، وعلى مقربة منهم نشاهد ذويهم يرجون من أولي الأمر إعفاءهم.[٧٩]

وكان من الضروري لهذا إعداد قوائم دقيقة بأسماء كل الأهلين ومكانتهم الاقتصادية، وعلى حسب هذه القوائم كان يقرر «كاتب المجندين» ضرائب كل جهة تناسب عددها.[٨٠] ويُشاهد وضع هذه القوائم ومراجعتها في منظر على جدران مقبرة «كاتب المجندين» «ثنني» وقد كُتب معها الشرح التالي: «تسجيل كل البلاد أمام جلالته، ومراقبة كل الأشياء، ومعرفة الجنود، والكهنة، وخدم الفرعون، وكذلك كل الصناعات في جميع البلاد، وكذلك الثيران والبط والماعز بوساطة … «ثنني».»[٨١]

ولا نزاع في أنه كان في مقدور الإنسان أن يعرف على وجه التقريب كل عمال البناء من «إلفنتين» (أسوان) حتى «سما بحدت» (البلمون الحالية) الذين جاءوا لقطع مسلة أقامها «أمنحتب الرابع». هذا وكانت فرق الرديف هذه مقسمة وحدات على حسب القرى[٨٢] التي اقترعوا منها.

[٧٧] راجع: Erman–Schafer, A. Z. 38, 42.

[٧٨] راجع: Davies, “The Tomb of Two Officials”, Pl. XXV.

[٧٩] راجع: Borchardt, Ibid, 583, Vs. line 13.

[٨٠] راجع: Urk. IV, p. 1007.

[٨١] راجع: A. S., III, p. 263.

[٨٢] وفي عهد الدولة الوسطى كان يقوم كاتب الجنود في كل مركز بعملية التجنيد، وفي هذا الوقت لم تكن وظيفة كاتب المجندين قد وُجدت بعد. (راجع A. Z. XXXVIII, p. 42; Griffith, kahun Pap. IX, 11a).

ولم تكن دائرة نفوذ «كاتب المجندين» تنحصر في الأمور الحربية الخاصة بفرق المجندين، بل كانت تمتد كذلك إلى فرق العبيد من أسرى الحروب، وهم الذين كانت تملكهم الحكومة. وقد بيَّن لنا ذلك «أمنحتب بن حبو» في تاريخ حياته؛ حيث يقول: «لقد أنجزت أعمال السخرة برجال من أحسن الأسرى الذين أسرهم جلالته في ساحة الوغى، وراقبت جنوده.»[٨٣] ويقول: «لقد أحصيت أسرى جلالته الذين كنت رئيسًا لهم.» وكان يوزعهم على حسب أمر الفرعون على المعابد المختلفة، وكان هؤلاء الأسرى من العبيد يستوطنون ضياع الفرعون، أو يحتلون ضياع المعابد الموقوفة[٨٤] عليها، فكان الرجال منهم يفلحون الأرض أو يصيرون رعاة، أو منظفين للذهب، أو يعملون بنائين ... إلخ. أما النساء من الأسرى فكنَّ يحترفن الغزل، أو يعملن غسالات، أو يقمن بتقديم البخور وطاقات الأزهار. وقد كانت هذه القوائم تُدوَّن بدقة وإحكام، ولا شك في أن ذلك هو الأساس الذي تقوم عليه كل إدارة محكمة النظام، وقد كان يُشترط في كل قسم منها أن يكون قائمًا بذاته، فلا يتعدى قسم على آخر؛ تجنبًا لعدم الارتباك في سير العمل؛ لأنه كان يُطلب دائمًا من العبيد عدة طلبات في وقت واحد مما يخل نظام سير العمل. ومن الأمثلة النموذجية[٨٥] في هذا الصدد الشجار الذي قام بين «إنني» صاحب بيت المال المشهور في عهد الرعامسة، وبين مدير بيت الفرعون بسبب توريد الكتان بوساطة الإماء والعبيد؛ فقد تدخلت هنا كذلك الإدارة الحربية، وكان يمثلها قائد وكاتبه، ووضعت قائمة مضبوطة لذلك، وكانت كل من هاتين الإدارتين تدعي حق السيطرة على هؤلاء الإماء.

من كل هذا يتضح أنه لم يكن ثمة فرق بين إدارة الجنود وبين إدارة جماعات جنود العبيد، بل على العكس كانت إدارتهما موحدة في يد موظف حربي كفء. وعلى هذا تنطبق الملاحظة التي ذكرها أحد كتاب الرعامسة في خطاب نموذجي،[٨٦] أعلن فيه أنه كان يراجع في «إلفنتين» عدد الجنود، وفرسان العربات المحاربين والعبيد،[٨٧] وقد شرح

[٨٣] راجع: Borchardt, Ibid, 583, line 13.

[٨٤] راجع: A. Z., XXXVI, p. 84; "Rec. Trav.", XX, p. 37ff. line. 7; "Rec. Trav.", XVI, p. 123. Kees, "Kulturgeschichte", 239, Anm. I; Bissing. A. Z. XXXVII, p. 39; Pap. Harris I, p. 10, 16, 8, 51a, 7.

[٨٥] راجع: Pap. Anastasi VI, 1, 7ff.

[٨٦] راجع: Pap. Anastasi IV, 4, 8–9.

[٨٧] راجع: Borchardt Ibid. 583, Line 3.

لنا الأستاذ «ولف» (A. Z. LXV, p. 90ff.) كيف كانت توضع هذه القوائم، استنادًا إلى ما جاء في ورقة «بولونيا» رقم ١٠٨٦. وهذه الوثيقة خاصة بقائمة عبيد «سوريا»، وتشتمل هذه القائمة أولًا على اسم العبد ووالديه، والمكان الذي نشأ فيه، واسم من أحضره إلى مصر، واسم الإدارة التي سُلم إليها. ولا نزاع في أن أمثال هذه القوائم هي التي استقيت منها المعلومات التي تصادفنا أحيانًا مرسومة أو منقوشة على جدران المعابد بمناسبة الأحفال التي كانت تُقام وقتئذٍ، ويظهر فيها السيد والمسود.

وقد وصلتنا ملاحظة في نقوش «أمنحتب بن حبو» في هذا الموضوع، غير أنها مهشمة؛ فيقول: «حيث كنت موزعًا للعطور.» وهذه الجملة المبتورة تذكرنا بما جاء في نقش على جدران مقبرة الوزير «رخ مي رع» الذي كان يشغل منصب وزير الدولة، ومدير الخاصة الفرعونية، في عهد «تحتمس الثالث»؛ إذ يقول:[٨٨] «إنه كان مشرفًا على توزيع الأنصبة من الكتان والعطور والإماء، والعبيد الخاصة بمعبد آمون.» غير أنه لا يمكننا الجزم هنا بما إذا كانت كلمات «أمنحتب بن حبو» المبتورة تشير إلى موقف مثل هذا أم لا، أو إذا كان من اختصاص كاتب المجندين تغذية المجندين بوصفه المدير المشرف على تنفيذ ما في هذه القوائم؛ وذلك لأن الإشارة إلى القيام بمثل هذا العمل لم تأتِ قط في دائرة اختصاص كاتب مجندين غير «أمنحتب بن حبو».

حماية الحدود

تدل النقوش التي ذكرها «أمنحتب بن حبو» في تاريخ حياته، وهي التي تصف لنا إشرافه على التجنيد وإدارة جنود الجيش العامل وجنود الرديف والجنود العبيد، على أن كاتب المجندين كان يشرف على دائرة حيوية أخرى؛ إذ يقول: «لقد[٨٩] وضعت كذلك فِرَقًا على الطريق لتردَّ الأقوام الأجانب على أعقابهم إلى بلادهم. وهؤلاء الأقوام يحيطون بكلتا الأرضين. كذلك كان من واجباتهم منع تنقلات البدو الرحل، وقمت بنفس العمل على الشواطئ عند مصبات النهر التي كانت مغلقة إلا لبحارة الفرعون. تأمل! لقد كنت مرشد طرقهم، وكانوا طائعين أوامري، وكذلك كنت الفم الأعلى (الرئيس الأعلى) الذي كان يرأس الشجعان، وأدبت همج آسيا …»

---

[٨٨] راجع حياة «رخ مي رع» في الجزء الرابع من هذا المؤلف، Urk. IV, p. 1147.

[٨٩] راجع: Borchardt, ibid. 583, Rs. Line 14.

ومما سبق يتضح أن الأماكن التي كانت في حاجة إلى حماية من المغيرين على شواطئ الدلتا وحدودها، أو بعبارة أخرى الجزء الشمالي من أرض الدلتا؛ هو الذي كان تحت إدارة «أمنحتب بن حبو» بوصفه «كاتب المجندين». على أنه لم يرد في نقوش الأسرة الثامنة عشرة ذكر حماية الشواطئ. حقًّا نعرف أنه كان لهذه الشواطئ مشرف خاص يحمل لقب «مدير مصبات البحر»، هذا إلى أنه قد جاء ذكر موظف يحمل هذا اللقب في عهد الفرعون «تحتمس الثالث»، وكان مكلفًا بقيادة حملة إلى سينا في «سرابة الخادم».[٩٠] وكذلك نجد في الأزمان التالية لهذا العصر الذي نحن بصدده أن «رعمسيس الأول» كان قبل توليته الملك يُلقب في عهد الفرعون «حور محب» أو في حكم الفرعون «آي» بلقب «مدير السواحل» وقائد الحامية في «سيلة» (تل أبو صيفة).[٩١]

هذا إلى أننا لم نجد في خطابات «تل العمارنة» ما يدل على حماية السواحل، وكانت أوَّل إشارة صادفناها والنقوش تشير إلى إغلاق مصبات النيل في عهد «رعمسيس الثالث» خلال حروبه مع أقوام الشمال، فقد تكلم أحيانًا عن إغلاق مصبات النيل.[٩٢] ومن المحتمل أن لقب «مدير حصن البحر» يدخل ضمن موضوع حماية السواحل التي كان مكلفًا بالإشراف عليها في عهد الأسرة الثامنة عشرة شخص يُدعى «سا أمنت»[٩٣] إذ يقص على نفسه: «إنه يسيطر على كل جزية الأعداء.»[٩٤] ويمكن قرن هذا التصريح بما جاء في ورقة «بولونيا»[٩٥] رقم ١٠٨٦ التي دُوِّنت في عهد الرعامسة، وقد نص فيها على أن العبد كان قبل أن يُسلم من بلاده إلى سيده الجديد لا بد أن يُقدم إلى مدير القلعة، ومن ذلك نعلم أن مصبات النيل كانت مغلقة في وجه السفن الأجنبية، وكانت تُجبر على الرسو في مكان معين حيث كانت تُجبى منها الضرائب. وكانت هذه القلاع إذن أماكن لجمع الضرائب

[٩٠] راجع: Gardiner and Peet, “Sinai”, Pl. LXIV, No. 196; Urk. IV, p. 885–9.

[٩١] راجع مصر القديمة، جزء٤.

[٩٢] راجع: Edgerton and Wilson, “Historical Records of Ramses III” Pl. XLVI, 20, 23.

[٩٣] راجع: Speelers, “Recueil des Inscriptions Egyptiennes des Musees Royaux du Cinquantenaire à Bruxelles”, No. 117, “Rec. Trav.”, XXII, p. 105–8.

[٩٤] راجع: Holscher, “Libyer”, p. 34, 35. Anm. 10.

[٩٥] راجع: A. Z. LXV, p. 89.

أكثر منها حصونًا حربية. من أجل ذلك كان قائد القلعة البحرية «سا أمنت» يقول: «إنه كان يحافظ على جمع الضرائب من الأجانب.» وهذا القول يطابق ما جاء في مرسوم «نوري»[٩٦] الذي صدر في عهد «سيتي الأول» وهو خاص بمعبد «أوزير» بالعرابة؛ إذ يقول إنه في قلعة معينة على مقربة من الحدود النوبية المصرية كان يجب على كل سفينة آتية أن يستولى عليها وتُسلم إلى القائد أو إلى الكاتب أو المفتش المشرف على القلعة ليحصل منها على الضرائب المفروضة. وكانت السفن الخاصة بمعبد «أوزير» بالعرابة بمقتضى نص هذا المرسوم قد أصبحت معفاة[٩٧] من كل الضرائب.

على أن «سا أمنت» الذي ذكرناه آنفًا كان يشغل بالإضافة إلى منصب «قائد قلعة بحرية» وظيفة «قائد قلعة الأراضي الأجنبية الشمالية»، والظاهر أن هذا اللقب الذي لم يرد إلا في هذا النص وحده لا يُعزى إلى قلعة في فلسطين أو سوريا، بل إلى قلعة في الشمال الشرقي من الحدود المصرية وهي حصن ضمن سلسلة الحصون التي أُقيمت لحماية الحدود من هذه الناحية؛ إذ كان لا بد لمصر من معاقل يعززها جيش عظيم عند حدودها الشرقية. أما في الجنوب فكانت حدودها محمية ببلاد النوبة التي كانت تحت حكم نائب ملك مصري منفصل بإدارتها. أما على جانبي الصحراء في الوجه القبلي فكان يكفي لحمايتها رجال شرطة أقوياء عُينوا لهذا الغرض وحسب.

والواقع أنه كان من الضروري اتخاذ قواعد حربية على حدود الدولة من الشرق والغرب في خلال الأسرة الثامنة عشرة، وقد كانت إدارة الحدود في عهد الدولة الوسطى مقسمة تقسيمًا عظيمًا محكمًا؛ فكان يشرف على الحدود الشرقية أمير المقاطعة السادسة عشرة (بني حسن[٩٨] الآن)؛ إذ كان يسيطر على قواعد المعاقل وعلى رجال شرطة الصحراء من الدلتا حتى مقاطعته، وكان يحمل من أجل ذلك لقب «مدير الصحراء الشرقية» وهو اللقب الذي كان يحمله «ختي» قبل عهد «أمنمحات الأول» وكان يحمله «نختي» بعد عهد «أمنمحات الأول»، وكذلك «نترنخت» في عهد «سنوسرت الأول»، وكذلك كان يُلقب

---

[٩٦] راجع: Griffith, J. E. A., XIII, p. 143. Line 82ff.

[٩٧] راجع: Pap. Hood. Maspero, “Etudes Egyptologique”, II, p. 1ff. line 21ff، راجع كذلك: A. S. IX, p. 441 anm. 1, A. Z., L, p. 49ff. Pap. Hood, 20–21 حيث تجد ألقاب المشرفين على مصاب النيل وقلاعه.

[٩٨] راجع: Newberry, “Beni Hassan”, Vol. II. Tomb No. 17 etc.

به «خنوم حتب» في عهد «سنوسرت الثاني» أما الجزء الباقي بعد المقاطعة السادسة عشرة حتى بلاد النوبة فكان على ما يظهر يشرف عليه قائد الجيش في الصحراء وهو المشرف العام على شرطة الصحراء،[٩٩] فقد جاء في أحد النصوص إثباتًا لهذا الرأي أن قائد الصحراء «سعنخ» في عهد «منتوحتب الرابع» آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة كان يسمي المنطقة التي بين بلدة «منعات خوفو» وبين بلدة «ثاعو» (مكان غير معروف) منطقة نفوذه، ولا يبعد أن تكون إدارة الحدود المصرية الغربية كانت تسير في حمايتها على نفس الطريقة، فكان أمراء مقاطعة «البرشة» (المقاطعة الخامسة عشرة) يحملون لقب «مدير الصحراء الغربية» ومن المعروفين بين هؤلاء في أوائل الأسرة الثانية عشرة «عحا نخت»[١٠٠] (مدير الصحراء الغربية) وبجواره في عهد «سنوسرت الثاني» كان يحمل «منتوحتب»[١٠١] لقب مدير الأقاليم الجبلية الغربية ومدير حصن.

وفي هذه الحالة كان هذا الموظف لا يحمل لقب أمير مقاطعة، ومن المحتمل أن مثل هذا الموظف كان موقفه كموقف «سعنخ» الذي كان مديرًا للقسم الجنوبي من الجهة الشرقية، وكان هو بدوره قائدًا للجزء الجنوبي في الجهة الغربية، غير أنه لا يمكننا البرهنة على صحة ذلك، على أنه من المحتمل أن تغيير مقر الحكم من «طيبة» إلى جوار «منف» قد تبعه تغيير كل هذه الإدارة، ولكن خلافًا لذلك نجد أن أمير مقاطعة «قفط» في العهد الإهناسي كان يشرف على طريق القوافل التجارية في بلدته، وبذلك كان المشرف على شرطة الصحراء في منطقة «طيبة» القائمة بذاتها، ولكن منذ باكورة عهد الدولة الحديثة كان «كتاب المجندين» هم القوَّاد لحماية قواعد الحدود. وأهم هذه القواعد قاطبة هي الحصون التي كانت تقع بين حدود مصر وآسيا، ولا غرابة في ذلك؛ فإن تلك الحصون[١٠٢] كانت قائمة هناك منذ فجر التاريخ المصري، ويظهر أنها أُقيمت في عهد الملك «سنفرو»، وقد جمع القائد «وني» في عهد الأسرة السادسة جنوده لمحاربة «سوريا» في مكان يُسمَّى

[٩٩] راجع: Couyat et Montent, “Les Inscriptions Hieroglyphiques et Hieratiques du Ouadi Hammamat”, No. 1.

[١٠٠] راجع: Newberry, “El Berseh”, Vol. II. Pl. XIII; Anthes, A. Z., LXV, p. 111.

[١٠١] راجع: Lange und Schafer, “Grab und Denksteine des Mittleren Reiches”, II, No. 20539, line 16.

[١٠٢] راجع: Sethe, “Die Altagyptischen Pyramidentexte”, line 628b.

«وعرت-حو-ماعت»،[١٠٣] وكانت هذه الحصون قد اختفت بعد سقوط الدولة القديمة، ثم أُقيمت ثانية في العهد الإهناسي، وكانت وقتئذٍ تمتد من شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى المقاطعة السادسة عشرة[١٠٤] من أعمال الوجه القبلي. وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أصلحها «أمنمحات الأول» وزاد فيها مسميًا إياها «سور الحاكم»[١٠٥] وقد ظهر تأثير مناعتها في الوصف الدقيق الذي جاء في قصة «سنوهيت» (راجع كتاب الأدب المصري الجزء الأول، ص٣٤ … إلخ).

وكان قائد تلك الحصون في عهد الأسرة الثامنة عشرة تحت إمرة «كاتب المجندين» للوجه البحري، وكان يحمل لقب قائد حصن «سيلة»[١٠٦] (تل أبو صيفة الحالية). وكانت «سيلة» مقر الإدارة، وتُعَدُّ بمثابة نقطة الوسط لكل خط الدفاع في تلك الفترة. وكان فيها المركز الرئيسي[١٠٧] للإدارة. ومنها كانت تقوم الحملات التي يشنها الفرعون على بلاد «سوريا»؛ ولهذا السبب كان يوجد جزء من معدات[١٠٨] الجنود في «سيلة» هذه. وكان قائد الحصن فيها يحمل لقب «فارس». وقد وصلت إلينا أسماء بعضهم في خلال الأسرة الثامنة عشرة،[١٠٩] وكان قائد الحصن في بلاد النوبة يحمل مثل هذا اللقب، ولكن نجد فيما بعد أنه كان يحمله لأول مرة في عهد أحد أخلاف «إخناتون»، وهو الذي أصبح فيما بعد «رعمسيس الأول»، وكان قبل توليته الملك يعمل بمثابة ضابط لقواعد الدفاع على الساحل، كما كان يشرف على الحدود الشرقية الشمالية،[١١٠] ومن الجائز كذلك أن «سا أمنت» الذي كان مديرًا للحصون البحرية، والحصون التي في شمالي البلاد الأجنبية كان من نفس هذا الصنف من هؤلاء الموظفين، وبخاصة عندما نعلم أنه كان مثل

---

[١٠٣] راجع: Urk. I, p. 103.

[١٠٤] راجع: Pap. St. Petersburg 1116A, line 88–90; Kees, “Kulturgeschichte” p. 228ff.

[١٠٥] راجع: Pap. St. Petresburg 1116b. line 66.

[١٠٦] راجع: Gardiner, J. E. A., Vol. V, p. 244; Naville, J. E. A., X, p. 22–26.

[١٠٧] راجع: Urk. IV, p. 647.

[١٠٨] راجع: Erman und Lange, “Papyrus Lansing”, 10, 1, p. 88.

[١٠٩] راجع: Leiden V, 43, “Boeser, Beschreibung der Aegyptischen Sammlung des Nieder-landischen Reichmuseums in Leiden”, VI, Taf. XIII, 22; Gardiner und Peet, “Sinai”, Pl. XIX, No. 59; “Rec. Trav.” XX, p. 178.

[١١٠] راجع: A. S., XIV, p. 30.

«بارعمسيس» يدير حراسة الشواطئ، وحماية الحدود، وكان تحت إمرة قائد حصون «سيلة» كل ضباط الحاميات التي في دائرتها، فكان عملهم الإشراف على الحاميات والآبار[١١١] المحروسة على طول خط الدفاع، يُضاف إلى ذلك النقط التي كانت في طرق الصحراء المؤدية إلى «فلسطين»، وكان كل ضابط منهم يحمل لقب «فارس الحامية»،[١١٢] وكان من واجبهم ألا يدعوا شخصًا غير معروف يدخل الحدود المصرية أو يغادرها، وقد وصل إلينا في هذا الصدد يوميات[١١٣] أحد موظفي الحدود في حصن «سيلة» نعلم منها أنه كان لا بد من مراقبة كل مارٍّ بدقة، وكذلك مراقبة قبائل البدو الرحل الذين كانوا يتسربون إلى داخل الحدود المصرية بحجة البحث عن مرعًى[١١٤] خصيب لماشيتهم، هذا إلى مراقبة العبيد الفارِّين.[١١٥] وكان من واجب ضباط نقط الحراسة الفينة بعد الفينة الحضور أمام رئيسهم الأعلى في «سيلة» ليقدموا له تقاريرهم عن سير الأمور في النقط المختلفة، وكان من نتائج تلك الحراسة اليقظة الشديدة المنظمة أن أصبحت «سيلة» مستعمرة صالحة للمجرمين، وبخاصة أنها كانت واقعة على حدود الأراضي الزراعية، كما ذكر لنا «حور محب» في مرسومه العظيم. وكان «كاتب المجندين» في الوجه البحري هو الرئيس الأعلى لضباط نقط الحراسة، وقائد حامية «سيلة»، ولهذا نجد صورة على جدران قبر كاتب المجندين «حور محب»[١١٦] تمثل عددًا عظيمًا من هؤلاء الرؤساء في ضيافته.

ومن الغريب أنه بينا نرى معلوماتنا عن حراسة الحدود الشرقية في الدلتا تحتل مكانة عظيمة في عهد الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ تتضاءل معلوماتنا جدًّا عن حراسة الحدود الغربية في الدلتا بالنسبة لنظيراتها، على أننا من جهة أخرى نعلم أن «أمنحتب بن حبو» قد ذكر لنا أنه أحاط شاطئ الدلتا بنقطة حراسة، وهذا يدل على أنه كان على الشاطئ الأيمن للدلتا معاقل حربية، وقد كانت نقط الحراسة هذه في غرب الدلتا موجودة من

[١١١] راجع: J. E. A., VI, p. 108; Ibid. p. 99; A. Z., LXV, p. 57; Harris Papyrus I, 77. 6ff.

[١١٢] راجع: Pap. Anastasi. V, II, 7ff; A. Z., LVI, p. 55; Pap. Anastasi V, 19, 2, 3.

[١١٣] راجع: Wolf, A. Z., LXIX, p. 39.

[١١٤] راجع: Pap. Anastasi VI, 4, 11ff.

[١١٥] راجع: Pap. Anastasi V, 19, 2ff.

[١١٦] راجع: Bouriant, “Mem. Miss. Arch. Franç.”, V, p. 426. Pl. II.

قبل منذ الدولة القديمة، فقد ورد ذكر لقب «مستشار ثغور البلاد الأجنبية في شقي الدلتا»[١١٧] وكذلك لقب «حارس حصن باب الغرب»،[١١٨] غير أن هذه المعاقل لم يأتِ ذكرها في النقوش في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وكان أول ذكر لمعاقل الحدود الغربية في عهد الفرعون «مرنبتاح» ثم في عهد «رعمسيس الثالث»، والظاهر أن النظام في هذه الجهة كان يختلف عنه في الجهة الشرقية، يدل على ذلك أنه كان في الجهة الغربية قائد يحمل لقب «قائد فرع النهر الأيمن» (الفرع الكانوبي)، ونرى فيما بعد أن هذا اللقب كان يحمله حاكم لمدينة «طينة» والواحات اسمه «مين»،[١١٩] ومن المحتمل أن هذا الموظف كان يحمل في الوقت نفسه لقب «حاكم فرع النهر العظيم»، كما كان القائد الأعلى يحمل في الجهة الشرقية لقب «حاكم سيلة»، غير أنه مما يؤسف له أن هذا اللقب وصل إلينا مهشمًا،[١٢٠] ومهما يكن من أمر فإن لقب «حاكم النهر العظيم» قد وصل إلينا في نقوش الأسرة الثامنة عشرة،[١٢١] ولكن من غير لقب حربي معه.

أما عن حدود الوجه القبلي من جهة الصحراء فلم توجد أية معاقل بل كان يقوم بالحراسة هناك «شرطة الصحراء»، وهم رجال خفاف الأجسام، سريعو الحركة، معظمهم نشأ في الصحراء نفسها، وكان يسيطر عليهم مشرف يحمل لقب «مدير الصيادين». وهؤلاء المديرون هم الذين كانوا بدورهم في عهد الدولة الوسطى حكام مقاطعات،[١٢٢] أو قوَّاد الصحراء،[١٢٣] وفي خلال الدولة الحديثة كانوا تحت سيطرة كاتب المجندين، ولم تكن مهمة هؤلاء الحراس قاصرة على أعمال الشرطة، أو الأمور الحربية، وذلك بتعقبهم الفارين إلى الواحات،[١٢٤] أو حماية عمال قطع الأحجار[١٢٥] من غارات البدو الجائلين الذين يعيثون في الأرض فسادًا، أو صيانة الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب، فقد

---

١١٧ راجع: Borchardt, “Des Grabdenmal des Konigs Ne–user–Re” p. 113; Urk. IV, p. 16.

١١٨ راجع: A. Z. XXXIV, p. 1, line 23.

١١٩ راجع: Urk. IV, p. 982.

١٢٠ راجع: Urk. IV, p. 981.

١٢١ راجع: “Rec. Trav.” XXXII, p. 154; Gauthier; “Dict. Geog.” I, p. 118.

١٢٢ راجع: Newberry “Beni Hassan”, Vol. I, Pl. XXX.

١٢٣ راجع: Couyat et Montet, “Ouadi Hammamat”, No. 114.

١٢٤ راجع: A. Z. LXV, p. 108–114.

١٢٥ راجع: Couyat et Montet, “Ouadi Hammamat”, No. 114, line 12.

وجدنا في قبر رئيس كهنة «آمون» المسمى «منخبر رع-سنب» في عهد «تحتمس الثالث» منظر مدير صيد، ومعه جزية الذهب من «قفط»،[١٢٦] بل كانوا كذلك على الرغم من كل هذه الخدمات التي يقومون بها باقين على حالتهم الأصلية يزاولون الصيد والقنص، وهي مهنتهم الأصلية التي فُطروا عليها، من أجل ذلك نشاهد «رئيس البدو» و«مدير الصحراء» «نفرخاوت» ممثلًا على لوحته التذكارية[١٢٧] حاملًا أثقاله على كتفه، وكان ابنه «منخبر رع سنب» يُلقب كوالده «مدير الصيادين» ومدير الصحراء ورئيس البدو،[١٢٨] وكان مقر كل منهما بطيبة. على أن هذا الموظف كان يُلقب «رئيس البدو» حينما يكون جنوده من سكان الصحراء لا من سكان المدن المصرية.

قائد الجيش

كانت السبيل ميسرة لكاتب المجندين أن يرقى في وظيفته إلى أعلى رتبة في الجيش، وأعني بذلك رتبة «قائد»، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد كان كل من «ثنني»[١٢٩] و«سات أست»[١٣٠] و«رعمسو»[١٣١] ثم «معي»[١٣٢] كاتب مجندين، قبل أن يصبح قائدًا. وكذلك كانت الحال مع القائد الأعظم «حور محب»، فإنه على حسب ما وصل إلينا من المعلومات عن ألقابه كان في بادئ أمره «كاتب مجندين»، ولكن الأمثلة الأخرى التي لدينا لمن رُقوا قوادًا لا نعرف منها عن سلك ترقيتهم في الخدمة شيئًا يخوِّل لنا أن نحكم بأنهم شقوا طريق رقيهم المعتادة، فمن هؤلاء «تحوتي»[١٣٣] و«بتاح معي»[١٣٤] الذي عاصر حكم «تحتمس الرابع»

[١٢٦] راجع: Davies, “The Theban Tomb Series”, Vol. V, Pl. IX.

[١٢٧] راجع: Urk. IV, p. 989–991 من عهد «تحتمس الثالث».

[١٢٨] راجع: Urk. IV, p. 991–994.

[١٢٩] راجع: Urk. IV. p. 1002–1017.

[١٣٠] راجع: Mariette, “Abydos” II, 53C من عهد «أمنحتب الثالث».

[١٣١] راجع: Davies, “El Amarna”, Vol. IV, p. 21.

[١٣٢] راجع: Ibid, V, Pl. IV.

[١٣٣] تحوتي (راجع Urk. IV, p. 999). من عهد «تحتمس الثالث»، وكان يحمل الألقاب التالية: كاتب الملك الحقيقي، المشرف على البلاد الأجنبية الشمالية والمشرف على الحامية والقائد.

[١٣٤] بتاح معي (راجع “Rec. Trav.” X, p. 150). من عهد «تحتمس الرابع» ويحمل الألقاب التالية: كاتب الفرعون وقائد رب الأرضين.

و«أمنحتب» في عهد «أمنحتب الثالث»[١٣٥] ثم «با آتون-محب»،[١٣٦] ولم يشذ عن هذه الأمثلة إلا القائد الأعظم «أمنمأنت»،[١٣٧] فإنه رُقي إلى رتبة قائد من الجيش العامل نفسه، وسنتكلم عنه في الجزء الخاص بحياته بعد عصر العمارنة، ولا بد أن نلاحظ هنا أنه قد ظهر عدة قواد في وقت واحد في البلاد، وليس هذا بغريب؛ فقد كان بطبيعة الحال لكل من الوجه القبلي والوجه البحري قائد قائم يقود الجنود المدربين، وهم الذين كان لا يوجد منهم إلا نفر قليل في المعسكرات، وهؤلاء هم الذين كانوا في أغلب الأحيان يُعفون من الضرائب التي كانت تُفرض على إقطاعاتهم. أما مكانة القائد بين كبار رجال الدولة فقد عرفناها من منظر على جدران مقبرة «رئيس الكهنة» في عهد الفرعون «توت عنخ آمون»[١٣٨] يمثل مقر الإدارة العامة، فنجد الوزير يحتل المكانة الأولى، ثم يأتي بعده «مدير أملاك الفرعون»، ثم «مدير المالية فمدير محكمة العدل»، وخلف هؤلاء يأتي «مدير مكتب الوزارة» فمدير بيت المال (وهو تحت إمرة مدير المالية).

ثم يأتي بعد كل هؤلاء «القائد». ومما هو جدير بالذكر هنا أن هؤلاء القواد كانوا في عهد «إخناتون» يرقون إلى وظيفتهم هذه من وظائف كتابية وحسابية. والواقع أن القائد لم يكن المجال فسيحًا أمامه ليستعمل مواهبه ودرايته الحربية قط، على أنه إذا أُتيحت له الفرصة، فإنه كان يفوق عدوه في الحال؛ لأن ثقافته كانت أكبر عون له على ذلك؛ إذ كان من واجبات القواد أن يعرفوا طرق مواصلات جنودهم، والاعتناء بجراياتهم، وعدد الجنود اللازمة لهم، هذا إلى أن الجيش المصري لم تكن مهمته القيام بالحروب وحسب، بل كان في أغلب الأحيان يُستعمل في إنجاز مشاريع البناء، ونقل الأحجار اللازمة لأعمال الدولة، ومن ثم كان من الضروري للقائد أن يكون ملمًّا بكل ما يتعلق بهذه الأمور، مما جعل الأعمال الحربية المحضة تتضاءل أمام الواجبات الأخرى، التي كان يضطلع بها القائد لتنظيم تلك الأعمال وتنفيذها. من أجل ذلك تعدد لنا ورقة «أنسطاسي»[١٣٩] رقم ١

---

[١٣٥] أمنحتب (راجع Champollion, “Not. Desc.”, I, p. 161). ويحمل لقب قائد جيش الأرضين.

[١٣٦] با آتون محب (راجع Davies, “El Amarna”, V, p. 15, Pl. XIII). من عهد أمنحتب الرابع، ويحمل الألقاب التالية: كاتب الفرعون وقائد رب الأرضين، ومدير الأعمال في إختاتون ومدير البيت.

[١٣٧] راجع: A. Z., P. LXVII, p. 78.

[١٣٨] راجع: Erman, A. Z., XXXIII, p. 32; A. Z., LX, p. 56.

[١٣٩] راجع كتاب الأدب المصري القديم، جزء الأول، ص٣٧٨–٣٩٥.

المعلومات التي كان يجب على كل موظف حربي أن يلم بها، وفي قدرته حل معضلاتها إذا واجهته. وأهم شيء لفت إليه النظر مؤلف هذه الورقة هو ما كان يجب أن يقوم به القائد من أعمال البناء قبل قيامه بحملته؛ فيجب على القائد أن يحسب حساب الجرايات اللازمة للرجال لحفر بحيرة أبعادها معلومة، أو لأجل نقل مسلة ذات أبعاد معينة وحجم معين، وكذلك حساب منزلق لأجل بناء ما، وكذلك عدد الرجال اللازمين لإقامة تمثال ضخم، وبجانب هذه الأعمال يوجد عمل آخر خارج عن الأعمال الحربية، ولكن لا يختلف في جوهره عن الأمور السابقة، وهذا العمل هو توزيع حركات الجيش، والمؤن اللازمة لحملة مسافرة إلى بلاد «سوريا»، هذا فضلًا عن أن كاتب هذه الورقة يفرض في وثيقته هذه على كل موظف حربي أن يكون عالمًا بتخطيط البلدان التي سيندلع فيها لهيب الحرب، وأن يكون عالمًا بلغة أهلها، وأن يكون في المستوى العلمي الذي تتطلبه وظيفته العالية.

على أن ما يدعو إلى الدهشة في هذه الورقة التي ترجع إلى عهد الرعامسة أن الجزء الهام الخاص بمشروعات العمارة الذي كان لزامًا على الموظف الحربي أن يسهم فيه لم يأتِ ذكره حتى عهد «أمنحتب الثالث»؛ إذ لم نجد بين ألقاب هؤلاء الموظفين لقب «مدير كل مباني الفرعون»، على أن هذا اللقب لا يدل على أن حامله كان مسئولًا عن أعمال هذه المصلحة الحكومية وحسب، بل كان على حسب المبدأ المصري في الوظائف يدير أعمالًا أخرى كثيرة، فكان يحمل هذا اللقب رئيس الوزراء، ووزير المالية ومدير بيت المال، ورئيس كهنة «آمون» والكاهن الثاني، ومدير الأملاك والمعابد، وحاكم «طيبة». وهؤلاء الموظفون كلهم لهم علاقة بأنظمة المباني، ولذلك يُلقب كل منهم «بالمشرف على المباني»، ومع هذا فإنه كان ينظم هذه الإدارة، ويترك أمر الإشراف عليها لكاتبه. والواقع أن الإشراف الحقيقي عليها كان موكولًا لضباط معينين، فنشاهد مثلًا في «سرابة الخادم» في شبه جزيرة «سينا» أن قائد حصن «سيلة» (تل أبو صيفة الحالية) المسمى «نبي»[١٤٠] أو قائد مصب النيل[١٤١] كان يقوم كل منها بقيادة حملة، ويُلقب «بمبعوث الملك»، ومع ذلك فإنه لم يُلقب واحد منهما بلقب «مدير المباني» أو ما يشبه ذلك تشريفًا له، على ما قام به من خدمة أخلص في أدائها، وأدهش من هذا أن رئيس البعثة؛ أي القائد الذي

[١٤٠] راجع: Gardiner and Peet, “Sinai”, No. 59.

[١٤١] راجع: Ibid, No. 196.

كان يشرف على نقل الأحجار بجنوده في عهد الأسرة الثامنة عشرة، لم يحمل هذا اللقب كما كان يحمله القائد في عهد الرعامسة. والواقع أن هذا اللقب لم يكن كثير الظهور حتى عهد «أمنحتب الثالث». وكان أول موظف كبير حربي معروف يحمل لقب «مدير المباني» هو كاتب المجندين «أمنحتب بن حبو»،[١٤٢] وكان نفوذ وظيفته يمتد إلى كل الوجه البحري، وعلى ذلك كان يدير شئون المحاجر الواقعة في «الدلتا»، وكان العاملون فيها فرقة من الجنود. وذكر لنا في نقوشه أنه كان مديرًا لكل الأشغال الفرعونية، ووصف لنا أعمال النقل التي كان يشرف عليها مما كان في دائرة الموظفين المدنيين حتى الآن، وقد ظهر تغيير مدهش منذ زمن «أمنحتب بن حبو» في تقدير مكانة الموظفين الذين كانوا يشرفون على أعمال البناء، وقد كان النصيب الأوفر من شرف هذا العمل يُنسب إلى «وزير المالية» ومرءوسه «مدير بيت المال»، ولكن منذ عهد «أمنحتب الثالث» أصبح هذان الموظفان بالنسبة لأعمال البناء في المؤخرة، واحتل مكانهما الموظفون الحربيون؛ إذ أصبحوا هم المشرفين الحقيقيين، ولذلك كانوا يقدَّرون حق قدرهم؛ لما يقومون به في هذا المجال. ومنذ عهد «إخناتون» كان معظم القواد وكتاب المجندين يحملون لقب «مدير كل الأعمال الملكية»، نذكر منهم في حكم «إخناتون» القائد «معي»[١٤٣] والقائد «با آتون محب»،[١٤٤]

وفي عهد «حور محب» نذكر القائد «أمنمأنت»[١٤٥] ومن المحتمل أن «حور محب» نفسه كان يحمل لقب «كاتب المجندين» ولقب «مدير الأعمال الملكية في محاجر الجبل الأحمر»[١٤٦] قبل أن يكون قائدًا للجيش، وبينما نجد أن أكبر موظف كان يحمل هذا اللقب بالإضافة إلى لقبه الأصلي، إذ بنا نجد في خلال الأسرة التاسعة عشرة أن قواد الفرق كان كل منهم يحمل اللقب نفسه عندما تكون الفرقة التي يشرف عليها تقوم بقطع الأحجار ونقلها، ونفهم مما جاء في ورقة «أنسطاسي» الأولى الهجائية، وهي التي تُنسب

[١٤٢] ثم لُقب بهذا اللقب «حور محب» في عهد تحتمس الرابع (مدير مباني آمون) لا بوصفه كاتب المجندين، بل بوصفه مدير كهنة كل الآلهة.

[١٤٣] راجع: Davies, “El Amarna” V, Pl. I.

[١٤٤] راجع: Ibid, V, p. 15.

[١٤٥] راجع: A. Z. LXVII, p. 78.

[١٤٦] راجع: Brit. Mus. No. 463.

إلى عصر الرعامسة أن عمل قطع الأحجار كان عملًا حربيًّا محضًا. وكان ولي العهد هو القائد الأعلى للجيش، وله اليد العليا في الإشراف العام عليه، ومن بعده يأتي القائد، وهو الذي كان ينظم نقل الأحجار. مع ذلك نفهم أن هذا الميدان قد أُقفل في وجه كل الموظفين إلا رجال الجيش؛ فكان في يدهم إدارته، وكانت دائرة الموظفين الذين يعملون في إدارة الجيش محددة، فالموظف الذي يشغل وظيفة «كاتب» كان يُرقى بعدها إلى «مدير كتاب جنود»، ثم إلى «كاتب مجندين» وبعدها يُرقى قائدًا. وهذه حقيقة هامة يجب ملاحظتها؛ لأننا سنرى فيما بعد أن بعض الموظفين غير الحربيين قد احتلوا هذه الوظيفة. والآن نتساءل من أي طبقة من طبقات الشعب نبت هؤلاء الموظفون الحربيون؟ والظاهر مما سبق أن هؤلاء الأفراد الذين انخرطوا في سلك الجندية لم يكونوا من أبناء كبار الموظفين؛ أي إنهم ليسوا من علية القوم ونخبته؛ إذ لم نجد بين كل الموظفين الحربيين واحدًا كان والده من عظماء رجال الدولة أو من الكهنة، ولذلك نلحظ أن الجم الغفير منهم كان لا يذكر اسم والده؛ مما يدل على أنه لم يكن يُنسب إلى أب ذي أرومة رفيعة الأصل، وإذا حدث وذكر واحد منهم اسم والده ذكره مجردًا عن كل لقب، هذا إلى أننا لم نصادف واحدًا منهم ورث وظيفته عن والده إلا في كتاب الجيش.[١٤٧]

وأبرز أسرة نال رجالاتها شهرة عظيمة من أول أمرهم هي أسرة «أمنحتب» كاتب المجندين، ومدير بيت الفرعون العظيم في عهد «أمنحتب الثالث» في «منف»، فقد كان أحد إخوته الوزير «رعموسي» وكان أخوه الثاني «معي» قائد الفرسان، ومع كل ذلك فإن كل واحد منهم قد أغفل ذكر والده «حبو» اللهم إلا في مناسبات نادرة جدًّا، وفي هذه الحالة كان يذكره عاريًا من أي لقب شرف. وهذا دليل على أن رجال هذه الطبقة من الموظفين كانوا من الطبقة الوسطى، وربما كان هذا هو السبب الذي لم يجعل كبار الموظفين يرغبون في الانخراط في سلك الوظائف الحربية، ومع ذلك فإن من الأمور المحببة إلى نفس الموظف الذي لم يكن قد نشأ من دوحة عريقة في المجد أن يفتخر بأصله الوضيع فيذكر ذلك جنبًا لجنب مع ما ناله من الإنعامات الملكية والوظائف العالية التي رفعه إليها الفرعون لما قام به من عظيم الأعمال في ميادين القتال وغيرها من نواحي الحياة الأخرى، ولا أدل على ذلك من القائد «معي»[١٤٨] الذي كان يتغنى بذكر أصله الوضيع،

[١٤٧] راجع: Louvre C. 140–142; “Rec. Trav.”, IV, p. 132.

[١٤٨] راجع: Davies, “El Amarna”, V, p. 4, Pl. IV.

وبما حباه الفرعون من رفع شأنه على ما أتاه من عظيم الأعمال وما تحلى به من جميل الخصال والمقدرة الفذة.

القائد الأعلى

كان الفرعون الرئيس الأعلى لكل القواد كما كان هو أعلى قائد في الجيش، وعلى أية حال فإنه كان يظهر أمام العالم في الوثائق الرسمية بهذا المظهر، وكان لا يعين بدلًا منه قائدًا للجيش إلا نادرًا؛ إذ كان لا يحدث ذلك إلا في الحملات الصغيرة التي كان يتولى قيادتها «نائب الملك» في بلاد «كوش»[١٤٩] (ابن الملك). وحقيقة الأمر أن الفرعون كان يعين نائبًا عنه أو ممثلًا له، يقوم بكل ما يقوم به القائد الأعلى، وكانت العادة المتبعة أن يعين ولي العهد في خلال الأسرة الثامنة عشرة، كما كانت الحالة في عهد الدولة الوسطى. ففي عهد «تحتمس الأول» مثلًا كان أكبر أولاده «أمنمس»[١٥٠] هو القائد العام لكل الجيوش؛ إذ وُجدت وثيقة تبرهن على ذلك جاء فيها: «بكر أولاد الملك القائد الأعلى لجيوش والده «أمنمس».» وقد عُثر على هذا النقش مدونًا على صندوق صغير من الحجر في معبد «بوالهول»، وأول هذا النقش — وهو كل ما تبقى من الوثيقة — يشبه في مغزاه لوحة «تحتمس الرابع» المقامة في معبد «بوالهول»؛ إذ يقص علينا موضوعًا مماثلًا لما جاء على هذه اللوحة فيقول: «وخرج الأمير في عربته ليسافر للتدرب على الرماية بالقوس والنشاب.» ثم يلي ذلك قصة حلم بجوار «بوالهول». والواقع أن حملات الصيد التي كان يقوم بها ولي العهد لم تكن لمجرد التسلية وحدها، بل كان لها غرض آخر، وهو التدريب على الرماية؛ حتى يكون أهلًا لقيادة الجيش، ولا أدل على ذلك مما جاء على اللوحة التي كُشف عنها حديثًا بجوار «بوالهول» للفرعون «أمنحتب الثاني»، وقد وصف فيها قدرته على التجديف، وركوب الخيل وإصابة المرمى، مما سبق ذكره في موضعه.

وهذه الأقاصيص تدل دلالة واضحة على أن الفرعون كان يرسل أكبر أولاده لينوب عنه في قيادة الجيش العليا في «منف» التي كانت تُعَدُّ القاعدة العامة للجيش؛ ولذلك كان لزامًا على ولي العهد بوصفه القائد الأعلى أن يتدرب علميًّا على الفنون الحربية، وكانت

[١٤٩] راجع: Breasted, A. R. II, § 851–55ff.

[١٥٠] راجع: Urk. IV, p. 91.

العربة وقتئذٍ أحسن أداة للحرب.[١٥١] ومن المحتمل جدًّا أن أولياء عهد غير من ذكرنا كانوا يشغلون مركز القائد العام للجيش، وإن لم تسعفنا الوثائق بما يثبت ذلك. وقد ظهر في عهد «أمنحتب الثالث» أمير صغير يحمل لقب «ابن الملك القائد العام للجيش» اسمه «نخت مين».[١٥٢] أما في عهد «أمنحتب الرابع» فلا نعرف من كان القائد الأعلى؛ لأن هذا الفرعون لم يعقب ذكرًا. هذا إلى أن خطابات «تل العمارنة» لم يأتِ فيها ذكر لاسم القائد العام. ومما لا شك فيه أن «حور محب» لم يكن وقتئذٍ قائدًا أعلى للجيش؛ إذ لم يأتِ اسمه في النقوش بما يدل على ذلك. ومن الجائز أن «تحوتي مسو»[١٥٣] الذي كان يحمل وقتئذٍ لقب «قائد الجيش الأعلى» وكذلك لقب «الإمارة» كان يشغل هذا المنصب، وبخاصة إذا أضفنا إلى ذلك سوطه قد وُجد في حجرة دفن الفرعون «توت عنخ آمون». أما في عهد «توت عنخ آمون» نفسه فقد تولى هذا المنصب الرفيع «حور محب»، وكان مركز قيادته مدينة «منف» كما سيأتي ذكره. ولقد كان لتعيين أفراد من غير الأسرة المالكة في هذه الوظيفة الحربية — وهي التي كانت حتى الآن لا يشغلها إلا ولي العهد أو أمير — أول مبرر لاتخاذ الخطوة الأولى لقيام الأسرة التاسعة عشرة واختفاء الأسرة الثامنة عشرة.

وظائف المسنين

لقد كانت السنة المرعية حتى عهد «إخناتون» أن يُحال كل موظف حربي إلى المعاش بما في ذلك القائد الأعلى للجيش، إذا كان من غير البيت المالك. غير أن الفرعون لم يترك

---

[١٥١] وقد كان رجال سلاح العربات والرجالة معسكرين في الصحراء الواقعة بجوار «منف» للتمرن على الأعمال الحربية (اقرن المناظر التي تُدرب فيها الجنود بالتي نشاهدها على جدران مقبرة الصائغ «إبوي») Quibell, “Excavations at Sakkara”, VIII, Pl. XII.

[١٥٢] راجع: Borchardt, “Statuen und Statuetten”, 779; “Rec. Trav.”, XXVIII, p. 177; XXIX, 225–6.

[١٥٣] راجع: Carter, “Tomb of Tutankhamon”, Pl. III, p. 121.

قد يجوز أن هذا القائد هو نفس الأمير والكاهن «سم» والكاهن الأكبر للإله «تحوتي مسو» الذي عُثر على قبره في «منف»، ويحتمل أن يكون ابن «أمنحتب الثالث» (؟). اقرن بذلك ما ذكره «دارسي» “Rec. Trav.”, XIV, p. 174 وما جاء في J. E. A., XIV, p. 83 وفي A. Z., LXVII, p. 8.

أصحاب الكفاءات منهم يتقاعدون نهائيًّا، فقد كان يوجد للكفء منهم عملًا مفيدًا في وظيفة ما من الوظائف التي تليق برجل عظيم حنكته التجارب، وضحى بثمرة حياته في خدمة بلاده والذود عن حياضها، فكان القائد مثلًا يعين بعد تقاعده عن العمل في الجيش في وظيفة «مدير أملاك»، وغالبًا ما كان يعين مدير أملاك الفرعون نفسه، أو مدير أملاك إحدى نساء البيت المالك، وبذلك يصبح وفي يده وظيفة تشعر بالثقة في شاغلها، وأحيانًا كان يعين الواحد منهم مديرًا لأملاك المعبد، ويتساوى في هذا معبد الإله أو معبد الفرعون نفسه، وهذا المركز كان يستمد سلطانه من الحكومة التي تضمن من جانبها للموظف المتقاعد معيشته المادية، فتجعل له دخلًا يضمه إلى معاشه. وبهذه الطريقة كانت الحكومة تضم دخل المعابد فتستولي على بعض رأس المال الذي كان محجوبًا عنها اغتصابًا. ففي عهد «إخناتون» كان مدير أملاك الفرعون هو القائد (با-آتون[١٥٤]-محب) وكان القائد «معي»[١٥٥] مدير أملاك «بيت آتون»، كما كان في الوقت نفسه «مدير أملاك معبد رع» في عين شمس.

وكان «أمنحتب بن حبو» في آخر مجال حياته مدير أملاك أكبر بنات «أمنحتب الثالث» «سات آمون» وهي التي قد تزوجت من والدها كما تقص علينا النقوش، وبذلك بقي «أمنحتب بن حبو» مدير أملاكها بعد زواجها.[١٥٦] وكان يدير أملاك الملكة «تي» زوج «أمنحتب الثالث» كاتب حربي يُدعى «نخت مين».[١٥٧] أما في إدارة أملاك المعابد فكان يتولى شئونها القائد «سا إست»[١٥٨] بوصفه مديرًا لمعبد الإله «أوزير» في عهد «أمنحتب الثالث» بالعرابة. وكذلك كان يتولى نفس الوظيفة في المعابد الجنازية لكل من الفرعون «أحمس» و«تحتمس الثالث» ثم «تحتمس الرابع»، وكان «رع-مسو» قائد الفرعون «إخناتون» مديرًا لمعبد «أمنحتب الثالث» الجنازي[١٥٩] وكذلك كان «أمنمأبت» قائد الفرعون «حور محب» مديرًا لمعبد «تحتمس الثالث»،[١٦٠] وقد ثبت أنه حتى كاتب

---

[١٥٤] راجع: Davies, “El Amarna”, V, p. 15.

[١٥٥] راجع: Ibid. V, p. 1.

[١٥٦] راجع: Legrain, “Statues”, No. 42127.

[١٥٧] راجع: Louvre, C. 203.

[١٥٨] راجع: “Mitt. Deutsch. Inst. Kairo”, VI, p. 38.

[١٥٩] راجع: Davies, “El Amarna”, V, p. 21, 22.

[١٦٠] راجع: Ranke, A. Z., LXVII, p. 78.

الجنود «سبك نخت»[١٦١] كان يشغل وظيفة «مدير أملاك معبد آمون»، ولكن هذا العمل كان فريدًا في بابه في خلال الأسرة الثامنة عشرة، فقد كانت العادة أن يُعين الموظف الحربي القديم بعد انتهاء مدة خدمته في الجيش العامل في وظيفة إدارية، وقد بقي هذا النظام متبعًا إلى عهد الرعامسة؛ إذ ذُكر لنا في ورقة «هرس» رقم ١ أن أملاك المعبد كانت تحت إدارة رجال من قواد الجيش الذين أُحيلوا إلى المعاش،[١٦٢] ومن الغريب المدهش أن الوظائف التي كان يتولى إدارتها المتقاعدون من الموظفين الحربيين لم تكن ذات أهمية كبيرة. وتدل الظواهر على أن المصالح الحكومية والإدارات التي كان فيها للتعليم أو التخصص وشرف المحتد شأن كان يُقصى عنها المتقاعد، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا «حور محب» كاتب المجندين في عهد «تحتمس الرابع»، فقد كان على اتصال وثيق بالبيت المالك؛ إذ عيَّنه سيده «تحتمس الرابع»[١٦٣] مربيًا لإحدى بناته، ورقاه في الوقت نفسه على ما يظهر إلى رتبة «قائد فرسان»؛ إذ كان يجد فيه خادمًا مخلصًا؛ فهو الذي قاد جيوش الفرعون لمحاربة كهنة «آمون» لأول مرة. وقد وُصفت هذه الحروب على إحدى لوحات الحدود التي أقامها «إخناتون» على تخوم بلدة «إختاتون» عاصمته الجديدة، غير أن هذا النقش قد وصل إلينا مع الأسف مهشمًا، ولم يبقَ منه إلا بعض كلمات تمكننا أن نتلمس منها ما كان يقصده هذا الفرعون:[١٦٤] «... أعمال الكهنة لا بد كانت أقبح مما سمعت «إخناتون» في العام الرابع، وكانت أقبح مما سمعت عام (...) وكانت أقبح مما سمع «أمنحتب الثالث»، بل كانت لا بد أقبح مما سمعه الفرعون «تحتمس الرابع».»[١٦٥] ويُفهم من هذه الجمل المبتورةِ الأدوارُ التي تقلب فيها النزاع بين الفرعون وبين رئيس كهنة «آمون» في خلال الأسرة الثامنة عشرة، إن هذا الخلاف بدأ في عهد «تحتمس الرابع»، وقد كان هذا الكاهن الأعظم يُلقب برئيس كل كهنة آلهة الوجه القبلي والوجه البحري.[١٦٦]

---

[١٦١] راجع: "Rec. Trav." IV, p. 132.

[١٦٢] راجع: Pap. Harris I, 61a, 12; 61b, 1–2; "Kees", A. Z., LXXIII, p. 86; A. S., XI, p. 172 (XIX Dynasty).

[١٦٣] راجع: Bouriant, "Mem. Miss. Arch. Franç." V, p. 413–434.

[١٦٤] راجع: Davies, Amarna, V, p. 28ff. Line 20, 21; A. Z. LV, p. 4.

[١٦٥] راجع: Davies, Amarna, V, p. 28ff. Line 20, 21; A. Z. LV, p. 4.

[١٦٦] راجع: A. Z., LXVII, p. 7; LXXII, p. 68.

على أننا لا نعلم بالضبط من النقوش مقدار نفوذ هذه الوظيفة؛ لأنه لم يصل إلينا نص صريح في ذلك، ومع ذلك يمكن القول بأن صاحبها كان يسيطر على وظائف الكهانة في طول البلاد وعرضها، وعلى مرافق الكهان الحيوية والاقتصادية في كل مقاطعات القطرين، وكانت هذه الوظيفة حتى عهد «تحتمس الرابع» في يد رئيس كهنة «آمون» في «طيبة»، ولكن لما أعلن هذا الفرعون الحرب على الكاهن الأعظم وانتصر عليه واستولى على هذه الوظيفة وقلدها «حور محب» كاتب المجندين، ومربي الأميرة ابنة الفرعون لما كان يعهده فيه من الإخلاص والولاء. ومن ذلك يتضح أن الفرعون قد عاد ثانية، واتخذ من موظفي الجيش رجلًا من المخلصين له يقوم بأعباء هذه الوظيفة الخطيرة. على أن تولي «حور محب» منصب رئيس كهنة القطرين لم يُنْهِ الحرب بين البلاط والكهنة؛ إذ أعادها ثانية «أمنحتب الثالث» للكاهن الأعظم للإله «آمون» (بتاح مسو)[١٦٧] ولكنه لم يلبث أن نزعها مضطرًّا من كهنة «آمون» ثانية، كما لمح بذلك «إخناتون» في لوحة الحدود السالفة الذكر، وقلَّدها هذه المرة الكاهن الأعظم للإله «بتاح» بمنف، وهو «تحوتي مسو» ابن «بتاح مسو»[١٦٨] السابق الذكر، وكان يرمي من وراء ذلك أن يبعد هذه الوظيفة عن كهنة «آمون» بطيبة مقر حكمه؛ وبذلك يستريح باله من مناوآتهم ومشاركتهم إياه السلطة. وسنرى فيما بعد أن هذا الفرعون أقصى كذلك «مدير البيت العظيم» للأملاك الفرعونية عن مقر ملكه، وجعل مركزه «منف» عندما شعر بازدياد سلطانه ونفوذه في العاصمة؛ لذلك نجد أن «مدير البيت العظيم» للأملاك الفرعونية «أمنحتب» ثم «إبي» من بعده كان يتكلم في صراحة عن مقر وظيفته في «منف»، ومن ثم أصبح نفوذ هذه الوظيفة محدودًا.

أما منصب رئيس كهنة كل القطرين فقد عادت بلا شك في أواخر عهد «أمنحتب الثالث» إلى «طيبة» وكان يديرها الوزير «رعموسي».[١٦٩]

وخلاصة ما سبق ذكره عن مجال حياة الموظف الحربي وما كان يقوم به من الأعمال بعد التقاعد؛ أنه كان لا يُعد في سلك كبار الموظفين، وإن كان صاحب سلطان مدة خدمته العسكرية، ولا يمكن التقليل من شأنه، غير أنه عندما كان يترك العمل في

---

[١٦٧] راجع: A. Z., LXXIII, p. 60.

[١٦٨] راجع: A. Z., LXVII, p. 7

[١٦٩] راجع: Weil, “Die Veziere des Pharaonen reiches”, p. 86.

الجيش لم يكن يُقلد وظيفة ذات نفوذ محس؛ وذلك لأنه لم يكن من فئة الموظفين الذين كانت تُسند إليهم وظائف ذات نفوذ في البلاط الفرعوني أو الذين كان لهم قوة عظيمة خارج حدود وظيفتهم في أواخر الأسرة الثامنة عشرة، مما يمهد لهم الطرق للاستئثار بالسلطة لأنفسهم؛ لذلك كان يلزم للوصول لجمع كل السلطة والقبض على زمام الأمور في البلاد صنف آخر من رجال الجيش، وهؤلاء هم رجال الجيش العامل.

جندي الميدان

يجب أن نستعرض هنا أولًا باختصار أطوار حياة ضابط الميدان أيضًا. كان الجندي يُقترع من بين طائفتين مختلفتين من الشعب؛ فطائفة منهم كانوا يُجندون من بين أولاد الجنود القدامى، وهؤلاء كان لزامًا عليهم أن يحلوا محل آبائهم، وكانوا أحيانًا يحتلون مراكزهم، وطائفة أخرى كانوا يُجندون من بين الشبان الذين قضوا فترة طفولتهم في البلاط الفرعوني يتلقون العلم ويدرَّبون مع أمراء البيت المالك أنفسهم، فكانوا بذلك يؤلفون فرقة مختارة من الغلمان المثقفين، ومن ثم نشأت العلاقات الشخصية بين الفرعون وضباط الميدان، وهذه العلاقات كان لا ينقطع سببها في الميدان ما دام الفرعون يقود جيشه في ساحة الوغى، وهذه الوسيلة كانت سببًا هامًّا لا يُستهان به في ترقية هؤلاء الضباط؛ لأن الفرعون كان قد تربى معهم في صغره، كما كان يقودهم في رجولته.

وكان آباء هؤلاء الأطفال الذين ينشئون في صغرهم في بلاط الفرعون يحملون لقب «غلام بيت[١٧٠] التعليم الفرعوني»؛ أي الأطفال الذين تعلموا مع الأمراء في قصر خاص في أثناء طفولتهم. وكان هؤلاء التلاميذ يحملون هذا اللقب بكل فخار وكبرياء مدة رجولتهم ويُدعون به كما كانوا يحملونه وهم لا يزالون غلمانًا،[١٧١] فكان «سن من»[١٧٢] أخو «سنموت» أكبر رجل في الدولة في عهد الملكة «حتشبسوت» يُلقب بهذا اللقب، على أن

---

[١٧٠] راجع: Gardiner and Weigall, “Topographical Catalogue of the Private Tombs at Thebes”, p. 38, No. 241.

[١٧١] وقد فحص هذا اللقب بعض العلماء (راجع Bergmann, “Rec. Trav.” XII, p. 11–12; Lefebure, P. S. B. A., XIII, p. 458; Loret, P. S. B.A., XIV, p. 205; Gardiner, P. S. B. A., XXXIX, p. 32; Gauthier, B. I. F. A. O., XV, p. 197; XVI, p. 178).

[١٧٢] راجع: Davies, “Five Theban Tombs”, p. 31; P. S. B. A., XXXV, p. 283.

موجة تحقير كل فرد غير موظف جعلنا نفهم بداهة أن السواد الأعظم من هؤلاء الأطفال كانوا ينتسبون إلى طبقة صغار الموظفين والكهنة والمستخدمين؛ إذ نجد والد أحدهم كان كاتب ثيران،[١٧٣] وآخر كان والده حارس باب الإدارة، وثالثًا كان والده رسامًا … إلخ. ولكن لما كان معظم أولاد الأمراء الذين كانوا في المرتبة الثانية بين الأمراء يصبحون ضباطًا عاملين في الجيش[١٧٤] كان الجم الغفير من هؤلاء الغلمان المدرَّبين أولاد الطبقة الدنيا ينخرطون معهم في هذا السلك[١٧٥] الحربي، هذا إلى أنهم كانوا يشغلون معهم مراكز صغيرة تتناسب مع طبقتهم في البلاط الفرعوني،[١٧٦] يُضاف إلى ذلك أنه قد ظهر بين هؤلاء الغلمان عدد ضئيل جدًّا ممن كانوا يشغلون وظائف حكومية،[١٧٧] هذا إلى أنه كان يوجد بينهم بعض الأجانب، ويُحتمل جدًّا أنهم أُرسلوا رهائن إلى مصر، وقد شغل بعضهم فيما بعد وظيفة مربٍّ في البلاط الفرعوني، فكان الواحد منهم يحمل مع وظيفته الممتازة لقب مربٍّ لأميرة أو أمير في القصر. وقد كان عدد هؤلاء المربين عظيمًا جدًّا في عهد الأسرة الثامنة عشرة.[١٧٨]

أما عن كيفية تعليم هؤلاء الصبية فلم نجد في الرسوم التي عُثر عليها حتى الآن إلا صورًا تمثل تدريبهم على الرماية[١٧٩] بالقوس والنشاب. وعلى أية حال فإن أحسن ما كان

---

[١٧٣] راجع: Helck, “Der Einfluss der Militarfuhrer in der 18 Agyptischen Dynastie”, p. 34, note 4.

[١٧٤] مثال ذلك «إنبني» من عهد «حتشبسوت» (Urk. IV, p. 465) و«وپن تب كاو» (راجع Holscher, “Chefren–Heiligtum”, p. 108). وكلاهما كان قائد فرسان.

[١٧٥] مثال ذلك الفارس «أمنمحب» (Urk. IV, p. 899) من عهد تحتمس الثالث، وحامل العلم nbnkmt نبنكمت (راجع Urk. IV, p. 996)، وحاكم «سيلة» المسمى «نبي» (راجع Gardiner and Peet, “Sinai”, No. 59)، والفارس «باسر» (L. D., Text, III, p. 274.) من عهد «أمنحتب الثاني»، وحامل العلم «أون أرتي» Iwan–irti (راجع “Rec. Trav.”, IV, p. 136“. من عهد الأسرة الثامنة عشرة).

[١٧٦] ففي عهد «تحتمس الثالث» نجد الساقي «منتو أوي» mntw iwi (المقبرة رقم ١٧٢) والساقي «نفربرت» (Cairo Mus. 42121.) وحامل المروحة «ماي حربري» Myhrpry.

[١٧٧] مثال ذلك «وسر ساتت» Wsr–satt نائب الملك في بلاد كوش من عهد «أمنحتب الثاني» (راجع “Rec. Trav.” XXXIX, p. 192.) وحاسب الخبز «وسرحات» من عهد أمنحتب الثاني أيضًا (المقبرة رقم ٥٦).

[١٧٨] وقد ذكرنا معظمهم أثناء سردنا لحوادث ملوك هذه الأسرة.

[١٧٩] راجع ما ذكرنا عن «مين» مدرب الفرعون «أمنحتب الثاني» (الجزء الرابع).

يتفاخر به الملوك في هذا العصر هو التدريب الرياضي كما جاء في لوحة «أمنحتب الثاني» التي كشفنا عنها حديثًا بجوار «بوالهول» وتكلمنا عنها، وكان هؤلاء الغلمان يشاطرون الملوك في هذا التدريب.

وأما حياة الضابط العامل في الميدان فكانت عادية؛ إذ كان يبدأ مجاله في الجيش جنديًّا بسيطًا في إحدى الفرق لعسكرة في حامية من الحاميات أو في سفينة من السفن، وكان يُعرف بجندي تابع لفرقة كذا بحامية كذا، أو جندي تابع لبحارة كذا في سفينة كذا، ثم يُرقى بعد مدة إلى رتبة حامل العلم في فرقته، أو على ظهر سفينته، وعندئذٍ كان يُلقب حامل العلم في فرقة كذا أو حامل العلم في سفينة بحارة كذا.

وتدل كل النقوش على أنه لا توجد رتبة بين لقب الجندي ولقب حامل العلم. وقد ظهر في النقوش التي عُثر عليها أن حامل العلم كان يقود فرقة يبلغ عددها في عهد الرعامسة ما لا يقل عن مائتي جندي محارب،[١٨٠] وهذه الفرق كان كل منها يحمل اسمًا خاصًّا بها بعضها يُركب تركيبًا مزجيًّا مع اسم الملك، وكان لكل منها علم يختلف عن الأخرى، وتدل الشواهد على أن جنودها كانوا مصريين لا أجانب، وكانت تُنظم فرق خاصة من المصريين لتقوم بأعمال الشرطة وحرس الفرعون الخاص، وهذه الفرق كانت دائمًا تحت السلاح، ولم يدخل في عدادها الفرق الجنود المرتزقة الذين كان يؤتى بهم من الخارج، ولكنا لا زلنا إلى الآن نجهل العلاقة التي كانت بين ضباط فرقة ما وموظفيها، ولسنا متثبتين حقًّا — إلا إذا كانت الأشياء تُقاس بأشباهها — فيما إذا كان يوجد بجانب حامل العلم قائد للجنود البرية كما هي الحال في السفن أولًا؛ إذ نجد مع حامل علم السفينة مديرًا للبحارة[١٨١] كما هي الحال في مقبرة «حوي»[١٨٢] حيث نجد قائدًا وحامل علم يقودان بحارة السفينة.

أما الخطوة الثانية في مجال رقي الضابط العامل بعد رتبة حامل العلم فهي ترقيته إلى رتبة «فارس»،[١٨٣] وقد وضحنا هذه النقطة عند ذكر الوظائف التي جاءت مرتبة على حسب تدرجها في مرسوم «نوري» الذي صدر في عهد «سيتي الأول»، وكذلك جاء

---

[١٨٠] راجع: Pap. Turin IV, 6–7.

[١٨١] راجع: Urk. IV, p. 8.

[١٨٢] راجع: Davies, “The Tomb of Huy”, p. 13.

[١٨٣] راجع: J. E. A., Vol. XIII, p. 193ff., line 35, 42.

هذا الترتيب على فخارة،[١٨٤] غير أننا نلاحظ في مرسوم «نوري» وجود رتبة أخرى قبل رتبة فارس، وعلى ذلك يكون مجال رقي الجندي كما يأتي؛ أولًا: حامل العلم، ثم رئيس إصطبل، ثم رتبة فارس.

وكان الفارس يظهر بوصفه قائد جنود في الحاميات التي على حدود الدولة أو في المقاطعات. على أننا لا نعرف بصفة قاطعة إلى أي مدى كانت سيطرة هذا القائد على الجنود الأسرى، كما لا نعرف على وجه التحقيق عدد الفرق التي كانت بقيادته، هذا إلى أننا لا نعرف إذا كان الجنود الذين كانوا بقيادته يشملون جنودًا مرتزقة من غير المصريين أو أن كل ما يقودهم من جنود كانوا مقسمين فرقًا تحت إمرة حامل العلم. وقد سبق الكلام عن مكانة هذا الفارس أو القائد بوصفه قائدًا لمعاقل الحدود في الشمال الشرقي للدلتا. أما في بلاد النوبة فكان يعمل هذا الفارس بإمرة نائب الملك في «كوش»، وكان يحمل هناك اللقب الثانوي «مدير البلاد الأجنبية الجنوبية»، وكان في الوقت نفسه يحمل لقب قائد معقل في النوبة.[١٨٥]

أما في «سوريا» فكان القائد يحمل لقب «قائد، ومدير البلاد الأجنبية الشمالية»؛ أي قائد الجنود الذين كانوا يعسكرون في المدن والحاميات في بلاد «سوريا». والواقع أن «سوريا» لم تكن منظمة تنظيمًا دقيقًا كما كانت الحال في بلاد النوبة ولم يكن يحكمها نائب ملك يسيطر على عامة أمورها، كما ذكرنا من قبل، ومن أجل ذلك كان من أول واجبات هؤلاء الضباط أو القواد أن يراقبوا الأمراء الوطنيين الذين كان في يدهم حكم البلاد، لهذا كان الفارس «أمنمسو» يُطلق عليه لقب «أذني الملك» في عهد الفرعونين «تحتمس الثالث» وابنه «أمنحتب الثاني».[١٨٦] وهذا اللقب يعيد إلى الذاكرة بوجه خاص لقب «رابيصو» (أي المتربص) الذي جاء ذكره في خطابات «تل العمارنة» التي كُتبت بالبابلية، وهذا اللقب بعينه كان يُعطاه قائد المدينة (معناه المتربص أو المتسمع). وهذا الربيصو كان يقابله في المصرية وقتئذٍ لقب «فارس»؛ إذ نجد أن القائد «معي» كان يُلقب «ربيصو» في خطابات «تل العمارنة»[١٨٧] وكان هو نفسه يُلقب في عهد «أمنحتب الثالث»

[١٨٤] راجع: A. Z., XVIII, p. 96 = Pap. Lansing, 9, 4–7.

[١٨٥] راجع: J. E. A., Vol. VI, p. 73; Ibid. III, p. 155, 184.

[١٨٦] راجع: Davies, "The Theban Tombs Series", Vol. V, p. 27–34.

[١٨٧] راجع: Knudtzon, "Die El–Amarna Tafeln", No. 261, 8, 292, 300 etc.

بالمصرية «الفارس مبعوث الفرعون في الأراضي الأجنبية»؛[١٨٨] مما يدل دلالة واضحة على أن اللقبين كانا يحملان معنًى واحدًا. ولكننا لا نعلم بصفة مؤكدة من كان تحت إمرته. ومن الجائز أن هذه البلاد الشمالية كانت بإمرة قائد، ويستند هذا الاستنباط إلى أن القائد «تحوتي»[١٨٩] الذي عاصر الملك «تحتمس الثالث» كان قائدًا في هذه الجهات، وفي آن واحد كان مديرًا للأراضي الأجنبية الشمالية، وبهذا يكون قد ظهر بوصفه قائدًا له الكلمة العليا في هذه الممتلكات، هذا وقد وجدنا في خطابات «تل العمارنة» أن قائدًا كتب لأحد الأمراء السوريين بلهجة الأمر؛ مما يشعر بأن القائد كان هناك هو صاحب القول الفصل، ولكن المدهش في الأمر أن هذا القائد لم يُذكر هنا، ولم تذكر لنا خطابات «تل العمارنة»[١٩٠] موظفًا كان يسيطر على بلاد «سوريا» سيطرة حقيقية إلا «يناخومو»[١٩١] وكان يُلقب «حامل المظلة على يمين الفرعون»، وهو من ألقاب الشرف العالية في البلاط الفرعوني، على أننا لا يمكننا بأية حال من الأحوال التحقق من هذه الوظيفة التي كان يقوم بها ولا من مقر وظيفته «يريموتا» ولا شخصيته هو، وكذلك جاء ذكر «أمنموبي» الذي كان يسيطر على ما يظهر تمام السيطرة على ممتلكات مصر في «سوريا»، وقد جاء ذكره في خطابات «تل العمارنة» في خطاب أمير «تاعنك» باسم «أمان حتبي».[١٩٢]

والظاهر أن مقر إدارة الحكومة المصرية لهذه البلاد كان في غزة في الجنوب، وعلى أية حال فإن الشواهد تدل على أنه كان صاحب السيطرة في الممتلكات «الآسيوية» في «مجدو»، كما كان له نفس السلطة في الجنوب في «غزة». ومما يؤسف له أنه لم يصلنا أي لقب من الألقاب التي كان يحملها، ويجب أن نشير هنا أيضًا إلى جنود الحاميات التي كانت خارج الحدود المصرية؛ فقد كانوا على حسب ما جاء في ورقة «ساليه»[١٩٣] يسيرون على نظام الجنود في البلاد نفسها يتألفون من جنود وضباط أعلام ومديرين، ونذكر من

---

[١٨٨] راجع: Brit. Mus. No. 1210ff. A. Z. XXX, p. 299.

[١٨٩] راجع: Urk. IV, p. 999ff.

[١٩٠] راجع: Knudtzon, Ibid, No. 82, 6; 102, 105, 6; 116, 8 etc. and Steindorff, A. Z., XXXVIII, p. 15.

[١٩١] راجع: Knudtzon, Ibid, No. 82, 6; 102, 105, 6; 116, 8 etc. and Steindorff, A. Z., XXXVIII, p. 15.

[١٩٢] راجع: Denkschr. D. Kais. Akadem. Wien. 52. (Phil.-hist. Kl.), p. 36.

[١٩٣] راجع: Pap. Sallier I, 7, 4.

وثائق الأسرة العشرين أن هؤلاء الجنود كان يشرف عليهم «فارس»، والظاهر أنهم كانوا يقيمون هناك في مستعمرة كما يدل على ذلك مخصص الكلمة الدالة على اسمهم في موقعة «قادش» في رسوم الواقعة «بأبي سمبل» (سطر ٢٤).[١٩٤] أما في عهد «تل العمارنة» فكان هؤلاء الجنود يتألفون بصفة قاطعة من جنود أجانب في كل المستعمرات المصرية[١٩٥] كلها، والظاهر أن المدير المسيطر عليهم كان يحمل رتبة أكبر من رتبة «فارس»[١٩٦] ولم يصلنا حتى الآن من أسماء المديرين الذين كانوا يشرفون على الجنود الأجانب في الأسرة الثامنة عشرة إلا اسم القائد «تحوتي»[١٩٧] ويحمل لقب القائد ومدير الأراضي الأجنبية في عهد «تحتمس الثالث»، أما الجنود فقد جاء ذكرهم في عهد هذا الفرعون أيضًا.[١٩٨]

ومن كل هذا يمكننا أن نستخلص أن النظام الذي كان قائمًا في الأقاليم الغربية (لوبيا) التي كانت تحت سيطرة مصر يشبه تمام الشبه النظام الذي كان قائمًا في «سوريا»، على الأقل في عهد الأسرة التاسعة عشرة؛ فقد كان القائد الذي على رأس القوات هو الفارس ومدير البلاد الأجنبية في «لوبيا».[١٩٩]

ألقاب الشرف في الجيش

لا نزاع في أنه كان من بين هؤلاء الجنود العاملين نفر يسترعون النظر بما يأتونه من ضروب الشجاعة والمهارة في فنون القتال مما كان يستهوي نظر الفرعون ويثير إعجابه، فيكافئهم على حسن عملهم وإقدامهم بما كان يُعبر عنه عند المصريين بعبارة «ذهب الشجاعة» أو «ذهب الثناء»، فكان الفرعون يهبه شجعان جيشه في صور تحف مختلفة الأشكال، منها: مشابك ذهب، وفئوس، وخناجر، وأساور، ونياشين في صور ذباب وأسود، وصدريات … إلخ. وهذه كانت أشكال هدايا الشرف المادي، أما الشرف الأدبي فكانت الألقاب التي يمنحها الفرعون من فاق من رجاله برجحان عقله وحسن

---

[١٩٤] راجع: Kadesh records in Abu Simbel.

[١٩٥] راجع: Davies, “El Amarna”, VI, p. 17-18.

[١٩٦] راجع: Gardiner, “Inscriptions of Mes”, p. 7.

[١٩٧] راجع: Urk. IV, p. 999.

[١٩٨] راجع: Urk. IV, p. 656.

[١٩٩] راجع: A. Z., LXIV, p. 95, Grabstein Berlin. Inschr. II, 176.

تدبيره للأمور، وأهمها لقب «شجاع الفرعون»، غير أن ألقاب الشرف الأدبية لم تكن قاصرة على الجندي[٢٠٠] العامل، بل كان يمنحها كذلك الموظفين الذين يصحبون الفرعون في غزواته، ويقومون بأعمال مجيدة تدل على الشجاعة، أو كان ينالها موظف وهو يؤدي خدمته بهمة في أثناء معاملاته التجارية برءوس أموال أُخذت من الأعداء.[٢٠١] فكان بعض الضباط يُمنحون لقب «صاحب الغنائم»، وقد حمل هذا اللقب الفارس «آمون محب» الذي أصبح فيما بعد نائب الجيش (Urk. IV, p. 898.) الملك في «كوش»، وكذلك كان يتقلده حامل العلم «سو-منوت» في عهد «أمنحتب الثاني».[٢٠٢] ومن هذه الألقاب كذلك لقب «محارب الحاكم» (أي الفرعون)، وكان يحمله الضابط «أحمس» في أوائل الأسرة الثامنة عشرة، وكان يمنح الجندي الشجاع لقب «المحارب القديم». وقد منح الفرعون هذا اللقب حامل العلم «نب-آمون» وهو الذي رُقي فيما بعد في عهد «تحتمس الرابع» إلى وظيفة رئيس شرطة «طيبة الغربية». وكان الفرعون يختار من بين هؤلاء الضباط العاملين في الجيش حاشيته الحربية وبخاصة حملة السلاح، فمثلًا كان الأمير «إنبني»[٢٠٣] يحمل لقب فارس، ثم عُين فيما بعد «مدير سلاح الملك»، على أنه كان هناك ضباط آخرون يشرفون على شرطة الحرس الملكي؛ مثال ذلك الفارس «باسر»[٢٠٤] الذي عاصر «أمنحتب الثاني»، وكذلك مدير «شرطة الصحراء» «نفر خاوت»[٢٠٥] وقد عاصر «تحتمس الثالث»، ثم الفارس «أمنحتب»[٢٠٦] وهو الذي رُقي في عهد «آمون محب» إلى رتبة نائب الملك في الجيش، وكان في الوقت نفسه المشرف على حراسة شخص الفرعون.

ومن كل هذا نستخلص أن الفرعون كان يرغب عن طيب خاطر في الاستئثار بشغل المراكز الحربية الخاصة بنفسه مباشرة بضباط من رجال الجيش العامل.

---

[٢٠٠] راجع: Urk. IV, p. 974; Urk. IV, p. 32, Ibid, p. 955, p. 528.

[٢٠١] مثال ذلك «سن نفر» وزير المالية السابق الذكر، و«مين» الذي عاصر «تحتمس الثالث» (A. Z., LXIII, p. 114.)، و«بتاح مسو» الذي عاصر أمنحتب الثالث Schiaparelli, “Cat. Florence” p. 207.

[٢٠٢] راجع: Cone funeraire 124.

[٢٠٣] راجع: Urk. IV, p. 464.

[٢٠٤] راجع: Piehl, “Recueil”, I, p. 116. 1.

[٢٠٥] راجع: Urk. IV, p. 990.

[٢٠٦] راجع: Urk. IV, p. 897.

الجندي العامل في وظائف البلاط

لم يقتصر الضابط الحربي بعد انتهاء خدمته في الجيش القائم على العمل في حاشية الفرعون، بل كان يضم إلى ذلك عملًا آخر في الإدارة الحكومية في البلاط أو في تولي إدارة شئون الخاصة الملكية، ومن ثم نشاهد تغيرًا خطيرًا في النفوذ العظيم الذي انتهى إلى بعض هؤلاء الضباط.

والواقع أن كل الضباط العاملين حتى الذين كانوا يحملون رتبة «فارس» لم تكن لهم وظائف، وكانوا يُعدون خارج الطبقات الاجتماعية المحترمة في نظر رجال الحكومة في عهد الأسرة الثامنة عشرة؛ والسبب في ذلك راجع إلى أن طبقة الموظفين كانت تنظر إلى طبقة الجنود العاملين وضباطهم نظرة الأصيل للخسيس؛ ولذلك كانوا يعدون أنفسهم أرفع منزلة وأعلى قدرًا، كما كان الموظفون ينظرون إلى رجال الجيش نظرة الرئيس للمرءوس؛ وذلك لأنه لم يكن بين ضباط الجيش من ينتمي إلى أسرة عريقة في المجد؛ ولهذا لم يُرَقَّ من بين رجال الجيش إلى مناصب عالية في الحكومة غير نفر قليل شملهم عطف ملكي أو قرَّبهم الفرعون لما شاهده فيهم من الكفاءة والإخلاص. ولا نزاع في أن أمثال هؤلاء الضباط الممتازين كانت تتأجج في نفوسهم نار الطموح ليثبوا إلى أعلى المراتب، وكذلك لا بد أنهم كانوا معروفين بين رجال الإدارة، غير أنه كان لزامًا عليهم أن يتخلوا عن ألقابهم الحربية التي كانوا يحملونها في الجيش. وما من شك في أن هؤلاء الضباط كان لهم من الصفات الفاضلة، والأخلاق العالية، والقوة الكامنة في نفوسهم؛ ما جعلهم يصلون إلى هذه المناصب، وما اضطر رجال الإدارة الحقيقيين إلى أن يعترفوا بكفايتهم الإدارية؛ ولذلك كان يستفيد الفرعون بهذه الكفايات؛ فكان يعين هؤلاء الضباط في مناصب متصلة به مباشرة، إما لثقته بهم، وإما لاعتبارات أخرى ذات أهمية خطيرة، وأهمها هو أن هذه الفئة لما كان أفرادها لا يستندون على أصل رفيع يشد أزرهم، ولا على ممتلكات ضخمة تحمي ظهورهم، ولا على علم غزير يرفع من شأنهم فإنهم تجنبوا كل ما يحول بينهم وبين عطف مليكهم، فلم يفكر واحد منهم في أن يأتي عملًا يغضب مولاه، هذا إلى أن من كان بينهم يشغل منصبًا خطيرًا في الدولة من المناصب المتصلة بالفرعون لا يجسر أن يعارضه في أمر من الأمور صغر أو كبر. وفضلًا عن ذلك كان للفرعون في الوقت نفسه طائفة من أولاد هؤلاء الضباط العاملين في الجيش في الإدارة اتصلوا به اتصالًا وثيقًا ليحتلوا وظائف آبائهم في مسلك الإدارة العامة للدولة.

ومما تجدر ملاحظته أن التعيين في هذا الوظائف كان في بادئ الأمر ضئيل الأهمية إذا قرنا هذه الوظائف بالمراكز التي كان يتولاها الموظفون الحربيون الذين أُحِيلوا إلى المعاش من الخدمة العسكرية؛ ففي عهد «تحتمس الثالث» مثلًا نجد أن حامل العلم «آمون مسو» قد رُقي إلى مدير القصر الملكي في «طيبة»، وبَقِيَ يشغل هذا المنصب حتى عهد «أمنحتب الثالث»،[٢٠٧] وفي عهد هذا الفرعون نفسه رُقي الفارس «قن آمون» مدير الحقول زوج الإله، وكذلك رُقي قائد حامية «سيلة» «نبي»[٢٠٨] إلى منصب «مدير بيت الملكة»، وفي عهد «أمنحتب الثالث» كان حامل العلم «سو-منوت» يشغل وظيفة «مدير الإصطبلات» ثم «مدير سفن الملك»، وأخيرًا رُقي إلى وظيفة مدير أملاك الملكة، وبهذا المنصب أخذ يُرقى حتى أصبح من أعاظم رجال الأسرة الثامنة عشرة قوة ونفوذًا وسلطانًا.[٢٠٩] ولا يبعد أنه كان من رجال الجيش العامل، غير أنه لم يصلنا أي لقب حربي نُسب إليه، ومع ذلك فإنا وجدنا في النقوش القليلة التي على جدران قبره ما يصف لنا أعماله في الحروب التي شنَّها «أمنحتب الأول» و«تحتمس الأول والثاني»، وتُشعر هذه النقوش بأنه كان في باكورة حياته العملية ضابطًا ثم أصبح بعد ذلك موظفًا، هذا إلى أنه عندما كان يصحب الفرعون إلى ساحة القتال لم يحدثنا عن الحرب، بل كان يقص علينا نشاطه الإداري، ولم نجد له نقشًا واحدًا تكلم فيه عن نشاطه بوصفه ضابطًا حربيًّا؛ إذ يقول: «إنه كان مواطنًا قوي الساعد، مرافقًا للفرعون في البلاد الأجنبية الشمالية والجنوبية والغربية والشرقية، نقي الأعضاء بين القوسين، نال ذهب الشرف.»[٢١٠] وقد ذكر لنا «سنموت» أنه وُلد من أبوين رقيقي الحال لا يرتكنان على حسب ولا نسب، ولهذا لم يذكر لوالده أي لقب من ألقاب الشرف، هذا إلى أنه لم يخجل من فقره ووضاعة أصله؛ يدل على ذلك أن أخاه «سن من» كان غلامًا في البلاط الفرعوني، وهذا ما يؤكده لنا «سنموت» نفسه. وتدل الأحوال على أنه قبل أن يتولى منصب مدير أملاك «حتشبسوت» لم يكن يشغل أية وظيفة أخرى من وظائف الإدارة في الحكومة، ولقد تغير مركزه في لمح البصر وأصبح ذا أهمية عظيمة على إثر وفاة «تحتمس الثاني»؛ إذ أصبحت «حتشبسوت»

---

[٢٠٧] راجع: Urk. IV, p. 1021–5.

[٢٠٨] راجع: Gardiner and Peet, “Sinai”, No. 59.

[٢٠٩] راجع: Cone funeraire 123–4A. S., I, p. 106.

[٢١٠] راجع: Urk. IV, p. 399.

زوجه صاحبة السلطان في البلاد من بعده؛ فقد كانت أولًا الوصية على العرش لابنتها «نفرو رع» التي أصبحت زوجة «تحتمس الثالث»، وكان زمام الأمور في يدها منذ ذلك العهد، وبعد هذا التغيير في الحكم أصبح يُلقب «سنموت» «المدير العظيم لإدارة زوج الإله» أي الملكة.

وكان «سنموت» في الوقت نفسه المدير العظيم لأملاك ولية العهد «نفرو رع»، ولكن عندما أُعلنت «حتشبسوت» في العام السابع ملكة على البلاد أصبح كذلك «سنموت» المدير العظيم لأملاك الفرعون. وقد تطوَّرت هذه الوظيفة في خلال الأسرة الثامنة عشرة تطورًا خطيرًا حتى أصبحت من أهم وظائف البلاد التي لها نفوذ عظيم في كيان الدولة، وقد لعب حاملها دورًا هامًّا فاصلًا في نهاية الأسرة الثامنة عشرة.

المدير العظيم لبيت الفرعون (مر-بر-ور)

بدهي بعدما ذكرنا من تعيين الضباط في الوظائف الهامة المتصلة بالفرعون نفسه أن وظيفة المدير العام لأملاك الفرعون كان يُنتخب لها ضباط من الجيش العامل؛ يدل على ذلك أن «قن آمون»[٢١١] الذي كان يحمل هذا اللقب في عهد «أمنحتب الثاني» قد عُثر له على نقش يدل على أنه كان قبل أن يكون مديرًا عامًّا لأملاك الفرعون يحمل لقب «فارس»، وهذا اللقب الأخير قد وُجد في جزء مستور على جدران قبره (راجع Ibid Pl. 54)؛ وذلك لأن هذا اللقب لم يكن من الألقاب المشرفة التي تتناسب مع رجل أصبح في مركز عظيم مثل مركز «المدير العام لأملاك الفرعون». من أجل هذا نجد أن كل من عُين في هذا المنصب الرفيع يسدل الستار على ألقابه الأولى والأخرى التي كان يحملها قبل ذلك، حتى أصبح من الصعب علينا أن نعرف من الذين شغلوا هذا المنصب كانوا ضباطًا في الجيش، ولكن يجوز لنا في حالة كل من «أمنحتب» الذي عاصر «حتشبسوت» و«وسر» الذي عاش في عهد «تحتمس الأول» أن نستنبط من لقب «شجاع» الذي كان يحمله كل منهما أنه كان لكليهما ماضٍ حربي، ولكن لا يغرب عن ذهننا أن هذا اللقب كان يمنحه الفرعون كلًّا من الجندي العامل والموظف المدني على السواء؛ لما كانا يأتيانه من جليل الأعمال كلٌّ في دائرة عمله. وعلى الرغم من ذلك فإنه يحتمل أن الجم الغفير ممن تقلدوا

[٢١١] راجع: Davies, “The Tomb of Kenamon”, Pl. LIV.

هذه الوظيفة السامية المرتبطة بالبلاط مباشرة لم يكونوا من طائفة الموظفين المدنيين، وقد أثبتت النقوش صحة هذا القول في مثالين. أما في الأمثلة الأخرى فيجوز أنهم كانوا ضباطًا في بادئ حياتهم بالجيش، والأمثلة على ذلك متعددة جدًّا في عهد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، وبخاصة منذ حكم «تحتمس الأول» حتى عهد «حور محب».[٢١٢]

والواقع أن دائرة نفوذ المدير العام لأملاك الفرعون كانت تنحصر في سيطرته على دائرة أملاك الفرعون الخاصة، ولكن من جهة أخرى كان الفرعون بمقتضى القانون هو المالك لكل أرض مصر وكنوزها، ومن أجل ذلك كان من الضروري نزع جزء من إدارة مالية الدولة وتخصيصها لنفقات بيت الفرعون، وكان القابض على زمام هذه الإدارة هو «المدير العام لممتلكات الفرعون». والظاهر أن هذا الوضع قد جعله تحت إدارة وزير المالية.[٢١٣] أما علاقته بوزير الدولة فلا نعرفها على وجه التحقيق؛ إذ بكل أسف وُجد الجزء من النقش الذي يتكلم عن علاقة المدير العام لأملاك الفرعون بهذا الوزير مهشمًا، كما شاهدنا من قبلُ هذا، وتدل النقوش التي على جدران مقابر هؤلاء المديرين على أن أهم اختصاصاتهم هي دائرة بيت مالية الفرعون وممتلكاته، والظاهر أن بيت مالية الفرعون هذا كان منفصلًا عن دائرة بيت مالية الدولة العام؛ والدليل على ذلك أنه كان له عمال خاصون به، فكان للقصر الملكي مصانع خاصة به كالتي لمعابد الآلهة، وكان يشرف هذا المدير على صناعة الأشياء الثمينة كلها في القصر الملكي كما كانت الحال في المعبد، هذا وكانت تُقدم الحسابات الخاصة بأملاك الفرعون وكذلك الموقوفة على المعابد لمدير البيت، وقد حفظت لنا بعض المقابر مناظر للأشخاص الذين يقدمون[٢١٤] للفرعون الأشياء كلها التي كانت تُصنع في هذه المصانع، وكانت تُعرف باسم «هدايا السنة الجديدة». وهذا يدل على أنه كان من الضروري تقديم حساب جديد عن السنة

---

[٢١٢] راجع: Helck, “ner Eidfluss der Militarfuhrer in der 18. Agyptischen Dynastie”, p. 43–48؛ حيث نجد قائمة بأسماء الرجال الذين تقلدوا وظيفة المدير العظيم لبيت الفرعون. وقد جاء ذكر معظمهم فيما سبق.

[٢١٣] وهذا الموقف يذكرنا بعلاقة وزير المالية في عهد البطالمة بمرءوسه Idios Logos الذي كان يعمل بمثابة أمين صندوق الفرعون الخاص.

[٢١٤] راجع: Davies, “Tomb of Kenamon”, Pls. XI, XXIV; Amonhotep. Urk. IV, p. 455–64; Amenemhat Swrr; Borchardt, “Allerhand Kleinigkeiten” Blatt 11, Tnwna; Champollion, “Not. Desc.”, I, p. 481.

المنصرمة، ويُلاحظ كثيرًا في نقوش المقابر وصورها أن الرسوم الخاصة بأملاك الفرعون كانت عدة[٢١٥] وواضحة. فنجد ممثلًا فيها المدير العام لأملاك الفرعون ينتقل من ضيعة إلى ضيعة أخرى مشرفًا على محصول كل غلة حتى السمك، وصيد الطيور. وكذلك نجد أحيانًا أن قطعان معبد الإله «آمون» ترعى في أرض أملاك بيت الفرعون؛ ولذلك كان يُلقب «مدير بيت الفرعون» ومدير ثيران الإله «آمون».

وتدل شواهد الأمور على أن المدير العام لأملاك الفرعون كان يسيطر على جزء من تجارة البلاد فيما وراء البحار، وإن لم يُذكر ذلك صراحة إلا أنه عُثر على حسابات مرفأ عظيم خاص بضيعة كبيرة «بمنف» تُسمى «برو نفر» في عصر «أمنحتب الثاني»، وهذه الحسابات كانت خاصة ببناء السفن التجارية.[٢١٦] والآن يتساءل المرء عن المركز الإداري لأملاك الفرعون؟ هذا مع مراعاة أننا على علم تام بأن معظم أملاك الفرعون كانت في أراضي الدلتا. والجواب على ذلك لا يحتاج إلى بحث طويل؛ إذ تنحصر الإجابة عن هذا السؤال في معرفة هل كان يوجد في البلاد مديرون عامون لأملاك الفرعون على حسب تقسيمها منذ أقدم العهود إلى الوجه القبلي والوجه البحري؟ والواقع أن كل ما لدينا من المعلومات يدل على أن دائرة نفوذ هذه الوظيفة لم تُقسم قط؛ لأنه إذا حدث تقسيم مثل هذا، فإن إدارة مالية هذه الأملاك تكون في العاصمة «طيبة»، على حين أن أهم جزء في إدارة هذه الأملاك كان في الدلتا، وبذلك تكون أقسام إدارتها منفصلة انفصالًا مختلفًا تمام الاختلاف. فالواقع أنه لم يكن للملك إلا إدارة أملاك واحدة.

غير أن المسألة تصبح دقيقة جدًّا عندما نصادف أفرادًا معينين ممن يحملون لقب «مدير البيت العظيم» تُخصص وظيفتهم باسم مكان معين صراحة؛ من ذلك أن «قن آمون» كان يُلقب بالمدير العظيم للبيت في «برو نفر»، كما كان «أمنحتب» وكذلك ابنه «إبي» كان يُلقب كل منهما بالمدير العظيم للبيت في «من نفر» (منف). على أننا من جهة أخرى نلحظ أن كل من كان يحمل هذا اللقب عدا من ذكرنا لا تُخصص وظيفته باسم مكان. هذا إلى أن مكان «برو نفر»[٢١٧] كان اسم ضيعة هامة بالقرب من «منف»

---

[٢١٥] راجع: Davies, Ibid. Pls. XXVIff. urk IV, 458; Wresz I, 244.

[٢١٦] راجع: Glanville, A. Z., LXVI, p. 105; LXVIII, p. 7ff.

[٢١٧] راجع: Glanville, A. Z., LXVI, p. 105; LXVIII, p. 7. 28–30; “Revue de l’Egypte Ancienne”, I, p. 215.

في عهد الفرعون «أمنحتب الثاني»، وهذا يدل على أن هذا التخصيص لهذا اللقب يشير إلى الوجه البحري كما يشير مباشرة إلى «منف» بوصفها مركز الإدارة لهذه الوظيفة، وقد كان من الواجب في هذه الحالة أن ينتظر الإنسان تخصيص مثل هذا لمدينة «طيبة»، إذا كان يوجد هناك فعلًا مثل هذا التقسيم، ولكنه لا أثر له، ولم نجد تخصيصًا لطيبة إلا «بالمدير العظيم للبيت للمدينة الشمالية»، وهذا يعني مديرًا للقصر، ففي عهد كل من «تحتمس الثالث» و«أمنحتب الثالث» نجد «أمنمسو»[٢١٨] وفي عهد «حور محب» نجد «تحوتي مسو».[٢١٩] وفي نهاية عهد الرعامسة عندما تغيرت الأحوال نجد لأول مرة لقب «المدير العظيم للبيت للمدينة الجنوبية». ومن أجل ذلك نعتقد أن هذه الإضافة أو هذا التخصيص لهذا اللقب بعبارة في «برو نفر» أو في «منف» يدل على ازدواج هذه الوظيفة. وقد يُظن أن «المدير العظيم للبيت» أجدر بأن يُخصص بإضافة عبارة للقبه دائمًا حتى يُميز عن «مدير البيت للوجه القبلي». بيد أننا نجد أن «حور محب» الذي كان يحمل هذا اللقب في عهد «توت عنخ آمون» وكان مركزه مؤكدًا في «منف» لم يخصص لقبه بأية إضافة له؛ كما يدل على ذلك ما وصل إلينا من الكشوف الأثرية. هذا فضلًا عن أنه في الإمكان تفسير هذه الإضافة أو هذا التخصيص على وجه آخر، والواقع أن الفراعنة بدءوا فعلًا في النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة يقصون الموظفين أصحاب النفوذ عن «طيبة» عاصمة الملك، وقد كانت أول محاولة من هذا النوع هي نقل مقر «المدير العظيم للبيت» إلى «برو نفر» في «منف»، وقد قام بهذا العمل الفرعون «أمنحتب الثاني» على أنه هو نفسه كان قد اتخذ مقره في «منف» حينما كان وليًّا للعهد.[٢٢٠]

وقد اتخذ على ما يظهر هذه الضيعة الهامة بعد توليته الحكم بمثابة مقرٍّ ثانٍ له؛ فقد جاء في لوحة الكرنك[٢٢١] في سطر ٣٣ ما يأتي: «وفي اليوم السابع والعشرين اتفق خروج جلالته من «برو نفر» متجهًا نحو «منف» ومعه الأسلاب التي استولى عليها من بلاد «سوريا».» وعلى ذلك كان المركز الرئيسي لإدارة أملاك الفرعون الخاصة قد أصبح

[٢١٨] راجع: Urk. IV, p. 1021.

[٢١٩] راجع: Davies, “The Tomb of Thotmes IV”, Pl. XXXIV, J. E. A. XIV, P. III; L. D. Text IV, p. 45.

[٢٢٠] راجع: A. Z. LXVI, p. 106.

[٢٢١] راجع: A. S., IV, p. 132.

قريبًا من الجزء الهام من ممتلكاته التي كانت في الدلتا. على أنه في عهد «تحتمس الرابع» وفي الفترة الأولى من عهد «أمنحتب الثالث» لم تكن فكرة نقل مقر «المدير العظيم للبيت» على ما يظهر من الأمور المتبعة بعد، ولكنا على حين غفلة قد طالعتنا الآثار في نهاية حكم «أمنحتب الثالث» بظهور مديرين للبيت العظيم في «منف» وهما «أمنحتب» وابنه «إبي». والظاهر لنا من حياة «أمنحتب» أنه كان كاتب مجندين وأُحيل إلى المعاش ثم عُين «مديرًا للبيت في «منف»»، وبعد سقوط المدير العظيم للبيت «أمنمحات سورر» الذي كان مقره في «طيبة» عين الفرعون «أمنحتب الثالث» أمنحتب «مديرًا عظيمًا للبيت»، وجعل مقرَّ وظيفته «طيبة» حيث كان يعمل حتى الآن، ومن ثم ظهرت فكرة نقل هذه الوظيفة من «طيبة»، وقد كان هذا التغيير ضروريًّا ليقضي على المشاحنات التي كانت قائمة هناك. وكان المدير العظيم للبيت له ضلع كبير فيها. وقد كان من جراء نقل هذه الوظيفة أنْ زِيد في استقلالها، وبخاصة أنه قد أُدخل تغيير أساسي في شغلها، ولأجل أن يكون في مقدورنا تفسير سبب هذا النقل يجب أن نناقش أولًا مدى نفوذ المدير العظيم للبيت عند الفرعون ثم تأثيره في حكومة البلاد.

نفوذ المدير العظيم للبيت في حكومة البلاد

والواقع أن مركز «المدير العظيم للبيت» كان مركزًا خاصًّا، وإن كان نائيًا عن الوظائف الحكومية، فقد كان حتى أول عهد «أمنحتب الثالث» لا يعد موظفًا حكوميًّا؛ وذلك لأن أعظم مدير عظيم للبيت في هذا الوقت لم يكن يحمل لقب «كاتب الملك»، ولم نجد من يحمل هذا اللقب الممتاز أي لقب «كاتب الملك» إلا «وسر» في عهد «تحتمس الأول»، وبعد ذلك نجد أن كلًّا من «أمنمحات سورر» و«أمنحتب» و«إبي» يحملونه ثانية. ولا غرابة في أن يحمل هذا اللقب «أمنحتب»؛ لأنه كان قبل ذلك «كاتب المجندين»، ومن المحتمل أن ذلك ينطبق على «سورر»؛ لأننا لا نعرف تاريخ حياته في الوظائف الحكومية، وقد كان «المدير العظيم للبيت» يبقى شاغلًا وظيفته ما دام الفرعون الذي يدير أملاكه على عرش الملك، ولم نصادف مديرًا عظيمًا لبيت واحد ظل يدير أملاك البيت الملكي في زمن ملكين متعاقبين إلا «إبي»؛ فقد كان في عهد «أمنحتب الثالث» مدير البيت العظيم في «منف» وفي عهد «أمنحتب الرابع» كان يُلقب «مدير البيت في منف» فحسب، وربما كان ذلك قبل أن ينتقل هذا الفرعون إلى «تل العمارنة». وقد بقيت الرابطة الوثيقة التي بين «المدير العظيم للبيت» وبين الفرعون معمولًا بها حتى عهد حكم «حتشبسوت»، وقد كان

«سنموت» آخر من أضاف إلى لقبه وظيفة اسم الملك، وبعد ذلك كان هذا الموظف يُدعى «مدير البيت العظيم للملك» وحسب.

ولقد كان النفوذ الذي استحوذ عليه «المدير العظيم للبيت» في خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة عظيمًا جدًّا، حتى إنه ليفوق ما تستحقه هذه الوظيفة ذاتها من نفوذ؛ فقد كان في بادئ الأمر ينحصر عمله في تمثيل الفرعون في إدارة ممتلكاته، غير أنه تخطى ذلك وأصبح الآن يطلب التدخل في أمور خارجة عن دائرة وظيفته الأصلية التي وكل الملك أمرها إليه، وعلى العكس من ذلك بدأ الفرعون الآن يصدر أوامر على يد مدير بيته العظيم؛ فقد حدث منذ عهد «سنموت» أن أصبح «مدير البيت العظيم» يُميز بلقب «الفم الأعلى»؛ وبذلك أصبح من المعلوم أن إرادة الملك وأوامره كانت تُنشر بين الناس على يد هذه الشخصية، وأنه كذلك كان المسئول عن تنفيذ هذه الأوامر. وقد أوضح لنا ذلك «سنموت» في كلمات له عندما يقول:[٢٢٢] «لقد رفعني الملك أمام الأرضين، ونصبني «الفم الأعلى» لقصره لأجل أن أحكم البلاد كلها.» وكذلك نجد «حور محب» يصف قوته ونفوذه في أواخر الأسرة الثامنة عشرة بما يقرب من هذه الكلمات نفسها بوصفه مدير البيت العظيم[٢٢٣] حيث يقول: «لقد نصبني الفرعون للفم الأعلى للبلاد لأجل أن أدير قوانينها بوصفي وصيًّا على عرش البلاد كلها (ربعت)»، وفي عهد «أمنحتب الثاني» كان «قن آمون»[٢٢٤] يحمل لقب «الفم الأعلى في البلاد»، كما كان يحمله كذلك «ثنني»[٢٢٥] في عهد «تحتمس الرابع»، وكذلك كان يحمل هذا اللقب في عهد «إخناتون» «خادم حجرته» الخاص، والفم الأعلى «دودو»[٢٢٦] الذي لم يكن يحمل لقب «مدير البيت العظيم» بعد، ولكن على ما يظهر كان هذا اللقب الأخير قد حلَّ محله.

وتظهر لنا الرسوم التي عُثر عليها في قبر «حور محب» مدير البيت العظيم للفرعون «توت عنخ آمون» كيف أصبح هذا الموظف «الفم الأعلى»؛[٢٢٧] إذ نشاهد في تلك الرسوم

---

[٢٢٢] راجع: Berlin Statue, Vs, line. 25, The American Journal of Semetic Languages and Literatures", XLIV, p. 52.

[٢٢٣] راجع: Turin Statue, line 5.

[٢٢٤] راجع: Davies, "The Tomb of Kenamun", Pl. VIII, line 2.

[٢٢٥] راجع: "Rec. Trav." XI, p. 157".

[٢٢٦] راجع: Davies, "El Amarna", VI, p. 7–14.

[٢٢٧] وسنشرح ذلك فيما بعد.

مبعوثًا آسيويًّا حضر إلى البلاط الفرعوني راجيًا مساعدة حربية، فيقابله «مدير البيت العظيم» هذا ويبحث الموضوع معه، ثم يضع الأخير الأمر أمام الفرعون للفصل فيه، ثم يعلن «المدير العظيم للبيت» قرار الفرعون إلى المبعوث، ونجد «دودو» في وصفه لوظيفته وهو «الفم الأعلى» للملك «إخناتون» يردد لنا بالألفاظ ما جاء في هذه الرسوم السالفة الذكر؛[٢٢٨] حيث يقول: «لقد أعلنت كلمات المبعوث الأجنبي في القصر الملكي؛ لأني كنت مع الملك كل يوم، وكنت أخرج من عنده ثانية بوصفي «رسول الفرعون» ومعي أوامر جلالته.» هذا هو ما نجده على الصور المرسومة، غير أن الحقيقة في عهد «حور محب» كانت تظهر بمظهر آخر مختلف تمامًا؛ فقد كان «توت عنخ آمون» وقتئذٍ لا يزال طفلًا لا يمكنه أن يصدر قرارًا في شيء ما من تلقاء نفسه، بل كان «حور محب» بطبيعة الحال هو الذي يعطي الجواب باسم الفرعون للمبعوث. وقد وصف هذه الحالة على تمثال له محفوظ الآن في «تورين»[٢٢٩] صُنع بعد توليته العرش. وقد وضع أمامنا صورة عن نشاطه قبل إعلان نفسه فرعونًا على البلاد، وكان يقصد بذلك إثبات حقه الشرعي في الاستيلاء على العرش؛ فيقول: «… وقد أُحضر إليه كل شيء، وقد حضر إليه المستشارون مطأطئي الرءوس عند باب القصر، وقد وفد أمراء البلاد الأجنبية من الجنوب والشمال بأيدٍ مرفوعة تضرعًا له كأنه إله يُعبد، وكان كل شيء يُعمل ويُنفذ على حسب أمره.»

ومن ذلك نعلم أنه في عهد الملك «توت عنخ آمون» الذي كان لا يزال قاصرًا، كانت سلطة الحكومة في يد «حور محب» المدير العظيم للبيت، والفم الأعلى للبلاد قاطبة، ومع ذلك فإن هناك ملوكًا آخرين قد سلكوا هذه الطريق تخلصًا من متاعب الحكم وهمومه؛ ففي عهد «إخناتون» كان صغار أمراء «سوريا» «وفلسطين» يرون أن «دودو» الفم الأعلى هو الذي يفصل في رسائلهم، فقد كتب إليه «أزيرو» الآموري يطلب إليه إرجاء سفره إلى البلاط، وكان «دودو» هذا قد أصدر إليه الأمر بالحضور.[٢٣٠] والواقع أنه في نهاية الأسرة الثامنة عشرة أصبح «مدير البيت العظيم» الممثل للفرعون، على أننا لا زلنا نخمن كيف أن «سنموت» وهو أول «مدير بيت عظيم» أصبح يُلقب «الفم الأعلى للملك».

[٢٢٨] راجع: Davies, Ibid. Pl. XIX.

[٢٢٩] راجع: Davies, “The Tomb of Harmhabi and Tutankhamon”, p. 8ff.

[٢٣٠] راجع: Knudtzon, “El Amarna Taflen”, Nos. 158, 164, 167.

ولقد كان نفوذ «سنموت» على الملكة «حتشبسوت» قد بلغ ذروته فعلًا في عهد وصايتها لا في عهد «تربعها» على العرش، وإذا قرن الإنسان بوجه خاص ألقاب «سنموت» قبل زمن تولي «حتشبسوت» الملك وبعده أي أواخر السنة السابعة بعد موت «تحتمس الثاني»[٢٣١] لعرف الحقائق التالية في تاريخ حياته الحكومية؛ إذ ظهر أن «سنموت» كان يحمل أولًا لقب «مدير بيت حتشبسوت أرملة تحتمس الثاني»، وكانت هي التي تقوم بأمر الوصاية على ولية العهد «نفرو رع» القاصرة، وهي التي كانت بزواجها المنتظر من «تحتمس الثالث» تجعله ملكًا شرعيًّا على البلاد.

وقد أصبح «سنموت» في الوقت نفسه مدير أملاك ولية العهد «نفرو رع»، كما أصبح يحمل لقب «مربيها». وقد كان يشغل بجانب هاتين الوظيفتين وظائف أخرى مختلفة في داخل إدارة معبد «آمون بالكرنك» كما سبق ذلك، ومن المحتمل أن «سنموت» قد وصل في إدارة معبد «آمون» إلى ما وصل إليه «أمنحتب بن حبو» فيما بعد في عهد «أمنحتب الثالث»، فقد كان الأخير بوصفه مدير البيت للأميرة «سات آمون» يشرف على أراضي معبد «آمون». والظاهر أنها كانت أرض المراعي، وبذلك كان يحمل لقب «مدير ثيران آمون»، ولقد كان من السهل على «سنموت» أن يستولي على إدارة أملاك «آمون»؛ لأنه كان يدير أملاك كلٍّ من «حتشبسوت» و«نفرو رع»، وكانتا تُعدان زوجتين للإله، وليس هناك حواجز كبيرة بين أملاك الإله وزوجه، غير أنه لم يحمل بعد لقب «مدير أملاك معبد آمون»؛ إذ الواقع أن هذا اللقب لم يكن معروفًا في عهده، ومن المحتمل أنه أُنشئ أولًا «لسنموت»، ولا بد أن يكون ذلك بعد تولية «حتشبسوت» العرش في نهاية السنة السابعة. وقد بقي «سنموت» أولًا محافظًا على وظيفته «مدير البيت العظيم لحتشبسوت» بعد توليها الملك، غير أن لقبه أصبح «المدير العظيم لبيت الملك» عامة بدلًا من التخصيص بلفظة «حتشبسوت»، ولكنا لم نجد هذا اللقب إلا على تمثال واحد، وعلى جعل وحسب؛ مما يدل على أن هذه الوظيفة قد استُغني عنها بسرعة. وكذلك فقد «سنموت» مركزه بوصفه مدير أملاك الأميرة «نفرو رع» بعد وفاتها، وعلى هذا عندما تولت «حتشبسوت» العرش أصبح لقب «زوجة الإله» خاليًا، ومن ثم تغير وضع أملاكها من أساسه، على أننا لا نعلم على وجه التحقيق من كان يدير ممتلكاتها، ومن المحتمل

[٢٣١] راجع: M. M. A. (Jan. 1937) p. 37.

أنه «سن من» أخو «سنموت»؛ إذ وجدنا في قبره لقب «مدير البيت ومربي زوج الإله»، غير أن البعض ينسبه إلى «نفرو رع»،[٢٣٢] وعلى أية حال فإن «سنموت» لم يحمل قط لقب مدير أملاك زوجة الإله «نفرو رع»، ولكنه قد بقي بطبيعة الحال مربيها ومن أجل ذلك كان يُسمَّى أيضًا مربي زوجة الإله «نفرو رع»، ونجد الآن على الآثار بعد تولية «حتشبسوت»[٢٣٣] العرش أنه قد ظهر لقب مدير أملاك معبد «آمون» وهو أهم لقب كان يحمله «سنموت» منذ ذلك الوقت. على أننا نجد من تتابع هذه الألقاب الحقيقية المدهشة وهي أن «سنموت» كان في عهد ترمل «حتشبسوت» وقبل أن تعتلي العرش بوصفه مديرًا لممتلكاتها يقبض على أعظم سلطة في البلاد، وبخاصة أن ولية العهد كانت تحت نفوذه، ولكنه بعد تولي «حتشبسوت» العرش مباشرة حُرم وظائفه ذات النفوذ الواسع، ويمكن الإنسان أن يفهم من سلوك «حتشبسوت» هذا معه أنها أرادت أن تتحرر من نفوذ «سنموت» وقبضه على زمامها. والواقع أنه لم يبقَ في يديه من الوظائف ذات النفوذ في البيت المالك إلا وظيفة مربي «نفرو رع». ولما ماتت هذه الأميرة في تاريخ يتراوح بين عامي ١١، ١٦ من حكم «حتشبسوت» قُضي على آخر ما في يديه من نفوذ وقوة، وأصبحت قوته ونفوذه ينحصران في وظيفته وهي مدير بيت «آمون»، ومن المحتمل كذلك أن سقوطه السياسي كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بموت الأميرة «نفرو رع»، ويدل قبره الثاني على أن هذا السقوط قد حدث قبل موت «حتشبسوت». ومما سبق يمكن الإنسان أن يفهم أن «حتشبسوت» بعد توليتها العرش كانت تفكر في القضاء على سلطان «سنموت»، وأنها كانت سائرة في طريقها إلى تنفيذ خطتها هذه، وأن آخر عقبة كانت تعترضها في طريقها هي الأميرة «نفرو رع»، وقد زالت بموتها، وبذلك تخلصت من ذلك الرجل الذي كان يقودها فيما مضى، وسير أمور البلاد بإرادته وما لديه من سلطان.

ولقد ظل النضال الصامت بين الملكة ومدير بيتها العظيم على السلطة بقية مدة الأسرة الثامنة عشرة. وفي الحق كان الملوك يسعون لوضع حد لتجمع السلطة في يد «مدير البيت العظيم» حتى إنهم كانوا ينصبون فيها رجالًا لا يرتكزون على نسب، كما أنهم كانوا يتحاشون أن يشغلوها برجال من طبقة الموظفين العريقين في النسب، ومن جهة أخرى كان شاغل هذه الوظيفة يعمل جهد الطاقة على ازدياد سلطانه، على أن

[٢٣٢] راجع: P. S. B. A., XXXV, Pl. 53.

[٢٣٣] هذا خلافًا لما قاله وتلك (راجع (M. M. A. (Feb 1928).

ذلك كان لا يعني أنه كان يسعى للتدخل في أمور الحكم وحسب، بل كان كذلك يزج بنفسه في إدارة الحكومة التي كان على رأسها الوزير، ويشترك معه في كل الأوامر المتصلة بالفرعون، ولقد كانت نهاية محاولة المدير العظيم للبيت لتقوية مركزه على حساب رجال الإدارة والملك سقوط هؤلاء الرجال الذين شغلوها، ولا زال أثر ذلك ماثلًا أمامنا حتى يومنا هذا في القضاء على ذكرياتهم، وتخريب قبورهم. وقد كان أول من أصابه هذا التدمير هو «سنموت» ثم خلفه «أمنحتب» و«قن آمون» و«ثنني» و«أمنمحات-سورر»، وكلهم أصابهم ما أصاب «سنموت»، وبعد سقوط «سورر» أُدخل تغيير في شغل هذه الوظيفة، والظاهر أن الوزير «رعموسي» قد توصل لدى الفرعون بما له من نفوذ أن يولي أخاه «أمنحتب» الذي كان فيما مضى موظفًا حربيًّا منصب المدير العظيم للبيت، وعلى ذلك أدخل تغييرًا في المبدأ الذي تُشغل به الوظيفة؛ لأن ملأها كان فيما مضى لا يتوقف على الجاه والكفاية في العمل.

ولكن «أمنحتب الثالث» اعتقد أنه بتولية «أمنحتب» هذا وهو أخو وزيره، ومن طبقة الموظفين؛ يمكنه أن يقضي على النضال الذي كان يقوم به «المدير العظيم للبيت» على الملك ورجال الحكومة من أجل السلطة، ولأجل أن ينتزع الفرعون من «المدير العظيم للبيت» كل نفوذ عدائي له — وهو ذلك النفوذ الذي كان محسًّا فعلًا في طبقة الموظفين الطيبيين، وكذلك في رجال الكهنة — شرع في إبعاد مقر «المدير العظيم للبيت» من «طيبة» فنقله إلى «منف»، وكان ذلك ضروريًّا؛ لأن وظيفة «المدير العظيم للبيت» كان يشغلها الآن من له صلة بطبقة الموظفين، وعلى ذلك كان من الواجب أن يقصي مدير البيت العظيم عن البلاط، وحينئذٍ تكون فرصة تأثيره على الملك ضئيلة، وأظهر علامة على إبعاد حامل هذه الوظيفة عن البلاط وتضاؤل نفوذها ما نشاهده من أن المديرين العظيمين للبيت «أمنحتب» و«إبي» اللذين كان مقرهما «منف» في عهد «أمنحتب الثالث» لم يحمل واحد منهما لقب «حامل المروحة على يمين الملك»، وهو لقب كان يتحلى به كل من كان يشغل هذه الوظيفة منذ عهد «أمنحتب الثاني»، وفي الوقت نفسه لم يُلقب واحد منهما «بالفم الأعلى». ومن هذا يرى الإنسان الجواب على السؤال: لماذا اتخذ المديران العظيمان للبيت مقرهما في «منف» فجاءة، ولُقب كل منهما «المدير العظيم للبيت في منف»؟ وقد كانت فكرة إبعاد الوظائف ذات النفوذ العظيم — وهي التي كانت في الوقت نفسه تحتاج إلى نضال — من عاصمة الملك إلى الأقاليم لتهدئة الحال، للخضد من شوكة نفوذ شاغلي هذه الوظائف؛ هي التي حملت الفرعون «أمنحتب الثالث» على توجيه عنايته

لإبعاد وظيفة رئيس كهنة كل الآلهة في الوجه القبلي والوجه البحري عن «طيبة» كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد وكل أمر الإشراف على هذه الوظيفة إلى الكاهن الأعظم للإله «بتاح» في «منف»؛ وذلك لأن بقاءها في «طيبة» كان مدعاة لطموح كهنة «آمون» إلى جمع السلطة في يدهم.

ويرى القارئ في البحث الذي بسطناه عن وظيفة المدير العظيم للبيت أن «أمنحتب الثالث» كان يناهض بكل ما يملك من قوة — كما فعل من سبقه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة — هو وطبقة الموظفين كلَّ رجل يريد الاستيلاء على السلطة، ولو كان من رجال بلاطه. وقد كان أول من حتمت عليه الأحوال أن يتبع سياسة مضادة لذلك هو ابنه «أمنحتب الرابع»؛ وذلك حينما أراد أن يتخذ له عضدًا من رجال خارج حكومته؛ لأن سياسته الدينية كانت تحتم عليه أن يناهض كهنة «آمون» ورجال حكومة بلاده.

ضباط الميدان في الإدارة الحربية

كانت توجد طائفة من وظائف الدولة يُعين فيها ضباط الميدان بعد انتهاء خدمتهم العسكرية، وهذه كانت مراكز معينة في الإدارة الحربية، وكان لا يشغلها إلا من له ماضٍ مجيد في ساحات الوغى. مثال ذلك «أمنمحاب» ويُسمَّى «مح» الذي حارب مع «تحتمس الثالث» في غزواته،[٢٣٤] وقد ترقى خلال حروب هذا الفرعون من جندي بسيط إلى أن تقلد لقب «فارس»،[٢٣٥] وعندما احتفل «أمنحتب الثاني» بعيد «أوبت» (الأقصر) بعد توليته العرش كان «أمنمحب» هذا يدير سكان قاربه، فطلبه الفرعون للمثول بين يديه في القصر وخاطبه قائلًا: «إني أعرفك منذ ذلك العهد الذي كنت لا أزال فيه صبيًّا في المهد، فقد كنت وقتئذٍ رفيق والدي، من أجل ذلك أكل إليك الآن نيابة الجيش، ويجب عليك أن تعد نفسك مسئولًا عن حرسي الخاص من الآن.» فهذا الضابط كما نرى قد وصل على حسب هذه النقوش بخدمته الطويلة إلى مرتبة نائب الجيش. وخلافًا «لأمنمحاب»

[٢٣٤] راجع: "Mem. Miss. Arch. Franç." V, p. 224 (Tomb No. 85); Urk. IV, p. 889ff; Stela. "Brit. Mus. Stelae", VII 23; Cone. Funeraire Paris Bibl. Nat. 1337; Stuhlfragm. Munchen 487; Sethe, A. Z., XLIV, p. 87.

[٢٣٥] راجع: Porter and Moss, "Bibliography", I, p. 182; Wegner, Mitt. Deutsch. Inst. Kairo", IV, Pls. 28a, 29a?.

هذا نجد ضباط ميدان آخرين ممن كانوا يشغلون وظيفة «فارس»، رُقي كل منهم إلى نائب للجيش فيما بعد؛ ففي عهد «تحتمس الثالث» نجد نائب الجيش المسمى «تحوتي مس»[٢٣٦] وفي عهد «أمنحتب الثاني» نجد «أمنمحاب» السابق الذكر، ثم «بح سوخر» في عهد «أمنحتب الثاني» أيضًا، وفي عهد «تحتمس الرابع» نجد «باسر»[٢٣٧] و«باتونر»[٢٣٨] وغيرهم.

ولكن ما يلفت النظر هو أن هؤلاء وبخاصة في الأمثلة القديمة لا يحملون لقب «كاتب»، وهو اللقب الذي كان يدل على أن صاحبه من عداد الموظفين، ومن لا يحمله لا يُعد حاصلًا على ثقافة الموظف الحكومي في ذلك الوقت، بل في كل زمن؛ لأن إتقان فن الكتابة كان المؤهل الوحيد لتولي وظائف الحكومة، ونشاهد ذلك بوجه خاص في حالتي «أمنمحب» و«بح-سوخر»؛ فقد كان كلاهما ضابطَ ميدانٍ وحسب، ولكن من المدهش أن «رعموسي» على الرغم من أنه كان يحمل لقب «فارس» فإنه مع ذلك يتمتع بلقب كاتب.

وأهم عمل يقوم به ممثل الجيش هو الإشراف على المؤن الخاصة بالجنود والحاميات، ولذلك نجده مصورًا على جدران قبور هؤلاء الرجال الذين يحملون هذا اللقب، وقد عُثر على صورهم بالتأكيد في مقبرة «أمنمحب»،[٢٣٩] وفي مقبرة «بح-سوخر»،[٢٤٠] ومن الجائز كذلك أنه مصور في مقبرة «تحوتي مسو»، فاستمع لما جاء في المتن الذي في مقبرة «أمنمحب» ومقبرة «بح سوخر»:[٢٤١] «إحضار الضباط والجنود إلى القصر لإطعامهم الخبز واللحم والنبيذ والفطير والخضر وكل شيء جميل مفرح … على يد نائب الجيش «فلان».» ومناظر هذه القبور التي تتشابه في الرسم وفي التركيب ترينا نائب الجيش واقفًا أمام موظف المؤن وأمامه كاتب وهو يستعرض المشاة والفرسان يقودهم ضباطهم. ويُلحظ أن الجنود لا يحملون سلاحًا ما بل حقيبة للطعام، ويُشاهد الفارس وهو يقود جواده من عربته. وفي إدارة المؤن نشاهد سلات الخبز وأباريق الجِعة معدة ليأخذ منها

---

[٢٣٦] راجع: Mem. Miss. Arch. Franç, V, p. 287.

[٢٣٧] راجع: Bapyrus (Munchen), A. Z., LXIII, p. 105.

[٢٣٨] راجع: A. Z., 63, p. 105.

[٢٣٩] راجع: Wreszinski, “Atlas”, I, Pl. 94.

[٢٤٠] راجع: Ibid, Pls. 280, 281.

[٢٤١] راجع: Urk. IV, p. 911; Mem. Miss. Arch. Franç., V, p. 289.

الجنود جرايتهم. على حين أنه يُشاهد الضباط في نفس الزمان والمكان وهو يأكلون من أنصبتهم الوفيرة. أما المكلف بملاحظة توزيع هذه المؤن فهو كاتب حسابات الخبز.[٢٤٢] ومن الجائز أن توزيع هذه المؤن كان يتم على ثلاث دفعات في الشهر؛ إذ وجدنا في مرسوم «حور محب» النص التالي: «لقد حضر إلى موظفي «قنبت» ... ثلاث دفعات في الشهر ... كأنه عيد، وكل إنسان يجلس أمام نصيبه من كل ما لذَّ وطاب ... ويمدحون كل شيء جميل ... وقائد الجيش وكل ضابط وكل رجل ...» ويُلاحظ هنا أن تهشيم المتن كان عائقًا للإدلاء بأي حكم فاصل.[٢٤٣]

على أن ذكر نائبين للجيش في مرسوم «حور محب» في هذا الصدد الذي وُجد متنه مهشمًا لا يمكننا استنباط شيء حاسم منه: «وعندما توجد سفن لتسليم الجزية لمخازن ولإدارة جلالته، وهي التي تحت إشراف نائب الجيش ... و... وحاملو الجزية للحريم. وحاملو القربان الذين يسلمون الجزية لنائبي الجيش ...» هذا الكلام يبحث بلا شك في مخازن المؤن،[٢٤٤] ولا نزاع في أن جرايات الخبز كانت تأتي من إدارة مخازن الغلال، ولهذا السبب نجد في مقبرة «أمنمحاب» أن مدير مخازن الغلال مصوَّر في منظر توزيع المؤن، ويصحبه التفسير التالي:[٢٤٥] «مدير مخازن جلالته يحسب الجرايات المخبوزة.» ومن ذلك نستنبط أنه كانت توجد إدارتان موزع عملهما بين نائب الجيش ومدير المخازن، وكلاهما ينحصر في عمل واحد، أما فيما يخص مواد المعيشة الأخرى مثل اللحم والخضر والسمك والجِعة ... إلخ، فيظهر بحسب ما جاء في منشور «حور محب» أن قرًى وضياعًا معينة كانت تورد جزيتها إلى مخازن نائب الجيش مباشرة لا إلى مدير مخازن الغلال. وهذا الوضع نفسه نلاحظه في تغذية رجال الشرطة؛ إذ كانت ترد إليهم المؤن مباشرة من القرى،[٢٤٦] ولا نعرف على وجه التحقيق الجهة التي تتبعها الإدارة التي تمد الجنود بالمواد الغفل مثل الجلود وكل المواد اللازمة لإصلاح السلاح، أتتبع إدارة نائب

[٢٤٢] راجع: Wreszinski, “Atlas”, Pl. 186.

[٢٤٣] راجع: Harmhebdekret B. 8 a–8.

[٢٤٤] راجع: Ibid. line 16.

[٢٤٥] راجع: Urk. IV, p. 912.

[٢٤٦] راجع: Davies, “El Amarna”, IV, Pl. XXIV.

الجيش هي الأخرى أم لا؟ على أنه كان هناك عقاب خاص بجمع الجلود خلسة ذُكر في منشور[٢٤٧] «حور محب».

وتدل النقوش على أنه كان يوجد في البلاد نائبان للجيش في آن واحد، ويثبت هذا ما ذكرناه في نص منشور «حور محب»، وكذلك ما جاء في نص قانون يرجع إلى عهد «تحتمس الرابع»،[٢٤٨] والظاهر أن أحدهما كان للوجه القبلي والآخر كان للوجه البحري. ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان هذا التقسيم هو الذي دعا إلى الاختلاف في تركيب صيغة اللقبين اللذين كان يحملهما كل من «أمنمحاب» وكان يُلقب نائب الجيش و«بح سوخر» الذي كان من المحتمل يُلقب «نائب الملك»[٢٤٩] أولًا، ويصف لنا «نب آمون» حامل العلم في السفينة المسماة «مريت آمون» كيف أنه ذات يوم بعد حملة مظفرة أرسل الفرعون «تحتمس الرابع» أمرًا لأمير البحر الخاص بـ «نب آمون» الذي كان قد وصل إلى شيخوخة موقرة في خدمة جلالته بمهارة؛ لأنه كان يقوم بعمل كل ما قد أمر به دون حدوث أية شكاية منه ... وفيه أمر جلالته بتعيينه رئيس شرطة «طيبة الغربية»، فقد أعلن هنا بصراحة تامة أن مركز رئيس شرطة «طيبة الغربية» قد شغله جندي قديم ظهر حتى الآن بأعماله العظيمة، ويؤكد لنا ذلك حياة «ددي» الذي سبقه في عهد كل من «تحتمس الثالث» «وأمنمحتب الأول»؛ إذ عُين رئيسًا للشرطة في «طيبة الغربية» مع أنه كان جنديًّا بسيطًا. ومن المدهش أن ترقيته تشبه كل الشبه ترقية «نب آمون» السابق الذكر؛ إذ في الواقع إنه رُفع من رتبة حامل العلم في حرس الملك الخاص إلى هذه المكانة العالية؛ وهذا مما يدلنا على أن رئيس الشرطة كان يُنتخب من الضباط الحاملين رتبة العلَم. وكانت وظيفة رئيس الشرطة في مرتبة «فارس»، وكان معظم الجنود الذين تحت إمرته من المصريين والنوبيين الذين كانوا في البلاد بمثابة جنود شرطة على الحدود وفي الجبانات، وأكبر دليل محس على ذلك شرطة «طيبة» وشرطة «تل العمارنة».[٢٥٠]

[٢٤٧] راجع: Horemhebdekret line 25, 28.

[٢٤٨] راجع: Vierey, “Mem. Miss. Arch. Franç.”, V, p. 8, 216.

[٢٤٩] راجع: Davies, “Tomb of Two Officials”, PP. 19–38, Pls. XIX–XXXVIII.

[٢٥٠] راجع: Davies, “El Amarna”, IV, p. 12–18.

والظاهر أنه كان يوجد في أمهات البلاد فِرَق كلٌّ منها تحت إشراف رئيس شرطة، وقد عرفنا من ذلك «منف»[٢٥١] و«قفط»[٢٥٢] وكانت الأخيرة من الأهمية بمكان؛ لأنها كانت الطريق لجلب الذهب من «وادي الحمامات»، ولذلك كان من الضروري وضع نقطة شرطة قوية هناك، وفي العهد الإهناسي نعلم أن أمير المقاطعة في هذه الجهة المسمى «وسر» كان يُلقب مديرًا للبلاد الأجنبية الغربية والشرقية.[٢٥٣] وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة كان رئيس شرطة «قفط» يعمل باتصال وثيق مع مدير مناجم الذهب التابعة «لقفط»، وقد ظهر هذا الموظف في الرسوم التي على مقبرة «من خبرو رع سنب» عند تسليم الذهب لرئيس الكهنة (اقرن كذلك تمثال) مدير مناجم الذهب المستخرج من «قفط» الخاصة «بآمون» والمسمى «ورسو» في عهد «أمنحتب الثاني».[٢٥٤]

وهذا الذهب كان يُورد ضريبة لمعبد «آمون»[٢٥٥] كانت تُجبى فعلًا في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك كانت الشرطة في «بروسير»[٢٥٦] وهي بلدة «أبوصير» الحالية، وبلدة «روزت-ن-با-رع» على الحدود الشرقية من الدلتا.[٢٥٧] ولقد كان الجزء الغربي من «طيبة» ذا أهمية عظمى؛ لما يشتمل عليه من المعابد والمعاهد التي كانت مكدسة بالذخائر، هذا فضلًا عن أنه كان يوجد في هذه الجهة عمال يشتغلون في الجبانات هناك بأعمال العمارة، ولهذا السبب كان رئيس شرطة غربي «طيبة» يحتل المكانة الأولى، على أننا من جهة أخرى لا يمكن أن نجزم بوجود رئيس شرطة في «طيبة الشرقية».[٢٥٨] وفي عهد الرعامسة حينما كانت حكومة مدينة «طيبة» يديرها عمدتان أو حاكمان أحدهما لطيبة الشرقية والآخر لطيبة الغربية، كان الأخير لا يزال يحتفظ بلقب رئيس شرطة الجبانة المقدسة العظيمة لملايين السنين لجلالة الملك في طيبة الغربية، وقد كان تحت

---

[٢٥١] راجع: Quibell, “Excavations at Sakkara”, (1907–8), Pl. LXXXI, (XIX, Dynasty).

[٢٥٢] راجع: Davies, “The Tomb of Menkheperra snob”, Pl. IX.

[٢٥٣] راجع: Cairo Mus. No. 1442.

[٢٥٤] راجع: J. E. A., II, p. 5.

[٢٥٥] راجع: Kees, “Kulturgeschichte”, p. 255.

[٢٥٦] راجع: A. Z., XLIII, p. 40.

[٢٥٧] راجع: Pap. Anastasi V, 25, 3.

[٢٥٨] راجع: Pap. Abbot I, line 9ff.

إمرته قُوَّاد فِرَق، كل منهم يُسمَّى كذلك «رئيس شرطة الجبانة»،[٢٥٩] وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة ظهر بجانب قواد الفرق هؤلاء الذين كانوا يُسمون رؤساء شرطة ضباطٌ آخرون يُلقب كل منهم «حامل علم الشرطة»[٢٦٠] وكان الوزير هو المشرف على رئيس الشرطة في «طيبة الغربية» في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك على عمدة «طيبة الغربية» الذي كان في يده السلطة على الشرطة في عهد الرعامسة بوصفه «مدير المدينة»، وقد كانت تُعرض عليه كل قضية،[٢٦١] وإذا اتفق أنه تغيب في مكان ما كان لزامًا أن يرسل خلفه شرطيًّا يحمل له الأخبار،[٢٦٢] وقد كانت العلامة المميزة لجنود الشرطة في «طيبة الغربية» علمًا مصورًا عليه غزالة،[٢٦٣] أما في «تل العمارنة» فكانت درعًا مستطيل الشكل رُسم عليه عدو يضربه الفرعون.[٢٦٤] (راجع كذلك موضوع الشرطة «مزاي» Gardiner Onomastica I, 73ff. & II, 269ff).

ويُشاهد رؤساء الشرطة ممثلين على جدران مقابرهم وهم يتسلمون التقارير التي كان يأتي بها رجال الطواف، إذ يُرى رئيس الشرطة واقفًا مع آخرين وهو يفتش الحي، ويميز مكانته عن الآخرين أنه يحمل سهمًا عظيمًا بدلًا من العصا التي تُحمل عادة،[٢٦٥] وبجانب هذا نراه يراقب — كما نشاهد في «إختاتون»[٢٦٦] — نقط الشرطة للحراسة التي وُضعت حول العاصمة، وكان يقبض على المجرم ويقدمه للمحاكمة،[٢٦٧] وكذلك كان يشترك في تجنيد المقترعين.[٢٦٨]

والظاهر أن تموين الشرطة بالمواد الغذائية كان يشبه في نظامه تموين الجيش؛ إذ كان لرجال الشرطة نائب يُسمَّى «نائب رجال الشرطة»، وقد ظهر ممثلًا على جدران

---

[٢٥٩] راجع: J. E. A., XIII, p. 30, Pl. XV, 15.

[٢٦٠] راجع: Davies,"Tomb of Two Officials", p. 29.

[٢٦١] راجع: Davies, "El Amarna", IV, Pls. XXIV, XXVI.

[٢٦٢] راجع: Pap. Abbot III, p. 22.

[٢٦٣] راجع: Urk. IV, p. 994.

[٢٦٤] راجع: Davies, Ibid. IV, Pl. XVII.

[٢٦٥] راجع: Davies, "Tomb of Two Officials", Pl. XXI.

[٢٦٦] راجع: Davies, El Amarna, IV, Pl. XXII.

[٢٦٧] راجع: Ibid. IV, Pl. XXVI.

[٢٦٨] راجع: Ibid, Pls. XXIV–XXV.

مقبرة «نب آمون» بوصفه مرءوسًا[٢٦٩] له، ونشاهد على مقبرة «معحو» في تل العمارنة صورة تدل على المواد الغذائية التي كان يقدمها الأهلون ضريبة إلى مخازن رئيس الشرطة مباشرة، وهو نفس النظام المتبع في تموين الجيش،[٢٧٠] وهذه السخرة لتغذية الجنود كانت جارية في البلاد منذ عهد الدولة القديمة.[٢٧١]

الجنود الفرسان

لقد ظهر في باكورة الأسرة الثامنة عشرة سلاح جديد وهو العربة التي تجرُّها الجياد، ويُعزى في العادة إدخال عربة القتال وكذلك الخيل في مصر إلى عهد الهكسوس.[٢٧٢] وقد جُلبت من بلاد سوريا التي أخذتها عن أقوام الشمال، وكانت قد استُعملت فعلًا في عهد الملوك الأُوَل من الأسرة الثامنة عشرة، وهم «كامس» و«أحمس»، و«تحتمس الأول»، وقد استعملها الملوك والأهلون على السواء لأغراض سلمية[٢٧٣] وحربية،[٢٧٤] وقد دخلت العربات والجياد أولًا بمثابة أسلاب حرب وجزية، ومن ثم كانت تحتفظ بأسمائها الأجنبية التي سُميت بها في بلادها الأصلية،[٢٧٥] غير أنه لم يمضِ طويل زمن حتى أُنشئت صناعة خاصة في البلاد المصرية تصنع العربات،[٢٧٦] ولكن المواد اللازمة لهذه الصناعات كانت

---

[٢٦٩] راجع: Ibid, Pl. XXVII.

[٢٧٠] راجع: Davies, “El Amarna”, IV, Pl. XXIV.

[٢٧١] راجع: A. Z., XLII, p. 9, lines 19–20.

[٢٧٢] راجع: “Alt Volker und Staaten”, p. 33. Kees, “Kulturgeschichte”, p. 235, Bissing, “Archiv fur Orient Frschung”, 11, p. 325.

[٢٧٣] راجع: Urk, IV, p. 3; Scarab Thothmes I, Newberry, “Scarabs”, Pl. XXVII, 4.

[٢٧٤] لوحة «كرنارفون» التي سبق ذكرها في الجزء الرابع (راجع أيضًا J. E. A., III, p. 106, line. 16.)؛ حيث تجد على ما يظهر ذكر عربات حرب معادية في عهد «كامس». وإذا كانت كلمة «سنن» تعني حرب العربات فإن ذلك يدل على أنه كانت قد تكونت فرقة خيالة في عهد «تحتمس الأول» (راجع Berlin Mus. No. 14994)، وكذلك يظهر أنه قد ذُكرت أعلام خيالة في عهد «حتشبسوت» (راجع Wresinski, “Atlas”, I, Pl. 94b).

[٢٧٥] راجع: Wegner, “Mitt Deutsch. Inst: Kairo”, IV, p. 80ff; Klebs, III, p. 73.

[٢٧٦] راجع: Wegner, ibid. p. 66.

تُجلب من الخارج،[٢٧٧] ولقد كان من الأمور الشاقة تربية الخيول في مصر، وكانت على ما يظهر تُربى في ضياع الفرعون وضياع معابد الآلهة الكبيرة وحسب، وقد بدأ الأفراد يملكون الخيل في خلال الأسرة الثامنة عشرة بازدياد مطرد؛ فقد عُثر على عربة في قبر «باحري» الذي عاش في عهد «تحتمس الأول»، ومع هذا فيُظن أنه في عهد «حتشبسوت» كان لا يزال للخيل قيمة عظيمة؛ إذ نرى «سنموت» قد دفن جواده على حسب القواعد المتبعة،[٢٧٨] وكان لا بد من تكوين إدارة خاصة للخيل وعربات القتال، وكان على رأس[٢٧٩] هذه الإدارة بضع قوات فرسان، ولكن من المحتمل أنهما كانا قائدين فقط. أحدهما للوجه القبلي والآخر للوجه البحري، وقد وصلت إلينا أسماء كثير من هؤلاء القواد من أول عهد «تحتمس الثالث» حتى عهد «حور محب» آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة.[٢٨٠] وقد كان المظنون من مدلول أول قائد فرسان أن هذه الوظيفة كانت مدنية محضة، ومع ذلك فإن تفسيرها في هذا الوقت بقائد فرسان كان يدل فعلا على معنًى حربي، وقد كان «مين نخت»[٢٨١] موظفًا إداريًّا مدنيًّا يحمل لقب مدير مخزن الغلال، وكان بجانب هذه الوظيفة الرئيسية يدير إدارة خيل الحكومة، ومن الجائز أنه كان قد بُدئ في عهد «تحتمس الثالث» لأول مرة في تكوين جنود لعربات القتال، وقد ظهرت فعلًا في عهده العربات في ميدان الوغى،[٢٨٢] ولكن سرعان ما ظهر كذلك في الوظائف قائد فرسان من جنود القتال الذين أُحيلوا على المعاش.

والواقع أن مثل هذا الموظف قد وصل إلى أعلى رتبة في صفوف الميدان، وهي رتبة «فارس» عند نهاية خدمته العسكرية، وبعد ذلك مُنح لقب «قائد فرسان» بعد إحالته على المعاش، فالوظيفة إذن كانت رتبة شرف تُمنح بعد الإحالة على المعاش، ولم يكن يُستخدم

---

[٢٧٧] خشب من السودان في عهد حتشبسوت (راجع Urk, IV, p. 457). وخشب من بلاد النهرين (راجع Davies, “Tomb of Kenamon”, Pl. XXII).

[٢٧٨] راجع: M. M. A. (Jan. 1937) p. 10. 15, fig. 17.

[٢٧٩] راجع: Davies, “El Amarna”, VI, Pls. XVII–XVIII حيث نقرأ لقب المشرف على الخيل M. M. A. (Jan. 1937) Y. 10, 15, fig. 17.

[٢٨٠] راجع: Helek, “Der Einfluss der Militarfuhrer in der 18 Agyptischen Dynastie”, p. 59–67.

[٢٨١] راجع: Urk. IV, p. 1176–90.

[٢٨٢] راجع: Pap. Anastasi III, 6, 7–8.

في قيادة عربات القتال هذه من الجنود إلا من كان من أهل اليسار وهم الذين يكون في مقدورهم أن يقتنوا لأنفسهم العربات ويصرفوا عن سعة على جيادها[٢٨٣] ويخصصون الخدم للعناية بها.[٢٨٤] وظهر في الوقت نفسه أنهم كانوا لا يقبلون في فرقة الفرسان إلا بوساطة أقرباء عريقين في المجد. ومن ثم ارتفعت مكانة هذا الصنف من الجنود على كل أنواع الجنود الآخرين المقاتلين، وعلى ذلك كانت وظيفة قائد الفرسان شرفًا لحاملها، ولكن الفرعون على العكس كان يشغل هذه الوظيفة بأفراد يريد أن يرفع من شأنهم؛ فقد رقى «تحتمس الرابع» كاتب المجندين «حور محب» إلى مرتبة «قائد فرسان» بعد أن كان قد نصبه في وظيفتين خطيرتين وهما: «مربي الأميرة «أمنمآبت»»، والمشرف على كل الكهنة، وذلك في لحظة كان الخلاف فيها على أشده بين الملك وحزب كهنة آمون. وإذا كان اسم قائد الفرسان «حقا-ر-نحح» مربي الأمير فإن ترقيته ترجع إلى مهمته الأخيرة. وواضح للعيان أن منح «يويا» صهر الفرعون «أمنحتب الثالث» لقب قائد فرسان كان مجرد ترقية فخرية وحسب؛ إذ كان يشغل على ما يظهر قبل ذلك وظيفة كاهن الإله «مين» في مدينة «أخميم»، ولكن من المحتمل أنه قد نال شرف هذا اللقب بفضل زوجته؛ لأن ابنتها كانت وصيفة استحوذ عليها ولي العهد وتزوج منها على غير المألوف، ورفعها إلى مرتبة ملكة شرعية للبلاد. وفي هذه اللحظة كان من الضروري أن يمنح الفرعون والد زوجته رتبة تفوق الرُّتَب التي كان يحملها حتى الآن، فخلع عليه رتبة «قائد الفرسان».

على أن تتبع سير ترقية «آي» إلى هذه الوظيفة في عهد «إخناتون» يظهر من الأمور الصعبة، ولكنه في الحقيقة كان في الأصل من ضباط القتال وهم الذين يُرقى منهم قواد الفرسان. ولا نزاع في أن علاقته بالبلاط جعلت مسألة رفعه إلى هذه المرتبة أمرًا ضروريًّا بل عاديًّا؛ وذلك لأنه تزوج مرضعة الملكة «نفرتيتي»، ولكنه على ما يظهر فضلًا عن ذلك كانت له علاقة أخرى تربطه بالبلاط لا نعرف كنهها على وجه التأكيد، وكل ما يُقال في هذا الصدد أنه حصل على لقب «والد الإله».

أما الذين كانوا يعملون تحت إمرة قائد الفرسان فهم رؤساء الإصطبلات. وكان لديهم عدد محدود من الجياد يرعونها، هذا إلى ما يتبعها من الرجال الذين كان من أهم واجباتهم العناية بهذه الحيوانات وإطعامها؛ إذ قد ذُكرت لنا في خطابات التلاميذ

[٢٨٣] راجع: Pap. Anastasi III, 6, 7–8.

[٢٨٤] كان الفرعون يعتني بخيله (Ibid. 6, 5).

التي ترجع إلى عهد الرعامسة هذه الواجبات عندما كانت تتناول الكلام على رؤساء الإصطبلات. فقد كان لزامًا أن تُساق الجياد إلى المراعي وتُرعى هناك، وقد كان عقاب كل من يهمل في أمر هذه الحيوانات أن يُقصى إلى حاميات الجنود المقيمة في البلاد الأجنبية.[٢٨٥] وكذلك كانت تُخصص على ما يظهر حقول يؤخذ محصولها علفًا لهذه الخيل،[٢٨٦] فقد صرح لنا رئيس الإصطبل «أمن-م-إوا» «... من إصطبل القصر العظيم «لرعمسيس»: وقد أُعطِيت حقلًا، مساحته ثلاثون أرورا، فزُرع شعيرًا لخيل الفرعون التي كانت تحت إدارتي.» وقد كان يُخصص لهذه الحقول فلاحون،[٢٨٧] وكان رؤساء الإصطبلات هم المكلفون بانتخاب ما يصلح منها لميدان القتال.[٢٨٨] أما مكانة رؤساء الإصطبلات بالنسبة لغيرهم من الموظفين فيمكن استنباطها من مرسوم «نوري» الذي وُضع في عهد «سيتي الأول»؛ فقد عُدَّت فيه الوظائف على حسب درجاتها من أعلى إلى أدني.[٢٨٩] فنجد تبعًا لذلك أن وظيفة رئيس الإصطبلات أقل من وظيفة «فارس» وأعلى من وظيفة «حامل العلم». على أننا مع ذلك نعرف مكانة بعض رؤساء الإصطبلات من الآثار، فقد كان رئيس جواد الفرعون «سو-منوت»[٢٩٠] قبل توليه هذا المنصب يشغل وظيفة رئيس الإصطبل، وقد ذُكر هذا اللقب كثيرًا على جدران مقبرته. على أنه قد صمت عن ذكر لقب حامل العلم؛ لأنه لقب صغير جدًّا، فلم يذكره إلا مرة واحدة.[٢٩١]

ومن المحتمل أن ذلك يظهر بوضوح أكثر في عهد كل من «تحتمس الثالث» وابنه «أمنحتب الثاني»؛ إذ عُثر على قبرين لموظف يُدعى «نب-ن-كمت» أحدهما في «طيبة»[٢٩٢] والثاني في «سد منت»،[٢٩٣] وإذا صح أن القبرين له فإنه كان يُلقب في قبره الذي في

---

[٢٨٥] راجع: Pap. SallierI, 7, 2–4.

[٢٨٦] راجع: Pap. Bologne 1094, 28–31. Pap. Sallier; I, 9, 2–9.

[٢٨٧] راجع: Pap. Bologne 1094, 3, 1–3.

[٢٨٨] راجع: Pap. Koller I, 1.

[٢٨٩] Griffith J. E. A. XIII, p. 183ff.

[٢٩٠] راجع: Tamb 92 (W. B. Theb. Grab 972 Abschrift 310, 89 Con. Fun. 123); A. S. I, p. 106-107.

[٢٩١] راجع: Con. Funeraire No. 124.

[٢٩٢] راجع: Urk. IV. p. 996-997.

[٢٩٣] راجع: Petrie, “Sedment”, II, Ph. LII.

«طيبة» بلقبي «حامل العلم ورئيس الإصطبل»، على حين أنه كان يُلقب في قبره «بسد منت» بلقبي «فارس» وحامل العلم في السفينة «خع-م-ماعت»، ومن ذلك نعلم أنه قد رُقي فيما بعد إلى رتبة فارس عندما نُقل إلى «إهناسيا المدينة» في مصر الوسطى. وكذلك نعلم أن حامل علم آخر قد رُقي إلى رئيس إصطبل، وهذا هو «باسر ابن حوي» نائب الملك في عهد «توت عنخ آمون»،[٢٩٤] وهذا الترقي من رئيس إصطبل إلى درجة فارس يجب أن نقبله؛ لأن كليهما ذُكر الواحد تلو الآخر في ترتيب ألقابه، وكذلك نشاهد في استعمال كلا اللقبين في مقبرة «أمنمسو».[٢٩٥] فإنه يُستعمل دائمًا لقب فارس ولا يُستعمل لقب رئيس الإصطبل إلا نادرًا جدًّا؛ مما يدل على أن اللقب الأخير صغير ولا يستحق الذكر. ومن ذلك يمكننا أن نستنبط تاريخ مجال حياة الضابط؛ فإنه كان ينخرط في ذلك الجيش جنديًّا بسيطًا، ثم يُرقى إلى حامل علم، ثم يُدرج إلى وظيفة رئيس إصطبل، ثم يرتفع إلى رتبة فارس، وأحيانًا يُرقى إلى رتبة قائد فرسان. وعلى ذلك نجد أن الترقي إلى وظيفة رئيس الإصطبل ليست خارجة عن سلك مجال ضباط الميدان كما هو الحال في رتبة قائد الفرسان.

على أننا نميز درجات في داخل حدود وظيفة رئيس الإصطبلات؛ فهناك الرئيس الأول لإصطبلات[٢٩٦] الفرعون، ومن المحتمل أنه كان مدير الإصطبل الملكي وهو المكان الذي يقيم فيه جنود الحرس الذين في ركاب الملك، ويوجد قسم خاص يُسمَّى إصطبل الغيار؛ حيث تُجهز الخيل للغيار وحيث يُمرن المقترعون.[٢٩٧] وفي هذا القسم نجد مثلًا أن «بق ن خنسو» الذي أصبح فيما بعد الكاهن الأعظم «لآمون» كان يشتغل من سنِّ الخامسة حتى السادسة عشرة وفي نهاية هذه المدة حصل على لقب «فارس»، وكذلك كاتب الورقة الهجائية المشهورة التي تُسمى الآن «ورقة أنستاسي الأولى» كان يُسمي نفسه: «الذي يعلم جياد الحاكم». وكذلك تدلنا هذه الورقة في الوقت نفسه أنه كان يلقن الجنود المقترعين المعلومات لتثقيفهم في حرفتهم، وهذا على النقيض التام من جنود المشاة. وهذا مفهوم بطبيعة الحال؛ لأن الجنود الفرسان كانوا ينتخبون من أحسن الأسر

[٢٩٤] راجع: Davies, “The Tomb of Huv”, Pl. XI.

[٢٩٥] راجع: Davies, “The Tomb of Menkheperrasonb”, PP. 27–34.

[٢٩٦] راجع: Davies, “The Tomb of Huy”, Pl. XI «ثر» بن «حوي» نائب الملك في بلاد «كوش».

[٢٩٧] راجع: Brugsch, “Thesaurus” p. 1242.

المصرية، ولذلك كانت تُوجه إليهم تلك العناية الممتازة. وكان السواد الأعظم من هذه الطبقة يرغبون في خرط أبنائهم في سلك الفرسان. ولهذا نجد كذلك أن المعلم الذي نقل الخطابات النموذجية التي وصلتنا في ورقة «أنستاسي الثالثة» كان يُلقب الرئيس سائق عربة جلالته، على أن وظيفة السائق الأول لعربة جلالة الملك التي ذكرناها الآن كانت ذات مرتبة عالية، ويُستدل على قيمتها من مدلولها؛ أي إنه كان يقود العربة الملكية، وبذلك كان يشغل وظيفة خطيرة جدًّا. وإذا فحصنا هذه الوظيفة من حيث ترتيب مكانتها في منشور «نوري» الذي كُتب في عهد «سيتي الأول» نجد أنها أكبر من وظيفة «رئيس الإصطبل»، ولكنها كانت في الوقت نفسه أقل من مرتبة «فارس». وكذلك نشاهد في نقوش «وادي الحمامات» التي من عهد «رعمسيس الرابع» أن مكانة السائق الأول تحتل مكانة قبل رئيس الإصطبل بين الموظفين. وفي نهاية الأسرة الثامنة عشرة نرى أن اثنين من سائقي عربة الفرعون قد رُقيا إلى رتبة «فارس»، وهما «رانفر»[٢٩٨] في عهد «إخناتون» و«بارعمسسو» في عهد «حور محب» (راجع A. S, 14. p. 30ff).

وكان الفرعون يكلف سائق عربته الأول بالقيام ببعثات خاصة لجلالته في الخارج، وفي هذه الحالة كان يُسمَّى «مبعوث الملك في كل أرض أجنبية»، فمثلًا قام رئيس الإصطبل «أمنمأبت» بتفتيش في بلاد كوش، أو نشاهد سائق عربة الملك الأول المسمى كذلك «أمنمأبت» يحمل لقب مبعوث الملك إلى سوريا من «سيلة» حتى «يافا»، ومن المحتمل أن «خاني» الذي أُرسل في عهد «أمنحتب الثالث» إلى سوريا ليهدئ الأحوال هناك كان يحمل هذا اللقب، وهو ما يعادل «وكيل «ربيصو»» في اللغة الآشورية.[٢٩٩] غير أننا لسنا على يقين من أن لقب «وكيل ربيصو» يعادل رئيس الإصطبلات. ومن المحتمل أنه كان يُرسل في تلك الفترة عدد من قواد الفرسان إلى الخارج لشراء الخيل من سوريا؛ وذلك لأنه قد ظهر أن تربية الخيل في مصر لم تعطِ نتاجًا أصيلًا.

أما الجنود الذين كانوا يحاربون بالعربات فهم السائقون وكان تحتهم في المرتبة المحارب الذي يقف في العربة على ما يظهر.[٣٠٠] ويتضح لنا ذلك من ذكر هذه الوظائف الحربية التي دُوِّنت بالترتيب على حسب درجاتها في ورقة «هود»،[٣٠١] وكما جاء ذلك

[٢٩٨] راجع: Peet City of Akhenaton I, Pl. 9, 3.

[٢٩٩] راجع: Rev. D’assyr. 19, 100; 31, 126.

[٣٠٠] راجع: Helk, Ibid p. 65.

[٣٠١] راجع: Mariette etudes egypt II, 1ff. Line 17–18.

أيضًا في موقعة «قادش»،[٣٠٢] وقد كان للسائقين نظام داخل إصطبلاتهم، غير أنه يُلاحظ هنا أن كل الخدم وأتباع عربات جنود القتال الذين ذُكروا في عهد الرعامسة لم يكونوا قد عُرفوا بعد في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

أما مركز معسكرات الفرسان في عهد الأسرة الثامنة عشرة فكان في عاصمتي البلاد وهما «طيبة» و«منف» حتى عهد «إخناتون». أما في «تل العمارنة» التي انتقل إليها «إخناتون» فكانت الثكنات مجهزة بساحات عظيمة للتمرين، وقد عُثر في «منف» على صورة تمثل تمرين حرب العربات. أما الذين نشاهدهم واقفين في هذه الصورة من جنود الفرسان فإنهم يتسلمون طعامًا مثل المشاة على يد ممثل الجيش؛ ولذلك نجده ممثلًا معهم في صور توزيع الأغذية كما نجدهم واقفين صفوفًا أمام ممثل الجيش ومعهم خيلهم (راجع J. E. A., 20. p. 135; Quibell Saqqara Excav. 8. Pl. 12).

والظاهر أن العلم الذي كانت تحمله فرقة الخيالة في «طيبة» كان يتألف من قضيب عليه تمثال جواد، وقد عُثر على جزء من منظر في الدير البحري عليه رسم علم مُثل عليه جوادان وجهًا لوجه، ومن الجائز أنه خاص بفرقة الخيالة، وهذا أقدم رسم لعلم من هذا النوع.

وقد كانت رتبة قائد الفرسان آخر ما يناله ضابط القتال من الرقي بعد ختام خدمته العسكرية، ويجب علينا أن نذكر هنا أن وظائف الكهانة كان يمكن أن يشغلها أفراد من الجنود القدماء، وإن لم يحدث ذلك كثيرًا على وجه التحقيق؛ فنشاهد مثلًا أن «معي» الذي خدم في عهد «تحتمس الثالث» ونال مكافأة من الذهب لأنه أظهر كثيرًا من ضروب الشجاعة؛ قد وضعه الفرعون في وظيفة فخرية وهي الأمير الوراثي ومدير كهنة المقاطعة العاشرة من الوجه القبلي (راجع Schafer amtl Ber. Kgl. Kunstsamml. (1911) Sp. 186. & Ibid Sp. 188, Auch. S. 4. Anm 9)). هذا إلى أن رئيس إصطبلات «أمنحتب» الذي كان يرافق جلالة الملك «تحتمس الرابع» في البلاد الأجنبية كلها من بلاد النوبة حتى بلاد النهرين؛ قد رُقي ترقية حقيقية إلى مرتبة دينية عظيمة، وهي رئيس كهنة الإله «أنوريس» في «طينة» (راجع A. Z, 73. p. 77). وسنرى في عهد «حور محب» التغيير العظيم الذي حدث في تقدير جندي القتال؛ مما أدى إلى شغل وظائف الكهنة بضباط من الجيش عن قصد، وقد أخبرنا بذلك «حور محب» نفسه على تمثاله الموجود

[٣٠٢] راجع: Selim Hassan Poême de Pentauer. Line 25.

الآن في «تورين»؛ إذ يقول: «وقد مُدت المعابد بكهنة مطهرين وكهنة مرتلين انتُخبوا من خيرة رجال الجيش» (راجع Davies Tomb of harmhabi. p. 40. Line 25).

(١-٣) وظائف القصر

لقد كان الفرعون «أمنحتب الثاني» عندما رقى الفارس «أمنحتب» إلى رتبة ممثل له في الجيش يرتكن على أن هذا الجندي كان خادمًا أمينًا في عهد والده «تحتمس الثالث»، وأنه نظرًا لما قام به من خدمات جليلة لا بد أن تُختم حياته في خدمته بالإنعام عليه بهذه المكانة الرفيعة،[٣٠٣] على أننا نلاحظ وجود نفس هذه الفكرة بوضوح أكثر في نقوش حامل العلم «نب آمون» في عهد «تحتمس الرابع» عندما يقتبس لنا هو خطابًا أرسله إليه الفرعون يبشره فيه بترقيته إلى وظيفة «رئيس شرطة طيبة الغربية».[٣٠٤] حقًّا يظهر كل هذا بوضوح إذا ألقينا نظرة على علاقات أمثال هؤلاء الرجال بالبلاط الفرعوني فقد كان «أمنحتب» زوج مرضعة الملك. ولأجل أن نعرف مدى تأثير قرابة الموظف بمرضعة الملك أو أحد أعضاء الأسرة المالكة في سير ترقيته سنذكر هنا أسماء بعض مرضعات الفراعنة ومقدار قرابتهم بالموظفين الذين نالوا المراتب العالية لاتصالهم بهؤلاء المرضعات.[٣٠٥] وهؤلاء النسوة كن في الواقع مرضعات لا مربيات وحسب كما يظن البعض،[٣٠٦] ولقد

---

[٣٠٣] راجع: Urk. LV, p. 897.

[٣٠٤] راجع: Davies, Two Officals; Pl. 26.

[٣٠٥] وهؤلاء المرضعات كان بعضهن معلومًا أزواجهن وأولادهن وبعضهن لم نعرفه حتى الآن، وأهم أولئك المرضعات:

- «رعي» مرضعة الملكة «أحمس نفرتاري» Urk. IV. p. 77–78.
- «تتي حمت» مرضعة الملكة «أحمس نفرتاري» J. E. A. XI, p. 14.
- «إن» المرضعة العظيمة لربة الأرضين «حتشبسوت» Urk. V, p. 241.
- «تنت إيونت» مرضعة «حتشبسوت» زوج حاكم «طيبة» «ساتب إحو» Stela, Cairo Mus. 34080.
- «نفراعح» مرضعة «حتشبسوت» وزوجها كاتب الفرعون «بويا» وابنها «بوم وع» الكاهن الثاني للإله آمون (راجع Davies, “The Tomb of Puyemre”, Pl. XXIX).
- «إبو» مرضعة تحتمس الثالث (؟) وابنتها الزوجة الملكية العظمى «سات أعح» Urk. IV, p. 604.

كان المنتظر إذن في مثل هذه الحالة أن زوجات أكبر الموظفين رتبة كن اللائي يقمن بأمر الرضاعة، بيد أن ظاهر الأمر لا يدل على ذلك.

وقد كان غير أولئك المرضعات مربون للأمراء والأميرات؛ ولذلك نشاهد هؤلاء النسوة في صور نقوش «تل العمارنة» وهن يحملن الرضيعات الملكية على أذرعتهنَّ ويلحظنهنَّ بكل عناية عندما يصبحن أطفالًا يمشين.[٣٠٧]

أما ابن المرضعة الذي يُرَبَّى مع الملك فكان يحمل لقب «أخ الملك من الرضاعة» أو «أخت الملك من الرضاعة» إذا كانت أنثى؛ فمثلًا كان «قن آمون»[٣٠٨] مدير البيت العظيم

- «تا إيونت» مرضعة تحتمس الثالث (؟) زوجها أمنمحات وابنها كاهن آمون الأول «منخبرو رع سنب» (راجع Davies, "The Tomb of Menkheperresonb", p. 1–26).
- «بكت» المرضعة العظيمة لرب الأرضين زوجة «أمنمحاب» نائب جيوش الفرعون وابنه رئيس أتباع جلالته «إمو» Urk. IV, p. 889–925.
- «معنزت» مرضعة «أمنحتب الثاني» زوجها «بحوسخر» وزوجها رئيس الرماة لرب الأرضين ووكيل الفرعون، وابنها «أمنمسو» (راجع "Mem. Miss. Arch. Franç.", V, p. 224ff).
- «أمنمأبت» مرضعة «أمنحتب الثاني» ووالدة «قن آمون» المدير العظيم للبيت الملكي (راجع,Davies "The Tomb of Kenamon", Pl. IX, p. 19).
- «حناي» مرضعة «أمنحتب الثاني» (؟) وزوجها الكاهن الأول للإله «مين» المسمى «رع نب بحتي»، وابنها الكاهن الأول لآمون المسمى «مري» (راجع Lefebvre, "Grands Petres", p. 236-7).
- «مريت» مرضعة الملكة «تي عا» وزوجها حامل الخاتم المسمى «مين»، وابنها حامل الخاتم «سبك حتب» = (راجع A. Z, 63. p. 114).
- «سن أم أعح»، و«سنفرت»، و«سن تاتي»، مرضعات الفرعون «أمنحتب الثاني»، وكلهن كن زوجات لحاكم المدينة الجنوبية «سن نفر» وابنة مغنية آمون «موت توي» (راجع ."Rec. Trav." XX. p. 211–223; XXI, p. 127–133; XXII, p. 83, 97).
- «نب كابني» مرضعة «سات آمون» بنت «أمنحتب الثالث»، وابنها «حفا نفر» كاتب معبد «أوزير» (راجع Stela, Mariette, "Abydos" II, Pl. 49, Cairo. No. 34117).
- «تي» مرضعة «نفرتيتي»، وزوجها رئيس الخيل المسمى «آي» (راجع "Davies, "El Amarna VI, p. 16ff).

[٣٠٦] راجع: Sottas Monuments Piot XXV p. 412ff. & Maspero P. S. B. A. 14, 311.

[٣٠٧] راجع: Davies, "El Amarna", II, Pls. II–IV, p. 7, 17, 26; Ibid, V, p. 5, 7 etc.

[٣٠٨] راجع: Sottas, "Monuments Piot", XXV, p. 411ff.

الذي ترعرع مع «أمنحتب الثاني» يحمل هذا اللقب، وكذلك تربت بنت «سن نفر»[٣٠٩] عمدة طيبة مع الملك «أمنحتب الثاني»؛ ولذلك كانت تُعرف بأخته من الرضاعة، كما نجد جدَّة الكاهن الأعظم لمعبد الكرنك «من خبر رع-سنب» المسماة «نبت-تا»[٣١٠] كانت تحمل هذا اللقب، ومن ذلك نستنبط أنها كانت بنت مرضعة ملك لم يُعرف اسمه بعد. وعلى العموم نجد أن زوجات ضباط وموظفين متوسطي الحال يؤخذن مرضعات لأطفال البيت المالك، فإذا تولى الأخ من الرضاعة عرش الملك فإن المرضعة وكل أسرتها في الغالب ينالهم شرف كبير؛ فقد كان الفرعون يمنح مرضعته قبرًا كانت تظهر فيه صورتها بارزة عن كل الصور الأخرى وهي تعطي ثديها للملك الرضيع.[٣١١] وكذلك نشاهد في مناظر «تل العمارنة» المرضعة ممثلة بصورة بارزة؛ إذ نشاهد «تي» زوج «آي» ومرضعة الملكة «نفرتيتي» أنها المرأة الوحيدة التي مُنحت مع زوجها ذهبًا عندما كان الفرعون يوزعه في احتفال خاص علنًا على رجال بلاطه.[٣١٢] ولقد كان أبناء المرضعات كذلك يخلدون ذلك الشرف العظيم الذي نالته أسرتهم بتصوير والدتهم مع الفرعون وهو يرضع من ثديها على جدران مقابرهم.[٣١٣]

وبمقدار ما لمرضعة الملك من نفوذ على ابنها من الرضاعة كان يظهر تأثير نفوذها هذا في رفع شأن أفراد أسرتها الآخرين، وقد كان من أثر هذه العلاقة أن رأينا فعلًا كلًّا من الضابط «أمنمحاب» و«بح سوخر» قد وصل عن طريق زوجته إلى رتبة نائب الجيش، كذلك كانت الحال مع «تي» مرضعة الملكة «نفرتيتي»؛ فإنها كانت السبب في ترقية زوجها من رتبة «فارس» إلى مرتبة «قائد فرسان»، يُضاف إلى ذلك أن الفرعون «أمنحتب الثاني» لم يجد من عظماء دولته من يقلده وظيفة المدير العظيم للبيت الملكي، وهي من أهم وظائف الدولة، كما شاهدنا من قبل غير أخيه من الرضاعة «قن آمون»، والواقع أن هذه الترقيات لم تكن على حسب مكانة الرجل ومقدرته، بل كانت كذلك لأن الرجل كان زوج مرضعة الملك أو الملكة وحسب. على أننا لا يمكننا أن نتتبع خطوات

---

[٣٠٩] راجع: A. S., II, p. 199.

[٣١٠] راجع: Davies, "The Tomb of Menkheperrasonb", p. 15, Pl. XIV.

[٣١١] راجع: L. D. Text III, p. 261; "Mem. Miss. Arch. Franç.", V, p. 227.

[٣١٢] راجع: Davies, "El Amarna", VI, Pl. XXIX.

[٣١٣] راجع: Davies, "The Tomb of Kenamon", Pl. IX.

كل الذين ترقوا عن طريق مرضعات الملوك الآخرين، ولكنا لا نكون قد حدنا عن جادة الصواب إذا قررنا أن رُقي «مري» أو «من خبر رع-سنب» إلى مرتبة الكاهن الأعظم للإله «آمون» بالكرنك أو ترقية «بو-م-رع» إلى وظيفة كاهن ثانٍ كان نتيجة لهذه العلاقة سواء أكانت المرضعة الملكية في هذه الحالات زوجته أم والدته. ومما تجمل الإشارة إليه هنا أن الفرعون «تحتمس الثالث» قد تزوج من بنت مرضعة ملك، والظاهر أنها كانت أخته من الرضاعة، وقد رفعها هذا الفرعون إلى مكان أعلى؛ إذ جعلها زوجته الشرعية، وهي الملكة «سات أعح» بنت المرضعة الملكية العظيمة المسماة «إبو».

وكانت ترقية «نب آمون» حامل العلم في السفينة المسماة «مريت آمون» إلى وظيفة رئيس شرطة «طيبة» الغربية؛ لحسن إدارته ومهارته، ولكن من غير شك كانت علاقته بالبلاط في هذا الوقت لها ضلع عظيم في الترقية. فقد كانت ابنته وصيفة في قصر الفرعون. والواقع أن العذارى اللائي كن يحملن لقب وصيفة الملك لم يكنَّ من بيوتات عريقة في الحسب والنسب؛ فقد كانت الفتاة «سجرت-توي» بنت حامل العلم «نب آمون»،[٣١٤] والعذراء «حنت تانب» وهي بنت حارس باب المخزن المسمى «أمنحتب وسر»،[٣١٥] وكذلك الفتاة «أمنمحنت» وأخوات لها كنَّ بنات قياس الأراضي «منا»،[٣١٦] وكانت العذراء «حنت نفر»[٣١٧] بنت كاتب مخبز. ومن ثم يمكننا أن نستخلص أن أولئك الفتيات لم يكنَّ ينتمين إلى طبقة عريقة يمكن بها الرجوع لمعرفة مركزهم الأُسري، ولا غرابة في ذلك؛ فإنهن كنَّ يُنتخبن لجمالهن لا لأصلهن وأُسَرهن، وقد مُثلت صور طائفة من هؤلاء الغانيات على جدران حجرات برج مدينة «هابو» يسمرن ويلهين مع الفرعون «رعمسيس الثالث»،[٣١٨] وأولاء الوصيفات كنَّ يقمن بدور هام؛ إذ كن بمثابة رفيقات الأميرات يلهين ويلعبن معهنَّ.

كذلك كان الأمراء يتخذون لأنفسهم إخوانًا ورفاقًا من سنهم من بين أولاد الموظفين الذين لم يكونوا من أسر عريقة في المجد.

---

[٣١٤] راجع: Davies, “Tomb of Two Officials”, Pl. XXI.

[٣١٥] راجع: Berlin Mus. No. 2298 (قبل عهد إخناتون).

[٣١٦] راجع: Wreszinski, “Atlas”, I. Pl. 25 (من عهد تحتمس الرابع).

[٣١٧] راجع: Porter & Moss I, p. 87–89. Tomb No. 56.

[٣١٨] راجع: Holscher, “Hohes Tor”, Abb. 7-8, 40–42. “Work in West Thebes”, (1931-32), p. 96-97, fig. 50-51.

وقد كانت العذارى الوصيفات يتساوين مع الأميرات في لباس الرأس، كما كنَّ ينشأن تنشئة الأميرات من حيث التربية والتعليم؛[٣١٩] ولذلك كان يرغب في التزوج منهن أكبر موظفي الدولة، وكهنة من أعلى رجال الدين مكانة. وإذا اتفق أن تزوج أحد الموظفين من إحدى الوصيفات قبل أن يبلغ مرتبة عظيمة في سلك وظائف الحكومة فإن هذا الزواج كان بمثابة ضمان لرقيه وحسن طالعه حتى أعلى درجة؛ وذلك لأن الفرعون كان يعمل في أناة وتؤدة وروية عندما يريد ملء أهم وظائف الدولة سياسية كانت أو دينية، فكان لا ينتخب عماله إلا من الرجال الذين تربطهم بالبلاط روابط أسرية من هذا النوع؛ ولهذا السبب نجد بعض وصيفات القصر قد أصبحن زوجات الوزراء في الدولة؛ فنجد مثلًا أن وزير «تحتمس الثالث» «رخ مي رع» الذائع الصيت قد تزوج من الوصيفة «مريت»، وأن الوزير «أمنمآبت» تزوج «ورت ماعتف» في عهد «أمنحتب الثاني»،[٣٢٠] وكذلك كنَّ يتزوجن من موظفين حربيين[٣٢١] وكهنة من الطبقة الثانية[٣٢٢] ومن كهنة آخرين في «طيبة»،[٣٢٣] ومن حكام ضياع[٣٢٤] معبد آمون أو البلاط[٣٢٥] الفرعوني أو موظفين في البلاط،[٣٢٦] وكذلك من مدير مصلحة «عين حور»،[٣٢٧] وإذا اتفق أن تُوفيت إحدى الوصيفات قبل أن تتزوج دُفنت في مقابر «وادي الملوك».[٣٢٨]

---

[٣١٩] راجع: Davies, "Tomb of Neb-amun", Pl. XXII; Wreszinski, "Atlas" I. Pl. XXV; Berlin No. 2298; Holscher, ibid, Abb, 8, Prinzessin: Wreszinski; "Atlas", I, Pl.39.

[٣٢٠] من عهد «أمنحتب الثاني» Weil. p. 79.

[٣٢١] «ثنني» تزوج من «موت أري» (راجع Urk. IV, p. 1011).

[٣٢٢] «كام حري إب سن» زوجة «حنت تاوي» (راجع L. D. Text. III, p. 278). «أمنحتب ساسي» زوجة «رعي» (Urk. IV, p. 1215).

[٣٢٣] راجع: Cairo Mus. No. 34048; Urk. IV, p. 1119; Anthes, "Orientalistische Literaturezeitung (1931 sp. 523).

[٣٢٤] «وسرحات» تزوج من «حنوت نفرت» W. B. Theb. Grab. 546 Abschr. Sethe, 8, 24.

[٣٢٥] مدير ضياع زوج الإله «أحمس نفرتاري» المسمى «أحمس مسو حمعي» زوجة «نب» (راجع Weil, "Viziere", p. 79).

[٣٢٦] راجع: A. S. VI, p. 75.

[٣٢٧] راجع: Urk. IV; p. 547.

[٣٢٨] راجع: A. S., IV, p. 138ff.

على أن هذه الرابطة بالبيت المالك بوساطة وصيفات القصر كانت تجعل الفرعون يثق ثقة عظيمة في إسناد أعلى المناصب إلى أفراد من نسل هؤلاء الوصيفات، ولا غرابة إذن إذا وجدنا أن أبناء الوصيفات قد أصبحوا يتقلدون أعلى مناصب الدولة؛ فكان منهم الوزراء مثل الوزير «رخ مي رع» بن «بتا» والوزير «حبو سنب» ابن الوصيفة «أعح حتب» في عهد «حتشبسوت»، وكان منهم كهنة وموظفون في المعابد ووزراء مالية وموظفون في البلاط. ونجد في بعض الأحيان أن بنات الوصيفات يصبحن مرضعات لأقارب الفرعون. (وهذا يفسر التناقض القائل بأن المرضعات لم يُؤخذن من طبقات وضيعة، ولكن الواقع أننا نشاهد حالات خاصة كانت تُؤخذ فيها زوجات بعض كبار الموظفين ليصبحن مرضعات للملوك. وفي هذه الحالة تكون علاقة هؤلاء الموظفين العظام شفيعًا لذلك).

ومما سبق نرى أنه على مر الأجيال قد نشأت أسر ارتبطت بالفرعون وبقي هذا الارتباط دائمًا؛ وبذلك أصبح رجالها لهم فضل السبق في تولي الوظائف الحكومية المسئولة التي تحتاج إلى ثقة غالية.

وقد ظهرت في هذا الوقت بوادر تحول في الحالة الاجتماعية بين ضباط الميدان والموظفين الحربيين؛ وذلك أن حامل العلم «نب آمون» قد نزل عن أخته لتكون بين نساء القصر، وأن كاتب المجندين «ثنني» قد تزوج من إحدى وصيفات القصر بوصفه من كبار الموظفين في الدولة.

ومن ثم نلحظ أن ضابط الميدان كان يرغب عند انتهاء مدة خدمته العسكرية في أن يتقلد وظيفة إدارية رفيعة أو يصبح من رجال البلاط الفرعوني. على أن عدم قدرته على القيام بأعمال وظيفة رفيعة في الحكومة؛ لما كانت تتطلبه تلك الوظائف من تعليم خاص كان يغطي عليه تنصيبه في مركز رفيع له صلة مباشرة بالفرعون، ولكن كان تنصيب مثل هؤلاء الضباط في وظائف مدنية يجعلهم خطرًا عظيمًا على الفرعون نفسه بما لهم من وثيق الرابطة الأسرية به وبما آل إليهم من سلطان وقوة في وظائفهم. وقد شاهدنا فعلًا أن وظيفة «المدير العظيم للبيت الملكي» الضخمة ووظيفة «رئيس شرطة العاصمة» ووظيفة «تموين الجيش» ووظيفة قائد الفرسان التي كانت في معظم الأحيان يُنتخب رجالها من بين طبقة الموظفين أصبح يُنتخب رجالها من بين ضباط الجيش الذين أُحيلوا إلى المعاش، وقد بلغ من سلطانهم أنهم أصبحوا يمثلون إرادة الفرعون؛ ولذلك كانت أية محاولة للقضاء عليهم تؤدي حتمًا إلى انقلاب خطير في حكم البلاد.

والواقع أن موظفي الحكومة في عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى عهد «أمنحتب الثالث» قد قاموا بأداة الحكم خير قيام؛ بما كان لديهم من قدرة وبما اكتسبوه من ثقافة وتعليم خلال سنين طوال، وبتوارثهم الوظائف في أُسَرهم أبًا عن جد. وقد كانت هذه القدرة على إدارة الحكم هي التي جعلت طبقة الموظفين ينظرون إلى الضباط وغيرهم نظرة احتقار، وأنهم لن يكونوا بحالٍ ما قادرين على إدارة سكان الحكومة؛ ولذلك كانوا لا يعدون الموظفين الحربيين رجالًا عسكريين، بل مجرد موظفين؛ وأكبر دليل على ذلك ما ذكره «أمنحتب بن حبو» في ترجمته لنفسه؛ فقد كان نفوذه وفضله هما اللذان جلبا له وظيفته، أما كفايته الحربية فلم يكن لها دخل في ذلك.

ومن أجل هذا كان جل هَمٍّ ضابط الميدان أن يترك عمله الحربي وينخرط في زمرة طبقة الموظفين، فإذا وصل إلى وظيفة حكومية فإنه لا يلبث أن ينبذ صراحة ماضيه الحربي ويحس أنه قد تخلص من كابوسه؛ ولذلك نراه عندما يذكر المناصب التي تولاها كان يمر مر الكرام على وظائفه الحربية بمهارة وحذق، فلا يذكرها ما استطاع لذلك سبيلًا، ولا تعوزنا الأمثلة على ذلك؛ فقد صمت «قن آمون» و«سنموت» و«آي» (الذي أصبح ملكًا فيما بعد) عن ذكر ألقابهم الحربية. وعلى الرغم من المبالغة في علم طبقة الموظفين وثقافتهم، وعلى الرغم من الاعتقاد بأنهم هم الذين كان في مقدورهم القيام بأعباء الحكم في البلاد وحدهم، فإنه لا يفوتنا أن نفهم أن الجيش في مركزه الثانوي كان لا يزال قوة فعالة يُعتمد عليها في البلاد. على أنه عندما بُدئ في تحطيم هذه الأوهام، وتلك المعتقدات العالقة بأذهان القوم عن طبقة الموظفين وثقافتهم؛ أخذ الطريق ينفسح أمام رجال الجيش ليوغلوا في وظائف الدولة.

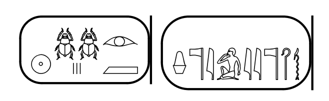
وهذه الحقيقة قد وقعت نتيجة للإصلاح الذي قام به «إخناتون»؛ وذلك أن هذا الفرعون عندما كان يسعى للقضاء على سلطان كهنة «آمون» ونفوذهم الذي كان يقف عقبة كأداء في طريق القيام بإصلاحه الديني المنشود؛ كان لا بد له كذلك من القضاء على طبقة الموظفين الذين أوجدوا ارتباكات داخلية ضده بانضمامهم إلى الكهنة. وهذا العداء من جانب الموظفين أجبر الفرعون على أن يقضي على هذه الطائفة مع ما لها من ماضٍ مجيد وتجارب عظيمة في إدارة الحكومة ليحلَّ محلها رجال جدد في أهم وظائف الدولة ليس في نفوسهم روح العداء والمعارضة الذي يملأ نفوس الموظفين السابقين، ولم يكن علم الموظف أو ثقافته بالشيء الذي يرفع من مكانته ويعلي من شأنه، بل كان التسليم بقبول تعاليم الملك دون تفكير أو مناقشة هي الطريق إلى المناصب العالية؛

ولذلك نجد أفرادًا لم ينالوا قسطًا من الثقافة يؤهلهم للقيام بوظائفهم قد احتلوا أهم مناصب الدولة، وأدهى من ذلك أنهم كانوا يتفاخرون بحرمانهم الثقافة، وكان الواحد منهم يعلن أنه قد نشأ من أبوين فقيرين.

ولم يمضِ طويل وقت حتى أخذ الفرعون ينتخب من طبقة الضباط موظفيه الجدد، وهؤلاء لم يكن يستحوذ على نفوسهم روح التفاخر بالمعرفة الذي كان يستولي على مشاعر طبقة الموظفين، على أنهم كانوا في الوقت نفسه قواد القوة كلها التي كانت تشد أزر الفرعون نفسه، وأعني بذلك قوة السلاح. وقد أصبحوا الآن محرَّرين من تَوَهُّمِ أن الفرد لا يصل إلى النفوذ في الحكومة إلا إذا كان مندمجًا في طبقة الموظفين، وكذلك شعروا بأنهم يمكنهم أن يكونوا السند الأكبر للأسرة المالكة وللحكومة معًا بما لديهم من القيادة الحربية، وفي الوقت نفسه كان من الواجب على الموظف الحربي ألا يطمح بعد إلى أن يكون موظفًا بالمعنى القديم بل يعمل في وظيفته بوصفه قائدًا حربيًّا بالمعنى الحقيقي.

وليس من المدهش إذن أن يصل الآن ضابط الميدان بالطريق المعتادة إلى وظيفة من الوظائف ذات النفوذ العظيم بجانب الفرعون وأن يأخذ في إدارتها بوصفه جنديًّا معروفًا؛ ومن ثم فقد اختفت تمامًا الفكرة القائلة بأنهم كانوا ضعفاء غير قادرين على القيام بهذه الوظائف وبخاصة أن المراكز الإدارية الحربية التي كان يشغلها ضباط الميدان أصبحت هامة وذات نفوذ عظيم؛ وبذلك أصبحوا يعيشون في ظل تلك الفكرة الجديدة لا كما كانت تحتمي طبقة الموظفين من قبل بما لهم من مجد عريق وثقافة ممتازة. هذا فضلًا عن أن وظيفة قائد الفرسان لم تصبح بعد وظيفة شرف أهلية، بل صارت وظيفة حربية حقيقية، وسرعان ما ظهر فعلًا قائد فرسان من هذا الطراز، وكان من طبقة الموظفين القدامى، ولكنه بتغير الآراء وصل إلى السلطة واعترف بالانقلاب الجديد؛ إذ أدرك أنه لا بد من إدخال القوة الحربية لتقوم عليها دعائم نظم الحكومة ولتكون سندًا ترتكن عليه الأسرة المالكة، وهذا الرجل هو «آي»، وقد قاد البلاد في ظل هذا النظام الجديد الذي كان قد اتخذه «إخناتون» وسيلة ضرورية للقيام بانقلابه الديني المنشود، حتى جعله نظامًا ثابتًا، وقد بقي في الانتشار والنمو بعد «آي»؛ إذ اعتنقه «حور محب»، ووطد أركانه «رعمسيس الأول» من بعده؛ حتى أصبح فعلًا النظام الجديد الذي سارت على نهجه حكومة عهد الرعامسة.

الملك آي





مما لا شك فيه أن «آي»[١] لم يكن من الأسر العريقة في المجد التي كان يرث فيها الأبناء الوظائف الرفيعة أبًا عن جد؛ ولا أدل على ذلك من أنه قد أغفل والديه، وصمت عن ذكرهما في النقوش التي تركها لنا صمتًا تامًّا في كل مناسبة من المناسبات التي كان يحسن فيها التمدح بهما كما جرت العادة عند عامة المصريين الذين ينتسبون إلى أُسَر عريقة الأصل. أما عن الرتب التي وصل إليها فقد ذكر لنا في نقش على صندوق صغير يوجد الآن بمتحف «برلين» أنه كان يحمل لقب «فارس»، ومن ثم نعلم أنه كان في أول حياته قد انخرط في سلك الجندية، وأنه كان من الضباط الذين حاربوا في ميدان القتال وترقى حتى وصل إلى رتبة فارس. ولا شك في أنه قد نال هذه الرتبة بمكانة زوجه «تي» التي كانت المرضعة العظيمة للملكة «نفرتيتي».

ومما لا نزاع فيه أنه كان يخجل من إثبات ألقابه الحربية على الآثار عندما انخرط في سلك الإدارة الحكومية؛ يدل على ذلك أنه لم يذكر لنا رتبه الحربية في مقبرته «بتل العمارنة»، هذا إلى أنه قد وصل بما لزوجه «تي» من النفوذ والرابطة القوية في البلاط إلى نيل لقب آخر وهو لقب «والد الإله»، والظاهر أن هذا اللقب كان من الأهمية بمكان في عين «آي»، حتى إنه ضمه إلى اسمه في طغرائه عندما اعتلى عرش الملك، غير أن علماء الآثار لا يزالون عاجزين عن تفسير معنى هذا اللقب أو معرفة كنه هذه الوظيفة ومنشئها. فيرى بورخارت أن هذا اللقب يعني «صهر الملك» أي والد زوجته؛ وذلك لأن صهر الملك «أمنحتب الثالث» المسمى «يويا» يحمل هذا اللقب. غير أنه إذا صح القول بأن «نفرتيتي» كانت بنت «يويا» و«تي» فإن ذلك لا ينطبق على «آي» و«تي»؛ لأن «تي» هذه لم تكن أم «نفرتيتي» إلا من الرضاعة. ولذلك عندما تناول الأستاذ «إدوارد مير» هذا الموضوع في تاريخه، وقال إن هذا اللقب في هذه الحالة يُنسب إلى الرضاعة لم يحل المشكلة؛ لأننا لم نصادف إلى الآن في النقوش المصرية أن زوج مرضعة الملك يحمل لقبًا كهذا. على أننا من جهة أخرى يمكننا أن نقول بتحفظ إن هذا اللقب يعني أن «آي» كان والد امرأة ثانية للفرعون، لم تكن من نساء البلاط؛ أي من الوصيفات، وعلى هذا الزعم يحتمل أن «آي» كان له بنت في القصر الملكي، غير أننا بكل أسف لا نعرف له

[١] راجع: Davies, “El Amarna”, VI, p. 16–24, 28–29, 34–35, Pls. XII–XXIV, XXVIb–XLIV; Berlin Mus. No. 17555; Davies, “The Tomb of Harmhabi”, p. 128, 133; J. E. A. XVIII, p. 52; L. D. III, Pl. 113; D. T, III, 222.

ابنة قط. على أن هذا اللقب «والد الإله» ليس في نظرنا من الألقاب الطنانة الجوفاء التي كانت تُمنح في كل عصور التاريخ المصري مثل لقب «حات عا» أي الأمير الوراثي أو «سمروعتي» أي السمير الوحيد، بل كانت له قيمة ذات وزن في ألقاب الدولة؛ ولا أدل على ذلك من أن «آي» عندما تولى العرش وأصبح ملكًا فعليًّا على البلاد وضع هذا اللقب في طغرائه الملكي، هكذا: والد الملك «آي».[٢]

أما عن نشاط «آي» ونفوذه في عهد «إخناتون» فإن ما لدينا من الآثار لا يشفي غليلًا؛ إذ قد صمتت صمتًا تامًّا، ولم يذكر هو نفسه أي شيء على وجه التحقيق، وقد أراد الأستاذ «برستد»[٣] أن يستخلص من اللوحة المنشورة في مجلة المتحف المصري وهي الخاصة بعهد «إخناتون» أن الاسم المهشم الذي لم يبقَ منه إلا بقايا إشارات ضئيلة غامضة هو اسم «آي»؛ وقد لُقب على هذه اللوحة بلقب «مدير المباني»، غير أن الدكتور «أحمد فخري»[٤] أكد لنا أن «آي» كان ابن رجل يُدعى رو … ولكن لا نعرف أن «آي» هذا هو نفس «آي» الذي أصبح فيما بعد ملكًا على البلاد. يُضاف إلى ذلك أن الملك «آي» لم يذكر لنا شيئًا عن أعمال في العمارة قبل أن يلي الملك، هذا ويظن البعض أن «خايا» الذي ذُكر في خطابات «تل العمارنة» هو «آي» الذي نحن بصدده الآن.[٥] غير أن هذا الرأي مشكوك فيه جدًّا؛ إذ لا توجد وثائق تدعمه.

---

[٢] وآخر بحث كُتب في موضوع والد الإله هو ما كتبه الأستاذ جاردنر في سفره المسمى Gardiner, "Ancient Egyptian Onomastica", I, p. 47–53.

وقد خرج بالخلاصة التالية:

> وعلى ذلك رأينا أن عبارة «إت نتر» (والد الإله) أو «إت» «نتر مري نتر» (والد الإله ومحبوب الإله) أو إت نتر مريف (والد الإله ومحبوبه)؛ تُطلق على فرد ملكي وغير ملكي على السواء، والعامل المشترك في كل هذه التراكيب أن كلمة نتر في كل منها تعني الملك العائش الذي يكون حامل اللقب يعد بمثابة والده، سواء أكان ذلك حقيقة، أو عن طريق الزواج (أي المصاهرة)، أو لما له من منزلة سامية أو سن متقدمة أو حكمة ممتازة أو ما شاكل ذلك. ثم يقول: أما عن اللقب «والد الإله» في المعابد فإنه يحتمل أنه كان يُمنح أيَّ كاهن متقدم في السن يمكن أن يُعد الفرعون ابنًا له … إلخ.

[٣] راجع: Breasted, A. R. II, §. 933.

[٤] راجع: A. S., XXXVII, p. 32.

[٥] راجع: Weber bei Knudtzon, p. 1030f.

ولما اختفى «إخناتون» من مسرح الحياة المصرية الصاخب الذي خلفه حوله مدة حكمه لم يظهر أمامنا «آي» للعيان، وقد كان من أكبر أنصار مذهبه، غير أن الباحث في تاريخ هذا العصر ليبصر يد «آي» وهي تلعب دورها في الخفاء إبان هذه الفترة المضطربة المتزاحمة بالأحداث الخطيرة.[٦]

والواقع أن «آي» كان هو الموظف الوحيد من كبار الموظفين أصحاب النفوذ الذي بقي في عمله من بين كل رجال «إخناتون» عندما تولى الفتى «توت عنخ آمون» عرش الملك. والظاهر مما لدينا من الآثار أن ما تبقى من رجال «إخناتون» الذين اشتركوا معه في نشر مذهبه الديني قد اختفوا جملة من مسرح السياسة على الأقل؛ إذ لم نسمع عن واحد منهم قط، فكأنه قُضي عليهم سياسيًّا واجتماعيًّا بموت سيدهم.

وإذا ذكرنا الدور العظيم الذي لعبه «آي» في عهد «توت عنخ آمون» بما كان يملك من نفوذ عظيم وجدنا بلا شك أنه بمساعدة جنوده الذين كان ضلعهم مع الحزب الذي يعاضده في الأسرة المالكة قد حقق له النصر. إذ الواقع أنه قد دبَّ دبيب الخلاف والشقاق بين أفراد الأسرة المالكة بعد موت «إخناتون»، فنجد من جهة أن «سمنخكارع» الذي كان شريك «إخناتون» على العرش يناصره «آي» في تثبيت أركان ملكه، ومن جهة أخرى نشاهد «نفرتيتي» لا تعترف بالملك للفتى «سمنخكارع».[٧]

ولسنا نعلم إذا كان أولو الأمر قد ظلوا على نشر الإصلاح الذي وضع أساسه «إخناتون» أم لا؛ إذ قد خلت جميع الوثائق التي وصلت إلينا من الإشارة إلى ذلك مطلقًا. اللهم إلا إشارات عابرة سنذكرها في حينها، وقد بدأ النضال بين الحزبين عندما أراد «سمنخكارع» أن يقضي على «نفرتيتي»، ويدل على ذلك ما نشاهده من محو اسم «نفرتيتي» وصورها من قصر «مرو آتون» في «إختاتون»؛ حيث وضع بدلًا منها اسم الملكة «مرت آتون» زوج «سمنخكارع». وقد كان رد «نفرتيتي» على فعلة «سمنخكارع» هذه أن أرسلت خطابها المشهور إلى ملك أخيتا «شوبيليوليوما» تطلب منه أن يرسل إليها أحد الأمراء من أولاده ليكون بجانبها وليتولى عرش البلاد المصرية.[٨]

---

[٦] راجع: Newberry, J. E. A., XIV, p. 3–9; Wolf, A. Z., LXV, p. 100.

[٧] راجع "Frankfort and Pendebury, "The City of Akhenaton.

[٨] راجع: Sturm, "Rev. Hittite et Asiatique", II, p. 161ff; Fiedrich, "Der Alt Orient", XXIV, p. 13ff.

وفي خلال هذه الفترة أصبح من الواضح للملك «سمنخكارع» ضرورة إيجاد سند جديد ترتكز على معونته الأسرة المالكة، والظاهر كما تدل التطورات التي أعقبت ذلك أن «آي» هو صاحب هذه الفكرة. والواقع أن «إخناتون» كان قد قضى على أساس الحكم القديم في البلاد بالقضاء على طبقة الموظفين معتمدًا في ذلك على القوة. ولم يعد يدور بخلد أحد من القائمين بالأمر الرجوع إلى نظام الحكم الذي كان أساسه طبقة الموظفين البيروقراطيين؛ إذ كان معنى ذلك العودة إلى التسليم التام من جانب الحكومة. هذا فضلًا عن أن أهمية القواد الحربيين قد أصبحت معروفة، وأنهم لا يرضون أن يعودوا بحكومة البلاد إلى سيرتها الأولى.

وعلى ذلك لم يقم «آي» بتغيير أي شيء في نظام الحكم الذي اتخذه «إخناتون» وسيلة إلى تنفيذ فكرته الدينية، بل على العكس أراد أن يجعله نظامًا قائمًا لحكومة البلاد. وعلى ذلك كان من الواجب عليه أن يجعل قواد الجيش عمادًا ترتكز عليه الأسرة المالكة بضمهم إلى جانبها، ومعنى ذلك أن النفوذ القديم الذي كان في يد طبقة الموظفين ورجال الدين لن تقوم له قائمة كرَّة أخرى، وفي الوقت نفسه تكون إدارة الحكومة والأسرة معًا في يد القائد الحربي. وقد كان هذا الموقف يتطلب شجاعة سياسية من جانب الفرعون، وبخاصة بعد أن قضى على السياسة الخارجية التي كانت حتى الآن سياسة سلبية لا تميل إلى الحرب، وكان من الضروري لتنفيذ هذه السياسة وإرسال حملة حربية وكان يترتب عليها إبعاد جنود الجيش عن داخل البلاد وهم الذين كانوا حتى الآن كانوا يحافظون فيها على الأمن والسكينة. وقد كان من الواجب أن تسود البلاد حالة سلام واطمئنان إذا أُريد الاستغناء عن هؤلاء الجنود لقمع كل معارضة والقضاء على كل ثورة داخلية؛ لذلك كان من المحتم إلغاء كل القوانين الحربية التي سنَّها «إخناتون» ليتمكن من القيام بثورته الدينية، وقد كان يتطلب ذلك قبل كل شيء إعادة عبادة «آمون» وإعادة مرتبات المعاشات إلى أربابها. وإرجاع الكهنة إلى مناصبهم. ولقد كان الغرض من القضاء على الجزء الأساسي من إصلاح «إخناتون» أن تجد الأسرة المالكة والحكومة في الجيش عضدًا جديدًا يمكن الاعتماد عليه،[٩] ولهذا السبب نجد أن عبادة «آمون» أُعيدت

[٩] راجع: Kees, “Gott Gelehrte Anzeig” (1928) No. 11 p. 529.

ثانية في عهد «سمنخكارع»،[١٠] وقد جاء على أثر ذلك اضطهاد اسم «إخناتون»،[١١] وقد أصبحت الحرب في الوقت نفسه جهارًا بين «آي» وبين حزب «نفرتيتي»، ومن الجائز أن المكاتبات التي دارت بينها وبين ملك «خيتا» «شوبيليوليوما» كانت قبل هذه الآونة. ويظهر أن كل أمل في مد يد المساعدة قد ضاع أدراج الرياح.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أنه مما يدعو إلى التساؤل والعجب أن «سمنخكارع» وزوجته «مريت آتون» قد اختفيا عن الأنظار فجاءة دون أن يتركا أي أثر ما فيما تبقى لدينا من الآثار حتى الآن. ومع ذلك لم يكن في مقدور «نفرتيتي» أن تنتصر وتغتصب مقاليد الحكم في يدها؛ والدليل على ذلك أن البرنامج الذي وُضع في عهد «سمنخكارع» قد ظل متبعًا مناهضًا للإصلاح الذي قام به «إخناتون» وأن واضعه وهو «آي» لم يبعد عن الحكم.

والظاهر أن قوة السلاح التي كانت تشد من أزر قائد الفرسان «آي» قد لعبت دورها هنا بضربة حاسمة. ولا نزاع في أنه قد حدثت في ذلك مأساة؛ لأن «آي» كان مضطرًّا أن يشهر السلاح في وجه المرأة التي كانت تربطه بها أوثق الروابط الشخصية والتي كان يدين لها بكل ما كسبه من رقي في مجال حياته. وعلى أثر ذلك وضع «آي» «توت عنخ آمون» على العرش بعد أن زوجه من ثالثة بنات «إخناتون» المسماة «عنخس-ن-با-آتون»، وقد بقي «آي» يستغل اسميهما لتنفيذ ما كان يرمي إليه من إصلاح. وبعد أن وضعت الحرب الدينية أوزارها قام بإعادة أملاك «آمون» إليه في السنة الأولى من حكم «توت عنخ آمون».[١٢]

وبعد ذلك غيَّر الفرعون اسمه من «توت عنخ آتون» إلى «توت عنخ آمون»، وكذلك غيَّرت الملكة اسمها من «عنخس-ن-با-آتون» إلى «عنخس-ن-آمون»، وأخيرًا عاد الملك مع مرشده إلى «طيبة» كما ذكرنا آنفًا.

ولعل أكبر دليل على أن الدافع إلى هذه الإجراءات هو اعتبارات سياسية؛ أن اسم «إخناتون» لم يُمحَ من جدران القصر الملكي، بل منعت الأسرة المالكة ارتكاب مثل هذا

[١٠] راجع: Gardiner, J. E. A., XIV, p. 10ff.

[١١] وتدل الآثار على أن اسم «إخناتون» قد بدأ يُمحى في حياة «نفرتيتي» (راجع: "City of Akhenaton", II, p. 64).

[١٢] راجع: Carter, "The Tomb of Tutankhamon", III, p. 175; Denkstein Berlin, No. 14197.

العمل من التخريب، وكذلك حمت ذكريات «سمنخكارع» الذي سارت البلاد على خطته السياسية التي رسمها أو بالأحرى التي رُسمت في أيامه على يد «آي»، فقد نُقلت جثته في السنة السادسة من عهد «توت عنخ آمون» من «إختاتون» إلى «طيبة»، وكذلك وُجدت في مقبرة «توت عنخ آمون» آثار من آثاره باسم «سمنخكارع»، وكذلك باسم زوجه «مريت آتون»، وحتى آثار من آثار «إخناتون».

وكل هذه لم تتناولها يد التدمير. وبعد ذلك دبر «آي» باسم «توت عنخ آمون» فكرة إبعاد رجال الجيش من مصر؛ وذلك بإعطاء الأوامر للجيش للقيام بتحقيق سياسة البلاد الخارجية، وكان غرضه من ذلك مزدوجًا؛ إذ أراد أولًا إعادة ما كان لمصر من مركز قوي في سوريا، وثانيًا — وهو الأهم — إفساح الطريق له لوضع أساس نظام الحكومة في داخل البلاد؛ ولذلك كان من الضروري أولًا أن يضع «آي» على رأس هذا الجيش رجلًا ممن عُرفوا بقوة الشكيمة، ويجمع إلى هذا إخلاصه للعرش والأسرة المالكة. وشاءت الظروف في هذه الآونة بعينها ألا يجد «آي» من بين أمراء البيت المالك أميرًا يضعه على رأس الجيش كما كانت العادة المتبعة في هذا العصر، ولكن المقادير ساقت له من جهة أخرى الرجل الذي يمكنه أن يقود الجيش بالمعنى الذي يقصده «آي»؛ إذ كان يريد رجلًا تجتمع فيه الصفات التي تؤهله لأن يقبض على إدارة دفة الحكم في البلاد مع الإخلاص والولاء للملك الفتى. ولقد عثر على ضالته المنشودة في موظف حربي يُسمَّى «حور محب»، وكان يشغل من قبل وظيفة كاتب المجندين كما ذكرنا، وعلى الرغم من أن الآثار لم تنطق صراحة بأن «آي» هو الذي نصب «حور محب» قائدًا أعلى للجيش فإن التطورات التي وقعت بعدُ تنبئ عن ذلك بجلاء. هذا إلى أن المصادر التي لدينا من قبل عهد «توت عنخ آمون»، وكذلك من عهد «إخناتون» لم تذكر لنا شيئًا مطلقًا عن هذا القائد. أما موضوع توحيده مع شخص يُدعى «حرى[١٣] ساكت حور محب» بن «منمسو» الذي ذُكر مع شخص آخر يُدعى على لوحة «حنوت»؛ فإنه غير صحيح؛ إذ لا يمكن أن يكون قد انتقل من ضابط ميدان إلى كاتب مجندين، وكذلك ليس من المحتمل ما قاله الأستاذ «برستد» وما ردَّده «إدوارد مير» أن قائد «إخناتون» «با آتن م حب» المحال على المعاش هو نفس قائدنا الأعلى «حور محب».

---

[١٣] راجع: Wijngarden Oudheidk Mededael Rijksmus Leiden 1926, 1–3. & Breasted, A. R. III, § 22; Ed. Meyer, "Gesch." II, I. p. 402.

وقد نصب «آي» بماله من بعد النظر «حور محب» في أعلى مرتبة في الجيش؛ إذ جعله القائد الأعلى لكل الجيوش، وبعد أن قضى على كل بذور طبقة الموظفين الذين كان في يدهم نفوذ عظيم في داخل البلاد عهد إلى «حور محب» بمنصب «المدير العظيم لبيت الفرعون» «توت عنخ آمون» كذلك، وجعل مقرَّه في «منف»، وكان قد اتخذها من قبل مقرًّا لمعسكرات جنوده.

يرى «فلوجر»[١٤] في رسالته عن «حور محب» و«عصر العمارنة» (١٩٣٦) أن حوادث هذا العصر كانت قد جرت على نمط خلاف ذلك؛ إذ يرى أن «آي» كان مناصرًا لفكرة ثورة من الثورات الاجتماعية، وهي التي يقول عنها إنها ثورة الطبقة المتوسطة، وكان «حور محب» يقف في هذه الثورة على النقيض منه؛ إذ كان يعاضد الطبقة الأرستقراطية ويدافع عن مبادئها؛ ولذلك قام بينهما النزاع على السلطة. غير أن الأستاذ «ولف» عند مناقشته هذا الموضوع[١٥] أشار إلى أنه لم تصلنا أية وثيقة من عهد الأسرة الثامنة عشرة تدل على أنه كانت توجد طبقة متوسطة أي من أصحاب الصناعات والحرف الذين يعملون لحسابهم ولا يعتمدون على أناس آخرين لكسب معاشهم، هذا إلى أنه كان لا يوجد في الوقت نفسه في هذه الآونة طبقة أرستقراطية. بل على العكس قد ظهرت مصر وقتئذٍ بأنها بلاد موظفين وحسب، وكان رجال الجيش وقتئذٍ يطمحون للاستيلاء على السلطة، هذا فضلًا عن أنه ليس لدينا أدلة على الدور الذي نُسب لكل من «آي» و«حور محب» فلسنا على تأكيد من أن «آي» كان قائد ثورة الطبقة الوسطى. حقًّا إنه نشأ من هذه الطبقة؛ لأنه صمت صمتًا تامًّا عن ذكر اسمَيْ والديه، بيد أن هذا هو نفس ما فعله «حور محب». والظاهر أن هذا الرأي يرجع إلى الاعتقاد بأن «آي» كان مناهضًا «لحور محب» من بداية الأمر، ولكن هذا الرأي لا أصل له، وليس لدينا من المبررات التاريخية ما يقيم لهذا الرأي وزنًا، وقد بينا فيما سبق أن وظيفة المدير العظيم للبيت الملكي في خلال الأسرة الثامنة عشرة كانت تزداد قوة على قوة بجانب الملك وبين الموظفين. ولم يكن إلا نهاية حكم «أمنحتب الثالث» حتى أخذ الفرعون يخفف من وطأة حامل هذه الوظيفة؛ وذلك لأن حاملها قبل ذلك الوقت كان يطغى في تصرفاته على طبقة الموظفين ونفوذهم؛ ولذلك لما تولى «أمنحتب الرابع» عرش الملك أخذ أمر سلطة هذا الموظف يشغل

[١٤] راجع: Pfluger, “Harembeb und die Amarnazeit”, (1939).

[١٥] راجع: Wolf, “Orientalistische Literaturzeitung”, (1937) Sp. 677–678.

الأذهان؛ لأنه بموت «أمنحتب الثالث» اختفت معه هذه الوظيفة بطبيعة الحال؛ لأنها كانت وظيفة شخصية لكل ملك كما أسلفنا من قبل. والواقع أنه كان من الواجب أن يعين «أمنحتب الرابع» مدير بيت عظيم لأملاكه كما جرى العرف، ومع ذلك فلم يكن في إمكانه أن يضع في هذه الوظيفة موظفًا كما فعل أبوه من قبل، ففي المدة التي مكثها في «طيبة» لا نعلم شيئًا عن هذا الموضوع، أما في عهد «إخناتون» فالظاهر أنه وجد لنفسه مخرجًا للاستغناء عن هذه الوظيفة؛ والدليل على ذلك أننا لم نجد في «إخناتون» من يحمل هذا اللقب بين كبار رجال الدولة، أما ما كان يقوم به المدير العظيم للبيت بوصفه الفم الأعلى للبلاد كلها من الأمور السياسية فقد منحها «إخناتون» خادم حجرته الخاص «دودو»، وهو رجل سوري المنبت؛ وبذلك نرى أن أحد رجال البلاط من أحقر أصل قد شغل وظيفة هامة لأنه كان الوحيد الذي يظهر أمام الملك، وكان له به اتصال وثيق؛ وبهذه الطريقة كذلك يظهر أنه منح وظيفة «مدير كهنة الوجه القبلي والوجه البحري» أحد وصفائه؛ ومن ثَمَّ لم يعد هناك موضوع للمعارضة بين الملك والفم الأعلى ولا بينهما وبين طبقة الموظفين.

ومنذ عهد «إخناتون» رُئي أنه لا يمكن الاعتماد على طبقة الموظفين؛ ولذلك كان لزامًا على الفرعون أن ينزع وظيفة «الفم الأعلى» من بين الوظائف ويضم عملها إليه ويقوي القائم بأعبائها بمنحه سلطة واسعة، ومن أجل ذلك ظهر «دودو»[١٦] وهو سوري بوصفه خادم الحجرة الملكية لا بوصفه موظفًا في يده إدارة الأمور السياسية «لإخناتون»، ولكن «آي» رأى مع ذلك جريًا على سياسته التي كانت قائمة على أساس القضاء على إصلاح «إخناتون» الديني؛ أن يعيد وظيفة «المدير العظيم للبيت»، ويمنح حاملها كل ما كان له من سلطان فيما مضى، وأراد أن يستفيد من حاملها في وضع أسس نظام الحكومة. وقد كان يظن أنه في استطاعته أن يجعل البلاد وحكومتها متماسكة بتوحيد القوة في يده، وقد حدا به ذلك إلى تنصيب «حور محب» القائد الأعلى للجيش في هذه الوظيفة؛ وبذلك وضع في يده كل السلطة التي كان يصبو إليها حاملها فيما مضى.[١٧]

[١٦] راجع: Davies, “El Amarna”, VI, p. 7–14; Knudtzon, “El Amarna” Taflen, 158, 164, 167, 169; Bisson, “Fouilles de Medomoud”, XIII, (1936) p. 24. Fig. 34 (?).

[١٧] وهذه الفكرة التي أُريد تسيير الحكومة بها وهي تركيز الحكومية في وظيفة واحدة مستقلة كان من المستطاع، بل من اليسير أن تكون خطرًا؛ إذ قد تُوضع في وقت معين في يد شخص موالٍ، ولكن ربما

وعلى الرغم من أن الإصلاح الديني لم يُصِبْ هدفه فإن الفكرة السياسية التي دفعته لم تتراخَ، بل بقيت في سيرها. فقد رأينا فعلًا أن إخماد الإصلاح الديني قد مهد السبيل — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — إلى تغيير نظم الحكم نهائيًّا؛ إذ انتقل الأمر من مجرد موظفين حكوميين مدنيين إلى نظام كان تسيير الأمور فيه في يد رجال الجيش، وكان كبارهم هم أصحاب الكلمة العليا والقول الفصل، ولكن فضل «آي» في تنفيذ هذا النظام يرجع إلى أنه كان ضابطًا قديمًا، وكان قد فهم مقدار القوة التي كانت في يد كل موظف من الموظفين المدنيين منذ عهد الإصلاح، وبخاصة تلك الوظائف التي وصل إليها حاملوها عن طريق الحسب والنسب أو عن طريق مركزه باعتباره قائد الفرسان أو نائبًا للجيش؛ ولذلك كان لا بد له من قوة السلاح لتشد أزره في تنفيذ غرضه. وقد جمع «حور محب» أعظم مقدار من القوة والسلطة في يده، فقد كان في قبضته أعظم قوة خارج الوظائف الإدارية (مدير البيت العظيم)، هذا بالإضافة إلى أنه كان يشغل أرقى رتبة في الجيش.

ومن الغريب أننا لا نعرف المركز الذي كان يشغله «آي» في عهد «توت عنخ آمون»، وتدل ظواهر الأمور على أنه كان قد قذف «بحور محب» إلى المكانة الأولى في الدولة عن قصد، وقنع هو في بادئ الأمر بمركز «أمين الفرعون» تعاضده في ذلك فرقة حامية فرسان العاصمة. هذا إلى أن الآثار التي تُنسب[١٨] إلى هذا العصر لا تذكر أي لقب جديد «لآي»، ومن المؤكد أنه قد عُثر في[١٩] «وادي الملوك» على صفائح من الذهب كتب عليها اسمه قبل تولي الملك، وكذلك وهو ملك، ومن بينها صفائح نُقش عليها ألقاب وزير دون أن يذكر اسمه، ويعزي بعضهم هذا اللقب إلى «آي».[٢٠]

كانت لا تلبث أن تنتهي إلى يد شخص آخر غير موالٍ فيستغلها استغلالًا كبيرًا على حسب أطماعه. فقد وجدنا أن «حور محب» تخطى بما لديه من معارضة الملك إلى طبقة الموظفين؛ إذ نشاهد أنه جعل نائبه وخلفه «بارعمسيس» وزيرًا له في الوقت نفسه، وهذا نفس ما حدث في نهاية عهد الرعامسة عندما عين «نائب» «بانحسي» ضابطه «حرحور» رئيس كهنة لمعبد «الكرنك»، وفي كلتا الحالتين قفز كل منهما إلى عرش الملك.

[١٨] راجع: "Rec. Trav.", III, p. 127; "Davies, Tomb of Harmhabi", p. 18.

[١٩] راجع: Davies, Ibid. p. 133.

[٢٠] راجع: Davies, Ibid; Newberry, J. E. A., XVIII, p. 52.

ولكن لا يوجد دليل قاطع على صحة هذا الزعم، وبخاصة إذا علمنا أنه ليس هناك أي أثر يدل على وزارة «آي» في عهد «توت عنخ آمون»، ولهذا لا يمكننا الأخذ بما جاء على ورقة الذهب هذه بمثابة برهان حاسم.

حور محب قبل توليته العرش

لقد وُضع في يد «حور محب» عندما أُعلن تنصيبه المدير العظيم للبيت والقائد الأعلى للجيش؛ قوةٌ وسلطان لم ينلهما رجل في الأسرة الثامنة عشرة خارج الأسرة الملكية؛ فقد أصبح ممثل الملك الفعلي في كل مهام الأمور، ولذلك كان «ممثل الفرعون في الأرضين»، وقد عُبر بتعبير خاص في اللغة المصرية القديمة عن مركز النيابة الذي يشغله «حور محب» في حكومة البلاد فلُقب «ربعت»، وهذا اللقب قد خوَّلته له وظيفة «المدير العظيم للبيت» التي صار يشغلها الآن.[٢١]

وهذا اللقب الذي وصل إليه «حور محب» للمرة الأولى كان له مدلول حقيقي في الأزمان السحيقة في القدم؛ إذ كان يعني «أمير القبيلة» (فم الناس)، والظاهر أن معناه كان محمولًا على نشاطه من الناحية القضائية بوجه خاص، وقد وجدنا أن الإله «خنسو» (إله القمر) وابن «آمون رع» كان يقوم بوظيفة القاضي بين الآلهة في الأسرة الثامنة عشرة،[٢٢] ولكننا نجد أن هذا اللقب أخذ يفقد مدلوله وأصبح مثل غيره من الألقاب القديمة قد هوى من مكانته العالية، وأصبح لقب شرف وحسب.

والواقع أن لقب «ربع حات عا» كان لقبًا يحتل المكانة الأولى بين ألقاب كل الموظفين؛ ولذلك كان يُوضع في مقدمة كل الألقاب التي يحملها أي موظف كبير. وقد وجدنا أن حامل لقب «ربعت» في ألقاب عيد «سد» (العيد الثلاثيني) كان يدل على معنى حقيقي بين الممثلين في هذا العيد،[٢٣] ولكن نشاهد أن هذا اللقب قد أُعيد استعماله ثانية في آخر الأسرة الثامنة عشرة ليدل على الوصي على العرش الذي يقوم بإدارة سكان البلاد في المدة

---

[٢١] راجع: J. E. A., Vol. X, p. 1.

[٢٢] راجع: Urk. IV, p. 1186.

[٢٣] راجع: Newberry, “Beni Hasan”, I, p. 35; Urk IV, p. 404; Davies, “The Tomb of Kenamon”, Pl. XXV, H.

التي يكون فيها الملك قاصرًا، ولم يشترط أن يكون حامل هذا اللقب من البيت المالك. والظاهر أن الكلمة «ربعت» في هذا المقام يرجع استعمالها هنا للدلالة على الوصي تذكارًا لمدلولها الأصلي «فم الناس»، (ومن المحتمل أن عبارة «ربعت» من قبل الصل والعقاب أي الملك التي نجدها أُعطيت الوزير منتوحتب خلال الأسرة الثانية عشرة؛ يمكن تفسيرها على هذا الوجه (راجع.Cairo 20539).)

ولكن السلطة التي أصبحت رسمية في يد «حور محب» بوصفه «ربعت» أي وصيًّا؛ هي نفس السلطة التي كانت في يد المدير العظيم للبيت فيما مضى. ومن ثم نرى أن وظيفة «المدير العظيم للبيت» قد تطوَّرت إلى لقب «ربعت» أي الوصي الجديد. ولا نزاع في أن هذا كان بمثابة إقرار رسمي للسلطة التي كان يهيمن بها «المدير العظيم للبيت» في البلاد؛ ويدل على ذلك بوضوح تام موازنة العبارتين اللتين فاه بهما كل من «سنموت» و«حور محب» عندما أراد كل منهما أن يصف لنا عِظَم مركزه، فاستمع لما يقوله «سنموت»:[٢٤] «لقد نصبني الملك «الفم الأعلى لقصره» لأجل أن أقضي في أمور البلاد كلها.» ثم استمع لما يقوله «حور محب»:[٢٥] «لقد نصبني الفرعون «الفم الأعلى على الأرض» لأوجه قوانين البلاد بوصفي «ربعت» للأرض كلها.»

على أن ظهور «حور محب» حاملًا لقب الكاتب الملكي والوصي وقائد الجيش في نقوش قبر أحد رجال الكهنة[٢٦] العظام في «منف» دليل على أن نفوذ وظيفة «المدير العظيم للبيت» قد ظهر في لقب «ربعت» أي الوصي. وعلى ذلك لم يمضِ طويل زمن حتى رأينا أن وظيفة «المدير العظيم للبيت» قد انحطت قيمتها؛ إذ انتقلت سلطتها إلى وظيفة «ربعت» (الوصي)، ومن ثم رجعت قيمة وظيفة «المدير العظيم للبيت» إلى سيرتها الأولى، فلم تعد سلطتها تتعدى «رئيس الضياع الملكية» وحسب.

على أنه مما يدعو إلى الدهشة أن «حور محب» لم يظهر اهتمامًا كبيرًا لاستعمال لقب «ربعت» مدة وصايته؛ إذ كان لا يُذكر بين ألقابه إلا نادرًا، وكذلك كانت الحال مع لقبه «المدير العظيم للبيت» فلم نصادفه إلا قليلًا. أما لقب «القائد الأعلى» فكان دائمًا يُذكر في طليعة ألقابه بكثرة؛ وربما يرجع السبب في ذلك إلى ارتباط الحقائق بعضها

---

[٢٤] راجع: Berlin Mus. Statue, Vs. line 25.

[٢٥] راجع: Turin Mus. Statue, line 6.

[٢٦] راجع: Louvre C 70.

ببعض؛ لأن مدة وصايته كانت محددة بسنوات معدودات، وأن «آي» كان يفكر في أنه عند بلوغ «توت عنخ آمون» سن الرشد ستنتهي مدة وصاية «حور محب»، ولا يبقى له بعد ذلك من الوظائف إلا لقب «المدير العظيم للبيت» ولقب «القائد الأعلى للجيوش»، وعلى ذلك لم يكن موت «توت عنخ آمون» المفاجئ نذيرًا «لحور محب» بانتهاء مدة وصايته وحسب، بل كان نذيرًا بضياع مركز «المدير العظيم للبيت» من يده أيضًا؛ وذلك لأن بقاءه في إدارة هذا المنصب كان مرتبطًا بحياة الفرعون، ولما تولى «آي» الحكم لم يكن في يد «حور محب» من السلطة إلا القيادة العليا للجيش.

وعندما ثار «حور محب» على «آي» فيما بعد وخلعه من عرش الملك، كان في مقدوره أن يأتي من الأسباب ما يبرر شرعيته لتولي عرش الملك؛ فقد استغل «حور محب» وقتئذٍ لتبرير استيلائه على العرش وظيفته بوصفه وصيًّا على عرش الملك في عهد «توت عنخ آمون»، وقد دوَّن لنا على تمثاله المحفوظ الآن «بتورين»، وهو الذي نحته بعد تولي الملك، تاريخ حياته الرسمي؛ فوصف لنا فيه الحقائق التي تحتم على الإنسان أن يرى فيها أنه كان صاحب حق في وراثة الملك بعد «توت عنخ آمون»، فقد كان يضيف إلى حسن إرادة الآلهة لتوليته العرش وظيفة «وصايته على العرش» التي ذكرها مرارًا وتكرارًا، ويبرر لقبه «الوصي على العرش» في البلاد كلها للعيان. والواقع أنه لم يحمل هذا اللقب قط في صورته هذه قبل توليه عرش الملك؛ إذ لم نعثر عليه أبدًا في الآثار التي تركها قبل تنصيبه ملكًا. وعلى العكس من ذلك نجد أنه تجاهل لقب «القيادة العامة للجيش»، وهو اللقب الذي كفل له النجاح لاعتلاء أريكة الملك. وقد كان تفسيره لتبرير موقفه هذا هو أنه كان الوصي على العرش للملك القاصر «توت عنخ آمون»، وعلى ذلك أصبح بطبيعة الحال بعد موته أوَّل مستحق العرش، وبخاصة أنه لم يبقَ في الأسرة المالكة ذَكَرٌ يرث الملك؛ إذ كان قد انقرض منها نسل الذكور جميعًا.

على أن «آي» من جهة أخرى حينما اعتلى أريكة الملك كان يعتمد في ذلك على لقبه «والد الإله»؛ ولذلك وضعه داخل طغرائه الملكي عندما تولى الملك. والواقع أنه من الصعب علينا معرفة كنه هذا اللقب ولكن الظاهر أن له علاقة أسرية بالبيت المالك وأن وضع «آي» لهذا اللقب في طغرائه يؤكد لنا أن له صلة بالأسرة الحاكمة.[٢٧]

---

[٢٧] شرح الأستاذ جاردنر تطور هذا اللقب وما يمكن أن يُقصد منه، سواء أكان ذلك في معناه الفعلي أو معناه المجازي كما أسلفنا (راجع: Gardiner, “Onomastica”, I, p. 47ff).

ولما كان «آي» يشعر أن لقب «والد الإله» قد لا يكون كافيًا لادعائه عرش الملك سعى من جهة أخرى أن يثبت استحقاقه للملك بالزواج من أرملة الملك «توت عنخ آمون»، وقد وُجد لهما فعلًا خاتم عليه اسماهما معًا.[٢٨] على أنه ليس لدينا دليل على زواجه من «عنخس إن آمون» غير هذا النقش. وخلافًا لذلك نجد أن «آي» كان دائمًا مصوَّرًا على الآثار مع زوجه «تي» بوصفها ملكة، ومن المحتمل أن «حور محب» قد اعترف بشرعية «آي» على عرش الملك عندما تم الزواج بينه وبين «عنخس إن آمون»، وعلى ذلك نزل عن مركز وصايته.

ومن المحتمل أن ثورة «حور محب» التي خلع بها «آي» عن عرش الملك لم تحدث إلا بعد موت «عنخس إن آمون»؛ لأنه بموتها قطعت الرابطة التي كانت تربط «آي» بالأسرة المالكة. أما لقب «والد الإله» فكان لا يعترف به على ما يظهر؛ وعلى ذلك أصبح في مقدوره الآن أن يدعي لنفسه الملك بوصفه «الوصي على العرش»، غير أن هذه النظرية الخلابة ينقصها بكل أسف حتى الآن البراهين المحسة التي تبررها فعلًا.

وقد وضح لنا «حور محب» مدلول لقب «ربعت» (الوصي) عندما منحه لوزير ونائبه «بارعمسيس» هو الذي عينه خليفته على الملك من بعده. وقد كان أول تطور لاستعمال هذا اللقب ما نشاهده في لقب «ولي العهد» في عصر الرعامسة: أي ابن الملك ولي العهد وقائد الجيش. وقد حمل هذا اللقب فعلًا «سيتي الأول» بن «رعمسيس الأول» بوصفه ولي عهده؛ إذ نجد ذلك على لوحة أربعمائة السنة التي سبق شرحها (راجع الجزء ٤).

وكذلك كان يحمله ابنه «بارعمسيس» الذي كان سيخلف والده.[٢٩]

ومنذ هذا العهد أصبح هذا اللقب يُطلق على ولي العهد، هذا على الرغم من أنه كان على ما يظهر يعني في الأصل معنًى آخر؛ والدليل على ذلك أن «رعمسيس الثاني» قد فصل بوضوح مرة الفرق بين لقب «بكر أولاد الملك» وبين لقب «ربعت».[٣٠]

---

[٢٨] راجع: J. E. A., XVIII, p. 50.

[٢٩] راجع: Petrie, “Gurob”, p. 20ff.

[٣٠] راجع: Gauthier, “La Grande Inscription Dedicotoire d’Abydos”, line. 44، ولدينا مواضع أخرى ذُكر فيها هذا اللقب غير أنه لا يعني «وصي»، وكذلك لا يعني ولي عهد (راجع Gardiner, “Egyptian Hieràtic Texts”, p. 17. Pap. D’Orbiney, 19, 2, 6; Pap. Harris I, 42, 8; Pap. Turin, 17, 1, 102; 2, 9; V. Bissing, “Acta Orient”. VIII, p. 154; Pap. Hood, I, p. 12–13).

على أن «حور محب» وإن كان قد تمكن بمساعدة مركزه بوصفه وصيًّا من أن يسجل حقه في تولي العرش، إلا أنه كان مكبلًا بعلاقته مع سلفه، وقد كان من الواجب عليه بوجه خاص أن يعترف بالملك «توت عنخ آمون» الذي عيَّنه شرعًا وصيًّا على العرش. على أنه لو فعل ذلك لكان اعترافًا منه بتأييده لسياسة «آي» في الوقت نفسه. والواقع أن «آي» هو الذي كان يحمي ظهر «توت عنخ آمون» ويقوم له بتصريف مهام الدولة، وكان هذا مانعًا له فعلًا إذا أراد أن يسقط «آي» مباشرة ويتولى عرش الملك. ومن هذا النزاع نستخلص الحل التالي؛ وهو أننا نجد حقًّا على تمثال «تورين» ملكًا، وهذا الملك لا يمكن أن يكون إلا «توت عنخ آمون»، غير أن اسمه لم يُذكر، وهذا الخلاف أدَّى كذلك إلى أن «حور محب» عامَل آثار «توت عنخ آمون» معاملة تختلف عن معاملته لآثار الملك «آي»، فحافظ على آثار «توت عنخ آمون» وتركها ثابتة كما هي؛ لأنه كان يعد نفسه المؤسس لها. غير أنه محا طغراء «توت عنخ آمون» ووضع مكانه طغراءه هو، وبذلك لم يكن «حور محب» بعيدًا عن الحقيقة؛ لأنه هو الذي في مدة وصايته أعطى الأوامر بإقامة المباني والآثار كلها، والدليل على ذلك أنه لم يخرب مقبرته، وكذلك لم يضع اسمه على آثار «توت عنخ آمون» الخاصة. أما عن سلوكه مع «آي» فإنه قد أظهره بمظهر المغتصب للعرش الذي كان من حقه هو؛ لما كان لديه من الأسباب القوية التي تخول له هذا الحق.

ولذلك كان من الواجب في نظره القضاء على كل آثار «آي»، وعلى عكس المحافظة على آثار «توت عنخ آمون»؛ فهدم قبر «آي»، ومحا[٣١] اسمه أينما عثر عليه. أما معبده الجنازي الذي اغتصبه «آي» من «توت عنخ آمون» فقد استولى عليه «حور محب»[٣٢] بدوره لنفسه. ومع كلٍّ فإن كل ما قِيل عن كيفية تولي «حور محب» الملك وشرعيته لا يخرج عن الحدس والاستنباط؛ إذ الواقع أنه لا يمكن للمرء أن يستخلص نتيجة ما حاسمة عن موقف «آي» الحقيقي بالنسبة «لحور محب» قبل توليه العرش؛ فما لدينا من المعلومات إنما كان بعد إعلانه فرعونًا، هذا ويُلحظ أن اضطهاد آثار «آي» ليس له دخل بمناهضته الإصلاح الديني؛ لأن ذلك قد انتهى في السنة الأولى من عهد

---

[٣١] راجع: Borchardt, “Das Grabdenkmal des Konigs Sahu-re”, I, p. 121-2.

[٣٢] راجع: Nelson and Holsher, “Oriental Institute Communications”, No. 18 (Work in Western Thebes”, 1931), p. 50, 51; (1931–1933) p. 106–1118.

«توت عنخ آمون»؛ إذ الواقع أن ما لدينا هنا هي حرب أسرية، وليس لذلك أي دخل بعهد الكفر والزيغ الذي قام به «إخناتون» كما يسميه أتباع آمون لها، على أنه ليس هناك شك في أن هذه الاضطهادات كان لا يمكن حدوثها دون قيام ثورة «إخناتون» التي كان غرضها الإصلاح الديني. وعلى أية حال ليس لدينا حقائق ثابتة عن النشاط الذي قام به «حور محب» خلال مدة وصايته؛ إذ لم يقص علينا هو بنفسه في هذا الصدد شيئًا، اللهم إلا جُمَلًا صغيرة لا تشفي غليلًا.

أما عن نشاطه بوصفه قائدًا أعلى للجيش، فنجد في المناظر التي أبقتها يد المخربين على جدران قبره بعض صور تكاد تحكي قصتها بنفسها. والواقع أنه كما ذكرنا فيما سلف أن الحالة في الممتلكات المصرية الآسيوية كانت دائمًا مليئة بالمخاطر والثورات، وقد خابت كل المحاولات الضئيلة الهزيلة التي بُذلت لإعادة النظام والأمن في هذه الربوع إلى نصابه. وبسبب هذه الفوضى حانت الفرصة لملكة «خيتا»، وبخاصة على إثر موت «إخناتون» للانقضاض على «عمقا» والاستيلاء عليها، والظاهر أن «حور محب» جهز حملة وساقها إلى بلاد سوريا لمنازلة «خيتا»، ولكن قد حال بينهم وبين متابعة الحرب مع الجيوش المصرية انتشار وباء عظيم في بلادهم وجيوشهم، وقد اختلف المؤرخون في القطع بأن المصريين هم الذين أرسلوا حملة على بلاد خيتا؛ إذ يظن الأستاذ «إدوارد مير» أن المصريين لم يرسلوا حملة على هؤلاء القوم، على أن الأستاذ «كيس» من جهة أخرى يقول إنه قد ذُكرت عبارة «حقول «خيتا» في منف»؛ مما يدل على أنه قد جيء برجالها من الحروب التي نشبت مع «خيتا» طبعًا (راجع Rec. Trav. 29, p. 162. Line 8). هذا فضلًا عن أننا نشاهد رسوم أسرى من «خيتا» في عهد «إخناتون»، وعلى أية حال فإننا نرى مناظر هذه الحروب في رسوم قبر «حور محب»؛ حيث نجد السوريين يطلبون من الفرعون أن يتدخل لحمايتهم من الغزاة، فاستمع إليهم وهم يقولون:

> لقد طرد الذين في البلاد الأجنبية، غير أن غيرهم قد احتل مكانهم. وهم يفدون الآن ... وقد أصبحت خالية، ومدنهم قد خربت وأُلقيت في النار (... يرجون) صاحب القوة والبطش إرسال سيفه الجبار؛ لأن ... بلادهم تتضور جوعًا، وهم يعيشون كحيوان الصحراء وأطفالهم يموتون ... ومن أجل ذلك أتوا قائلين: لقد أتى قوم لا يمكنهم أنفسهم أن يعيشوا ليطردونا من بلادنا، فأرسل جيشًا من جيوش الفرعون كما كان يفعل آباء آبائك منذ القدم.

على أن الغرض من تخليد هذه الشكاية كلها هو أن «حور محب» قام بحملة مظفرة على هذه القبائل التي انقضت على فلسطين فجاءة وهي قبائل «خبيري» بلفظة «عبرو» التي جاء ذكرها في لوحة «منف» الجديدة من عهد «أمنحتب الثاني» وفي خطابات «تل العمارنة» كما ذكرنا من قبل.[٣٣]

وكذلك قام «حور محب» بحملة على بلاد النوبة؛ إذ قد جاء وصف له على حجر من أحجار قبره بسقارة يقول: «لقد أرسل نائب عن الملك إلى نهاية ما يشرق عليه «آتون»[٣٤] ... ولذلك أقلع شمالًا، ثم ظهر جلالته على العرش الخاص بإحضار الجزية، وعلى ذلك أحضرت أسلاب الجنوب والشمال. ثم تقدم الوصي «حور محب» بالقرب من العرش ...»

ونجد على حجر آخر رسمًا[٣٥] عليه أسرى من الزنوج ذُكر فوقهم: «إحضار الجزية إلى مكانها وانتخاب حاملي المراوح من بينهم (... وأسرى الجيش قد ملئوا مخازن قربان الإله (...) وكانوا من السوريين).»

ومن المحتمل أن هذه الأسلاب العظيمة التي نجدها مصورة في مقبرة «حور محب» هي نفس الأسلاب التي قد رُسمت في مقبرة نائب الملك في كوش المسمى «حوى»[٣٦] في عهد «توت عنخ آمون»، وتدل النقوش التي في المقبرة الأخيرة على أن عرض هذه الجزية كان في «طيبة».

أما عن حياة «حور محب» بعد تولي «آي» عرش الملك؛ أي بعد أن ذهبت عنه وظيفة الوصي، فلا نعلم شيئًا البتة، ومن المحتمل أنه اشترك في جنازة «توت[٣٧] عنخ آمون» بوصفه قائدًا للجيش. وقد كان «آي» يتقدم هذه الجنازة بملابس الملك، والواقع أننا نشاهد على الجدار الشرقي لحجرة دفن الملك «توت عنخ آمون»، وهي التي رُسم عليها مشهد لجنازة أحد رجال البلاط بمفرده في مرتبة أعلى من مرتبة الوزير؛ ولا بد أن يكون هذا الرجل هو «حور محب»؛ وقد كان آي مرسومًا في هذا المنظر بملابس الفرعون. ومن هذا نرى أن ما قام به «آي» حيت تولى الملك لم يترك في نفس «حور محب» شيئًا من

---

[٣٣] راجع: Leiden. Boeser, Ibid, IV, Pls. XXIII–XXIVb.

[٣٤] راجع: Wiedemann, P. S. B. A., Vol. II, P. 424.

[٣٥] راجع: Bologna V, Bissing, “Denkmaler” 81 A.

[٣٦] راجع: Davies, “The Tomb of Huy”, Pl. XIX.

[٣٧] راجع: A. S., XXXVIII, Pl. CXV.

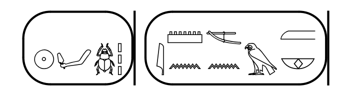
الحقد؛ هذا على حسب تفسير «آي» نفسه، أما ما حدث بعد ذلك فعلًا فقد أُسدل عليه ستار كثيف من الظلام الحالك، وكل ما نعلمه أن «آي» زار «منف»[٣٨] في السنة الأولى الشهر الحادي عشر اليوم الثالث منه، وكانت وقتئذٍ مقر الجيش ومقر «حور محب»، أما آخر تاريخ عُرف للفرعون «آي» فهو السنة الخامسة الشهر الثاني عشر اليوم الأول منه.

ولا بد أنه قد قامت ثورة بعد هذا التاريخ مباشرة على «آي» انتهت بخلعه من عرش الملك، غير أن قصتها لا تزال مجهولة تمامًا حتى الآن، وكذلك لا نعلم شيئًا عن الأسباب التي أدَّت إلى قيام «حور محب» على الرجل الذي رفعه بنفسه إلى أسمى مناصب الدولة.

---

[٣٨] راجع: "Rec. Trav." XVI, p. 123.

حور محب على عرش الملك





شكل ١: حور محب الملك.

يدل ما كُشف عنه من آثار باقية حتى الآن على أن الملك «آي» السالف الذكر لم يحكم أكثر من خمس سنوات، كما أننا لم نعرف من آثاره كذلك كيف كان مصيره، فهل مات حتف أنفه أو أعلن عليه القائد الأعلى للجيوش «حور محب» العصيان وقتله؟

وتدل ملابسات الأحوال على أن الرأي الأخير هو المرجح؛ إذ كان «لحور محب» بلا شك شيعة يناصرونه في «طيبة» على الرغم من أنه كان قد اختار «منف» مقره بوصفه قائدًا للجيوش المصرية، وكذلك بوصفه الوصي على الفرعون «توت عنخ آمون» مدة حياته. وقد كان «حور محب» صاحب رأي صائب وفطنة سديدة في اختياره هذا؛ إذ كانت «طيبة» في الواقع بعيدة عن وسط الملك، وعن الإمبراطورية الآسيوية التي كان يريد أن يعمل جهده لاستردادها لمصر كاملة بعد أن أضاعها «إخناتون» لاشتغاله بإصلاحه الديني العظيم.

ويُلاحظ أن «حور محب» قد تجاهل عهد سلفه «آي» في نقوشه التي تركها لنا عن كيفية توليه عرش مصر، وهذ هو السبب الذي من أجله نعتقد أنه ثار على الفرعون «آي» وانتزع منه الملك، وكل ما نعلمه في هذا الصدد هو أنه عندما أُعلن موت «آي» كان «حور محب» في مدينة «منف»، وأنه خرج منها في موكب حافل، وأن ذلك حدث على يد الإله «حور» رب «حت نسوت» عاصمة المقاطعة الثامنة عشرة بالوجه القبلي «الكوم الأحمر» جنوبي «شارونا» الحالية، على حسب رأي الأستاذ «كيس» (راجع A. Z, 58 pp. 97ff, Gauthier Dic Geogr. IV, p. 86).

وقد قص علينا «حور محب» نفسه قصة صباه وحياته الحكومية وتتويجه في «طيبة»، وبداية حكمه على تمثال مزدوج من الجرانيت الأسود يمثله هو وزوجه الملكة «موت نزمت»، والتمثال محفوظ الآن «بمتحف تورين»، (راجع Br. A. R. III: §§ 24ff). وسنترك المتن يحدثنا عن قصة هذا الفرعون العظيم، فاستمع لما جاء فيه:

شبابه

يعيش «حور»، الثور القوي، حاضر الخطط، محبوب الإلهتين، عظيم المعجزات؛ في «الكرنك»، حور الذهبي، الراضي بالصدق، منشئ الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، رب الأرضين، «زسر خبرو رع» «ستبنرع» ابن الشمس، رب التيجان، محبوب «آمون» «حور محب»، ومحبوب «حور» سيد «حت نسوت»

... ثور والدته، وابن «آمون» ملك الآلهة، وهو الذي نشأه «حور» بن «إزيس» وحرسه، كما كان بالحامي لأعضائه. ولما خرج من الفرج كان متقمصًا القوة، وكانت تعلوه صبغة الإله، وقد صنع ... ومن يحني له الذراع وهو لم يزل طفلًا، ومن يقدم له الطاعة العظماء والصغار ... الطعام وما يؤكل، وهو لا يزال طفلًا، بدون نصيحته ... عظيم أمام الأرض كلها، ومن كانت في لونه صورة إله، ومن كانت فيه قوة والده «حور» وقد وضع نفسه وراءه (حماية)، والناس قد أحضروا كل ... وقد عرف يوم رضاه ليمنحه مملكته.

تعيينه في الوظيفة

تأمل! إن هذا الإله قد رفع شأن ابنه أمام الأرض قاطبة، وأراد أن يمد في خطاه حتى حلول اليوم الذي يجب أن يتسلم فيه وظيفته، وكان قلب الملك راضيًا بشئونه، ومسرورًا باختياره، وقد نصبه ليكون رئيس الأرض، وليدبر قوانين الأرضين بوصفه أميرًا وراثيًّا على هذه الأرض كلها، وقد كان فذًّا منقطع القرين، وكان الناس يسيرون على حسب أمره، وقد أدهش الناس بما خرج من فمه. وعندما كان يطلب للمثول أمام الفرعون كان الخوف يدب في القصر. وعندما كان يفتح فمه، وعندما كان يجيب الملك فإنه كان يسره بما كان يخرج من فيه، وهو الوحيد الممتاز الذي لا مثيل له.

... وكانت كل خطوة له هي خطة «إبيس» (تحوت) وقراراته جزء من قرارات رب «الأشمونين» وكان ينعم بالعدالة مثل «خنتي» (الإله أوزير)، وقلبه مسرور بها مثل الإله «بتاح»، وكان عندما يستيقظ في الصباح يعطيها حقها. والطريق ... أحواله. وأما من كان يسير على نهجها (العدالة) فإنها هي التي كانت تحميه على الأرض مخلدًا.

تعيينه نائبًا للملك

تأمل! لقد أدار شئون الأرضين سنين عدة، وكان المراقبون يبلغونه ... وانحنى المجلس أمام أبواب القصر خضوعًا له كما كان يأتي إليه هناك رؤساء الأقواس التسعة والجنوب والشمال، وكانت أيديهم تبسط في حضرته مقدمين لمحياه

التحيات كما يقدم لإله (ملك)، وكل شيء يُنفذ كان بأمر منه. وعندما كان يحضر كان الخوف منه عظيمًا في أعين الناس، وكان الفلاح والصحة يطلبان إليه، كما كان يُرحب به بوصفه والد الأرضين والممتاز النصيحة التي وهبها إياه الإله ليدبر …

تتويج «حور محب» في طيبة

وبعد أن انقضت عدة أيام على ذلك عندما كان أسن أولاد «حور» هو الرئيس، والأمير الوراثي في كل هذه الأرض، تأمل! فإن هذا الإله الفاخر «حور» رب «حت نسوت» كان قلبه يتوق إلى أن يمكن ابنه على عرشه الأبدي، وقد أمر … «آمون» وقد سار «حور» نحو «طيبة» مدينة رب الأبدية في ابتهاج، ومعه ابنه في أحضانه إلى «الكرنك» ليقدمه أمام «آمون»، ليقلده وظيفة الملك، وليقضي حياته ملكًا، تأمل، لقد حضروا في ابتهاج في وقت عيد الأقصر الجميل. وقد رأى «آمون» جلالة هذا الإله «حور» رب «حت نسوت» ومعه ابنه بوصفه ملكًا فقدمه ليمنحه وظيفته على العرش، تأمل! فإن «آمون رع» كان مفعمًا بالسرور عندما شاهده آتيًا في يوم تقديم قربانه. وبعد ذلك قدَّم نفسه لهذا الأمير، والحاكم الوراثي، ورئيس الأرضين «حور محب».

زواج «حور محب» من الأميرة «موت نزمت»

وتوجه «آمون» نحو القصر وأتى به؛ أي (الملك) أمامه إلى محراب كبرى بناته، فقدمت له الخضوع، وقبلت جماله وقعدت أمامه.

فرح الآلهة بهذا التتويج

وكان الآلهة أسياد «حجرة النار» في ابتهاج بسبب هذا التتويج، كما أن الآلهة «نخبت» و«بوتو» و«نيت» و«إزيس» و«نفتيس» و«حور» و«ست» وكل تاسوع الآلهة الذين يشرفون على العرش العظيم قد رفعوا أكف المديح حتى عنان السماء، مبتهجين برضاء «آمون». تأملوا! إن «آمون» قد حضر وابنه أمامه إلى القصر ليضع تاجه على رأسه، وليطيل له حياته كلها، ولقد اجتمعنا

سويًّا لأجل أن نمكن له. دعنا نعد له كل حلي «رع» (أي التي كان يتحلى بها «رع» عندما كان ملكًا على مصر)، ودعنا نشكر «آمون» من أجله: لقد أحضرت لنا حامينا، فامنحه أعياد «رع» الملكية الثلاثينية وهي سني «حور» بوصفه ملكًا؛ لأنه هو الذي سيرضي قلبك في وسط «الكرنك»، وكذلك في «هليوبوليس» وفي «منف»، وإنه هو الذي سيجعلها في بهاء.

الإلهة تقرر ألقاب «حور محب»

دع الاسم العظيم لهذا الإله الطيب وألقابه تُكتب مثل اسم جلالة رع كما يأتي: (١) «حور»: الثور القوي، حاضر الخطط، محبوب الإلهتين، عظيم المعجزات في «الكرنك»، «حور» الذهبي، الراضي بالصدق، وخالق الأرضين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، «زسر خبرو رع» «ستبترع»، ابن «رع»، محبوب «آمون» «حور محب» معطي الحياة.

العيد في الأقصر

وبعد ذلك خرج هذا الإله المبجل «آمون» ملك الآلهة إلى خلف قصره، وأمامه ابنه، فضم جلالته وهو متوَّج بتاج الملك ليسلطه على ما يحيط به قرص الشمس، والأقواس التسعة تحت قدميه، والسماء في عيد، والأرض في فرح، وقلوب تاسوع آلهة مصر سعيدة. تأمل! لقد كانت كل الأرض في سرور، وعلت أصواتهم حتى السماء، والعظماء والسوقة أخذوا في أسباب المسرات، والأرض كلها كانت في ابتهاج. وبعد الانتهاء من عيد الأقصر هذا عاد «آمون» ملك الآلهة في سلام إلى «طيبة».

إصلاح المعابد

وبعد ذلك انحدر جلالته في النيل كأنه صورة الإله «حوراخن». تأمل! فإنه قد نظم شئون هذه الأرض؛ إذ أعاد العدالة فيها كما كانت في عهد الإله «رع»؛ فأصلح المعابد من أول بِرَك المستنقعات (في الدلتا) حتى بلاد النوبة، ونحت تماثيل لهم عددها أكثر من ذي قبل، وزاد في جمال في ما قد صنعه. وقد فرح

عندما رآها بعد أن كان قد وجدها أخنى عليها البلى فيما سلف، ورفع بنيان معابدهم (الآلهة)، وسوى مائة صورة بأجسامها محكمة الصنع من كل حجر ثمين فاخر، ثم بحث عن حدود أملاك الآلهة التي كانت في الأقاليم في هذه الأرض، ثم أمدَّها بما كانت تُمد به منذ الزمن الأزلي، وخصص لهم قرابين يومية، أما أواني المعابد جميعها، فقد صُنعت من الفضة والذهب، وجهزها (المعابد) بالكهنة المطهرين والكهنة المرتلين، وبخيرة رجال الجيش، ومنحهم أراضي وماشية مجهزة بكل جهازها.

الصلاة للملك

فكانوا يستيقظون مبكرين لينشدوا لرع الأغاني في صباح كل يوم: ليتك ترفع لنا من شأن مملكة ابنك الذي يرضي قلبك «زسر خبرو رع» «ستبترع» «حور محب». ليتك تمنحه عشرة آلاف من الأعياد الثلاثينية الملكية، وتجعله منتصرًا على الأراضي كلها مثل «حور بن إزيس» بقدر ما أبهج قلبك في «هليوبوليس» متحدًا مع التاسوع المقدس.

التعليق: وعلى الرغم مما جاء في هذا المتن من فجوات بسبب تهشيم الحجر فإنه يقدم لنا صورة واضحة عن أصل هذا الفرعون الغامض النسب، وكيف تسلق مدارج الرقي بما ناله من حظوة مستمرة في البلاط بذكائه ومهارته لا بحسبه ونسبه، وتدل شواهد الأحوال كلها كما ذكرنا من قبل على أن الملك الذي يتحدث عنه «حور محب» في هذا المتن هو الفرعون «توت عنخ آمون»، ولا نزاع في أن «حور محب» كان من أسرة ليست عريقة النسب؛ ولا أدل على ذلك من أنه أغفل في نقوشه كلها ذكر والديه. وقد شقَّ طريقه بعد كفاح طويل حتى وصل إلى عرش الملك. وكان على ما يظهر من أتباع شيعة «آمون»؛ ولذلك كانت الأمور كلها مهيأة له لاعتلاء العرش بعد موت «آي»، وبخاصة لأنه كان القائد الأعلى للجيش.

وقد تغاضى «حور محب» بعد أن وصف لنا حياته قبل تولي العرش عن التحدث إلينا عن كيفية توليه الملك، بل قال: «بعد أن انقضت عدة أيام على ذلك عندما كان بكر أولاد «حور» هو الرئيس الأعلى والأمير الوراثي ... إلخ.» ونسب نفسه بأنه ابن الإله «حور» إله «حت نسوت»، وهي بلدة من أعمال المقاطعة الثامنة عشرة من مقاطعات

الوجه القبلي، ثم جعل هذا الإله المحلي يقوده إلى «طيبة» ليتوَّج على يد ملك الآلهة «آمون رع» الذي كان يُعد الإله الأعظم للدولة، وهو الذي ناضل من أجله «حور محب» ليعيد مجده، وقد قبل هذا الإله العظيم أن يزوِّجه من ابنته «موت نزمت» التي لا نعرف لها نسبًا قط، ولا يبعد أنها كانت من البيت المالك لتكون محلِّلًا ومبررًا لاعتلاء «حور محب» عرش الملك. ولا نزاع في أن مثل هذا الزواج الذي تمَّ على هذه الكيفية يُعد ابتكارًا جديدًا من الابتكارات التي كان يخترعها ملوك مصر لجعل شرعيتهم لتولي الملك قانونية في نظر الشعب، فها نحن نجد هنا إله مقاطعة يقود أحد أبنائها إلى الإله الأعظم ليزوِّجه من ابنته، وليس لهذا الملك الجديد أي مبرر لاعتلاء العرش إلا قوة ذكائه ومعاضدته لكهنة «آمون» الذين عضهم الدهر بنابه فترة لا يُستهان بها في عهد «إخناتون» وخلفه، هذا إلى أنه كان صاحب القول الفصل في الجيش الذي كان يشد أزره، ويسيطر على البلاد به، ثم تُوج «حور محب» ملكًا على البلاد، وقد كان ذا فطنة في اختيار ألقابه؛ إذ جعلها تنسجم مع مقتضيات الأحوال التي وُجد فيها؛ فوصف نفسه بأنه حاضر الخطط، وأنه عظيم المعجزات في «الكرنك»؛ مشعرًا الكهنة بأنه سيقوم في هذا المعبد بالأعمال المدهشة إكرامًا لوالده «آمون». ثم قال لنا إنه خالق مصر، وهذا حق كذلك؛ لأنه قد أحياها بعد أن صارت كأن لم تغنَ بالأمس، وأعاد لها شيئًا كثيرًا من مجدها في الخارج بالفتوح، وفي الداخل بإصلاح قانونها، وبناء معابد الآلهة التي قضى عليها «إخناتون». وبعد التتويج أُقيمت الأفراح والأعياد، ودعا الآلهة لهذا الملك العظيم. ولم تكد تنتهي هذه الأعياد التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها حتى امتطى «حور محب» متن سفينته، وانحدر في النيل ليتفقد أحوال المعابد المخربة والتماثيل المهشمة؛ فأعاد لها بهجتها، وزاد فيها عما كانت عليه، وحبس عليها الأوقاف، وحفظ لها أملاكها؛ مما جعل طائفة الكهنة تلهج بذكره وتتمدح بعظيم أعماله، ويقيمون له الصلوات في كل أمهات المدن على لسان الآلهة.

(١) حالة البلاد عند تولي حور محب

والواقع أن حالة البلاد عندما اعتلى العرش الملك «حور محب» كانت لا تبعث على الرضى. حقًّا كان أخلاف «إخناتون» قد أخذوا في إعادة امتيازات «آمون» التي كان يتمتع بها من قبل، غير أن الأحوال في داخل البلاد وخارجها كانت غاية في الارتباك لا من الناحية الدينية وحسب، بل كذلك من الناحية السياسية، وبخاصة التطاحن على عرش الملك بعد موت «إخناتون». ولسنا مبالغين إذا قلنا إن ديانة «إخناتون» على الرغم من عدم حب

الشعب لها لبعدها عن تقاليدهم الموروثة كانت قد تأصلت في نفوس فئة عظيمة من المفكرين، وتركت أثرها في نواحٍ كثيرة من حياة القوم؛ ولذلك نجد أن هذه الفئة مع عودتهم إلى ديانة الآباء القديمة فإنهم لم يفعلوا ذلك عن طيب خاطر، بل دفعهم إلى ذلك سيل التحول الجارف، فتمشوا مع الأحوال السياسية؛ إذ الواقع أن بعض أخلاف «إخناتون» كانوا يعتنقون ديانته، وإن لم يكونوا من جنوده الظاهرين، وحتى «حور محب» نفسه لم يتحول بسرعة إلى ديانة «آمون»، وقد كان معبد «آتون» البغيض لم يزل قائمًا جنبًا لجنب مع معبد «آمون» في الكرنك فكان ذكرى أليمة لأتباعه.

ولما تولى «حور محب» مقاليد الأمور كان همه إعلاء شأن «آمون» وآثاره؛ ولذلك كانت بداية عهده تُعَدُّ نهاية الأيام السود في عهد ديانة «آمون»، وفاتحة عهد جديد زاهر لها، فقد عاد «آمون» سيدًا «لطيبة» وملكًا على الآلهة في جميع الإمبراطورية المصرية، ثم أخذ «حور محب» يتبارى تدريجًا مع سلفه «أمنحتب الأول» في غيرته على مصلحة والده «آمون»؛ فنجد أنه قد قام بهدم مسلات «إخناتون» وإزالة المباني التي أُقيمت أمامها تلك المسلات، ثم عمل على ألا يبقى منها حجر واحد في مكانه؛ فهدمها، وأقام بأحجارها البوابتين التاسعة والعاشرة، كما جعل منها أساس مباني أحجار البوابة الثانية التي أقامها هو في «الكرنك» وإن كانت من أحجار هذا المعبد أيضًا وتُنسب إلى «رعمسيس الأول» خطأً (راجع Keith Seele. The Coregency of Ramses II, p. 11). ولقد بقيت أحجار معبد «إخناتون» محتجبة عن الأنظار إلى أن حدث زلزال عظيم في عام ٢٧ق.م فتصدعت مباني البوابتين، وظهر ما على أحجارها المغتصبة من نقوش تدل على أنها من مبنى للفرعون «إخناتون»، فنجد في كل مكان في الخرائب التي تحيط بهاتين البوابتين أو عند قواعد التماثيل الضخمة المهمشة الرءوس أكوامًا من الأحجار المتناثرة من هذه المباني نقرأ عليها بقايا صلوات لقرص الشمس «آتون» ومناظر عبادة، وطغراءات للفرعون «إخناتون» و«آي» و«توت عنخ آمون»، وقد جمع بقايا هذه النقوش الأثري «نستور لا هوت» وكذلك «بريس دفن» وغيرهما مثل «لبسيوس» (راجع Nestor L'Hote Papiers Inedits Vol. III, p. 80, 96, 97, 101, 104, 105, in Presse D'avennes Monuments Pls. X, XI, & L. D. III, 110c–g, 119a–b; Keith Seele Coregency p. 11).

وقد كان العمل الذي شرع فيه «حور محب» في «طيبة» بحماس وغيرة وإخلاص يسير بنفس القوة وبنفس الحماسة في جميع أنحاء الوادي دون هوادة وبلا انقطاع، وهذا هو ما قصه علينا في لوحة تتويجه.

وفي استطاعتنا أن نفهم مقدار ما قام به من إصلاحات فعلية في عهده المفعم بالاضطرابات، مما نشاهده مدونًا من النقوش على صخور جبانة «طيبة»؛ إذ الواقع أن ما تنطوي عليه هذه المتون من معانٍ لا تكشف لنا عن سرقة القبور في ذلك العصر وحسب، بل كذلك تكشف لنا النقاب عن مدى الفوضى التي أعقبت الانقلاب الديني الذي قام به «إخناتون». ولقد كان من الطبعي أن مثل هذه الأعمال لا يمكن أن تحدث في طيبة إلا في مثل هذا الوقت، ومن ثم يمكننا أن نفهم الأحوال المضطربة التي خلص منها «حور محب» البلاد. فاستمع لما جاء في بعض هذه النقوش مما يدل على الاستهتار بالقانون وبالدين والأخلاق: «السنة الثامنة، الشهر الثالث من الفصل الأول، اليوم الأول في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «زسر خبرو رع-ستبنرع» بن رع «حور محب» محبوب «آمون»، أمر جلالته — له الحياة والفلاح والصحة — بإرسال حامل المروحة على يمين الملك، وكاتب الفرعون، والمشرف على الخزانة، ومدير الأعمال في المقر الأبدي (الجبانة) ومدير أعياد «آمون» في «الكرنك» «ميا» ابن القاضي «يوي» الذي وضعته السيدة «ورت» لأجل إصلاح مدفن الملك «منخبرو رع» المرحوم في البيت الفاخر (قبره) غربي «طيبة»» (راجع Br. A. R. III, § 31).

فإذا كانت مقابر ملوك الأسرة الثامنة عشرة تُنتهك حرمتها على الرغم من شدة حراستها والقيام عليها في ذلك الوقت؛ فأي فوضى تكون أبشع من هذه!

(١-١) إصلاح القوانين

وكذلك لم يكن عهد «حور محب» محصورًا في إصلاح المباني وإقامة أخرى جديدة لإرضاء كهنة «آمون»، بل كانت لديه مهمة شاقة أقضَّت مضجعه وشغلت باله؛ لأنها كانت تمس نظام الحكم ونزاهته، وحسن سيره؛ وذلك أن التراخي المشين، والتهاون المخزي، والتغاضي المقصود في ملاحظة الموظفين وما يرتكبونه من اختلاسات؛ كل ذلك كان من خصائص عهد «إخناتون» وأخلافه في داخل البلاد وخارجها؛ مما أضاع أملاكها في الخارج وأتعس أهلها في الداخل، يُضاف إلى ذلك أن رجال الجيش كانوا يعيثون في الأرض فسادًا، وبخاصة أنهم كانوا منتشرين في طول البلاد وعرضها في تلك الفترة التي أصبح فيها لرجال الجيش السيطرة التامة على مرافق الحكومة ووظائفها كما شرحنا ذلك من قبل، وهذه الرذائل التي تكون دائمًا عرضة للتفشي في وقت الانقلابات العظيمة كانت قد استفحل خطرها، وامتد طغيانها إلى حد مشين في مصر وممتلكاتها.

فقد كان الموظفون المحليون والجنود الذين كانوا بعيدين عن أعين مفتشي الحكومة المركزية يتمتعون بحياة ناعمة بما ينتزعونه من أفراد الشعب الذين كانوا يرزحون تحت عبء الظلم أمدًا طويلًا حتى أصبح النظام المالي والإداري مفعمًا بالرشوة والاختلاس من كل صنف، وعلى الجملة فالبلاد قبل عهد «حور محب» كانت متعطشة إلى العدالة، وكان الفساد ضاربًا بأعراقه في نواحي الحياة المختلفة، ومظاهر الظلم والعسف كانت منتشرة في ربوع المملكة المصرية؛ ومن أجل ذلك كانت ألقاب العدالة من أبرز الألقاب التي تمدح بها جلالته في لوحته، ومن أجل ذلك أيضًا قضى ليله ونهاره في البحث عما كان صالحًا لأرض الكنانة؛ فتعقب الظلم والإثم، وقضى عليهما في مظانهما، وقطع دابر الكذب والرشوة، وكَتَب جلالته بيده دستور العدالة، وأشرف بنفسه على تنفيذه.

ولا بد أن «حور محب» كان قد وقف بنفسه على نواحي الخلل والفساد في الدولة وهو لا يزال موظفًا، فوضع لكل حالة قانونًا يكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح، ويعرِّض من يحاول الخروج عليه لعقوبات مادية تناله في جسمه أو في ماله أو في كليهما ببتر عضو من أعضائه، أو بالقضاء عليه فوق ذلك بالإبعاد والنفي، وردِّ الرشوة المغتصبة.

ويظهر أن الطريقة التي كانت متبعة في جمع الضرائب هي أن يحمل كل مواطن ما فُرض عليه من ضرائب في سفينته ويوصلها إلى الفرعون، ويظهر كذلك أن السفن كانت تتعرض كثيرًا لأعمال السلب والنهب، وكان هذا لا يحرك ساكنًا عند أولياء الأمور في الدولة المنحلة المتداعية قبل عهد «حور محب»، ولا يُعفى المسلوب من دفع الجزية، فجاء «حور محب» فعرَّض المعتدي الأثيم لعقوبة تتمثل في جدع أنفه ونفيه إلى «سيلا» (تل أبو صيفه الحالية)، وعد المعتدى عليه مُعافًى من دفع الجزية.

وإذا وجد الموظف مواطنًا بدون سفينة يريد توريد ما فُرض عليه من جزية، فإنه يجب على ذلك الموظف أن يحصل له على سفينة من أي مواطن آخر؛ لأن كل مواطن يجب عليه أن يخدم الفرعون مهما حدث.

ولا نستغرب على «حور محب» بعدما رأينا غيرته الدينية أن ينظر إلى أملاك المعابد والالتزامات التابعة لها نظرته إلى شيء مقدس، وأنه كان يحيطها بسياج منيع من القدسية والجلال حتى جعل أي اعتداء على الضرائب التي تخصها اعتداءً على حق مقدس يُعد مرتكبه مجرمًا يُعاقب بنفس العقوبات السابقة.

ولم تكن قوانين «حور محب» مدنية فحسب تحدد علاقات بعض الوطنيين ببعض، بل كانت شاملة للقوانين الدستورية التي تحدد علاقة الفرد بالسلطة الحاكمة، وكان

أفراد الشعب كثيرًا ما يتعرضون لحيف طبقة الموظفين الذين كانوا محميين بسلطانهم ونفوذهم — كما هي الحال في كل عصر — فجعل لكل موظف يخرج عن حدود سلطته أو يسيء استعمالها عقوبة تتناسب وجرمه؛ فأي موظف يحاول الاستيلاء على نبات «كث» بدون حق مشروع أو يستدعي لتنفيذ مآربه عبدًا أو عبيدًا بدون رغبة سيدهم، فإن هذا العمل من شأنه أن يعرِّض هذا الموظف للعقوبة.

وطالما وقع الأهلون فريسة لرجال الإدارة الذين كانوا يشرفون على الوجه القبلي والوجه البحري، فكانوا يسرقون منهم جلود قطعان الماشية التي كان مفروضًا عليهم أن يقدموها جزية لسيدهم الفرعون كل سنة عن قطعانهم المستأجرة من الدولة، فوضع «حور محب» لذلك قانونًا صارمًا يتمثل في جَلد المجرم مائة جلدة، وجرحه خمسة جروح دامية، ورد الجلد إلى صاحبه، أو إعفائه من توريد ما فُرض عليه من جلود للخزانة.

ولقد كان من مظاهر الظلم والعسف وتفشي الرشوة قبل عهد «حور محب» أن العمد كانوا يفرضون الإتاوة على الأهلين ويجمعونها منهم ظلمًا وعدوانًا؛ فكان مثلًا كتاب مائدة بيت الزوجة الملكية، وكتاب مائدة الحريم الذين كانوا يقتفون أثر العمد على استعداد للتفتيش السطحي والتغاضي عن كل اختلاس لقاء قدح من النبيذ يُقدم لكل منهم. وعلى مثل هذه الأحوال السيئة كانت تسير الأمور في البلاد، فكان العثور على المجرم والقضاء على الجريمة أمرًا بعيد المنال؛ لأن منفذ الشر هو حامي القانون ومرتكب الجرم هو رجل الإدارة.

ولذلك نجد «حور محب» بعد أن سن قوانينه للضرب على أمثال هؤلاء المختلسين يقوم بنفسه برحلة تفتيشية للإشراف على تنفيذها بمناسبة عيد الأقصر الفاخر الذي كان يُقام كل عام، فيجوس في أثنائها خلال الديار، ويأمر باستئصال الشر في مكمنه، وكان أمره مقضيًّا، ولقد نهج «حور محب» في طريقته هذه منهج سلفه «تحتمس الثالث»، الملك الجبار الذي اجتث هذه المساوئ من جذورها؛ فضرب على أيدي المجرمين من هذا الصنف، وكان يقوم بنفس هذه الرحلات التفتيشية في طول البلاد وعرضها للإشراف على تطبيق قوانينه وتنفيذها كما سلف ذكره. ولقد كان نظر «حور محب» ثاقبًا؛ فقد نفذ إلى كل صغيرة وكبيرة في الدولة، كما يُؤخذ ذلك من النقوش التي تركها على لوحته، فها هو ذا يحيط خبرًا بما كان يجري من غش واختلاس قبل عهده من رجال السلطة، فكثيرًا ما استولى هؤلاء على نبات «سم» باسم دخل الفرعون، وكثيرًا ما طففوا المكيال لأنفسهم وأخسروه لحق من حقوق الدولة نظير رشوة ينالونها، وكثيرًا ما استولوا على

الكتان والخضر وباكورة المحاصيل؛ مما حرم الأهلين ثمرة جدهم وكدهم، فحرم «حور محب» كل ذلك ووضع القوانين الصارمة، وأشرف بنفسه على تنفيذها؛ فاستأصل بذرة الشر من جذورها.

ولم يكن سبيله الإرهاب والتخويف وتعذيب المجرم فحسب، بل كذلك كافأ الأمناء والشرفاء؛ فجمع بين الرغبة والرهبة، وأتاح لكل مخلص أمين سبيل الترقي والعلو، واختار طائفة عدَّهم من أماثل القوم، فأسند إليهم المناصب الخطيرة في الدولة، وزوَّدهم بنصائحه الغالية، وحذَّرهم مما وقع فيه من قبلهم، فأمر ألا يقبلوا قعب نبيذ من أحد، وألا يتخذوا لهم أصدقاء؛ حتى لا يدفعهم الهوى إلى الميل والانحراف، وعلَّمهم طريق الحياة، وأرشدهم إلى كل ما هو عدل، وبسط لهم في الرزق؛ لعلمه أن كل تشريع يتناول الناحية الروحية فحسب من شأنه أن يعرض أحكام المشرع للمخالفة والامتهان، فكان كل واحد منهم يتسلم مرتبه بدون أي تأخير، كما رفع عنهم ما كان مفروضًا على مرتباتهم من ضرائب الذهب والفضة؛ ليمنعهم استصفاء أية ضريبة على السلع لأنفسهم.

ولتحقيق السعادة لسكان مصر وضمان تنفيذ قوانينه كما يريد أَسَّس في كل البلاد مجالس قضائية تفصل في الخصومات بين الناس كأحدث التشاريع في العصر الحاضر، وأوصى القضاة أن تكون العدالة رائدهم، فلا يقبلوا رشوة من أحد، ولا يميزوا أحد المتخاصمين على الآخر، ومن يتعد هذه الحدود فعليه إثم نفسه وعقوبة جريمته. ولحرص «حور محب» على تحقيق العدالة وتنفيذها رغب في أن تكون علاقته برجال جيشه وضباطه ورجال إدارته علاقة ودٍّ وحب مباشرة؛ فكان يتصل بهم بنفسه ويدعوهم إلى مائدته التي ينفق عليها من أمواله الخاصة، فيأكلون ويشربون، وفوق ذلك ينقلبون إلى أهليهم حاملين الحقائب بهداياه الوفيرة، التي كان يوزعها عليهم بنفسه؛ فيناديهم بأسمائهم، ويلقيها عليهم من نافذة قصره؛ فلذلك كانت إدارة المليك شريعة الأمة، وجاءت إصلاحاته مطابقة للمحز مصيبة للمفصل.

ولسنا في حاجة بعد ذلك إلى تقرير أن «حور محب» قد تربع على عرش القلوب ونال محبة شعبه وتقديره، بل نقرر أنه ارتقى مكانًا عليًّا في تاريخ حكومة الإنسان لأخيه الإنسان، وبخاصة إذا علمنا أن المساوئ التي كان يعالجها ويعمل على اقتلاعها من جذورها لم تزل مشاهدة في البلاد على الرغم من الإصلاحات السطحية التي يقوم بها بعض الذين يريدون القضاء على الأمراض المتأصلة، وهي لا يمكن أن تزول إلا بنهضة

قوية على يد فئة درست الإصلاح على وجهه الصحيح، كما فعل «حور محب» وأفلح فلاحًا عظيمًا هيأ لأخلافه إعادة مجد الإمبراطورية الغابر بعد سقوطها في فترة الانقلاب الديني.

ولعل سائلًا يسأل عن السبب الحقيقي الذي جعل «حور محب» ينجح هذا النجاح المؤزر؟ سواء في سَنِّ قوانينه، أم في تطبيقها؛ والجواب عن ذلك لا يختلف باختلاف الأشخاص ولا يتغير بتغير العصور وتباين المجتمعات، فهو السبب نفسه الذي جعل قادة الشعوب الذين أفلحوا في بعث الحياة في أممهم التي كانت أشلاء متناثرة، وجسمًا هامدًا، وهو السبب عينه الذي جعل الأمة المصرية تلتف حول القادة والزعماء الذين نشئوا من بينهم، وتجعل اعتناق مبادئهم من الأمور المحببة إليهم.

ذلك أن «حور محب» نشأ من بين أبناء الشعب، وانصهر في بوتقته؛ فكان ملمًّا بكل رغباته وميوله، عالمًا بكل ما كان يحيق به من عسف وظلم، فأحسن التعبير عن رغباته، والترجمة عما يتطلبه، ووقف بنفسه على العلل والأدواء، فكان دواؤه ناجعًا، وبلسمه شافيًا. والتاريخ يفيض بأمثلة كثيرة من هذا النوع من القادة، ويدلنا على أن ذلك هو السبب الحقيقي الذي من أجله نجح كثير من الزعماء والمفكرين، كما أن كثيرًا من الزعماء والملوك كان سبب إخفاقهم عدم استطاعتهم الترجمة عن رغبات الشعب وميوله، وما يصلح له من نظم وقوانين، وتخبطوا في تطبيقها لبعدهم بالفوارق الاجتماعية والمعيشية عن أفراد شعوبهم.

ويُعزى نجاح «تحتمس الثالث» ذلك الملك الفذ إلى أنه عاش بين الشعب وإن انحدر من أسرة ملكية؛ فلقد كانت نشأته بين رجال الدين في الدير والمعبد، وكان رجال الدين يدعون إلى الفضيلة وهم يدنسونها، ويحثون بالابتعاد عن المنكر وهم يقترفونه، فوقف بنفسه على زلاتهم وعثراتهم، ورأى عن كثب أحوال الشعب وما يجري في خلاله من مساوئ ورذائل، فأمكنه أن يفلح الفلاح كله في القضاء على أمراض كانت متأصلة، ويجتث رذائل كانت خبيثة، ولا يُستغرب هذا إذا علمنا بالإضافة إلى ما تقدم أنه رضع من ثدي امرأة شعبية، بل إن أمه نفسها كانت منحدرة من أبناء الشعب، وقد تعلم جنبًا لجنب مع أبناء الشعب؛ وبذلك لم يكن هناك كبير فارق بينه وبين «حور محب»، غير أنه وُلد ملكًا متوجًا أما الآخر فسعى إلى تاج الملك حتى وضعه بيده على رأسه. وهاك ما تبقى لدينا من نصوص قوانين «حور محب» التي استخلصنا منها ما سبق على حسب أحدث الآراء، وسيجد القارئ أنها مهشمة لا تشفي غلة للقارئ العادي، ولعل

رجال القانون يمكنهم أن يستخلصوا منها شيئًا جديدًا غير الذي قد نوَّهنا عنه (راجع Journal of Near Eastern Studies of Chicago (Jan–Oct) 1946 Vol. V, No. 4. p. 260–270).

مقدمة: (فجوة أربعة أسطر ونصف) «حور محب» معطي الحياة مخلدًا أبدًا، بداية الخلود حيث يتقبل (الملك) السرور، ومئات آلاف السنين، وملايين أعياد ثلاثينية، وهو على عرش من في السماء (أي رع)، ومملكة «رع». وإليه يُنسب عرش «حور» … والبلاد تفيض بحبه، والعدالة قد عادت، وامتزجت معه … والمصريون يفرحون، وأرض الكنانة تعيد شبابها، والأرض السوداء قلبها في سرور وغبطة … قد رأى، وعلى ذلك أتى ممتلئًا بالفخار، وملأ الأرضين بجماله؛ لأن الإله الطيب قد أنجبه رع … بإقامة العدالة على الشاطئين، وإنه يصبح في عيد عندما يكون جمالها (العدالة) قد أصبح ممجدًا.

والواقع أن جلالته فكر في قلبه … عن الطريقة التي يقضي بها على الإثم، وينفي الكذب. وتدابير جلالته تُعَدُّ مأوًى ممتازًا؛ وذلك بكبح جماح العسف أينما وُجد … والظلم الذي كان منتشرًا بينهم. والواقع أن جلالته قد قضى نهاره وليله في البحث عما كان صالحًا لأرض الكنانة، وكذلك في متابعة القيام بالأعمال (الممتازة) … جلالته. فأخذ الدواة والقرطاس وكتب كل ما فاه به جلالته.

وقد أصدر الملك نفسه الأوامر التالية:

… حالات الاضطهاد في البلاد.

الأنظمة التشريعية

(١) المواد التي سُنت لمنع التعدي على سفن النقل التي تُستخدم لتوريد الضرائب: إذا صنع مواطن سفينة بمعداتها ليستطيع بها خدمة الفرعون (له الحياة والسعادة والصحة)، (واغتُصبت منه هذه السفينة فأصبح غير قادر على توريد) الجزية، وأصبح مسلوبًا متاعه، ومحرومًا ثمرة جهوده العدة (… فقد أمر جلالتي بِعَدِّه معافًا) لحسن مقاصده.

وإذا وُجد إنسان ما يرغب في توريد الجزية لمعامل الجِعة، ومجازر الفرعون له الحياة والسعادة والصحة، من قبل ضابطين من ضباط الجيش … وإن إنسانًا يعمل له عراقيل، ويغتصب سفينة عضو من الجيش (أو) ملك أي شخص آخر من أهل البلاد قاطبة، فإن مثل هذا الشخص يُطبق عليه القانون؛ وذلك بجدع أنفه ونفيه إلى «سيلة» (تل أبو صيفة الحالي) …

ومع ذلك إذا وجد موظف مواطنًا بدون سفينة، فإن له الحق أن يحصل له على سفينة من آخر ليتمكن من توريد الجزية، ويرسل صاحب السفينة الأصلي لأجل أن يحمل الخشب إلى مكانه؛ لأن من واجبه أن يخدم الفرعون مهما حدث.

(٢) الإجراءات المتخذة للقيام بمساعدة أصحاب السفن الذين سُرقت حمولتها المرسلة للفرعون: (إذا وجد موظف مواطنًا صاحب سفينة قد سلَب متاعه، وأن حمولة هذه السفينة قد فرغت بالسرقة، وبذلك أصبح هذا المواطن مسلوبًا متاعه …) وأمسى لا يملك شيئًا، فنظرًا لأن هذا التقرير الدال على عمل فيه خسارة كبيرة ليس بالعمل الحسن؛ فإن جلالتي قد أمر بأن يُعد معافًا. انظر …

(٣) الإجراءات المتخذة ضد الذين يعرقلون توريد الضرائب للحريم والقرب الإلهية: إذا أقام إنسان ما عقبات في سبيل أولئك الذين … وسبيل أولئك الذين يقومون بالتوريدات للحريم، وكذلك لمائدة القربان الخاصة بقرب الآلهة المختلفين، في حين أنهم يدفعون الضرائب لضابطي الجيش، وأنهم … فإن القانون يُطبق عليه بجدع أنفه ونفيه إلى «سيلة» أيضًا.

(٤) الإجراءات المتخذة لمنع الاستيلاء على نبات «كث» وكذلك لمنع تسخير عبيد الأفراد في هذا العمل: إذا قام موظفون من إدارة قربان الفرعون (له الحياة والسعادة والصحة) بطلبات رسمية للاستيلاء على نبات «كث»، وكذلك إذا استدعوا لهذا العمل عبيدًا يملكهم أفراد لمدة ستة أو سبعة أيام دون أن يكون لهم الحق في الذهاب أحرارًا، فهذا عمل مجحف، فيجب أن تُتخذ معهم الإجراءات على حسب خطورة المسألة. أما في أي مكان (… حيث) يسمع الناس يقولون فيه: إنهم يستدعون الناس لأجل الاستيلاء على نبات كث، وكذلك حيث يأتي إنسان آخر معلنًا: لقد استولى على عبدي أو أمتي؛ فلا بد من تطبيق القانون بـ …

(٥) الإجراءات المتخذة لمنع اغتصاب جلود الحيوان من الفلاحين — مادة في صالح دافعي الضرائب: إذا استولت فرقتا الجيش المعسكرتان في الريف، وهما اللتان تقيم

واحدة منهما في الوجه البحري والأخرى في الوجه القبلي؛ على جلود الحيوان في كل البلاد دون أن يتركوها مدة سنة واحدة لأجل أن يتمتع بها الفلاحون … ويأخذون من بينها المرسومة (أي المكوية)، في حين أنهم يذهبون من بيت لبيت طارقين أبوابها ومنتهجين السعف دون أن يتركوا جلودًا للفلاحين …

وإذا جاء بعض … من قبل الفرعون (له الحياة والسعادة والصحة) لعمل إحصاء ماشيته، وحققوا معهم (أي مع الفلاحين) ولكنهم لم يجدوا عندهم جلودًا، بل فوق ذلك يتضح لهم أن الدَّين ركبهم، وأنهم قد اكتسبوا ثقتهم (أي ثقة مديري حيوان الفرعون) فيقولون لهم: «لقد أُخذت منا.»

ولما كان ذلك يُعد عملًا خطيرًا فلا بد من الفصل فيه على حسب فداحة العمل. إذا قام مدير حيوان الفرعون له الحياة والسعادة والصحة، لتسلم إحصاء الحيوان في كل أنحاء البلاد؛ لأنه هو الذي يقوم بجمع جلود الحيوان الميتة التي … فإن جلالتي قد أمر أن يُعد الفلاح مُعفًى بسبب حسن نيته.

أما فيما يخص أي جندي يُسمع عنه أنه قد ذهب للاستيلاء على جلود منذ تاريخ هذا اليوم، فلا بد من تطبيق القانون عليه، بجلده مائة جلدة ومسببة جروح دامية، والاستيلاء منه على الجلد الذي اغتصبه بوصفه مالًا مكتسبًا من وجه غير مشروع.

(٦) الإجراءات المتخذة ضد ابتزاز الأموال وضد الرشوة في إدارة الدخل: أما عن نوع تلك الجريمة الأخرى التي تُعزى إلى … كتاب مائدة بيت الزوجة الملكية، وكتاب مائدة الحريم الذين كانوا يقتفون أثر العمد ملحين عليهم وطالبين إليهم إبريق خمر مما يُحمل في النيل شمالًا أو جنوبًا، على حسب ما كان يُطلب قديمًا من العمد في عهد الفرعون «منخبر رع» «تحتمس الثالث».

أما من جهة ما كان يُحمل في النيل شمالًا أو جنوبًا، وكان العمد يستولون عليه، فإنه على أثر وصول العمد في عهد «تحتمس الثالث» في كل سنة كانوا يفرضون الإتاوة على الأهلين في خلال رحلتهم، وكذلك كان يصل خدام الحريم عند العمد قائلين لهم: «فليُقدم لنا إبريق من الخمر مقابل تفتيش سطحي»، ولكن تأمل! الآن ترى الفرعون — له الحياة والسعادة والصحة — يقوم برحلة تفتيشية بمناسبة عيد «أبت» (الأقصر) في كل عام دون إظهار أي إهمال، بل على العكس تُعمل الترتيبات قبل وصول الفرعون … خدام الحريم … بحيث يكون الاستعداد متقنًا. ولكن ما الذي حدث في هذه الإجراءات المستمرة لاستنزاف إبريق الخمر منهم؛ فلأجل ذلك كان العمد يصحبون الملك في رحلته،

وذلك لفائدة المواطنين ... ولما كانت هذه حالة خطيرة فإن جلالتي أمر بألا يُسمح بالعمل على هذه الصورة منذ هذا اليوم. أما من جهة ... الذين كانوا كذلك يستولون على سفينة تكون في الميناء، فإنه كانت تحرر محاضر ضدهم.

(٧) الإجراءات المتخذة لمنع الاستيلاء على نبات «سم» بغير حق: وكذلك فإن الذين سيستولون على نبات «سم» لأجل معامل الجِعة ... المواطنين مغتصبين عشبهم «سم» يوميًّا قائلين: إنها مقابل دخل الفرعون ... وإنه لا فائدة للمواطنين الذين يستولون عليه في العمل الذي يقومون به — ولما كانت هذه حالة ضارة فإن جلالتي قد أمر ... وأن الموظفين الذين يستولون على أعشاب «سم» لأجل دخل الفرعون له الحياة والسعادة والصحة في حدائق الفرعون وضياعه له الحياة والسعادة والصحة ... الفرعون له الحياة والسعادة والصحة، التي تحتوي على أعشاب «سم»، فإذا سمع أنهم يستولون على متاع أي جندي أو أي شخص آخر في أي جزء ما من أجزاء البلاد ... فإن القانون سيُطبق عليهم؟ لأنهم أناس قد تعدوا حدود التعليمات.

(٨) الإجراءات التي تُتخذ ضد الذين يستولون بدون حق على حيوان وخضر ... إلخ: أما ما يتعلق بحراس القردة الذين يستولون ... في الإقليم الجنوبي، وفي الإقليم الشمالي، ويستولون اغتصابًا على غلال أهالي القرى فارضين خمسين «هنا» على كل بيت، ومخسرين مكيال خزانة الغلال العامة (؟)، وكذلك يستولون بدون حق على الكتان والخضر وباكورة المحاصيل ... وبما أن هذه حالة مضرة فإن جلالتي قد أمر بمنع هذا العمل (؟) ... والذين يسلبون من الضياع بغير حق، ويستولون قسرًا على السفن، ثم يأتي أناس آخرون ... في الإقليم الجنوبي، والإقليم الشمالي، ويغتصبون بدون حق مكيال خمسين «هنا» عن كل بيت من المواطنين، أما أولئك الذين يكونون أمناء فإنهم سيُكافئون. أما المواطنون الذين ... من الخبز المورد لهم، فإن جلالته أمر بإعادته كله لمنع ... المواطنون ...

(٩) إجراء متخذ ضد نوع آخر من سوء التصرف: أما عن الحالة الأخرى الإجرامية التي يكون التقرير عنها سيئًا، فإذا كان أولئك الذين ... كل الضيعات التي هم فيها، وهم ... من الملك ... فإن مدير البلاد الأجنبية يقدم ذهب الملك ... إلى الذين هم ...

(١٠) الإجراءات المتخذة لمنع استغلال العبيد في العمل ظلمًا: ... إذا ذهب رسل الحريم ليعطوا رسميًّا الاستيلاء على عامل فقير مهما كان قد عُين لهم بالذات، فإن مع ذلك ... مع غسل (؟)، وإذا سمع مرارًا ... كل ... فإنها جرائم ... فإن رسل الحريم الذين

يذهبون ليستولوا في المكان … سكان القرى (؟) … صيادو السمك، وصيادو الطيور … يحملون …

إجراءات إدارية

(١) مقدمة: … لقد أصلحت هذه البلاد كلها … وإني جبتها بعناية حتى الجنوب، وقد فحصتها … قاطبة، وإني أعرف على وجه التأكيد ما في داخلها؛ لأني قد زرتها أولًا من الداخل.

(٢) إعادة تنظيم المجالس: لقد بحثت عن أفراد … ذوي حزم وأخلاق جميلة، يعرفون كيف يحكمون على الآراء، ومتيقظين لأقوال القصر، وإلى قواعد الإدارة، وقد عينتهم ليحكموا في أمور القطرين، وليرضوا سكانهما … وقد نصبتهم في المدن الكبيرة في الجنوب وفي الشمال، وكان كل واحد منهم يتسلم مرتبه بدون أي تأخير، وقد وضعت لهم نصائح وقوانين في قائمة أعمالهم … صادقة، وعلمتهم طريق الحياة؛ لأني أرشدتهم إلى ما هو عدل. وقد أوصيتهم قائلًا: لا تتآخوا مع أناس آخرين، ولا تقبلوا قعب نبيذ من آخر؛ لأنه لا يوجد … إذ ما الذي يظن الآخرون في أشخاص مثلكم مكلفين بالقيام مكان آخرين، مع ذلك إذا كان من بينكم من ينتهك حرمة العدالة؟ أما عن الضريبة من الفضة والذهب … فإن جلالتي قد أمر بإعفائكم منها؛ لأجل أن يُمنع جباية أية ضريبة على أية سلعة بوساطة مجالس «قنبت» الجنوبية أو الشمالية.

أما أي حاكم أو أي كاهن يُشاع عنه أنه جلس ليحكم بالعدل في المجلس «قنبت» الذي أُسس للحكم ومع هذا وتعدى فيه العدل فإنه يُتهم من أجل ذلك بجريمة كبرى؛ لأن جلالتي قد ألَّف هذا (المجلس) لأجل إعادة توطيد مصر، ولأجل منع حدوث … آخر … من المجلس (قنبت). وكهنة المعبد (خدام الإله) وموظفو مقر الحكم في هذه البلاد، وكذلك الكهنة المطهرون، الخاصون بالآلهة، فهم الذين يتألف منهم كل مجلس (قنبت)، فهم الذين سيفصلون في قضايا مواطني كل مدينة.

وإن جلالتي قد أجهد نفسه من أجل مصر لتكون حياة سكانها سعيدة؛ لأنه يظهر كل يوم على عرش «رع». تأمل فإنه قد أسس مجالس قضائية في البلاد كلها ليحكموا بين الناس، وليعقدوا جلسات في المدن على حسب الخطط الممتازة التي وضعها جلالتي.

(٣) علاقة الفرعون بضباط جيشه: … كلية. لقد وضعت هذا النظام؛ لأن جلالتي يرغب في حماية كل الناس، وكانوا يجتمعون حول جلالتي ثلاث مرات شهريًّا، وكان هذا

عيدًا لهم؛ إذ إن كل فرد منهم يجلس ومعه جرايته من كل شيء لذيذ، تشمل خبزًا طيبًا ولحمًا وفطائر من ممتلكات الفرعون ... وأصواتهم تصل إلى عنان السماء معظمين كرم سيد الأرضين.

وقد كان كل واحد من رؤساء الجيش، وكل ضباط المشاة يُكافأ كما كانت الحال من قبل. وقد كان الفرعون نفسه يلقي عليهم الهدايا من النافذة مناديًا كل واحد منهم باسمه، وكانوا يمرون أمامه مهللين، وكانوا يتسلمون الهدايا التي تُصرف من ممتلكات القصر الملكي. والواقع أنهم كانوا يحملون معهم مؤنًا من المخازن. فكان كل منهم ينصرف ومعه الشعير والشوفان دون أن يوجد واحد من بينهم لم يتسلم نصيبه ... لأجل أن يعمل له الباقي ... مدنهم، دون أن يُعطوا وقت فراغ مدة هذه الأيام الثلاثة ليتمتعوا بالراحة.

ورجال «خنتخت» (طائفة من الناس) يسعون وراءهم إلى المكان الذي يكونون فيه، وكل ما يجدونه هناك هو ملك سيدهم أبدًا ... الرغبة ... في إدارة سيد الأرضين ...

(٤) إعادة تأسيس بعض احتفالات البلاط التي كانت قائمة قبل عهد العمارنة: ... حاملو النعال، وكانوا يسيرون في قاعة الإدارة الواسعة ذهابًا وإيابًا من أبوابها ... وأتى الشريف. ويدخلون من باب القصر بسرعة بالعربة ذاهبين نحو الباب الفاخر، وفي ركابهم كلب سلوقي ... قاعة العرش لابسين ... ومنتعلين أحذية وعصا في هيئة التي في قبضته مثل ... إلى مكانهم، كما كانت الحال قديمًا، وقد حددت التغييرات الخاصة بالقصر العظيم الخاص، ونظام بيت الأمراء، ومنحت بيتًا لتموين (الإله) ... وحجاب قاعة العرش على حسب منهاجهم و... فخمت في كل البيت. ورجال بلاط الملك في مكانهم، وأعضاء مجلس الثلاثين يتبعون النظام ...

الخاتمة: وإذا مُد في أجلي على الأرض لأني أقوم ببناء آثار للآلهة ... فإني سأجدد ولادتي مثل القمر ... منضمًّا إلى الحياة والخلود والسعادة.

وقد شع جسمه على أقاصي البلاد مثل قرص «رع»، وقد أضاء جسمه مثل ضوء «رع» عندما يظهر في فصل الفيضان، وجماله قد أصبح غاية في البهاء، وقوته صارت في قلوب الناس.

ليتكم ترعون هذه المراسيم التي جددها جلالتي لإعادة تنظيم البلاد كلها بعد أن فكر جلالتي في أعمال العسف التي كانت تُرتكب في هذه البلاد ... (راجع Chronique D'Egypte No. 44. (Juillet 1947) p. 230ff).

وتدل صور «حور محب» التي عُثر عليها حتى الآن على أنه كان رجلًا صاحب خلق عظيم جمع بين النشاط والشدة ولين الجانب، وأجمل هذه الصور قطعة من الجرانيت حُفظت لنا عليها صورة محياه، والواقع أن الناظر إليها لا يجد فيها شيئًا من الجاذبية أو ما ترتاح إليه العين، فالوجه كان لم يزل يعبر عن نضرة الشباب، غير أنه كان يشتم منه ريح الكآبة، وهو تعبير قلَّ أن نجده على وجوه الفراعنة الذين عاشوا في أزهى عهود مصر، ويُلاحظ أن أنفه الرفيع المستقيم قد ركب في صورته بإتقان، وعينيه المستطيلتين لهما جفنان ثقيلان، وشفتيه الغليظتين المنقبضتين بعض الشيء عند طرفي الفم قد سُويتا بصورة مرهفة ينبعث منهما نشاط فذ، كما أن ذقنه المتماسك المحكم الصنع قد فقد بعض شكله باللحية المستعارة التي رُكبت فيه، وفي الحق نجد أن كل تفصيل في أجزاء وجهه قد عالجها المفتن بدرجة عظيمة من الحرية، حتى ليخيل للإنسان أن المثَّال كان ينحت تمثاله في مادة لينة، لا في حجر تكاد تقاوم صلابته آلة النحات، غير أن السيطرة التامة قد أظهرها المثال على هذا الحجر بما نشاهده من نتيجة ممتازة جعلت الإنسان ينسى صعوبة العمل فيه، وما لاقاه المفتن من مشقة مضنية في إخراجه.

على أن ملامح وجه «حور محب» الحالمة لم تعفِه على أية حال من إظهار نشاطه الفذ في خارج مصر كما أظهره في داخلها؛ إذ على الرغم من أن مصر لم تنزل قط عن حقها في السيطرة على كل وادي النيل حتى «الشلال الرابع»، فإنها منذ عهد «أمنحتب الثالث» على ما يظهر لم يَسِرْ أي فرعون بشخصه على رأس حملة إلى قبائل أعالي النيل. وقد كان «حور محب» يرغب في إحياء تلك العادة التي كادت تكون مفروضة على الفراعنة عند توليتهم العرش، وهي القيام بحملة إلى بلاد «كوش». ولذلك انتهز فرصة خروج بعض القبائل هناك وسار على رأس جيش إلى هذه الأصقاع كما ذكرنا من قبل. وكان قد أمر في هذه الفترة بإقامة البوابتين الجنوبيتين في معبد الكرنك؛ ولذلك كانت أعمال قطع الأحجار سائرة على قدم وساق في محاجر «سلسلة». وكذلك كان قد أصدر أوامره بنحت مقصورة ضخمة تذكارية في هذه المحاجر في صخور الحجر الرملي، وهي التي أهداها لوالده «آمون رع»، وإلى الإلهين المحليين «حابي» و«سبك» رب «أمبوس». وهذه المقصورة أو الكهف قد حُفر إلى عمق بعيد في جانب التل، وقد حُليت حجراته الداخلية المظلمة بمناظر العبادة العادية، غير أن المدخل المقبب الذي يؤدي إلى هذه الحجرات قد رُسم على جداره الغربي انتصارات هذا الفرعون على هذه الأصقاع، فنشاهد في هذا المنظر صورته وهو يتقبل من «آمون رع» رمز حياة سعيدة طويلة، وصورة

أخرى له وهو يفوق سهامه على جم غفير من الأعداء الفارِّين، وكذلك نشاهد السودانيين رافعين رءوسهم إليه متضرعين، كما نشاهد جنودًا يمشون ومعهم الأسرى. ويُلحظ فوق أحد الأبواب اثنا عشر قائدًا سائرين، وهم حاملون الفرعون على محفة في حين نشاهد جماعة من الكهنة والأشراف يحيونه ويطلقون له البخور (راجع Br. A. R. III, § 40; L. D. III, 211a–b).

(١-٢) الحملة إلى بنت

وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة نعلم أن السفن المصرية كانت تمخر عباب البحر، والظاهر أنه في عهد «حور محب» أخذت مصر تعيد علاقاتها مع بلاد «بنت» بعد أن استقر فيها الأمن وسادها السلام؛ إذ نشاهد منظرًا ممثلًا على الجدار الذي يوصل بين البوابتين اللتين أقامهما «حور محب» في معبد الكرنك، ظهر فيه الملك على اليمين عاقدًا مجلسًا ويستقبل رؤساء بلاد «بنت»، وهم يقتربون منه من جهة الشمال يحملون حقائب مفعمة بالتبر وريش النعام … إلخ، وقد نُقش فوقهم المتن التالي:

> **خطاب رؤساء «بنت» العظام**
>
> السلام عليك يا مليك مصر، يا شمس الأقواس التسعة، بحياة حضرتك إنا لا نعرف مصر، وإن آباءنا لم تطأ أقدامهم أرضها فأعطنا النفس الذي تمنحه، وإن كل الأراضي تحت قدميك. (راجع;Mariette Monuments divers 88 Brugsch Recueil de Monuments II, 57, 3. — Brugsch Recueil XVII, 43). وفي منظر آخر[١] نشاهد «حور محب» يقدم محاصيل بلاد «بنت» التي استولى عليها حديثًا للإله «آمون»، كما يدل على ذلك النقش التالي: «إحضار الجزية (الهدية) بوساطة جلالته لوالده «آمون» وهي جزية بلاد «بنت» … بقوتك المظفرة وإنك قد صيَّرت رؤساءهم في خوف بسبب الفزع منك … حاملين كل جزيتهم على ظهورهم، وإن قوتك لعظيمة في كل أرض.»

ولا غرابة في أن نرى «حور محب» يرسل مثل هذه الحملات التي كانت على ما يظهر سلمية إلى بلاد «بنت»، كما أرسل أخرى إلى بلاد «كوش» لإخضاع الثوار وجعلهم

[١] راجع: L. D. III, 121a–b.

يدفعون ما عليهم من جزية؛ إذ لو فحصنا السبب الحقيقي لوجدنا أن الدافع لها كان الإله «آمون»؛ لأن هذا الإله قد قُضي عليه بالإهمال والترك في زوايا النسيان نحو ربع قرن من الزمان، وكان بعد أن استرد سلطانه في حاجة إلى الذهب والفضة لتُملأ بهما خزائنه في هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر مضى، فقد كان في حاجة إلى بنائين لإقامة مبانيه، وعبيد وماشية لمزارعه، وعطور وبخور لإقامة شعائره اليومية؛ ولذلك نجده حفز «حور محب» ليقوم بحملاته إلى تلك البلاد التي ترد منها تلك الخيرات مما جعله يولي وجهه نحو الجنوب كما ذكرنا، وقد عاد منه بالأموال الوفيرة والخيرات العظيمة.

(١-٣) حروبه في آسيا

أما حروبه في الشمال (آسيا) فليس لدينا إلا قائمة أسماء منقوشة على الجانب الشمالي من بوابة الكرنك الحادية عشرة (راجع Champ. Notices Desc. II, 178; Br. A. R. III, §§ 34–36). ولم يبقَ منها إلا اثنا عشر اسمًا محفوظة نقرأ من بينها «خيتا»، وإلا نقش نشاهد فيه «حور محب» يقود بيده ثلاثة صفوف من الأسرى مقدمًا إياهم للآلهة «آمون» و«موت» و«خنسو» وهم ثالوث «طيبة»، وملابس الأسرى وسحنهم تدل على أنهم آسيويون. والنقوش التي على الصف الأوسط هي: أمراء حينبوت (جزر البحر الأبيض المتوسط) الخاسئون يقولون: «مرحبًا بك! إن اسمك قد أحاط بطرَفَي الأرضين بين كل الأراضي، وكل أرض تخاف بسبب بعد صيتك، ورهبتك في قلوبهم.» أما الصف الأسفل فكُتب فوقه: «الأمراء الخاسئون من … يقولون مرحبًا بك مثل العظيم — والخوف قد دبَّ في أجسامهم والرعب في قلوبهم.»

والواقع أنه ليس في استطاعتنا أن نحكم مما جاء في هذه النقوش عما إذا كانت قد قامت حروب فعلية بين «حور محب» وبلاد «خيتا»، أم لا؛ إذ لم تصلنا حتى الآن نقوش مباشرة عن هذه الحرب لا في النقوش المصرية ولا في النقوش الخيتية، ويقول الأستاذ «إدوراد مير» في هذا الصدد: إن الفصل في هذا الموضوع يتوقف على الحكم فيما إذا كان «خاتوسيل» ملك «خيتا» عند إبرام معاهدته مع «رعمسيس الثاني»، وهي التي أشار فيها إلى: «المعاهدة القديمة التي أُبرمت في عهد «شوبيليوليوما» وعهد والدي «مواتال».»، أنه قد استعمل لفظة «والد» بدلًا من لفظة «أخ» في هذا النص، وحينئذٍ يكون التعبير الصحيح «وبين والدي مورسيل»، وإذا كان الوضع الأخير هو الصحيح فإن المعاهدة تكون قد أُبرمت إذن بين «مورسيل» وبين «حور محب»؛ وبذلك تكون قد نشبت بينهما

حرب (راجع Ed. Meyer Gesch II, 1. p. 412). وعلى أية حال فإن ظواهر الأمور لا تدل على قيام حروب كبيرة بين «حور محب» عندما تولى الملك؛ لأن الأحوال لم تكن في الواقع مهيأة له لإعلان حرب على مملكة «خيتا» التي كانت وقتئذٍ عظيمة السلطان. حقًّا كانت مصر ذات ثروة عظيمة في عهد «أمنحتب الثالث»، ولكن الحروب الخارجية والانقلابات الداخلية التي هزت أركانها في عهد «إخناتون» وأخلافه الضعفاء لم تُغْرِ «حور محب» على القيام بحملات ضخمة على أمة كانت واسعة السلطان عظيمة القوة؛ ولذلك فطن أن الوقت لم يَحِنْ بعدُ لمثل هذه المشروعات الحربية الخطيرة، بل وجَّه همه للإصلاحات الداخلية التي وضعته في مصاف عظماء رجال الإنسانية الحقة، وميزته عن عظماء ملوك مصر الذين امتازوا بعلو الكعب في كبح جماح الظلم والعسف والرشوة التي كانت تئن تحت عبئها البلاد، وترزح تحت أثقالها في عصور التاريخ كلها وبخاصة مدة فترة الانحلال الخلقي العظيم الذي طغى على البلاد من أقصاها لأقصاها، وهو العصر الذي تلا وفاة «أمنحتب الثالث» حتى عهد «حور محب»، وقد كان هذا الانحلال يتمثل في طبقة الموظفين ورجال البلاط فقضى عليه جملة كما فصلنا القول في ذلك.

(٢) أهم الآثار التي خلفها «حور محب» قبل تولي الملك

(١) وُجد له تمثالٌ في معبد «آمون» «بالكرنك»، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري (راجع سجل المتحف رقم ٤٢١٢٩).

(٢) تمثال من معبد «تحوت» في «منف» (راجع J. E. A. Vol. 10. p. 1–5; B. M. M. Part. II, October (1923) pff).

(٣) وقد أقام «حور محب» لنفسه مقبرة فخمة في «سقارة» تُعَدُّ من الطراز الأول في النقش، ويظهر فيها فن عصر العمارنة بصورة واضحة. ومما يؤسف له أن هذه المقبرة قد مزق شملها المخربون؛ ولذلك توجد أجزاؤها في مختلف متاحف العالم وهي:

متحف ليدن: وتوجد فيه قطعة (راجع Leiden Boeser Beschiyv IV, Pl. XXIII–XXIVb).

متحف «فينا»: وفيه قطعة باسم هذا الفرعون (Breasted. A. Z, 38. p. 47).

متحف «برلين»: يوجد فيه كتلة Berichte Aus Berl Mus. 49. Heft 2. p. 34.

متحف «بولونيا»: وُجد فيه قطع كذلك من جدران هذا القبر عليها مناظر مختلفة (راجع Capart J. E. A, 7. p. 31; & Von Bissing Denkmaler).

المتحف البريطاني: يوجد فيه عارضتا باب (راجع p. 130–1.,&Gauth.L.R. II, p. 383).

المتحف المصري: يوجد فيه عارضتا باب وعمود كان في قبره من سقارة (راجع De Rougé Insc. Hierog p. 107–8. & Gauth. Ibid).

متحف «اللوفر»: يُوجد فيه عارضتا باب وواجهة، كما يوجد فيه قطعة من جدار (راجع Wiedemann. P. S. B. A, II, p. 424).

متحف الإسكندرية: كانت فيه قطعة من هذا القبر، غير أنها قد اختفت (راجع Wiedemann. P. S. B. A, II, p. 424).

متحف «ليننجراد»: يوجد فيه لوحة (راجع A, Z. 72, p. 311ff).

وخلافًا لذلك نجده قد مُثل في نقوش قبر كاهن أعظم في «منف»، وهذا النقش موجود الآن في برلين (راجع Spiegelberg A. Z. 60. p. 56)، كما نجده ممثلًا على الجدار الشرقي من حجرة دفن الملك «توت عنخ آمون»، غير أنه لم يُذكر بالاسم، بل تدل شواهد الأحوال على أنه «حور محب» كما ذكرنا من قبل.

(٣) آثار حور محب الملك

الواقع أننا لا نعرف إلا القليل عن آثار الفرعون «حور محب» في أثناء توليه عرش الملك غير ما ذكرنا. ففي السنة الأولى من حكمه وصلت إلينا وثيقة عرفنا منها حسن مقاصده بالنسبة لعبادة الإله «بتاح» (راجع Mariette Karnak, 47d. in Mariette Karnak Plan G).

وفي السنة الثالثة من عهده أقام «نفر حتب» مدير أملاك الفرعون مقبرته. أما حروبه التي شنَّها على أهل الجنوب في السودان وحروبه مع أقوام «حايونبوت» في الشمال (سكان جزر البحر الأبيض) فلا نعلم على وجه التأكيد موعد حدوثها بعد توليه العرش أو قبله، ومن المحتمل أنها تُعزى إلى الجزء الأول من حياته كما سبق الكلام عن ذلك. أما التواريخ التي تدل على طول مدة حكمه منفردًا، فقد عثرنا منها حتى الآن

على «استراكون» مؤرخة بالسنة السابعة من حكمه، وقد كُتب عليها تظلم رجل يُدعى «حاي» يشكو فيه من أن قبر والده كان قد منحه في السنة السابعة من حكم «حور محب»، وأنه الآن في السنة الواحدة والعشرين (لم يذكر اسم الملك) ولم يتسلم بعد وثيقة الملكية. على أنه ليس لدينا برهان على أن السنة الواحدة والعشرين تعود إلى حكم الملك «سيتي الأول». غير أنه من الجائز أن «حور محب» بعد أن ألغى عبادة «آتون» أرَّخ حكمه بوصفه ملكًا منذ توليه قيادة الجيش.

وعلى الرغم من أن عبادة «آتون» قد أُقصيت من مكانتها الممتازة في عهد «توت عنخ آمون» إلا أنها لم تكن قد مُحِيَتْ تمامًا من البلاد؛ يدل على ذلك حفر اسم «حور محب» على معبد «آتون» في «تل العمارنة» (Petrie. Amarna XI, 5.)، وكذلك وجود التعبير «إن جسم «رع» هو «آتون»» حتى السنة الثالثة من حكم هذا الملك (راجع Miss. Arch. Franç. Caire, V, p. 499).

ولكن لم يلبث «حور محب» أن محا كل أثر من هذا النوع حتى أسس مباني «إخناتون» في «طيبة» كما استعمل أحجارها، وكذلك أحجار مباني «توت عنخ آمون» والملك «آي» في إقامة بوَّاباته بالكرنك.

(٤) وفاته

وقد قضى «حور محب» في سن متقدمة، وشيخوخة موقرة، ودُفن بقبره في «طيبة»، والواقع أنه أقام لنفسه ثلاث مقابر؛ الأولى في «تل العمارنة» (وإن كان ذلك فيه شك)، ولكنه لم يتقدم في بنائها كثيرًا، والثانية في «منف»، وكانت من بدائع ما أخرجته يد كل من المهندس والمفتن المصري، وتصور لنا حياته الحكومية وكيف مهد السبيل إلى اعتلاء عرش الملك، والقبر الثالث في «أبواب الملوك» على الضفة الغربية من النيل، وهو مزين بالرسوم التقليدية والمتون الدينية الخاصة بالعالم السفلي بوصفه ملكًا، وفي الحجرة الداخلية من هذا القبر نجد تابوته المصنوع من الجرانيت الأحمر لم يزل موجودًا في مكانه الأصلي، وقد حُليت جوانبه بصورة أربعة الآلهة الحامية للمتوفى، كما كانت العادة في تزيين مثل هذه التوابيت، ويُلاحظ أنها كانت ناشرة أجنحتها على الأركان الأربعة للتابوت.

أما صندوقه الخشبي فقد نُهب ولم يُعثر فيه على شيء قط، كما أن مومية هذا الفرعون قد اختفت، ولا نعرف عنها شيئًا قط.

ولا نزاع في أن «حور محب» قد وضع أمامنا صفحتين في التاريخ يكاد يمتاز بهما عن كل ملوك مصر؛ ففي قبره في «منف» صفحة عن الرجل الموظف وحياته، ولما اعتلى الملك طوى هذه الصحيفة ونشر أمامنا أخرى تمثله وهو ملك، ولم يُجَارِه في هذا المضمار إلا الملك «آي» سلفه؛ ومن ثم نستطيع أن نقول بحق إنهما هما الرجلان اللذان مهدا السبيل إلى استعادة مجد مصر بعد أن ضيعه «إخناتون» في عهد إصلاحه الديني.

ويُعد «حور محب» في نظر المصريين وفي نظر التاريخ عامة ملكًا شرعيًّا نشأ من لا شيء، ومات ملكًا متوَّجًا، وحقق لبلاده ما لم يحققه ملك من الذين نشئوا من دم ملكي، ولم يترك للعرش وارثًا، ولذلك كان هذا الروح الفريد، والعقل الفذ الذي حرك سكان الحكم في مصر بروية وحزم في الطريق القويمة ثانية، بعد أن ضلت السبيل فترة من الزمن؛ نعمة عظمى لمصر، والرجل المثالي الذي شيد للعدالة صرحًا لا نزال نترسم خطاه.

(٥) آثاره بعد توليه العرش

أما آثاره التي تركها لنا بعد توليه العرش فهي قليلة بالنسبة للملوك الآخرين، وربما يُعزى ذلك لأن حكمه الحقيقي لم يَدُمْ طويلًا، ومع ذلك فإنا نجدها منتشرة في طول البلاد وعرضها، وسنذكرها على حسب الترتيب الجغرافي بقدر المستطاع.

(٥-١) منف (مدافن العجل أبيس)

في عهد «حور محب» دُفن العجل الثالث والعجل الرابع، وقد دُفِنَا في قبر مزدوج. ففي الحجرة الأولى دُفن العجل أبيس الثالث، وقد زُينت جدرانها بالآلهة، وبصورة العجل أبيس نفسه (راجع Mariette Serapeum Pl. 3)، وفي الحجرة الثانية دُفن العجل الرابع، ووُجد معه أواني الأحشاء، وهي في «متحف اللوفر» الآن (راجع Porter & Moss III, p. 205).

(٥-٢) قرية بوصير

وُجدت قطع مختلفة تحمل طغراء «حور محب» (راجع L. D. Text. I, p. 139)، وفي معبد «بتاح» «بمنف» وُجد له تمثال وهو الآن بمتحف «مترو بوليتان» «بنيويورك»

(راجع J. E. A. X, Pls. 1–IV, p. 1–5). وكذلك وُجدت قطعة من الحجر الجيري في «منف» عليها طغراء «أمنحتب الرابع» و«حور محب» (راجع Porter & Moss. Ibid p. 224). ووُجد تاج عمود في ضرب الجماميز، ويُحتمل أنه جيء به من «منف» (راجع Wiedemann Gesch. p. 409).

(٥-٣) غراب

وفي قرية «غراب» وُجدت له خواتم عدة باسمه (Petrie Kahun XXIII, & Petrie Illahun XXIII).

(٥-٤) وفي «القاهرة»

جزء من لوحة كبيرة للفرعون «حور محب» يُحتمل أنها من «هليوبوليس» وقد استُعملت أسكفة (راجعA. S., IV, p. 103–4)، وكذلك وُجدت زاوية باب من الحجر الرملي عليها طغراء «حور محب» (راجع A. S., IV, p. 103)، وقد عُثر عليها قبالة جامع السلحدار.

(٥-٥) العرابة

وبالقرب من معبد «سيتي الأول» عُثر على مجموعتين من التماثيل باسم هذا الفرعون: واحدة منهما من الحجر الجيري الأبيض، والثانية من الجرانيت تمثل كل منهما «حور محب» ومعه «أوزير» و«إزيس» و«حور» وهما بالمتحف المصري الآن (راجع الدليل: A Brief Desc of Monuments (1932) p. 85.).

(٥-٦) «طيبة» في «الكرنك»

أقام هذا الفرعون ثلاث بوَّابات كما ذكرنا آنفًا في معبد الكرنك، وكانت تمتد أمام البوابتين التاسعة والعاشرة طريق كباش تشمل ثمانية وعشرين ومائة تمثال في هيئة «بولهول» برأس كبش، وقد وُصفت بأنها أجمل شيء من نوعه حتى الآن في «طيبة» (Champ Notices Desc. II, p. 172.)، هذا إلى أنه أقام جدارًا من الجرانيت بين البوابة الخامسة والمحراب الجرانيتي بالكرنك أيضًا (راجع Ibid p. 139).

(٥-٧) وفي معبد «الأقصر»

وضع «حور محب» اسمه على عمد «أمنحتب الثالث» الكبرى الموجودة في قاعة العمد التي بمعبده (راجع Baedeker p. 129. (1929))، وكذلك نقش «حور محب» على كل الجدار الغربي من معبد الأقصر مناظر عودته إلى الأقصر من «منف».

(٥-٨) وفي معبد بتاح

ترك لنا بعض نقوش باسمه (راجع Mariette Karnak, 74d)، كما وُجدت له لوحة في معبد الكرنك أيضًا (A. Z. XXVI, p. 70). وفي الكرنك وُجد «لحور محب» تمثال صغير من الخشب المتحجر (Legrains; Statues No. 42095).

وتمثال آخر في نفس المعبد في صورة «بولهول» (Legrains ibid 42096)، وعُثر على قطعتين من مسلة صغيرة باسم «حور محب» (راجع Legrains, Repertoire No. 321). ولوحة له أيضًا (راجع A. S. IV, 9–10).

(٥-٩) وفي معبد آمون

وُجدت له لوحة لا تزال في مكانها (راجع Legrains ibid p. 107–14)، ومتن مؤرخ بالسنة الأولى من حكم هذا الفرعون، ولم يبقَ منه إلا ثلاثة أسطر (راجع Brugsch Thesaurus 1223–4)، وقطعة حجر في معبد «خنسو» وعليها اسم «حور محب» (Champ. Notices p. 217.)، وكذلك نجد أن «بينوزم» قد نقش مناظر له كانت في الأصل لحور محب (راجع Ibid. p. 221).

(٥-١٠) وفي «طيبة الغربية»

ترك لنا نقوشًا في الدير البحري ادَّعى فيها أنه أصلح آثار والد آبائه «تحتمس الثالث»، ولا يبعد أن تكون إعادة حفر المناظر التي محاها «تحتمس الثالث» من عمل «حور محب» كما يقول «بتري»؛ لأن تحمسه لعبادة «آمون» قد يكون السبب الذي دعا لذلك. وكذلك أصلح بعض مناظر «بنت» (راجع Petrie History of Egypt II, p. 254; Champ. Notices I, p. 574).

(٥-١١) وفي مدينة «هابو»

ترك لنا نقوشًا ادَّعى فيها أنه قام بإصلاحات في المعبد الصغير، وهذه النقوش توجد على كلا جانبي المدخل الرئيسي في النهاية الشمالية من الردهة (راجع L. D. III, p. 202d).

(٥-١٢) وفي متحف «برلين» (Berlin Mus. No. 1497.)

جزء من تمثال لإله النيل، وكذلك أجزاء من متن من تمثال ضخم للفرعون «حور محب» (راجع L. D., III, 112c, d, e & Text III, pp. 147).

(٥-١٣) أرمنت

وفي مدفن العجول بجهة «أرمنت» عُثر على قطع من الحجر الرملي عليها متون باسم «حور محب» و«آتون» وهذه القطع مبنية في الجدار (راجع Porter & Moss, V, p. 159).

(٥-١٤) كوم أمبو

وفي «كوم أمبو» وُجدت قطعة مستعملة في بناء المعبد الرئيسي من عهد البطالمة، وعليها طغراء «حور محب» (راجع Procktesch Van Osten Nil fahrt p. 479).

(٥-١٥) أسوان

وفي إحدى مقابر أسوان المنحوتة في الصخر وُجد في حجرة الدفن مع أشياء أخرى خاتم باسم «حور محب» (راجع A. S., VI, p. 282).

(٥-١٦) كوبان

وعُثر له في «كوبان» على تمثال برأس أسد (Murray Guide to Egypt Ed. 1889 p. 538).

(٥-١٧) جبل عدة

وفي جبل عدة حفر «حور محب» لنفسه محرابًا فخمًا، ويُلاحظ أنه لم يرسم مناظر حربية كعادة الملوك الفاتحين بالنسبة لبلاد النوبة، وهذا مما يحمل على الظن أن «حور محب» لم يقم بأعمال حربية في آخر أيامه، بل كانت حروبه كلها في الجزء الأول من حياته (L. D. III, 122 a–f & Plan Champ. Notices Desc. II, p. 5).

(٥-١٨) تماثيل الفرعون «حور محب»

ولدينا من تماثيل هذا الفرعون أمثلة تدعو للإعجاب في دقة الصنع وبراعة الفن في تفصيل أجزاء الجسم وتمثيلها للواقع:

(١) ومن أهم ما لدينا الجزء الأعلى من تمثال ضخم عُثر عليه في مدينة «هابو» وهو الآن في «متحف برلين» (راجع L. D. III, 112c. وقد تكلمنا عنه فيما سبق).

(٢) مجموعة تماثيل من الحجر الجيري الأبيض مُثل فيها الملك والإله «آمون» وهي الآن بمتحف «تورين».

(٣) تمثال ضخم في فندق الأقصر (Wiedemann Gesch p. 411).

(٤) تمثال نصفي من البازلت الأحمر (؟) في متحف «فلورنس» الآن، ولا بد أنه جزء من تمثال راكع (Schiaparelli. Cat. Flonence 1225).

(٥) تمثال للفرعون بوصفه «حابي» إله النيل (Budge Guide Sculp. 125).

(٦) مجموعة تمثل هذا الفرعون مع الإله «حور» في «كاستل كتاچو» (Castel Cattajo) (راجع Wiedmann Gesch p. 411). هذا عدا ما ذكرناه فيما سبق.

أما عن آثاره الأخرى الصغيرة مثل الخواتم والتعاويذ والجعارين فموجودة بكثرة (راجع Wilikenson Manners & Customs ed–Birch II, 342ff).

أما زوجه فقد عُثر لها على تمثال معه، كما سبق ذكر ذلك، كما وُجد لها خواتم (راجع Flinders Petrie Coll. Scarabs; Berl. Mus).

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على آثار هذا الفرعون نجد أنه على الرغم مما يُنسب إليه من طول مدة الحكم أحيانًا بما يُقدر بنحو ربع قرن، وأحيانًا بأنه لم يحكم بوصفه

ملكًا إلا سنين قلائل، فإن آثاره كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها بدرجة لا بأس بها، غير أننا مع ذلك نميل إلى الرأي القائل بأنه لم يحكم بوصفه ملكًا فعليًّا إلا مدة قصيرة.

(٦) الموظفون في عهد «حور محب»

إن ما لدينا من معلومات عن رجال أواخر الأسرة الثامنة عشرة لا يمكننا من تمييز الرجال البارزين الذين خدموا في عهد الفرعون «حور محب» بصفة قاطعة، وقد يُعزى السبب في ذلك إلى تلاحق الملوك بسرعة على عرش البلاد بعد موت «إخناتون». ومن جهة أخرى لقصر المدة التي تولى فيها «حور محب» عرش البلاد منفردًا. وأهم الشخصيات البارزة في عهده ما يأتي:

(٦-١) نفر حتب

الكاهن «والد الإله».

كل ما نعرفه عن هذا الكاهن مستقًى من مقبرته الجميلة المعروفة المنحوتة في صخور «العساسيف» في «طيبة» الغربية (راجع Mem. Miss. Fr, V, pp. 489–540, Pls. 1–VI).

وألقابه هي (١) والد الإله «لآمون رع»، وقاضي المكان العظيم، وتشريفاتي والدته (؟)، وساقي الإله «آمون».

وقبر هذا الموظف يحتوي على مناظر ونقوش لها أهمية عظمى من الوجهة الدينية من حيث إقامة الشعائر الجنازية، هذا إلى أنه يحتوي على منظر تاريخي ذي قيمة عظيمة؛ إذ نشاهد «نفرحتب» وهو يتقبل الإنعامات الفرعونية من يد الملك «حور محب» نفسه.

فنرى في قاعة مزار قبره على الجدار من جهة اليمين الفرعون «حور محب» في منظر واقفًا في الشرفة الملكية مرتديًا قبعة الملك الخاصة، وفي يده سوط ملكي، ويسير خلفه تابعان، وأمامه تشريفاتي البلاط، ويصحبه وزيرا الدولة، وخلف هؤلاء نشاهد «نفرحتب» رافعًا يديه بسرور، وكان يطوق جيده بقلائد من الذهب تابعان، ونرى كذلك

أساور من ذهب وقلائد كانت مجهزة على منضدة أمام الشرفة ليحلي بها جيده، والمتون التي تتبع هذا المنظر هي:

فوق صورة أتباع الملك: المشرف على أملاك الفرعون، وساقي الملك، وتابع الملك في كل مكان.

أمام الملك: السنة الثالثة في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري زسر خبر ورع (حور محب).

تأمل! فإن جلالته قد ظهر مثل الشمس في قصره صاحب الحياة المرضية، بعد أن قرب الخبز لوالده «آمون»، وعند خروجه من بيت الذهب انتشر الحبور في كل الأرض، ووصل الفرح إلى عنان السماء، وقد طلب «نفرحتب» والد الإله «آمون» ليتقبل الإنعام في حضرة الملك، وهو عشرات آلاف من كل شيء من الفضة والذهب والملابس والعطور والخبز والجِعة واللحم والفطائر عند طلب سيدي آمون الذي يحفظ لي حظوتي في الحضرة (الملكية).

الكاهن المرتل الذي يسر قلب آمون «نفرحتب» يقول: «ما أعظم أملاك من يعرف عطايا هذا الإله ملك الآلهة، وإن من يعرفه لذو حكمة، ومن يخدمه محظوظ، ومن يتبعه فإن نصيبه الحماية، وإنه شمس جسمه، وقرص الشمس المخلد ملكه أبدًا.» ولا نزاع في أن القارئ يشتم من هذا المتن رائحة بقايا عبادة «آتون» التي لم يكن في الاستطاعة اقتلاعها من جذورها دفعة واحدة، وبعد هذا الإنعام نشاهد «نفرحتب» متقلدًا قلائد من ذهب، ثم يقابل أخاه «أمنحتب» وقد نُقش فوق رأسه اسمه والألفاظ التالية: «كوفئ بالفضة والذهب من الملك نفسه.» ثم يتبعه كاهن آخر يلبس قلائد مشابهة، ونُقش معه الكلمات التالية: «وصول والد الإله «لآمون» «برننفر» المرحوم، في سلام حاملًا إنعام الملك.»

أما المناظر الجنازية التي نشاهدها في هذا القبر فهي التي كنا نشاهدها في القبور التي من قبل عهد «إخناتون»؛ إذ نرى المتوفى في وليمة مع أسرته، وكذلك القربان التي كانت تُقدم، ومتونًا خاصة بالأعياد، غير أن الشيء الجديد الذي نلحظه هنا هو ظهور متن يشبه المتون التي كنا نقرؤها في عصر التشكك الذي جاء على أثر الانقلاب الاجتماعي العظيم الذي تلا سقوط الدولة القديمة (راجع كتاب الأدب المصري القديم الجزء الثاني ص٢٢٢–٢٢٨)، ولا غرابة في ذلك؛ إذ لو أنعمنا النظر لوجدنا أن الانقلاب الذي أحدثه «إخناتون» قد أثَّر في نفوس القوم، وخلخل عقائدهم، وجعلهم ينظرون للحياة نظرة

تجعلهم يتجهون إلى التمتع بمناعمها ولذائذها؛ لأنهم لا يعرفون ماذا سيكون مصيرهم بعد الموت. وسنرى أن هذه السحابة المليئة بالتشكك لم تمكث طويلًا، بل ستهدأ النفوس ثانية، ويعود إيمانها عندما يعود الأمن إلى نصابه، وتسود السكينة في البلاد.

وإنا من جانبنا لنلتمس لمصري هذا العهد بعض العذر بل كل العذر؛ إذ نجده في نفس الموقف الذي كان يقفه كاتب أغنية الضارب على العود الذي كان يرى مقابر العظماء والملوك تُخرب وتُنهب على مرأًى منه، وهذا هو نفس ما شاهده «نفرحتب»؛ فقد رأى قبور الملوك العظام تُهدم وتُسرق على مرأًى من رجال الحكومة وليس في مقدورهم عمل أي شيء لإصلاح ما تهدم منها، إلى أن قام «حور محب» بوضع القوانين الفذة، وأمر بإصلاح ما خربه الطغاة، وهاك نص هذه الأغنية:

ما أهدأ هذا الأمير الصالح. إن مصيره الطيب قد حان حينه.
إن الأجسام ينتهي أجلها منذ وقت الإله، ويحل محلها جيل آخر.
والإله «رع» يشرق في الصباح ويغيب «آتوم» في «مانوم» (جبل خرافي تغرب وراءه الشمس كل يوم)، والرجال تلقح والنساء يحملن، وكل أنف تتنسم الهواء. ويطلع النهار وأطفالهم يذهبون فرادى وجماعات إلى أماكنهم.
أمعن اليوم في متاع أيها الكاهن! ضع العطر والزيت الجميل معًا في خياشيمك، وتيجان الأزهار، وأزهار البشنين حول عنق أختك التي تحبها الجالسة بجانبك! وليكن الغناء والموسيقى أمامك! واطرح كل الآلام وراء ظهرك، وفكر في السرور إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي تصل فيه إلى الميناء في الأرض التي تحب الصمت … اقضِ يومك في سرور يا «نفرحتب»، أنت أيها الكاهن ذو اليدين الطاهرتين، لقد سمعت ما جرى … جدرانهم قد خُرِّبت، وبيوتهم كأن لم تغنَ بالأمس، كأنهم لم يكونوا منذ وقت الإله …»

(٦-٢) ري (روي)

رئيس الحكومة المركزية. كان «ري» يُلقب الكاتب الملكي ومدير أملاك «حور محب»، وكذلك مدير ضياع الإله «آمون». والظاهر أنه كان معاصرًا لهذا الفرعون.

وقبره في «جبانة ذراع أبو النجا». ومزار هذا القبر قد حُليت جدرانه بالمناظر الجنازية العادية؛ حيث نشاهد المتوفى واقفًا أمام الآلهة ومنظر الحساب والموكب الجنازي.

ولكن أهم ما يلفت النظر في هذه المناظر مشهد في ثلاثة صفوف نرى فيها أولًا «حور محب» وزوجه ثم «أمنحتب الأول» وزوجه «نفرتاري» يتعبدون للآلهة، وأخيرًا نشاهد المتوفى نفسه تطعمه آلهة تتقمص شجرة (حتحور) (راجع Porter & Moss I, pp. 159–160).

(٦-٣) أمنمأبت

عُثر لهذا القائد العظيم على عدة قطع من جدران قبره، وتوجد الآن في عدة متاحف أوروبية كما يوجد بعضها في المتحف المصري، وقد درسها الأثري «أنكا»، ويظن أن قبره في «منف» في الجزء الشمالي (راجع A. Z., 67. pp 78–82).

وعلى الرغم من عدم ذكر الملك الذي عاش في عهده هذا القائد فإنه بطريق الموازنة أمكنه أن يستخلص أنه عاش في عهد الفرعون «حور محب»، وبخاصة أنه كان يحمل لقب القائد الأعلى لرب الأرضين، وكذلك لقب المشرف على كل الموظفين في الوجه القبلي والوجه البحري، واللقب الأخير كان يمتاز به «حور محب» قبل توليته الملك. وهاك ألقابه ومناقبه كما جاءت على القطع التي وصلتنا من قبره:

(١) الأمير الوراثي والرئيس الأول لمقاطعة «منف».
(٢) مدير عبيد الإلهة «ماعت».
(٣) المشرف على الأعمال في معبد «رع».
(٤) المشرف على الوظائف كلها في الوجه القبلي والوجه البحري.
(٥) مدير كل أعمال الفرعون.
(٦) الممدوح كثيرًا من الإله الطيب (الملك) القائد الأعلى لجيوش رب الأرضين.
(٧) صاحب الفرعون الأول.
(٨) رئيس الرماة.
(٩) مدير بيت الفرعون «تحمس الثالث» (أي معبده).

وأهم ما يلفت النظر في القطع التي عُثر عليها من قبر هذا الموظف الكبير قطعة يُشاهد فيها «أمنمأنت» راكعًا يتعبد وقد نُقش أمامه صلاة يتضرع بها لحور إله الشمس؛ مما يدل على أن القوم كانوا لا يزالون متعلقين بعبادة الشمس، وإن كانت عبادة «آمون»

قد أخذت تتغلب على عبادة كل إله آخر، وما تبقى من هذه الصلاة أو الأنشودة هو: «السلام عليك يا أيها الإله الطيب، يا حور صاحب التيجان الجميلة، أنت يا شمس كل عين، ويا شمس كل من يتبعه.» ومن هذه الأنشودة نلحظ أن النقوش كانت لا تزال متأثرة بعبادة إله الشمس التي كانت تتمثل «لإخناتون» في قرصها الذي كان يسميه «آتون».

(٤-٦) معي

لم يُكشف بعد قبر هذا الموظف، وكل ما لدينا من آثاره هو تمثال عثر عليه «لجران» في معبد الكرنك على مقربة من جنوبي مسلة الفرعون «تحتمس الأول» بالقرب من المكان الذي عُثر فيه على تمثال «أمنحتب بن حبو» السالف الذكر، وهذا التمثال وُجد مهشمًا، وقد مُثل جالسًا القرفصاء، وعلى حجره ورقة مبسوطة يقرأ فيها، وقد نُقش على صدره لقب الفرعون «حور محب». ومما يؤسف له أن نقوشه قد وُجدت مهشمة كذلك، غير أنه قد تبقى منها ما يدلنا على ألقابه وهي: حامل المروحة على يمين الفرعون، ومدير كل أعمال «آمون» في «الكرنك»، والكاتب الملكي، والمشرف على الخزانة. وهذا الموظف معروف لنا من قبل؛ فقد ذكرنا أنه هو الذي كلفه الفرعون «حور محب» بإصلاح مقبرة الملك «تحتمس الرابع» ووضع موميته في مقرها الفاخر. وفي استطاعتنا أن نفهم مقدار عظم مكانته عند الفرعون حينما نعلم أن حاكم «طيبة» نفسه كان تحت إدارته بوصفه سكرتيرًا له. والخطاب الذي وجهه «معي» للفرعون وهو المنقوش على تمثاله من الأهمية بمكان؛ لأنه يذكر لنا الأعمال التي تمت في هذا العهد وما نال الآلهة منها.

يقول: «إن اسمك مضاعف جماله ضعفين يا ملك الأرضين، وإن والدك «آمون» قد أنجبك، وإنك أنت الذي قد شيدت له بيته من جديد، وجعلته ثابتًا أبدًا. وإن الآلهة قد أنجبوك، وأنت تزيد في مؤنهم، وأنت الذي أقمت لهم معابدهم التي قد ذهبت إلى البلى، وقلوبهم قد ابتهجت بما فعلته لهم، وإنك منعم تقيم الشعائر، وقد حفظوك حيًّا ثابتًا معافًى مئات آلاف السنين في سلام، وإنك روحنا، والأنفاس تخرج منك، وأنت تعمل لبقائنا، واسمك يبقى كما تبقى الأبدية.»

والواقع أن الدور الذي كان يقوم به «معي» في خدمة «حور محب» هو دور رئيس الوزراء، وهو في ذلك يشبه «أمنحتب بن حبو» وما قام به من جليل الأعمال للفرعون

«أمنحتب الثالث». وتدل شواهد الأحوال على أنه هو الذي ساعد «حور محب» في كل الإصلاحات البنائية التي قام بها في طول البلاد وعرضها كما ذكرنا من قبل.

والظاهر أن «معي» هذا هو الذي كان يشرف على حفر مقصورة السلسلة التي حفرها «حور محب» في هذه الجهة، غير أن الألقاب التي وُجدت للموظف الذي كان يشرف على هذه المقصورة، ليست موحدة مع ألقابه التي نُقشت على التمثال، ولا مع التي على الصخرة، هذا إلى أن اسم صاحب النقش على مقصورة «حور محب» في «السلسلة» قد وُجد ممحوًّا في كل مكان، ويفسر «لجران» هذا الاختلاف بقوله: إن «معي» كان رئيس كل أعمال «آمون» عندما كان في الكرنك ورئيس الأعمال في الجبانة عندما عُين لتجديد مومية «تحتمس الرابع»، وعندما ذهب إلى «السلسلة»، وكان العمال يقطعون الأحجار العظيمة من الجبل، كان يحمل لقب المشرف على الأعمال العظيمة لسيده؛ أي إنه كان يحمل في كل مكان اللقب الذي يتفق معه.

ولكن الأمر المدهش في نقوش «السلسة» أن اسم هذا الموظف قد مُحي، ولا نعرف لذلك سببًا قط (راجع A. S. p. 213–218).

(٦-٥) نب وع

الكاهن الأول للإله «آمون». وُجد لهذا الكاهن تمثال، وكذلك قطعة من تمثال، وقاعدة تمثال، وتمثال مجيب، وقد جاء عليها ذكر اسم زوجه «موت نفرت» ووالده «حوي»، وكانت الأولى تشغل وظيفة مغنية الإله «آمون رع». أما والده «حوي» فكان يحمل لقب القاضي، والكاتب الماهر. ويُلاحظ أن «نب رع» كان يحمل لقب الكاهن الأكبر للإله «آمون» هكذا: الكاهن الأول «لآمون» البحيرة، والكاهن الأول «لآمون رع» البحيرة، الكاهن الأول «لآمون رع» ملك الآلهة للبحيرة، والكاهن الأول «لآمون رع» في «سما بحدت» عاصمة المقاطعة السابعة عشرة من مقاطعات الوجه البحري (راجع Histoire des Grands, Pretres d’Amon de Karnak (p. 245.) Legrain Repertoire p. 192).

لمحة عن ممالك الشرق التي جاء ذكرها في خطابات تل العمارنة

بابل

يدل ما جاء في رسائل «تل العمارنة» وفي قائمة ملوك الكاسيين على أن لفظة «كاراينداش» كانت علمًا على بلاد «بابل»، ويظهر أن هذا الاسم كان مرادفًا في الأصل لاسم «أرض البحر الجنوبية» التي كان يحتلها قوم «الكاسيين»، وهذه البلاد بعينها هي التي أُطلق عليها فيما بعد أرض «كلديا»، ولكن عندما وسع الكاسيون أملاكهم شمالًا أُطلق على كل هذه البقاع اسم «كاردونياش»، ولذا نجد مثلًا الملك «سنخرب» استعمل هذا الاسم للدلالة على «أرض البحر». وكلمة «كاراينداش» كاسية الأصل، غير أن معناها ليس معروفًا لنا تمامًا. ويظن بعض المؤرخين أن معناها «أرض البحر» (راجع Husing, Orientalistische, Literatur-Zeitung (1915) p. 1–4).

ومما يلفت النظر في خطابات «تل العمارنة» أن اسم «بابل» كان يُذكر غالبًا فيها باسم «كاشي»؛ مثال ذلك ما جاء في الخطاب ٧٦ سطر ... إلخ: «أن «عبدي أشرتا» الكلب الذي يبحث لنفسه على الاستيلاء على كل المدن، يا أيها الملك، ويا أيها الشمس، فهل هو ملك «متني» أو ملك «كاشي» الذي يبحث للاستيلاء على أرض الملك نفسه؟» وفي الخطاب ١٠٤ سطر ١٧ إلخ؛ حيث نجد: «من هم أبناء «عبدي أشرتا» عبيد الكلاب؟ فهل هم ملكا «كاشي» وملك «متني»؟»

غير أنه مما لا شك فيه أن لفظة «كاشي» في نفس خطابات «تل العمارنة» تدل على بلاد النوبة الأفريقية، ويحتمل أن هذا المعنى يوجد في الخطابات التالية (راجع ١٢٧ سطر ٢٢، ١٣١ سطر ١٣، ٢٤٦ سطر ٨، ٢٨٧ سطر ٧٢).

ولكن تدل على وجه التأكيد على بلاد «كوش» في الخطاب ١٣٣ سطر ١٧؛ حيث نجد الاسم «ملوخا» مرادفًا للفظة «كاشي». هذا على زعم أن التصحيح الذي أُجري في هذين اللفظين معترف به؛ إذ الواقع أن لفظة «ملوخا» معناها بلاد النوبة بما في ذلك «أثيوبيا»، كما أن لفظة «ماجان» معناها «مصر» (راجع Winckler in Keilinschrifliche Bibliothek. V, p. XXX, Note 1).

ومن المحتمل أن لفظة «كاشي» قد نشأت في «بابل» ثم نُقلت إلى بلاد العرب وأخيرًا إلى شمال شرقي أفريقية.

ويجوز أنه في عهد تاريخ بلاد «بابل» المتأخر أو في بابل في عهد الأسرة الكاسية قد أُطلق على البلاد اسم «كاشي»، واتفق أن هذه التسمية كانت تُدعى بها الأسرة التي جاء أسماء ملوكها في خطابات «تل العمارنة».

على أننا من جهة أخرى لا يمكننا أن نعرف على وجه التأكيد من هم هؤلاء الكاسيون، وعلى أية حال يظهر أنهم كانوا جنسًا من «الهنود الجرمان»، وهم قوم عُرفوا بتربية الخيل، وكذلك كانوا طائفة حكام، أو طبقة أرستقراطية، بينهم وبين أهل «متني» الذين حكموا البلاد فيما بعد قرابة جنسية، وقد استوطنوا في «بابل» حوالي عام ١٧٥٠ق.م، وبقوا يقبضون على زمام الأمور فيها حوالي خمس وستين سنة وخمسمائة، وهؤلاء القوم لم يكونوا أصحاب ثقافة بل كانوا أميين، وكل ما وصل إلينا من لغتهم بعض مفردات قليلة (راجع Delitzsch, Die Sprache der Kossaer p. 25).

ومنذ حكم الملك «سمسو ألونا» المبكر نصادف قبائل من الكاسيين مغيرين على تخوم «بابل» الشرقية (راجع King, Letters III, 242)، غير أن فتحهم لبلاد «بابل» كان قد حدث تدريجًا وعلى مهل. ويُعد «جانداش» (أو جدَّاش) المؤسس لأسرتهم في «بابل»، وقد حكم بعده على أقل تقدير ثلاثة عشر ملكًا قبل أن يقبض «كارايانداش الأول» على زمام الأمور في هذه البلاد، ويُعد أول ملك كاسي كانت له علاقات بمصر على قدر ما وصلت إليه معلوماتنا. وقد استهل «كاريانداش» حكمه حوالي عام ١٤٦٠ق.م؛ وبذلك كان معاصرًا للفرعون «تحتمس الرابع» (حوالي ١٤٢٠–١٤١١ق.م)، ومن المحتمل أنه الملك الذي كتب إليه الفرعون «تحتمس الرابع» يقول: «مكن الإخاء الطيب بيننا.» وكذلك راسل «كارايندا ش» «أمنحتب الثالث» (حوالي ١٤١١–١٣٧٥ق.م)، وزوجه من ابنته.

وأوثق تواريخ يمكن الاعتماد عليها للتأريخ الكاسي أو الأسرة البابلية الثالثة هي التي اقترحها الأستاذ «ألبريت» (A Revision of the Early Assyrian and Middle Babylonian Chronology. Revue d'Assyriologie etd, Archeologie Orientale XVIII, 82–94).

وهاك التواريخ المقارنة التي وضعها:

مصر	بابل	آشور
تحتمس الثالث ١٥٠١ق.م	كارانداش الأول ١٤٦٠ق.م	آشير-رابي الأول ١٤٨٠ق.م
		آشير نيراري الثالث ١٤٦٠ق.م
أمنحتب الثاني ١٤٤٧ق.م		آشيربل نيششي ١٤٤٠ق.م
تحتمس الرابع ١٤٢١ق.م	كوريجالزو الثاني ١٤١٠ق.م	آشير-رم نيششي ١٤٢٠ق.م
أمنحتب الثالث ١٤١١ق٠م	كاداشمان أنليل الأول ١٣٩٠ق.م	آشور-نادين-آخي ١٤٠٠ق.م
أمنحتب الرابع ١٣٧٥ق.م	بورابورياش الثاني ١٣٧٥ق.م	أريبا-أداد ١٣٨٠ق.م

ونجد من بين خطابات «تل العمارنة» أحد عشر خطابًا تخص بلاد «بابل» مباشرة، منها صورتان لخطابين أرسلهما «أمنحتب الثالث» للملك «كاداشمان أنليل الأول»، وثلاثة خطابات تسلمها «أمنحتب الثالث» من «كادشمان أنليل الأول»، وخمسة كتبها الملك «بورابورياش الثاني» للفرعون «إخناتون»، وكذلك لدينا خطاب يُحتمل أن «بورابورياش الثاني» قد أرسله للفرعون «أمنحتب الثالث»، هذا ويُلحظ في خطابات أخرى من هذه الرسائل إشارات غير مباشرة عن أحوال «بابل». وأقدم ملك بابلي جاء ذكره في خطابات «تل العمارنة» هو الملك «كارايندااش» الأول، وهو الذي كان يراسله «أمنحتب الثالث»؛ وذلك على حسب خطاب من «بورابورياش» للفرعون «أمنحتب الثالث»، وهذا الخطاب قد افتُتح بتذكير الفرعون أنه منذ عهد الملك «كارايندااش» عندما كان والداهما يتراسلان سويًّا فإنهما كانا دائمًا صديقين متحابين، وليس لدينا خطابات في مجموعة هذه الرسائل من عهد الملك «كرويجالزو» الثاني، ولكنا نعرف من الخطابين التاسع والتاسع عشر أنه كان والد الملك «بورابورياش» الثاني، كما نعرف من الخطابين الحادي عشر والتاسع عشر أنه راسل مع الفرعون «أمنحتب الثالث» وتسلم منه ذهبًا كثيرًا،

وكذلك لدينا من الأدلة ما يشير إلى أنه كان على صفاء وود مع «أمنحتب الثالث»؛ لأنه كما ذكرنا من قبل قد رفض ما عرضه عليه الكنعانيون، وهو محالفتهم على «أمنحتب الثالث».[١] ومعظم الخطابات التي تتناول بلاد «بابل» كانت في عهد الملكين «كادشمان أنليل» الأول، و«بورابورياش الثاني»؛ إذ نعرف أن أخت الملك «كادشمان أنليل الأول» قد تزوجت «أمنحتب الثالث».[٢] وبعد ذلك تزوج نفس الفرعون من بنته.[٣] وقد رغب «كادشمان أنليل الأول» في التزوج من إحدى بنات «أمنحتب الثالث».[٤] فلم يجبه إلى مطلبه، غير أنه في نهاية الأمر قنع بالتزوج من إحدى عِلْيَة القوم من المصريين، ويفهم مما جاء في الخطابين الثاني والثالث أن الملك «كادشمان-أنليل» كان يسعى جهد طاقته لإرضاء فرعون مصر، غير أنه لم ينل مقابل ذلك إلا الشيء القليل؛ إذ قد أرسل له ابنته، ولكنه لم تصله هدايا ثمينة كما كان ينتظر، وقد شكا من أن الهدايا لم تكن مثل التي أرسلها «أمنحتب» لوالده من قبله، وكذلك تألم من أن «أمنحتب» قد حجز رسله مدة طويلة في بلاطه، هذا فضلًا عن أنه لم يَدْعُه لوليمة كان يأمل أن يذهب إليها.

ونحن نعلم من جانبنا أن «أمنحتب الثالث» لم يكن من رجال الحرب العظام؛ لأنه لم يوقد نار حرب إلا مرة واحدة في مدة حياته، وهي التي شنَّها على بلاد النوبة في باكورة حكمه، ولكنه من جهة أخرى كان محبًّا لإقامة المباني العظيمة، وقد أراد أن يعقد المحالفات بين الدول المجاورة بالزواج، ولذلك بنى بأخت «كادشمان أنليل»، وكذلك تزوج من أميرتين متنيتين، وهما «جليوخيبا» بنت الملك «شوتارنا»،[٥] والأميرة «تدوخيبا» بنت الملك «دوشرتا»[٦] وكذلك تزوج بنت «كادشمان أنليل الأول»،[٧] وكانت زوجه الرئيسية الملكة «تي».

[١] راجع الخطاب ٩ سطر ١٩–٣٠.

[٢] راجع الخطابين ١، ١٢.

[٣] راجع الخطاب الرابع سطر ٣٣.

[٤] راجع الخطاب الرابع.

[٥] راجع الخطاب ١٧ سطر ٥.

[٦] راجع الخطاب ٢٢.

[٧] راجع الخطاب ٣ سطر ٥.

ومما يسترعي النظر أن الفرعون «أمنحتب الثالث» قد أرسل خطابًا إلى الملك «كادشمان أنليل» يشكو فيه أن الرسل التي أرسلها ليسوا من طبقة راقية، كما شكا من حقارة الهدايا التي بعث بها إليه، وقد أرسل من جانبه هدايا ثمينة للملك «كادشمان أنليل» ووعده بإرسال أخرى عندما تصل ابنته إلى الديار المصرية لتكون زوجًا له.[٨] ويشير كذلك «أمنحتب» إلى المراسلات التي تُبودلت بين «بابل» و«مصر» في عهد «تحتمس الرابع»، وكان «بورابورياش» ابن الملك «كوريجلزو الثاني»،[٩] ويُحتمل أن جده هو «كارايندااش الأول»،[١٠] وأن ابنته كانت زوج «أمنحتب الرابع».

ونعرف أن «بورابورياش الثاني» كان يشكو في بداية حكمه من أن «أمنحتب الرابع» لم يتبادل معه التهاني والهدايا، وكذلك نجده يطلب تعويضات عن قوافله التجارية، كما جاء في الخطاب السابع من هذه الرسائل، وهاك نصه لما فيه من أشياء طريفة تلقي بعض الضوء على العلاقات بين ملوك مصر وجيرانهم في تلك الفترة المظلمة من تاريخ العالم:

> إلى نبخوروريا (إخناتون) الملك العظيم، ملك مصر أقول. هكذا يقول «بورابورياش» ملك «كارايندااش» أخوك: إن الحالة على ما يُرام من جهتي، ومن جهة بيتي وخيلي وعرباتي وكبار رجالي وأرضي، وإنه منذ اليوم الذي جاء إليَّ فيه رسول أخي، كانت صحتي ليست بالحسنة، ولذلك فإن رسوله لم يتناول قط طعامًا أو نبيذ بلح في حضرتي، وفي الحق لو سألت رسولك فإنه سيخبرك بأن صحتي لم تكن طيبة، و… ليس لدي شيء يجعلني «صحيح الجسم»، وعندما كانت صحتي سيئة، ولم يرفع أخي رأسي (بالسؤال عني) فإنني عند ذلك صببت جام غضبي على أخي قائلًا «ألم يسمع أخي بأني كنت مريضًا؟ لماذا لم يرفع رأسي (أي يواسيني)؟ لماذا لم يرسل رسوله، وينظر في ذلك؟» وقد تكلم رسول أخي كما يأتي قائلًا: «إن الطريق ليست قصيرة، وإذا كان أخوك قد سمع، فإنه لا بد كان يرسل إليك بسرعة التحيات، والطريق

[٨] راجع الخطاب الخامس.

[٩] راجع الخطاب التاسع سطر ١٩.

[١٠] راجع الخطاب ١٠ سطر ٨.

لأخي بعيدة. فمن الذي كان قد بلغه حتى كان يرسل إليك بسرعة تحياته؟ هل أخوك سمع بأنك عليل، ولم يرسل إليك رسوله؟» وقد أجبت عليه هكذا: هل توجد لأخي العظيم طريق طويلة أو طريق قصيرة؟ فأجاب هكذا: سل رسولك فيما إذا كانت الطريق طويلة، ومن الجائز أن أخاك لم يكن قد سمع، وعلى ذلك لم يرسل شيئًا لتحيتك. وعلى ذلك عندما استخبرت من رسولي وقال لي إن الطريق طويلة، فإني لم أَصُب جامَّ غضبي على أخي. وكما يقولون «إنه يوجد كل شيء في أرض أخي، وإن أخي ليس في حاجة إلى أي شيء، وكذلك فإنه يوجد في أرضي كل شيء، وإني لست في حاجة إلى أي شيء، وقد توارثنا من الملوك علاقة طيبة من قديم الزمن، وإنا على ذلك نبعث التحيات متبادلة، وهذه العلاقة ستدوم حقًّا بيننا. سلامي عليك ...» لقد حجزت رسولي، وقد أعطيت رسولك قرارًا وسيرته، فأعطِ رسولي قرارًا عاجلًا واسمح له بالعودة. ولما أخبروني أن الطريق طويلة جدًّا، وأن مورد الماء قد قُطع، وأن الجو حار، فإني لم أرسل إليك هدايا جميلة كثيرة، وقد أرسلت فقط هدية جميلة صغيرة من اللازورد الجميل لأخي، وكذلك أرسلت خمسة أزواج من الجياد، وإذا صار الجو حسنًا، فإني سأرسل عن طريق رسول من قبلي، سأرسله لأخي بهدايا جميلة، وكل ما يحتاج إليه أخي. دع أخي يكتب لي! وسيحضرونها له من بيوتهم، ولقد شرعت في عمل، وعلى ذلك كتبت لأخي، فليرسل إليَّ أخي ذهبًا كثيرًا لأجل أن أنفذ بها عملي. والذهب الذي سيرسله أخي لا يجعله أخي في يد ضابط، بل تلحظه عينا أخي، وليختمه أخي ويرسله! وذلك لأن الذهب الذي أرسله أخي من قبل ولم يفحصه بنفسه، بل ختمه ضابط من ضباط أخي وأرسله — والأربعون مينًا من الذهب التي أحضروها عندما وضعتها في الفرن لم تكن وافية الميزان (بعد صهرها)، أما «سالمو» رسولي الذي أرسلته إليك فإن قافلته قد نُهبت مرتين؛ إذ قد نهب «بيريامازا» واحدة وقافلته الأخرى قد نُهبت وناهبها هو «باخمو» ... حاكم بلادك وهي أرض تابعة نهبها. وعلى ذلك فليفصل أخي في هذا النزاع!

وعندما يحضر رسولي إلى حضرة أخي دع «سالمو» يحضر أمام أخي!
ودعهم يدفعون له فدية ويعوضونه عن خسارته.

ونجد ثانية «بورابورياش» يشكو من أن تجارًا قد نُهبوا في «كنعان»،[١١] ولكن على ما يظهر لم يجبه «إخناتون». وقد كان «بورابورياش» بطبيعة الحال يتوق بدرجة خارقة الحد للذهب المصري،[١٢] وقد كان غيورًا إلى حد بعيد على حقوقه في أعين الفرعون المصري؛ فمثلًا نجده يشكو من الآشوريين لأنهم قد أرسلوا رسلًا للفرعون «أمنحتب الرابع» على غير علم منه؛ ولذلك كتب إليه أن يعيدهم فارغي الأيدي. وفي الخطاب رقم ١١ نعلم أن «إخناتون» عندما عرف أن الأميرة البابلية التي كان يرغب فيها قد وافاها الأجل المحتوم، أرسل إليه «بورابورياش» يطمئنه قائلًا إنه سيرسل إليه أخرى مع «خعا» وهي امرأة مصرية كانت في قصر «بورابورياش» لتكون في خدمة تلك الأميرة، والسهر على راحتها.

أما الخطاب الثالث عشر فقد ذُكرت فيه الهدية التي أرسلها ملك «بابل» مع ابنته بمثابة مهر للفرعون «أمنحتب الرابع» وكذلك الخطاب الرابع عشر فإنه يحتوي على قائمة الهدايا التي أرسلها ملك مصر صداقًا لابنة ملك «بابل».

ولدينا خطاب طريف (١٢) كتبته أميرة بابلية لسيدها في مصر عن أمور منزلية محضة.

وقد كانت الهدايا العادية التي يرسلها ملوك «بابل» إلى فراعنة مصر وتشمل الفضة،[١٣] واللازورد، والمواد الخشبية المموهة بالذهب، والزيت، والعربات والخيل، والعبيد، وقد كانت المنافسة في كل زمان بين الدولتين العظيمتين مصر و«بابل» شديدة، وتشير خطابات «تل العمارنة» إلى هذه المنافسة في كثير من رسائلها، غير أن مصر في عهد «إخناتون» كانت قد أهملت تلك المنافسة التي كانت بينها، وبين «بابل» والبلاد الأخرى

---

[١١] راجع الخطاب رقم ٨.

[١٢] راجع الخطاب رقم ٩.

[١٣] انظر الخطاب رقم ٥، ٢، ٧، ٨، ١، ٣، ٩ … إلخ.

الأجنبية، وهذا ما نفهمه من المراسلات التي دارت بين «إخناتون» والملك «بورابورياش الثاني»، ولكن هذا الفتور كان لانصراف «إخناتون» إلى بث الآراء الدينية السلمية، التي كان يقوم بنشرها.

مملكة آشور وخطابات «تل العمارنة»

لم تُذكر لفظة «آشور» في خطابات «تل العمارنة» إلا مرتين في الخطابين الخامس عشر، والسادس عشر، ولكن مما يؤسف له أن كلمة «آشور» وُجدت مهمشة بعض الشيء في كلا الخطابين، ويُلاحظ أن سلسلة النسب في ملوك «آشور» حتى عهد الملك «آشور وباليت الأول» وهو الذي يُنسب إليه هذان الخطابان، لا يمكن تنسيقها على وجه التأكيد لما يعترض المؤرخ فيها من عقبات، وتدل شواهد الأحوال على أن بلاد «آشور» منذ عهد «تحتمس الثالث» كانت على أية حال ترسل الجزية إلى مصر باسم رئيس «آشور»، ومن المحتمل أنه الملك «آشور رابي الأول»، وقبل ذلك نعلم أن الملك «بوزور – أشير الرابع» قد عقد معاهدة مع الملك «بورابورياش الأول» عاهل «بابل» (راجع Synchr History I, 16; Comp. Olmstead, History of Assyria p. 36). ومنذ عهد الملك «شوشتار» ملك «متني» حوالي عام ١٤٣٠ق.م، وهو الذي غزا بلاد «آشور» في عهد الملك «آشير – بل نششي» وفتح مدينة «آشور» حتى عصر الملك «دوشرتا» (حوالي عام ١٣٩٠–١٣٧٠ق.م) كانت بلاد «آشور» تابعة لدولة «متني».

ولما ارتقى عرش الملك «آشور – باليت الأول» ملك «آشور» المقدام، وهو الذي كان معاصرًا لعاهل «بابل» «بورابورياش الثاني» وفرعون مصر «أمنحتب الرابع»، خلع عن بلاده نير الحكم «المتني»، وكذلك أوعز لملك «بابل» أن بلاد «آشور» قد صممت على أن تقف وحدها محافظة على استقلال عرشها.

ويمكن ترتيب ملوك «آشور» في هذه الفترة على الوجه الآتي:

(١) آشير – رابي – الأول ١٤٨٠ق.م.
(٢) آشير – نيراري – الثالث ١٤٦٠ق.م.
(٣) آشير – بل – نششو ١٤٤٠ق.م.
(٤) آشير – ريم – نششو ١٤٢٠ق.م.
(٥) آشور نادين – آخي ١٤٠٠ق.م.

(٦) أريبا – أداد ١٣٨٠ق.م.
(٧) آشورو – بالليت الأول ١٣٧٠–١٣٤٠ق.م.
(٨) أنليل – نيراري ١٣٤٠–١٣٢٥ق.م.

والواقع أن «آشورو-بالليت» كان أول أولئك الرجال العظام الذين أسسوا الإمبراطورية الآشورية، وكانت آشور عند توليه عرش الملك تشمل مساحة قليلة حوالي بلدة «آشور»، ولكن عند وفاته كانت قد أصبحت «آشور» تُعَدُّ ضمن ممالك الشرق العظمى، وكان من أول أعماله أنه عقد تحالفًا مع «آلاشيا» (قبرص)، ثم أخضع بلاد «متني» وبقيت تحت سلطانه إلى أن جاءت بلاد «خيتا» وخلصتها من نيرها، ووضعت على عرشها ابن الملك المسمى «ماتيو وازا». وفي خلال عهد الملك «آشورو بالليت» أصبحت «نينوى» التي كانت في قبضة بلاد «متني» آشورية ثانية، وقد ذكرها من قبل أنه في عهد «أمنحتب الثالث» قد أرسل «دوشرتا» الإلهة «عشتار» ربة «نينوى» إلى مصر لشفاء هذا الفرعون، وكذلك لما رجعت الإلهة «عشتار» إلى حظيرتها الأصلية احتفل الآشوريون بعودتها احتفالًا عظيمًا؛ وذلك بإقامة معبدها من جديد بعد أن كان قد أخنت عليه الأيام. أما الخطابات التي تشير إلى «آشور» في رسائل «تل العمارنة» فإنا نشاهد فيها عظمة ملكها، فقد سمى نفسه «آشورو-بالليت» ملك آشور الملك العظيم، وكان يعمل على مساواته تمام المساواة مع ملك مصر، ولذلك كان يخاطبه بلفظة «أخي». ونراه كذلك يذكر أن «أمنحتب الرابع» عندما أرسل جده «آشور – نادين أخي» إلى مصر، فإن الفرعون أهداه ٢٠ تلنتًا من الذهب، ولذلك فهو لا يرى بأسًا من طلب مثلها هدية له أيضًا، وقد احتج الملك «بورابورياش الثاني» وقتئذٍ على البلاط الفرعوني، على وضع الآشوريين في تلك المنزلة مع أنهم من أتباعه وتحت سلطانه،[١٤] غير أن فرعون مصر لم يعر هذا الاحتجاج أي التفات.[١٥]

ولكن نرى فيما بعد أن الملك «آشورو-بالليت» قد انتقم لنفسه، وذلك بأن أرغم «كاراينداش الثاني» خلف «بورابورياش الثاني» على الزواج من ابنة «آشورو-بالليت» كما جعله فضلًا عن ذلك يخضع لقبول طائفة جديدة من الأنظمة الخاصة بالحدود بين

[١٤] راجع الخطاب التاسع سطر ٣١ … إلخ.

[١٥] انظر الخطاب رقم ١٥.

البلدين، وبعد ذلك بزمن قصير كانت الجيوش الآشورية من القوة بحيث ترك لها الخيار في وضع رجل على عرش «بابل» وهو الملك «كوريجالزو الثالث» (١٣٤٤–١٣٢١ق.م)، وقد أرسل «آشورو–بالليت» رسلًا إلى فرعون مصر معهم العربات وجيادها وكذلك من اللازورد.[١٦] وقد رد الفرعون التحية بأقل منها؛ إذ أرسل بعثة للملك «آشورو-بالليت» ببعض هدايا لم ترق في عينه، وطلب إلى الفرعون أن يغدق عليه بأحسن منها.[١٧]

مملكة «متني» في خطابات تل العمارنة

منذ عهد الفرعون «تحتمس الثالث» نصادف في المتون المصرية اسم «مِتن»، وقد ذكر لنا «ملر» أنها على نهر الفرات (Muller A. E. p. 284.)، والظاهر أن مملكة «متني» قبل الفتح الذي قام به «تحتمس الأول» ومن بعده «تحتمس الثالث» كانت تقع على الضفة الشرقية من نهر الفرات وقد وحدت ببلاد «نهرين» (راجع Gardiner Onomastica I, p. 180)، ومن المحتمل أن بلاد «متني» يرجع أصل نشأتها إلى مدينة واحدة وهي «متن» (وإن كنا لم نعرف قط أين موقعها)؛ وذلك لأنه ذكر في المتون عبارة: «أرض مدينة «متن»»، ويجوز أنها كانت ملكًا لبلاد «خيتا»؛ لأن هذا التعبير الخاص لا يُطلق إلا على «الخيتيين».[١٨] ويظن الأثري «فنكلر» (Vorlesung und Nachrichten p. 46.) أن قوم «متني» هم أقدم عنصر في شعوب «خيتا» وعلى أية حال يظهر أنهم في الأصل فرع من جنس «خيتا» ولكن في عهد «تل العمارنة» نجد أنهم كانوا يتميزون عن «خيتا» الذين كانوا غالبًا معهم في مخاصمات وحروب، ويعتقد الأستاذ «برك» Bork Mitteilung der Vorderasiatischen gesellschaft (1909) ١، ٢ أن لغة «متني» من أصل قوقازي، وتشبه في تركيبها لغة الأم.

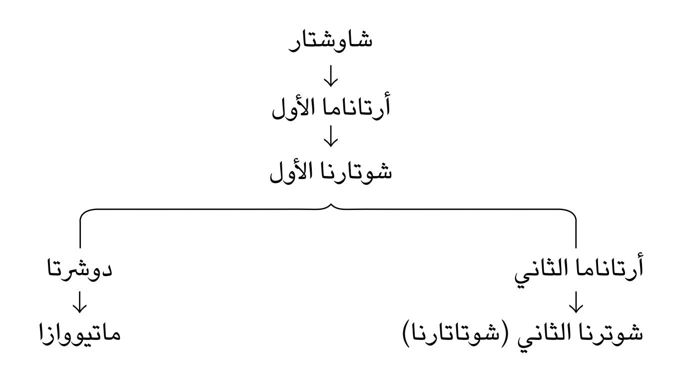
أما عن الأستاذ «ينسن» Jensen Z. A., V, 166ff. VI 34ff. فيعتقد أن لغتهم ليست بالخيتية ولا بالهندية الأوروبية، بل هي لغة فانية Vannic وقوقازية، وأحدث الآراء على أية حال ترى في اللغة المتنية أنها أقدم لغة في بلاد «مسوبوتاميا»، وأنها تشبه كثيرًا اللغة

[١٦] انظر الخطاب رقم ١٥.

[١٧] انظر الخطاب السادس عشر.

[١٨] راجع الخطابات ٤١ سطر ٢، ٣؛ ٤٢ سطر ١٠، ٤٤ سطر ١، ٨، ١٩.

الخيتية، على أن أسماء الأعلام التي حُفظت لنا في اللغة المتنية يظهر عليها الصبغة الآرية، وقد وضع لنا «فنكلر» بعد دراسة عميقة سلسلة نسب الملوك الذين عاصروا فراعنة الأسرة الثامنة عشرة كما يأتي:



وتدل الكشوف الحديثة بما في ذلك كشوف الأثري «أونجاد» (Mitteilung derDeutschen Orientgésellschaft 21, pp. 34. 39; 26, pp. 66ff; V. S. VII; B. A. VI, 6.) على أن قوم «متني» كانوا في «بابل» منذ عهد أسرة «حمورابي» وكذلك كانوا هم المؤسسين لمدينة «آشور». هذا إلى أنهم أقدم سكان استوطنوا بلاد «آشور». غير أنه مما يؤسف له توجد فجوة عظيمة في معلوماتنا عن بلاد «متني» تمتد منذ تلك الأزمان الغابرة حتى حوالي ١٤٣٠ق.م، وذلك عندما فتح «شاوشتار» مدينة «آشور»، ومن المحتمل أن الملك «شاوشتار» كان معاصرًا للفرعون «أمنحتب الثاني» (حوالي ١٤٤٨–١٤٢٠ق.م). ومنذ تلك الفترة حتى حكم الملك «دوشرتا» كانت بلاد «متني» خاضعة لسلطان بلاد «آشور»، وقد خلف «شاوشتار» «أرتاتاما الأول». وقد جاء اسمه في المتون المصرية (اقرن Z. A. VIII, 385, M. V. A. G. (1900), p. 7. A.) فقد جاء ذكره في خطاب من «دوشرتا» (ص٢٩ سطر ١٦) أنه زوَّج ابنته للفرعون «تحتمس الرابع». أما الملك الثاني فهو «شوتارنا» وقد زوَّج ابنته من «أمنحتب الثالث».[١٩] ومن المحتمل أنه قد خلفه ابن له يُدعى (أرتاشومارا) Artassumara، ولكن لا نعرف عنه شيئًا.[٢٠]

[١٩] راجع الخطاب ٢٩ سطر ١٨.

[٢٠] راجع الخطاب رقم ١٧ سطر ١١.

أما الملك «دوشرتا» الذي خلفه فهو ابن «شوتانا»، ويُعد أحسن ملك معروف لنا من بين ملوك «متني». فلدينا غير قوائم الهدايا التي نجدها في خطابات «تل العمارنة» سبعة رسائل كتبها «لأمنحتب الثالث»، وخطاب بعث به لأرملة هذا الفرعون، هذا إلى ثلاثة خطابات للفرعون «إخناتون». وكذلك نعلم من وثائق «تل العمارنة» أن رجلًا يُدعى «توخي» كان وصيًّا على الملك «دوشرتا» عندما لم يكن قد بلغ سن الحلم، وأنه لسبب ما قد قتله «دوشرتا» فيما بعد. وهذا الملك كان في الواقع على جانب عظيم من النشاط، فقد شنَّ حربًا على بلاد «خيتا».[٢١] ولكن قبل نهاية حكمه انتشرت الفوضى في بلاده مما أدى إلى انفصال «آشور» عن بلاده، وخلع النير الذي ظل يثقل عاتقها مدة طويلة، وقد زاد الأحوال تعقدًا إعلان أخيه «أرتاتاما» العصيان، وانضمامه إلى جانب «خيتا» كما فعل حفيده «شوتارنا»، ونعلم كذلك أن الملك «دوشرتا» قد زوَّج ابنته «تدوخيبا» من «أمنحتب الثالث»، ثم بعد وفاته زوَّجها من ابنه «أمنحتب الرابع». والظاهر أن «دوشرتا» قد قضى عليه بمؤامرة في البلاط أعقبتها فوضى في بلاد «متني» وكذلك سنحت الفرصة للملك «شوبيليوليوما» عاهل «خيتا» للتدخل في شئون بلاد «متني»، فوضع «ماتيووازًّا» أحد إخوة «دوشرتا» المنفيين على عرش ملك «متني» وزوَّجه من ابنته، وجعل نفسه ملكًا على هذه البلاد (راجع M.D.O.G, 35, p. 36; Bohl in Theol Tridschrift 1916 pp. 170ff; Figulla Weidner Keilschrifttexte I, obv. II, 48ff). وكان عهد حكم «ماتيووازا» عهد فوضى، وقد استمرت الحال كذلك حتى عهد «أرتاتاما الثاني» أحد إخوة «دوشرتا»، وقد خلفه ابنه «شوتارنا الثاني»، ويحتمل أن الملك الذي خلفه «أتيوجاما»، غير أننا لا نعرف شيئًا قط، وكما ذكرنا نعلم من المصادر المصرية أن «تحتمس الأول» و«تحتمس الثالث» و«أمنحتب الثاني» قد شنوا حروبًا مظفرة على «نهرين» أي (بلاد «متني»). ومن أعظم الشخصيات في التاريخ المصري في عهد «العمارنة» الملكة «تي» زوج «أمنحتب الثالث» والدة «إخناتون»، وقد فصلنا القول في تاريخها في مكانه ونعلم أنها كانت صاحبة قدم راسخة في أحوال البلاد السياسية من رسائل «تل العمارنة».[٢٢] وقد تراسلت مع «دوشرتا» لمصلحة ابنها «إخناتون»،[٢٣] وكذلك كان لها أثر في توجيه

---

[٢١] راجع خطاب رقم ١٧ سطر ٣٠.

[٢٢] راجع خطابات ٢٦ سطر ٧–١٨؛ ٢٤ سطر ٤٢ … إلخ، ٢٩، ٨، ٩، ٤٥ … إلخ، ١٤٣.

[٢٣] راجع الخطاب ٢٦ سطر ٢٠.

سياسة كل من زوجها وابنها.[٢٤] وقد أرسل لها الملك «دوشرتا» هدايا خاصة باسمها[٢٥] وأرسل لها التحيات في مناسبات عدة في مكاتباته مع ابنها وزوجها.[٢٦]

ديانة «متني»: إن معلوماتنا عن ديانة قوم «متني» ضئيلة جدًّا بالنسبة لممالك الشرق القديم الأخرى، والظاهر أن إله هذا القوم كان يُدعى «تشب»، ويمثل هذا الإله واقفًا على فهد قابضًا في يده على (بلطة) مزدوجة، ونراه فيما بعد ممثلًا بمنشار في إحدى يديه، وفي الأخرى يحمل صاعقة ذات ثلاث شوكات وله لحية وشعر طويل. وفي زمن متأخر عن السابق كذلك نراه ممثلًا يحمل (بلطة) مزدوجة، وصاعقة، ويقف على ظهر ثور، وأقدم ذكر لهذا الإله «تشب» في أسماء الأعلام نجده في المتون التي حلها «أونجاد» مثل «تشب-آري» (راجع V. S. VII, 72, 10; Cf. Knudtzon, 24. IV, 36).

والظاهر أن اسم إلهة «متني» هي «خبا» التي لا نعرف عنها شيئًا البتة.

وقد وصلتنا معلومات كثيرة عن بلاد «متني» غير التي جاءت في خطابات «تل العمارنة» من نقوش «بوغاز كوي» وبخاصة عن الملك «دوشرتا» وخلفه. فنعلم من خطابات «تل العمارنة» أن اسم «خانيجلبات» يُطلق على بلاد «متني» غير أنه في مصادر أخرى على ما يظهر كان يُستعمل لجزء من إمبراطورية «متني» (راجع Tiglathpileser I, Prism V, 34).

أما في مصر فكان المصري يستعمل كلمة «نهرين» مرادفًا لبلاد «متني»، أما عن شئون «متني» الصغيرة فإن خطابات «تل العمارنة» ليس فيها ما يشفي غله، والخطابات المتنية حوالي اثني عشر خطابًا (١٧–٢٩)، وأهم ما يلفت النظر من بينها الخطاب السابع عشر الذي يتناول عهد «دوشرتا» والوصي على العرش «توخي» حيث نعلم شيئًا عن قتل «أرتاشومارا» أسن إخوة «دوشرتا». وكذلك يحدثنا عن قتل «توخي» على يد «دوشرتا»، وكما يشير إلى الحرب التي قامت بين «دوشرتا» ومملكة «خيتا» وعن علاقته الودية مع مصر.

والظاهر أن «توخي» كان رئيس الوزراء مدة حكم «أرتاشومارا» القصير، وكذلك في المدة التي لم يكن فيها «دوشرتا» قد بلغ الحلم. والظاهر أن «توخي» قد قتل

[٢٤] انظر خطاب ٢٩ سطر ٦٦ … إلخ.

[٢٥] انظر الخطاب ٢٧ سطر ١١٢.

[٢٦] راجع ٢٧ سطر ٤، ٢٨ سطر ٧، ٢٩ سطر ٣.

«أرتاشومارا» وعمل على قطع العلاقات الودية بين «متني» و«أمنحتب الثالث»، ومن أجل ذلك عندما تولى الحكم قضى على «توخي» وشيعته! وهاك النص الخاص بذلك: «وعندما اعتليت عرش والدي كنت حدث السن، وقد قام «توخي» بإتيان المظالم في بلادي، وقتل سيده، وعلى ذلك لم يعمل عملًا صالحًا لي، ولا لمن كان على مصافاة معي. وإني على وجه خاص بسبب هذه المساوئ التي كانت تُرتكب في بلادي لم أتأخر عن قتله وقتل أخي «أرتاشومارا»».

هذا ويتناول الخطاب الثامن عشر العلاقات الطيبة بين مصر و«متني»، ويتميز الخطاب التاسع عشر من هذه الرسائل بما أظهره «دوشرتا» بحبه المفرط للذهب المصري، وهذا نفس ما نراه في الخطاب العشرين بالإضافة إلى أن هذه الرسالة الأخيرة تلقي كثيرًا من الضوء على الطريقة التي كان يتبادل بها ملك «متني» الأميرات في مقابل الذهب المصري. ونلحظ هذه التجارة الفريدة في بابها كذلك في الخطاب الواحد والعشرين، كما نجد في الخطاب الثاني والعشرين قائمة بالهدايا التي أرسلها الفرعون صداقًا للأميرة «تدوخيبا». أما الرسالة الثالثة والعشرون فتحدثنا عن كيفية عزم الإلهة «عشتار» إلهة «نَيْنَوى» على زيارة مصر، وأن ملك «متني» نصح للفرعون أن يحسن وفادتها ويقابها بما يليق بها من تجلة وتكريم.[٢٧]

ومما يلفت النظر في هذه الخطابات الرسالة الرابعة والعشرون؛ إذ قد كُتبت بالخط المسماري، ومع ذلك فإن ألفاظها باللغة المتنية. والظاهر أنها تبحث في موضوع مدينتين وهما «خارواخا» و«ماشرينا»، وقد جرت المفاوضات على أن تُعطى مصر الأولى والملك «دوشرتا» الأخرى. والخطاب الخامس والعشرون يُعد قائمة بما أرسله «دوشرتا» للفرعون «أمنحتب الرابع» من هدايا متنية جميلة تكشف لنا عن مقدار ما كانت عليه هذه البلاد من حضارة، وصناعات راقية، وبخاصة في اللازورد الذي كان فيها كثيرًا. وكل هذه الهدايا كانت مهرًا لابنته التي تزوجها هذا الفرعون.

أما الخطاب السادس والعشرون فعلى جانب من الأهمية؛ إذ نجد فيه أن الملكة «تي» تلعب فيه دور الوسيط بين مصر و«متني» وتعمل على توطيد أواصر المصادقة والمهادنة بين البلدين، وقد كانت «دوشرتا» يرى أن كل هذا لا يتأتى إلا إذا أرسلت له مصر الهدايا

[٢٧] راجع الخطابات ٢٧، ٢٨، ٢٩.

العظيمة من الذهب المصري البراق؛ ولذلك نجد أن كثيرًا من الخطابات تضرب على هذه النغمة.

ولدينا خطاب غريب في بابه قد يُعد «جواز سفر» يُحتمل أن كاتبه هو ملك «متني» لملوك «كنعان»، وقد حثَّ فيه كاتبه ملوك «كنعان» على السماح لرسوله المسمى «أكيا» ليذهب إلى أخيه ملك مصر ليواسيه.

ويعتقد البعض أن هذا الخطاب قد أرسله «دوشرتا» للفرعون «تحتمس الرابع». وبذلك يُعد من أقدم خطاب غير أن هذا مجرد تخمين (راجع Metrcer, The Tell El Amarna Tablets I, p. 182).

وقد جاء ذكر «متني» كذلك في خطابات أخرى من رسائل «تل العمارنة»؛ ففي الخطاب الثامن والخمسين مثلًا نجد أن أحد الأمراء يكتب لفرعون مصر أن ملك «متني» قد شنَّ عليه غارة، ويحتمل أن هذا الخطاب كان موجهًا للفرعون «أمنحتب الثالث» (راجع Mercer Ibid I, p. 243).

ويشير الخطاب الخامس والسبعون إلى تقرير كتبه «ريبادي» إلى ملك مصر يخبره فيه أن الخيتيين قد فتحوا بلاد «متني».

ولدينا عدة خطابات نلحظ منها تدخل بلاد «متني» في «فلسطين» والإغارة عليها، فمنها الخطاب الخامس والثمانون الذي نفهم منه أن ملك «متني» قد زحف بجيشه في بلاد «فلسطين» حتى وصل «سو مورا»، وقد كان على وشك الاستيلاء على «جبيل» نفسها لولا أن قلة الماء قد عاقته فقفل راجعًا إلى بلاده، وكذلك نجد في بعض الخطابات[٢٨] أن ملك «متني» كان يساعد «عبدي أشرتا» وقوم ساجاز (خبيري) على «ريبادي»، كما نلحظ أنه كان يريد أن يتولى على بلاد «آمور». والظاهر أن «جبيل» بعد أن أعيتها الحيل في وصول النجدة من الفرعون اضطر أميرها لدفع جزية لدولة «متني».[٢٩] والظاهر أن أطماع بلاد «متني» وعداءها لمصر كان من قديم الزمن؛ إذ نجد في الخطاب التاسع بعد المائة أن «ريبادي» يكتب إلى الفرعون يذكره بهذا العداء الذي كان بين «متني» وبين آبائه، وأن آباءه لم يتخلوا عن صداقة أجداده؛ ولذلك لا ندهش إذا وجدنا عدة إشارات على حسب ما ذكره «ريبادي» نفهم منها أن ملك «متني» كان على أهبة الاستعداد

[٢٨] راجع ٨٦ سطر ١٢، ٩٠ سطر ٢٠.

[٢٩] راجع ٩٥ سطر ٢٧ … إلخ.

للزحف على أملاك مصر في الخارج عندما كانت تسنح له الفرصة، حتى إن «ريبادي» جعل هذه البلاد هي وبلاد «بابل» وبلاد «خيتا» مضرب الأمثال عنده للدول القوية التي كان يمكنها أن تغير على أملاك مصر، وتستولي عليها كما جاء في بعض خطاباته،[٣٠] فقد جرى على لسانه عندما كان يتحدث عن «عبدي أشرتا» عدوه الألد فيقول: «من هو «عبدي أشرتا» الكلب الذي يجري وراء الاستيلاء على كل المدن؟ هل هو ملك «متني» أو ملك كاشي (بابل) حتى يعمل على الاستيلاء على أرض الفرعون لنفسه؟» وقد تكلمنا عن كل ذلك في موضعه.

آلاشيا «قبرص» في خطابات تل العمارنة

وردت كلمة «آلاشيا» في خطابات «تل العمارنة» في مواضع كثيرة، وقد وصلنا من هذه البلاد عدة خطابات (٣٣–٤٠) وكلها قد سطرها ملك «آلاشيا» لملك مصر إلا خطابًا واحدًا وهو الأخير (٤٠)، وتدل شواهد الأحوال على أنها في أغلب الظن قد أُرسلت إلى «أمنحتب الثالث» أو «إخناتون» واسم هذا المكان ورد في المصرية في قائمة «الكرنك» التي تركها لنا «سيتي الأول» بلفظة «إرس».

وتدل البحوث الحديثة المتفق عليها أن هذا الاسم يُطلق على جزيرة «قبرص» وبخاصة لأنه قد أُشير فيها إلى إله «أبوللو آلاسيوتاس» Apollo Alasiotas وجد في قبرص (ZA, X, 380).

وكذلك في «قبرص» الحالية نجد الاسم «آلاسوس» و«وإيلاسيكا» (Knutzon p. 1077.) (راجع Ailasyka & Alassos).

وقد كانت جزيرة «قبرص» منذ عهد «تحتمس الثالث» تابعة لمصر (راجع Cambridge Ancient History II, p. 78).

واستمرت كذلك على ما يظهر حتى جاء عهد «إخناتون»؛ إذ نراها في هذه الفترة متحررة من النير المصري، وأصبح ملكها يخاطب الفرعون مخاطبة الأخ لأخيه، كما نشاهد ذلك في الخطاب الثالث والثلاثين؛ إذ يُفتتح الخطاب بالكلمات التالية: «هكذا تكلم ملك «آلاشيا» إلى ملك مصر: أخي اعلم أنني على ما يُرام، وأن أرضي على ما يرام … إلخ.»

[٣٠] راجع الخطابات ٧٦ سطر ١٤، ١٠٤ سطر ٢١، ١١٦ سطر ٧٠.

وكانت بلاد «آلاشيا» موطنًا للنحاس في عالم البحر الأبيض المتوسط؛ ولذلك كان أهم هدايا تقدمها لأرض الكنانة هو النحاس؛ كما يدل على ذلك عدة خطابات. وكانت تتطلب في مقابل ذلك هدايا من المصنوعات المصرية، على أن هدايا ملك «قبرص» لم تقتصر على النحاس، بل كانت ترسل كذلك الصاج وخشب الصناديق.

وكانت مقادير النحاس التي ترسلها «قبرص» عظيمة جدًّا؛ فقد أرسلت مرة مائتي تلنت (التلنت وزنه ٥٧ رطلًا) وأخرى مائة «تلنت»، وثالثة خمسمائة «تلنت». وقد اعتذر في المرة الأخيرة على قلة ما أرسله بأن «ترجال» إله الموت قد قضى على العمال في بلاده، وليس لدينا من يستخرج هذا المعدن.[٣١]

ونجد غير الخطابات السالفة إشارات في رسائل «تل العمارنة» لبلاد «آلاشيا»؛ فمثلًا نعلم من الخطاب الرابع عشر بعد المائة أن «ريبادي» ملك «جبيل» كتب «لإخناتون» ملتمسًا منه أن يسأل الضابط المصري فيما إذا كان «ريبادي» لم يرسل إليه «الضابط المصري» من «آلاشيا» ليخبره عن حالة البلاد، وما قام به «أزيرو» من المؤامرات عليه.

والواقع أن العلاقات بين «إخناتون» وبين «قبرص» كانت على أحسن ما يكون من الود والمصادقة؛ إذ نجد أن ملك «آلاشيا» يرد على خطاب أرسله إليه «إخناتون» يعاتبه فيه على أن ملك «آلاشيا» لم يرسل إليه رسولًا لتهنئته، فكتب إليه معتذرًا بأنه لم يعلم بعيد تنصيبه الذي أقامه الفرعون، ولذلك فإنه يرجوه ألا يأخذ ذلك عليه، وألا يكون ذلك سببًا في تكدير صفو العلاقات الطيبة التي بينهما، وأرسل إليه رسولًا يحمل الهدايا الجمة، وطلب إليه أن يغدق عليه من خيرات بلاده. هذا ولدينا خطاب آخر يدل على ما كان بين البلدين من التحالف الوثيق؛ إذ في الخطاب الخامس والثلاثين نقرأ أن ملك «آلاشيا» كتب إلى الفرعون يحذره من التحالف مع «خيتا» وبلاد «سنجار» (بابل)، غير أنه لم يذكر السبب لذلك، وفي نفس الخطاب نجد هذا الملك يطلب إلى فرعون مصر أن يرسل إلى «آلاشيا» متاع أحد رعاياه الذي مات في مصر. ولا شك في أن مثل هذه التلميحات العابرة على قصرها تدل دلالة واضحة على ما كان بين البلدين من روابط وثيقة من الناحيتين السياسية والاجتماعية، هذا فضلًا عن الناحية التجارية؛ إذ لدينا خطابات تدل على أن التجارة كانت قائمة بين البلدين، فقد كانت مصر تستورد النحاس

[٣١] راجع الخطابات ٣٣ سطر ١٦، ٣٤ سطر ١٨، ٣٥ سطر ١٠، ٣٦ سطر ٥ … إلخ، ٤٠ سطر ٧، ١٣.

منها، وفي مقابل ذلك ترسل إليها الفضة التي كانت معدومة في «آلاشيا» (راجع الخطابين ٣٦، ٣٧).

والظاهر أن ملك مصر قد شك في إخلاص ملك «آلاشيا» واتهمه أنه يقوم بدسائس على مصر مع بلاد «لوكي» (لوسيا)؛ ولذلك كتب إليه ملك «آلاشيا» مبرئًا نفسه من تلك التهمة مدعيًا أن بلاد «لوكي» كانت تغير على بلاده نفسها (راجع الخطاب ٣٨).

وأخيرًا من الخطابات الهامة الخطاب الأربعون الذي كتبه وزير «آلاشيا» لوزير مصر يطلب إليه تبادل السلع، وكذلك يلتمس منه أن يفك عقال سفينة وبعض الناس لأنهم ملك عاهل «آلاشيا». ويعتقد الأستاذ «فيبر» (راجع Knudtzon pp. 1085ff) أن هؤلاء الناس هم أعوان بلاد «لوكي» الذين اتهم الفرعون ملك «آلاشيا» بالتواطؤ معهم على مصر.

بلاد خيتا في «خطابات» تل العمارنة

كان قوم «خيتا» منذ ستين سنة يُعدون ضمن القبائل السورية الصغيرة التي ذُكرت في التوراة، وكان كل ما يُعرف عنهم مستقًى من كتاب «العهد القديم» أيضًا. وقد ظلت الحال كذلك حتى عام ١٨٧٢ عندما ظهر مؤلف الأستاذ «وليم ريت» الإنجليزي عن أصل هؤلاء القوم، وكان أول محاولة علمية في هذا الصدد، غير أن علم الآثار الخيتية لم يبتدئ فعلًا إلا في عام ١٨٨٦ عندما ظهرت الطبعة الثانية لهذا المؤلف الفريد في بابه. وقد جاءت المحاولة الثانية في كشف النقاب عن هذه الأمة على يد الأثري «هوجو فنكلر» (عام ١٩٠٦–١٩٠٧م)؛ وذلك عندما عُثر على سجلات «خيتا» في بلدة «بوغاز كوي» ومنذ هذا الوقت وبخاصة بعد الحرب العالمية الكبرى أخذ شغف العلماء وميولهم تتجه إلى هذا العلم، ونخص بالذكر من بينهم «هروزوني» و«فيدنر» و«سومر»؛ فقد كانوا من أعلام الفاتحين في هذا المضمار. وفي عام ١٩١١ قام «مسر شمت» بوضع سجل شامل لكل المتون الخيتية المعروفة حتى زمنه، ولكن منذ عصره ظهرت متون كثيرة أخرى. وعلى أية حال فإن الأخيرة مكتوبة على وجه عام بالخط المسماري في حين أن سجل «مسر شمت» لا يشمل إلا متونًا هيروغليفية.

ويوجد غير هذه المتون الأصلية التي كُتبت بالهيروغليفية والمسمارية التي يقوم العلماء بدرسها مصادر أخرى عن «خيتا» وأهمها الرسوم المصرية والمتون الفرعونية التي خلَّفها لنا المصريون على جدران المعابد والمقابر، وكذلك توجد أسماء خيتية في المتون البابلية، كما توجد أسماء خيتية وفهارس في خطابات «تل العمارنة».

ولفظة خيتيين وصلتنا من كتاب العهد القديم، وقد وُجدت في الخط المسماري بلفظة «خاتي» وفي المصرية «ختي». أما اشتقاق كلمة «خاتي» فليس مؤكدًا عند الباحثين، ويظن البعض أن كلمة «خاتي» تعادل كلمة «خاني» وهي بلدة واقعة على نهر الفرات، واللفظة الأخيرة هي اختصار لكلمة «خانيجالبات» (راجع M. O. D. G, 21, pp. 50f; M. G. A. II, 1, 29). وإذا كان هذا الرأي يمكن الأخذ به فإن أقدم مركز للمدنية الخيتية يكون موقعه إذن على نهر الفرات، ثم انتقل فيما بعد إلى «بوغاز كوي» بآسيا الصغرى. وعلى أية حال تدل البحوث الحديثة الآن على أن دولة «خيتا» كانت تحتوي على عدة إمارات أو ممالك تمتد من غربي «آسيا الصغرى» حتى السهول الواقعة شرقي نهر «دجلة» ومن البحر الأسود حتى «دمشق».

وقوم «خيتا» على حسب ما جاء في المناظر المصرية القديمة كانوا رجالًا ذوي أنوف مقوسة بعض الشيء وجبهة غائرة وفكين عظيمين، وذقن قصير مستدير مزدوج وجلد أحمر، وكانوا من جنس مختلط يجري في عروقه الدم الآري والقوقازي معًا، وقد نشئوا من خمسة أقوام وهم: (١) قوم «خيتا الأول» الذين كانوا يسكنون جبال «كابادوشيا»، (٢) وقوم اللويين الذين كانوا يسكنون شمال آسيا الصغرى وكليكيا، (٣) وقوم «باتا» الذين كانوا يسكنون «بافالاجونيا»، (٤) وقوم الحورانيين الذين كانوا متوطنين في الشمال الشرقي من «مسوبوتاميا»، (٥) وأخيرًا قوم الكانيسيان Kanisian وقد نزحوا من إقليم بحر «مرمرة» وأسسوا ما يُسمَّى الآن الإمبراطورية الخيتية، وقد كُتبت معظم نقوش «بوغاز كوي» بلغتهم.

وقد أسس قوم «الكانيسيان» الذين وفدوا من إقليم بحر «مرمرة» لنفسهم دولة منذ النصف الثاني من الألف سنة الرابعة قبل الميلاد، ويُحتمل أن عاصمتهم كانت «خانيجالبات»؛ إذ في هذه البقعة قامت دولة، ولكنها في نهاية الأمر انقسمت قسمين، وهما الحورانيون في «أرمنيا» والمتنيون في الجنوب الغربي منها.

وحوالي عام ٢١٠٠ق.م انفصل عن قوم «متني» دولة سُمِّيَت باسم اختُصر من اسم العاصمة؛ أي إنها سُميت «خاني» أو «خاتي» وهي دولة «خيتا». وهذه الإمبراطورية كانت في الواقع من عمل الملك العظيم «لابارناش» الذي كان مقره «كوشار»، وكان أول ظهور «خيتا» على مسرح التاريخ في ساحة الوغى في عهد الملك «سامسو ديتانا» البابلي حوالي ١٩٥٦–١٩٢٦ق.م (راجع King, Chronicles II, 22).

فقد اجتاحت جنودها «بابل» ومهدوا الطريق لسقوط أسرة «حمورابي» واستيلاء الكاسيين على البلاد. ومنذ ذلك العهد حتى عام ١٣٠٠ق.م كان قوم «خيتا» أصحاب

نفوذ عظيم جدًّا في العالم الشرقي القديم. وبعد هذا التاريخ بحوالي ثلاثة قرون نجد إشارة لغزو «خيتا» هذه البلاد «بابل» وذلك أن «أجومكا كريم» حوالي ١٦٥٠ق.م قص (راجع King, Chronicles I, p. 149). علينا أنه استولى ثانية على صور الإله «مردوك»، و«ساربانيتم» وهي التي كانت قد حُملت فيما مضى إلى بلاد «خاني»، وفضلًا عن ذلك يظهر أنه يوجد براهين على أن «خيتا» قد اتصلوا بالآشوريين قبل حكم الملك «سامسو ديتانا»؛ وذلك لأن باني مدينة «آشور» في مملكة «آشور» وكذلك مؤسس معبد «آشور» في نفس المدينة كانا يحملان الاسمين الخيتيين، وهما «أوشبيا» و«كيكيا» (راجع Beitrage Zur Assyriologie VI, Heft 5. p. 12).

على أننا لا نعرف الملك الذي خلف (لابارناش) Labarnas، ولكن على ما يظهر كان الملك الثالث في هذه السلسلة هو «خاتوسيل الأول»، وكذلك يحتمل أن الملك الخامس هو «مورسيل الأول» الذي حكم البلاد حوالي عام ١٩٠٠ق.م، واتخذ «بوغاز كوي» عاصمة لملكه. وقد خلفه على عرش الملك «تليبنوش». والظاهر أنه كان آخر هؤلاء الملوك العظام لمدة الخمسين والثلاثمائة السنة التي تلت وفاته في تاريخ البلاد. وحوالي عام ١٧٠٠ق.م نجد دولة «خيتا» تظهر على مسرح التاريخ كرة أخرى عزيزة الجانب قوية الشوكة، ويظهر أن الهكسوس قد هاجروا من جزئها الغربي ليفتحوا سوريا ومصر حوالي ١٦٥٠ق.م.

وقد ظل تاريخ بلاد «خيتا» غامضًا بعد تلك المدة قرابة قرنين من الزمن، وكان أول ما عرفنا عنهم شيئًا بعد ذلك في عهد الفرعون «تحتمس الثالث»؛ إذ نجد أنهم كانوا يدفعون له الجزية كما تكلمنا عن ذلك في مكانه.

وقد كان اتصال المصريين بهم اتصالًا معروفًا لنا في عهد ملكهم المسمى «شوبيليوليوما»، والظاهر أن جده كان ملكًا على مدينة، وقد سمى نفسه بالاسم الضخم «الملك العظيم ملك خاتي»، ويحتمل أن هذا الملك هو «خاتوسيل» الثاني ١٤٠٠ق.م. ومهما يكن من أمر فإن «شوبيليوليوما» كان رجلًا ذا سطوة وبأس؛ فقد فتح بلاد «متني» في عهد ملكها «دوشرتا» ونصب مكانه «ماتيوازا» على عرش متني، وقد اعترف «أزيرو» بسلطانه، وكذلك أصبح من القوة بحيث جعل «ريبادي» يحذر الفرعون «أمنحتب الرابع» من عظم قوته. وقد حكم من ١٣٨٠ إلى ١٣٥٠ق.م تقريبًا؛ أي إنه عاصر كلًّا من «أمنحتب الثالث» و«إخناتون»، وقد كتب للفرعون «أمنحتب الرابع» خطابًا يخطب فيه وده ويطلب تجديد العلاقات القديمة التي كانت بين البلدين.

وقد خلف «شوبيليوليوما» ابنه «أرانداس» (١٣٥٠–١٣٤٥ق.م)، ولكنه لم يحكم طويلًا؛ إذ تُوفي بعد أن حكم خمس سنوات، وتولى العرش بعده «مورسيل الثاني» (١٣٤٥–١٣١٥ق.م)، وهذا الملك أصبح ذا قوة وسلطان، وعقد معاهدة مع ممالك «أرزاوا» و«جاسجا» و«تيبيا» و«زيخريا»، وهو الذي حارب «رعمسيس الثاني» في موقعة «قادش»، وقد أُشير إليه في متون «بوغاز كوي». وقد رُزق أربعة ذكور وابنة واحدة، وقد امتد حكمه إلى ما بعد عهد خطابات «تل العمارنة» (راجع Hrozny Hethitische Texte pp. 156ff. & M. D. O. G, 58, 53ff).

وقد تولى الحكم بعد «مورسيل الثاني» ابنه «موتالو» (١٣١٥–١٣٠٠ق.م) و«خاتوسيل الثالث» (١٣٠٠–١٢٧٠ق.م) على التوالي. وقد جاء ذكر كل منهما في المعاهدة الشهيرة التي عقدها «رعمسيس الثاني» مع «خيتا».

وقد ذكرت لنا وثائق «بوغاز كوي» أن «مورسيل الثاني» هو فاتح بلاد الآموريين، هذا ونعلم أن معظم وثائق «بوغاز كوي» التي وصلتنا ترجع إلى عهد «موتالو». وقد اعتلى عرش «خيتا» بعد هذا العاهل ملكان لهما شهرة عظيمة في التاريخ وهما «دودخليا» (١٢٧٠–١٢٥٠ق.م) ثم «أرنوانتا» (١٢٥٠–١٢٤٠ق.م)، غير أنه قبل حكم أوَّلهما تُحدثنا الآثار أن آشور في عهد الملك «سلما نصر» الأول (١٢٧٠ق.م) ذبحت جموع الجيوش الخيتية، وقد كانت إمبراطورية «خيتا» في تلك الفترة آخذة في التدهور حتى إنها في نهاية القرن الثامن فقدت معظم أملاكها، وانتهى آخر نفوذ وقوة لها في عهد الملك «سرجون» عاهل «آشور» الذي فتح «كركميش» عام ٧١٧ق.م. وهكذا خُتمت حياة دولة عظيمة حكمها ما لا يقل عن أربع وأربعين ملكًا لا نعلم الآن إلا القليل عنهم، ولكنا نأمل أن تكشف وثائق «بوغاز كوي» بعد حلِّها عن الكثير من مجد هؤلاء الملوك العظام.

والواقع أن أهل «خيتا» شعب مختلطة أجناسة، وتدل البحوث الحديثة تدريجًا على أن لغتهم كذلك كانت مزيجًا من لغات مختلفة. ولا نزاع في أنه توجد عناصر آرية في لغتهم. هذا ولدينا أدلة على وجود لغات عدة أخرى. ويعتقد الأستاذ «فورر» أنه توجد ثماني لغات في نقوش «بوغاز كوي» وهي: (١) لغة أهل «خيتا» الأول. (٢) اللغة اللووية. (٣) اللغة البالية Balâin. (٤) اللغة الحورانية. (٥) اللغة الكانيسية أو الإزاوانية Azawan. (٦) اللغة السومرية. (٧) اللغة البابلية. (٨) اللغة (الماندانية) Mandaian.

ومنذ أن نشر «هروزني» رأيه عن لغة «خيتا» مبرهنًا على أنها لغة هندية جرمانية نقده الكثير من علماء اللغة بما له وما عليه، غير أنه إلى الآن لم يكن في مقدور أي عالم

أن يدحض رأي «هروزني» تمامًا، وعلى أية حال فإن الموضوع لا يزال معلقًا، وسيبقى كذلك مدة طويلة حتى تظهر بحوث جديدة.

ولا نعلم إلا القليل عن ديانة «خيتا». حقًّا لدينا أسماء آلهة كثيرة من آلهتها، ويُلاحظ أن عقيدة وجود الإله في كل شيء كانت منتشرة، ولا أدل على ذلك من وجود ألقاب مثل سيدة الجبال والأنهار، ونجد أحيانًا أن الإله نفسه يحمل أسماء مختلفة في أماكن مختلفة، فمثلًا إله الشمس كان يُسمَّى «تلبينوش» Telibinus بين قوم الكانيسيين ويُدعى «ووي» Woi بين قوم الخيتيين الأول، وينادي باسم «هبات» بين قوم الحورانيين.

وكان يوجد عندهم شياطين كثيرة، وإليها كان يُنسب ما يصيب الإنسان من سوء الحظ، وكان للقوم معابد وصور كائنات مقدسة، كما كان يُحتفل بالأعياد تكريمًا للآلهة. وكان كلما اتصل قوم «خيتا» بالأمم الأجنبية العظيمة اتخذت آلهتهم أربابًا لها؛ فمثلًا الإله «رع» المصري، و«آشر» و«أسخارا» الآشوريان، و«مترا» و«فارونا» و«أندرا» ويحتمل «ناساتيا» آلهة الهند.

وأكثر الآلهة معروفة لنا من بين آلهة «خيتا» هم إله الشمس «تشب» وإله العاصفة «ما» (؟) والأم العظيمة و«ساندان» ابنها و«تارخو» و«خبا» و«سالو» و«تيللا».

ولدينا دلائل عديدة تشير إلى أن شعب «خيتا» كان لهم أدب عظيم يشمل أناشيد وصلوات وأساطير وخطابات ملكية وتواريخ وعقود ورسائل، وغير ذلك من الموضوعات الأدبية، والأمل عظيم في أن المستقبل سيكشف أمامنا أن قوم «خيتا» من أعظم شعوب العالم القديم مدنية وثقافة.

وبعد هذه المقدمة القصيرة عن هؤلاء القوم في استطاعتنا أن نتحدث عن الفقرات التي وردت في خطابات «تل العمارنة» خاصة ببلادهم.

والواقع أن كلًّا من قوم «خيتا» وقوم «متني» قد انفصل بعضهما عن بعض منذ زمن طويل قبل عهد «تل العمارنة»، وفضلًا عن ذلك أصبحا يتناضلان على السلطة، وامتداد النفوذ في الأقاليم المجاورة.

وقد ذكرنا من قبل أن «شوبيليوليوما» المؤسس لأسرة خيتية جديدة في زمن حكم «أمنحتب الثالث» قد فتح بلاد «متني» في عهد الملك «دوشرتا» ووضع على عرشها «ماتيوازا»، والظاهر على أية حال أنه قبل هذه الفترة كان «دوشرتا» منتصرًا على «خيتا» (راجع الخطاب ١٧ سطر ٣٠). وقد أشار إلى هزيمة «دوشرتا» الوالي «ريبادي» في

خطاب من الخطابات التي كان يرسلها للفرعون (٧٥ سطر ٣٦)، وفيه يحذر الفرعون من سطوة «شوبيليوليوما»، وقد كان من نتائج ذلك أن أصبحت الصداقة متينة العرى بين مصر و«متني» فترة من الزمن، ونرى صداها فيما دار من مراسلات بين البلدين في أثناء ذلك.[٣٢] وعلى أية حال نرى فيما بعد أن ملك «خيتا» كان على وئام عظيم مع كل من «متني» وملك «كاشي» (بابل) لدرجة أنهما قد موَّنوا «ريبادي» بالذخائر التي جعلت في استطاعته أن يهزم «عبدي أشرتا» وأولاده،[٣٣] ولكن أولاد «عبدي أشرتا» كان لهم يوم نصرهم لأنهم أصبحوا فيما بعد أقوياء بفضل سلطان الملك القوي، بعد أن أهدوه الذهب والفضة.[٣٤] ولا نزاع في أن عبارة «الملك القوي» تشير هنا إلى ملك «خيتا» أو ملك «متني» غير أن الرأي الأول هو الأفضل.

وتدل شواهد الأحوال على أن «خيتا» كانت دائمًا في عداء مع المصريين وإن كان الفرعون لم يفطن لذلك في كل الأحيان؛ إذ قد حذر من شرهم في كثير من المناسبات، ولا أدل على ذلك مما جاء في خطاب ملك «قبرص» السالف الذكر. يُضاف إلى ذلك أن الخيتيين قد حرَّضوا ملك «أوجاريت» (رأس الشمرة) على أن يهجر الفرعون،[٣٥] وساعدوا قوم «أوبي» في خروجهم على الفرعون،[٣٦] وكذلك أغروا خدمًا وممثلين للفرعون على الانفصال عنه،[٣٧] هذا إلى أنهم كانوا لا يتأخرون متى سنحت لهم الفرصة عن حرق أرض الفرعون وتخريبها،[٣٨] ومع كل ذلك فإن ملك «خيتا» كان لا يتأخر في التحالف مع الفرعون، متى وجد ذلك في مصلحته، ولا أدل على ذلك من أن «شوبيليوليوما» عندما كان العداء بينه وبين «دوشرتا» طلب إلى فرعون مصر أن يجدد العلاقات الودية التي كانت بينه وبين «أمنحتب الثالث» (راجع الخطاب ٤١).

[٣٢] راجع الخطابين ٥٤ سطر ٤٠، ٥٦ سطر ٣٩ … إلخ.

[٣٣] راجع الخطاب ١١٦ سطر ١٧.

[٣٤] راجع الخطاب ١٢٦ سطر ٦٦.

[٣٥] راجع الخطابين ٤٥ سطر ٢٢، ٣٠؛ ١٥١ سطر ٥٥ … إلخ.

[٣٦] راجع الخطاب ٥٤ سطر ٢٩، ٣٣.

[٣٧] راجع ١٩٦ سطر ١٧؛ ١٩٧ سطر ٢٤.

[٣٨] راجع ١٣٦ سطر ٥١؛ ١٧٤ سطر ١١ … إلخ؛ ١٧٥ سطر ١١؛ ١٧٦ سطر ١١.

ومن جهة أخرى كان الخيتيون معادين «لأزيرو»، على الرغم من محالفته لهم على «قطنا» (راجع الخطاب ٥٥)، وكان «أزيرو» يخشى بأس ملك «خيتا» (راجع ١٥٧ سطر ٢٨)، وقد كتب «أزيرو» للفرعون أنه لا يمكنه أن يأتي «لدودو» في البلاط المصري؛ لأن ملك «خيتا» كان في «نوخاشي» (راجع ١٦٥ سطر ١٨، ٣٩؛ ١٦٦ سطر ٢٢؛ ١٦٧ سطر ١١، ٢٠)، ومع كل ذلك فإن «أزيرو» كانت تضطره الأحوال إلى التحالف مع «خيتا» كما فعل ذلك على الأقل في حالة من الحالات (راجع ٥٥)؛ وذلك لأننا نعرف من الخطاب ١٦١ سطر ٤٩ أن الفرعون قد وبخه؛ لأنه استقبل رسل «ملك خيتا»، والظاهر أن جنود «خيتا» كان عليها إقبال عظيم؛ فقد استعملوا في فتح جبيل (٢٦ سطر ٥٩) بقيادة رجل يُدعى «لوباكو»، وهم الذين استولوا على مدينتي «عمقي» و«عادومي» (راجع ١٧٠ سطر ١٤)، كما كانوا مصدر رعب للآموريين (راجع ١٦٥ سطر ٢٠؟ ٣٥٠؛ ١٦٦ سطر ٢٤) ولأهل «تونب» (١٦٥ سطر ٣٩؛ ١٦٦ سطر ٢٥؛ ١٦٧ سطر ٢٣).

والواقع أن أهم رسائل «تل العمارنة» الخاصة بقوم «خيتا» خلافًا لما ذكرناه هما الخطابات الواحد والأربعون، والثاني والأربعون، وكلاهما من ملك «خيتا»، وقد تكلمنا عن أولهما، وهو الذي كتبه «شوبيليوليوما» لملك مصر، ويطلب فيه نفس المصادقة التي كانت بينه وبين الفرعون السابق، وبعد ذلك يعدد لنا الهدايا التي أرسلها لملك مصر، أما الخطاب الآخر ٤٢ فيحتمل أن مرسله هو نفس ملك «خيتا» الذي أرسل الخطاب الأول، وإن كان ذلك ليس محققًا؛ لأن اللوحة مهشمة. والظاهر أن هذا الخطاب يتناول بعض سوء تفاهم كان بين العاهلين، وقد أراد كاتب الخطاب أن ينهي هذا الخلاف، ويقلل من أهميته بإرسال هدية خففت من وطأة غضب الفرعون، وأسدلت عليه ستارًا زينته تلك الهدية.

وعلى أية حال فإن هذين الخطابين على الرغم من أنهما رسالتان تبودلتا بين العاهلين العظيمين فإنهما لم يضيفا الشيء الكثير لمعلوماتنا عن أي واحد منهما. وكل ما استفدناه تاريخيًّا منهما أننا علمنا اسم ملك خيتا «شوبيليوليوما» العظيم، وكذلك عرفنا أن لفظة «نبخوريا» الخيتية تقابل اسم ملك مصر (إخناتون)، وكذلك عرفنا من هذين الخطابين كيف كانت تُرسل التهاني، وكيف كانت تُبعث الرسل، وتعود ثانية بالتحيات والهدايا، كما تضع أمامنا صورة ناطقة عن حرص الملوك على استيفاء التحالف والمصادقة بينهم، وكيف أن «شوبيليوليوما» حكم في عهد كل من الفرعونين «أمنحتب الثالث» و«إخناتون».

وختامًا فإنه على الرغم من ضآلة هذه المصادر التي وجدناها في خطابات «تل العمارنة» عن الخيتيين، فإنا مدينون بالشكر لها؛ إذ لا بد أن تحتل مكانتها يومًا ما في بناء تاريخ حياة أو أخلاق شعب عظيم من شعوب الشرق القديم.

دوَّنا هذه اللمحة العاجلة عن دول الشرق القديم الناشئة وعلاقاتها مع مصر وإمبراطوريتها الضخمة ليتسنى للقراء بها تتبع الحوادث التي سردناها في هذا الجزء من تاريخ مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة من جهة، وليستطيع من جهة أخرى اقتفاء أثر تلك العلاقات والحروب التي نشبت بين مصر و«خيتا» في عهد الأسرة التاسعة عشر عندما أراد فراعنتها استعادة مجد مصر في آسيا بعد أن كاد يُقضى عليه جملة في أواخر عهد إخناتون وأخلافه الضعفاء، لولا أن قيض الله للبلاد نخبة من رجال الحرب العظام اعتلوا عرش مصر متلاحقين، على رأسهم «حور محب»، ثم تلاه ملوك أسرة الرعامسة الذين أسسوا الأسرة التاسعة عشرة، وعلى يدهم استعادت مصر بعض مجدها وعزتها القومية.

مختصر المصادر الإفرنجية

List of Abbreviations

A. A. A: "Annals of Archeology and Anthropology". (Liverpool, 1908–).

A. A. S. O. R: "Annual of the American Schools of Oriental Research". (New-York, 1920–).

A. J. S. L: "The American Journal of Semetic Languages and Literatures". (Chicago, 1884–).

Am: Kundtzon, "Die El-Amarna Taflen". (Leipzig, 1907–1915).

Arundale and Bonomi, "Gallery": Arundale and Bonomi, "Gallery of Antiquities Selected from the British Museum". (London).

A. S: Annales du Service des Antiquities de l'Egypte". (Cairo, 1901–).

A. Z: "Zeitschrift fur Agyptische Sprache und Altertumskunde" (Leipzig, 1863–).

Baikie, "History": Baikie, "A History of Egypt". (London, 1929).

B. A. S. O. R: "Builetin of Schools of Oriental Research". (South Hadly, Mass., 1919).

Benson and Gourlay, "Temple of Mut": Benson and Gourlay, "The Temple of Mut in Asher". (London, 1899).

B. I. F. A. O: "Bulletin de l'institut Française d'Archeologie Orientale". (Cairo, 1901–).

Birch, "Pottery": Birch, "History of Ancient Pottery, Egyptian, Assyrian, Greek, Etruscan and Roman". (London, 1858).

Bisson de la Roque, "Medamoud": Bisson de la Roque, "Les Fouilles de Medamoud", (Cairo).

Boeser, "Levden": Boeser and Holwerda, "Beschreibung der Aegyptischen Sammlung des Niederlandischen Reichmuseums du Altertumer in Leiden". (Copenhagen, 1908–1918).

Borchardt, "Statuen": Borchardt, "Statuen und Statuetten von Konigen und Privalueten". Catalogue General des Antiquities Egyptien du Musee du Caire, (Berlin, 1911–1925).

Breasted, A. R: Breasted, "Ancient Records of Egypt." (Chicago, 1906–1907).

Brugsch, "Thesaurus": Brugsch, "Thesaurus Insciption um Aegyptiacarum". (Leipzig, 1883–1891).

Brugsch, "Recueil": Brugsch and Dumichen, "Recueil de Monuments Egyptiens". (Leipzig, 1865–1885).

Budge. "Guide": Budge, "A Guide to the Egyptian Collections in the British Museum". (London, 1909).

Budge, "Sculpture": Budge, "A Guide to the Egyptian Galleries (Sculpture)", (London, 1909).

Budge, "The Book of Kings": Budge, "The Book of Kings of Ehypt". (London, 1908).

Budge, "History": Budge, "A History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra VII, B. C. 30". (London, 1902).

Champollion, "Notices": Champollion, "Notice Descriptive des Monuments Egyptiens du Musee Charles X." (Paris, 1827).

Champollion, "Letters": Champollion, "Letters à M. Le Duc de Blacas d'Aupls relatives au Muse Royal de Turin". (Paris, 1824).

Corgency of Ramses II: Coregency of Ramses II with Seti I and the Date of the Great Hypostyle Hall at Karnak, By Keith C. Seele.

Davis, "The Tom of Hatshepsut": Davis, "Excavations at Biban el Moluk. The Tomb of Hatshepsut". (London, 1906).

Evans, "Place of Minos": Evans, "The Place of Minos at Knossos". (London, 1921).

Fraser, Coll: Fraser, "A Catalogue of the Scarabs Belonging to G. Fraser", (London, 1900).

Gardiner, "Onomastica": Gardiner, "Ancient Egyptian Onomastica", (Oxford, 1947).

Gardiner and Peet, "Sinai": Gardiner and Peet, "The Inscriptions of Sinai". (London, 1917).

Gardiner and Weigall, "Catalogue": Gardiner and Weigall, "A Topographical Catalogue of the Private Tombs of Thebes". (London, 1913).

Gauthier, "Dict. Geog": Gauthier, "Dictionnaire des Nom Geogradhiques Contenus dans les Textes Hieroglyphiques". (Cairo, 1925).

Griffith, "Kahun Papyri": Griffith, "Hieratic Papyri from Kahum and Gurob". (Loundon, 1898).

Hall, "Catalogue of Scarabs": Hall, "A Catalogue of Scarabs in the British Museum". (London, 1913).

Hall, “Ancient History”: Hall, “The Ancient History of the Near East”. (London, 1920).

J. E. A: “The Journal of Egyptian Archaeology”. (London, 1914–1947).

J. P. O. S: “The Journal of the Palestine Oriental Society”, (1923–).

Helk: Hans Wolfgang Helk; Der Einfluss Militarfuhrer in der 18 Egyptis-chen Dynastie.

Lanzone, “Cat. Turin”: Lanzone, “Catalogue general dei Musei di Anti-chita: Regio Museo di Torino”.

L. D: Lepsius, “Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien”. (Berlin, 1894).

Legrain, “Statues”: Legrain, “Statues et Statuettes de Rois et de Partic-uliers” Catalogue General des Antiquities Egyptiens du Musee du Caire. (Cairo, 1906–1914).

Legrains, “Repertoire”: Legrain, “Repertoire Geneologique et Onomas-tique du Musee Egyptien du Caire”. (Geneva, 1908).

Lepsius, “Auswahl”: Lepsius, “Auswahl der Wichtigsten Urkunden des agyptischen Altertums” (Lepzig, 1842).

Lepsius, “Letters”: Lepsius, “Letters from Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai”. (London, 1853).

Leiblien, “Dict. Noms”: Lieblien, “Dictionnaire des Noms Hiero-glyphiques en ordre Genealogique et Alphabetique”. (Christiania, 1871).

Macailister, “Gerza”: Macailister, “The Excavation of Gerza”. (London, 1912).

Mariette, “Abydos”: Mariette, “Catalogue General des Monuments d’Abydos Decouverts Pendan les Fouilles de cette Ville”. (Paris, 1880).

Mariette, "Abydos II.": Mariette, "Abydos. Description des Fotilles Executees sur l'Emplacement de cette Ville". (Paris, 1869–1880).

Mariette, "Monuments": Mariette, "Monuments Dilers Recueilles en Egypt et en Nubie". (Paris, 1889).

Maspero, "Bib. Egypt": Maspero, "Bibliotheque Egyptologique", OVII. (Paris, 1904).

Maspero, "Temples Immerges": Maspero, "Les Temples immerges de la Nubie Fapports relatifes à la Consolidation des Temples". (Cairo, 1909–1911).

Maspero, "Guide": Maspero, "Guide du Visiteur au Muse du Caire". (Cairo, 1915).

Maspero, "Momies Royales": Maspero, "Les Momies Royales de Deir el Bahari". (Paris, 1889).

Maspero, "Melanges d'Arch": Maspero, "Melanges d'Archeologie Egyptien".

Massi, "Description": Massi, "Description des Musees de Sculpture Antique Greque et Romaine. Musee du Vatican". (Rome, 1891).

Mem. Miss. Franç: Memoires Publiés par les Membres de la mission Archeologiques Française au Caire.

Mercer, "Amarna": Mercer, "The Tell el Amarna Tablets". (Toronto, 1939).

Meyer, "Gesch": Meyer, "Geschichte des Altertums". (Stuttgart, 1928).

Meyer, "Hist. de l'Antiq": Meyer, "Histoire de l'Antiquite". (Paris, 1912–1926).

M. M. A: "The Bulletin of the Metropolitan Museum of Art". (New York, 1909).

Morgan (De), "Cat. Mon.": Morgan (De), "Catalogue des Monuments et Inscriptions de l'Egypte Antique". (Vienna, 1894–1909).

Murray, "Handbook": Murray, "Handbook of Travellers in Egypt". (London, 1880).

Newberry, "Timins Collection": Newberry, "The Timins Collection of Ancient Egyptian Scarabs and Cylinder Seals". (London, 1907).

O. I. P: "The Chicago University.The Oriental Institute. The Oriental Institute Publications". (Chicago, 1924–).

"Paintings": Davies, "Paintings from the Tomb of Rekh-mi-Re at Thebes". (New York, 1935).

Petrie, "Scarabs": Petrie, "Scarabs and Cylinders". (London, 1917).

Petrie, "Six Temples": Petrie, "Six Temples at Thebes, 1896". (London, 1897).

Petrie, "Illahun": Petrie, "Illahun, Kahun and Gurob" (London, 1890).

Petrie, "Hist. Scarabs": Petrie, "Historical Scarabs". (London, 1927).

Petrie, "History": Petrie, "A History of Egypt". (London, 1927).

Petrie, "Season": Petrie, "A Season in Egypt, 1887". (London, 1888).

Petrie, "Kahun": Petrie, "Kahun, Gurob and Hawara". (London, 1890).

Petrie, "H. I. C.": Petrie, "Hyksos and Israelite Cities". (London, 1906).

P. E. F. Q. S: "The Palestine Exploration Fund Quarterly Statment". (London, 1869–).

Piehl, "Recueil": Piehl, "Inscriptions Hieroglyphiques recueillies en Europe et en Egypt". (Stockholm, 1886–1903).

Pierret, "Rec. d'Inscriptions": Pierret, "Recueil d'Inscriptions Inedites du Musee Egyptien du Louvre". (Paris, 1874–1878).

Porter and Moss, "Bibliography I": Porter and Moss, "Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Inscriptions, Texts, Reliefs and Paintings", I. "The Theban Necropolis" (Oxford, 1921).

Porter and Moss, "Bibliography II": "The Theban Temples". (Oxford, 1929).

Porter and Moss, "Bibliography III": "Memphis" (Oxford, 1931).

Porter and Moss, "Bibliography IV": "Lower and Middle Egypt". (Oxford, 1934).

Porter and Moss, "Bibliography V": "Upper Egyptian Sites". (Oxford, 1937).

P. S. B. A: "The Proceedings of the Society of Biblical Archaeology". (London, 1979–1918).

R. E. A: "Revue de l'Egypte Ancienne". (Paris, 1929).

Rec. Trav: "Recueil de Travaux Relatifs à la Philologie et à l'Archeologie Egyptiennes et Assyriennes". (Paris, 1870–1923).

Rev. d'Arch: "Revue d'Archeologie".

Rouge (De), "Monuments": Rouge (De), "Notice de Monuments Exposés dans la Galerie d'Antiquties Egyptiennes au Musee du Louvre". (Paris, 1885).

S. A. O. C: "Chicago University. The Oriental Institute. Studies in Oriental Civilization". (Chicago, 1931–).

Schafer. "Aeg. Insch. Berlin": Schafer, "Aegyptische Inschriften aus den Koniglichen Museen zu Berlin". (Leipzig, 1924).

Schiaparell, "Catalogue": Schiaparelli, "Catalogue Generale dei Musei di Antichita di Firenze". (Rome, 1887).

Sethe, "Das Hatschepsut–Problem": Sethe, "Das Hatschepsut–Problem noch Einmal untersucht". (Berlin, 1932).

Sethe, "Untersuchungen": Sethe, "Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens". (Leipzig, 1896–1917).

Sethe, "Urkunden IV, or Urk. IV": Sethe, "Urkunden des Agyptischen Altertums". (Leipzig, 1906–1914).

Sethe, "Pyramidentexte": Sethe, "Die Altagyptischen Pyramidentexte". (Leipzig, 1908–1922).

Sethe, "Achtung": Sethe, "Die Achtung feindlicher Fursten Volker und Dinge auf altagyptischen Tongeffasscherben des Mittleren Reiches". (Preussische Akademie der Wissenschaften Philos–Hist. Klass, 1926).

Sharpe, "inscriptions": Sharpe, "Egyptian inscriptions". (London, 1837–1855).

V. S: Vorderasiatische texte. Berlin.

W. B: Erman and Grapow, "Wörterbuch der Aegyptischen Sprache". (Leipzig, 1925).

Weigall, "Guide": Weigall, "A Guide to the Antiquities of Upper Egypt". (London, 1913).

Weigall, "History": Weigall, "A History of the Pharaohs". (London, 1925).

Weigall, "Lower Nubia": Weigall, "A Report on the Antiquities of Lower Nubian 1906–1987". (Oxford, 1907).

Weil, "Veziere": Weil, "Die Veziere des Pharaonenreiches". (Leipzig, 1908).

Wiedmann, "Geschichte": Wiedemann, "Agyptische Geschichte". (Gotha, 1884).

Wiedemann, "Kleinere Agypt. Insc.": Wiedemann. "Kleinere Inschriften aus der XIII–XIV Dynasie". (Bonn, 1891).

Wilkinson, "Thebes": Wilkinson, "Topography of Thebes and General View of Egypt". (London, 1835).

Winlock, "Dier el Bahri": Winloek, "Excavations at Dier el Bahri". (1943).

Wreszinski, "Atlas": Wreszinski, "Atlas zur Altagyptishen Kulturgeschichte", (Leipzig, 1923–1936).

W. D. V. O. G: "Deutsche Orient-Gesellschaft, Berlin Wissenschaftliche Veroflentlichungen". (Leipzig, 1900–).

كتب للمؤلف (بالعربية)

(١) مصر القديمة: الجزء الأول في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الإهناسي.

(٢) مصر القديمة: الجزء الثاني في مدينة مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الإهناسي.

(٣) مصر القديمة: الجزء الثالث في العصر الذهبي في تاريخ الدولة الوسطى ومدنيتها وعلاقتها بالسودان والأقطار الآسيوية ولوبيا.

(٤) مصر القديمة: الجزء الرابع في عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية.

(٥) مصر القديمة: الجزء الخامس في السيادة العالمية والتوحيد ويبحث في علاقات مصر مع ممالك آسيا وسيادة مصر عليها، وأول عقيدة للتوحيد بالله.

(٦) جغرافية مصر القديمة: (محلاة بإحدى وأربعين خريطة).

(٧) الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة: الجزء الأول في القصص والحكم والتأملات والرسائل.

(٨) الأدب المصري القديم وأدب الفراعنة: الجزء الثاني في الدراما والشعر وفنونه.

(٩) تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر: بالاشتراك مع عمر الإسكندري.

(١٠) تاريخ أوروبا الحديثة وحضارتها: (جزءان) بالاشتراك مع عمر الإسكندري.
(١١) صفوة تاريخ مصر والدول العربية: (جزءان) بالاشتراك مع عمر الإسكندري.
(١٢) تاريخ دولة المماليك في مصر: (تعريب) بالاشتراك مع محمود عابدين.
(١٣) ديانة قدماء المصريين: (تعريب).
(١٤) صفحة من تاريخ محمد علي: (تعريب) بالاشتراك مع طه السباعي.

بالفرنسية

(1) “Hymnes Religieux du Moyen Empire”; 199 Pages (1928, Cairo).

(2) “Le Poem dit de Pentaour et le Rapport Officiel sur la bataille de Qadesh”. 162 plaies. Université Egyptienne, Faculté des Lettres. (1929, Cairo).

بالإنجليزية

(1) “Excavations at Giza”, Vol. I. (1929–1930); 119 Pages, 81 plates, 187 illustrations in the text, Plan (Oxford, 1932).

(2) “Excavations at Giza”, Vol. II. (1930–1939); 255 pages, 83 plates 251 illustrations in the text, 2 plans (Cairo, 1936).

(3) “Excavations at Giza”, Vol. III. (1931–1932); 229 pages, 71 plates, 227 illustrations in the text, 2 plans (Cairo, 1941).

(4) “Excavations at Giza”, Vol. IV, (1932–1933); 218 pages, 62 plates, 159 illustrations in the text, 3 plans (Fourth Pyramid) (Cairo, 1943).

(5) “Excavations at Giza”, Vol. V. (1933–1934); 325 pages, 79 plates, (3 coloured), 169 illustrations in the text, 2 plans (Cairo, 1944).

(6) “Excavations at Giza”, Vol. VI, Part I, The Solar Boats. (1934–1935); (Cairo, 1947).

(7) “Excavations at Giza”, Vol. VI, Part II, The Offering–list in the Old Kingdom, 504 pages, 174 plates, and numerous illustrations in the text, (Cairo, 1948).

(8) “Excavations at Giza”, Vol. VI, Part III, A Description of the Mastabas and their Contents, (in the Press).


هنداوي